



انتقام الجغرافيا

ما الذي تُخبرنا به الخرائط عن الصراعات
المقبلة وعن الحرب ضد المصير

تأليف: روبرت د. كابلان

ترجمة: د. إيهاب عبد الرحيم علي



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

علم للعرف

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

انتقام الجغرافيا

ما الذي تُخبرنا به الخرائط عن الصراعات
المقبلة وعن الحرب ضد المصير

تأليف: روبرت د. كابلان

ترجمة: د. إيهاب عبد الرحيم علي



يناير 2015

420

علم للعفت

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

أسسها
أحمد مشاري العدواني
د. فؤاد زكريا

المشرف العام
م. علي حسين البروجة

مستشار التحرير
د. محمد غانم الرميحي
rumalhim@outlook.com

هيئة التحرير
أ. جاسم خالد السعيدون
أ. خليل علي حيدر
د. علي زيد الزعبي
أ. د. فريدة محمد العوضي
أ. د. ناجي سعود الزيد

مديرة التحرير
شروق عبدالمحسن مظفر
a.almarifah@nccalkw.com

سكرتيرة التحرير
عالية مجيد الصراف

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي :
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب. 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون : 22929492 (965)
فاكس : 22929412 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنفيذ والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 440 - 5

رقم الإيداع (2014/866)

العنوان الأصلي للكتاب

The Revenge of Geography

What the Map Tells Us About Coming Conflicts
and the Battle Against Fate

By

Robert D. Kaplan

Random House, New York 2012

THE REVENGE OF GEOGRAPHY by Robert D. Kaplan. Copyright ©
2012 by Robert Kaplan. By arrangement with the author. All rights
reserved.

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

ربيع الأول 1436 هـ - يناير 2015

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

9	مقدمة: الحدود
19	الجزء الأول الحالمون الفصل الأول: من البوسنة إلى بغداد
21	الفصل الثاني: انتقام الجغرافيا
43	الفصل الثالث: هيرودوت وخلفاؤه
59	الفصل الرابع: خريطة أوراسيا
83	الفصل الخامس: نشوية النازية
103	الفصل السادس: فرضية الأرض المحيطة
113	الفصل السابع: جاذبية القوة البحرية
129	

	الفصل الثامن:
141	«أزمة المتسع»
	الجزء الثاني
159	خريطة أوائل القرن الحادي والعشرين
	الفصل التاسع:
161	جغرافية التقسيمات الأوروبية
	الفصل العاشر:
187	روسيا والمنطقة المركزية المستقلة
	الفصل الحادي عشر:
225	جغرافية القوة الصينية
	الفصل الثاني عشر:
271	معضلة الهند الجغرافية
	الفصل الثالث عشر:
303	المحور الإيراني
	الفصل الرابع عشر:
337	الإمبراطورية العثمانية السابقة
	الجزء الثالث
369	مصير أمريكا
	الفصل الخامس عشر:
371	بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى
405	الهوامش

الحدود

مقدمة

ثمة مكان جيد لفهم الحاضر، ولطرح الأسئلة
حول المستقبل، وهو أديم الأرض، مع السفر
فوقها بأبطأ ما يمكن.

عندما ظهرت في الأفق الثلة الأولى من التلال
المقبّبة، والممتدة صعوداً من الصحراء المستوية
في شمال العراق، لتنتهي في سلاسل من القمم
الجبلية التي يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم
والمكسوة بأشجار البلوط والرماد الجبلي، ألقى
سائقي الكردي نظرة إلى الورا على السهل
الفسيح المنبسط، وهو يمص لسانه بازدياء، وقال:
«عربستان»، ثم غمغم - وهو ينظر باتجاه التلال
- قائلاً: «کردستان»، ومن ثم تهلّل وجهه. كان
ذلك في العام 1986، في ذروة العهد الخانق لصدام
حسين، ومع ذلك فبمجرد أن اخترقنا مزيداً من

«أقنعتني التقارير التي كتبها على
مدى أكثر من ثلاثة عقود بأننا
جميعاً في حاجة إلى استعادة إدراكنا
للزمان والمكان، الذي ضاع في عصر
الطائرة النفاثة وثورة المعلومات»

المؤلف

الوديان الشبيهة بالسجون والصدوع المنيعه، اختفت فجأة اللوحات الضخمة التي تحمل صور صدام، والتي كانت معلقة في كل مكان، وكذلك اختفى الجنود العراقيون. أما من حل محلهم فهم البشمركة peshmergas الأكراد الذين يحملون أحزمة الكتف العريضة، ويعتمرون العمام ويرتدون السراويل الفضفاضة وأحزمة الخصر العريضة. ووفقا للخريطة السياسية، فلم نكن قد غادرنا دولة العراق قط. لكن هذه الجبال كانت قد وضعت حدا لحكم صدام حسين، وهي حدود لم يُتغلب عليها إلا باتباع الأشد تطرفا من التدابير.

في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وبسبب غضبه من الحرية التي منحتها هذه الجبال للأكراد على مدى عقود وقرون، قرر صدام في النهاية شن هجوم واسع النطاق على كردستان العراق، في حملة الأنفال الشائنة التي أسفرت عن مقتل ما يقدر بنحو 100 ألف من المدنيين. من الواضح أن الجبال لم تكن محدّدة؛ لكنها عملت بالفعل بمنزلة ستارة خلفية - أو الحقيقة الأصلية - لهذه الدراما المأساوية. وبسبب هذه الجبال، انفصلت كردستان الآن فعليا عن الدولة العراقية إلى حد كبير.

تمثل الجبال قوة واقية، فكثيرا ما توفر الحماية ضمن ممراتها الضيقة لحضارات الشعوب الأصلية ضد أيديولوجيات العصرنة الشرسة التي كثيرا ما ابتليت بها السهول، على الرغم من أنها وفرت في عصرنا الحاضر ملاذا للمقاتلين الماركسيين وكارتلات (عصابات) المخدرات⁽¹⁾. في هذا السياق، كتب عالم الأنثروبولوجيا بجامعة ييل، جيمس سي سكوت Scott قائلا: «يمكننا فهم شعوب التلال بأفضل صورة باعتبارها مجتمعات من الهاربين، المطاريد، الأبقين الذين ظلوا على مدى ألفي سنة يفرون من الاضطهاد الذي تمثله مشروعات صنع الدول في الوديان»⁽²⁾، لأن السهول كانت هي المكان الذي أنشأ فيه النظام الستاليني لنيكولاي تشاوشيسكو Ceausescu أنيابه في عموم السكان. وخلال صعودي جبال الكاربات عدة مرات في ثمانينيات القرن العشرين، رأيت علامات قليلة على العمل الجماعي collectivization. تتحدد هذه الجبال التي تمثل الباب الخلفي لوسط أوروبا بالمساكن المصنوعة من الخشب والحجر الطبيعي أكثر مما تتحدد بكتل الخرسانة والحديد الخردة، وهي العناصر المادية المفضلة للشيوعية الرومانية.

إن جبال الكاربات المحيطة برومانيا ليست أقل من جبال كردستان من حيث كونها حدودا. وعند دخولي منطقة الكاربات من جهة الغرب، من سهول بوسطا Puszta

المجرية الجرداء والخابية على نحو مهيب، والتي تميزها تربة فاحمة السواد وأمواج من العشب الأخضر الليموني، شرعت في مغادرة العالم الأوروبي للإمبراطورية النمساوية - المجرية السابقة، حيث شقت طريقي تدريجيا إلى الأراضي الأفقر اقتصاديا من الإمبراطورية التركية العثمانية السابقة. وفي نهاية المطاف، ما مكن الاستبداد الشرقي لتشاوشيسكو، والذي كان أكثر قمعية بكثير من الشيوعية العشوائية في المجر، هو استحکامات جبال الكاربات.

ومع ذلك، لم تكن جبال الكاربات منيعة على الاختراق، فقد ازدهر التجار طوال قرون في ممراتها العديدة، حيث هم حملة السلع والثقافة الرفيعة، بحيث يمكن أن يترسخ بعيدا عنها مظهر مؤثر لأوروبا الوسطى، في مدن وبلدات مثل بوخارست وروسة Ruse لكن الجبال كانت تشكل تدرجا لا يمكن إنكاره، وهو الأول في سلسلة ممتدة باتجاه الشرق، والتي تنتهي أخيرا في الصحراء العربية وصحراء كارا كوم Kara Kum. وفي العام 1999، ركب سفين شح طوال الليل من العاصمة الأذربيجانية باكو، الواقعة على الجانب الغربي من شاطئ بحر قزوين، إلى ميناء كراسنوفودسك Krasnovodsk في تركمانستان، والذي يقع على الشاطئ الشرقي، وهو بداية ما أطلق عليه الساسانيون الفرس في القرن الثالث الميلادي اسم تركستان Turkestan. استيقظت لأجد نفسي عند خط ساحلي ضيق يضم عددا من البيوت الصغيرة البيضاء مقابل منحدرات بلون الموت الطيني. صدرت الأوامر لجميع الركاب بالاصطفاف في رتل واحد تحت درجة حرارة تقترب من 38 مئوية أمام بوابة تفتيش لا يوجد فيها سوى شرطي وحيد عمد إلى فحص جوازات سفرنا. وبعد ذلك مررنا إلى سقيفة جرداء حارقة، حيث اتهمني شرطي آخر بتهريب المخدرات، عندما اكتشف أقراص بييتو - بيسمول الذي أتناوله لعلاج الحموضة. أخذ الشرطي مصباحي اليدوي وأفرغ بطارياته التي تبلغ شحنتها 1.5 فولت على الأرض الترابية. كانت تعبيرات وجهه قائمة ووحشية مثل المنظر الطبيعي المحيط بنا. كانت البلدة التي تلوح على مبعدة من السقيفة عديمة الظل ومسطحة بشكل يبعث على الكآبة، مع القليل من التلميح للمعمارية على وجود ثقافة مادية. شعرت فجأة بالحنين إلى باكو، بما تحتويه من الجدران الفارسية التي تعود إلى القرن الثاني عشر وقصور الأحلام التي بناها بارونات النفط الأوائل، والتي تزينها الأفاريز ومائيل الجرغول gargoyles، مما يعطي مظهرا خادعا للغرب، والذي - على الرغم من جبال الكاربات،

والبحر الأسود، وجبال القوقاز الشاهقة - يرفض أن يموت تماما. وعندما ارتحلت شرقا، تبخرت أوروبا بالتدريج أمام عيني، حيث أشارت الحدود الطبيعية المتمثلة في بحر قزوين إلى المرحلة الأخيرة، التي تدل على بلوغنا صحراء كارا كوم.

وبطبيعة الحال، لا تظهر الجغرافيا الحالة اليائسة لتركمانستان. وبدلا من ذلك، فهي لا تدل إلا على بداية الحكمة في البحث عن مُط تاريخي: ذاك المتعلق بالغزوات المتكررة من قبل البارثيين Parthians، والمغول، والفرس، والروس في أثناء الحقبة القيصريّة، والسوفييت، ومجموعة كبيرة من القبائل التركية في مقابل طبيعة جرداء غير محمية. لم يكن هناك سوى الحد الأدنى من الوجود لأي حضارة، لأن أيا منها لم تُتَح له فرصة غرس جذور عميقة على نحو دائم، وهو ما يساعد في تفسير انطباعاتي الأولى عن المكان.

ارتفع مستوى الأرض أثناء صعودنا إلى الأعلى، فما بدا قبل لحظات ككتلة واحدة من الحجر الرملي قد تفكّك إلى متاهة من قيعان الأنهار المجوّفة والمنعطفات التي تعكس ظللا من اللونين الرمادي والكاكي. وعلى قمة كل تلة، كانت هناك أرض سبخة منخفضة تكتسب لونا أحمر أو مائلا إلى الأصفر عندما تسقط أشعة الشمس على المنحدرات العليا الشاهقة من زاوية مختلفة. اخترقت الحافلة نسمات من الجو البارد، وهي أول نفحات أتلقاها من هواء الجبال النقي بعد الغلاف الرقيق من الحرارة الذي يميز مقاطعة بيشاور Peshawar الحدودية في شمال غرب باكستان⁽³⁾. وفي حد ذاتها، فإن أبعاد ممر خيبر ليست بالملهشة، إذ يقل ارتفاع أعلى قممه عن سبعة آلاف قدم، كما أن الارتفاع نادرا ما يكون حادا. ومع ذلك، فخلال أقل من ساعة في العام 1987، انتقلت عبر عالم بركاني سفلي محصور من الصخور والوديان المتعرجة؛ من الأرضية الاستوائية المورقة لشبه القارة الهندية إلى القفار الباردة الجرداء لوسط آسيا، من عالم من التربة السوداء، والأقمشة ذات الألوان الزاهية، والمطبخ الحار والغني، إلى عالم آخر من الرمال، والصوف الخشن، ولحم المعز.

ولكن مثل منطقة جبال الكاربات، التي اخترق التجار ممراتها، فإن جغرافية الحدود بين أفغانستان وباكستان تقدم لنا دروسا مختلفة: فما كان البريطانيون أول من أطلق عليه اسم «الحدود الشمالية الغربية» من الناحية التاريخية، ليس حدودا على الإطلاق وفقا للأستاذة في جامعة هارفارد سوجاتا بوس، لكنه يمثل القلب «من متصل» continuum

«هندو - إيراني» و«هندو - إسلامي»، وهو سبب كون أفغانستان وباكستان تمثلان كلاً عضويًا واحدًا، والذي يسهم في عدم تماسكهما الجغرافي كبليدين منفصلين⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك مزيد من الحدود المصطنعة: لقد عبرت جدار برلين إلى برلين الشرقية مرتين، في العامين 1973 و1981. كان الحاجز الخرساني الذي يبلغ ارتفاعه اثنتي عشرة قدماً، والذي يعلوه أنبوب واسع، يقطع منظراً شبيهاً بأفلام الأسود والأبيض من أحياء المهاجرين التركية واليوغوسلافية الفقيرة على جانب ألمانيا الغربية، والمباني المهجورة التي لاتزال جدرانها تحمل آثار قذائف الحرب العالمية الثانية على جانب ألمانيا الشرقية. كان في وسعك تسلق الجدار ولمس أي جزء منه تقريباً على الجانب الغربي، حيث كانت الكتابة على الجدران graffiti، أما حقول الألغام وأبراج الحراسة فكانت جميعها تقع على الجانب الشرقي.

وبقدر السريالية التي بدا عليها في ذلك الوقت فناء السجن هذا، والمكون من تضاريس حضرية، فلا يسع المرء أن يتشكك فيه إلا من الناحية الأخلاقية؛ لأن الافتراض المهيمن على هذا العصر هو أن الحرب الباردة لم تنته بعد. وبصفة خاصة بالنسبة إلى أمثالي، الذين نشأوا خلال فترة الحرب الباردة لكنهم لا يمتلكون أي ذكريات على الإطلاق من الحرب العالمية الثانية، فإن السور - مهما كان وحشياً واعتباطياً - قد بدا سرمدياً مثل سلسلة من الجبال. لم تظهر الحقيقة إلا من خلال الكتب والخرائط التاريخية لألمانيا التي شرعت - بالمصادفة المحضة - في الاطلاع عليها خلال الأشهر الأولى من العام 1989، عندما كنت في زيارة إلى بون لتغطية موضوع لإحدى المجلات. كانت لدى الكتب والخرائط قصة لترويها: في أثناء احتلالهم لقلب أوروبا بين بحر الشمال وبحر البلطيق وجبال الألب، فإن الألمان، وفقاً للمؤرخ غولو مان Mann، كانوا دائماً مثل قوة ديناميكية محبوسة ضمن «سجن كبير»، يرغبون في الخروج منه. ولكن بسبب انسداد جهتي الشمال والجنوب بفعل المياه والجبال، فإن الخروج يعني الاتجاه شرقاً وغرباً، حيث لا توجد عوائق جغرافية. «إن ما ميّز الطبيعة الألمانية طوال مائة عام هو افتقارها إلى الشكل، وعدم موثوقيتها»، هذا ما كتب مان، في إشارة إلى الفترة المضطربة بين ستينيات القرن التاسع عشر وستينيات القرن العشرين، التي تميزت أيضاً بتوسع أوتو فون بسمارك Bismarck والحربين العالميتين⁽⁵⁾. لكن الأمر نفسه يمكن أن يقال على حجم ألمانيا وشكلها على الخريطة طوال تاريخها.

وفي الواقع، كان الرايخ الأول، الذي أسسه شارلمان Charlemagne في العام 800، بمنزلة فقاعة متنقلة هائلة من الأراضي التي شملت، في وقت أو آخر، النمسا وأجزاء من سويسرا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وبولندا، وإيطاليا، ويوغسلافيا. بدا أن أوروبا في سبيلها إلى أن تُحكم انطلاقاً مما يتوافق الآن مع ألمانيا. ولكن بعد ذلك جاء مارتن لوثر Martin Luther، الذي انشق عن المسيحية الغربية بحركة الإصلاح، وهو الأمر الذي أشعل بدوره شرارة حرب الثلاثين عاماً، التي دارت رحاها على التراب الألماني في المقام الأول؛ وبالتالي، جرى اغتصاب أوروبا الوسطى. وكلما تعمقت في القراءة - عن التزاوج الذي وقع في القرن الثامن عشر بين بروسيا والنمسا تحت حكم آل هابسبورغ، وعن الاتحاد الجمركي في القرن التاسع عشر بين العديد من الولايات الألمانية، وحركة التوحيد التي قادها بسمارك في أواخر القرن التاسع عشر انطلاقاً من بروسيا - صار من الواضح أكثر أن جدار برلين كان مجرد مرحلة أخرى ضمن هذه العملية المستمرة من التحول الإقليمي.

إن الأنظمة التي انهارت بعد وقت قصير من سقوط جدار برلين في تشيكوسلوفاكيا، والمجر، ورومانيا، وبلغاريا، وفي بلدان أخرى - كانت بلدانا عرفت من كتب من خلال العمل والسفر. للوهلة الأولى، كانت تبدو منيعة للغاية، ومثيرة لقدر هائل من الخوف، لذا كان انهيارها المباغت بمنزلة درس مَعْلَمٍ بالنسبة إليّ، ليس فقط بخصوص عدم الاستقرار الكامن في جميع الأنظمة الديكتاتورية، ولكن حول كيف أن الحاضر، مهما بدا سمردياً وساحقاً، هو زائل لا محالة. أما الشيء الوحيد الثابت فهو موقع شعب ما على الخريطة. وهكذا، ففي أوقات الاضطرابات، تزداد أهمية الخرائط. ومع تغير الأرضية السياسية تحت أقدامنا بسرعة، فإن الخريطة - على الرغم من أنها ليست محدّدة - فهي تمثل بداية استبصار أي منطق تاريخي حول ما يمكن أن يحدث لاحقاً.

كان العنف هو الانطباع السائد عن المنطقة المنزوعة السلاح DMZ بين الكوريتين. وفي العام 2006، رأيت الجنود الكوريين الجنوبيين يقفون متجمدين في أوضاع الاستعداد لممارسة التايكوندو، حيث كانت قبضتا وساعدا كل منهم مضمومة وهم يحدقون في وجوه نظرائهم من جنود كوريا الشمالية. وللقيام بهذه المهمة، انتقى كل جانب أطول جنوده وأكثرهم إثارة للرعب. لكن الكراهية المعروضة رسمياً وسط الأسلاك الشائكة وحقول الألغام يُحتمل أن تُصبح تاريخاً في المستقبل المنظور. فعندما ننظر إلى سيناريوهات تقسيم البلدان الأخرى في القرن العشرين - مثل ألمانيا، وفيتنام، واليمن

- يتضح أنه مهما طال التقسيم، فإن قوى الوحدة الوطنية ستنتصر في نهاية المطاف، بطريقة غير مخطط لها وأحيانا عنيفة ومتسارعة الخطى. إن المنطقة المنزوعة السلاح، مثل جدار برلين، تمثل حدودا اعتبارية لا تستند إلى أي منطق جغرافي، والتي تقسم أمة عرقية عند نقطة اتفق أن يتوقف عن القتال عندها جيشان متحاربين. وبالطريقة نفسها التي جرت بها إعادة توحيد ألمانيا، يمكننا أن نتوقع، أو على الأقل ينبغي أن نخطط لقيام كوريا كبرى موحدة. ومرة أخرى، فمن المرجح أن تسود قوى الثقافة والجغرافيا عند نقطة ما. إن الحدود التي يصنعها البشر، والتي لا تتوافق مع منطقة من الحدود الطبيعية، تكون غير حصينة على نحو خاص.

عبرت أيضا الحدود البرية من الأردن إلى إسرائيل، ومن المكسيك إلى الولايات المتحدة: وسأتحدث أكثر عن هذه الحدود وغيرها في أجزاء لاحقة من الكتاب. أما الآن، فأود أن أصطحبكم في رحلة أخرى - من نوع مختلف جذريا - عبر صفحات مختارة من التاريخ والعلوم السياسية، والتي بقيت صامدة طوال عقود، بل قرون في بعض الحالات، والتي سيتيح لنا تركيزها على الجغرافيا قراءة خريطة التضاريس [الخريطة المجسمة relief map] على نحو أفضل؛ ومن خلال ذلك، ستساعدنا على إلقاء لمحة خاطفة، على الرغم من كونها غير واضحة المعالم، على ملامح السياسة المستقبلية. إن الفعل نفسه - المتمثل في عبور عديد من الحدود - هو ما أثار فضولي العميق حول مصير الأماكن التي مررت عبرها.

أقنعتني التقارير التي كتبتها على مدى أكثر من ثلاثة عقود بأننا جميعا في حاجة إلى استعادة إدراكنا للزمان والمكان، الذي قد ضاع في عصر الطائفة النفائثة وثورة المعلومات، حيث تمكنت نخبة صنّاع الرأي العام من التنقل عبر المحيطات والقارات خلال ساعات، مما يسمح لهم بالتحدث بفصاحة عما وصفه الصحافي المتميز بصحيفة «نيويورك تايمز» توماس فريدمان Friedman باسم «العالم المسطح». وبدلا من ذلك، فسأعرض على القراء مجموعة من المفكرين غير العصريين من دون ريب، والذين يناهضون بشدة فكرة أن الجغرافيا لم تعد مهمة. وسأتناول أفكارهم بشيء من التعمق في النصف الأول من هذه الرحلة من أجل تطبيق حكمتهم في النصف الثاني منها، من حيث ما وقع وما يمكن أن يحدث في جميع أنحاء أوراسيا - من أوروبا إلى الصين، بما في ذلك الشرق الأوسط الكبير وشبه القارة الهندية. إن معرفة ما قد فقد بالتحديد من

رؤيتنا للواقع المادي، واكتشاف كيف فقدناه، ومن ثم استعادته من خلال إبطاء وتيرة سفرنا ومن خلال الملاحظة ذاتها - عن طريق الاستفادة من المعارف الواسعة للعلماء الذين صاروا الآن في رحاب الله: هذا هو الهدف من هذه الرحلة.

إن الجغرافيا، المشتقة من كلمة يونانية تعني في الأساس «وصف الأرض»، ترتبط في كثير من الأحيان بالإيمان بالجبرية fatalism، وبالتالي فهي موصومة: فالتفكير جغرافيا يعني تقليص الخيارات البشرية، كما يُقال. ولكن من خلال دراسة أدوات مثل خرائط الإغاثة والدراسات السكانية، أود فقط أن أضيف طبقة أخرى من التعقيد على التحليلات التقليدية للسياسة الخارجية، وبالتالي إيجاد وسيلة أعمق وأقوى للنظر إلى العالم. ليس عليك أن تكون مؤمنا بالاحتمية الجغرافية لكي تدرك أن الجغرافيا تمتلك أهمية حيوية. وكلما ازداد انشغالنا بالأحداث الجارية، ازدادت أهمية الأفراد واختياراتهم؛ ولكن كلما ازداد تدبرنا لما وقع في القرون الغابرة، ازداد اقتناعنا بأن الجغرافيا تؤدي دورا مهما.

يُعد الشرق الأوسط مثالا حيا على ذلك. في أثناء كتابتي لهذه السطور، كانت المنطقة من المغرب إلى أفغانستان واقعة في خضم أزمة تتعلق بالسلطة المركزية. لقد صار النظام القديم المكوّن من الأنظمة الاستبدادية واهيا، على الرغم من كون الطريق نحو ديمقراطية مستقرة لا يزال ملتويا. تميزت المرحلة الأولى من هذا الاضطراب الشديد بهزيمة الجغرافيا بفعل تقنيات الاتصالات الجديدة. عملت القنوات الفضائية والشبكات الاجتماعية عبر الإنترنت على خلق مجتمع واحد من المتظاهرين في جميع أنحاء العالم العربي: بحيث استلهم دعاة الديمقراطية في أماكن متباعدة مثل مصر، واليمن، والبحرين ما بدأت شرارته في تونس. وبالتالي، كان هناك عدد من القواسم المشتركة في الأوضاع السياسية في كل هذه البلدان. ولكن مع تواصل الثورة، بات واضحا أن كل بلد قد صاغ روايته الخاصة لها، والتي تتأثر بدورها بتاريخه العميق وبجغرافيته المتميزة. وكلما ازدادت معرفة المرء بتاريخ وجغرافية أي دولة بعينها في الشرق الأوسط، تناقص اندهاشه من مسار الأحداث هناك.

قد يكون من قبيل المصادفة جزئيا فقط أن بدأت الاضطرابات في تونس. تُظهر خريطة العصور الكلاسيكية القديمة تركزا للمستوطنات في الموقع الذي تحتله تونس اليوم، جنبا إلى جنب مع الفراغ النسبي الذي يميز ما صار اليوم الجزائر وليبيا. ولكونها

تمثل لسانا ناتئا في البحر الأبيض المتوسط قريبا من صقلية، كانت تونس هي المركز الديموغرافي لشمال أفريقيا ليس فقط في ظل القرطاجيين والرومان، ولكن تحت حكم الوندال Vandals، والبيزنطيين والعرب خلال العصور الوسطى، والأتراك. وفي حين كانت الجزائر الواقعة إلى الغرب منها وليبيا جارتها من الشرق مجرد تعبيرات جغرافية غامضة، كانت تونس تمثل عنقودا من الحضارة القديمة العهد. (أما بالنسبة إلى ليبيا، فقد كانت منطقتها الغربية المتمثلة في إقليم طرابلس Tripolitania موجهة نحو تونس عبر التاريخ، بينما كانت منطقتها الشرقية المتمثلة في إقليم برقة Cyrenaica - أي بنغازي - موجهة دائما نحو مصر).

وطوال ألفي سنة، كلما ازداد القرب من قرطاج Carthage (وهو الموقع التقريبي لتونس في العصر الحديث) زاد مستوى التطور. ولأن التمدن urbanization في تونس بدأ منذ ألفي سنة، فإن الهوية القبلية المبنية على البداوة - والتي قال مؤرخ القرون الوسطى ابن خلدون إنها تعرقل الاستقرار السياسي - كانت ضعيفة وفقا لذلك. وفي الواقع، فبعد أن تمكن الجنرال الروماني سكيبيو Scipio من هزيمة هانيبال Hannibal في العام 202 قبل الميلاد على مشارف مدينة تونس، قام بحفر خندق لترسيم الحدود، أو ما عرف باسم الحفرة الملكية fossa regia، التي كانت تشير إلى حدود الإقليم المتحضر. ولاتزال الحفرة الملكية وثيقة الصلة بالأزمة الراهنة في الشرق الأوسط. ولكونها لاتزال مرئية في بعض الأماكن، فهي تمر من طبرقة على الساحل الشمالي الغربي التونسي جنوبا، أما من جهة الشرق، فهي تنعطف مباشرة إلى صفاقس، وهي ميناء آخر على البحر الأبيض المتوسط. تتميز البلدات الواقعة وراء هذا الخط بعدد أقل من بقايا الآثار الرومانية، وتزعم اليوم إلى أن تكون أشد فقرا وأقل تطورا، مع ارتفاع تاريخي في معدلات البطالة. أما بلدة سيدي بوزيد، حيث بدأت الثورة العربية في ديسمبر 2010، عندما عمد بائع للفاكهة والخضراوات إلى إضرام النار في نفسه كعمل من أعمال الاحتجاج، فتقع وراء خط سكيبيو بقليل.

ليست هذه قدرية، فمهمتي لا تتجاوز توفير سياق جغرافي وتاريخي للأحداث الجارية: بدأت الثورة العربية من أجل الديموقراطية فيما كان، من الناحية التاريخية، المجتمع الأكثر تقدما في العالم العربي - وهو الأقرب جغرافيا إلى أوروبا - ومع ذلك فقد بدأ أيضا على وجه التحديد في جزء من ذلك البلد جرى تجاهله منذ العصور القديمة، وبالتالي عانى التخلف.

من شأن هذه المعرفة أن تضيف عمقا إلى ما كان يحدث في أماكن أخرى: سواء كان ذلك في مصر، وهي عنقود قديم آخر من الحضارة، والتي تمتلك تاريخا طويلا كدولة، مثلها في ذلك مثل تونس؛ أو اليمن، وهي القلب الديموغرافي لشبه الجزيرة العربية، والتي أفسدت محاولات الوحدة فيها تضاريسها الجبلية المترامية الأطراف، والتي عملت على إضعاف الحكومة المركزية وبالتالي زيادة أهمية الكيانات القبلية والجماعات الانفصالية؛ أو سورية، التي يحمل شكلها المشدّب على الخريطة في داخله أقساما مبنية على العرق والهوية الطائفية. تشهد الجغرافيا بأن تونس ومصر متماسكتان من الناحية الطبيعية، في حين تتسم ليبيا، واليمن، وسورية بكونها أقل تماسكا. ويترتب على ذلك أن تونس ومصر استلزمتا أشكالا معتدلة نسبيا من الاستبداد للمحافظة على وحدة كل منهما، في حين أن ليبيا وسورية تطلبتا ضروبا أكثر تطرفا. وفي الوقت نفسه، جعلت الجغرافيا اليمن دائما مكانا يصعب حُكمه على الإطلاق. كانت اليمن تمثل ما أطلق عليه العالمان الأوروبيان اللذان عاشا في القرن العشرين، إرنست غلنر Gellner، وروبير مونتاني Montagne، اسم المجتمع «المُجزأ» segmentary، وهو ثمرة طبيعة شرق أوسطية تعصف بها الجبال والصحاري. ولكونه يتأرجح بين المركزية والافوضي، يتجسد هذا المجتمع وفقا لصياغة مونتاني في نظام «يستنزف الحياة من منطقة ما»، على الرغم من أنه «بسبب الهشاشة المتأصلة فيه»، فقد فشل في إقامة مؤسسات دائمة. فهناك تتسم القبائل بقوتها والحكومة المركزية بضعفها⁽⁶⁾، وبالتالي فإن الصراع من أجل بناء أنظمة ليبرالية في مثل هذه الأماكن لا يمكن فصله عن مثل هذه الحقائق.

ومع تراكم الاضطرابات السياسية، حيث يبدو العالم أكثر صعوبة في السيطرة عليه، مع أسئلة لا تنتهي عن الكيفية المفترضة لاستجابة الولايات المتحدة وحلفائها، فإن الجغرافيا تقدم وسيلة لفهم جزء على الأقل مما يعنيه كل ذلك. ومن خلال دراسة الخرائط القديمة، والتعاطي مع الجغرافيين والمفكرين الجيوسياسيين من العصور السابقة، أريد أن أرسخ الحقائق العالمية في القرن الحادي والعشرين بقدر ما فعلت عند هذه الحدود بداية من أواخر القرن العشرين. وحتى إذا استطعنا إرسال أقمار صناعية إلى المجموعة الشمسية الخارجية - وحتى لو صارت الأسواق المالية والفضاء الإلكتروني لا تعرف حدودا - فإن جبال الهندوكوش Hindu Kush لا تزال تشكل عائقا هائلا.

الجزء الأول الحالمون

من البوسنة إلى بغداد

لاستعادة إحساسنا بقيمة الجغرافيا، علينا أولاً أن نتعرف على تلك اللحظة في التاريخ الحديث، والتي فقدنا فيها هذا الإحساس على نحو أشد عمقا، وأن نفسر سبب خسارتنا هذه، ومن ثم توضيح كيف أثر ذلك في افتراضاتنا عن العالم. وبطبيعة الحال فقد حصل هذا الفقدان بشكل تدريجي، لكن اللحظة التي استفردتها، والتي بدت فيها تلك الخسارة أكثر حدة، وقعت بعد سقوط سور برلين على الفور. وعلى الرغم من كونه حدودا اصطناعية كان ينبغي لانهيارها أن يحسّن احترامنا للجغرافيا ولخريطة التضاريس - وما يمكن أن تتنبأ بحدوثه هذه الخريطة في بلدان البلقان المجاورة، وفي الشرق الأوسط - فقد أعمتنا إزالة سور برلين عن العوائق الجغرافية الحقيقية التي لاتزال تقسمنا، والتي لاتزال تنتظرنا.

«أي حرب يمكن أن تكون أكثر عدلا من هذه؟»

المؤلف

لقد وجدنا أنفسنا فجأة في عالم أدى فيه تفكيك الحدود التي صنعها الإنسان في ألمانيا إلى افتراض أن كل الانقسامات البشرية يمكن التغلب عليها؛ وأن الديمقراطية ستنتصر في أفريقيا والشرق الأوسط بالسهولة نفسها التي فعلت بها ذلك في أوروبا الشرقية؛ وأن العولمة globalization - التي سرعان ما ستصير كلمة رائجة - لم تكن أقل من اتجاه أخلاقي للتاريخ ونظام للأمن الدولي، وليس ما كانت تمثله في الواقع، أي مجرد مرحلة اقتصادية وثقافية من مراحل التنمية. لتتدبر معا ما يلي: أيديولوجية دُحرت لفورها، حتى مع اعتبار الأمن الداخلي في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية أمرا مفروغا منه، كما ساد ما يُشبه السلام عموما. ولأنه التقط روح العصر ببصيرة ثاقبة، نشر نائب المدير السابق لموظفي تخطيط السياسات في وزارة الخارجية الأمريكية فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama مقالا قبل بضعة أشهر من سقوط سور برلين، حمل عنوان «نهاية التاريخ»، معلنا فيه أنه على الرغم من أن الحروب والثورات ستستمر فإن التاريخ بالمعنى الهيجلي Hegelian^(*) قد انتهى الآن، لأن نجاح الديمقراطيات الليبرالية الرأسمالية قد أنهى الجدل حول ماهية نظام الحكم الأفضل للبشرية⁽¹⁾. وبالتالي، كان الأمر مجرد مسألة صياغة للعالم بحيث يكون أقرب من صورتنا نحن، أحيانا عن طريق نشر القوات الأمريكية؛ مثل عمليات الانتشار التي نتجت عنها خسائر قليلة نسبيا في تسعينيات القرن العشرين. كانت هذه الدورة الفكرية الأولى لحقبة ما بعد الحرب الباردة، بمنزلة عصر للأوهام: كان ذلك وقتا اعتُبرت فيه كلمات مثل «واقعي» و«براغماتي» بمنزلة ازدراء، إذ كانت تدل على نفور صاحبها من التدخل الإنساني في الأماكن التي كانت المصلحة الوطنية، وفقا لتعريفها التقليدي والضيق، تبدو فيها بعيدة المنال. كان الأفضل في تلك الأيام أن تكون من المحافظين الجدد neoconservative أو من الأممين الليبراليين، الذين كان ينظر إليهم على أنهم أناس أذكاء طيبون، والذين لا يريدون سوى وقف الإبادة الجماعية genocide في البلقان^(**).

بيد أن هذه الفورة من المثالية idealism في الولايات المتحدة لم تكن غير مسبوقة، فالانتصار في الحرب العالمية الأولى أفضى إلى رفع راية «الولسونية» Wilsonianism.

(*) اعتبر هيجل التاريخ صيرورة معقولة تتحرك باتجاه حالة محددة؛ وهي تحقق الحرية الإنسانية. [المحرر].
 (**) تجدر الإشارة إلى التمييز بين الإبادة والمذبحة، إذ إن الثانية تكاد تكون مقصورة على القتل المتعمد لمجموعة من الناس، في حين أن الأولى قد تشمل على التدمير العرقي والثقافي والديني لقنة من الناس بقصد طمس أثرها. [المحرر].

وهي مفهوم يرتبط بالرئيس وودرو ويلسون، الذي - كما اتضح لاحقا - لم يضع في اعتباره إلا القليل من الأهداف الحقيقية لحلفاء أمريكا في أوروبا، فضلا عن اعتبار أقل لواقع بلدان البلقان والشرق الأدنى، والتي - كما أظهرت الأحداث التي وقعت في عشرينيات القرن العشرين - كانت الديمقراطية والتحرر من هيمنة إمبراطورية الأتراك العثمانيين فيها تعني - في الأساس - زيادة ضيقة الأفق في الوعي العرقي في الأجزاء المنفردة من السلطنة القديمة. حدثت ظاهرة مماثلة لذلك بعد انتصار الغرب في الحرب الباردة التي اعتقد كثيرون أنها ستؤدي ببساطة إلى تحقق الحرية والرخاء تحت راية «الديموقراطية» و«الأسواق الحرة». أشار كثيرون إلى أنه حتى أفريقيا، وهي أفقر القارات وأقلها استقرارا، والتي تعاني مزيدا من التكبير المتمثل في أكثر حدود العالم افتعالا وأقلها منطقية، قد تكون بدورها على أعتاب ثورة ديموقراطية؛ كأن انهيار الإمبراطورية السوفييتية في قلب أوروبا كان يحمل معنى ساميا لأقل دول العالم تقدما، والتي يفصلها عنها بحر وصحراء وتبعد عنها آلاف الأميال، لكنها ترتبط عبر التلفاز⁽²⁾. ومع ذلك، وكما حدث تماما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد استهل انتصارنا في الحرب الباردة قدرا من الديمقراطية والسلام العالمي أقل من الصراع التالي من أجل البقاء، والذي سيرتدي فيه الشر أقنعة جديدة.

وفي الواقع أن الديمقراطية وحكومات أفضل ستبدأ في الظهور في كل أرجاء أفريقيا، لكن ذلك سيمثل صراعا طويلا وصعبا، مع تنامي الفوضى (في حالة العديد من بلدان غرب أفريقيا)، والعصيان المسلح، والشر البواح (في حالة رواندا) لفترات طويلة خلال هذه الأثناء. ستقطع أفريقيا شوطا طويلا في تعريف العقد decade الطويل ما بين التاسع من نوفمبر 1989، والحادي عشر من سبتمبر 2001، أو بين سقوط سور برلين وهجمات القاعدة على البنتاغون ومركز التجارة العالمي: وهي فترة الاثني عشر عاما التي شهدت موجات من القتل الجماعي والتدخلات الإنسانية المتأخرة وهي تُحبط أحلام المثقفين المثاليين، حتى عندما أدى نجاح تلك التدخلات في نهاية المطاف إلى رفع شعور المثاليين بالتفوق إلى آفاق سيثبت لاحقا كونها كارثية في العقد الذي بدأ بعد الحادي عشر من سبتمبر.

وفي هذا العقد الجديد الذي بدأ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، سنرى أن الجغرافيا، التي مثلت عاملا مهما من دون شك في البلقان وأفريقيا في تسعينيات

القرن العشرين، ستعمل على تدمير النوايا الأمريكية الجيدة في الشرق الأدنى على نحو تام. إن الرحلة من البوسنة إلى بغداد، التي بدأت بحملة جوية وأرضية محدودة في الجزء الغربي الأكثر تقدما من الإمبراطورية التركية السابقة في البلقان، وانتهت بغزو شامل بقوات المشاة في الجزء الشرقي الأقل تقدما في بلاد ما بين النهرين، من شأنها أن تكشف حدود العالمية الليبرالية liberal universalism. وفي أثناء ذلك تُضيف بُعدا جديدا لخريطة التضاريس.

بدأت الحرب الباردة بالفعل في ثمانينيات القرن العشرين، قبل سقوط سور برلين، مع إحياء مصطلح «أوروبا الوسطى» Central Europe، الذي عُرف لاحقا من قبل الصحافي والباحث بجامعة أكسفورد، تيموثي غارتون آش Ash، على أنه «تميز سياسي - ثقافي ضد الشرق السوفييتي»⁽³⁾. كانت أوروبا الوسطى، أو Mitteleuropa بالألمانية، فكرة مفاهيمية أكثر من كونها حقيقة جغرافية؛ فهي تمثل إعلانا للذكرى: أي تذكير بحضارة أوروبية قوية، فوضوية على نحو لذيذ، ورومانسية، والتي تذكر المرء بالشوارع المرصوفة بالحصى والسقوف الجملونية، وبالمشروبات الغنية وبمقاهي فيينا، وبالموسيقى الكلاسيكية، وبتقليد إنساني متحضر ولطيف، منغمس في الفنون الانفعالية المزعجة والفكر الحدائي. وهي تستحضر الإمبراطورية النمساوية المجرية وتذكر بأسماء مثل غوستاف ماهر Mahler، وغوستاف كليمت Klimt، وسيغموند فرويد Freud، كما تفيض بالتقدير العميق لأمثال إيمانويل كانط Kant، والفيلسوف الهولندي اليهودي باروخ سبينوزا Spinoza. وفي الواقع، فإن «أوروبا الوسطى»، كانت تعني - من بين أمور أخرى كثيرة - العالم الفكري المهدد بالانقراض لليهود قبل ويلات النازية والشيوعية؛ كما كانت تعني التنمية الاقتصادية، مع استحضار قوي لذكرى إقليم بوهيميا قبل الحرب العالمية الثانية، باعتبار أنه كان يتمتع بمستوى من التصنيع يتفوق على نظيره في بلجيكا. كان ذلك يعني، مع كل انحطاطاتها ومساوئها الأخلاقية، منطقة من التسامح النسبي بين الأعراق المتعددة تحت مظلة إمبراطورية آل هابسبورغ الحميدة على رغم كونها مختلة على نحو متزايد. وفي المرحلة الأخيرة من الحرب الباردة، وصف أوروبا الوسطى بإيجاز بليخ أستاذ جامعة برينستون البروفيسور كارل شورسكه Schorske في كتابه الكلاسيكي المقلق وذو الرؤية القائمة «فيينا في نهاية القرن: السياسة والثقافة»، والكاتب

الإيطالي كلاوديو ماغريس Magris في كتاب أدب الرحلات الرائع الذي ألفه بعنوان «الدانوب». وبالنسبة إلى ماغريس، فإن أوروبا الوسطى هي إحساس «يعني الدفاع عن برنامج بعينه ضد أي برنامج شمولي». أما بالنسبة إلى الكاتب المجري جيورجي كونراد Konrad والكاتب التشيكي ميلان كونديرا Kundera، فإن «أوروبا الوسطى» هي شيء «نبيل»، وهي «مفتاح عمومي» لتحرير الطموحات السياسية⁽⁴⁾.

كان الحديث عن «أوروبا الوسطى» في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين يعني القول بأنها ثقافة تتألف - في حد ذاتها - من جغرافية راسية بقدر رسوخ سلسلة من الجبال، أو بقدر ما أحدثته فيها الدبابات السوفييتية. ولأن فكرة أوروبا الوسطى كانت بمنزلة انتقاد حاد لجغرافية الحرب الباردة، والتي كانت أفرزت مصطلح «أوروبا الشرقية» للدلالة على ذلك النصف من أوروبا الذي يدين بالشيوعية ويُدار من موسكو. وقد قيل بحق إن ألمانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا، وبولندا، والمجر كانت جميعها تمثل جزءا من أوروبا الوسطى، وبالتالي لم يكن ينبغي تسليمها إلى سجن الدول الشيوعية السابقة، ولا إلى حلف وارسو. وبعد بضع سنوات، ويا للسخرية! عندما اندلعت الحرب العرقية في يوغوسلافيا، فإن «أوروبا الوسطى» بدلا من أن تكون مصطلحا يعني التوحيد، سوف تمثل أيضا إشارة تدل على الانقسام؛ مع تفكك وانفصال «دول البلقان» في أذهان الناس عن أوروبا الوسطى، والتي أصبحت، في الواقع، جزءا من الشرق الأدنى الجديد / القديم.

كانت منطقة البلقان مرادفا للإمبراطوريتين التركية والبيزنطية القديمتين، مع سلاسل جامحة من الجبال التي عملت على إعاقة تنميتها، في ظل مستوى معيشي أدنى عموما، والذي يرجع إلى عقود وقرون بالمقارنة مع أراضي إمبراطوريتي هابسبورغ وبروسيا السابقتين في قلب أوروبا. وخلال العقود الأحادية اللون من الهيمنة الشيوعية، كانت دول البلقان مثل رومانيا وبلغاريا، في الواقع، تعاني درجة من الفقر والقمع غير معروفة في النصف الشمالي (الوسط أوروبي) من الإمبراطورية السوفييتية. كان الوضع معقدا، بطبيعة الحال. كانت ألمانيا الشرقية هي الأكثر احتلالا بالفعل من بين الدول التابعة، وبالتالي كان نظامها الشيوعي من بين الأكثر تشددا، وحتى يوغوسلافيا - التي لم تكن رسميا عضوا في حلف وارسو - كانت تسمح بدرجة من الحرية، وخاصة في مدنها، وهو أمر لم يكن معروفا في تشيكوسلوفاكيا،

على سبيل المثال. ومع ذلك، وبصفة عامة، فإن أمم الإمبراطوريات التركية والبيزنطية السابقة في جنوب شرق أوروبا لم تُعانِ بسبب أنظمتها الشيوعية قدرا من الاستبداد يقل عن مثيله في النسخة الشرقية، كأنه غزو مغولي ثانٍ، في حين أن أمم أوروبا آل هابسبورغ الكاثوليكية السابقة كانت تُعاني في الأساس بسبب حُكم أقل خبثا: مزيج كثيب من درجات متفاوتة من الشعبوية الاشتراكية الراديكالية. وفي هذا السياق، فإن السفر من المجر الليبرالية نسبيا، وإن كانت شيوعية، في ظل حكم يانوس كادار Kádár إلى رومانيا تحت الحكم الشمولي لنيكولاي تشاوشيسكو كان مثالا نموذجيا في هذا الصدد. وقد قمت بهذه الرحلة كثيرا في ثمانينيات القرن العشرين: في أثناء مرور قطاري برومانيا آتيا من المجر، ساءت جودة مواد البناء فجأة؛ ونهب المسؤولون حقائبي وأجبروني على دفع رشوة لإدخال آلتى الكاتبة؛ كما اختفى ورق التواليت من المرحاض، وأظلمت الأضواء الخافتة. صحيح أن منطقة البلقان كانت شديدة التأثر بوسط أوروبا، لكنها كانت متأثرة بالقدر نفسه بالشرق الأوسط الذي يبعد عنها المسافة نفسها. كانت السهوب المغيرة بساحاتها العامة القائمة - والمستوردة من الأناضول - تمثل واحدة من سمات الحياة في كوسوفو ومقدونيا، حيث كان من الصعب العثور على ملامح الحياة الاجتماعية المتحضرة لبراغ وبودابست.

ومن ثم، لم يكن الأمر من قبيل المصادفة، أو ناتجا كليا عن أعمال أفراد أشرار، أن اندلع العنف وسط الخليج العرقي في يوغوسلافيا وليس، مثلا، في دول وسط أوروبا غير العرقية كالمجر وبولندا. وقد كان للتاريخ والجغرافيا، بدورهما، دور في ذلك.

ولكن من خلال النظر إلى أوروبا الوسطى باعتبارها قبلة الأنظار الأخلاقية والسياسية، بدلا من كونها قبلة جغرافية، طرح المثقفون الليبراليون، مثل غارتون آش - وهو أحد الأصوات الأكثر بلاغة التي ظهرت خلال هذا العقد - رؤية ليس لأوروبا فقط، ولكن للعالم؛ والتي اتسمت بكونها اشتمالية inclusive وليست تمييزية. وفي هذا المنظور، ليست بلدان البلقان وحدها التي يجب ألا تُترك فريسة للتخلف والهمجية، بل ولا أي مكان آخر: أفريقيا، على سبيل المثال. من شأن سقوط سور برلين أن يؤثر ليس فقط في ألمانيا، لكنه، بدلا من ذلك، كان لا بد من أن

يطلق العنان لحلم أوروبا الوسطى بوضوح في كل أرجاء العالم. كانت هذه المقاربة الإنسانية humanist جوهر نظرة كونية تقول بأن الليبراليين الأميين والمحافظين الجدد قد ساهموا - على حد سواء - في صياغة تسعينيات القرن العشرين. أذكر أنه قبل أن يصبح معروفا بتأييده للحرب على العراق، كان بول وولفويتز Wolfowitz من دعاة التدخل العسكري في البوسنة وكوسوفو، وكان في الواقع متحالفا مع ليبراليين مثل غارتون آش في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس New York Review of Books اليسارية التوجه. تعود جذور الطريق إلى بغداد إلى التدخلات في البلقان خلال تسعينيات القرن العشرين، التي عارضها الواقعيون والبراغماتيون، حتى بعد أن ثبت أن هذه الحملات العسكرية في يوغوسلافيا السابقة قد حققت نجاحا لا يمكن إنكاره.

لا يمكن فصل التوق إلى إنقاذ المسلمين في البوسنة وكوسوفو عن التوق إلى استعادة أوروبا الوسطى، سواء باعتبارها مكانا حقيقيا أو متصورا بصورة مؤثرة، والذي سيُظهر كيف أن الأخلاق والإنسانية، في نهاية المطاف، هي ما يقدر الجمال (على رغم أن غارتون آش نفسه كان متشككا في الجهود المبذولة لجعل أوروبا الوسطى مكانا مثاليا، فإنه أدرك الفائدة الأخلاقية الإيجابية التي يمكن أن يطبق عليها مثل هذا الاستمثال idealization). سجّلت الكتابات الإنسانية لأشعيا برلين Berlin الروح الفكرية لتسعينيات القرن العشرين. وفي مذكراته المؤرخة للفترة التي قضاها في ألمانيا الشرقية⁽⁵⁾، كتب غارتون آش: «كنت أقول Ich bin ein Berliner، وتعني بالألمانية أنني أشبه أشعيا برلين». أما الآن وقد اندحرت الشيوعية وتكشف زيف اليوتوبيا الماركسية، كان أشعيا برلين بمنزلة الترياق المثالي للنظريات الواحدية monistic العصرية التي اجتاحت الحياة الأكاديمية على مدى العقود الأربعة السابقة. أما برلين، الذي كان يدرس في جامعة أكسفورد، والذي تزامنت حياته مع القرن العشرين، فقد دافع دائما عن البراغماتية البرجوازية و«التنازلات المماثلة» بشأن التجريب السياسي⁽⁶⁾. كان برلين مبغضا للجوانب الجغرافية والثقافية، وكل الأشكال الأخرى للتحتمية determinism، رافضا تسليم أي شخص وأي فرد لمصيره المحتوم. تمثلت آراؤه، التي عرضها بالتفصيل في العديد من المقالات والمحاضرات على مدى عمره، غالبا كصوت أكاديمي وحيد في البرية، في توليفة مثالية من المثالية

المعتدلة التي طبقها ضد الشيوعية، وفكرة أن الحرية والأمن متاحان لبعض الشعوب فقط وليس لغيرها. كانت فلسفته ومثال أوروبا الوسطى متوافقين تماما. ولكن وعلى رغم أن مفهوم أوروبا الوسطى كان واضحا، كما شرحه هؤلاء المثقفون المتسمون بالحكمة والبلاغة، فقد كانت في الواقع قضية نبيلة، والتي يجب أن تؤدي باستمرار دورا في السياسات الخارجية لجميع الدول الغربية، كما سأوضح لاحقا، لكنها تواجه عقبة أجد نفسي مجبرا أيضا على تناولها.

ولأنه لاتزال هناك مشكلة مع هذه الرؤية السامية، ثمة حقيقة قبيحة عملت في كثير من الأحيان على مر التاريخ على تحويل مفهوم أوروبا الوسطى إلى شيء مأسوي؛ فأوروبا الوسطى، وببساطة، ليس لها واقع على خريطة التضاريس. (استشعر غارتون أش هذا بحدسه في عنوان إحدى مقالاته «هل توجد أوروبا الوسطى بالفعل؟»⁽⁷⁾. وهنا يدخل إلى الصورة الحتميون الجغرافيون، الذين يتسمون بالفظاظة والتجهم مقارنة بالصوت اللطيف لأشعيا برلين: خاصة الصوت الذي ينتمي إلى العصر الإدواردي للسير هالفورد ج. ماكيندر Mackinder وتلميذه جيمس فيرغريف Fairgrieve، اللذين اعتبرا أن فكرة أوروبا الوسطى تعاني «عيبا جغرافيا مميتا». يخبرنا ماكيندر وفيرغريف بأن أوروبا الوسطى تنتمي إلى «منطقة الحشود» crush zone التي تقع بجوار أوروبا البحرية، بكل «مصالحتها المحيطية»، و«المنطقة المركزية لأوراسيا بمنظورها القاري». وباختصار، فمن الناحية الإستراتيجية، لم يكن هناك «أي متسع» لأوروبا الوسطى في نظر ماكيندر وفيرغريف⁽⁸⁾. أما الاحتفاء بأوروبا الوسطى، والتساهل الذي له ما يبرره تجاه ذلك من قبل المثقفين الليبراليين، كما أشارت إليه كتابات ماكيندر وفيرغريف، فيشير إلى وجود فترة إرجاء للجغرافيا السياسية - أو على الأقل الرغبة في الحصول على واحدة. ومع ذلك، فإن سقوط سور برلين لم يؤدي إلى إنهاء الجغرافيا السياسية - وبالأحرى لم يستطع إنهاءها؛ فكل ما فعله هو الانتقال بها إلى مرحلة جديدة. لا يمكنك أن تتمنى ببساطة زوال صراعات الدول والإمبراطوريات عبر الخريطة.

سأقوم باستكشاف كتابات ماكيندر، لاسيما فرضيته عن «المنطقة المركزية» Heartland، وبالتفصيل في موضع لاحق. ويكفي أن أقول الآن إنها، على رغم طرحها منذ أكثر من مائة سنة، فقد أثبتت كونها وثيقة الصلة على نحو ملحوظ بديناميات

الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة. وعند تفكيكهما إلى أبسط منطق لهما، فقد دارت الحربان العالميتان حول ما إذا كانت ألمانيا ستهيمن أم لا على المنطقة المركزية لأوراسيا، والتي تقع إلى الشرق منها، في حين ركزت الحرب الباردة بهيمنة الاتحاد السوفييتي على شرق أوروبا - وهي الحدود الغربية للمنطقة المركزية التي وصفها ماكيندر. وبالمناسبة فإن أوروبا الشرقية السوفييتية هذه كانت تضم في نطاقها ألمانيا الشرقية، وهي بروسيا التاريخية، التي تمثلت دوافعها الإقليمية تقليدياً في التوسع شرقاً باتجاه المنطقة المركزية، في حين احتوى الجزء الداخلي من تحالف الناتو NATO المحيطي ألمانيا الغربية، التي كانت كاثوليكية من الناحية التاريخية، وذات فكر صناعي وتجاري، بتوجهها المنصب نحو بحر الشمال والمحيط الأطلسي. يجادل الجغرافي الأمريكي الذي اشتهر خلال فترة الحرب الباردة، شاول ب. كوهين Cohen، بأن «المنطقة الحدودية التي تفصل بين ألمانيا الشرقية والغربية... هي واحدة من بين الأقدم في التاريخ»، فهي المنطقة التي كانت تفصل بين الفرنجة والقبائل السلافية في العصور الوسطى. وبعبارة أخرى، فلم يكن هناك سوى قليل من الاصطناع فيما يتعلق بالحدود بين ألمانيا الشرقية والغربية. كانت ألمانيا الغربية، وفقاً لكوهين، تمثل «انعكاساً بارزاً لأوروبا البحرية»، في حين تنتمي ألمانيا الشرقية إلى «عالم القوة البرية القارية».

دعم كوهين تقسيم ألمانيا باعتباره أمراً «سليماً من الناحية الجيوسياسية وضرورياً من الناحية الإستراتيجية»، لأنه يعمل على استقرار المعركة الدائمة بين المنطقتين البحرية وتلك المركزية لأوروبا⁽⁹⁾. وفي العام 1919، كتب ماكيندر ببصيرة ثاقبة أن «الخط المار عبر ألمانيا... هو الخط نفسه الذي افترضنا، بناءً على أسباب أخرى، أن يرسم الحدود الإستراتيجية بين المنطقة المركزية والأراضي الساحلية»⁽¹⁰⁾. وبالتالي، ففي حين أن تقسيم برلين نفسها كان مصطنعاً، كان تقسيم ألمانيا أقل اصطناعاً. تحدث كوهين عن وسط أوروبا كونها «مجرد تعبير جغرافي يفتقر إلى أي جوهر جيوسياسي»⁽¹¹⁾. وبالتالي فإن توحيد ألمانيا، وفقاً لهذا المنطق، لن يؤدي إلى انبعاث أوروبا الوسطى، بل سيؤدي ببساطة إلى معركة متجددة حول أوروبا، وبالتالي حول المنطقة المركزية لأوراسيا: وبعبارة أخرى، ففي أي اتجاه ستتأرجح ألمانيا إلى الشرق باتجاه روسيا، مع عواقب وخيمة على كل من بولندا، والمجر، والبلدان

الأخرى التي كانت تدور في فلك روسيا في السابق، أم إلى الغرب باتجاه المملكة المتحدة والولايات المتحدة، مما يمثل انتصارا للنطاق البحري؟ مازلنا نجهل الإجابة عن هذا السؤال، لأن فترة ما بعد الحرب الباردة لاتزال في مراحلها المبكرة. لم يكن بوسع كوهين ولا غيره أن يتوقع بدقة الطبيعة «المتجنبة للحرب» debellicized لألمانيا الموحدة اليوم، والتي يوجد «نفورها من الحلول العسكرية» عند مستوى عميق من ثقافتها، الأمر الذي قد يساعد في المستقبل على استقرار أو زعزعة الاستقرار في القارة، وهو أمر يتوقف على الظروف⁽¹²⁾. وبالتحديد لأنهم احتلوا وسط أوروبا كقوة برية، فقد أظهر الألمان دائما وعيا حادا بالجغرافيا والإستراتيجية كآلية للبقاء؛ وهو أمر قد يستعيده الألمان مجددا، مما سيسمح لهم بالتحرك بعيدا عن السلمية الظاهرية quasi-pacifism التي ينتهجونها الآن. وفي الواقع، هل يمكن لألمانيا الموحدة والليبرالية أن تصبح قوة موازنة في حد ذاتها - بين المحيط الأطلسي والمنطقة المركزية لأوراسيا - مما يسمح بترسيخ تفسير جديد وجريء لثقافة أوروبا الوسطى، وبالتالي يزود مفهوم أوروبا الوسطى بثقل جيوسياسي؟ ومن شأن ذلك أن يمنح المفكرين من أمثال غارتون آش مصداقية أكثر من ماكيندر وكوهين. وباختصار، فهل ستمكن أوروبا الوسطى، كمثال على التسامح والحضارة الراقية، من البقاء على قيد الحياة في وجه الهجمات التي ينطوي عليها صراع القوى العظمى الجديدة؟ فمن المؤكد أن مثل هذه النزاعات ستقع في هذا القلب الأوروبي. إن الثقافة النابضة بالحياة لوسط أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر، والتي بدت مغرية للغاية من موقع المراقبة لأواخر القرن العشرين، كانت في حد ذاتها ثمرة لواقع إمبراطوري وجيوسياسي عديم العاطفة ومحدد الاتجاه، أي النمسا تحت حكم آل هابسبورغ. تركز الليبرالية في نهاية المطاف على السلطة: ربما كانت سلطة حميدة، ولكنها تظل سلطة على الرغم من ذلك.

لكن التدخلات الإنسانية في تسعينيات القرن العشرين لم تكن غافلة عن الصراعات حول السلطة، كما لم تكن أوروبا الوسطى تشكل رؤية خيالية في أعينها. وبدلا من ذلك، فإن استعادة أوروبا الوسطى عن طريق وقف القتل الجماعي في منطقة البلقان كانت بمنزلة صرخة هادئة ومستبصرة للتوظيف السليم للقوة العسكرية الغربية، من أجل الحفاظ على معنى الانتصار في الحرب الباردة. وبعد

كل شيء، فما كان السبب الرئيسي للحرب الباردة في نهاية المطاف، باستثناء جعل العالم آمناً للحرية الفردية؟ وفي إشارة إلى الحماسة التي تناول بها المثقفون من أمثاله حرب البلقان⁽¹³⁾، كتب مايكل إيغناطييف Ignatieff، وهو مؤرخ ومفكر وكاتب سيرة أشعيا برلين: «بالنسبة إلى الأميين الليبراليين، أصبحت البوسنة بمنزلة الحرب الأهلية الإسبانية لعصرنا الحالي».

كانت الدعوة إلى الفاعلية الإنسانية human agency - وإلى هزيمة الحتمية - تتسم بالإلحاح في عقولهم. وفي هذا السياق، يتذكر المرء مقطعاً من رواية جويس، عوليس Ulysses، والذي يرثي فيه ليوبولد بلوم «الظروف الجينية التي يفرضها القانون الطبيعي»: «الأوبئة المهلكة»، و«النوازل الكارثية»، و«الاضطرابات الزلزالية»، والتي يستجيب لها ستيفن ديدالوس Dedalus عن طريق التأكيد ببساطة مؤثرة على «أهميته كحيوان عقلائي واع»⁽¹⁴⁾. صحيح أن الفظائع تقع، فهكذا يسير العالم؛ لكنها يجب ألا تكون مقبولة إلى هذا الحد. ولأن الإنسان كائن عقلائي، فهو يمتلك في نهاية المطاف القدرة على الكفاح ضد المعاناة والظلم.

وهكذا، وفي وجود أوروبا الوسطى كنجم هاد، أفضى الطريق إلى الجنوب الشرقي، ابتداءً من البوسنة، مروراً بكوسوفو، ومنها إلى بغداد. وبطبيعة الحال، فإن العديد من المثقفين الذين أيدوا التدخل في البوسنة قد عارضوه في العراق - أو شككوا في جدواه على الأقل، لكن ذلك لم يكن ليثني المحافظين الجدد وغيرهم عن تصميمهم. ولأن منطقة البلقان، كما سنرى، أظهرت لنا رؤية لسياسة التدخل interventionism، على رغم كونه متأخراً، التي تكلف القليل من حيث حياة الجنود، وتدع كثيرين مخدوعين بوهم أن النصر المؤلم يمثل الآن مستقبل الحرب. إن تسعينيات القرن العشرين، التي اتسمت بتدخلاتها المتأخرة، وكما كتب غارتون آش بصدق مؤلم، تذكرنا بثلاثينيات القرن العشرين، والتي وصفها و. ه. أودن Auden بأنها «عقد دنيء وغير شريف»⁽¹⁵⁾. كان هذا صحيحاً، لكنهما كانا - من منظور آخر - متساهلين للغاية في هذا الوصف.

وفي ذلك الوقت، أي في تسعينيات القرن العشرين، بدا أن التاريخ والجغرافيا قد أطلا بالفعل برأسيهما الحاقتين. بعد أقل من عامين من سقوط سور برلين، وعلى رغم كل التحركات غير التاريخية والأمية التي أعقبت ذلك الحدث،

وجدت وسائل الإعلام العالمية نفسها منغمسة فجأة في أطلال من الدخان وجبال من الركام، والمعادن المشوّهة لمدن يصعب نطق أسمائها، والواقعة في منطقتين حدوديتين من الإمبراطوريتين النمساوية والتركية السابقتين، وهما بالتحديد سلافونيا Slavonia وكرايينا Krajina، اللتين شهدتا لفورهما فظائع لم تشاهد في أوروبا منذ أيام النازيين. من التأمّلات الوهمية للوحدة العالمية، تحولت المناقشة بين النخب الآن إلى توارخ محلية معقدة وغير مترابطة لا تبعد سوى بضع ساعات عن فيينا عبر سهل بانونيا، والواقع في القلب من أوروبا الوسطى. أظهرت خريطة تضاريس جنوب وشرق كرواتيا، على مقربة من نهر سافا، باعتبارهما الحد الجنوبي للأراضي الأوروبية المسطحة الواسعة، والتي تنبئ هنا، فيما وراء ضفتي نهر سافا، بظهور سلاسل متشابكة من الجبال التي تعرف باسم جبال البلقان: إن خريطة التضاريس، التي تشير إلى بقعة واسعة وخضراء مسطحة من الأراضي الممتدة من فرنسا وصولاً إلى روسيا (من جبال البرانس إلى جبال الأورال)، تحول فجأة، وبالتحديد على الضفة الجنوبية لنهر سافا، إلى اللون الأصفر ثم إلى البني، مما يشير إلى تضاريس أكثر ارتفاعاً وأشدّ وعورة، والتي ستستمر هكذا باتجاه الجنوب الشرقي وصولاً إلى آسيا الصغرى. كانت هذه المنطقة، القريبة من حيث تبدأ الجبال، تمثل الحدود المتداخلة التي كانت تجوبها ذهاباً وإياباً جيوش هابسبورغ النمساوية وتلك العثمانية التركية: هنا تنتهي المسيحية الغربية وعالم الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ويبدأ الإسلام؛ وهنا تحتشد كرواتيا ضد صربيا.

أما كرايينا، التي تعني «الحدود» باللغة الصربو - كرواتية، فكانت منطقة عسكرية أنشأها النمساويون في أواخر القرن السادس عشر لصد التوسع التركي، حيث استدرجوا - إلى جانبهم من الحدود - كلا من الكروات والصرب كلاجئين من استبداد السلطنة العثمانية. ونتيجة لذلك، أصبحت هذه المنطقة مختلطة الأعراق، وبمجرد اختفاء قبضة الإمبراطورية النمساوية عقب الحرب العالمية الأولى، شهدت نشوء مزيد من الهويات غير العرقية. وعلى رغم أن الصرب والكروات كانوا متحدين خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، في ظل حكم مملكة الصرب، والكروات، والسلوفينيين، فقد انقسموا وانقضوا على رقاب بعضهم البعض في أثناء الاحتلال النازي، عندما أقدمت الحكومة الكرواتية الفاشية الموالية للنازيين على قتل عشرات

الآلاف من الصرب في معسكرات الموت. وعلى رغم أنهم توحدوا مرة أخرى تحت مظلة الحكم الشيوعي الاستبدادي بقيادة تيتو، فإن انهيار يوغوسلافيا في العام 1991 شهد تدفق القوات الصربية عبر الحدود الصربية إلى سلافونيا وكرايينا، من أجل التطهير العرقي لمنطقة الكروات. وفي وقت لاحق، عندما استعاد الكروات المنطقة، اضطر الصرب من سكان المنطقة إلى العودة إلى صربيا. ومن حدود كرواتيا مع صربيا، ستنتشر الحرب لاحقا إلى البوسنة، حيث سيموت مئات الآلاف بصورة مروعة. كان التاريخ والجغرافيا موجدتين بكثرة هنا، لكن الصحافيين والمثقفين الملتزمين سيكون لهم نصيب ضئيل نسبيا منهما. من المؤكد أنهم كانوا يمتلكون وجهة نظر، بل وأكثر بكثير من مجرد وجهة نظر. أتى الرعب الهائل والتحوّل الفجائي أولا. ومرة أخرى كان غارتون آش هناك:

ما الذي تعلمناه من هذا العقد الرهيب في يوغوسلافيا السابقة؟ لقد تعلمنا أن الطبيعة البشرية لم تتغير؛ وأن أوروبا في نهاية القرن العشرين يمكنها أن تأتي بأفعال همجية تماما كما فعلت في المحرقة Holocaust التي جرت في أواسط القرن... لقد تمثلت تعاويذنا السياسية الغربية في نهاية القرن العشرين في «التكامل»، و«التعددية الثقافية»، أو - إذا أردنا أن نكون أكثر تقليدية من ذلك بقليل - في «البوتقة». لكن يوغوسلافيا السابقة كانت نقيض ذلك؛ فقد كانت مثل نسخة عملاقة من جهاز يطلق عليه اسم «الفرازة» separator: وهو نوع من أحواض الخضّ التي يجري فيها فصل القشدة عن الزبدة... كانت الشعوب هنا هي ما جرى فصله في أثناء الدوران المحموم للحوض العملاق للفرازة... في حين تقاطر الدم بشكل مطرد من مرشح موجود في القاع⁽¹⁶⁾.

وانطلاقا من هذا التحوّل الفجائي جاءت أعباء «الاسترضاء» على الغرب، أي استرضاء سلوبودان ميلوسيفيتش Milosevic: وهو سياسي شيوعي شرير، والذي من أجل تأمين البقاء السياسي لنفسه وحزبه بعد سقوط سور برلين، والاحتفاظ بالفلل وأكواخ الصيد والمزايا الأخرى لمناصبهم، أعاد تسمية نفسه باعتباره زعيما قوميا صربيا متعصبا، مما أدى إلى إشعال ما يشبه المحرقة الثانية. سرعان ما أصبح استرضاء هتلر في ميونخ في العام 1938 هو التشبيه الأكثر انتشارا في تسعينيات القرن العشرين.

وفي الواقع، فإن الخوف من ميونخ أخرى لم يكن جديدا تماما، فقد كان عنصرا مستتبنا لقرار تحرير دولة الكويت من عدوان صدام حسين عليها في العام 1991؛ فإذا لم نكن أوقفنا صدام في الكويت، لأقدم على غزو المملكة العربية السعودية لاحقا، وبالتالي السيطرة على أهم الإمدادات النفطية في العالم، مع أخذ حقوق الإنسان في المنطقة إلى مستوى لا يوصف من الظلام. لكن الهجوم الصربي على كرواتيا ثم البوسنة، ما بين عامي 1991 و 1993 - وفشل الغرب في الاستجابة - هو ما أدى بالفعل إلى جعل ميونخ كلمة مشحونة في المفردات الدولية.

ينزع القياس التشبيهي لميونخ إلى الازدهار بعد فترة طويلة ومزدهرة من السلام، حيث كانت أعباء الحرب بعيدة بما يكفي لأن تظهر بصورة مجردة: إن الحالة في تسعينيات القرن العشرين، وهو الوقت الذي كانت فيه ذكريات أمريكا عن حرب الأراضي القذرة في آسيا، التي كانت قد انقضت حينئذ قبل أكثر من عقدين من الزمان، قد خفتت بما فيه الكفاية. يتعلق مثال ميونخ بالأممية universalism، وبالاعتناء بالعالم وب حياة الآخرين؛ والذي كثيرا ما تسمع عنه كرد فعل للفشل في وقف مذابح الإبادة الجماعية في رواندا في العام 1994. لكن مثال ميونخ بلغ ذروته في الاستعدادات للتدخلات العسكرية المتأخرة لكنها فعالة لحلف الناتو في البوسنة في العام 1995، وفي كوسوفو في العام 1999. حاول أولئك الذين عارضوا تدخلاتنا في البلقان طرح القياس التشبيهي المنافس لقيتنا، ولكن لأن هذه الورطة لم تقع من قبل مطلقا، كانت البلقان في تسعينيات القرن العشرين هي المكان الذي طُرد فيه أشباح قيتنام إلى الأبد - أو هذا ما كان يُعتقد ويُكتب في ذلك الوقت⁽¹⁷⁾.

إن القوة العسكرية، التي كانت مكروهة للغاية خلال سنوات الحرب في قيتنام، صارت الآن مرادفا للإنسانية نفسها. وفي هذا السياق، كتب ليون ويسلتير Wieseltier، المحرر الأدبي لمجلة The New Republic:

«إن حربا ضد الإبادة الجماعية يجب أن يُخاض غمارها بغضب، لأن الغضب هو ما تحاربه»، «فلغرض وقف الإبادة الجماعية، فإن استخدام القوة ليس حلا أخيرا، بل إنه الخيار الأول». واستطرد ويسلتير ليلقي باللوم على الحاجة إلى إستراتيجيات للخروج في التدخلات الإنسانية: ففي

العام 1996، نجد أن أنتوني ليك Lake، المستشار المعذب والخجول للأمن القومي [الرئيس بيل كلينتون] قد تمادى في هذا وصولاً إلى تقنين «عقيدة إستراتيجيات للخروج»: «قبل أن نرسل قواتنا إلى بلد خارجي، يجب أن نعرف كيف ومتى سنقوم بإخراجهم». كان ليك يُظهر معرفة غير محدودة بحالة استخدام القوة الأمريكية، بيد أن عقيدة «إستراتيجية الخروج» تُسيء على نحو جذري فهم طبيعة الحرب، وبصورة أعم، طبيعة الفعل التاريخي. وباسم توخي الحذر، فهي تُنكر الاحتمالات التي تصير إليها شؤون البشر، لأن معرفة النهاية لا تُمنح لنا في البداية⁽¹⁸⁾.

وكمثال على ذلك، استشهد ويسلتيير برواندا، حيث لقي مليون من التوتسي حتفهم في مجزرة وقعت في العام 1994: كتب قائلاً إن ورطة عسكرية غربية، لو كنا قد تدخلنا لوقف القتل، كانت ستكون أفضل مما حدث بكل تأكيد. إن ويسلتيير، الذي كان - مثل غارتون آش - واحداً من أكثر الأصوات إجلالاً وإقناعاً من الناحية الأخلاقية لذلك العقد، كان يكتب حول الإحباط الذي شعر به بسبب الحرب الجوية المحدودة والمتأخرة التي شنّها حلف الناتو لتحرير الألبان المسلمين في كوسوفو من سياسة الطرد والإبادة التي انتهجها ميلوسيفيتش بحقهم. استهدفت الحرب الجوية البلدات والمدن الصربية، حيث كان المطلوب - وفقاً لمؤيدي مبدأ التدخل الإنساني - هو تحرير مدن كوسوفو بواسطة القوات البرية. كانت طريقة كلينتون المترددة في شن الحرب شريكة في جريمة نتجت عنها معاناة واسعة النطاق. كتب ويسلتيير قائلاً: «لقد اختُزل عمل المثالية idealism إلى الإغائة والإنقاذ، إلى النتائج الحادثة في أعقاب الكارثة؛ ففي الموضع الذي كان ينبغي فيه أن نسارع بإطلاق الرصاص، نحن نسارع الآن في إرسال البطاطين. وقال إن كلينتون اكتشف نوعاً من الحرب «التي لا يموت فيها الأمريكان، وهي... حرب جبانة تستخدم فيها التكنولوجيا العالية الدقة، والتي تدع استطلاعات الرأي والضمائر من دون تغيير». وقد تنبأ بأن «عصر الحصانة هذا لن يدوم إلى الأبد. فعاجلاً أو آجلاً سيتعين على الولايات المتحدة أن ترسل جنودها إلى... مكان يتعرضون فيه للإصابة أو الموت. والأمر المهم وقتها هو ما إذا كانت القضية عادلة، وليس كون القضية محفوفة بالمخاطر⁽¹⁹⁾».

وبالفعل، فقد بدأ غزو العراق يظهر باعتباره قضية في تسعينيات القرن العشرين، عندما كان يُنظر إلى الجيش الأمريكي باعتباره لا يُقهر في مقابل قوى التاريخ والجغرافيا، لو تم فقط نشر قواته في الوقت المناسب، وإلى أقصى قدراتها، مما يعني وجود القوات على الأرض. كان المثاليون هم من دعوا بصخب وحماس إلى استخدام القوة العسكرية في الصومال، وهائتي، ورواندا، والبوسنة، وكوسوفو، على رغم أن الواقعيين - مثل برنت سكوكروفت Scowcroft وهنري كيسنجر Kissinger - الذين تم التشجيع عليهم على نحو مزايد باعتبارهم عديمي الشفقة قد دعوا إلى ضبط النفس.

ومع ذلك، في الواقع، فقد كانت تسعينيات القرن العشرين عقدا للقوة العسكرية الشاملة أقل من كونه - على وجه التحديد - عقدا للقوة الجوية. أدت القوة الجوية دورا حاسما في طرد القوات العراقية من الكويت في العام 1991: على رغم أن الجغرافيا، في هذه الحالة، جعلت من شن الحرب العالية التقنية مهمة سهلة، حيث جرت العمليات على صحراء عديمة الملامح، حيث نادرا ما تهطل الأمطار. وقد مثلت القوة الجوية أيضا عاملا مهما في إنهاء الحرب في البوسنة بعد أربع سنوات، وعلى رغم كل نقائصها التي ظهرت، حققت النصر على ميلوسوفيتش في كوسوفو بعد ذلك بأربع سنوات. عاد اللاجئين ذوو الأصول الألبانية إلى ديارهم في نهاية المطاف، مع بلوغ ميلوسوفيتش من الضعف حدا سقط معه من السلطة في العام التالي، أي في العام 2000. نحن لا نحارب في الجبال، كانت تلك هي العبارة التي تلخص المعارضة الأولية للجيش الأمريكي لإرسال قوات إلى البوسنة وكوسوفو، لكنه اتضح لاحقا أنه مادما كنا نمتلك الجو، تمكن الجيش من الحرب في الجبال على نحو جيد إلى حد ما. أطلت الجغرافيا بكامل وجهها في البلقان، لكن القوة الجوية تغلبت عليها بسرعة. وبعد ذلك صارت قوات سلاح الجو ومقاتلات البحرية تقوم بدوريات في مناطق حظر الطيران العراقية، مما أدى إلى تحجيم سلطة صدام طوال عقد التسعينيات وما بعده. ونتيجة لذلك فإن قطاعات من النخبة الذين ملأتهم الرهبة من القوة العسكرية الأمريكية، صارت تُحس شعورا بالسخط الأخلاقي ضد جورج بوش الأب وكلينتون؛ لعدم استخدام الجيش في الوقت المناسب لإنقاذ ربع مليون شخص من الإبادة الجماعية في البلقان (فضلا عن مليون إنسان في رواندا).

من البوسنة إلى بغداد

كانت تلك عقلية يمكن أن تؤدي، على الأقل بالنسبة إلى البعض، إلى روح المغامرة، وهو ما أفضت إليه بالفعل. وأدى هذا، بدوره، في العقد التالي، إلى تراجع جزئي عن قياس ميونخ التشبيهي، وإلى استعادة الجغرافيا بعض الاحترام الذي فقدته في تسعينيات القرن العشرين. شهدت تسعينيات القرن العشرين اختزال الخريطة إلى بُعدين اثنين بسبب القوة الجوية. ولكن بعد ذلك بفترة وجيزة، استُعيدت الخريطة الثلاثية الأبعاد: في جبال أفغانستان وفي أزقة العراق الغادرة.

وفي العام 1999، وفي معرض تعبيره عن المشاعر التي سادت وقتها بشكل متزايد بين المثقفين الليبراليين، كتب ويسلتيير:

إن الشيء المميز حقاً، فيما يتعلق برفض كلينتون لأن يُدرج خلع هذا الشرير [سلوبودان ميلوسيفيتش] ضمن أهدافه الحربية، هو أنه هو نفسه ورث عواقب رفض سلفه لإدراج خلع شرير آخر ضمن أهدافه الحربية. ففي العام 1991، كان هناك نصف مليون جندي أمريكي على بُعد بضعة مئات الكيلومترات من صدام حسين، لكن جورج بوش لم يأمر بزحفهم إلى بغداد. كان جنرالاته يخشون وقوع قتلى بين جنودهم، بعد أنهما من فورهم حرباً خاصة بهم من دون أي خسائر. وقد أشاروا أيضاً إلى «الوحدة الإقليمية» للعراق، وكأن البؤس الذي سينجم عن انهيار الدولة سيتناسب مع البؤس الذي وقع بالفعل، على الأكراد في الشمال، وعلى الشيعة في الجنوب، بفعل بقاء الدولة⁽²⁰⁾.

كان الأمر كأن الحدود المتخيلة لأوروبا الوسطى لا تعرف حدوداً، وتمتد حتى بلاد ما بين النهرين. سارت الأمور بشكل مختلف، بطبيعة الحال. ولكن في العام 2006، خلال أسوأ المذابح الطائفية التي شهدتها العراق، عقب انهيار الدولة، التي قد تنافس العنف الذي أوقعه صدام بالبلاد، امتلك ويسلتيير شجاعة الاعتراف بما أسماه «القلق على الخطرسة»، إذ اعترف بأنه لا يمتلك شيئاً مفيداً يقوله على رغم دعمه للحرب، بيد أنه لم يكن من بين مؤيدي الغزو الذين كانوا يكدحون بشدة للدفاع عن أنفسهم في الصحافة المطبوعة⁽²¹⁾.

كنت أنا أيضاً من مؤيدي الحرب في العراق، سواء في الصحافة المطبوعة أو كجزء من المجموعة التي حثت إدارة بوش على شن الغزو⁽²²⁾. كانت القوة

العسكرية الأمريكية في البلقان قد أثرت في كثير، وبالنظر إلى أن صدام قد قتل - سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة - عددا أكبر من الناس مما فعل ميلوسيفيتش، كما كان يمثل خطرا إستراتيجيا يُعتقد أنه يمتلك أسلحة للدمار الشامل، فقد بدا لي في ذلك الوقت أن التدخل العسكري له ما يبرره. وكنت أيضا واحدا من الصحفيين الذين اقتربوا كثيرا من موضوع قصتي: كنت مراسلا صحافيا في العراق خلال الثمانينيات، حيث شهدت كيف كان العراق في عهد صدام أشد قمعا من سورية في ظل حكم حافظ الأسد، ولذلك صرت عازما على التخلص من صدام. وقد ادعى البعض لاحقا أن الخوف على مصالح لإسرائيل وتأييد توسيع نطاق الأراضي التي تستحوذ عليها كانا هما الدافع المحرك لكثيرين من مؤيدي الحرب⁽²³⁾، لكن تجربتي في التعامل خلال هذه الفترة الزمنية مع المحافظين الجدد وبعض الليبراليين، أيضا، أوضحت أن البوسنة وكوسوفو كانتا أكثر أهمية من إسرائيل في رأيهم⁽²⁴⁾. بدا أن التدخلات في البلقان، ولأنها حققت عددا من المكاسب الإستراتيجية، تبرّر اتباع نهج المثاليين في السياسة الخارجية. لقد غير التدخل في البوسنة عام 1995 دفعة المناقشة من «هل ينبغي أن يبقى حلف الناتو؟» إلى «هل يجب توسيع حلف الناتو؟».

أدت حرب العام 1999 في كوسوفو، بقدر ما فعلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلى السماح بتوسيع حلف شمال الأطلسي (الناتو) إلى ضفاف البحر الأسود في نهاية المطاف.

وبالنسبة إلى عدد غير قليل من المثاليين، كان العراق استمرارا للمشاعر المحمومة التي سادت في تسعينيات القرن العشرين. وقد مثل الأمر، مهما كان ذلك لا شعوريا، إما هزيمة الجغرافيا وإما تجاهلها على نحو مطلق، بسبب انهاري - مثل كثيرين - بقوة الجيش الأمريكي. كانت التسعينيات فترة اعتُبرت فيها بعض بلدان غرب أفريقيا، مثل ليبيريا وسيراليون - على رغم عنفها، وعلى رغم أن مؤسساتها أقل تطورا بكثير من مثيلاتها في العراق - دولا مرشحة للديموقراطية على نحو معقول. لكن قوة الجيش، وبخاصة سلاح الجو، مارست دور اليد الخفية التي سمحت لأفكار الأممين باكتساب أهمية أكبر بكثير من الأرض ومن التجربة التاريخية التي تعيش عليها.

كان مثال ميونخ، بدوره، حاضرا في تناول معضلة صدام حسين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة كانت قد تعرضت لفورها لهجوم على أراضيها يشبه هجوم بيرل هاربر، فإن تجربتها مع الحرب البرية، وطوال ربع قرن من الزمان، لا تكاد تُذكر، أو على الأقل ليست غير سارة. وعلاوة على ذلك، فلم يكن صدام مجرد ديكتاتور آخر، بل طاغية يبدو أنه آت مباشرة من بلاد ما بين النهرين العتيقة، والذي يشبه في أعين الكثيرين هتلر أو ستالين، والذي يمتلك - كما كان يُعتقد - أسلحة للدمار الشامل. وفي ضوء أحداث الحادي عشر من سبتمبر - بل وفي ضوء ميونخ - لم يكن التاريخ ليغفر لنا أبدا إذا لم نتخذ الإجراءات اللازمة.

عندما أدت ميونخ إلى المبالغة، كانت النتيجة هي المثل الآخر، الذي كان يُعتقد في السابق أنه قد اندحر بالفعل: فيتنام. وهكذا بدأت الدورة الفكرية التالية لما بعد الحرب الباردة.

وفي هذه الدورة التالية، والتي تزامنت تقريبا مع العقد الأول من القرن الحادي والعشرين والحربين الصعبتين في العراق وأفغانستان، صار مصطلحا «الواقعية» و«البراغماتية» علامتين مرادفتين للاحترام، ويشيران إلى أولئك الذين كانوا متشككين منذ البداية في المغامرة الأمريكية في بلاد ما بين النهرين، في حين أن تعبير «المحافظين الجدد» صار موضع سخرية. وفي حين أنه في تسعينيات القرن العشرين، كان يُنظر إلى الخلافات الطائفية الإثنية الناشبة في زوايا بعيدة من العالم باعتبارها عقبات ينبغي للرجال الأخيار أن يسعوا جاهدين إلى التغلب عليها - أو التعرض لخطر أن يوصموا بأنهم «قديرون» أو «حتميون» - ففي العقد التالي اعتُبرت هذه الأحقاد عوامل ربما كانت قد حذرتنا للابتعاد عن القيام بعمل عسكري، أو كان ينبغي لها أن تفعل ذلك. وإذا كان على المرء أن يختار لحظة من الزمن لا يمكن عندها إنكار أن تشبيهه فيتنام قد حل محل تشبيه ميونخ، فسأختار الثاني والعشرين من فبراير 2006، عندما فُجر مسجد العسكري الشيعي في سامراء من قبل متطرفي تنظيم القاعدة، مما أطلق العنان لعاصفة من الفظائع الطائفية في العراق، والتي لم يتمكن الجيش الأمريكي من وقفها. فجأة، صار يُنظر إلى قواتنا البرية باعتبارها عاجزة وسط القوى البدائية للكرامية والفوضى. إن خرافة القوة العسكرية القاهرة الجديدة

للولايات المتحدة، والتي ولدت في بنما وحرب الخليج الأولى، والتي انتُهكت قليلا في الصومال، قبل أن يتم إصلاحها وتلميعها في هايتي، والبوسنة، وكوسوفو، كانت قد تحطمت إلى حين، جنباً إلى جنب مع المثالية التي ذهبت معها.

وفي حين يتعلق قياس ميونخ التشبيهي بالأممية، وبالاغتناء بالعالم وبحياة الآخرين الذين يعيشون بعيداً عنا، كان قياس فيتنام التشبيهي محلياً بطبيعته؛ فهو يتعلق باغتناء المرء بنفسه، بعد سقوط 58 ألف قتيل في تلك الحرب. يشير علينا مثال فيتنام بأنه يمكن تجنب المأساة من خلال التفكير بشكل مأساوي. وهو يدين الحماسة المتواصلة، لأنه يشير إلى مدى الخطأ الذي يمكن أن تسير إليه الأمور. وفي الواقع، كان ثمة شعور مثالي بوجود مهمة جلية هو ما ورّط الولايات المتحدة في هذا الصراع الدائر في جنوب شرقي آسيا في المقام الأول. كانت الأمة تعيش فترة من السلام، في ذروة ازدهارها بعد الحرب العالمية الثانية، حتى مع قيام الشيوعيين الفيتناميين - وهم من أقسى من أنجب القرن العشرون من جماعات بشرية وأشدّهم تصميمًا - بقتل أكثر من عشرة آلاف من مواطنيهم قبل وصول أول جندي أمريكي نظامي. أي حرب يمكن أن تكون أكثر عدلاً من هذه؟ كانت الجغرافيا، وبعد المسافة، وتجربتنا الرهيبة في أدغال الفلبين في حرب غير نظامية أخرى وقعت قبل ذلك بستة عقود، وبالتحديد في مطلع القرن العشرين، هي آخر ما تبادر إلى أذهان الناس عندما دخلنا فيتنام.

تمثل فيتنام تشبيهاً من النوع الذي يزدهر في أعقاب صدمة وطنية، فالواقعية لا تتسم بالإثارة. وهو تشبيه لا يُحترم إلا بعد أن يؤدي غيابه الظاهري إلى تفاقم الوضع على نحو واضح. وفي الواقع، وإذا نظرنا فقط إلى مثال العراق، حيث سقط ما يقرب من خمسة آلاف قتيل أمريكي (وتعرّض أكثر من ثلاثين ألف جندي لإصابات خطيرة)، وربما قتل مئات الآلاف من العراقيين، كما بلغت التكلفة أكثر من تريليون دولار.

حتى لو كان للعراق أن يتطور إلى ديمقراطية شبه مستقرة وحليف ضمني للولايات المتحدة، فقد كانت التكاليف من الضخامة بحيث، كما لاحظ كتاب آخرون، يصعب بصراحة رؤية أي قيمة أخلاقية لهذا الإنجاز. قوّض العراق عنصراً رئيسياً في عقلية البعض: إن نشر القوة الأمريكية في الخارج كانت له دائماً نتيجة أخلاقية. لكن

من البوسنة إلى بغداد

البعض الآخر يفهم أن الاستخدام الجامح للسلطة من قبل أي دولة، حتى لو كانت دولة ديموقراطية مُحبة للحرية مثل أمريكا، ليس بالضرورة أمراً فاضلاً.

وبالتزامن مع الاحترام الجديدة لمبدأ الواقعية realism، تجدد الاهتمام بفيلسوف القرن السابع عشر، توماس هوبز Hobbes، الذي يمجّد المنافع المعنوية للخوف وينظر إلى الفوضى العنيفة باعتبارها الخطر الرئيسي الذي يتهدد المجتمع. وبالنسبة إلى هوبز، فإن الخوف من الموت العنيف هو حجر الزاوية في المصلحة الذاتية المستنيرة. وعن طريق بناء دولة، يستبدل الرجال الخوف من الموت العنيف - وهو خوف شامل ومشترك - بخوف لا يحتاج إلى أن يخشاه سوى أولئك الذين ينتهكون القانون. يصعب استيعاب مثل هذه المفاهيم على أفراد الطبقة الوسطى في المناطق الحضرية، الذين فقدوا منذ فترة طويلة أي اتصال مع الحالة الإنسانية الطبيعية⁽²⁵⁾. لكن أعمال العنف المروعة التي شهدناها تفكك العراق، والتي، على عكس رواندا والبوسنة في بعض النواحي، لم تكن نتيجة لآلة منظمة ومنفردة للموت، ولكن لانهايار النظام ذاته، مما سمح لكثيرين منا بتخيّل الحالة الأصلية للإنسان. وهكذا صار هوبز فيلسوف هذه الدورة الثانية من حقبة ما بعد الحرب الباردة، مثلما كان برلين فيلسوف الأولى⁽²⁶⁾.

وبالتالي، كان هذا هو ما أوصلتنا إلينا فترة ما بعد الحرب الباردة: أي الاعتراف بأن نفس الشمولية totalitarianism التي قاتلنا ضدها خلال العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية قد تكون، في عدد قليل من الظروف، أفضل من الحالة التي لا يقود فيها أحد زمام الأمور. هناك أشياء أسوأ من الشيوعية، كما اتضح لاحقاً، والتي جلبناها على أنفسنا في العراق. أقول هذا بصفتي شخصاً كان مؤيداً لتغيير النظام. في مارس 2004، وجدت نفسي في معسكر عُداري Udari في وسط صحراء الكويت^(*). كنت مرافقاً لكتيبة من مشاة البحرية الأمريكية التي كانت، جنباً إلى جنب مع بقية أفراد الكتيبة البحرية الأولى، على وشك أن تبدأ الرحلة البرية إلى بغداد وغرب العراق، لتحل محل كتيبة الجيش الثانية والثمانين المحمولة جواً، والتي كانت متمركزة هناك.

(*) الاسم الحالي للمعسكر هو Camp Buehring، نسبة إلى المقدم في الجيش الأمريكي Charles Buehring الذي قتل في العراق في العام 2003. [المحرر].

كان ذلك عالماً من الخيام، والمنصات، وحاويات الشحن، وقاعات تناول الطعام. امتدت عبر الأفق أرتال هائلة من الشاحنات ذات الحمولة البالغة سبعة أطنان، وعربات همفي Humvees المصفحة، وكلها متوجهة صوب الشمال. سرعان ما اتضح الحجم الهائل لتورط أمريكا في العراق. وكانت عاصفة رملية قد هبت، كما كانت هناك رياح شديدة البرودة وتهديد بهطول المطر. تعرضت السيارات للتعطّل باستمرار، في حين لم نكن حتى بدأنا رحلتنا إلى بغداد، التي تبعد عدة مئات من الكيلومترات، والتي قبل سنوات قليلة، اعتبر من اعتقدوا أن إسقاط صدام حسين كان مجرد امتداد لإسقاط سلوبودان ميلوسيفيتش، أنها بمنزلة نزهة خلوية. أشارت المتاهات الهائلة المكسوة بالحصى، والتي تفوح منها رائحة النفط والبنزين، إلى ظهور أول محطة للشاحنات بناها المقاولون، وهي واحدة من عدة محطات شيدت على طول الطريق لخدمة المئات العديدة من السيارات المتوجهة شمالاً، وكذلك إطعام الآلاف من مشاة البحرية. كانت المحركات والمولدات تهدر في الظلام، واستغرق الأمر أياماً من أكثر الخدمات اللوجستية تعقيداً، والتي تضمنت تخزين ونقل كل شيء من زجاجات المياه المعدنية إلى وجبات الطعام الجاهزة إلى مجموعات العدد والأدوات، من أجل عبور الصحراء القاسية الممتدة حتى وصولنا إلى الفلوجة إلى الغرب من بغداد، وهو ما قالوا إنه مجرد بضعة مئات من الكيلومترات»⁽²⁷⁾. كان هذا هو الجزء السهل وغير العنيف من الاحتلال العسكري الأمريكي لكل أرجاء البلاد. كان من الخطأ بكل تأكيد أن يشير البعض إلى أن التضاريس الجغرافية لم تعد مهمة.

انتقام الجغرافيا

عزّزت كارثة السنوات الأولى من التدخل في العراق مقولة الواقعيين، والتي استُخف بها من قبل المثاليين في تسعينيات القرن العشرين، بأن موروّثات الجغرافيا، والتاريخ، والثقافة تفرض بالفعل حدوداً لما يمكن تحقيقه في أي مكان بعينه. على أي حال، ينبغي على من كانوا معارضين للتدخل في العراق أن يحذروا من المغالاة في استخدام تشبيه فيتنام، لأن ذلك القياس قد يمثل دعوة إلى الانعزالية isolationism، بقدر دعوته إلى التهذئة نفسها، وإلى الإجحاف السهل الناتج عن التوقعات المتدنية، على حد تعبير الباحث الشرق أوسطي فؤاد عجمي. لننتذكر أن مؤتمر ميونخ وقع بعد عشرين عاماً فقط من أحداث الموت الجماعي التي شهدتها الحرب العالمية الأولى، مما يجعل

«ما العمل إذن؟ كيف يمكننا شطّر الفرق بين إدراك أهمية الجغرافيا في صياغة التاريخ وخطر المغالاة في تأكيد هذه الحقيقة ذاتها؟»

المؤلف

السياسيين الواقعيين مثل نيفيل تشامبرلين Chamberlain شديدي العزم، على نحو مفهوم، على تجنب نشوب صراع آخر. وتتسم هذه الحالات بكونها مناسبة تماماً لتنفيذ مكائد دولة استبدادية لا تعرف مثل هذه المخاوف: ألمانيا النازية والإمبراطورية اليابانية.

تتعلق قيتنام بالحدود؛ أما ميونخ فتتعلق بالتغلب عليها. من الممكن أن يكون كل من القياسين خطراً في حد ذاته. فقط عندما يُمنح كلاهما القدر نفسه ستمتلك السياسة الصحيحة أفضل فرصة للظهور. وبالنسبة إلى الحكماء من واضعي السياسات، فعلى الرغم من علمهم بأوجه قصور أمتهم، فهم يعلمون أن فن السياسة يتعلق بالعمل بقرب الحافة بقدر الإمكان، ولكن من دون أن نخطو إلى حافة الهاوية⁽¹⁾. بعبارة أخرى، فإن الواقعية الحقيقية هي فن أكثر منها علماً، والذي يؤدي فيه الحالة المزاجية لرجل الدولة دوراً لا يقل أهمية عن دور عقله. وفي حين أن جذور الواقعية تعود إلى 2400 سنة، أي إلى رؤى ثوكوديديس Thucydides الخالية من الوهم بشأن السلوك الإنساني في الحرب البيلوبونيسية، ربما ظهر التلخيص الأكثر شمولاً للواقعية الحديثة في العام 1948، من قبل هانز ج. مورغنثاو Morgenthau في كتابه المعنون «السياسة بين الأمم: الصراع على السلطة والسلام». اسمحو لي بأن أتوقف لحظة هنا عند هذا الكتاب، وهو ثمرة جهد لاجئ ألماني كان يدرس في جامعة شيكاغو، من أجل تمهيد الطريق لمناقشتي الأوسع حول الجغرافيا: لأن الواقعية ضرورية للتقدير السليم للخريطة، بل إنها في واقع الأمر تقودنا إلى ذلك مباشرة.

يبدأ مورغنثاو حجته بالإشارة إلى أن العالم يمثل «نتيجة للقوى الكامنة في الطبيعة البشرية»، وإلى أن الطبيعة البشرية، كما أشار إليها ثوكوديديس، تتحرك بدافع من الخوف phobos، والمصلحة الذاتية kerdos، والشرف doxa. كتب مورغنثاو قائلاً: «من أجل تحسين العالم، يجب على المرء أن يعمل مع هذه القوى، وليس ضدها». وهكذا، فإن الواقعية تقبل المواد البشرية المتاحة، مهما كانت درجة نقصان هذه المواد عن الكمال. «وهي تستند إلى سابقة تاريخية بدلا من مبادئ مجردة وتهدف إلى تحقيق الشر الأهون بدلا من الخير المطلق». وعلى سبيل المثال، فإن الواقعي ينظر إلى تاريخ العراق نفسه، كما يتضح من خلال خرائطه

cartography وكوكبات المجموعات العرقية المكوّنة له، وليس من منظور التعاليم الأخلاقية للديموقراطية الغربية، لمعرفة أي نوع من المستقبل سيكون العراق قادرا على تحقيقه بمجرد سقوط نظام شمولي. وفي نهاية المطاف، فالنوايا الحسنة ليس لها تأثير يُذكر في النتائج الإيجابية، كما يرى مورغنثاو. كان تشامبرلين، كما يشرح لنا، مدفوعا باعتبارات قوة الشخصية بصورة أقل من معظم السياسيين البريطانيين الآخرين، وسعى بصدق إلى ضمان تحقيق السلام والسعادة لجميع الأطراف المعنية. لكن سياساته جلبت معاناة لا توصف للملايين. أما ونستون تشرشل Churchill، من الناحية الأخرى، فقد كان - في الواقع - مدفوعا بالاعتبارات المجردة للقوة الشخصية والوطنية، لكن سياساته أحدثت تأثيرا معنويا منقطع النظير. (كان بول وولفويتز Wolfowitz، نائب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، مدفوعا بأفضل النوايا في تأييده لغزو العراق، إذ كان يظن أنه سيؤدي إلى تحسين حالة حقوق الإنسان هناك بصورة غير محدودة، لكن تصرفاته أدت إلى عكس ما نوى). وعند تعميم هذه النقطة، فمجرد كون أمة ما ديموقراطية لا يعني أن سياستها الخارجية سيتضح بالضرورة كونها أفضل أو أكثر استنارة من نظيرتها في دولة دكتاتورية. يقول مورغنثاو إن «الحاجة إلى حشد العواطف الشعبية لا يسعها إلا إضعاف عقلانية السياسة الخارجية نفسها». إن الديموقراطية والأخلاق ليستا ببساطة مترادفتين. ويستطرد مورغنثاو قائلا: «تنساق جميع الأمم - كما كان عدد قليل منها على استعداد لمقاومة هذا الإغراء لفترة طويلة - لتغليظ طموحاتها وأفعالها الخاصة بالأغراض الأخلاقية للكون. إن معرفة أن الأمم تخضع للقانون الأخلاقي هي شيء، أما ادعاء المعرفة على وجه اليقين بما هو الخير والشر في العلاقات بين الدول فهو شيء آخر تماما».

وبالإضافة إلى ذلك، يجب على الدول أن تعمل ضمن كون أخلاقي أكثر تقييدا بكثير مما يعمل خلاله الأفراد. وهنا كتب مورغنثاو «قد يقول الفرد لنفسه... لتتحقق العدالة، حتى لو هلك العالم، لكن الدولة لا تملك الحق في أن تقول ذلك باسم الذين هم تحت رعايتها»⁽²⁾. إن الفرد لديه مسؤولية تجاه أحبائه وحدهم، والذين سيغفرون له أخطائه مادامت نواياه جيدة. لكن الدولة يجب أن تحمي رفاهية الملايين من الغرباء الموجودين ضمن حدودها، والذين لن يكونوا متفهمين كثيرا في حالة تطبيق سياسة فاشلة. وبالتالي، يجب أن تكون الدولة أكثر دهاء بكثير من الفرد.

إن الطبيعة البشرية - من منظور بانثيون pantheon ثوكوديدس المكون من الخوف، والمصلحة الذاتية، والشرف - تدعم عالما من الصراع والإكراه المتواصل. ولأن الواقعيين مثل مورغنثاو يتوقعون نشوب الصراع ويدركون أنه لا يمكن تجنبه، فهم أقل عرضة من المثاليين لأن يبالغوا في الاستجابة له، فهم يدركون أن الميل إلى الهيمنة هو عنصر طبيعي من جميع التعاملات البشرية، لاسيما التعاملات بين الدول. وهنا يقبّس مورغنثاو مقولة جون راندولف أوف رونوك Roanoke أن «القوة وحدها يمكن أن تحد من القوة». وبالتالي، لا يعتقد الواقعيون أن المؤسسات الدولية في حد ذاتها تمتلك أهمية حاسمة بالنسبة إلى السلام، لأن هذه المؤسسات هي مجرد انعكاس لتوازن القوى بين الدول الأعضاء المنفردة، والتي تقوم، في نهاية المطاف، باتخاذ القرار في القضايا المتعلقة بالسلم والحرب. ومع ذلك، فإن منظومة توازن القوى هي في حد ذاتها - وبحكم التعريف - غير مستقرة، وفقا لمورغنثاو: فلأن كل أمة، كونها تخشى أن تخطئ في حسابات توازن القوى، يجب أن تسعى إلى تعويض أخطائها المدركة بأن تهدف باستمرار إلى تحقيق التفوق من حيث القوة. وهذا هو بالتحديد ما أشعل الحرب العالمية الأولى، عندما سعت كل من النمسا تحت حكم آل هابسبورغ، وألمانيا تحت حكم الإمبراطور فلهم، وروسيا القيصرية إلى ترجيح كفة ميزان القوى لمصلحتها، وأخطأت في حسابات ذلك على نحو خطير. كتب مورغنثاو أنه، في نهاية المطاف، فإن وجود ضمير أخلاقي عالمي - والذي ينظر إلى الحرب باعتبارها «كارثة طبيعية» وليس امتدادا طبيعيا للسياسة الخارجية لبلد ما - هو وحده ما يقلل من فرص قوع الحرب⁽³⁾.

عقب أعمال العنف في العراق ما بين العامين 2003 و 2007 ادّعينا جميعا لبعض الوقت أننا صرنا واقعيين، أو هذا ما قلناه لأنفسنا. ولكن بالنظر إلى تعريف مورغنثاو إلى الواقعية realism، فهل هذا صحيح حقا؟ على سبيل المثال، هل كان معظم من عارضوا الحرب على العراق على أسس واقعية يرون أيضا أنه ليست هناك بالضرورة علاقة بين الديمقراطية والأخلاق؟ كما أن مورغنثاو، لو تذكرنا، الذي عارض حرب فيتنام على أساس كل من الأخلاق والمصلحة الوطنية، هو المفكر الواقعي الذي نستريح إليه جميعا أكثر من غيره. وباعتباره أكاديميا ومفكرا طوال حياته، لم يكن أبدا متعطشا للقوة والمكانة كما أظهر غيره من الواقعيين، مثل

كيسنغر وسكوكروفت Scowcroft. وبالإضافة إلى ذلك، فإن أسلوبه المقيّد في الكتابة، والذي يتسم بأنه عديم النكهة تقريباً، يفتقر إلى حدة كيسنغر أو صامويل هنتنغتون Huntington. والحقيقة هي أن الواقعية، دوغماً إنكار، حتى على طريقة مورغنثاو، يفترض أن تصيب المرء بالضيق. يدرك الواقعيون أن العلاقات الدولية يحكمها واقع بائس وأكثر محدودية من ذلك التي ينظم الشؤون الداخلية. ولأنه في حين يتحدد نظام الحكم المحلي لدينا من قبل القوانين، وذلك لوجود حكومة شرعية تحتكر استخدام القوة، فإن العالم ككل لا يزال في حالة الطبيعة، التي لا يوجد فيها طاغوت (لويathan Leviathan) هوبز لمعاقبة الظالمين⁽⁴⁾. وفي الواقع، فتحت القشرة الخارجية للحضارة مباشرة تكمن أتعس قوى الشهوات البشرية، وبالتالي فإن السؤال المحوري في الشؤون الخارجية بالنسبة إلى الواقعيين هو: من يستطيع أن يفعل ماذا لمن؟⁽⁵⁾.

قال لي ذات مرة أشلي ج. تيليس Tellis، وهو زميل بارز في مؤسسة كارنيغي في واشنطن: «إن الواقعية غريبة عن التقاليد الأمريكية، فهي غير أخلاقية عن عمد، حيث تركّز على المصالح وليس على القيم في عالم وضع. لكن الواقعية لا تموت أبداً، لأنها تعكس بدقة كيف تتصرف الدول في الواقع، خلف واجهة خطابها المبني على القيم». يخلع الواقعيون على النظام قيمة أعلى من الحرية: فبالنسبة إليهم لا تُصبح هذه الأخيرة مهمة إلا بعد أن يترسخ الأول. وفي العراق، اتضح أن النظام، حتى وفقاً للأبعاد الشمولية، أكثر إنسانية من حالة عدم النظام التي أعقبت سقوطه. ولأن الحكومة العالمية ستبقى مراوغة إلى الأبد، فباعتبار أنه لن يكون هناك اتفاق جوهري على سبل تحسين الظروف الاجتماعية، فمن المقدّر على العالم أن تحكمه أنواع مختلفة من الأنظمة، وبواسطة النظم القبلية والعرقية في بعض الأماكن. اعتقد الواقعيون بداية من الإغريق والصينيين القدماء وحتى الفيلسوف الفرنسي الذي عاش في منتصف القرن العشرين، ريمون آرون Aron، ومعاصره الإسباني خوسيه أورتيغا إي غاسيت Gasset، أن الحرب متأصلة بشكل طبيعي في انقسام البشرية إلى دول وغيرها من التجمعات⁽⁶⁾. والحقيقة أن السيادة والتحالفات نادراً ما تحدث في خواء؛ بل تنشأ عن خلافات مع الآخرين. وفي حين يشدّد مؤيدو العولمة على ما يوحد الجنس البشري، يركز الواقعيون التقليديون على ما يفرقنا.

وهكذا نأتي إلى الخريطة، والتي هي التمثيل المكاني للتقسيمات البشرية - وهي موضوع كتابات الواقعيين في المقام الأول. إن الخرائط لا تقول الحقيقة دائما، فهي غالبا ما تكون شخصية subjective بقدر أي قطعة من النثر. إن الأسماء الأوروبية لمساحات واسعة من أفريقيا تُظهر، على حسب تعبير الجغرافي البريطاني الراحل جون براين هارلي Harley، كيف يمكن للخرائط أن تكون «خطابا للقوة»، في هذه الحالة تلك الخاصة بالإمبريالية الكامنة. تميل إسقاطات مركاتور Mercator projections إلى إظهار أوروبا أكبر مما هي عليه في الحقيقة، كما توحى الألوان الزاهية للغاية للبلدان المبينة على الخريطة بوجود سيطرة موحدة على المناطق النائية hinterlands. على الرغم من أن هذه ليست هي الحال دائما⁽⁷⁾. تتسم الخرائط بكونها مادية materialistic، وبالتالي فهي محايدة أخلاقيا. وهي تمثل تاريخيا جزءا من التعليم البروسي أكثر بكثير من نظيره البريطاني⁽⁸⁾. إن الخرائط، بعبارة أخرى، يمكن أن تكون أدوات خطيرة، ومع ذلك فهي بالغة الأهمية من أجل التوصل إلى أي فهم للسياسة العالمية. كتب مورغنثاو قائلا: «على الأساس المستقر نسبيا للجغرافيا، ينشأ هرم القوة الوطنية»⁽⁹⁾. لأن الواقعية، في جوهرها، تتعلق بالاعتراف بالحقائق الأشد حدة، وإزعاجا، وحتمية: تلك المتعلقة بالجغرافيا.

تمثل الجغرافيا ستارة خلفية لتاريخ البشرية نفسه. وعلى الرغم من التحريفات التي انطوى عليها رسم الخرائط، فمن الممكن أن تكون كاشفة عن النوايا بعيدة المدى لحكومة ما بنفس قدر مجالسها السرية⁽¹⁰⁾. إن موقع دولة ما على الخريطة هو أول ما يحددها، بصورة أكثر حتى من الفلسفة الحاكمة لها. إن الخريطة، كما يشرح هالفورد ماكيندر Mackinder، تنقل «في لحظة واحدة سلسلة كاملة من التعميمات». فالجغرافيا، كما أضاف، تجسّر الفجوة بين الفنون والعلوم، وتربط دراسة التاريخ والثقافة بالعوامل البيئية، وهو ما يهمله المتخصصون في العلوم الإنسانية في بعض الأحيان⁽¹¹⁾. وفي حين أن دراسة الخريطة، أي خريطة، قد تمثل تجربة ممتعة ورائعة إلى ما لا نهاية في حد ذاتها، فإن الجغرافيا، مثل الواقعية نفسها، يصعب تقبلها. تمثل الخرائط دحضا للمفاهيم نفسها المتعلقة بمساواة ووحدة الجنس البشري، لأنها تذكرنا بجميع البيئات المختلفة للأرض، والتي تجعل البشر غير متساوين ومفكرين على نحو عميق وبكثير جدا من الطرق، مما يؤدي إلى الصراع، الذي تعيش عليه الواقعية على وجه الحصر تقريبا.

خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قبل وصول العلوم السياسية باعتبارها تخصصاً أكاديمياً، كانت الجغرافيا علماً محترماً، وإن لم يتخذ شكلاً رسمياً على الدوام، والذي كثيراً ما يتم خلاله التفكير في السياسة، والثقافة، والاقتصاد من حيث علاقتها بخريطة التضاريس. ووفقاً لهذا المنطق المادي، تكتسب الجبال والقبائل أهمية أكبر من عالم الأفكار النظرية؛ أو، بالأحرى، فإن الجبال والرجال الذين يخرجون منها تمثل الدرجة الأولى من الواقع؛ أما الأفكار، مهما كانت باعثة على السمو ومُعززة، فهي تأتي في المرتبة الثانية.

تتمثل حجتي في أنه من خلال تبني الواقعية في خضم الحرب على العراق، مهما كانت صعوبة قيامنا بذلك - ومهما قُصِرَ وقت فعلنا لذلك - فما تبينناه بالفعل من دون أن ندري كان الجغرافياً، إن لم يكن بصورة مُعلنة، بالمعنى الإمبريالي البروسي للكلمة، ثم بالمعنى الفيكتوري والإدواردي أقل قسوة. كان انتقام الجغرافيا هو ما مثل تنويع الدورة الثانية من حقبة ما بعد الحرب الباردة، ليتبع هزيمة الجغرافيا من خلال القوة الجوية وانتصار مبدأ «التدخلات الإنسانية» humanitarian interventionism الذي ميّز نهاية الدورة الأولى. وبالتالي جرت إعادتنا إلى الأساسيات الدنيا للوجود البشري، حيث كان ما تقبلناه، بدلاً من التحسّن المطرد للعالم الذي تصورناه في وقت سابق، هو الكفاح القادم من أجل البقاء، وبالمقياس، القيود الشديدة التي كبلتنا الجغرافيا بها في أماكن مثل بلاد ما بين النهرين وأفغانستان.

ومع ذلك فبداخل هذا القبول الحزين، هناك بصيص من الأمل: فعندما نُصبح أكثر خبرة في قراءة الخرائط، يمكننا - بمساعدة التكنولوجيا، كما يشهد الربيع العربي - أن نوسّع بعض الحدود التي تفرضها الخريطة. وهذا هو الهدف من دراستي - أن نمتلك تقديراً للخريطة بحيث لا نحتاج، على نحو مخالف للتوقعات البديهية، إلى أن نظل دائماً خاضعين لحدودها. إن ضيق الأفق ليس وحده هو ما يؤدي إلى الانعزالية، لكن الإفراط في استخدام الموارد هو ما يسبب ردة فعل انعزالية.

لكننا نحتاج أولاً إلى الاعتراف بالوضع المركزي ذاته للتخصص الجغرافي. «الطبيعة تفرض؛ والإنسان ينفذ»، كما كتب الجغرافي الإنجليزي و. غوردون إيست East. من المؤكد أن أفعال الإنسان تكون مقيّدة بالبارامترات parameters التي تفرضها الجغرافيا⁽¹²⁾. لكن هذه الملامح contours تتسم بكونها فضفاضة للغاية، بحيث

تمتلك الفاعلية البشرية أكثر من مساحة كافية للمناورة. ولأن العرب، كما تبين، يمكنهم تنفيذ الممارسات الديمقراطية مثل أي جماعة أخرى، فحتى الترتيب المكاني للقبائل الليبية ولسلاسل الجبال اليمنية سيستمر في لعب دور حاسم في التطور السياسي في تلك البلدان. يقتصر دور الجغرافيا على التنوير، وليس التحديد. وبالتالي، فإن الجغرافيا ليست مرادفاً للقدرية. لكنها، مثل توزيع القوة الاقتصادية والعسكرية ذاتها، تشكل عائقاً رئيساً أمام الأفعال التي تقوم بها الدول - ومحرضاً لها.

وفي العام 1942، كتب الأستاذ بجامعة ييل، نيكولاس ج. سبيكمان Spykman، وهو منظر استراتيجي أمريكي - هولندي بارز من حقبة أوائل الحرب العالمية الثانية، أن «الجغرافيا لا تجادل. فهي ما هي عليه ببساطة»، ويستطرد قائلاً:

الجغرافيا هي العامل الأكثر أهمية في السياسة الخارجية للدول، لأنها أكثرها ديمومة. يأتي الوزراء ويذهبون، وحتى الطغاة يموتون، لكن السلاسل الجبلية تظل راسخة في مكانها. إن جورج واشنطن Washington، الذي دافع عن ثلاث عشرة ولاية بجيش غير نظامي، قد خلفه فرانكلين د. روزفلت Roosevelt الذي كانت تحت تصرفه موارد قارة بأسرها، لكن المحيط الأطلسي استمر في فصل أوروبا عن الولايات المتحدة، كما أن موانئ نهر سانت لورنس مازالت تُغلق بسبب الجليد في فصل الشتاء. أما ألكسندر الأول Alexander I، وهو قيصر جميع الأراضي الروسية، فقد أورث جوزيف ستالين Stalin، والذي كان عضواً بسيطاً في الحزب الشيوعي، ليس فقط سلطته ولكن كفاحه الذي لا ينتهي للوصول إلى البحر، في حين ورث ماجينو Maginot وكليمنصو Clemenceau من قيصر روما والملك لويس الرابع عشر قلقهما على الحدود الألمانية المفتوحة⁽¹³⁾.

ويمكن للمرء أن يضيف، أنه حتى على الرغم من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فلا يزال المحيط الأطلسي مهماً، وفي الواقع أن المحيط الأطلسي هو ما يعلن سياسة خارجية وعسكرية مختلفة للولايات المتحدة بالمقارنة مع تلك الموجودة في أوروبا. وفي السياق نفسه، يمكننا القول بأن روسيا، حتى يومنا هذا، لاتزال تمثل قوة برية غير آمنة ومترامية الأطراف، والتي كانت ضحية لغزوات منذ ما قبل تلك التي شنتها جحافل المغول في القرن الثالث عشر، والتي لا تمتلك من الحلفاء سوى الزمن، وبعْد المسافة،

انتقام الجغرافيا

والطقس، كما تتوق إلى وصول أكثر إلى البحر. وبسبب عدم وجود عوائق جغرافية خطيرة بين أوروبا ومنطقة الأورال Urals، فإن أوروبا الشرقية، وعلى الرغم من انهيار الحدود المصطنعة المتمثلة في جدار برلين، لاتزال تتعرض للتهديد من قبل روسيا، كما كانت كذلك منذ قرون. ومن الصحيح أيضا أن القلق على الحدود الألمانية كان يمثل مصدر إزعاج لفرنسا - كما كان كذلك في زمن لويس الرابع عشر - حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما عملت الولايات المتحدة أخيرا كضامن للسلام في أوروبا.

وفي الواقع أن الجغرافيا تمثل مقدمة لمسار الأحداث الإنسانية ذاتها. وليس من قبيل المصادفة أن الحضارة الأوروبية لها جذور مهمة في جزيرة كريت وجزر كيكلاَدِس Cycladic islands اليونانية، فالأولى، باعتبارها «شدة منفصلة عن أوروبا»، هي أقرب نقطة أوروبية إلى حضارة مصر، كما أن الأخيرة هي أقرب نقطة إلى حضارة آسيا الصغرى⁽¹⁴⁾. كان كلاهما، بسبب وضعهما كجزر، محميا طوال قرون ضد ويلات الغزاة، مما سمح لهما بالازدهار. تمثل الجغرافيا حقائق الشؤون الدولية ذاتها، والتي تبلغ من الأساسة قدرا يجعلنا نتعامل معها كأمر مفروغ منه.

ماذا عساه أن يمثل حقيقة أكثر محورية للتاريخ الأوروبي من كون ألمانيا قوة قارية وبريطانيا العظمى جزيرة؟ تواجه ألمانيا كلا من الشرق والغرب في غياب سلاسل جبلية تحميها، مما يصيبها بعدد من العلل: من السياسة العسكرية إلى النزعة الناشئة إلى السلم، من أجل أن تتكيف مع موقعها الخطير. أما بريطانيا، من الناحية الأخرى، فليكونها مؤمنة ضمن حدودها، مع توجه محيطي oceanic orientation، فقد تمكنت من تطوير نظام ديموقراطي قبل جيرانها، وإقامة علاقة خاصة عبر الأطلسي مع الولايات المتحدة، التي تتشارك معها نفس اللغة. كتب ألكسندر هاملتون Hamilton أنه لو لم تكن بريطانيا جزيرة، لكانت مؤسستها العسكرية بنفس عجرفة مثيلاتها في القارة الأوروبية، وأن بريطانيا كانت «في جميع الاحتمالات» ستصبح «ضحية السلطة المطلقة لرجل واحد»⁽¹⁵⁾. ومع ذلك، فما بريطانيا إلا جزيرة قريبة من أوروبا القارية، وبالتالي ظلت تعاني خطر الغزو من خلال معظم تاريخها، مما منحها اهتماما استراتيجيا خاصا على مدى قرون بسياسة فرنسا والدول المنخفضة الواقعة على الشاطئ الآخر من القنال الإنجليزي وبحر الشمال⁽¹⁶⁾.

لماذا اكتسبت الصين أهمية أكبر من البرازيل في نهاية المطاف؟ بسبب الموقع الجغرافي: فحتى لو افترضنا أنها تحظى بالمستوى نفسه من النمو الاقتصادي مثل

الصين وأن سكانها متساوون في العدد، فإن البرازيل لا تمتلك خطوط الاتصال البحرية الرئيسية التي تربط القارات والمحيطات مثلما تفعل الصين؛ كما أنها لا تقع أساسا في منطقة معتدلة المناخ مثل الصين، التي تمتلك طقسا منعشا وأكثر خلوا من الأمراض. تُطل الصين على غرب المحيط الهادي وتمتلك عمقا بریا يصل إلى آسيا الوسطى الغنية بالنفط والغاز الطبيعي. أما البرازيل فتمتلك أفضلية نسبية أقل؛ فهي تقع معزولة في أمريكا الجنوبية، منبوذة جغرافيا عن مساحات اليابسة الأخرى⁽¹⁷⁾.

ولماذا ظلت أفريقيا بمثل هذا الفقر؟ على الرغم من أن أفريقيا هي ثاني أكبر قارة من حيث الحجم، حيث تبلغ مساحتها خمسة أضعاف مساحة أوروبا، فإن طول سواحلها الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى يزيد قليلا على ربع طول السواحل الأوروبية. وبالإضافة إلى ذلك، يفتقر هذا الساحل إلى وجود عديد من الموانئ الطبيعية الجيدة، باستثناء موانئ شرق أفريقيا التي تشهد حركة تجارية قوية مع بلدان الجزيرة العربية والهند. هناك عدد قليل من الأنهار الاستوائية في أفريقيا التي تصلح للملاحة من البحر، حيث تصب من السهول الداخلية الواسعة إلى السهول الساحلية عبر سلسلة من الشلالات والمنحدرات النهرية، بحيث تظل أفريقيا الداخلية معزولة بصفة خاصة عن الساحل⁽¹⁸⁾. بالإضافة إلى ذلك، فقد أعاقَت الصحراء الكبرى الاتصال البشري من جهة الشمال طوال قرون كثيرة للغاية، بحيث لم تتعرض أفريقيا إلا قليلا لحضارات البحر المتوسط الكبرى في العصور القديمة، وما بعدها. ثم هناك الغابات الضخمة الكثيفة، المنتشرة على جانبي خط الاستواء، من خليج غينيا إلى حوض الكونغو، والواقعة تحت تأثير الأمطار الغزيرة والحرارة الحارقة⁽¹⁹⁾. ليست هذه الغابات بالصديقة للحضارة، كما أنها ليست مواتية للحدود الطبيعية، وبالتالي فإن الحدود التي أقامها المستعمرون الأوروبيون كانت، بالضرورة، حدودا مصطنعة. لقد منح العالم الطبيعي أفريقيا كثيرا مما يتعين عليها أن تجابهه في طريقها إلى الحداثة.

إذا أُلقيت نظرة فاحصة على قائمة أضعف الاقتصادات في العالم، فستلاحظ النسبة المرتفعة للبلدان غير الساحلية⁽²⁰⁾. لاحظ كيف أن البلدان الاستوائية (تلك التي تقع بين خطي العرض 23.45 درجة شمالا وجنوبا) عادة ما تكون فقيرة، كما أن معظم البلدان ذات الدخل المرتفع تقع في مناطق خطوط العرض الوسطى والعليا. لاحظ أيضا كيف أن المناطق المعتدلة، الواقعة بين الشرق والغرب في أوراسيا هي أفضل حالا من بلدان

أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، والواقعة بين الشمال والجنوب، لأن انتشار التكنولوجيا يعمل على نحو أفضل بكثير عبر خطوط العرض المشتركة، حيث تكون الظروف المناخية متشابهة، مما يسمح بالتالي للابتكارات المتحققة في مجال الاعتناء بالنباتات وتدجين الحيوانات بالانتشار بسرعة. وليس من قبيل المصادفة أن أفقر المناطق في العالم تميل إلى أن توجد حيث تدعم الجغرافيا، عن طريق ملاءمة التربة، الكثافة السكانية العالية، ولكن ليس النمو الاقتصادي، بسبب بُعد المسافة عن الموانئ ورؤوس السكك الحديد. وتُعد وسط الهند وأفريقيا الداخلية من أفضل الأمثلة على ذلك⁽²¹⁾.

وفي تلخيص مذهب للحتمية الجغرافية، أشار الجغرافي الراحل بول ويتلي Wheatley إلى أن «اللغة السنسكريتية تعرضت للتجميد حتى اقتصر استخدامها على نطاق لا يزيد على خمسمائة متر»، وبالتالي كانت الثقافة الهندية في جوهرها ظاهرة متعلقة بالأراضي المنخفضة⁽²²⁾. هناك عديد من الأمثلة الأخرى على الكيفية التي أثرت بها الجغرافيا على نحو ثري على مصير الشعوب، بطرق خفية وواضحة على حد سواء، والتي سأعرض مزيدا منها في سياق هذه الدراسة.

ولكن قبل أن نستكمل مناقشتنا، اسمحوا لي بأن أتناول مثال الولايات المتحدة؛ لأن الجغرافيا هي ما ساعد على ديمومة الازدهار الأمريكي، والتي قد تكون مسؤولة في نهاية المطاف عن الإيثار الأمريكي الإنساني الجامع panhumanistic. وكما لاحظ جون آدامز Adams، «ليست هناك عناية إلهية خاصة للأمريكان، كما أن طبيعتهم مماثلة لطبيعة غيرهم»⁽²³⁾. ويوضح المؤرخ جون كيغان Keegan الأمر بقوله إن أمريكا وبريطانيا لا يمكنهما امتلاك زمام الريادة في مجال الحريات سوى لأن البحر حماهما «من أعداء الحرية الملتصقين بالأرض». إن النزعة العسكرية والبراغماتية لأوروبا القارية خلال منتصف القرن العشرين، والتي طالما شعر الأمريكان بتفوقهم عليها، كانت نتيجة للجغرافيا، وليس الملامح الطبيعية. ظلت الدول والإمبراطوريات المتنافسة ملاصقة بعضها لبعض ضمن قارة مزدحمة. ولم يكن في وسع الدول الأوروبية مطلقا أن تنسحب إلى ما وراء البحار في حالة وقوع خطأ في حساباتها العسكرية. وبالتالي، فلم يكن من الممكن أن تركز سياساتها الخارجية على الأخلاقيات الأممية، كما أنها ظلت مسلحة بشكل جيد في مواجهة بعضها البعض حتى سقطت فريسة للهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية⁽²⁴⁾. لم يكن وجود

المحيطين وحده هو ما منح الأمريكان ترف مذهبهم المثالي، بل إن هذين المحيطين منحاً أمريكا وصولاً مباشراً إلى اثنين من الشرايين الرئيسية للسياسة والتجارة في العالم: أوروبا عبر المحيط الأطلسي وشرق آسيا عبر المحيط الهادي، تقع بينهما ثروات القارة الأمريكية⁽²⁵⁾. ومع ذلك فهذان المحيطان نفسيهما، عن طريق عزل أمريكا عن القارات الأخرى بآلاف الأميال، هما ما منحاً أمريكا سلاطة خبيثة من الانعزالية التي استمرت حتى يومنا هذا. وفي الواقع، فباستثناء ميدان نفوذها الخاص في الأمريكتين، فقد قاومت الولايات المتحدة بحماس سياسات القوى العظمى لما يقرب من مائة سنة: فحتى انهيار منظومة الدول الأوروبية في العام 1940 فشل في جر أمريكا إلى الحرب العالمية الثانية، فقد احتاج الأمر إلى شن هجوم على بيرل هاربور في العام 1941 لكي يحدث ذلك. وفي أعقاب الحرب، انسحبت الولايات المتحدة مرة أخرى من العالم، حتى اضطرها عدوان الاتحاد السوفيتي وهجوم كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية إلى إعادة قواتها مرة أخرى إلى أوروبا وآسيا⁽²⁶⁾. ومنذ نهاية الحرب الباردة، تأرجحت نخب السياسة الخارجية الأمريكية بين شبه الانعزالية وبين سياسة التدخل من منظور المثاليين: والتي ترجع جذور كل منهما إلى المحيطين. كتب عالم جامعة جونز هوبكنز ياكوب ج. غريجل Grygiel أن الجغرافيا «قد نُسيِت، لكنها لم تُهزم»⁽²⁷⁾. أما كولن س. غراي Gray، الذي عمل لفترة طويلة كمستشار للحكومتين البريطانية والأمريكية عن الاستراتيجية العسكرية، فكتب قائلاً إن «إلغاء التكنولوجيا للجغرافيا يتضمن ما يكفي تماماً لأن يُطلق عليه اسم مغالطة معقولة». لا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، فكما رأينا في العراق وأفغانستان، «يتطلب ممارسة النفوذ أو السيطرة المستمرة»، على حد تعبير غراي، «الوجود المادي لأفراد مسلحين في المنطقة المعنية»، بمعنى أن أي شخص يعتقد حقاً أن الجغرافيا قد تضاءلت أهميتها بصورة محورية هو شديد الجهل بالخدمات اللوجيستية العسكرية، وهي العلم المعني بنقل كميات كبيرة من الرجال والعتاد من قارة إلى أخرى. وما شهدته خلال أسفاري البرية مع الشعبة الأولى من مشاة البحرية في أرجاء العراق لم يكن سوى جزء صغير من تلك المهمة اللوجيستية، والتي تضمنت نقل الرجال والمعدات عبر آلاف الأميال عن طريق السفن من أمريكا الشمالية إلى الخليج العربي. وفي تحليل مستبصر على نحو لافت للنظر، والذي نشر في العام 1999،

كتب المؤرخ العسكري الأمريكي وليامسون موراي Murray أن القرن الجديد الذي يوشك على البدء من شأنه أن يجعل الولايات المتحدة تواجه مرة أخرى «الواقع الجغرافي القاسي» المفروض من قبل المحيطين، مما يقيّد ويزيد على نحو مذهل من تكلفة نشر قواتنا البرية في أماكن بعيدة. وفي حين يمكن إنهاء بعض الحروب ومهام الإنقاذ بسرعة عن طريق «الإغارة» المحمولة جوا (وهنا يتبادر إلى ذهن المرء الهجوم الإسرائيلي على مطار عنتيبي في أوغندا في العام 1976 لإنقاذ ركاب طائرة مخطوفة)، فحتى في تلك العمليات، تتسم التضاريس بأهميتها. تُحدد التضاريس وتيرة وطريقة القتال. نشبت حرب الفوكلاند في العام 1982 ببطء بسبب البيئة البحرية، في حين عملت الصحارى المسطحة للكويت والعراق في حرب الخليج في العام 1991 على تضخيم تأثير القوة الجوية، على الرغم من أن السيطرة على مساحات شاسعة وعالية الكثافة السكانية في العراق إبان حرب الخليج الثانية أظهرت حدود القوة الجوية، وبالتالي جعلت القوات الأمريكية ضحية للجغرافيا: يمكن للطائرات أن تقوم بالقصف، لكنها لا تستطيع نقل البضائع بكميات كبيرة، ولا ممارسة السيطرة على الأرض⁽²⁸⁾. وبالإضافة إلى ذلك، وفي كثير من الحالات، تتطلب الطائرات وجود قواعد قريبة بشكل معقول. وحتى في عصر الصواريخ الباليستية العابرة للقارات والقنابل النووية، لاتزال الجغرافيا مهمة. وكما أشار إليه مورغنثاو، فليس في وسع الدول الصغيرة والمتوسطة الحجم مثل إسرائيل، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، وإيران أن تتحمل نفس المستوى من العقاب الذي تتحمله الدول القارية الحجم مثل الولايات المتحدة، وروسيا، والصين، وبالتالي فهي تفتقر إلى المصدقية المطلوبة في تهديداتها النووية. وهذا يعني أنه يتعين على دولة صغيرة تقع في وسط خصوم لها، مثل إسرائيل، أن تكون سلبية بصفة خاصة، أو عدوانية على وجه الخصوص، من أجل أن تظل على قيد الحياة. وذلك في المقام الأول هو مسألة تتعلق بالجغرافيا⁽²⁹⁾.

لكن تبني خريطة التضاريس، جنبا إلى جنب مع الجبال والرجال، لا يعني رؤية العالم مدفوعا على نحو لا رجعة فيه من قبل الانتماءات العرقية والطائفية التي تقاوم العولمة، فالقصة أكثر تعقيدا من ذلك بكثير. أدت العولمة في حد ذاتها إلى تحفيز إحياء النزعات المحلية، المبنية في كثير من الحالات على الوعي العرقي

والديني، والتي تركز على مناطق جغرافية محددة، وبالتالي تُفسّر بأفضل صورة بالرجوع إلى خريطة التضاريس. ويرجع ذلك إلى أن قوى وسائل الاتصال الجماهيري والاندماج الاقتصادي قد أضعفت قوة العديد من الدول، بما في ذلك تلك التي قسمت على نحو مصطنع، والمتعارضة مع إملاءات الجغرافيا، مما يترك مكشوفاً، في بعض المجالات الحيوية، عالماً منقسماً وغير مستقر. وبسبب تكنولوجيا الاتصالات، اكتسبت الحركات الإسلامية قوة عبر كامل القوس الأفرو - آسيوي للعالم الإسلامي، على الرغم من كون الدول المسلمة المنفردة نفسها واقعة تحت الحصار من الداخل. ولناخذ مثالي العراق وباكستان، واللّتين يمكن القول من الناحية الجغرافية إنهما أكثر دولتين تم إنشاؤهما على نحو غير منطقي بين دول البحر الأبيض المتوسط وشبه القارة الهندية، حتى لو كانت خريطة التضاريس تحكم على أفغانستان باعتبارها دولة ضعيفة في أحسن الأحوال. صحيح أن العراق انهار لأن الولايات المتحدة قامت بغزوه، لكن طغيان صدام حسين (الذي عايشته عن كثب في ثمانينيات القرن العشرين، والذي كان الأسوأ في العالم العربي على الإطلاق)، كما يمكن للمرء أن يجادل، كان في حد ذاته محدداً جغرافياً. كان كل ديكتاتور عراقي منذ أول انقلاب عسكري في العام 1958 يصير أكثر قمعاً من سابقه من أجل الحفاظ على تماسك دولة تفتقر إلى حدود طبيعية وتتكون من الأكراد والعرب السنة والشيعة، والتي تغلي بفعل درجة واضحة المعالم من الوعي العرقي والطائفي.

إنني أدرك أهمية عدم المغالاة كثيراً في هذا الخط من النقاش. وفي الواقع أن الجبال التي تفصل كردستان عن بقية العراق، وكذلك سهل بلاد ما بين النهرين المقسم بين السنة في الوسط والشيعة في الجنوب، قد تكون أكثر محورية في تطور الأحداث من التوق إلى الديمقراطية. لكن أحداً لا يستطيع أن يعرف المستقبل، وبالتالي فوجود عراق مستقر وديموقراطي على نحو معقول هو بالتأكيد ليس أمراً غير وارد: فكما ساعدت جبال جنوب شرق أوروبا على فصل الإمبراطورية النمساوية - المجرية عن الإمبراطورية العثمانية التركية الأفقر والأقل تطوراً، والتي ساعدت على فصل المجموعات العرقية والمذهبية بعضها عن بعض طوال قرون في منطقة البلقان، فمن المؤكد أنها لم تحكم بالفشل على تدخلاتنا هناك لوقف الحروب الطاحنة.

أنا لا أتحدث هنا عن قوة غاشمة يقف الجنس البشري عاجزاً في مواجهتها، بل أود أن أدعو إلى قبول متواضع للمصير fate، المؤمن جوهرياً في حقائق الجغرافيا، من أجل كبح الحماس المفرط في السياسة الخارجية، وهو حماس كنت أنا شخصياً مذنباً بارتكابه.

وكلما ازدادت قدرتنا على كبح هذا الحماس، سيزداد نجاح التدخلات التي نشارك فيها، وكلما ازداد نجاح هذه التدخلات، ستزداد مساحة المناورة المتاحة أمام صناع القرار لدينا، أمام محكمة الرأي العام، للتصرف بالطريقة نفسها في المستقبل. إنني أدرك أنني أقف على أرضية خطيرة من حيث وضع الجغرافيا على قاعدة مرتفعة. ولذلك سأحاول، في سياق هذه الدراسة، أن أضع في اعتباري دائما التوبيخ الذي تلقاه أشعيا برلين على محاضراته الشهيرة التي ألقاها في العام 1953، والتي نشرت في العام التالي تحت عنوان «الحتمية التاريخية»، والتي شجب فيها - باعتباره عملا غير أخلاقي وجبانا - الاعتقاد بأن القوى غير الشخصية الهائلة مثل الجغرافيا، والبيئة، والخصائص العرقية تحدّد حياتنا واتجاه السياسة العالمية. أقدم برلين على توبيخ أرنولد توينبي Toynbee وإدوارد غيبون Gibbon على نظرتهما إلى «الأمم» و«الحضارات» باعتبارها «أكثر تماسكا» من الأفراد الذين يجسدونها، وعلى النظر إلى تعبيرات تجريدية مثل «التقاليد» و«التاريخ» باعتبارها «أكثر حكمة منا»⁽³⁰⁾. ومن منظور برلين، يكتسب الفرد ومسؤوليته الأخلاقية أهمية قصوى، وبالتالي لا يمكنه إلقاء اللوم في أفعاله - أو مصيره - على الإطلاق، أو بدرجة كبيرة، على عوامل مثل المشهد الطبيعي والثقافة. كانت لدوافع البشر أهمية بالغة في التاريخ؛ فهي ليست أوهاما يمكن تبريرها بعزوها إلى قوى أكبر. تمثل الخريطة بداية، وليست نهاية، لتفسير الماضي والحاضر.

وبطبيعة الحال، فإن الجغرافيا، والتاريخ، والخصائص العرقية تؤثر في الأحداث المستقبلية، لكنها لا تحددها. وعلى الرغم من ذلك، فإن تحديات السياسة الخارجية اليوم لا يمكن ببساطة حلها، ولا يمكن اتخاذ الخيارات الحكيمة، من دون الرجوع بدرجة كبيرة إلى هذه العوامل نفسها، والتي يبدو برلين للوهلة الأولى رافضا لها، في معرض هجومه الكاسح على كل أشكال الحتمية. إن الاعتماد على الجغرافيا والعوامل العرقية والطائفية قد خدمنا بشكل جيد في توقع وقوع العنف في كل من البلقان، في أعقاب نهاية الحرب الباردة، وفي العراق، بعد الغزو الأمريكي في العام 2003. على أي حال، فإن تحدي برلين الأخلاقي يعمل بشكل جيد حتى الآن كإطار للنقاشات التي دارت خلال العقدين الماضيين، حول أين ننشر القوات الأمريكية وأين لا ننشرها في الخارج.

ما العمل، إذن؟ كيف يمكننا شطّر الفرق بين إدراك أهمية الجغرافيا في صياغة التاريخ وخطر المغالاة في تأكيد هذه الحقيقة ذاتها؟ يمكن أن نلوذ هنا، في اعتقادي،

بمفهوم ريمون آرون حول «الأخلاقيات الرصينة المتجذرة في حقيقة الحتمية الاحتمالية»، لأن «الاختيار الإنساني يعمل دائما ضمن حدود أو قيود بعينها مثل إرث الماضي»⁽³¹⁾. إن الكلمة المفتاحية هنا هي «الاحتمالية» probabilistic؛ بمعنى أننا، في تركيزنا الحالي على الجغرافيا، نتمسك بحتمية جزئية أو مترددة، والتي تُقر بالاختلافات الواضحة بين الجماعات والأماكن، لكنها لا تُفرط في التبسيط، وتترك كثيرا من الاحتمالات مفتوحة. وكما كتب المؤرخ الإنجليزي نورمان ديفيز Davies ما نصه: «لقد صرت أعتقد أن السببية لا تتألف حصرا من عناصر حتمية، أو فردانية individualist، أو عشوائية، ولكن من مزيج من الثلاثة جميعها»⁽³²⁾. أما الدوليون الليبراليون Liberal internationalists، الذين أيدوا عموما التدخل في البلقان لكنهم اعترضوا على غزو العراق، فيعكسون هذه الروح من التمييز الدقيق. لقد استشعروا بحدسهم، مهما كان ذلك بصورة مُبهمة، إحدى الحقائق الرئيسية للجغرافيا: ففي حين كانت يوغوسلافيا السابقة تقع عند الطرف الغربي الأكثر تقدما من الإمبراطورية العثمانية السابقة، كونها متاخمة لأوروبا الوسطى، تقع بلاد ما بين النهرين عند تخومها الشرقية، وهي أكثرها فوضوية. ولأن هذه الحقيقة قد أثّرت في التطور السياسي حتى عصرنا الحاضر، فسيثبت أن التدخل في العراق كان بمنزلة نزهة.

ماذا إذن، يمكن لهذا المصير المتواضع، وتلك اليد الخفية، أن يحمل لنا في السنوات القادمة؟ ماذا عسانا أن نتعلمه من الخريطة، والذي يحذرنا مسبقا من الأخطار المحتملة؟ دعونا نستعرض بعض آثار الجغرافيا على النمط الرئيسي لتاريخ العالم من منظور عديد من كبار علماء القرن العشرين، وبعد ذلك سننظر تحديدا إلى الجغرافيا والتدخل الإنساني عبر عيني أحد الرجال العظام، والذي عاش في العصور القديمة. من شأن هذا أن يُعدّنا لاستقصاء أكثر النظريات الجيوسياسية المعاصرة صمودا أمام اختبار الزمن وأشدها استفزازا، لنرى إلى أين تأخذنا في أثناء وصفنا للعالم الآتي.

هيرودوت وخلفاؤه

خلال الفترة الممتدة من منتصف القرن العشرين إلى نهايته، عندما كان هانز مورغنثاو يدرّس في قسم العلوم السياسية بجامعة شيكاغو، كان هناك أستاذان آخران يصوغان أيضا مسارين أكاديميين باهرين في قسم التاريخ: وليام هـ ماكنيل McNeill ومارشال ج.س. هودجسون Hodgson. كانت الجامعة تتفجر بالصرامة والمواهب، ومن خلال التركيز على هؤلاء الأساتذة الثلاثة، لا أقصد التقليل من شأن الآخرين. وفي حين حدّد مورغنثاو معالم المعرفة الواقعية لعصرنا الحالي، فعل ماكنيل الشيء نفسه حرفيا بالنسبة إلى تاريخ العالم، وكذلك فعل هودجسون بالنسبة إلى تاريخ الإسلام، في كتب ضخمة شبيهة بحجم مجلدات هيرودوت، والتي نادرا ما كانت فيها

«تتسم الحضارات بكونها، في نواح كثيرة، استجابات شجاعة وقوية للبيئات الطبيعية»

المؤلف

الجغرافيا بعيدة المنال. إن الجرأة ذاتها التي أظهرها ماكنيل وهودجسون في اختيار موضوعاتهما تظل مثيرة للإعجاب في هذه الحقبة الأكاديمية الحالية، بسبب التركيز على تخصص ضيق - وهو أمر، في الحقيقة، صار ضرورة في ظل تراكم الكمّ المعرفي بشكل مطرد. لكن قراءة ماكنيل وهودجسون تجعلك تشعر بما يشبه الحزن على فترة لم تنقُص منذ مدة طويلة، والتي بدت فيها آفاق العلماء كأنها لا حدود لها. جلب التخصص نمطه الفريد من الازدهار، لكن المجتمع الأكاديمي يمكنه الاستفادة على نحو أكثر مما يمثله هذان الأستاذان في جامعة شيكاغو. وقد أظهر أن الجغرافيا تمثل في حد ذاتها وسيلة للتفكير على نطاق واسع.

كان وليام ماكنيل هاردي، المولود في مقاطعة كولومبيا البريطانية الكندية، في منتصف الأربعينيات من عمره عندما نشر، في العام 1963، كتابه المعنون «صعود الغرب: تأريخ للمجتمع البشري»، وهو كتاب يزيد حجمه على ثمانمائة صفحة. تمثل الموضوع الرئيسي للكتاب في تحدي وجهة نظر المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي والمؤرخ الألماني أوزفالد شبنغلر Spengler، والقاتلة بأن الحضارات المنفصلة قد حققت مصائرهما على نحو مستقل. وبدلاً من ذلك، يجادل ماكنيل بأن الثقافات والحضارات كانت في تفاعل مستمر، وأن هذا التفاعل هو ما شكّل الدراما الأساسية لتاريخ العالم. وإذا كان الكتاب متعلقاً بأي شيء، فهو يتناول الحركات الكبرى للشعوب عبر أرجاء الخريطة قاطبة.

للتوضيح: جلبت حركة آتية من الشمال ما يسمى «فلاحو الدانوب» Danubian cultivators إلى وسط وغرب أوروبا ما بين عامي 4500 و4000 قبل الميلاد. وفي الوقت نفسه، فإن حركة جنوبية من الرعاة والمزارعين الرواد عبرت شمال أفريقيا حتى مضيق جبل طارق، «لالتقاء والاختلاط مع الفيضان الآتي من الدانوب». لكن جماعات الصيادين القديمة في أوروبا لم تتعرض للتدمير، كما كتب ماكنيل؛ فبدلاً من ذلك، كان هناك اختلاط بين السكان والثقافات⁽¹⁾. وهكذا يبدأ جوهر الكتاب. نشأت كل هذه الهجرات البشرية، في شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط، من الهلال الخصيب وهضبة الأناضول Anatolia، حيث كان عدم الاستقرار السياسي ناتجاً إلى حد كبير عن الجغرافيا. «في حين تقع مصر على جهة موازية ومسالمة لطرق مرور البشر، فقد كان العراق منذ قديم الأزل إقليمًا حدوديًا، قائم الزاوية وبغيضا

بالنسبة إلى المسارات المقدّرة سلفاً للبشر»، كما كتبت أديبة الرحلات البريطانية الراحلة فريا ستارك Stark⁽²⁾. وفي الواقع، كما ذكر ماكنيل، فإن بلاد ما بين النهرين تقع عبر واحد من أكثر مسارات الهجرة دموية في التاريخ. «بمجرد أن تبدأ المدن الواقعة في السهول في الازدهار»، كنتيجة للطبيعة المنحدرة بلطف في الجزء السفلي من وادي دجلة والفرات، والذي حمل مياه الري لأميال، «كانت تصير أهدافا مغرية للنهب من قبل الشعوب الهمجية التي تعيش في البلاد المحيطة».

وبالإضافة إلى ذلك، فعندما زُرعت معظم الأراضي القابلة للري من بلاد ما بين النهرين، واقتربت حقول مجتمع ما مع حقول مجتمع آخر، نشبت حروب مزمنة، كما لم تكن هناك سلطة مركزية لتسوية النزاعات الحدودية، أو لتقسيم المياه في أوقات النقص. وفي خضم هذه الحالة من شبه الفوضى، دخل فاتحون مثل سارغون Sargon (2400 قبل الميلاد) بلاد ما بين النهرين من حواف المنطقة المزروعة. وعلى الرغم من تمكنهم من إنشاء سلطة مركزية، فإن العسكر المنتصرين، بعد بضعة أجيال، كما يخبرنا ماكنيل، تخلوا عن الحياة العسكرية من أجل «أنماط الحياة الأوثر والأفخم» التي تُرى في البلدات. وهكذا، بدأ التاريخ يُعيد نفسه مع وصول فاتحين جدد.

يذكرنا هذا كثيرا بالنمط الذي وصفه المؤرخ والجغرافي التونسي الذي عاش في القرن الرابع عشر، ابن خلدون Ibn Khaldun، والذي لاحظ أنه على الرغم من أن المعيشة الفاخرة تقوي الدولة في البداية عن طريق تعزيز شرعيتها، فهي تؤدي إلى الانحطاط في الأجيال التالية، حيث تُستهل عملية الانهيار بصعود قادة أقوياء في المقاطعات، والذين يقومون بالغزو وتوطيد سلالاتهم الحاكمة في نهاية المطاف⁽³⁾. أدى صعود الحضارة في العراق القديم إلى ظهور أشد الأنظمة الاستبدادية قسوة من أجل درء التفكك من الداخل: ولذلك نجد تغلث - فلاسر - Tiglath - pileser في (القرنين الحادي عشر والثاني عشر قبل الميلاد)، وآشورناصر بال الثاني Ashurnasirpal II (القرن التاسع قبل الميلاد)، وسنحاريب (في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد)، وغيرهم، والذين اشتهروا بالقسوة، وجنون العظمة، وعمليات الترحيل الجماعي التي ارتكبت باسمهم⁽⁴⁾. وقد استمر هذا النمط حتى بلغ ذروته في عهد صدام حسين: وهو النمط الذي ساد في منطقة معرضة للغزو والتشرد،

والتي تطلبت - طوال فترات طويلة من التاريخ - مستويات كبيرة من الطغيان. ولكن مرة أخرى، ينبغي على المرء أن يتجنب الوصول إلى مثل هذا الاستنتاج الضيق: على سبيل المثال، فما بين عامي 1921 و 1958، شهد العراق نظاما برلمانيا جيد الأداء على نحو متواضع، الأمر الذي كان من الممكن أن يستمر لو تغيّرت الظروف قليلا. تحدث ماكنيل، وابن خلدون، وستارك عن الاتجاهات التاريخية والجغرافية فقط، وبالتالي فقد تجنبوا الاتهام بالحتمية⁽⁵⁾.

ومثلما شكلت الجغرافيا أساسا لمستوى غير عادي من الاستبداد والبيروقراطية في بلاد ما بين النهرين، يشرح لنا ماكنيل كيف انتهت في مصر إلى حكم أقل استبدادا إلى حد ما.

«منحت الصحارى أرض مصر حدودا واضحة ويمكن الدفاع عنها بسهولة؛ في حين زودها النيل بعمود فقري وجهاز عصبي طبيعي»، وبالتالي فلم تكن مستويات القهر المتبعة في بلاد ما بين النهرين ضرورية بطول نهر النيل. واستطرد قائلا إن «الدفاعات الحدودية ضد الغزاة الخارجيين نادرا ما مثلت مشكلة خطيرة بالنسبة إلى ملك مصر»، وفي الواقع، وبسبب موقع مصر المواتي في مواجهة طرق الهجرة بالمقارنة مع بلاد ما بين النهرين، كان تسلل الليبيين من جهة الغرب والآسيويين من الشرق يمثل مشكلة بسيطة نسبيا. كانت حدود مصر مغلقة من جهة الجنوب، حيث لا يوجد شيء سوى صحراء جرداء على جانبي النهر؛ بينما تمثلت حدودها الشمالية في البحر الأبيض المتوسط. ومن المحتمل أن المصريين، وطوال أربعة آلاف سنة، «لم يروا قط مضيغا غازيا بين ظهرائهم»⁽⁶⁾. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت الملاحة في النيل سهلة، كون جريان النهر يحمل القوارب شمالا، وحتى على الرغم من كون الرياح تهب عادة من الشمال إلى الجنوب، فقد كانت القوارب تُبحر جنوبا، بمساعدة الأشعة. وهكذا تمكن فجر الحضارة من البزوغ في مصر. وفي هذا السياق، كتب ماكنيل: «على النقيض من ذلك، لم يكن يتوافر لدى حكام بلاد ما بين النهرين أي أدوات طبيعية جاهزة يمكنهم استخدامها في تأمين سلطتهم المركزية، لكنهم اضطروا، على نحو بطيء ومؤلم إلى وضع قانون [قمعي] وإدارة بيروقراطية باعتبارهما بدلا اصطناعيا عن التمثيل الطبيعي الذي منحه الجغرافيا لمصر». كانت البيروقراطية الثقيلة الوطأة في بلاد ما بين النهرين مضطرة أيضا إلى التعامل

مع المعدلات المتقلبة لفيضانات نهري دجلة والفرات، على عكس الحال مع نهر النيل، الأمر الذي زاد من تعقيد تنظيم منظومة الري⁽⁷⁾. وحتى اليوم، فعلى الرغم من أن كلا من مصر والعراق ظلتا تحت حكم أنظمة ديكتاتورية لفترات زمنية طويلة، لكن حقيقة كون النظام العراقي أسوأ بكثير هي أمر يمكننا، ولو بصورة جزئية، تتبع جذوره إلى العصور القديمة، وإلى الجغرافيا.

وفيما وراء الشرق الأوسط، كان هناك ما أسماه ماكنيل الحضارات «الطرفية» في الهند، واليونان، والصين، والواقعة «على هامش العالم المتحضر قديما»، والتي استمدت في حالة البلدين الأولين جزءا كبيرا من حيويتها من حضارتي نهر السند وجزيرة كريت في ظل الحضارة المينوسية Minoan Crete، على الترتيب. لكن كل الحضارات الثلاث استفادت أيضا من تفاعلها مع الغزاة البرابرة، حتى على الرغم من كونها محمية منهم جزئيا بحكم جغرافيتها. وبالنسبة إلى اليونان والهند، فبفضل جبالهما الشمالية، فقد كانتا على حد سواء «محميتين على نحو فعال من أي هجوم مباشر من فرسان السهوب». كانت الصين حتى أكثر انعزالا منهما، بفعل الصحاري الوحشية، وقمم الجبال العالية، والمسافة المحضة، إذ كانت آلاف الأميال تفصل وادي النهر الأصفر، حيث بدأت الحضارة الصينية، عن الشرق الأوسط وعن الأراضي المركزية الهندية.

تمثلت النتيجة في ثلاث حضارات أصلية تماما، وخصوصا حضارة الصينيين، والتي تمكنت من النمو بشكل منفصل عن الاتساق الثقافي المتزايد للشرق الأوسط المكون في معظمه من صحراء كبرى، والتي تمتد من شمال أفريقيا إلى تركستان⁽⁸⁾.

يشرح ماكنيل أنه طوال العصور القديمة، أدى المد والجزر على الحدود بين الحضارات الهيلينية، والشرق أوسطية، والهندية إلى توازن حضاري دقيق في أوراسيا، التي ستعرض للتدمير لاحقا في القرون الوسطى بسبب تدفق شعوب السهوب من الشمال، ولا سيما المغول⁽⁹⁾. ازدهر طريق الحرير Silk Route إلى حد كبير عن طريق المغول، خصوصا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، مما جعل الحضارات الأوروبية - الآسيوية من المحيط الهادي إلى البحر المتوسط يتواصل بعضها مع بعض على نحو محدود. ومع ذلك، فقد شكلت الصين محيطها الخاص المنفصل جغرافيا مقارنة بالحضارات الواقعة إلى الغرب منها، مع توجيه كل من التبت،

ومنغوليا، واليابان، وكوريا أنظارها تجاه المملكة الوسطى، حيث قامت كل منها - وبدرجات متفاوتة - بتكوين حضارتها الخاصة. ومع ذلك، فالقيود الشديدة التي فرضتها البيئة الصحراوية القاسية «جعلت أي شيء أكثر من حضارة بدائية مستحيلة في التبت ومنغوليا»، كما كتب ماكنيل. أما اللاميون Lamaists التبتيون، الذين كانوا «مدركين دائماً للأصول البوذية الهندية لعقيدتهم»، فكانوا في الواقع معارضين لفرض الهوية الصينية Sinification من خلال اتباع تقاليد الحضارة المنافسة الواقعة في الجوار⁽¹⁰⁾. إن التاريخ، وفقاً لماكنيل، هو دراسة انسيابية، والتي تبدو فيها الأمور آمنة ومرتبطة جغرافياً بكل دقة: والأهم أننا نظل دائماً في حالة من التحولات الصغيرة والتبادلات الثقافية.

وفي حين عارض شبنغلر، وتوينبي، وفيما بعد صامويل هنتنغتون، الأستاذ بجامعة هارفارد وصاحب نظرية «صدام الحضارات»، ففي معرض تأكيده التأثير بين الحضارات بدلاً من تباعدها، فإن كتاب ماكنيل المعنون «صعود الغرب»، على الرغم من ذلك، يشغل ذهن القارئ بكامل فكره كون الحضارات التي تشكلت إلى حد كبير بفعل الجغرافيا، والتي سعدت من مناطق يمكن تحديدها بدقة، تحقق هويتها الخاصة، ومن ثم تتفاعل مع الحضارات الأخرى، مشكلة بدورها هجائن جديدة. وبهذه الطريقة، يُحبك نسيج التاريخ⁽¹¹⁾. وهنا يصف ماكنيل العملية بتعبيرات مجازية:

يمكن تشبيه الحضارات بسلاسل الجبال، التي ترتفع عبر دهور من الزمن الجيولوجي، والتي تعمل قوى التآكل ببطء ولكن بصورة يتعذر اجتنابها على تسويتها بمحيطها. وخلال الفترة الزمنية الأقصر بكثير للتاريخ البشري، كانت الحضارات، بدورها، عرضة للتآكل مع انقضاء كوكبة الظروف الاستثنائية التي حفزت صعودها، بينما تقوم الشعوب المجاورة برفع أنفسها إلى آفاق ثقافية جديدة عن طريق الاقتراض من، أو التفاعل بصورة أخرى مع، المنجزات الحضارية⁽¹²⁾.

بيد أن هذا التآكل والاقتراض يرعب صفاء المفكر الألماني الذي عاش في أوائل القرن العشرين، أوزفالد شبنغلر، الذي كتب عن «الروابط العميقة للتربة» التي تحدد أفضل الثقافات الرفيعة: كيف يمكن للتطور الداخلي للممارسات والعقائد

المقدسة أن يظل «مسحورا في مكان ولادتها»، إذ إن «أيا ما كان ما يفصلها عن الأرض سيصبح جامدا وصلبا». ويستطرد قائلا إن الثقافة الرفيعة تبدأ في «الريف قبل الحضر» وتصل إلى ذروتها مع «خاتمة من النزعات المادية» في «المدن العالمية» world cities. وبالنسبة إلى هذه الرومانتيكية الكثيبة، التي يمكن أن تكون في آن واحد طنانة، ومنومة، وعميقة، وبصراحة، غير مفهومة في بعض الأحيان عند ترجمتها إلى الإنجليزية، فإن الكوسموبوليتية cosmopolitanism هي جوهر عدم الانتماء، لأنها ليست مرتبطة بالأرض⁽¹³⁾.

يثير هذا مسألة الصعود والانحيار اللاحق للحضارة الغربية في المناطق الحضرية، والذي يتحول ونحن نتحدث إلى حضارة عالمية، والذي يتباعد عن التربة بشكل متزايد. وسأعرض لهذا التساؤل في موضع لاحق من الكتاب. وفي الوقت نفسه، أريد الاستمرار مع ماكنيل، الذي كان، في كل كتاباته، وحتى أكثر من شبنغلر نفسه، وبصورة أكثر وضوحا بكثير، مهتما بالمناخ والجغرافيا.

كتب ماكنيل، على سبيل المثال، أن الآريين Aryans في سهل نهر الغانج Gangetic plain في الهند قد طُوروا سمات ثقافية مختلفة وأقل ميلا إلى الحرب مما فعلوا في أوروبا المطللة على البحر المتوسط بسبب تأثير غابات شبه القارة ودورة الرياح الموسمية، وهو ما شجع التأمل والمعرفة الدينية.

وفي مثال آخر، كتب أن «النضج المبكر» لمنطقة آيونيا Ionia اليونانية كان بسبب القرب من، والاتصال الحميم مع آسيا الصغرى والمشرق. ومع ذلك فهنا، أيضا، ينسحب ماكنيل من الحتمية المحضة: فعلى الرغم من التضاريس الجبلية في اليونان، التي سهّلت إقامة وحدات سياسية صغيرة، أي الدول المدنية - city states، نجده حريصا على أن يذكر أنه في عدد من الحالات، «جرى تفتيت مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة المتجاورة» إلى دول مدنية مختلفة، بحيث لا يمكن أن تمثل الجغرافيا إلا جزءا من القصة. وفوق كل شيء، بالطبع، هناك تاريخ اليهود، والذي يتعارض مع كامل منطق الاستمرارية الجغرافية للديانات الكبرى (وخصوصا الهندوسية والبوذية)، والذي تحمّل ماكنيل مشقة تضمينه لهذا السبب: إن التدمير التام للمجتمع اليهودي في يهودا Judea، والذي كان نتيجة لسحق الثورات التي اندلعت خلال القرنين الأول والثاني للميلاد من قبل الرومان، لم يؤد إلى القضاء على

الديانة اليهودية، والتي واصلت طريقها بصورة غير متوقعة لتتطور وتزدهر في مدن الشتات الغربي المتناثرة، في قصة عمرها ألفا عام، والتي تتعارض مع تعاليم الجغرافيا، مما يُظهر مرة أخرى كيف أن الأفكار والفاعلية الإنسانية تكتسب نفس أهمية البقاع المادية⁽¹⁴⁾.

وعلى أي حال، هناك أيضا قصة من أوروبا، والتي تعود إلى فجر التاريخ البشري، وهي قصة تتعلق كثيرا بصدارة الجغرافيا. وكما أشار إليه ماكنيل، تتمتع أوروبا الغربية بمزايا جغرافية متميزة، والتي عملت على تفعيلها التطورات التكنولوجية خلال ما يسمى بالعصور المظلمة: سهول واسعة وخصبة، وخط ساحلي مسنن، والذي سمح بإنشاء عديد من المرافئ الطبيعية الجيدة، والأنهار الصالحة للملاحة المتدفقة شمالا عبر هذه السهول مما عمل على توسيع نطاق التجارة إلى حد أكبر مما كانت عليه في منطقة البحر المتوسط، ووفرة من الأخشاب والمعادن⁽¹⁵⁾. كانت أوروبا تتميز أيضا بظروف مناخية قاسية، وباردة، ورطبة، والتي دفعت توينبي، الذي لم يكن قدريا، عند مستوى حاسم، مثله في ذلك مثل ماكنيل، إلى أن يكتب على الرغم من ذلك قائلا: «تتسم السهولة بمعاداتها للحضارة... فكلما زادت سهولة البيئة، ضعف الحافز تجاه الحضارة⁽¹⁶⁾». وبالتالي فقد تطورت أوروبا بسبب ظروفها الجغرافية التي كان من الصعب العيش فيها، لكنها كانت تمتلك العديد من النقاط العقدية الطبيعية للنقل والتجارة. تتسم الحضارات بكونها، في نواح كثيرة، استجابات شجاعة وقوية للبيئات الطبيعية.

وكمثال على ذلك، لنأخذ قرب المنطقة الإسكندنافية Scandinavia والضغوط العسكرية التي فرضها ذلك على شواطئ أوروبا الغربية، الأمر الذي أدى إلى تشكل إنجلترا وفرنسا بوصفهما كيانين وطنيين. أما إنجلترا، وبالإضافة إلى ذلك، ولكونها أصغر حجما من الممالك الإقطاعية في القارة الأوروبية، وكما كتب توينبي، فقد «امتلكت حدودا أفضل تحديدا [فقد كانت جزيرة، على أي حال]»، فقد حققت وجودا وطنيا، مقابل ذلك الإقطاعي، قبل جيرانها بكثير⁽¹⁷⁾.

وبطبيعة الحال، فإن بعض المناطق الطبيعية، كالقطب الشمالي، على سبيل المثال، تكون من الوعورة بحيث يمكن أن تؤدي إلى انهيار حضاري، أو إلى حضارة مقيدة. أما ما سبق ذلك، وفقا لتوينبي، فهو عمل ثقافي بارع - مثل قدرة الإسكيمو

على البقاء الفعلي على الجليد في الشتاء وعلى صيد كلاب البحر. ولكن على الرغم من تمكنهم من إنجاز هذا العمل الفذ من البقاء على قيد الحياة، فقد ظلوا غير قادرين على التحكم في البيئة إلى مدى بناء حضارة كاملة. لقد قام توينبي، فضلا على الجغرافي المعاصر بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس جارد دياموند Diamond، بكتابة مجلدات حول الصعوبات والانهيئات الحضارية بين ثقافات القرون الوسطى من الفايكنغ الذين عاشوا في غرينلاند، والبولينيزيين من سكان جزيرة الفصح، وشعب الأناسازي Anasazi في جنوب غرب أمريكا، وقبائل المايا في مجاهل أمريكا الوسطى، والتي كانت ترتبط جميعها بوجود مشكلات مع البيئة⁽¹⁸⁾. أما أوروبا، على ما يبدو، فقد أظهرت الدرجة المثلث من الصعوبات البيئية، مما جعل من الصعب على سكانها الارتقاء إلى مستويات حضارية أعلى، حتى على الرغم من أنها لاتزال تقع في المنطقة المعتدلة الشمالية، على مقربة إلى حد ما من أفريقيا، والشرق الأوسط، والسهوب الأوراسية، وأمريكا الشمالية، وبالتالي كانت شعوبها قادرة على الاستفادة بصورة كاملة من أنماط التجارة التي ازدهرت في سياق قرون من التقدم التكنولوجي في الملاحة وغيرها من المجالات⁽¹⁹⁾. لننظر إلى إتيان فاسكو دا غاما da Gama للإبحار عبر الرياح الموسمية في المحيط الهندي، والذي سمح للتخوم الخارجية من أوراسيا بأن تصبح محور الممرات البحرية العالمية الواقعة تحت الهيمنة الأوروبية. ولكن في رواية ماكنيل، فليس التقدم المادي لأوروبا وحده، في ظل المادية الصعبة البيئة، هو ما أدى إلى صعود الغرب، ولكن إغلاق المساحات «البربرية»، على حد تعبيره⁽²⁰⁾.

تحدث ماكنيل عن «تعدُّ لا هواده فيه، إن لم يكن متواصلا من دون انقطاع، للحضارات على الهمجية: كان هذا التعدي هو ما أدى إلى تراكم مادة والتنوع الداخلي للحضارات المنفصلة في العالم، وزاد من وتيرة الاتصال فيما بينها، مما مهد الطريق أمام التوحيد المذهل للعالم، والذي حدث خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الماضية⁽²¹⁾».

إن هذا الإغلاق الحضاري للمساحات الفارغة نسبيا من الأرض، والتي تقع في معظمها في المنطقة المعتدلة المناخ، بدأ أساسا مع الرحلات الاستكشافية: والتي قام بها كل من دا غاما، وكولومبوس، وماجلان، وغيرهم. واستمرت خلال المراحل

المعروفة من الثورات في مجالات الصناعة، والنقل، والاتصالات وحتى عصر العولمة الذي نعيشه اليوم. وفيما بين المرحلتين، جاء انهيار شعوب السهوب، مع تقاسم روسيا، والصين، وإمبراطورية هابسبورغ لسهول ونجود وسط أوراسيا الفارغة نسبيا. وكان هناك، أيضا، انهيار جماعات السكان الأصليين مع التأمين العنيف للحدود الغربية لقارة أمريكا الشمالية، وزحف الاستعمار الأوروبي على بلدان أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى⁽²²⁾. إن العالم، كما يصفه ماكنيل، قد اتحد الآن في نهاية المطاف تحت ثقافة غربية إلى حد كبير، وحضرية على نحو متزايد. تذكر أن الشيوعية، على الرغم من كونها امتدادا للنزعات الاستبدادية داخل المسيحية الأرثوذكسية الشرقية، وبالتالي إهانة لليبرالية، فإنها كانت تمثل أيديولوجية خاصة بالغرب الصناعي. أما النازية، أيضا، فقد برزت بوصفها آفة أصابت الغرب الذي كان يعاني التضخم والتحول السريع إلى العصرية. لا يتحدث ماكنيل عن الوحدة السياسية، ولكن عن النزعات الثقافية والجغرافية والديموغرافية الأوسع.

وعلى الرغم من أن الموضوع الرئيسي لكتاب «صعود الغرب» هو إغلاق المساحات الفارغة على الخريطة، فمن الواضح أن هذا لم يكن صحيحا إلا بصورة نسبية فقط. إن حقيقة أن خطين للسكك الحديدية، والقادمين من اتجاهين معاكسين، قد التقيا ولامس أحدهما الآخر لا تعني أنه لم تعد هناك مساحات فارغة أو قليلة السكان فيما بينهما. قد تُغلق الحدود بالمعنى الرسمي، لكن كثافة السكان من البشر والتواصل الإلكتروني بينهم يتزايدان بوتيرة حادة. ومعدل الزيادة هذا هو ما يساعد على صياغة الدراما السياسية للعالم الذي نعيش فيه اليوم. قد يعتبر ماكنيل أن العالم المتحد هو ذلك الذي لا يبعد فيه أي جزء من الأرض المتحضرة أكثر من بضعة أسابيع عن جزء آخر⁽²³⁾.

ولكن كيف يمكن أن تتغير الجغرافيا السياسية عندما لا يفصل بين أبعد الأماكن سوى بضعة أيام، أو ساعات، كما هي الحال في عصرنا الحالي؟ كان العالم موحدا، بمعنى ما، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لكن هذا العالم لا يشبه في كثير - من حيث الديموغرافيا والتكنولوجيا - ذلك الذي نعيشه في أوائل القرن الحادي والعشرين. إن الدراما الأساسية لعصرنا هذا، كما سنرى، هي الامتلاء المطرد للمساحة، مما يهدد الطريق أمام جغرافيا مغلقة بالفعل؛ حيث لا تمتلك الدول

والجيوش سوى مساحة متضائلة على نحو متزايد للاختباء. وعلى الرغم من كونها ممكنة mechanized، فإن أوائل الجيوش الحديثة في القرن الماضي كانت تحتاج إلى عبور أميال عديدة لملاقاة بعضها البعض، أما الآن فهناك مجال متداخل للصواريخ بعيدة المدى. لا تختفي الجغرافيا في هذا السيناريو، بل إنها تصبح، كما سنرى، أكثر أهمية من ذي قبل.

ولتناول هذه المناقشة بطريقة أخرى، اسمحوا لي بأن أعود إلى مورغنثاو. كتب مورغنثاو أن التوسع الإمبريالي نفسه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى مساحات جغرافية فارغة نسبيا في أفريقيا وأوراسيا وأمريكا الشمالية الغربية، أدى إلى انعطاف سياسات القوة العظمى إلى أطراف الأرض، وبالتالي تقليل الصراع. وعلى سبيل المثال، فكلما ازداد الاهتمام الذي منحته روسيا، وفرنسا، والولايات المتحدة إلى التوسع في الأراضي النائية بطريقة إمبريالية، قل الاهتمام الذي توجهه إحداها إلى الأخرى، وازداد العالم سلاما، بصورة ما⁽²⁴⁾. ولكن بحلول أواخر القرن التاسع عشر، كان اندماج الدول والإمبراطوريات القومية الكبرى في الغرب قد انتهى، بحيث لم يعد في إمكانها تحقيق المكاسب الإقليمية إلا على حساب بعضها البعض⁽²⁵⁾. وقد لخص مورغنثاو الموقف بقوله:

عندما صار ميزان القوى عالميا - مع توزع ثقله الرئيسي في ثلاث قارات، فإن الانقسام بين دائرة القوة العظمى ووسطها، من جهة، وبين محيطها والمساحات الفارغة فيما وراءه، من جهة أخرى، يجب أن يختفي بالضرورة. يتزامن محيط ميزان القوى الآن مع تخوم الأرض⁽²⁶⁾.

وعلى الرغم من أن رؤية مورغنثاو، التي كتبها خلال السنوات المتوترة لأوائل حقبة الحرب الباردة، تُنذر بالخطر، فإن رؤية زميله في الجامعة نفسها، ماكنيل، والتي كتبها في مرحلة لاحقة وأكثر استقرارا من الحرب الباردة، توحى بالأمل:

قامت سلالة هان Han في الصين القديم.. بتوجيه ضربة قاضية إلى الدويلات المتحاربة عن طريق إنشاء هيكل إمبراطوري بيروقراطي ظل صامدا حتى يومنا هذا تقريبا، مع انهيارات وتعديلات متواضعة بين الحين والآخر. أما الدول المتحاربة في القرن العشرين فبدت كأنها متجهة نحو حل مماثل لصراعاتها⁽²⁷⁾.

يبدو من المؤكد أن سقوط جدار برلين في العام 1989 قد عزز تفاؤل ماكنيل. ومع ذلك، يجادل البعض بأن العالم اليوم لا يزال خطيرا بالقدر نفسه كما كان خلال الحرب الباردة، لأن الخريطة تستمر في الانغلاق بعدد وافر من الطرق. ولناخذ الصين كمثال: قام ماو تسي تونغ Mao Zedong، بتكلفة باهظة بالتأكيد، بتوحيد الصين كدولة حديثة، كما تصعد الصين حاليا من الناحية الاقتصادية (وإن كان بوتيرة أبطأ) والعسكرية إلى مصاف القوى العظمى، بحيث صارت تملأ رقعة الشطرنج الأوراسية حتى أكثر مما كان بوسع مورغنثاو أن يتخيل. وفي الوقت نفسه، فحتى أبعد مناطق العالم صارت أكثر تهمّنا urbanized، وفي حين كان بوسع شبنغلر أن يرى انحسار الحضارة في هجر التربة والحياة الزراعية، فإن التوسع العشوائي للمدن والتجمعات الحضرية المزدهمة، كما حدس ماكنيل، يؤدي الآن إلى تحولات في الدين والهوية بطرق قوية، وإن كانت مثيرة للقلق⁽²⁸⁾: فالإسلام، على سبيل المثال، يتحول من دين تقليدي قائم على الزراعة إلى دين أكثر تزمّتا، والذي يتسم بأيديولوجيته في بعض الحالات، من أجل تنظيم السلوك في الأحياء الفقيرة الواسعة، واللاشخصية حيث تكون الأسرة الممتدة والأقرباء أقل وضوحا وتأثيرا؛ وهذا يؤدي إلى شرق أوسط مكون من مدن كبرى وغيرها من التجمعات الحضرية التي أنشئت في الأرياف السابقة التي تتسم، على الرغم من كونها فقيرة، بوجود معدلات منخفضة عموما من الجرائم، حتى لو كانت ثمرة ذلك هي أحيانا الإرهاب العالمي المزعزع للاستقرار. وكذلك فإن المسيحية، ونتيجة لضغوط المعيشة في الضواحي في الجنوب والغرب الأمريكي، تصبح أكثر أيديولوجية، حتى مع تجذر شكل فضفاض من الوثنية البيئية في مدن أوروبا، ليحل محل النزعات القومية التقليدية، نظرا إلى أن الدولة الفائقة المتمثلة في الاتحاد الأوروبي ليس لديها سوى معنى مجرد للجميع، باستثناء النخبة. وفي الوقت نفسه، لم تعد الحرب - كما كانت الحال في أوروبا خلال القرن الثامن عشر - «رياضة الملوك»، ولكن أداة للتعصب القومي والديني، سواء كان ذلك على نطاق واسع كما هي الحال في ألمانيا النازية، أو على نطاق أصغر كما هي الحال مع تنظيم القاعدة⁽²⁹⁾. ويضاف إلى ذلك الشبح المرعب المتمثل في الأسلحة النووية الموجودة لدى النخب المتطرفة على مستوى الدولة وعلى المستوى المحلي. وفي خضم كل هذه التحولات المربكة والمضطربة، نجد أن الجغرافيا الكلاسيكية تدير رأسها

مرة أخرى، وتشكل التوترات بين الغرب وروسيا، وإيران، والهند، والصين، وكوريا، واليابان، وهلم جرا، والتي سنحتاج إلى استكشاف كل منها بالتفصيل. لم تكن فرضية ماكنيل حول التفاعلات عبر الحضارات أكثر صدقا مما هي عليه اليوم، لكنه سيكون من الخطأ أن نساوي بين ثقافة عالمية ناشئة وبين الاستقرار السياسي: لأن المساحة space - وبالتحديد لأنها أكثر ازدحاما، وبالتالي أثمن من أي وقت مضى - لاتزال مهمة، بل عظيمة الأهمية. وفي حين قامت عين ماكنيل الأكاديمية بفحص كامل الأرض، فإن منظور مارشال هودجسون، بالنسبة إلى أغراضنا هنا، كان أضيق، إذ اقتصر على منطقة الشرق الأوسط الكبير. ومع ذلك، فإن هودجسون، بصفته عضوا متحمسا في طائفة الكويكرز Quaker، والذي توفي في سن السادسة والأربعين، قد أظهر طموحا هائلا في كتابه المكون من ثلاثة مجلدات بعنوان «مغامرة الإسلام: الضمير والتاريخ في حضارة عالمية»، والمنشور بكامله في العام 1974، بعد ست سنوات من وفاته. وبالنسبة إلى مؤرخ جامعة شيكاغو هذا، والذي ظلت أعماله منسية إلى حد كبير، والأقل شهرة بكثير بين الصحفيين المعاصرين من غيره من الباحثين المرموقين في شؤون الشرق الأوسط، مثل برنارد لويس Lewis من جامعة برينستون أو جون إسبوزيتو Esposito من جامعة جورج تاون، فقد وضع في مؤلفه الضخم «الإسلام جغرافيا وثقافيا»، وفقا لماكنيل، في سياق التيارات الأكبر التي شكلت تاريخ العالم. من الممكن أن ينحرف أسلوب هودجسون باتجاه الأكاديمية والإبهام، ولكن إذا ثابر القارئ معه، فسوف يُكافأ بتفسير للكيفية التي تمكن بها الإسلام من الظهور، والترسخ، والانتشار بالطريقة الرائعة، والسريعة في معظمها، التي فعل بها ذلك، ليس فقط في جميع أنحاء جزيرة العرب وشمال أفريقيا، ولكن في جميع أرجاء المناطق الساحلية من المحيط الهندي، وعبر الأراضي الممتدة من جبال البرانس إلى جبال تيان شان Tien Shan في الصين⁽³⁰⁾.

من المهم أن نلاحظ أن هودجسون كتب معظم مادة كتاب «مغامرة الإسلام» في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، عندما كان تركيز وسائل الإعلام منصبا عموما على تغطية الحرب الباردة في أوروبا. ومع ذلك، فقد أظهر موضوع بحثه في المجلد الأول من كتابه، بفكرة أن هذه الرؤية الأوروبية المرتكز للعالم قد كانت خاطئة دائما، مع تأصل إجحافها في تخطيط المعاهدات⁽³¹⁾. كان «السخف

مستترا بفعل الاستخدام الواسع النطاق على نحو متزايد لخريطة للعالم تتسم بكونها مشوهة بصريا إلى حد كبير، والمرسومة بطريقة إسقاط مركاتور، والذي تمكن - عن طريق المغالاة شمالا- من جعل «أوروبا» ذات الحدود المصطنعة تبدو أكبر حجما من «أفريقيا» بأسرها، وأن يقرّم تماما شبه الجزيرة الأوراسية الأخرى، أي الهند».

ينتقل هودجسون بعد ذلك إلى تحويل التركيز الجغرافي للقارئ جنوبا وشرقا، إلى ما أسماه «الويكومين» Oikoumene، وهو مصطلح يوناني قديم بمعنى «الربع المأهول» من العالم، أي المنطقة المعتدلة من اليابسة الأفرو - آسيوية الممتدة من شمال أفريقيا إلى حدود الصين الغربية، وهي حزام الأراضي الذي أطلق عليه أيضا اسم «النيل إلى جيحون»⁽³²⁾. هناك ثمة إبهام في هذه التعريفات، والتي يتعارض بعضها مع بعض أحيانا. وعلى سبيل المثال، فإن «النيل إلى جيحون» تشير ضمنا إلى منطقة توجد مصر عند نهايتها الغربية، في حين أن ويكومين قد تعني منطقة تبدأ أبعد منها بكثير غربا، على طول السواحل الأفريقية للبحر المتوسط. والمقصود هنا هو أن الفروق الجامدة بين التجربة المستمدة من منطقة الحرب الباردة، التي كانت في أوجها عندما كتب مؤلفه، وكون الشرق الأوسط متباينا بشكل حاد عن كل من الأناضول وشبه القارة الهندية، تتداعى عندما يبين لنا هودجسون جغرافية أكثر تناسقا، والمحددة بفعل التضاريس الطبيعية والثقافة: أي تلك الرقعة الشاسعة والقاحلة عموما من الأراضي الواقعة بين حضارتي أوروبا والصين، وهو العالم الذي عاش فيه هيرودوت Herodotus في الواقع، والذي يلّمح هودجسون إلى أنه يحمل مفتاح تاريخ العالم.

وبالنظر إلى مدى قيام العولمة اليوم بمحو الحدود، والأقاليم، والفروق الثقافية، فإن منظومة هودجسون الجغرافية التي تتسم بالضخامة والمرونة عن عمد هي في الواقع مفيدة للغاية، لأنها تشير إلى مدى القسوة التي يمكن أن تكون عليها خريطة التضاريس بالنسبة إلى الخطوط الثابتة والزاهية. وبهذه الطريقة، فإن هودجسون يساعد القارئ على تصور العالم المنساب الذي ساد في أواخر العصور القديمة والذي ظهر فيه الإسلام، فضلا على عالم اليوم، مع تعزيز الصين والهند لوجودهما الاقتصادي في الشرق الأوسط الكبير (ويكومين الماضي Oikoumene of Yore)، حتى مع قيام

مشيخات sheikhdoms الخليج العربي بعمل ذلك على نحو مماثل في أفريقيا، وبالتالي إلغاء التقسيمات الاصطناعية التي اعتدنا عليها.

وكما يوضح هودجسون، فإن «المنطقة التي كانت ستنشأ فيها الحضارة الإسلامية يمكن تعريفها بصورة شبه سلبية، على أنها تلك المجموعة المتبقية من الأراضي التي لم يكن للتقاليد اليونانية والسنسكريتية جذور فيها، والتي انفصلت المناطق الأوروبية والهندية عنها في نهاية المطاف ... وبهذا المعنى، فإن منطقتنا، خلال العصر المحوري Axial Age [800 - 200 ق.م.]، كانت تتألف من تلك الأراضي الواقعة بين البحر المتوسط وهندو - كوش [أفغانستان]، والتي لم يكن للحضارتين اليونانية والسنسكريتية فيها سوى ازدهارات محلية أو مؤقتة في أحسن الأحوال».

ضمن هذا الحزام الواسع من الشرق الأوسط الكبير، والممتد لما يقرب من ثلاثة آلاف ميل أو أكثر في المنطقة المعتدلة السفلية، عملت خصيصتان جغرافيتان على تشجيع ظهور الثقافة الرفيعة: الموقع التجاري المحوري، وخاصة لجزيرة العرب والهلال الخصيب، من حيث طرق التجارة التي تصل بين أحد طرفي الويكومين إلى الآخر، والجفاف الشديد الذي يميز المنطقة.

وهذه النقطة الأخيرة بحاجة إلى توضيح. يخبرنا هودجسون بأن النقص العام في المياه عمل على تقليص الثروة التي يمكن امتلاكها عن طريق الزراعة، وجعل المقتنيات المركزة للأراضي المنتجة سلعة نادرة، وبالتالي اتسمت الحياة الريفية بانعدام الأمن، مما جعلها أقل منزلة من الحياة الحضرية في الواحات. تركز المال والسلطة في أيدي التجار عند «نقاط الاتصال» juncture points الواقعة عبر طرق التجارة في الشرق الأوسط، والتي تمتد لمسافات طويلة، وخصوصاً عندما تلتف تلك الطرق على مقربة من حركة الملاحة البحرية في البحر الأحمر، وبحر العرب، والخليج العربي، مما منح التجار العرب وصولاً حاسماً للتدفقات الهائلة من التجارة عبر المحيط الهندي. ولأن هذا كان عاملاً من التجارة والعقود، فقد كان السلوك الأخلاقي و«التعامل المُنصف» في غاية الأهمية من أجل حياة اقتصادية مستقرة. وهكذا، فمع تداعي الإمبراطوريتين الشمالييتين، البيزنطية والساسانية، في كل من الأناضول وبلاد فارس، مُهدت الساحة في الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب

لظهور دين شدّد على أهمية الأخلاق الحميدة وليس مجرد ضمان «دورات المواسم الزراعية». وهكذا، فقد نشأ الإسلام كعقيدة ملائمة للتجار بقدر كونه ملائمة للحياة في الصحراء⁽³³⁾.

كان المركز التجاري الأكثر أهمية في غرب ووسط الجزيرة العربية هو مكة المكرمة الواقعة في أرض الحجاز، وهي منطقة قريبة من البحر الأحمر. تقع مكة المكرمة عند تقاطع طريقين رئيسيين، يسير أحدهما من الجنوب إلى الشمال، والذي تقع مكة المكرمة عند منتصفه تماما، ويربط اليمن وموانئ المحيط الهندي بكل من سورية والبحر المتوسط. أما الطريق الآخر فيسير من الغرب إلى الشرق، ويربط منطقة القرن الأفريقي الواقعة مقابل ساحل البحر الأحمر القريب من مكة ببلاد ما بين النهرين وإيران على الخليج العربي. كانت مكة المكرمة تقع بعيدا عن مركز السلطة الساسانية في إيران بما فيه الكفاية لأن تكون مستقلة عنها، حتى على الرغم من تعرضها للتأثيرات الدينية والفلسفية الرفيعة - الزرادشتية Zoroastrianism، والممانوية Manichaeism، والهيلينية Hellenism، واليهودية، وما إليها - والواردة من بلاد فارس، والعراق، وآسيا الصغرى.

وعلى الرغم من عدم امتلاك مكة المكرمة لواحة كبرى، فقد كان لديها ما يكفي من المياه لري الإبل، كما كانت محمية بتلالها من قراصنة البحر الأحمر، كما كانت تضم مزارا دينيا، هو الكعبة المشرفة، حيث كان يجري جمع الرموز المقدسة من قبائل المنطقة، والتي كان الحجيج يقدون إليها من كل حذب وصوب. كان هذا في معظمه هو السياق الجغرافي الذي ظهر فيه النبي محمد (ص)، باعتباره تاجرا محليا محترما في العقد الرابع من عمره، حين انشغل بكيفية عيش حياة مستقيمة وطاره. وبدلا من أن تكون مجرد مخيم راكد في الصحراء، كانت مكة مركزا عالميا نابضا بالحياة⁽³⁴⁾.

وبطبيعة الحال، فإن الجغرافيا - في نسيج هودجسون المعقد - لا يمكنها تفسير الإسلام في نهاية المطاف، لأن الدين - وفقا لتعريفه المحض - مبني على قاعدة ميتافيزيقية أكثر منها مادية. لكنه يُظهر كيف أسهمت الجغرافيا في صعود الدين الإسلامي وانتشاره، كونها ملتصقة، كما كان الإسلام، بأنماط حياة التجار والبدو، والتي كانت، بدورها، نتاجا لطبيعة قاحلة تتقاطع عبرها طرق التجارة.

كانت جزيرة العرب البدوية محاطة بثلاثة أراض زراعية: سورية من الشمال والعراق من الشمال الشرقي، واليمن من الجنوب. كانت كل من هذه المناطق الثلاث مرتبطة بدورها بوجود «منطقة سياسية نائية»، وهي منطقة جبلية كانت تهيمن عليها خلال القرنين السادس والسابع للميلاد. وبالنسبة إلى سورية، تمثلت هذه المنطقة في هضبة الأناضول؛ أما في العراق، فكانت مرتفعات إيران؛ وفي حالة اليمن، كانت هناك علاقات متبادلة أضعف إلى حد ما مع مرتفعات الحبشة (إثيوبيا المعاصرة). غزا الإسلام معظم هذه المناطق، لكن الجغرافيا قضت جزئياً أن تتمكن تجمعات الحضارات الزراعية هذه، وخاصة في سورية والعراق، وهما رافدا الهلال الخصيب، من الاحتفاظ بهويتها الطائفية وأن تصير بالتالي مراكز متنافسة للسلطة الإسلامية⁽³⁵⁾.

إن وصف هودجسون التاريخي لأخريات العصور القديمة وحقبة القرون الوسطى في أول مجلدين من ملحمة يخبرنا بالكثير عن كيفية ظهور دول الشرق الأوسط الحديثة بالفعل، والتي بدت بوضوح وكأنها نواتج الاستعمار الغربي، وعن سبب كونها أقل اصطناعاً مما زعم البعض. وكما رأينا، فإن مصر، واليمن، وسورية، والعراق، ناهيك عن المغرب، التي تطوقها البحار وجبال أطلس، وتونس، وريثة قرطاج القديمة، كانت كلها معاقل قديمة للحضارات، والتي تمثل أسلافاً مشروعة لتلك الدول الحديثة، على الرغم من أن الحدود المرسومة لهذه الدول في وسط الصحراء المسطحة كثيراً ما تكون اعتبارية.

أما توينبي، المتباكي على تقسيمات العالم العربي، فيدعي أن التغريب «كانت له اليد الطولى قبل أن تظهر في الأفق أي دولة إسلامية عالمية⁽³⁶⁾». لكن حقيقة أن الإسلام يشكل حضارة عالمية لا تعني أنه كان مُصرّاً على أن يكون كيانه سياسياً واحداً، فكما أشار إليه هودجسون، فقد كان لهذه الحضارة عديد من العقد السكانية المختلفة، ذات التراث الجاهلي الثري، والتي ظهر دورها في عصر ما بعد الاستعمار. كانت المرتفعات الإيرانية، كما كتب هودجسون، مرتبطة دائماً بصورة وثيقة بسياسة وثقافة بلاد ما بين النهرين، وهو ما اتضح كثيراً منذ الغزو الأمريكي للعراق في العام 2003، الذي فتح الباب أمام عودة إيران إلى المنطقة. والواقع أن الحدود بين بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين، التي خضعت لتحولات مستمرة،

قد تمثلت لفترات طويلة في نهر الفرات نفسه، والذي يقع الآن في قلب العراق. غزا العرب الإمبراطورية الساسانية، التي تقع في قلب النجد الإيراني، في العام 644 للميلاد، بعد اثنين وعشرين عاما من رحلة النبي محمد (ص)، أو الهجرة، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وهو الحدث الذي يمثل بداية الحقبة الإسلامية من تاريخ العالم. لكن مرتفعات الأناضول كانت أكثر بُعدا واتساعا، وبالتالي - الأمر الذي يرجع إلى الجغرافيا جزئيا - فلم يحدث إلا بعد أكثر من أربعمئة سنة، أي في العام 1071 للميلاد، أن استولى السلاجقة الأتراك - وليس العرب - على الأراضي المركزية الأناضولية وضمها إلى العالم الإسلامي، وذلك في معركة ملاذكرد Manzikert ضد الإمبراطورية البيزنطية⁽³⁷⁾.

كان السلاجقة Seljuks من شعوب السهوب الذين أتوا من العمق الداخلي لأوراسيا، ومن ثم فقد غزوا الأناضول من الشرق (كانت ملاذكرد تقع في شرق الأناضول). ولكن مثلما لم ينجح العرب قط في الاستيلاء على المعازل الجبلية للأناضول، فإن السلاجقة، الآتين من عمق تلك المعازل نفسها، لم ينجحوا قط بدورهم، في الحفاظ على حكم مستقر لقلب مملكة الإسلام - أي الهلال الخصيب والنجد الإيرانية، ناهيك عن الحجاز وبقية الأجزاء الصحراوية من الجزيرة العربية إلى الجنوب. كان هذا ناتجا، مرة أخرى، عن أعمال الجغرافيا. (على الرغم من أن الأتراك العثمانيين، وهم ورثة السلاجقة، قد غزوا الصحاري العربية، فإن حكمهم كان ضعيفا في كثير من الأحيان). وصلت الفتوحات التركية شرقا حتى البنغال، في أقصى بقاع شبه القارة الهندية، لكن هذا كان جزءا من حركة السكان جنوبا عبر كامل المنطقة المعتدلة المترامية الأطراف، والواقعة بين شرق وغرب أوراسيا. وقد شكل أولئك البدو ذوو الأصول التركية الجزء الأكبر من القبائل التي انضمت إلى جيوش المغول الشهيرة (لم يكن المغول Mongols أنفسهم، على أي حال، سوى نخبة صغيرة نسبيا).

سنتناول جحافل المغول وأهميتها الجيوسياسية في موضع لاحق، لكن من المشوق هنا أن نذكر مشاهدة هودجسون بأن البداوة المعتمدة على الخيل للمغول والشعوب التركية كانت في نهاية المطاف أكثر أهمية في التاريخ من بداوة العرب القائمة على الإبل. ولأن الخيول لا يمكنها أن تتحمل الجفاف السائد في صحاري

الشرق الأوسط، ولأن الأغنام التي كثيرا ما يرتحل البدو معها تتطلب كميات كبيرة نسبيا من العلف، عمدت الجيوش التي يقودها المغول إلى تجنب أقاصي جزيرة العرب، وبدلا من ذلك اجتاحت بلدانا أقرب وذات بيئة أكثر ملاءمة في أوروبا الشرقية والأناضول، وشمال بلاد ما بين النهرين، وإيران، وآسيا الوسطى، والهند، والصين: وهي الأراضي التي، عند أخذها مجتمعة، ستكون ذات أهمية استراتيجية ساحقة على خريطة أوراسيا قبيل ظهور الحروب التي يستخدم فيها البارود. يمكن القول بأن غزوات المغول - التركيين Turkic كانت أهم حدث في تاريخ العالم خلال الألفية الثانية بعد الميلاد، الأمر الذي يرجع أساسا إلى استخدام بعض الحيوانات المتعلقة بالجغرافيا⁽³⁸⁾.

تبين مناقشة هودجسون للمغول كيف أن كتابه «مغامرة الإسلام» كان أكثر بكثير من مجرد بحث كتبه خبير في المنطقة، وبالتالي فإن تعريف هودجسون باعتباره مستعربا Arabist أو متخصصا في الدراسات الإسلامية Islamicist هو تقليل غير دقيق من شأنه. وبالنسبة إليه، كان الإسلام وسيلة لاكتشاف أعماق الاتجاهات الفكرية، والثقافية، والجغرافية المؤثرة على المجتمعات الأفرو- أوراسية، بل على العالم القديم كله، في الواقع، في وجود ويكومين العصور القديمة في القلب منها. وبالتالي، فلم يكن هذا عملا متعلقا بالجغرافيا في حد ذاتها. أنفق هودجسون من الوقت في تعريف المذهب الباطني للمتصوفة بقدر ما أنفقه في وصف المناطق الطبيعية، ناهيك عن التقاليد الفكرية والطائفية الأخرى التي كشف النقاب عنها. ومع ذلك، فمن خلال إدخال الجغرافيا في المناقشة بالطريقة التي فعلها، فقد أوضح الكيفية التي تتفاعل بها مع السياسة والأيدولوجية لصنع نسيج التاريخ ذاته. لنأخذ مثال الأتراك العثمانيين، الذين حلوا في نهاية المطاف محل بني جلدتهم الأتراك، أي السلاجقة، في الأناضول في أواخر القرن الثالث عشر. أدى «نظام الطبقة العسكرية الموحدة» الذي وضعه العثمانيون إلى فرض «حدود جغرافية متأصلة» على المنطقة الخاضعة لسيطرتهم، على عكس تلك الخاضعة لروسيا، مثلا، أو حتى للمغول البدائيين. كان العثمانيون معتادين على وجود جيش كبير واحد، والذي يجب أن يكون العاهل padishah، أو الإمبراطور، موجودا على رأسه دوما.

وفي الوقت نفسه، كان عليهم أن يعملوا انطلاقاً من حاضرة واحدة، هي القسطنطينية Constantinople، الواقعة إلى الشمال الشرقي من البحر المتوسط وعلى البحر الأسود، حيث يقع المقر الرئيسي للهيكل البيروقراطي للسلطنة. «ونتيجة لذلك، فلم يكن بالإمكان تسيير حملة كبيرة إلى أبعد مما يسمح به زحف الجيوش لموسم واحد»: وبالتالي، فإن فيينا إلى الشمال الغربي والموصل إلى الجنوب الشرقي كانت تمثل الحدود الجغرافية للتوسع العثماني المستقر على الأرض. كان في وسع الجيش قضاء فصل الشتاء في بعض السنوات في صوفيا أو حلب، موسّعاً نطاق تحركاته، على الرغم من أن ذلك كان يوقعه في صعوبات لوجستية كبيرة. وعلى أي حال، وبشكل عام، فإن هذا النظام المطلق الذي تتركز فيه كل أوجه السلطة في القسطنطينية، سواء على الصعيد الشخصي أو البيروقراطي، كان له تأثير تمثلي في أخذ أهم المعالم الجغرافية للعاصمة وجعلها العامل الفاصل. وكان هذا، بطريقة أو بأخرى، معكوس الفاعلية الإنسانية؛ كما كان له تأثير أفضى إلى اضمحلال هذه الدولة العسكرية، لأنه بمجرد بلوغ الحدود الجغرافية العسكرية للجيش العثماني، فإن الروح المعنوية، فضلاً عن المكافآت المادية، قد انخفضت في صفوف العسكر. ربما كانت إدارة الدولة بصورة أقل مركزية ستؤدي إلى إمبراطورية أكثر أمناً، بدلاً من تلك التي كانت واقعة تحت رحمة الجغرافيا. وفي المجال البحري، أيضاً، أدى الحكم المطلق absolutism إلى تفاقم طغيان الدولة، حيث تركز معظم القوة البحرية العثمانية في البحر الأسود والبحر المتوسط على مقربة من الوطن، مع تحقيق نجاح «عابر» فحسب ضد البرتغاليين في المحيط الهندي⁽³⁹⁾.

كان هودجسون، مثل زميله في قسم التاريخ بجامعة شيكاغو ماكنيل، أقل أكاديمية بالمعنى المعاصر من مثقف قديم الطراز يستعين في عمله بجدية الاستقصاء العلمي التوجه الذي لا يعرف الكلل، والذي ربما كان ثمرة شدة إيمانه الشخصي بمبادئ الكويكرز. ويعني ذلك أنه حتى في أعماق استكشافه للتفاصيل الدقيقة، فقد كان يرى الصورة الكبيرة. كان ميدانه الرئيسي هو الويكومين اليوناني القديم، والذي كان أيضاً، كما اتفق، يشكل معظم المادة التي استخدمها ماكنيل في دراسة تاريخ العالم؛ وكما ذكرنا آنفاً، معظم المعلومات الأساسية لكتاب هيرودوت المعنون «التواريخ» Histories، والذي ألفه في القرن الخامس قبل الميلاد. قد لا يكون من قبيل المصادفة أن يكون هذا هو على وجه التحديد العالم الذي يحتل عناوين الأخبار الحالية: أي المنطقة الواقعة بين

شرق البحر المتوسط والنجد الإيراني - الأفغاني. إن الويكومين هو المكان الذي تتلاقى فيه اليابستين الأوراسية والأفريقية، مع عديد من المنافذ إلى المحيط الهندي عبر البحر الأحمر والخليج العربي، مما يجعله فائق الاستراتيجية، فضلا عن وجود مزيج من أنماط الهجرة، وبالتالي الجماعات العرقية والطائفية المتنازعة. وقد اكتشف هيروودوت، في كتابه «التواريخ»، وجود هذا الاضطراب المتواصل.

يقع هيروودوت في قلب حجتى الداعمة لأهمية ماكنيل وهودجسون في القرن الحادى والعشرين. لأن هذا اليونانى، الذى ولد كأحد الرعايا الفارسيين فى وقت ما بين عامى 490 و484 قبل الميلاد فى بلدة هاليكارناسوس Halicarnassus الواقعة فى جنوب غرب آسيا الصغرى، يحافظ فى روايته حول أصول وطرق شن الحرب بين الإغريق والفرس على توازن مثالى بين العوامل الجغرافية وقرارات البشر. وهو يشجّع الحتمية الجزئية التى نحتاج إليها جميعاً؛ فهو يبين لنا عالماً تحوم خريطة التضاريس فى خلفيته - اليونان وبلاد فارس وغياب المجد البربرى لكل منهما فى الشرق الأدنى وشمال أفريقيا - على الرغم من أن الأهواء الفردية قد جرى تنفيذها بنتائج سياسية مدمرة. يدعم هيروودوت الوعي الذى نحتاج إليه للتعافى، بحيث نُفاجأ بصورة أقل بالعالم الذى نحن مقبلون عليه.

«العُرف هو مَلِك الجميع»: هذا ما ذكره هيروودوت، نقلا عن بندار Pindar. يتحدث هيروودوت عن المصريين، الذين يحلقون شعر الحاجبين حدادا على قطة محبوبة، وعن رجال القبائل الليبيين الذين كانوا يتركون شعورهم طويلة على أحد الجانبين، ويحلقونها من الجهة الأخرى، ويلطخون أجسادهم باللون القرمزي. وهناك المساغيتيون Massagetae، وهم شعب كان يعيش فى شرقي بحر قزوين، فى ما يعرف الآن باسم تركمانستان، والذين عندما يتقدم رجل منهم فى العمر، «يتجمّع أقاربه معا لقتله، جنبا إلى جنب مع عدد من الأغنام والماعز، ومن ثم طبخ كافة اللحوم معا وعمل مأدبة منها». أولا، لم تكن هناك سوى الأرض، والتجربة التاريخية للشعب الذى يعيش فوقها، والآداب والأفكار التى تنشأ عن تلك التجربة. كان هيروودوت بمنزلة الحافظ لذاكرة الحضارات ومناطقها الجغرافية، وكذلك للأساطير، والخرافات، وحتى الأكاذيب التى عاشت بينهم. وقد كان يعلم أنه كلما زادت براعة الزعيم السياسى فى فهم «ما يوجد هناك فحسب»، قل احتمال أن يرتكب أخطاء

مأساوية. عاش السكيثيون Scythians على الجانب القاصي من مضيق كيرتش، حيث يكون الجو من البرودة بحيث يحتاجون إلى إشعال النار من أجل أن يتمكنوا من صنع الطين في فصل الشتاء. وكما حذر أرتابانوس Artabanus الملك الفارسي داريوس Darius، ولكن من دون جدوى: لا تشن الحرب ضد السكيثيين - فهم شعب سريع التنقل من البدو الرحل الذين لا يمتلكون مدناً أو أراضي مزروعة، والذين لا يمكن لجيش كبير حسن التجهيز أن يجد نقطة محورية للهجوم عليهم⁽⁴⁰⁾. تتمثل قوة إشارة هيروdot في استحضارها بقوة لما يمكن للبشر بالتحديد أن يؤمنوا به، وهو اعتقاد يتجسد في حقيقة أن القدماء، الذين عاشوا من دون علم أو تكنولوجيا، كانوا يرون ويسمعون بشكل مختلف - بل بصورة أكثر وضوحاً مما نفعل. كانت التضاريس والجغرافيا بالنسبة إليهم واقعية بطرق لا يمكننا أن نتخيلها. ولناخذ قصة فيديبيدس Phidippides، وهو عداء محترف أرسل من أثينا إلى إسبرطة كنذير يلتمس المساعدة ضد الفرس. أخبر فيديبيدس الأثينيين الذين التقاهم على جبل البارثينيوم Mount Parthenium، في الطريق إلى إسبرطة، أنه رأى الإله بان Pan، الذي أمره أن يسأل مواطنيه: «لماذا لا تهتمون بالإله بان، الذي هو صديق جيد لشعب أثينا، والذي ساعدكم في مرات عديدة، وسيقدم لكم يد المساعدة مرة أخرى؟» اقتنع الأثينيون بأن فيديبيدس كان يقول الحقيقة، وعندما تحسنت أحوالهم، أقاموا مزاراً لبان تحت الأكروبوليس.

يمثل هذا أكثر من مجرد قصة ساحرة؛ بل قد يكون الحقيقة كما رواها الأثينيون لهيروdot. ربما اعتقد العداء أنه رأى بان، بل إنه رأى بان بالفعل. من الممكن تصديق مثل هذه الرؤية، بالنظر إلى التعب الذي كان يستشعره، والبانثيون pantheon المتأصل في منظومة اعتقاده، والخوف الممزوج بالتعجب من العناصر المادية التي فقدتها البشر منذ ذلك الحين. كان العالم القديم «يشهد استيطاناً من الضالة بحيث لم تكن الطبيعة قد حُجبت حتى الآن بفعل البشر»، كما كتب بوريس باسترناك Pasternak في روايته «الدكتور زيفاجو». «لقد ضربتكم الطبيعة في عيونكم بكل وضوح، وأمستكم بكل بشدة وبشكل ملموس من مؤخرة الرقبة لدرجة أنها ربما كانت لاتزال مفعمة بالآلهة حقاً⁽⁴¹⁾». إذا كانت العقلانية والعلمانية قد استحوذتا علينا لدرجة أنه لم يعد في إمكاننا تصور ما رأى فيديبيدس، فلن نتمكن إذن من

فهم - وبالتالي الدفاع عن أنفسنا ضد - الحركات الدينية التي تقلب التنوير وتؤثر في الجغرافيا السياسية المعاصرة. وفي حين امتلأ الفضاء في جميع أنحاء المعمورة، ولم يُعد العالم الطبيعي كما كان عليه، فإن الجغرافيا الجديدة للأحياء الفقيرة ومدن الصفيح، والتضاريس التي لا تمثل هذه ولا تلك، تُظهر بالمثل تأثيرا نفسيا بالشدة نفسها في البشر، بطريقة مختلفة بطبيعة الحال.

ولفهم هذه الجغرافيا الجديدة، والقيمة التي تخلعها على المساحة، وأثرها النفسي التالي، فمن المفيد أولا أن نتفهم الساحة العتيقة كما وصفها هيرودوت. يتمثل جوهر «تواريخ» هيرودوت في إغراء الأراضي الأرخبيلية اليونانية التي تفور بالثقافة، والقابضة إلى الغرب مباشرة فيما وراء النجود الجبلية لبلاد فارس وآسيا الصغرى. وهنا تتضح الحتمية الجغرافية بأوضح صورة، على ما يبدو، لأن الشعوب الآسيوية إلى الشرق واليونانية إلى الغرب قد حارب بعضها بعضا على مدى آلاف السنين، وبلغت خلافاتها ذروتها في عصرنا الحاضر مع توتر العلاقات بين اليونان وتركيا: وهو توتر لم يؤد إلى حرب معلنة منذ عشرينيات القرن العشرين، وهو أمر يرجع أساسا إلى التهجير الجماعي للسكان الذي حدث في ذلك العقد، ونتجت عنه دولتان خالصتان موحدتا التركيبة العرقية uniethnic. وبعبارة أخرى، فلم يترسخ السلام إلا بعد التطهير العرقي الذي سار وفقا لإملاءات الجغرافيا. ومع ذلك، فلم يكن هذا، في نهاية المطاف، هو ذلك الخط من التفكير الذي نقله هيرودوت.

يُظهر هيرودوت تقبلا واضحا لأحكام القلب وما يصاحبها من بروز المكائد البشرية، وهو يوضح كيفية حساب المصلحة الذاتية داخل زوبعة بشعة من الأهواء. إن أتوسا Atossa، زوجة داريوس ملك الفرس، تستغل خيلاء زوجها في الفراش لتسوّل له غزو اليونان. وهي تفعل ذلك كخدمة للطبيب اليوناني الذي عالج وربما على صدرها، والذي كان يريد العودة لزيارة وطنه. كان الأمر برمته متعلقا بالجغرافيا، حتى صار كله متعلقا بشكسبير.

إن كتاب «التواريخ» لهيرودوت، عند أعمق مستوى له، يتعلق بفهم تعقيدات المصير fate: أو moira باللغة اليونانية، أو «موزع الأنصبة». ولأن الأبطال هم الذين يتغلبون على المصير، فهم يشكلون البنية الفوقية superstructure لرواية هيرودوت. وحده هودجسون الذي كتب في مقدمة كتابه «مغامرة الإسلام»:

كتب هيرودوت تاريخه، كما قال، لحفظ ذكرى الأعمال الجليلة التي قام بها الإغريق والفرس: وهي أفعال لن تتكرر، والتي تستوجب احترامنا الدائم. ليس في الإمكان محاكاة تلك الأفعال، على الرغم من أنه قد يمكن تقليدها، وربما تجاوزها بمعنى ما. لكننا نجرو، حتى في يومنا هذا، على أن نصف رجلا بأنه عظيم، والذي لا يمكن أن تضاهي أفعاله مآثرهم⁽⁴²⁾.

كتب هودجسون هذا في أوائل ملحمة ليوضح أن البشر يمكنهم التحكم في مصيرهم في نهاية المطاف، على الرغم من أنه كثيرا ما ينهمك - عبر ثلاثة مجلدات - في وصف الاتجاهات التاريخية والبيئية الكبرى التي، كما قد يبدو، لا يمتلك الأفراد سوى قليل من السيطرة عليها. ومن دون التسليم بالكفاح الفردي، فليست هناك نزعة إنسانية في دراسة التاريخ، كما يقول هودجسون. وبالتالي، فهو يحبك نسيج رؤيته للإسلام كالتالي: «مركب من التقاليد الوثيقة الصلة أخلاقيا وإنسانيا»، والتي تنتحل طبيعة قوة عالمية، لكنها بدأت بأفعال أفراد في مكة المكرمة.

وبالتالي، نعود مرة أخرى إلى المعركة ضد المصير، ومن المستحسن أننا فعلنا ذلك؛ لأننا نحتاج الآن إلى أن نتحصن بصفة خاصة بأمثال هيرودوت، وهودجسون، وماكينيل، بما أننا على وشك ولوج طرق وعرة للغاية: تلك المتعلقة بالجغرافيا السياسية والنظريات شبه الحتمية المستمدة منها. وفي الواقع أنه جرى توقع الخطوط العريضة للتاريخ بالفعل، وربما لا يزال في الإمكان فعل ذلك مرة أخرى. يُعد هذا، على أقل تقدير، أمرا مقلقا بالنظر إلى الكيفية التي يمكن بها للأفراد أن يغيروا التاريخ. لكنه صحيح، كما سنرى. من شأن الرجال الذين أوشك على تقديمهم أن يصيبوا الإنسانيين الليبراليين بارتباك شديد. كان هؤلاء الرجال بالكاد فلاسفة؛ فقد كانوا جغرافيين ومؤرخين وخبراء استراتيجيين افترضوا أن الخريطة تحدد كل شيء تقريبا، مما يترك مجالا ضيقا نسبيا للفاعلية الإنسانية. أما الفاعلية الإنسانية، وإلى الدرجة التي كانت تهمهم بها، فهي مهمة أساسا فيما يتعلق بالهيمنة العسكرية والتجارية. ومع ذلك، فهؤلاء هم الرجال الذين يتعين علينا الآن دراستهم، من أجل وضع إطار لما نوشك أن نصير إليه في جميع أنحاء العالم، ولما يمكن تحقيقه في ذلك السياق.

خريطة أوراسيا

إن أوقات الاضطراب العالمي، التي تختبر افتراضاتنا حول ديمومة الخريطة السياسية، تؤدي إلى نهضة في التفكير حول الجغرافيا. ويكون هذا صحيحا بشكل خاص لأن الجغرافيا هي الأساس الحقيقي للاستراتيجية والجغرافيا السياسية. إن الاستراتيجية، كما عرفها نابليون، هي فن استخدام الزمان والمكان بطريقة عسكرية وديبلوماسية؛ أما الجغرافيا السياسية فتمثل دراسة البيئة الخارجية التي تواجهها كل دولة عند تحديد استراتيجيتها الخاصة: على اعتبار أن هذه البيئة هي وجود دول أخرى تكافح أيضا من أجل البقاء والأفضلية⁽¹⁾. وباختصار، فإن الجغرافيا السياسية هي تأثير الجغرافيا على الانقسامات البشرية⁽²⁾. وكما قال نابليون، فإن معرفة الخصائص الجغرافية لأمة ما تعني معرفة سياستها الخارجية⁽³⁾.

«إن الحتمية تعني التفكير المتحجر، أي الميل إلى الانسحاق بفعل القوى والاتجاهات الكاسحة، وبالتالي عدم التأثير بمفارقات التاريخ وهي تتكشف في الواقع»

المؤلف

وينعت مورغنثاو الجغرافيا السياسية بأنها «علم زائف» pseudoscience لأنها تنصّب «عامل الجغرافيا باعتباره ثابتا مطلقا»، لأنه كان يكتب بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، فقد كان الجغرافي البريطاني الكبير هالفورد ماكيندر Mackinder حاضرا في ذهنه، والذي أعيد إحياء نظرياته التي وضعها مطلع القرن العشرين في خضم الحرب العالمية الثانية، ومن ثم أسيء استخدامها من قبل النازيين لتبرير فكرتهم عن المجال الحيوي Lebensraum، أو «فضاء العيش» باللغة الألمانية⁽⁴⁾. وباعتبار أن الهدف من الجغرافيا السياسية هو تحقيق توازن في القوى، وأن النازيين لم يحاولوا تحقيق أقل من الإطاحة بميزان القوى، فقد كان استخدام النازيين لنظريات ماكيندر بمنزلة تحريف لأفكار ماكيندر نفسها.

إن ميزان القوى، وفقا لماكيندر، ولأنه يمنح كل أمة أمنها، يشكل الأساس الحقيقي للحرية⁽⁵⁾. ربما كان مورغنثاو شديد التحامل على ماكيندر. وعلى أي حال، فإن بغض مورغنثاو لماكيندر، وكذلك تلخيصه الدقيق لنظريات ماكيندر، يمثل في حد ذاته مؤشرا على تأثير ماكيندر القوي على الفكر الجيوسياسي الغربي على مدى عقود عديدة. لا يزال ماكيندر يتعرض إلى الشجب، ومع ذلك تبقى آراؤه وثيقة الصلة بجميع الأحداث، خصوصا في عصور مثل عصرنا الحالي، حيث لاتزال هناك أعداد كبيرة من القوات الأمريكية على الأرض في الشرق الأوسط الكبير وشمال شرق آسيا. من الواضح أن هناك حقيقة مقلقة كامنة وراء كتاباته، وإن كان هناك أيضا خطر في الإفراط في تقديرها. من الواضح أن ماكيندر كان موهوبا، وكانت خلاصة الأعمال التي كتبها طوال حياته هي أن الجغرافيا تمثل مدخل الباحث العام إلى التخصص الأكاديمي⁽⁶⁾. وفي العام 1890 طرح مثالا فريدا على الكيفية التي تُثري بها المعرفة بالجغرافيا تفكير المرء حول الشؤون العالمية:

افترض أنه قيل لي أن ثمة عينة من القمح ستأتي من لاهور، وأنني لا أعرف أين تقع لاهور هذه. سأقوم بالبحث عنها في المعجم والتأكد من أنها عاصمة ولاية البنجاب... فلو لم أكن أعرف شيئا عن الجغرافيا، فستتولد لدي فكرة مفادها أن لاهور تقع في الهند، وسيكون هذا هو كل شيء تقريبا. أما إذا كنت قد تلقيت تدريبا ملائما في الجغرافيا، فرما كانت كلمة البنجاب... ستعني بالنسبة إلي ضمنا أمورا عديدة؛ فسأعرف أن لاهور تقع في الزاوية الشمالية

خريطة أوراسيا

من الهند، وسأتخيل صورتها وهي واقعة وسط سهل عظيم، عند سفح سلسلة من الجبال المغطاة قممها بالثلوج، وسط منظومة أنهار السند. سأفكر أيضا في الرياح الموسمية وفي الصحراء، وفي المياه المجلوبة من الجبال عبر قنوات الري. ستكون لدي فكرة عن مناخ المنطقة، وعن توقيت زرع البذور وحصادها. وستلتمع في خريطتي الذهنية كل من كراتشي Kurrachee وقناة السويس. سأتمكن أيضا من حساب في أي وقت من السنة ستسلم الشحنات في إنجلترا. فضلا على ذلك، فإن البنجاب ستكون بالنسبة إلي مساوية في الحجم وعدد السكان لدولة أوروبية كبيرة، مثل إسبانيا أو إيطاليا، كما سأدرك أهمية السوق التي توفرها للصادرات الإنجليزية⁽⁷⁾.

تتسم أفكار ماكيندر وطريقته في عرض الأمور، كما سنرى في الفقرات اللاحقة، بكونها مشوّقة.

إن السير هالفورد. ج. ماكيندر وهو والد الجغرافيا السياسية في العصر الحديث، والذي كثيرا ما حاول مورغنثاو التقليل من شأنه، لا يشتهر بتأليفه أحد الكتب، بل ترجع شهرته إلى مقالة واحدة بعنوان «المحور الجغرافي للتاريخ»، والتي نشرت في عدد أبريل 1904 من المجلة الجغرافية الصادرة في لندن. تمثلت فرضية ماكيندر في أن آسيا الوسطى، من حيث مساعدتها على تشكيل المنطقة المركزية لأوراسيا Eurasian Heartland، هي المحور الذي يعتمد عليه مصير الإمبراطوريات العالمية الكبرى: لأن تصميمنا للأرض من حيث الشرايين الطبيعية الواقعة بين سلاسل الجبال وبطول وديان الأنهار يشجع صعود الإمبراطوريات، سواء كانت تلك معلنة أو غير معلنة، وليس الدول. وقبل استكشاف كيف يمكن لهذا المفهوم، بعد إعادة تعريفه قليلا، أن يساعد على إلقاء الضوء على جغرافيتنا السياسية الخاصة، حريّ بنا أن نصف الكيفية التي توصل بها ماكيندر إلى استنتاجه هذا. إن مقالته المذكورة، التي أخذت في اعتبارها مجمل التاريخ وكل أنماط الاستيطان البشري، هي النموذج الأصلي للجغرافيا كتخصص علمي، والتي تذكرنا بأعمال هيروودوت وابن خلدون، والتي بشرت من حيث الأسلوب بكتابات ماكنيل، وهودجسون، والمؤرخ والجغرافي الفرنسي فرنان بروديل Braudel. وكما كتب ماكيندر، بطريقة بروديل: «يقوم الإنسان وليس الطبيعة ببدء العمل، لكن

الطبيعة تكون هي المتحكمة إلى حد كبير»⁽⁸⁾. تشير جملة ماكيندر الافتتاحية إلى الأهمية الملحمية لمقالته:

عندما ينظر المؤرخون في المستقبل البعيد إلى الوراثة إلى مجموعة القرون التي نمر عبرها الآن، ويرونها بصورة موجزة، كما ننظر اليوم إلى الأسرات الحاكمة المصرية القديمة، فمن المرجح تماما أنهم سيصفون القرون الأربعة الماضية باعتبارها العهد الكولومبيسي *Columbian epoch*، وسيقولون إنها انتهت بعد العام 1900 بقليل⁽⁹⁾.

وهو يفسر ذلك بالقول إنه في حين كان العالم المسيحي *Christendom* في القرون الوسطى «محبوسا في منطقة ضيقة ومهددا من قبل الهمجية الخارجية»، فقد شهد العهد الكولومبوسي - وهو عصر الاستكشاف - توسع أوروبا عبر المحيطات إلى القارات الأخرى في مواجهة «مقاومة لا تُذكر». غير أنه اعتبارا من الوقت الحاضر، أي في عصر ما بعد كولومبوس (تذكر أنه كان يكتب من موقع المراقبة للعام 1904) «يتعين علينا أن نعود إلى التعامل مرة أخرى مع نظام سياسي مغلق»، وهو في هذه المرة نظام «يشمل نطاقه جميع أنحاء العالم». وفي معرض تفسيره، قال:

إن كل انفجار للقوى الاجتماعية، وبدلا من أن يتبدد في دائرة محيطة من الفضاء المجهول والفوضى الهمجية، فإن صده [من الآن فصاعدا] سيتردد بحدّة من الجانب الآخر من الكرة الأرضية، ونتيجة لذلك ستتخطم العناصر الضعيفة في البنية السياسية والاقتصادية للعام⁽¹⁰⁾.

ومن خلال إدراك أنه لم يعد هناك مزيد من المساحة على هذا الكوكب لتوسّع الإمبراطوريات الأوروبية، فقد فهم أيضا أن الحروب الأوروبية سيتعين خوضها على نطاق عالمي، وهو الأمر الذي تحقق في الحربين العالميتين الأولى والثانية. ومع ذلك، وكما علمت قبل سنوات في ندوة عُقدت في كلية القيادة والأركان العامة للجيش الأمريكي في فورت ليفنوورث، فإن استنزاف الشيء نفسه يتراكم حتى يتحول إلى تغيير كبير. وبعبارة أخرى، ففي حين أن عصر الاستكشاف قد انتهى بصورة أو بأخرى بحلول العام 1900، فطوال القرن العشرين حتى يومنا هذا - وخصوصا عند استشراف العقود القادمة - فإن تلك الخريطة المغلقة والمزدحمة أو رقعة الشطرنج بتعبير لماكيندر، كما سبق بيانه، قد امتلأت أكثر وأكثر: ليس فقط من

حيث عدد السكان، ولكن من حيث مدى الأسلحة. وعلى سبيل المثال، فإن الشرق الأوسط خلال السنوات الخمسين الماضية وحدها قد تحوّل من مجتمع ريفي إلى مجتمع من المدن الكبرى الهائلة الحجم. أما العالم، وكما تعلمت كمراسل أجنبي طوال العقود الثلاثة الماضية، حتى في بعض أبعد أصقاع، فقد تحوّل بقوة إلى حياة المدن. سنعود لاحقاً، وبتعمق أكثر، إلى جميع الآثار المترتبة على هذه الخريطة المكتظة حديثاً، ولكن للقيام بذلك يجب أن نعود إلى الأول ماكيندر ونظريته حول المحور الأوراسي.

يطالبنا ماكيندر بأن ننظر إلى التاريخ الأوروبي على أنه «تابع» لذلك الآسيوي، لأنه يعتقد أن الحضارة الأوروبية مجرد نتيجة للكفاح ضد الغزو الآسيوي. كونه جاء قبل ماكنيل بعشرات السنين، أشار ماكيندر إلى أن أوروبا تحولت إلى الظاهرة الثقافية التي هي عليها بسبب جغرافيتها في المقام الأول: مجموعة معقدة من الجبال والوديان، وأشباه الجزر - والتي بزغت منها الدول المنفردة لاحقاً - المقابلة للأراضي الروسية المسطحة الشاسعة والمهددة من جهة الشرق. كانت الأراضي الروسية المسطحة مقسّمة بين الغابات الواقعة إلى الشمال والسهوب Steppe إلى الجنوب. وكما يوضح ماكيندر، فقد أنشئت أوائل التجسيدات في بولندا وروسيا بأكملها في الأحضان الواقعة للغابة الشمالية؛ إذ جاءت من السهوب الجنوبية الجرداء بين القرنين الخامس والسادس عشر جحافل متوالية من الغزاة الرحّل: الهون Huns، والأفراز Avars، والبلغار، والمجريون Magyars، والكالموك Kalmuks، والكومين Cummins، والباتزيناك Patzinaks، والمغول وغيرهم. وفي سهوب المنطقة المركزية تتميز الأرض بكونها مسطحة من دون انقطاع، ويتسم المناخ بقسوته، ويقتصر الإنتاج النباتي على العشب، الذي يتعرض بدوره إلى التدمير بفعل الرمال، المدفوعة بالرياح العاتية. أفرزت مثل هذه الظروف أجناساً عنيفة وقاسية من الرجال الذين يهاجمون على الفور لتدمير أي خصوم يصادفونهم وإلا تعرضوا إلى الدمار هم أنفسهم، إذ لم تكن هناك وسيلة للدفاع في بقعة ما أفضل من الأخرى. وكان اتحاد مقاطعات الفرنجة Franks، والقوط Goths، والرومان ضد أولئك الآسيويين هو ما شكّل أساساً لفرنسا الحديثة. وبالمثل، فإن البندقية، والنظام البابوي، وألمانيا، والنمسا، وهنغاريا، وغيرها من القوى الأوروبية المزدهرة قد نشأت، أو على الأقل

نضجت، عن طريق مواجهاتها المُهْدَّدة مع البدو الرحل الآتين من السهوب الآسيوية. وكما كتب ماكيندر:

عندما نتأمل في أنه خلال القرون العديدة للعصور المظلمة، كان الوثنيون الإسكندنافيون Norse pagans يستخدمون سفنهم لممارسة القرصنة في البحار الشمالية، وكذلك فعل المسلمون Saracen والمغاربيون Moorish في منطقة البحر المتوسط، وأن راكبي الخيول الأتراك القادمين من آسيا أغاروا بالتالي على قلب شبه الجزيرة المسيحي عندما كان محاصرا من قبل قوى بحرية معادية، ستتكون لدينا فكرة عن الضرب الساحق، كما لو كان بين مدقة وهاون، الذي أسهم في صنع أوروبا الحديثة. كانت المدقة pestle هي القوة الأرضية الآتية من الأراضي المركزية⁽¹¹⁾.

وفي الوقت نفسه، فإن روسيا، التي حمتها ممرات الغابات ضد عديد من الغزاة الهائجين، سقطت على الرغم من ذلك في القرن الثالث عشر فريسة للقبيلة الذهبية من المغول. وبالتالي حُرمت روسيا من الوصول إلى عصر النهضة الأوروبية، وستظل توصف إلى الأبد بألد مشاعر الدونية وعدم الثقة. وكونها صارت إمبراطورية برية في نهاية المطاف، والتي تفتقر إلى أي عوائق طبيعية ضد الغزو باستثناء الغابات نفسها، ستعرف روسيا إلى الأبد ما يعنيه أن يجري غزوها بوحشية، ونتيجة لذلك سيكون لديها هاجس دائم للتوسع وامتلاك الأراضي، أو على الأقل لأن تهيمن على مناطق الظل المجاورة لها.

وفي حين أن غزوات المغول الآتين من آسيا الوسطى أهلكت وبالتالي غيّرت ليس روسيا فقط، بل تركيا، وإيران، والهند، والصين، والمناطق الشمالية من الشرق الأوسط العربي، فإن أجزاء كثيرة من أوروبا لم تشهد هذا المستوى من الدمار، وبالتالي تمكنت من البزوغ باعتبارها قمرة القيادة السياسية للعالم⁽¹²⁾. وفي الواقع، وبالنظر إلى أن الصحراء الكبرى حجبت أوروبا عن جميع أجزاء أفريقيا تقريبا، فإن المصير الكلي macro - destiny لأوروبا في القرون الوسطى وحتى العهد الكولومبي، وفقا لماكيندر، قد تشكّل بوجه عام وفقا لما حدث في السهوب الآسيوية. لم يكن المغول وحدهم من نتحدث عنهم هنا؛ فالأتراك السلاجقة، الذين انطلقوا من سهوب المنطقة المركزية خلال القرنين العاشر والحادي عشر،

قد اجتاحتها معظم أجزاء الشرق الأوسط، وكانت معاملتهم السيئة للحجاج المسيحيين في القدس هي التي أدت على ما يبدو إلى نشوب الحروب الصليبية، التي يعتبرها ماكيندر بداية التاريخ الجماعي الحديث في أوروبا.

يستطرد ماكيندر في هذا السياق، ليبين للقارئ أن أوراسيا يحدها الجليد من الشمال والمحيط الاستوائي في الجنوب، وأنها تضم أربع مناطق هامشية في أطرافها، تقع جميعها في ظل الرقعة الشاسعة والمحورية لآسيا الوسطى وجحافلها من المغول والأتراك. وكما يخبرنا، فإن هذه المناطق الهامشية الأربع تتوافق، ليس من قبيل المصادفة، مع الأديان الأربعة ذات العدد الأكبر من الأتباع: فالدين، أيضاً، في تقدير ماكيندر، يمثل إحدى دلالات الجغرافيا. هناك «أراضي الرياح الموسمية» monsoon lands، توجد إحداها إلى الشرق في مواجهة المحيط الهادي، وهي موطن البوذية، والأخرى في الجنوب في مواجهة المحيط الهندي، وتمثل موطن الهندوسية. أما المنطقة الهامشية الثالثة فهي أوروبا نفسها، والتي تحدها مياه المحيط الأطلسي إلى الغرب، وتعد مركز الديانة المسيحية. لكن الأكثر هشاشة من بين المناطق الهامشية الأربعة الشرق الأوسط، موطن الإسلام، «المحروم بفعل القرب من أفريقيا»، و«القليل السكان... إلا في الواحات» (كما كانت الحال عليه في العام 1904). وبالنظر إلى كونه خالياً من الغابات، وتسوده الصحراء، وبالتالي مفتوحاً على مصراعيه أمام غزوات القبائل البدوية وأمام الاضطرابات والثورات اللاحقة، كان الشرق الأوسط، بالإضافة إلى ما سبق - بسبب تجاور الخلجان والبحار والمحيطات - غير حصين بصفة خاصة في مواجهة القوى البحرية (حتى على الرغم من استفادته منها). وعلى وجه الدقة، فإن الشرق الأوسط الكبير، في منظور ماكيندر المعتمد كلياً على الجغرافيا، يمثل في نهاية المطاف منطقة انتقالية غير مستقرة، ومحطة على الطريق الممتد بين عالم البحر المتوسط والحضارتين الهندية والصينية، والذي يُظهر جميع التحولات الكبرى في سياسة القوة. ويمثل هذا نذيراً متسقاً تماماً مع تصوير هودجسون للشرق الأوسط الكبير باعتباره ويكومين عالم العصور القديمة، والذي أنجب ثلاثة من الأديان السماوية الرئيسية (اليهودية، والمسيحية، والإسلام)، واستمر دوره المحوري في الجغرافيا السياسية حتى العصر الحديث.

وعلى أي حال، بالنسبة إلى ماكيندر، الذي كتب مؤلفاته في عصر ما قبل شركات النفط الكبرى وخطوط الأنابيب والصواريخ الباليستية، المحور الجغرافي للعالم، وعلى الرغم من ذلك، يقع أبعد من ذلك قليلا. وفي فرضيته، نجده يستبعد الشرق الأوسط ويشق طريقه متجاوزا إياه. وكما كتب، فإن العهد الكولومبوسي تميز باكتشاف الطريق البحري إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح، وبالتالي تجاوز منطقة الشرق الأوسط. وفي حين أنه في العصور الوسطى كانت أوروبا «محصورة بين صحراء غير سالكة إلى الجنوب، وبين محيط مجهول إلى الغرب ... وقفار مكسوة بالجليد أو الغابات إلى الشمال والشمال الشرقي»، و«الفرسان وراكبي الجمال» إلى الشرق والجنوب الشرقي، فقد امتلكت الآن على حين فجأة وصولا عبر المحيط الهندي إلى كامل المنطقة المحيطة rimland بجنوبي آسيا، فضلا على اكتشافاتها الاستراتيجية في العالم الجديد. غير أنه في حين أن شعوب أوروبا الغربية قد «غطت المحيطات بأساطيلها»، كانت روسيا تتوسع على الأرض بصورة باهرة بالقدر نفسه، «بازغة من غاباتها الشمالية» لمراقبة السهوب بواسطة قوات القوزاق Cossacks التابعة لها ضد المغول الرحّل.

لذلك، مثلما تمكن البحارة البرتغاليون والهولنديون والإنجليز من الدوران منتصرين حول رأس الرجاء الصالح، اندفعت روسيا بقوة إلى سيبيريا، وأرسلت الفلاحين لزراع السهوب الجنوبية الغربية بحقول القمح، والتفت حول العالم الإسلامي الإيراني. توصل توينبي وغيره إلى هذه الملاحظة بعد ذلك بعقود، لكن ماكيندر كان من أوائل من لاحظوها⁽¹³⁾. كانت تلك قصة قديمة، أوروبا مقابل روسيا: قوة بحرية ليبرالية - كما كانت أثينا والبندقية - مقابل قوة أرضية رجعية - كما كانت إسبرطة وبروسيا. وبالنسبة إلى البحر، بالإضافة إلى التأثيرات العالمية التي يضيفها بحكم الوصول إلى المرافئ البعيدة، فإنه يوفر ذلك النوع من الأمن الحدودي الذي لا يمكن انتهاكه، واللازم لترسيخ الليبرالية والديموقراطية. (تتسم الولايات المتحدة بكونها دولة شبه جزيرية يحدها محيطان والقطب الشمالي الكندي القليل السكان إلى الشمال؛ ولا تتهدد إلا من جهة الجنوب بفعل القوى الديموغرافية المكسيكية).

لاحظ ماكيندر أنه في القرن التاسع عشر أدت المحركات البخارية وقناة السويس إلى زيادة تنقلية القوى البحرية في جميع أنحاء المنطقة المحيطة الجنوبية لأوراسيا،

حتى على الرغم من أن ظهور السكك الحديدية بدأ يعمل «كمغذيات للتجارة عبر المحيطات». غير أنه لاحظ أيضا أن السكك الحديدية بدأت الآن تفعل الشيء نفسه للقوة الأرضية ما كانت تقدمه بالفعل للقوة البحرية، والذي تمثل على أفضل صورة في المنطقة المركزية لأوراسيا، التي تعرقلت في السابق بسبب عدم وجود الأحجار والأخشاب اللازمة لشق الطرق.

وفي النهاية، وصل إلى استنتاجه الرئيسي:

ونحن نتدبر هذه المراجعة السريعة للتيارات التاريخية الأوسع، ألم يتضح وجود استمرارية معينة في العلاقات الجغرافية؟ أليست المنطقة المحورية للسياسة في العالم هي المنطقة الشاسعة المتمثلة في أوروبا وآسيا، والتي لا يمكن الوصول إليها عبر السفن، غير أنها ظلت في العصور القديمة مفتوحة للقبائل الرحالة من راكبي الخيل، والتي توشك اليوم على أن تغطيها شبكة من السكك الحديدية؟

ومن وجهة نظر ماكيندر، حلت مركزية روسيا المتوسعة في بداية القرن العشرين محل مركزية جحافل المغول، والتي قد يجادل البعض بأنها أحدثت أعظم تأثير على تاريخ العالم خلال الألفية الثانية. ومثلما هاجم المغول - وكثيرا ما حطّموا - بوابات المناطق الهامشية من أوراسيا (فنلندا، وبولندا، وتركيا، وسورية، والعراق، وبلاد فارس، والهند، والصين)، فكذلك، أيضا، يمكن أن تفعل روسيا، التي يقويها تماسك أراضيها، الأمر الذي تحقق بفعل التطورات الأخيرة في سككها الحديدية.

وكما كتب ماكيندر، فإن «الكميات الجغرافية في العملية الحسابية أكثر قابلية للقياس وأكثر ثباتا تقريبا من تلك البشرية». انسوا القياصرة والمفوضين الصاعدين في العام 1904، فهم من سفاسف الأمور مقارنة بالقوى التكتونية الأعمق للجغرافيا والتكنولوجيا. ولا يعني هذا أن ماكيندر كان مدعوما بالأحداث الجارية؛ ففي غضون أسبوعين من محاضراته الشهيرة هاجمت البحرية اليابانية بورت آرثر عند المدخل الجنوبي لمنشوري، فيما مثل المعركة الأولى من الحرب الروسية - اليابانية. انتهت الحرب بعد عام واحد، في معركة مضيق تسوشيما، حيث أحرز اليابانيون انتصارا كبيرا في البحر. وبعبارة أخرى، ففي حين نادى ماكيندر بأهمية القوة البرية،

تمكنت القوة البحرية من إلحاق الهزيمة بأكثر القوى البرية توسعا على وجه الأرض في هذا الصراع الذي دارت رُحاه في أوائل القرن العشرين⁽¹⁴⁾.

ومع ذلك، فإن حتمية ماكيندر الظاهرية أعدتنا جيدا لصعود الاتحاد السوفييتي ومنطقة نفوذه الهائلة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، فضلا عن الحربين العالميتين خلال النصف الأول من القرن نفسه، اللتين كانتا، كما أشار المؤرخ بول كينيدي Kennedy، صراعا على «الأراضي المحيطية» لماكيندر، والتي تمتد من شرق أوروبا إلى جبال الهملايا وما وراءها⁽¹⁵⁾. وبداية من الثورة الروسية حتى تفكك الاتحاد السوفييتي، توسعت السكك الحديدية في آسيا الوسطى وسيبيريا عبر نحو 45 ألف كيلومتر، ما يثبت صحة وجهة نظر ماكيندر⁽¹⁶⁾. وفضلا على ذلك، فإن استراتيجية الاحتواء خلال الحرب الباردة ستعتمد بشكل أساسي على قواعد الأراضي المحيطية الواقعة عبر الشرق الأوسط الكبير والمحيط الهندي. وفي الواقع إن توسيع قوة الولايات المتحدة إلى الأراضي المحيطة لأفغانستان والعراق، والتوتر الذي نشب بين أمريكا وروسيا حول المصير السياسي لآسيا الوسطى والقوقاز - والتي تمثل المحور الجغرافي نفسه - قد خلعتا مصداقية أكبر على فرضية ماكيندر. وفي فقرته الأخيرة، يثير ماكيندر شبح الغزوات الصينية للأراضي الروسية، والتي من شأنها - من وجهة نظره - أن تجعل من الصين قوة جيوسياسية مهيمنة. وإذا نظرنا إلى الكيفية التي يطالب بها الآن المهاجرون الصينيون ديموغرافيا بانتزاع أجزاء من سيبيريا من روسيا، حتى مع إظهار السيطرة السياسية لروسيا على تخومها الشرقية لبعض الضعف، يمكن للمرء تصوّر أن ماكيندر كان على حق مرة أخرى.

تعرّض ماكيندر للهجوم باعتباره حتميا متعصبا وإمبرياليا، لكن التهمتين كانتا غير منصفتين إلى حد كبير. ولكونه عمل بالتدريس طوال حياته، فلم يكن بطبيعته متطرفا أو أيديولوجيا. لم يكن ماكيندر إمبرياليا، غير أن بريطانيا العظمى كانت تدير في ذلك الوقت إمبراطورية ممتدة في جميع أنحاء العالم، وأنه كان وطنيا بريطانيا مستنيرا، والذي رأى أن احتمالات تحقيق التنمية البشرية - وخاصة الديمقراطية - أقرب احتمالا تحت النفوذ البريطاني منها تحت ذلك الروسي أو الألماني. وقد كان عرضة للأحكام المسبقة نفسها التي تعرّض لها معاصروه؛ كما كان حتميا فقط بقدر كون الجغرافيا موضوع اهتمامه، فالجغرافيا يمكنها بطبيعتها المحضة أن تكون

حتمية. وبصفة خاصة، حاول ماكيندر أن يدافع عن الإمبريالية البريطانية في أعقاب حرب البوير Boer War المنهكة (1899 - 1902)⁽¹⁷⁾. لكن الموضوع الرئيس لكتابه المعنون «المثل الديمقراطية والواقع: دراسة في سياسة إعادة البناء» هو أن الفاعلية الإنسانية يمكن أن تتغلب على إملاءات الجغرافيا. وكما روى كاتب السير الذاتية وه. باركر Parker، معيدا صياغة آراء ماكيندر: «وعلى أي حال، على المدى الطويل، سينتصر الذين يعملون في وئام مع التأثيرات البيئية على أولئك الذين يسعون جاهدين ضدها»⁽¹⁸⁾. وهذا هو الجوهر الحقيقي لمبدأ «الحتمية الاحتمالية» probabilistic determinism الذي وضعه رايوند آرون Aron، والذي يمكن لمعظمنا قبوله⁽¹⁹⁾. وفي الواقع أن آرون يدافع عن ماكيندر، إذ كان يؤمن عن اقتناع بأنه عالم اجتماعي وليس عالما بالطبيعة، إذ إن ماكيندر، برأي آرون، يؤمن بإمكانية هزيمة الجغرافيا عن طريق الابتكار التكنولوجي⁽²⁰⁾. ولإزالة أي شك حول طريقة تناول ماكيندر للموضوع، ففي بداية كتاب «المثل الديمقراطية والواقع: دراسة في سياسة إعادة البناء»، كتب ما يلي:

في القرن الماضي، وتحت تأثير نظرية داروين، اعتقد البشر بضرورة بقاء تلك الأشكال من التنظيم التي ساعدتهم على التكيف بصورة أفضل مع بيئتهم الطبيعية. أما اليوم فنحن ندرك، ونحن نخرج من التجربة النارية [للحرب العالمية الأولى]، أن الانتصار الإنساني يكمن في تسامينا على هذه القدرية المحضة⁽²¹⁾.

وقد عارض ماكيندر الرضا الذاتي complacency بجميع أشكاله. ومرة أخرى، سأورد مثالا توضيحيا من بدايات كتابه «المثل الديمقراطية والواقع»:

تُغرينا اللحظة الحالية [في العام 1919] لأن نؤمن بأن السلام المتواصل سيحل لمجرد أن الرجال المتعبين عازمون على ألا يكون هناك مزيد من الحروب. لكن التوترات الدولية ستتراكم مرة أخرى، ولو ببطء في البداية؛ لقد كان هناك جيل من السلام بعد معركة ووترلو، لكن من توقع من بين الدبلوماسيين المجتمعين حول مائدة المؤتمر في فيينا في العام 1814 أن بروسيا سوف تصبح خطرا على العالم؟ وهل يمكننا نحن أن نقيم مسار تيار التاريخ المستقبلي بحيث لا يكون هناك مزيد مما يحول دون رؤيته بوضوح. إن هذه،

وليس أقل منها، هي المهمة الماثلة أمامنا إذا أردنا ألا تستخف الأجيال القادمة بحكمتنا قدر استخفافنا بتقديرات الديبلوماسيين الذين اجتمعوا في فيينا⁽²²⁾.

لم يكن ماكيندر قدريا صرفا؛ فقد اعتقد بأنه يمكن التغلب على كل من الجغرافيا والبيئة، لكن فقط إذا تعاملنا مع هذين الموضوعين بأكبر قدر من المعرفة والاحترام. ومما لا شك فيه أن كتاب «الأمير» لمكيافيلي Machiavelli قد صمد جزئيا لأنه يمثل دليلا تعليميا لأولئك الذين لا يتقبلون أحكام القدر ويتطلب أقصى درجات المكر لهزيمة القوى الأشد قوة. وينطبق الأمر نفسه، أيضا، على نظريات ماكيندر. فهو يضع رؤية مثبتة للهمم، والتي تبدو مُربكة بسبب قوة حجته وتعبيراته النثرية، وبالتالي يتولد الإحساس بالاندفاع إلى واقع محدد سلفا بينما هو في الحقيقة يتحدانا لأن نسمو فوقه. كان يمثل أفضل نوع من الحتميين المتريدين، إذ أدرك الجهد المحدد المطلوب منا بذله لتجنب وقوع مأساة.

إن الحتمية تعني التفكير المتحجر، أي الميل إلى الانسحاق بفعل القوى والاتجاهات الكاسحة، وبالتالي عدم التأثير بمفارقات التاريخ وهي تتكشف في الواقع. لكن ماكيندر كان نقيض ذلك. وكأنما كان رجلا ممسوسا، ظل يقوم بمراجعة وتنقيح فرضية «المحور» التي وضعها في العام 1904، بإضافة مزيد من العمق والرؤية إليها، أخذا بعين الاعتبار الأحداث الأخيرة وكيف تؤثر عليها. إن الألمعية الحقيقية لمقالة «المحور الجغرافي للتاريخ» تكمن في توقعها لوجود نظام عالمي global في الوقت الذي كانت فيه العقول التي تنتمي إلى العصر الإدواردي لاتزال تبذل قصارى جهدها للتوصل إلى منظومة قارية continental أوروبية⁽²³⁾. تعود جذور هذا النظام القاري إلى مؤتمر فيينا الذي انعقد بعد هزيمة نابليون قبل ذلك بما يقرب من مائة سنة، والذي كان يعيش أيامه الأخيرة - على الرغم من أن قليلين، باستثناء ماكيندر وبعض الآخرين، قد استشعروا وجوده بحسهم. أدت كارثة الحرب العالمية الأولى، التي اندلعت بعد عقد من نشر كتاب «المحور الجغرافي للتاريخ» إلى تحريض ألمانيا - بروسيا وروسيا القيصرية ضد بعضها البعض على الجبهة الشرقية، والقوات البرية الألمانية ضد القوات البحرية البريطانية والفرنسية على الجبهة الغربية، وبالتالي دعمت على نحو مبهم فكرة ماكيندر حول الصراع على المناطق المركزية، مضيئة عليها في الوقت نفسه عددا من التعقيدات والتعديلات.

كان «المثل الديموقراطية والواقع» تنقيحه الذي بلغ حجمه كتابا كاملا لمقالة «المحور الجغرافي للتاريخ»، والذي ظهر في نفس سنة انعقاد مؤتمر فرساي للسلام. حذر ماكيندر صانعي السلام من «أن المشكلة بين القوة البحرية والقوة البرية لم تحل بصورة نهائية، وأن النزال بين الجرمان Teuton والسلاف لم يجر خوض غماره حتى الآن»، على الرغم من الحرب التي أزهقت فيها أرواح الملايين⁽²⁴⁾. كانت مقالة «المحور الجغرافي للتاريخ» عبارة عن نظرية فقط؛ أما كتاب «المثل الديموقراطية والواقع»، ومن الناحية الأخرى، فكان أطروحة منقحة وموسعة، والتي كانت أيضا بمنزلة تحذير بعيد النظر.

إن أسلوب الكتابة في كتاب «المثل الديموقراطية» يغلي بالوصف، وسعة الاطلاع، وإلقاء الضوء على الظلال التي تكتنف المشاهد المعاصرة والقديمة على حد سواء، إذ كان ماكيندر يعرض العالم من منظور البحار وساكن البر على حد سواء. إن حضارة وادي النيل، كما يخبرنا، وهو يفكر كبَحَّار، كانت محمية من جهتي الشرق والغرب بواسطة الصحارى، ولم تتعرض أبدا للقرصنة من جهة البحر المتوسط بفضل المستنقعات السائدة في منطقة الدلتا الواقعة إلى الشمال: ساعد هذا على تزويد الممالك المصرية بمستويات غير عادية من الاستقرار. وإلى الشمال من مصر، وفي شرق البحر المتوسط، تقع جزيرة كريت، وهي أكبر الجزر اليونانية وأكثرها خصوبة، والتي مثلت بالتالي «أول قاعدة للقوات البحرية» في العالم الغربي، لأن «القوى البشرية العاملة على البحر يجب أن تغذى عن طريق خصوبة البر في مكان ما». وانطلاقا من جزيرة كريت، ربما استقر البحارة في «الغرفة البحرية» الواقعة في بحر إيجه، التي شكلت الأساس الحقيقي للحضارة اليونانية: ازدهرت القوة البحرية اليونانية حتى تحدثها القوة البرية الفارسية، كما أضاف ماكيندر. غير أن الغزو الفارسي باء بالفشل. كان المقدونيون Macedonians أنصاف اليونانيين الآتين من الشمال، «من أصل شبه الجزيرة اليونانية نفسه»، هم من غزوا في النهاية منطقة بحر إيجه بأكملها. أما مقدونيا، ولكونها أكثر بُعدا عن البحر من اليونان، فقد أفرزت جنسا من «رجال البر وساكن الجبال»، الذين كانوا أكثر طاعة لحكامهم على الرغم من أنهم كانوا محاربين أشداء، ومع ذلك كانت قريبة من البحر بما فيه الكفاية لإدراك أهمية العالم الأوسع. كان هذا الغزو المقدوني، الذي جعل بحر إيجه

«بحرا مغلقا» - وبالتالي حرم الإغريق والفينيقيين من قواعدهم هناك - هو ما أتاح للإسكندر الأكبر، وهو مقدوني، ترف محاولة الغزو البري للشرق الأدنى الكبير. يشرح ماكيندر بعد ذلك الأصول الجغرافية للإمبراطورية الرومانية وما تلاها، حتى على الرغم من اعترافه بأن الجغرافيا لا تمثل دائما تفسيرا للتاريخ: وعلى سبيل المثال، فقد غزا المسلمون القادمون من الصحراء الكبرى في جنوب البحر المتوسط إسبانيا شمال البحر المتوسط، في حين أن الرومان الآتين من شمال البحر المتوسط غزوا قرطاج في جنوب المتوسط، الأمر الذي تحقق في كلتا الحالتين بسبب إرادة الرجال المتمثلة في شكل قوة بحرية استثنائية.

ومع ذلك، وكما أشار إليه ماكيندر، فمهما كانت درامية إنجازات الأفراد، فإن القوى الجغرافية، من خلال تأثيرها على الثقافات الإنسانية، تميل إلى الانتصار في النهاية. وعلى سبيل المثال، هناك مثال مدينة بطرسبرغ، التي جعلها بطرس الأكبر Peter the Great عاصمة لروسيا بين «أنياب ظروف جغرافية غير مواتية»، حتى على الرغم من أن الثقافة والأفراد الشديدي الحماسة جعلوا بقاءها أمرا ممكنا من الناحية التقنية. وبالتالي فقد انتصر بطرس على المدى القصير، وطوال قرنين من الزمان «كانت الإمبراطورية الروسية تُدار من هذه «الحماقة»». غير أن موسكو المرتبطة بالأرض - ومن ثم الجغرافيا - انتصرت مجددا في نهاية المطاف. للإرادة البشرية حدود لا يمكن تجاوزها⁽²⁵⁾.

تمثلت نقطة انطلاق ماكيندر إلى حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى في إدراكه البارز لمفهوم «المحور» لأننا نواجه للمرة الأولى في التاريخ «نظاما مغلقا»، والذي يتسم بأن «الملكية السياسية لجميع الأراضي الجافة» جرى «ترسيمها» بالفعل. وفي هذه الجغرافيا العالمية الجديدة، تشكل مساحة الأراضي الجافة «رأسا شاسعا» vast cape، أو «نتوءا [رَعْن: Promontory] عالميا»، على حد تعبيره، يمتد من الجزر البريطانية وشبه جزيرة أيبيريا جنوبا بطول الطريق حول نتوء غرب أفريقيا وطريق رأس الرجاء الصالح، ومن ثم عبر المحيط الهندي وصولا إلى شبه القارة الهندية وشرق آسيا. وبالتالي، فإن أوراسيا وأفريقيا تشكلان معا «جزيرة عالمية»، التي ستتحول بمرور العقود إلى وحدة متماسكة على نحو متزايد⁽²⁶⁾:

خريطة أوراسيا

هناك محيط واحد يغطي تسعة من 12 جزءا من العالم؛ وثمة قارة واحدة - هي الجزيرة العالمية - تغطي جزأين من 12 جزءا من العالم؛ وهناك العديد من الجزر الأصغر حجما، التي من بينها تُعتبر أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، لأغراض فعالة، قارتين اثنتين، واللّتين تغطيان معا الجزء المتبقي من 12 جزءا من العالم⁽²⁷⁾.

وبالإضافة إلى ذلك، يمكن للمرء أن يقول إن 75 في المائة من السكان البشريين يعيشون في أوراسيا (فضلا عن أفريقيا)، التي تحتوي على معظم ثروة العالم، وستين في المائة من الناتج المحلي الإجمالي، وثلاثة أرباع احتياجاتها من مصادر الطاقة⁽²⁸⁾. تمثّل الافتراض الضمني في أطروحة ماكيندر في أن أوراسيا سوف تهيمن على الحسابات الجيوسياسية، حتى مع تحوّل أوروبا شيئا فشيئا إلى كيان منفصل عن بقية أوراسيا وأفريقيا. «لقد صار العالم قديم جزيريا insular، أو بعبارة أخرى تحوّل إلى وحدة، وهي أكبر وحدة جغرافية في عالمنا على الإطلاق». واعتبارا من نهاية الحروب النابليونية، وباستثناء موزمبيق البرتغالية، وشرق أفريقيا الألماني، وجزر الهند الشرقية الهولندية، فقد أحاطت القوة البحرية البريطانية بهذا «النتوء العالمي». يقارن ماكيندر بين السيطرة الرومانية على البحر المتوسط، مع انتشار فيالق روما على طول الحدود المتمثلة في نهر الراين، وبين الهيمنة البريطانية على المحيط الهندي (وهو البحر الرئيسي للنتوء العالمي)، حيث كانت دوريات الجيش البريطاني تحرس الحدود الشمالية الغربية للهند ضد روسيا القيصرية المُعادية⁽²⁹⁾.

إن متضمنات «النظام المغلق» الذي تصوّره ماكيندر، والذي يمكن فيه أن نتصور كامل عرض أوروبا وآسيا وأفريقيا كوحدة عضوية واحدة، والانغلاق الإضافي لهذا النظام طوال القرن العشرين وما بعده، تشكل النقطة الأساسية لدراستي الخاصة، التي ستنبع منها نقاط أخرى. ولكن بالقدر نفسه من الأهمية، يجب أن نعتزف بأنه حتى النظام المغلق، الذي يكون فيه المحيط الهندي، على سبيل المثال، هو المركز الحيوي للاقتصاد العالمي، حيث تقوم الناقلات في المستقبل بجمع النفط والغاز الطبيعي من الصومال لتخزينه في الصين، لايزال منقسما من الداخل بفعل الجغرافيا. إن الجغرافيا، في الواقع، تصبح أكثر أهمية ضمن نظام

مغلق، بسبب نزوع هذا النظام لجعل تأثير التضاريس القاسية في أفغانستان، على سبيل المثال، تتسق سياسيا من إحدى نهايتي الجزيرة العالمية إلى الأخرى. أما الآن، فلنعد إلى استكشاف ما قصده ماكيندر بالضبط باصطلاح المنطقة المركزية Heartland، التي تؤثر كثيرا على مصير الجزيرة العالمية. يبدأ ماكيندر ويختتم فكرته بقوله المأثور الرائع والمفرط في التبسيط، الذي كثيرا ما استشهد به الباحثون:

من يحكم أوروبا الشرقية يسيطر على المنطقة المركزية: ومن يحكم المنطقة المركزية يسيطر على الجزيرة العالمية: ومن يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم⁽³⁰⁾.

إن أول شيء يجب إدراكه هنا هو أن ماكيندر، بدلا من أن يكون حتميا كليا، يستجيب بالقدر نفسه للأحداث الناتجة عن الفاعلية الإنسانية في أثناء تنبؤه بها. وما بين نشره لمقال «المحور الجغرافي للتاريخ» في العام 1904 وكتاب «المثل الديمقراطية والواقع» في العام 1919، جاءت مذبحة الحرب العالمية الأولى، وفي أعقاب تلك الحرب جاء مؤتمر باريس للسلام، الذي عقد في أثناء مثول كتاب ماكيندر إلى الطبع. ومع انهيار الإمبراطوريتين النمساوية - المجرية والعثمانية نتيجة للحرب، كان من بين الأغراض المحورية للديبلوماسيين المجتمعين في فرساي إعادة ترتيب خريطة أوروبا الشرقية. وبالتالي، فقد تناول ماكيندر في كتابه قضية تجاهلها في مقالة «المحور الجغرافي للتاريخ» التي كتبها قبل خمسة عشر عاما: ألا وهي «الضرورة الحيوية لوجود طبقة من الدول المستقلة بين ألمانيا وروسيا». وعلى حد تعبيره، فقد «كنا معارضين لحكم القيصرية الروس Czardom أنضاف الألمان لأن روسيا كانت القوة المهيمنة التي ظلت تهدد كلا من أوروبا الشرقية والمنطقة المركزية لمدة نصف قرن؛ كما كنا معارضين كليا لحكم القيصرية الألمان Kaiserdom، لأن ألمانيا أخذت زمام المبادرة في أوروبا الشرقية من روسيا القيصرية، وستتمكن حينئذ من سحق السلاف المتردين، ومن ثم السيطرة على كل من أوروبا الشرقية والمنطقة المركزية». وهكذا، فإن أوروبا الشرقية من السلافيين من منظور ماكيندر في العام 1919 تصبح مفتاح المنطقة المركزية، والتي تستمد قوتها البرية من ألمانيا، وخصوصا من روسيا.

ولأن روسيا كانت «تطرق البوابات البرية لجزر الهند»، ما يضعها في مواجهة مع القوة البحرية البريطانية، التي، بدورها، كانت «تطرق الأبواب البحرية للصين» حول رأس الرجاء الصالح وعبر قناة السويس لاحقاً. ومن خلال اقتراح إنشاء حصن واقٍ مؤلف من دول شرق أوروبا المستقلة من إستونيا باتجاه الجنوب إلى بلغاريا - أي «بوهيميا العظمى»، «وصربيا العظمى»، و«رومانيا العظمى»، وهلم جرا - فإن ماكيندر يقوم، في الواقع، بطرح تعديل بسيط على فكرته وفكرة فيرغريف Fairgrieve حول «منطقة الحشود» التي وصفها فيرغريف على وجه التحديد في كتاباته المنشورة في العام 1915، والتي تعني المنطقة المعرضة للاجتياح من قبل القوة البرية الآتية من المنطقة المركزية أو القوة البحرية القادمة من أوروبا⁽³¹⁾. وإذا أمكن لهذه الدول المستقلة حديثاً أن تبقى على قيد الحياة، فستكون هناك فرصة لظهور أوروبا الوسطى، بالمعنى الروحي والجيوسياسي على حد سواء، على الرغم من كل شيء. وقد توسّع ماكيندر في طرحه، فاقترح إقامة سلسلة من الدول الواقعة إلى الشرق، إذا جاز التعبير، من أوروبا الشرقية: روسيا البيضاء (بيلاروسيا)، وأوكرانيا، وجورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان، وداغستان، من أجل إحباط مخططات روسيا البلشفية، التي وصفها باسم «دولة القياصرة الدومينيكيين» Jacobin Czardom. وفي الواقع، مع زوال الاتحاد السوفييتي في العام 1991، ستبرز مجموعة من الدول المستقلة حديثاً، والمماثلة بشكل لافت للنظر لما طرحه ماكيندر⁽³²⁾.

غير أن ماكيندر، في البداية على الأقل، قد ثبت خطؤه في هذه المسألة؛ فلا يبدو أنه أدرك، كما فعل توينبي، أن أوروبا التي جرى ترسيم حدودها بناء على مبدأ حق تقرير المصير الوطني كانت عرضة لأن تكون أوروبا تهيمن عليها ألمانيا - كونها أكبر حجماً وذات وضع أفضل من الناحية الجغرافية، وأقوى من أي دولة أخرى ذات أسس عرقية. وبالفعل، ستقهر ألمانيا أوروبا الشرقية في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين، وستقوم روسيا، كرد فعل لذلك، بغزو هذه الدول المستقلة حديثاً في المنطقة العازلة التي اقترحها ماكيندر، ومن ثم حبسها في سجن للأمم ما بين عامي 1945 و1989. وخلال الجيل الأخير وحده بزغ الأمل في أنه يمكن لأوروبا الوسطى الروحية أن تعيش بين القوتين البريتين لروسيا وألمانيا. فلماذا نجد

ماكيندر، باعتباره واقعيًا متعصبًا، قد صار رخوًا فجأة، إذا جاز التعبير، في دعم ما كان يمثل، في الواقع، المبادئ «الويلسونية» لحق تقرير المصير الوطني؟ وكما أشار أحد الباحثين، وهو آرثر بتلر دوغان Dugan، كان ماكيندر، على الرغم من نظرياته الجريئة والحتمية، ابن عصره، أو «ثمرة» لمناخ الرأي السائد «أكثر مما كان يُدرك»⁽³³⁾.

كان ماكيندر في أعماقه ليبراليًا، أو على الأقل صار واحدًا. لقد تصوّر الكومنولث البريطاني وقد تحوّل إلى رابطة للثقافات والشعوب المختلفة لكنها متساوية؛ كما آمن بأن عصبة من الديمقراطيات ستمثل أفضل دفاع ضد قوة إمبريالية عظمية في قلب أوراسيا (ما يتنبأ، بالتالي، بكفاح حلف الناتو ضد الاتحاد السوفييتي)⁽³⁴⁾. إن انجراف ماكيندر تجاه مبادئ ويلسون، الذي بدأ في مقالة «المثلث الديموقراطية والواقع»، يشكل حجر الزاوية في مراجعته للنظرية التي وضعها حول «المنطقة المركزية». كان قد شرح تلك النظرية لأول مرة في مقالة «المحور الجغرافي»، من دون استخدام مصطلح «المنطقة المركزية». صيغ المصطلح في الواقع من قبل فيرغريف في كتابه المعنون «الجغرافيا والطاقة العالمية»، المنشور في العام 1915. وفي العام 1919، أضاف ماكيندر إلى المناطق المحورية لآسيا الوسطى التي حددها في العام 1904، ما أسماه «المسارات النجدية التبتية والمنغولية للأنهار الكبرى في الهند والصين»، وكامل الحزام العريض المكون من البلدان الواقعة من الشمال إلى الجنوب من شبه جزيرة اسكندنافيا إلى الأناضول، وبما في ذلك أوروبا الشرقية والوسطى: بحيث تصبح المنطقة المركزية الجديدة مساوية تقريبًا للإمبراطورية السوفييتية في أوج قوتها خلال الحرب الباردة⁽³⁵⁾. أو ينبغي أن أقول: الإمبراطورية السوفييتية بالإضافة إلى النرويج، وشمال تركيا، وإيران، وغرب الصين. ولأن الجزء الأكبر من سكان الصين لا يعيشون في الغرب ولكن في الأراضي الساحلية التي تهب عليها الرياح الموسمية، فإن المنطقة المركزية لماكيندر تمثل الجزء الأكبر من الجزء الداخلي لأوراسيا الذي يتسم بأنه قليل السكان نسبيًا، مع الضخامة الديموغرافية للصين، والهند، والنصف الغربي من أوروبا على جانبيه. أما الشرق الأوسط (وبالتحديد شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب) فلم يكن مكتظًا بالسكان ولا جزءًا من المنطقة المركزية، ولكن كما كتب ماكيندر في العام 1919،

فقد صارت له الآن أهمية محورية بالنسبة إلى مصير الجزيرة العالمية، لأنها تمثل «الممر البري» من أوروبا إلى جزر الهند ومن الجزء الشمالي من المنطقة المركزية إلى الجزء الجنوبي، فضلا عن كونه يمكن الوصول إليها عبر العديد من المسطحات المائية المنتشرة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية⁽³⁶⁾.

لكن مصير شبه الجزيرة العربية، وكذلك مصير أوروبا، يتأثر تأثرا كبيرا بالمنطقة المركزية؛ كما أن الجزء الأكثر قربا من المنطقة المركزية إلى شبه الجزيرة العربية هو إيران، وهو درس ينبغي أن نضعه في أذهاننا لاستخدامه في عصرنا الحالي. وفي الواقع أن الهضبة الإيرانية تتسم بأهميتها البالغة، لذلك سأتناولها في موضع لاحق.

وهناك استثناء مشوّق هنا هو اليونان، التي تمثل من الناحية الجغرافية جزءا من الطبقة المستقلة من الدول العازلة بين ألمانيا وروسيا، غير أن ماكيندر استبعدتها من مناطقه المركزية الموسعة للعام 1919؛ لأن حدود اليونان، كما يقول، تتكون في معظمها من المياه وبالتالي يمكن للقوة البحرية أن تصل إليها. كانت اليونان أول من تحرر من بين هذه الدول من السيطرة الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى. وهنا، أيضا، أظهر ماكيندر بُعد نظره الثاقب؛ فكتب قائلا: «إن الاستحواذ على اليونان من قبل قوة مركزية كبرى يرجح أن يحمل معه السيطرة على الجزيرة العالمية»⁽³⁷⁾. والواقع أن هذا ما حدث تقريبا؛ فبعد قتال عنيف في حرب أهلية بين الميليشيات الموالية للغرب وتلك الشيوعية، صارت اليونان هي الوحيدة بين هذه الأراضي العازلة التي لم تسقط ضمن المدار السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية، وشكلت لاحقا - مع تركيا - خط القمة ridgeline الجنوبي الاستراتيجي لحلف شمال الأطلسي (الناتو). أما السوفييت، فكما حدث، فسيخسرون الحرب الباردة لاحقا. ووفقا لماكيندر، فإن أوروبا والشرق الأوسط هي أكثر تأثرا بكثير بالمنطقة المركزية من الهند والصين، اللتين يتسم مئات الملايين من سكانهما باكتفائهم الذاتي، وبالتالي يمكنهما التطور سلميا. أدى به هذا الاستنتاج إلى التنبؤ بأن المستقبل يكمن إلى حد كبير في «أراضي الرياح الموسمية في الهند والصين»⁽³⁸⁾.

لكن لماذا تتسم المنطقة المركزية بمثل هذه الأهمية في المقام الأول؟ وهل السيطرة على الأراضي المنخفضة الواسعة والنجود الداخلية لأوراسيا أمر محوري حقا لأي قوة عالمية؟ نعم، فهي غنية بالنفط والمعادن والفلزات الاستراتيجية، لكن هل

هذا يكفي حتى؟ تتسم فكرة ماكيندر بميكانيكيته في حدها الأقصى. وعلى الرغم من ذلك، كنتيجة جزئية لذلك، فهي توفر وسيلة لشرح الكثير عن الترتيب المكاني للدول والشعوب في جميع أنحاء النصف الشرقي من العالم؛ فمن الأسهل تفسير العلاقات بين إحدى نهايتي أوراسيا والنهاية الأخرى باعتبار أن النقطة المرجعية للقياس هي المركز، وليس أي حافة ساحلية. يمكن النظر إلى المنطقة المركزية بأفضل صورة باعتبارها سجلا للقوة عبر الجزيرة العالمية، وليس مُحددا لها. وقرب نهاية كتاب «المثل الديمقراطية والواقع»، افترض ماكيندر أنه إذا خرج الاتحاد السوفييتي من الحرب العالمية الأولى متفوقا على ألمانيا، «فلا بد من تصنيفه كأعظم قوة برية في العالم»، وذلك بسبب قدرته على حماية المنطقة المركزية⁽³⁹⁾.

وقد فعل الاتحاد السوفييتي ذلك في نهاية المطاف، وفعلها مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية. وبالتالي، فقد صار في مواجهة مباشرة، كما أشار ماكيندر إلى أنه سيفعل، ضد القوة البحرية المتفوقة في العالم، أي الولايات المتحدة. كان الاتحاد السوفييتي يسعى إلى القوة البحرية - من خلال البحث عن منفذ إلى المياه الدافئة للمحيط الهندي - لدرجة أن السوفييت أقدموا في نهاية المطاف على غزو أفغانستان، وهي جزء صغير من المنطقة المركزية التي استعصى عليهم إحكام قبضتهم عليها. ومن خلال الوقوع في شرك الميليشيات المتمردة في أفغانستان، انهارت إمبراطورية الكرملين بأسرها. أما الآن، فإن روسيا، التي تقلص حجمها كثيرا، تحاول إعادة توحيد هذه المنطقة المركزية نفسها - روسيا البيضاء، وأوكرانيا، والقوقاز، وآسيا الوسطى. ويشكل هذا، في حد ذاته، بعد قرن كامل من طرح ماكيندر لنظرياته، واحدا من أهم الأعمال الدرامية الجيوسياسية في عصرنا الحالي.

تشويه النازية

باعتبارهم ورثة القوة البرية، كان الألمان والروس على مر القرون يفكرون من منظور الجغرافيا أكثر مما يفعل الأمريكان والبريطانيون، وهم ورثة القوة البحرية. وبالنسبة إلى الروس، الذين لم يغب عن أذهانهم الدمار الذي أحدثته القبيلة الذهبية Golden Horde من المغول، فإن الجغرافيا تعني ببساطة أنه من دون التوسع هناك خطر التعرض للغزو؛ فالأراضي الكافية غير كافية أبدا. إن حاجة روسيا إلى إمبراطورية من الدول التابعة في أوروبا الشرقية خلال الحرب الباردة، واستخدامها القوة العسكرية، وقلب أنظمة الحكم، وبنية طرق خطوط أنابيب الطاقة الخاصة بها كانت كلها مصممة لاستعادة جوارها القريب، وبالتالي فإن إعادة تشكيل الاتحاد السوفييتي السابق عمليا، هي عواقب انعدام

«حتى بعد الحرب، سيكون هناك القليل من الراحة من مأساة الوضع البشري»

المؤلف

الأمن المتجذر. غير أن الألمان، على الأقل حتى منتصف القرن العشرين، كانوا أكثر وعيا منهم بالجغرافيا. لقد تغيّر شكل الأراضي الناطقة بالألمانية على خريطة أوروبا باستمرار منذ العصور المظلمة حتى العصر الحديث، في حين لم توحّد الدولة الألمانية إلا في ستينيات القرن التاسع عشر تحت حكم أوتو فون بسمارك Bismarck.

تقع ألمانيا في القلب من أوروبا، باعتبارها قوة برية وبحرية على حد سواء، وبالتالي تدرك تماما علاقاتها مع أوروبا الغربية البحرية والمنطقة المركزية لروسيا وشرق أوروبا. وفي نهاية المطاف كانت انتصارات ألمانيا على الدمارك، والنمسا تحت حكم آل هابسبورغ، وفرنسا نتيجة لألمعية بسمارك الإستراتيجية، والمترسخة في إحساسه الحاد بأهمية الجغرافيا، والذي تمثل في الواقع في الاعتراف بالحدود: وهي تلك المناطق السلافية الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي والتي لا تجرؤ ألمانيا على الذهاب إليها. أدى تخلي ألمانيا عن حذر بسمارك إلى خسارتها في الحرب العالمية الأولى، ما منح الألمان شعورا أكثر حدة بأوجه ضعفهم - واحتمالاتهم - من الناحية الجغرافية.

باعتبار بلادهم متغيرة تاريخيا على الخريطة، وواقعة بين البحر إلى الشمال وجبال الألب في الجنوب، ومع كون السهول الواقعة إلى الغرب والشرق مفتوحة أمام الغزو والتوسع على حد سواء، عاش الألمان الجغرافيا بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فهم الذين وضعوا وطوّروا علم الجغرافيا السياسية، أو Geopolitik باللغة الألمانية، الذي هو مفهوم المساحة المحكومة سياسيا وعسكريا. وكانت هذه النظريات الجغرافية، التي تدين بالكثير لماكيندر خلال النصف الأول من القرن العشرين، هي التي أدت إلى قيام الألمان بإبطال وتشويه سمعة الجغرافيا والجغرافيا السياسية لأجيال من الألمان منذ الحرب العالمية الثانية. بدأ صعود وسقوط الجغرافيا السياسية، وهي عملية قام فيها مُنظر بعد الآخر بالاستفادة من كتابات سلفه وإساءة استخدامها على حد سواء، التي بدأها عن قصد فريدريش راتزل Ratzel، وهو جغرافي وإثنوغرافي ألماني عاش في أواخر القرن التاسع عشر، والذي صاغ فكرة المجال الحيوي Lebensraum^(*). وفي الحقيقة يدين المفهوم بأصله إلى مهاجر ألماني إلى أمريكا في أوائل القرن التاسع عشر، هو فريدريش ليست List، وهو صحافي وأستاذ في العلوم السياسية، ومُضارب في مجال الأعمال، وصديق لهنري

(*) «المجال الحيوي» هو الترجمة الحرفية للكلمة الألمانية، التي تعني التوسع الجغرافي للإمبراطورية الألمانية وشعبها بدوافع أيديولوجية. [المحرر].

كلاي Clay، الذي استلهم مبدأ مونرو Monroe Doctrine بفكرته المتمثلة في منطقة جغرافية واسعة وذات سيادة من الناحية العملية. أما بالنسبة إلى راتزل، فقد تأثر كثيرا بدوره بكتابات تشارلز داروين Darwin، وبالتالي وضع مفهوما للجغرافيا يتسم بكونه عضويا وبيولوجيا إلى حد ما، والذي تتطور فيه الحدود باستمرار وفقا لحجم وتركيبية المجموعات البشرية في المناطق المجاورة. وفي حين ننظر إلى الحدود باعتبارها ساكنة، أو كتمثيل متجسد للديمومة، والشرعية، والاستقرار، فلم يرَ راتزل سوى التوسع والانكماش التدريجي، وعدم الثبات في شؤون الأمم. وبالنسبة إليه كانت الخريطة تتنفس كأنها كائن حي، ومن هنا جاءت فكرة الحالة العضوية - البيولوجية التي تمت صياغة توسيع نطاقها كقانون طبيعي.

وصاغ أحد طلاب راتزل، وهو السويدي رودولف كيلين Kjellén، الذي عمل باحثا في العلوم السياسية في جامعتي أوبسالا وغوتنبورغ، مصطلح «الجغرافيا السياسية». كان كيلين، باعتباره قوميا سويديا متحمسا، يخشى سياسة التوسع الروسية سعيا منها إلى الوصول إلى المياه الدافئة نسبيا إلى بحر البلطيق؛ ومن ثم فقد رغب في انتهاج السويد وفنلندا سياسة توسعية لمواجهة المكائد الروسية. وفي حين وجد كيلين دعما لآرائه بين أفراد الطبقتين الأرستقراطية والوسطى العليا، الذين استشعروا الحنين إلى عظمة السويد الماضية تحت حكم ملوك مثل غوستافوس أدولفوس Gustavus Adolfus وتشارلز الثاني عشر Charles XII، ففي نهاية المطاف لم تلق آراؤه سوى دعم ضئيل من عموم الجمهور.

إن الشهية لاستعادة الحيازات السابقة للقوى العظمى في شبه جزيرة إسكندنافيا، حتى بحلول أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كانت بمنزلة ماض بعيد. نقل كيلين كل آماله إلى «ألمانيا كبرى» والتي تقف في مواجهة روسيا وإنجلترا اللتين كان يكرهما على وجه الخصوص.

إن إمبراطورية كيلين الألمانية المستقبلية، كما صنفها كذلك، شملت كامل أراضي أوروبا الوسطى والشرقية، وكذلك موانئ القنال بطول الساحل الفرنسي، ومقاطعات البلطيق الروسية، وأوكرانيا، وآسيا الصغرى، وبلاد ما بين النهرين (والتي سيجري ربطها ببرلين بواسطة خطوط هائلة للسكك الحديدية). ومن خلال تطبيق أفكار راتزل صنف كيلين المجتمعات البشرية من الناحيتين العرقية والبيولوجية، كما تصور الدولة من

حيث «شعبها» Volk، الذي - إذا كان نشيطا وديناميكيا بما فيه الكفاية - فسيحتاج إلى مقدار كبير بصفة خاصة من المجال الحيوي. إن الفصاحة والتبجح أنفسهما الساكنين فكر راتزل وكيلين هما ما استخدم جيلا من القتلة اللاحقين لتبرير أفعالهم. تتسم الأفكار بأهميتها، سواء كانت خيرة أو شريرة، كما أن الأفكار الضبابية قد تكون خطيرة بصفة خاصة. وفي حين أن الجغرافيا القومية تبين لنا ما سنؤول إليه في مواجهة التحديات التي تحتكنا في جميع أنحاء العالم، فإن آراء راتزل وكيلين تمثل جغرافيا غير منطقية تقضي على الفرد وتستبدل به حشدا عنصريا هائلا.

لا يمثل هذا كله أكثر من مقدمة لحياة كارل هاوسهوفر Haushofer، وهو منظر الجغرافيا السياسية الرئيسي للنازية والمعجب المخلص بماكيندر. إن التحريف المأساوي لأكار ماكيندر من قبل هاوسهوفر، وكذلك الخطر الذي شكلته الجغرافيا السياسية النازية، مذكوران بفصاحة في كتاب ظل منسيا إلى حد كبير لكنه يعد من الأعمال الكلاسيكية في العلوم السياسية، وهو بعنوان «الجغرافيا السياسية: الكفاح من أجل المساحة والقوة» لمؤلفه روبرت شتراوس-هوبي Strausz-Hupé، والمنشور في العام 1942.

كان شتراوس - هوبي، وهو مهاجر نمساوي إلى الولايات المتحدة، عضوا في هيئة التدريس بجامعة بنسلفانيا، وسفيرا للولايات المتحدة في أربعة بلدان (بما فيها تركيا) خلال سنوات الحرب الباردة. وفي العام 1955 في فيلادلفيا أسس معهد أبحاث السياسة الخارجية، الذي عملت معه على نحو غير متفرغ طوال عقدين من الزمن. إن كتاب شتراوس - هوبي، الذي ألفه قبل أن يتحول المد لمصلحة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، كان محاولة واضحة ليس فقط لشرح خطر الجغرافيا السياسية النازية لمواطني البلد الذي صار وطن له، ولكن لشرح ماهية الجغرافيا السياسية وسبب أهميتها، بحيث يمكن لقوى الخير أن تستفيد منها بطريقة تختلف كثيرا عما كان يفعل النازيون. وبالتالي، فقد عمل شتراوس - هوبي على إنقاذ سمعة ماكيندر وسمعة التخصص العلمي في حد ذاته، في أثناء تأدية عمل من أعمال الفاعلية الفردية individual agency من خلال القيام بواجبه الفكري لكسب الحرب.

ولد اللواء الأستاذ الدكتور كارل هاوسهوفر في ميونخ في العام 1869. كان كل من جده، وعمه، ووالده من الكتاب الذين تناولوا رسم الخرائط والسفر، وبالتالي كان خط حياته مرسوما. التحق هاوسهوفر بالجيش البافاري، وفي العام 1909 عُيِّن مدربا

للمدفعية في الجيش الياباني. صار الرجل مفتونا بالنهضة العسكرية في اليابان، التي دعا إلى تحالفها مع ألمانيا. حارب هاوسهوفر في الحرب العالمية الأولى باعتباره قائد لواء، وكان مساعده هو الضابط النازي رودولف هيس Hess، الذي سيقوم لاحقا بإفراد العديد من الكتب له. وبعد الحرب، عُيِّن هاوسهوفر رئيسا لقسم الجغرافيا والعلوم العسكرية في جامعة ميونخ، حيث تبعه هيس كتلميذ. وعن طريق هيس التقى هاوسهوفر بـ «المهتج الصاعد» أدولف هتلر Hitler، الذي سيزوره هاوسهوفر لتزويده ببعض الملخصات الأكاديمية حول الجغرافيا السياسية عندما كان هتلر سجيناً في قلعة لاندسبرغ، في أعقاب فشل انقلاب قاعة الجعة في العام 1923. أُلِف هتلر كتابه المعلنون «كفاحي» Mein Kampf في ذلك الوقت، وباعتبار أنه لم يُكْمَل تعليمه، فقد احتاج، على الرغم من بديهيته، إلى معرفة مزيد عن العالم الحقيقي. وهنا جاء دور هذا الأستاذ الجامعي الذي يمكن أن يملأ بعض الثغرات في معارفه. من المحتمل أن يكون الفصل الرابع من كتاب «كفاحي»، الذي يحدد السياسة الخارجية للحزب النازي، والمثال النازي للمجال الحيوي، قد تأثر بأفكار هاوسهوفر، الذي تأثر بدوره، من بين آخرين، بكل من راتزل، وكيلين، وماكيندر على وجه الخصوص. كتب ماكيندر أن تاريخ العالم قد تشكّل دائماً بفعل الاندفاعات الكبرى نحو الخارج من قبل الشعوب غير الساحلية الموجودة بالقرب من أوروبا الشرقية والأراضي المركزية لأوراسيا⁽¹⁾.

يصطحبنا شتراوس - هوبي في رحلة بطول الخط الفكري الذي صار هاوسهوفر عبره مفتونا بأفكار معاصره ماكيندر. وعلى الرغم من كونه مهووساً بالقوة البرية، فإن ماكيندر لم يستخف أبداً في الواقع بأهمية القوة البحرية. لكنه كان متشائماً بشأن مقدرة القوة البحرية البريطانية على منع القوة البرية الألمانية من الإغارة على المنطقة المركزية. وأنه بمجرد استيلائها على الأراضي المركزية، فإن ألمانيا ستتمكن من بناء قوة بحرية كبيرة لكي تساعد في احتلال الجزيرة العالمية. أوضح ماكيندر أنه خلال القرن العشرين، أكثر من أي وقت مضى، ستحتاج القوة البحرية إلى وصول أوسع وأعمق إلى اليابسة للاستفادة من عصر التصنيع. يعني عصر التصنيع عالماً خاصاً بالدول الكبرى، حيث القوي يأكل الضعيف. اعتمد هاوسهوفر نظرية ماكيندر هذه «لَعكس وجهة النظر الألمانية»، كما كتب شتراوس - هوبي، «وخلص إلى أن المسار الألماني إلى مصاف القوى العالمية يقع بطول الخطوط التي ظلت تُرعب الإنجليز دوماً، أي توحيد

«المناطق الكبرى» الألمانية والروسية. بيد أن هاوسهوفر، على حد تعبير شتراوس - هوبي، يصبح مبهما على نحو إيجابي، وباطنيا mystical، وغامضا عندما يصف الأراضي المركزية لماكيندر؛ فهي «مهد فاتحي العالم» و«قلعة عملاقة تمتد من نهر إلبه إلى نهر أمور»، أي من وسط ألمانيا إلى منشوريا والشرق الأقصى الروسي، حيث يمكن لألمانيا أن تسحب الصناعات الحربية الحيوية إلى أعماقه، في حين تستطيع جيوشها وبحريتها أن تضرب إلى الخارج في جميع الاتجاهات⁽²⁾.

وفي حين أن ماكيندر، كونه متأثرا بالولسونية وبالحاجة إلى الحفاظ على توازن القوى في أوراسيا، أوصى في العام 1919 بإنشاء حزام من الدول المستقلة في أوروبا الشرقية، فإن هاوسهوفر، وعن طريق قلب فرضية ماكيندر، قد دعا بعد بضع سنوات إلى «انقراض تلك الدول». ذكر شتراوس - هوبي أن هاوسهوفر قد وصفها بأنها «كسرات من الدول... شظايا»، والتي لا يفكر سكانها إلا بمفهوم «الحيز الضيق»، الأمر الذي يعني بالنسبة إلى هاوسهوفر، وكما أوضح شتراوس - هوبي «علامة لا لبس فيها على الاضمحلال».

ويستطرد شتراوس - هوبي، فيشرح «المنطق الأنيق» لهاوسهوفر حول انحلال الإمبراطورية البريطانية والحاجة إلى تفتيت الاتحاد السوفييتي إلى الأجزاء العرقية المكونة له، التي ستعتمد جميعها على ألمانيا الكبرى، التي يرى هاوسهوفر أنها الدولة الوحيدة التي يحق لها تقرير مصيرها الوطني.

ووفق تعبير هاوسهوفر نفسه، فإن «ثلث الشعب الألماني يعيش [بالفعل] تحت حكم أجنبي خارج حدود الرايخ Reich الألماني». ويحذرنا شتراوس - هوبي من أن الجغرافيا السياسية - وفق المنظور الألماني - هي عالم من «الحركات البهلوانية على أرجوحة الأيديولوجية»، والتي لها استنتاجات «صارخة البساطة». يفترض النظام العالمي الجديد الألماني وجود شرق آسيا الكبرى تحت الهيمنة اليابانية، و«عموم أمريكا» التي تهيمن عليها الولايات المتحدة، والأراضي المركزية لأوراسيا التي يهيمن عليها الألمان، مع إقليم فرعي يضم «البحر المتوسط وشمال أفريقيا والذي يقع تحت السيادة الخفية لإيطاليا». لكن بالنسبة إلى هاوسهوفر ليست هذه سوى خطوة وسيطة: فوفقا لماكيندر فإن المنطقة المركزية تسيطر على الجزيرة العالمية، وبالتالي على العالم⁽³⁾.

يخبرنا شتراوس - هوبي بأن مفهوم ماكيندر عن المنطقة المركزية «متأثر بوجهة النظر الشخصية المحضة لرجل إنجليزي من العصر الإدواردي». وطوال الجيل الذي

تشويه النازية

عاش فيه ماكيندر كانت روسيا خصما لبريطانيا العظمى طوال قرن تقريبا، وبالتالي فقد عاش السياسيون البريطانيون مع الخوف من روسيا التي قد تسيطر على مضيق الدردنيل، وتلتهم الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم تهاجم الهند. وبالتالي، فقد ركز ماكيندر اهتمامه على بناء طبقة عازلة من الدول المستقلة بين روسيا وأوروبا البحرية، حتى برغم تعريفه الأراضي المركزية داخل روسيا نفسها على أنها أداة بصرية للإستراتيجية. وفي هذا السياق كتب شتراوس - هوبي أن «رؤية ماكيندر لم تتوافق جيدا إلا مع الفلسفة المريضة لقوة عالمية أو انهيار مفاجئ، وهو ما يفسر الكثير عن الباثولوجيا الوطنية الألمانية. يوجد في مبادئ ماكيندر النوع نفسه من الغائية finality التي تتوق إليها العقلية الفاغرية». وبرغم ذلك، فإن شتراوس - هوبي يقوم في نهاية المطاف بإنقاذ سمعة ماكيندر بقوله:

إن كتاب ماكيندر - الذي ألفه في وقت لم تكن فيه الجيوش قد عادت بعد من ساحات المعارك - يستحق التبجيل بسبب انعزاليته الباردة، ولكون وجهات النظر الأوسع للتاريخ لم تغب عن ناظره قط. إن إيمانه بالفرد هو ما كان يفتقر إليه معجبه الألماني على نحو يرقى له. وعلى رغم أن هاوسهوفر يحب التأكيد على الجزء الخاص بالبطولة في صياغة التاريخ، فإن التضحية الجماعية في ساحة المعركة، وليس الكفاحات المجهولة للرجال والنساء العاديين... هو ما كان يدور في ذهنه⁽⁴⁾.

آمن شتراوس - هوبي وماكيندر - على حد سواء - بالفعالية الإنسانية، وبحرمة الفرد، كما يقولان، في حين لم يكن رواد الجغرافيا السياسية Geopolitikers الألمان يؤمنون بذلك.

وفي حين أن الأراضي المركزية، من منظور ماكيندر، هي وسيلة لافتة لشرح الجغرافيا السياسية، فهي تصبح بين يدي هاوسهوفر أيديولوجية مخبول وحاملة على حد سواء. ومع ذلك، فإن شتراوس - هوبي يأخذها على محمل الجد تماما، وينصح زملاءه الأمريكيين بأن يحذوا حذوه: كتب شتراوس - هوبي أن هاوسهوفر «نقل إلى النازيين شيئا فشلت في توفيره التأملات الضبابية لأدولف هتلر - وهو المذهب المتناسك للإمبراطورية». وفي حين رأى ماكيندر المستقبل من حيث توازن القوى من شأنه أن يصون الحرية، كان هاوسهوفر عازما على الإطاحة بميزان القوى تماما؛ وبالتالي حرّف الجغرافيا السياسية. ويعني ذلك أنه كما حرّف هاوسهوفر أفكار ماكيندر تماما، حرّف كذلك أفكار اللورد

جورج ناثانيل كورزون Curzon. كان كورزون قد ألقى محاضرة في العام 1907 حول «الحدود». قام هاوسهوفر، مستلهما كورزون، بتأليف كتاب بعنوان «الحدود»، الذي كان يتعلق، في الواقع، بكيفية تحطيمها. ووفقا لهاوسهوفر، فإن الأمم الأقلية فقط هي التي تسعى إلى امتلاك حدود مستقرة، وأن تلك المتدهورة وحدها تسعى إلى حماية حدودها بتحسينات دائمة: فالحدود هي كائنات حية. أما الأمم القوية، فهي تقوم ببناء الطرق بدلا من ذلك. لا تمثل الحدود إلا عوائق مؤقتة للأمم السائدة. ومن دون ريب، فما الجغرافيا السياسية الألمانية إلا حرب أبدية على «المساحة»، وبالتالي فهي أقرب إلى العدمية. وهنا يضيف شتراوس - هوبي ما يلي:

وعلى أي حال، ينبغي ألا نفترض أن هذا الاستخدام المنحرف، برغم كونه مدمرا للسلام في العالم، يُبطل بالضرورة جميع النظريات الجيوسياسية؛ فالأنثروبولوجيا anthropology لا تقل باعتبارها علما عن كونها وسيلة استخدمت لدعم العنصرية⁽⁵⁾.

لكن هاوسهوفر، حتى ضمن منظوره العنيف للعالم، كان لديه عدد قليل من المبادئ الثابتة. وفي عيد ميلاد هتلر الخمسين، في العام 1939، وصف الفوهرر Führer بأنه «رجل دولة» يجمع في شخصه بين «دم كلاوزفيتز، ومساحة وتراب راتزل»⁽⁶⁾. استقبل هاوسهوفر المعاهدة الروسية - الألمانية لعام 1939 بحماس في مقالة افتتاحية له، مشددا على ضرورة قيام ألمانيا بضم قواتها القوة البرية إلى تلك الروسية. ومع ذلك، بعد غزو هتلر لروسيا في العام 1941، كتب افتتاحية أخرى، احتفى فيها بالغزو باعتباره وسيلة للاستيلاء على الأراضي المركزية. وبطبيعة الحال لم يكن أحد يجرؤ على انتقاد قرار هتلر. هناك حجة قوية لإثبات أن الروابط المحددة بين هاوسهوفر وهتلر كانت مبالغاً فيها، حتى برغم أن هاوسهوفر - مع ذلك - صار ممثلاً نموذجياً للرؤية الإستراتيجية النازية⁽⁷⁾. وعلى أي حال، فعندما تغير سير الحرب إلى الأسوأ، فقد هاوسهوفر حظوته لدى الفوهرر، فسُجن في معسكر داخاو Dachau للاعتقال في العام 1944. وفي العام نفسه، فإن نجل هاوسهوفر، ألبرخت، وهو متخصص بدوره في الجغرافيا السياسية، قد أعدم لمشاركته في مؤامرة عسكرية ضد هتلر. وقد حدث هذا بعد أن سُجن هاوسهوفر وأسرته. ثم إن هناك حقيقة كون زوجة هاوسهوفر نصف يهودية: حظي الزوجان بالحماية من القوانين العنصرية النازية بفضل هيس، الذي كان قد سجن في بريطانيا

تنشويه النازية

في العام 1941، بعد أن سافر بمفرده جوا إلى هناك للتفاوض على سلام منفصل. لا بد أن التناقضات في حياة هاوسهوفر صارت أكثر من أن تُحتمل، إذ صار تدريجيا على وعي بالمذابح والدمار الهائل الذي تسببه حرب عالمية أدى دورا في إشعالها. تمثل حياة هاوسهوفر درسا إرشاديا حول الأخطار المتأصلة لدى المفكرين الذين يسعون باستماتة إلى الحصول على الحظوة لدى من هم في السلطة. وبعد فترة قصيرة من هزيمة ألمانيا وتحقيق الحلفاء معه بتهمة ارتكاب جرائم حرب، انتحر كل من هاوسهوفر وزوجته. لم تكن أعمال شتراوس - هوبي مصممة لمجرد تشويه سمعة هاوسهوفر وإنقاذ سمعة ماكيندر، لكن لمناشدة الأميركيين أن يأخذوا الجغرافيا السياسية على محمل الجد، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فسيُفعل ذلك البعض الآخر بدافع من سوء النية، وسيتمكنون خلال تلك العملية من قهر الولايات المتحدة. وكما يكتب في نهاية كتابه:

إن آلة الحرب النازية هي أداة الغزو؛ أما الجغرافيا السياسية فهي الخطة الرئيسية المصممة لتوجيه أولئك الذين يستخدمون الأداة إلى غزو من وكيف. لقد تأخر الوقت، لكن الأوان لم يفت بعد للاستفادة من دروس الجغرافيا السياسية⁽⁸⁾.

ولأن شتراوس - هوبي كان واقعيا قلبا وقالبا، فإن فضح بعض الأسس الفكرية لبرنامج الغزو الخاص بدولة استبدادية لم يكن كافيا بالنسبة إليه، إضافة إلى كونه عملا غاية في السهولة. كان يعرف الحقيقة المزعجة المتمثلة في أنه مثلما كان منطق ماكيندر معيبا في العديد من النقاط الحاسمة، فإن منطق هاوسهوفر، برغم كونه منحرفا، يمتلك أساسا من الواقع. لذلك تمثل هدف شتراوس - هوبي من ذلك في تشجيع الأميركيين - الذين يعيشون في عزلة رائعة بحكم كون بلادهم محدودة بمحيطين اثنين - بمزيد من التقدير للتخصص الجغرافي، بحيث يمكن للولايات المتحدة أن تضطلع بدورها ما بعد الحرب بصفاتها عامل استقرار وحافطة لتوازن القوى بين أوروبا وآسيا، والذي حاول النازيون قلبه، بمساعدة هاوسهوفر.

أما بالنسبة إلى فرضية الأراضي المركزية نفسها، فإن شتراوس - هوبي، الذي كان متشككا فيها للغاية بادئ ذي بدء، يقول إن القوة الجوية - مثلها مثل تلك التجارية والعسكرية - قد تجعلها بلا معنى. ومع ذلك فهو يعتقد أن تكنولوجيا عصر التصنيع قد زوّدت الدول الكبرى بأفضلية؛ فقد قُمت الاستفادة من المصانع الكبيرة، وخطوط السكك الحديدية، والدبابات وحاملات الطائرات، من قبل الدول التي تمتلك عمقا من

حيث المسافة والأرض. «يبدو أن التاريخ في عصرنا هذا يعكس، بشؤم خبيث، التوجه نحو الإمبراطوريات والدول العظمى التي تنبأ بها أتباع راتزل، وشبنغلر، وماكندر»⁽⁹⁾. وبطبيعة الحال، فإن عصر ما بعد التصنيع، بتركيزه على صغر الحجم - الرقائق المكروية microchips، والهواتف النقالة، والمتفجرات البلاستيكية - قد مكن ليس الدول الكبرى وحدها، لكن الأفراد والجماعات عديمي الجنسية، أيضا، ما أضاف مزيدا من التعقيد والتوتر إلى الجغرافيا السياسية. لكن شتراوس - هوبي قد استشعر بحدسه بعض هذا في مناقشته للحدود، الأمر الذي تقبله باعتباره ناتجا عن إساءة هاوسهوفر لاستخدام أفكار كورزون حول هذا الموضوع.

وبرغم عدمية هاوسهوفر، فإن شتراوس - هوبي لم يصب بالتهديد لدرجة أن يفضحه بغير تحفظ. إن الحقيقة المحضة للحدود تُظهر عالما يُعاني من الانقسامات السياسية والعسكرية. وكما كتب شتراوس - هوبي، فإن «الدولة ذات السيادة هي، على الأقل من حيث جذورها، قوة منظمة. يبدأ تاريخها في غمار الحرب، وبالتالي فإن حدودها - سواء كانت «جيدة» أو «سيئة» - هي حدود إستراتيجية».

وهو يختار عن قصد اقتباسا من كورزون، الذي لاحظ فيه الأخير أن الحروب الحدودية ستزداد في العدد والكثافة في حين «ينكمش العالم الصالح للسكنى» في الوقت الذي «تتصادم فيه طموحات دولة مع مصالح دولة أخرى على نحو حاد ولا يقبل المصالحة»⁽¹⁰⁾. وبعبارة أخرى، لم يكن هاوسهوفر مخطئا تماما في افتراضه وقوع صراع سرمدى. حتى بعد الحرب، سيكون هناك القليل من الراحة من مأساة الوضع البشري. إن اكتظاظ كوكب الأرض بسكانه خلال العقود الأخيرة، مقرونا بتطور التكنولوجيا العسكرية، الذي انهار فيه الوقت والمسافة، يعني أنه ستكون هناك أزمة في «المساحة» على خريطة العالم⁽¹¹⁾. وتنبع أزمة المساحة هذه من فكرة ماكيندر عن «نظام مغلق». أما الآن، فدعونا نلاحظ أنه مما يضيف إلحاحا إلى دعوة شتراوس - هوبي إلى أن أمريكا، التي تمثل بالنسبة إليه في نهاية المطاف مصدرا للخير في عالم القوى الكبرى، لا يمكنها أن تتحمل أبدا عواقب الانسحاب من الجغرافيا السياسية. ولأن الجغرافيا السياسية والتنافس على «المساحة» سرمديان، لذا يجب على الدول الليبرالية أن تُعد أنفسها للقيام بهذه المهمة خشية أن تترك الساحة نهبا لأمثال هاوسهوفر.

فرضية الأرض المحيطة

لم يكن روبرت شتراوس - هوبي الأمريكي المتجنس الوحيد الذي حذر مواطنيه خلال الحرب بشأن ضرورة إنقاذ الجغرافيا السياسية من براثن النازية، ومن ثم استعادة سمعتها، وتوظيفها لمصلحة الولايات المتحدة. ولد نيكولاس ج. سبيكمان Spykman في العام 1893 في أمستردام. وخلال الحرب العالمية الأولى، عندما كانت هولندا محايدة، سافر على نطاق واسع كمراسل أجنبي في الشرق الأدنى (1913-1919) والشرق الأقصى (1919-1920). وبعد الحرب، حصل على درجة البكالوريوس والدراسات العليا من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، حيث كان يقوم بالتدريس أيضا، وبعد ذلك انتقل إلى جامعة ييل، حيث أسس معهدا للدراسات الدولية

«رأى سبيكمان أن الأرض المحيطة تمثل مفتاح القوة العالمية، وليس المنطقة المركزية لماكيندر»

المؤلف

في العام 1935⁽¹⁾. عمل على تشريب طلابه بالوعي الجغرافيا بوصفه الوسيلة الرئيسية لتقييم المخاطر والفرص التي يواجهها وطنه الجديد في العالم. توفي سبيكمان بمرض السرطان في العام 1943 عن عمر يناهز التاسعة والأربعين، لكن ليس قبل أن يقوم في السنة السابقة لوفاته بنشر كتابه المعنون «استراتيجية أمريكا في السياسة العالمية: الولايات المتحدة وميزان القوى»، وهو الكتاب الذي يزودنا - حتى أكثر من كتابات ماكيندر - بإطار لفهم عالم ما بعد الحرب الباردة. كانت كتابات سبيكمان، الذي عاش في وقت لاحق لماكيندر، تمثل تحديثات لأفكار هذا الأخير بصورة ما.

في أسلوب شتراوس - هوبي، ومورغنثاو، وهنري كيسنجر، وغيرهم من المهاجرين الأوروبيين في عقود منتصف القرن العشرين، الذين جلبوا الواقعية إلى البلد الذي منحهم ملجأ لكن الذي شعروا بأنه يتسم بالسذاجة على نحو خطير، فإن سبيكمان لم يكن يمتلك أيا من المثالية والعاطفية التي كانت مميزة لأغلبية المفكرين الأمريكيين. وبالنسبة إليه، فإن الجغرافيا هي كل شيء. كانت الولايات المتحدة قوة عظمى ليس بسبب أفكارها، بل لأن وصولها المباشر إلى المحيطين الأطلسي والهادي جعلها «الدولة الأكثر تفضيلا في العالم من منظور الموقع الجغرافي»⁽²⁾. ومع سبيكمان، لا توجد راحة من قسوة الخريطة والصراع المترتب على ذلك من أجل المساحة. وقد كتب قائلا: «إن المجتمع الدولي هو... مجتمع من دون سلطة مركزية للحفاظ على القانون والنظام». بل إنه في حالة من الفوضى، بعبارة أخرى. وبالتالي، يجب على جميع الدول أن تكافح من أجل الحفاظ على ذاتها. يمكن لرجال الدولة أن يسعوا جاهدين من أجل القيم العالمية للعدالة والإنصاف، والتسامح، لكن فقط إلى الحد الذي لا يتداخل مع السعي من أجل القوة، الذي له هو مرادف للبقاء على قيد الحياة. «لا يكون السعي إلى القوة من أجل تحقيق القيم الأخلاقية، لكن القيم الأخلاقية تستخدم لتسهيل امتلاك القوة». من الممكن تقريبا أن تصدر هذه العبارة عن كارل هاوسهوفر، كما أن هناك الكثير من المآسي في سبيل تحقيقها. لكن هذا يجب ألا يعمينا عن الفرق الجوهرى بين الرجلين. كان سبيكمان، مثل ماكيندر وشتراوس - هوبي، يؤمن بـ «الأمان» الذي مثله «القوة المتوازنة»، وليس بالهيمنة. ومن

هذا الاختلاف، تنبع كل الاختلافات الأخرى. وفيما يتعلق بـ «توازن القوى»، كان سبيكمان حريصا على القول بأنه يتوافق مع «قانون الطبيعة والأخلاق المسيحية» لأنه يحافظ على السلام⁽³⁾.

وفي حين يضيق شتراوس - هوبي تركيزه على النظرية الجيوسياسية النازية وعلى الدفاع عن ماكيندر في أثناء ذلك، فإن سبيكمان يوسع نطاق تركيزه ليشمل خريطة العالم من أجل تقييم احتمالات الهيمنة النازية، وكذلك تحديد الخطوط العريضة لترتيبات القوة التي تميز عالم ما بعد الحرب الذي لن يعيش ليراها. وفي سبيل ذلك، بدأ بشرح جغرافي لكيف أصبحت الولايات المتحدة قوة عظمى. إن «التاريخ»، كما يقول سبيكمان، «يُصنع في خطوط العرض المعتدلة»، حيث يسود مناخ معتدل، «ولأن القليل جدا من مساحة اليابسة في نصف الكرة الأرضي الجنوبي يقع في هذه المنطقة، فإن صناعة التاريخ تجري في خطوط العرض المعتدلة من نصف الكرة الأرضية الشمالي». ليس الأمر أن بلدان أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى والمخروط الجنوبي لأمريكا الجنوبية لا تتسم بالأهمية، لأنها صارت أكثر أهمية بكثير في أيامنا هذه مما كانت عليه في الماضي بسبب تكنولوجيا النقل والاتصالات التي أتاحت لكل مكان فرصة التأثير في الآخر؛ وبدلا من ذلك، يتمثل الأمر في أن تأثيرها لا يزال أقل في جميع أنحاء العالم من تأثير الأماكن الواقعة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، خاصة في المنطقة المعتدلة الشمالية. في هذا السياق، يشرح جيمس فيرغريف Fairgrieve، وهو شبه معاصر لماكيندر، أنه نظرا إلى افتقارهم إلى الطاقة الشمسية بالمقارنة بالمناطق المدارية، فقد تستوجب على البشر في المناطق المعتدلة أن يعملوا بجهد للتعامل مع تباينات مناخية أكبر، ومع الاختلافات في المواسم التي تؤدي إلى أوقات محددة للبذر والحصاد؛ وهكذا، ففي المناطق المعتدلة تمكن البشر «من التقدم من قوة إلى قوة». وفي حين أن القطب الجنوبي يتضمن قارة كبيرة تحيط بها حلقة متواصلة من المحيط، فحول القطب الشمالي يوجد محيط تحيط به حلقة شبه متواصلة من الأرض - وهي الأرض التي كان البشر فيها أكثر إنتاجية. كان شتراوس - هوبي أكثر تحديدا في هذا الصدد، فيخبرنا بأن التاريخ يُصنع «ما بين دائرتي العرض عشرين وستين درجة شمالا». وتشمل هذه المنطقة أمريكا الشمالية وأوروبا

والشرق الأوسط الكبير وشمال أفريقيا، ومعظم روسيا، والصين، والجزء الأكبر من الهند. ويلاحظ أن «زناز البرية» wilderness girdle الذي اقترحه ماكيندر يتوافق معه تقريبا، لأنه يتضمن المنطقة المركزية والمناطق التخومية المجاورة لها في أوراسيا. وتتمثل الحقيقة المحورية حول الولايات المتحدة، وفقا لهذا الخط من التفكير، في أنه - كونها تقع تحت القطب الشمالي الكندي - فهي تحتل آخر قطعة أرض كبيرة وخالية نسبيا من المنطقة المعتدلة، والتي لم تستوطنها الحضارة المدنية حتى عصر التنوير الأوروبي. فضلا عن ذلك، فقد ازدهرت أمريكا في البداية، كما كتب سبيكمان، لأن الساحل الشرقي، بما يحتويه من مصبات الأنهار والتضاريس المسننة، قد وفر «مواقع مواتية لا تُعد ولا تحصى لإنشاء الموانئ»⁽⁴⁾. وفي نهاية المطاف، ومن هذا المنظور، كانت الجغرافيا هي الداعم المبكر للحرية الأمريكية.

تحتل أمريكا مكانتها كقوة عظمى لأنها القطب المهيمن في نصف الكرة الأرضية الغربي، والتي تمتلك، كما يقول سبيكمان، «من القوة ما يكفي لادخاره للأنشطة التي تجري خارج العالم الجديد»، بحيث يمكنها أن تؤثر في توازن القوى في نصف العالم الشرقي⁽⁵⁾. ليس هذا عملا عاديا، كما أن الولايات المتحدة يجب ألا تنظر إليه باعتباره أمرا مفروغا منه، لأنه متجذر في خصوصيات جغرافية أمريكا اللاتينية. لا توجد دولة أخرى في العالم، حتى الصين أو روسيا، تتسم بأنها قوة مهيمنة بحجم نصف الكرة الأرضية. وفي معرض تفسير كيفية حدوث هذا، يجلب سبيكمان إلى مناقشة الجغرافيا السياسية أمريكا الجنوبية - التي تجاهلها ماكيندر إلى حد كبير. وبسبب تركيز ماكيندر على أوراسيا، خصوصا المنطقة المركزية منها، تتسم كتابات ماكيندر بأهميتها المحورية لفهم جغرافية الحرب الباردة؛ في حين يمتلك سبيكمان تصورا أكثر تكاملا للعالم بأسره، وبالتالي فهو أكثر أهمية من ماكيندر في عصر يمكن فيه لكل مكان أن يؤثر في كل مكان آخر.

يتمثل القلب الاستراتيجي والجغرافي للعالم الجديد فيما يسميه سبيكمان «البحر المتوسط الأمريكي»، أي منطقة الكاريبي الكبرى، بما في ذلك خليج المكسيك. ومثلما اكتسبت أثينا سيطرة فعالة على الأرخبيل اليوناني بسيطرتها على بحر إيجه، بينما سادت روما العالم الغربي عن طريق الهيمنة على البحر

فرضية الأرض المحيطة

المتوسط الأوروبي؛ فإن أمريكا، كما يوضح سبيكمان، قد صارت قوة عالمية عندما تمكنت، أخيراً، في الحرب الإسبانية - الأمريكية للعام 1898، أن تنتزع السيطرة من دون منازع على البحر المتوسط، أو منطقة البحر الكاريبي، من الدول الاستعمارية الأوروبية، مما سمح بإنشاء قناة بنما بعد فترة وجيزة. وكما يقول سبيكمان عن حوض البحر الكاريبي، فإنه «لا يمكن أن ينشأ تهديد خطير لمكانة الولايات المتحدة في المنطقة نفسها؛ فالجزر محدودة الحجم، كما أن تضاريس أمريكا الوسطى، المقاربة لتضاريس شبه جزيرة البلقان، تناسب وجود وحدات سياسية صغيرة. حتى البلدان الكبيرة الحجم، مثل المكسيك وكولومبيا وفنزويلا، فتحرمها التضاريس، والمناخ، وعدم توافر المواد الخام الاستراتيجية من أن تصبح قوى بحرية كبيرة». تستطيع بحرية الولايات المتحدة أن تفرض حصاراً على الحدود الشرقية لمنطقة البحر الكاريبي ومن ثم عزّل هذه الدول عن الأسواق العالمية، وبالتالي فهي في التحليل النهائي تعتمد على الولايات المتحدة. تتمثل قوة منطق سبيكمان، إضافة إلى غيره من المفكرين الذين تناولهم في هذا الكتاب، في القدرة على الرؤية عبر صخب الأحداث الجارية، ومن ثم اكتشاف عن الحقائق الأساسية. وكما يقول، فإن الحقيقة الجغرافية الأساسية لنصف الكرة الأرضية الغربي هي أن التقسيم بداخلها ليس بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، بل بين المنطقة الشمالية من الغابة الاستوائية التي تهيمن عليها الأمازون والمنطقة الواقعة إلى الجنوب منها. ويترتب على ذلك أن كولومبيا وفنزويلا، وكذلك غيانا (Guianas)، على الرغم من أنها تقع على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، فهي وظيفياً تشكل جزءاً من أمريكا الشمالية والبحر المتوسط الأمريكي. يتمثل عالمها الجيوسياسي في منطقة الكاريبي، كما أنها لا ترتبط إلا قليلاً نسبياً بالدول الواقعة جنوبي الغابة الأمازونية، على الرغم من أنها تتشارك القارة نفسها؛ فمثل البحر المتوسط الأوروبي، فإن البحر المتوسط الأمريكي لا يفرق بل يوحد. كما أن شمال أفريقيا تمثل جزءاً من عالم البحر المتوسط، لكن الصحراء الكبرى تمنعها من أن تكون جزءاً من أفريقيا الأصلية، فإن الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية جزء من العالم الكاريبي، والذي انفصل بسبب الجغرافيا عن أمريكا الجنوبية الأصلية. وكما يوضح سبيكمان:

إن سلاسل الجبال التي تنحني شرقا من جبال الإنديز تفصل حوض الأمازون عن وادي ماغدالينا وأورينوكو وتشكل الحدود الجنوبية لغيانا. وفيما وراء ذلك، تقع الغابة الهائلة التي لا يمكن اختراقها والغابات الاستوائية لوادي الأمازون. يوفر النهر وروافده نظاما ممتازا للاتصال من الغرب إلى الشرق، لكنها لا توفر وسيلة انتقال للتحركات إلى الشمال والجنوب⁽⁶⁾.

أما النصف الجنوبي من أمريكا الجنوبية، فتعمل الجغرافيا على تهميش أهميته الجيوسياسية، كما يوضح سبيكمان. إن الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية محشور بين المحيط الهادي وجبال الإنديز، وهي أعلى سلسلة جبال في العالم باستثناء سلسلة جبال الهملايا، وكاراكورام Karakoram، والباير Pamirs، التي تفصل الصين عن شبه القارة الهندية. تتسم الوديان التي تتخلل جبال الإنديز، عند مقارنتها بتلك التي تتخلل جبال الأبلش Appalachians التي تمنح الساحل الشرقي لأمريكا وصولا إلى الغرب، بكونها ضيقة وقليلة العدد. لا تصلح الأنهار للملاحة، وبالتالي فإن بلدانا مثل شيلي وبيرو، التي تبعد عن شرق آسيا ثمانية آلاف ميل عبر المحيط الهادي، وعدة آلاف من الأميال عن أي من ساحلي الولايات المتحدة، تظل بعيدة عن القنوات العالمية الرئيسية للتواصل والهجرات التاريخية، وبالتالي لا يمكنها دعم قوات بحرية كبرى. فقط وسط وجنوب شيلي يقعان في المنطقة المعتدلة، وكما ورد عن هنري كيسنجر أنه قال ساخرا، فإن شيلي تمثل ضربة خنجر في القارة القطبية الجنوبية. أما بالنسبة إلى الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية، فهو، أيضا، ناءٍ ومعزول. ولأن أمريكا الجنوبية لا تقع تحت أمريكا الشمالية مباشرة، بل إلى الشرق منها، فإن الأجزاء المأهولة من ساحل أمريكا الجنوبية المطل على المحيط الأطلسي، من ريو دي جانيرو إلى بوينس آيرس - إلى أقصى الجنوب، تحت منطقة الأمازون الكثيفة الأشجار - ليست أقرب إلى نيويورك منها إلى لشبونة. وبسبب هيمنتها على البحر المتوسط الأمريكي، وانفصالها عن قلب أمريكا الجنوبية بفعل مسافة شاسعة وحزام واسع من الغابات الاستوائية، فليس أمام الولايات المتحدة سوى عدد قليل من المنافسين في نصف الكرة الأرضية الخاص بها. إن المخروط الجنوبي لأمريكا الجنوبية، كما كتب سبيكمان، هو «جار قاري» أقل من كونه «إقليما خارجيا»⁽⁷⁾.

لكن هناك جانبا سلبيا لجزء كبير من هذا الوضع: صحيح أن حوض الكاريبي يوحد ولا يفرق، لذلك فإن طريق تهريب الكوكايين والماريغوانا من كولومبيا عبر أمريكا الوسطى والمكسيك إلى الولايات المتحدة يوضح هذا على نحو عملي. إن ما يسمى حروب المخدرات يمثل درسا بارزا في الجغرافيا، والذي يهدد الآن الولايات المتحدة في حديقته الخلفية في النصف الغربي من الكرة الأرضية. وينطبق الشيء نفسه مع الراديكالية الشعبوية المعادية لأمريكا لرجل فنزويلا القوي، هوغو شافيز Chávez، الذي ظل يمثل إهانة للمصالح الأمريكية في العالم ؛ ليس لمجرد أنه تحالف مع روسيا وإيران، بل لأنه تحالف مع روسيا وإيران من موقعه على حوض الكاريبي: فلو كان يوجد تحت غابات الأمازون المطيرة في المخروط الجنوبي، لكان أقل تهديدا. أدت العولمة Globalization - أي عصر المعلومات، وانهايار المسافة، وانفجار هجرة الأيدي العاملة من الدول الشابة ديموغرافيا إلى البلدان الشائخة ديموغرافيا - إلى دفع الولايات المتحدة لإقامة علاقة وثيقة بشكل غير مريح مع أمريكا اللاتينية غير المستقرة في جميع أنحاء منطقة الكاريبي. وفي حين كانت منطقة البحر الكاريبي سابقا مكانا تهيمن عليه البحرية الأمريكية، لكن المتصل من جميع الأوجه الأخرى عن التيارات الرئيسية في المجتمع الأمريكي، فهي الآن جزء لا يتجزأ من نسيج الحياة الأمريكية. تنبأت أفكار سبيكمان بهذه التطورات، على الرغم من أنه، بطبيعة الحال، لم يكن ليتوقع تفاصيلها.

ولأنه كان يكتب في خضم الحرب العالمية الثانية مثل شتراوس - هوبي، قبل تحول حظوظ الحرب لمصلحة الحلفاء، كان التهديد الذي يشكله النازيون على جميع أنحاء العالم حاضرا في ذهن سبيكمان بالدرجة الأولى. ونتيجة لذلك، فقد نظر إلى انفصال الولايات المتحدة عن الجزء الجنوبي من أمريكا الجنوبية على أن له أهمية جغرافية كبيرة: فقد كان يمثل ميزة استراتيجية من حيث إن الولايات المتحدة لم تكن مضطرة إلى الهيمنة على المنطقة، بالطريقة نفسها التي اضطرت بها إلى السيطرة على حوض البحر الكاريبي؛ لكنه كان يمثل قابلية للتعرض للهجوم vulnerability من حيث أن الولايات المتحدة لا تمتلك ميزة جغرافية خاصة في حال تعرض المنطقة للتهديد من قبل عدو من أوروبا. أما المخروط

الجنوبي، من ريو دي جانيرو وإلى الجنوب - ما أسماه سبيكمان «المنطقة المتساوية البعد» - فيضم مناطق القارة الزراعية الأكثر إنتاجية، وثلاثة أرباع سكان أمريكا الجنوبية، والمدن الرئيسية لاثنتين من أكثر جمهوريات أمريكا الجنوبية أهمية في ذلك الوقت، وهما البرازيل والأرجنتين. ومما يضيف حتى إلى عدم أهميتها الجغرافية مقارنة بأوراسيا، كان سبيكمان قلقا من تحول المخروط الجنوبي إلى جزء من استراتيجية التطويق لقوة معادية. وكما أن جغرافية الأمريكتين سمحت بظهور الولايات المتحدة كقوة مهيمنة في النصف الغربي من الكرة الأرضية، فإن تفكك الأمريكتين إلى شمال حر وجنوب يهيمن عليه محور ما ربما يكتب نهاية ذلك التفوق. وفي هذا السياق، كتب سبيكمان: «إن كثيرا من الانعزاليين قد قبلوا بسياسة الدفاع عن نصف الكرة الأرضية hemisphere defense لأنها تبدو وسيلة لتجنب الصراع مع ألمانيا، لكنهم أغفلوا حقيقة أنه حتى لو استطاعت الولايات المتحدة تجنب الحرب مع ألمانيا على أوروبا، فلم يكن في وسعها تجنب الصراع مع ألمانيا من أجل الهيمنة على أمريكا الجنوبية»⁽⁸⁾.

وعلى الرغم من أن دول المحور قد انهزمت في نهاية المطاف، فإن إنذار سبيكمان مازال صالحا، بطريقة ما. حققت أوروبا، واليابان، والصين نجاحات عميقة للغاية في التجارة مع المنطقة التي أسماها سبيكمان بالمنطقة المتساوية البعد، كما لم يكن هناك ما يضمن أن الولايات المتحدة ستظل القوة الخارجية المهيمنة في منطقة يقل حجم تبادلها التجاري مع الولايات المتحدة عن عشرين في المائة، وزمن الطيران من نيويورك إلى بوينس آيرس هو إحدى عشرة ساعة، وهو الوقت نفسه الذي يستغرقه الطيران من الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن هاجسه كان يتمثل في الانتصار في الحرب، فمن خلال تركيزه المحدد على الجغرافيا، سيتمكن سبيكمان من أن يرينا العالم الذي نعيش فيه حاليا.

كان سبيكمان يصغر ماكيندر بجيل واحد، فاستمد إطاره المرجعي وإلهامه من ذلك الجغرافي الإنجليزي. تمثل أمريكا اللاتينية انحرافا طويلا عن اهتمام سبيكمان المحوري بأوراسيا، والذي تشاركه مع ماكيندر. تشير كتابات ماكيندر إلى صراع القوة البرية التي تهيمن عليها المنطقة المركزية ضد القوة البحرية، حيث تكون القوة البرية للمنطقة المركزية في وضع أفضل. وهنا يُقر سبيكمان جوهريا بالتأثير الروحي

لماكيندر - على الرغم من أن كلا منهما قيّم الأهمية النسبية للقوة البحرية والبرية بشكل مختلف.

طوال مائتي سنة، أي منذ عهد بطرس الأكبر، حاولت روسيا اختراق الحلقة التي تطوقها من الدول الحدودية من أجل الوصول إلى المحيط. بيد أن الجغرافيا والقوة البحرية عملتا على إحباط هذه المحاولات باستمرار⁽⁹⁾.

يصف سبيكمان الأرض المركزية باعتبارها شبه مرادف للإمبراطورية السوفيتية، والتي تحدها من الشمال بحار القطب الشمالي التي يعوقها الجليد، بين النرويج والشرق الأقصى الروسي، وتحيط بها الجبال إلى الجنوب، من جبال الكاربات في رومانيا إلى هضاب الأناضول وإيران، وأفغانستان، ثم تنحرف إلى الشمال الشرقي إلى عقدة بامير، وجبال ألتي، وهضبة منغوليا، قبل أن تنتهي أخيرا في منشوريا وكوريا. كان هذا بالنسبة إليه هو الجغرافيا الرئيسية للعالم، التي سيتم خوض الحروب حولها بشكل دائم. أما إلى الشمال وإلى الداخل من هذا الحزام المؤلف من الجبال والنجود، فتقع المنطقة المركزية؛ وإلى الجنوب وإلى الخارج من هذا الحزام تقع عمالقة الديموغرافيا في أوروبا، وجنوب آسيا، وجنوب شرق آسيا، والصين، واليابان، فضلا عن منطقة الشرق الأوسط الغنية بالنفط. كانت هذه المناطق الهامشية لأوراسيا، خاصة المناطق الساحلية منها، هي ما أطلق عليه سبيكمان اسم الأرض المحيطة Rimland. رأى سبيكمان أن الأرض المحيطة تمثل مفتاح القوة العالمية؛ وليس المنطقة المركزية لماكيندر، لأنه بالإضافة إلى الهيمنة على أوراسيا، فإن الأرض المحيطة ذات التوجه البحري تمتلك أهمية محورية من حيث الاتصال مع العالم الخارجي⁽¹⁰⁾.

وبطبيعة الحال، كان الرجلان يتحدثان في الواقع عن الشيء نفسه؛ إذ يقول ماكيندر إن من يسيطر على المنطقة المركزية يكون في أفضل وضع للاستحواذ على الأرض المحيطة، التي توفر حينئذ - من خلال القوة البحرية - مفتاح السيطرة على العالم. وكما كتب ماكيندر، «فإذا اعتمدنا النظرة الطويلة، فهل يتعين ذلك علينا أن نتوقف عن أن نضع في اعتبارنا احتمال أن جزءا كبيرا من القارة العظمى قد يتوحد في يوم ما تحت حكم واحد، وأن ثمة قوة بحرية لا تقهر قد تنبع منها؟»، كان هذا، وبطبيعة الحال، هو حلم الاتحاد السوفيتي، أي الزحف إلى المياه الدافئة للمحيط

الهندي عن طريق غزو أفغانستان ومحاولة زعزعة استقرار باكستان في ثمانينيات القرن العشرين، وبالتالي الجمع بين القوتين البحرية والبرية⁽¹¹⁾.

ومع ذلك، فإن سبيكمان يمتلك أفضلية طفيفة هنا، والمتمثلة في تركيزه على الأرض المحيطة. وبالنظر إلى الحالة الراهنة في العالم، مع الاضطرابات التي تعصف بالأرض المحيطة في الشرق الأوسط الكبير والتوترات الجارية في جميع أنحاء جنوب آسيا، فضلا عن شبه الجزيرة الكورية، فإن سبيكمان - بتركيزه على الأرض المحيطة ومنظوره الأشد تعقيدا للجغرافيا السياسية - يبدو كأنه يعيش في عصرنا الحاضر. ينبع الجزء الأكبر من نظريات ماكيندر من العالم في مطلع القرن العشرين وخلال الحرب العالمية الأولى؛ في حين يجادل سبيكمان من منظور وقائع الحياة خلال حرب لاحقة، والتي كانت فيها المنطقة المركزية واقعة تحت سيطرة حليف هو روسيا السوفيتية، وبالتالي لا تمثل مشكلة؛ في حين كانت الأرض المحيطة مهددة من قبل دول المحور.

وفي حين خسرت دول المحور الحرب، استمر التنافس على الأرض المحيطة حتى حقبة الحرب الباردة. شكل الاتحاد السوفيتي القوة العظمى للمنطقة المركزية، والتي مثلت تهديدا للأرض المحيطة في أوروبا، والشرق الأوسط، وشبه الجزيرة الكورية، وأماكن أخرى، التي عارضتها القوة البحرية الغربية. ونتيجة لذلك، كان «الاحتواء» containment، وهو سياسة الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي التي أعلنها في العام 1946 الديبلوماسي والخبير في الشؤون الروسية جورج كينان Kennan في برقيته الطويلة، يحمل في طياته بعضا من أفكار سبيكمان وماكيندر على حد سواء. كان الاحتواء هو الاسم الذي أطلقته القوة البحرية الطرفية على ما تدعوه قوة المنطقة المركزية «التطويق» encirclement⁽¹²⁾. إن الدفاع عن أوروبا الغربية، وإسرائيل، والدول العربية المعتدلة، وإيران تحت حكم الشاه، والحروب في أفغانستان و فيتنام حملت جميعها فكرة منع الإمبراطورية الشيوعية من توسيع سيطرتها من المنطقة المركزية إلى الأرض المحيطة. وفي كتابه المعلمي، «الأسلحة النووية والسياسة الخارجية»، المنشور في العام 1957، كتب هنري كيسنغر الشاب أن «الحرب المحدودة تمثل الوسيلة الوحيدة للوقاية من الكتلة السوفيتية، بتكلفة مقبولة، من اجتياح المناطق المحيطية لأوراسيا»، ويرجع ذلك على وجه الخصوص،

يستطرد كيسنغر، إلى أن الاتحاد السوفييتي - باعتباره القوة العظمى للمنطقة المركزية - يمتلك «الخطوط الداخلية للاتصالات» التي تمكنه من تجميع قوة معتبرة «في أي لحظة بعينها على طول محيطه»⁽¹³⁾. بولندا، وإيران، وأفغانستان، وفيتنام - التي مثلت جميعها ساحات للقتال خلال تاريخ الحرب الباردة، والتي تقع جميعها على أطراف الشيوعية السوفييتية والصينية. كان هذا هو عالم ماكيندر، لكن بإحساس سبيكمان.

ومن خلال استشراف سبيكمان لما وراء الحرب العالمية الثانية من موقع المراقبة الذي امتلكه في العام 1942، يمكننا أن نرى البصيرة المتهلفة التي يمكن للتخصص الجغرافي أن يصل إليها. فحتى مع تعرض الحلفاء للهزيمة وكون التدمير التام لآلة هتلر الحربية من الأولويات، صرح سبيكمان بمخاوفه بشأن الآثار المترتبة على ترك ألمانيا منزوعة السلاح، فيفسر الأمر قائلا: «إن وجود دولة روسية تمتد من جبال الأورال إلى بحر الشمال لن يكون أحسن بكثير من دولة ألمانية تمتد من بحر الشمال إلى جبال الأورال». ستكون المطارات الروسية على القنال الإنجليزي بمثل خطورة المطارات الألمانية على أمن بريطانيا العظمى. لذلك، من الضروري أن تظل ألمانيا قوية بعد هتلر. وبالمثل، فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة كان أمامها ثلاث سنوات أخرى من القتال الوحشي في الجزر ضد الجيش الياباني، أوصى سبيكمان بإنشاء تحالف بعد الحرب مع اليابان ضد القوى القارية لروسيا، وبخاصة في مواجهة الصين الصاعدة. تتسم اليابان بكونها مستوردا صرفا للغذاء، كما تعاني عدم كفاية إنتاج الفحم النفط، لكنها تمتلك تقاليد بحرية عظيمة، ما يجعلها عرضة للهجوم ومفيدة على حد سواء. وباعتبارها أمة جزيرية كبيرة وبحرية تقع في شرق آسيا، ففي وسعها أن تؤدي لمصلحة الولايات المتحدة في الشرق الأقصى الدور نفسه الذي تلعبه بريطانيا في أوروبا. يؤكد سبيكمان ضرورة وجود حليف ياباني ضد الصين القوية، على الرغم من أن الصين في أوائل أربعينيات القرن العشرين كانت ضعيفة وتترنح تحت وطأة التدمير العسكري الياباني:

إن الصين الحديثة، والمفعمة بالنشاط، التي تمتلك القوة العسكرية،
ستمثل تهديدا ليس لليابان فقط، بل لمكانة القوى الغربية في البحر المتوسط
الآسيوي أيضا. ستكون الصين قوة قارية ذات أبعاد هائلة، التي تسيطر على

قسم كبير من سواحل ذلك البحر المتوسط. سيكون موقعها الجغرافي مماثلا لموقع الولايات المتحدة فيما يتعلق بالبحر المتوسط الأمريكي. عندما تصبح الصين قوية، فإن تغلغلها الاقتصادي الحالي في تلك المنطقة سيتخذ مدلولاً سياسياً من دون شك. ومن الممكن تماماً أن نتصور اليوم الذي يجري التحكم فيه على هذه المياه ليس من قبل القوة البحرية البريطانية والأمريكية، أو اليابانية، لكن من قبل القوة الجوية الصينية⁽¹⁴⁾.

ربما كانت ملاحظة سبيكمان الأكثر تعبيراً تتعلق بأوروبا، فكما أنه عارض كلا من الهيمنة الألمانية والروسية على أوروبا، فقد عارض أيضاً وجود أوروبا موحدة تحت أي ظرف من الظروف؛ فهو يفضل توازناً للقوى بين الدول الأوروبية باعتباره أكثر فائدة للمصالح الأمريكية من اتحاد أوروبي، حتى لو كان ذلك سيتحقق سلمياً وديموقراطياً. وقد كتب في هذا السياق أنه «من شأن وجود أوروبا اتحادية أن يشكل تكتلاً للقوة من شأنه أن يغير تماماً من أهمية موقعنا كقوة أطلسية ويضعف مكانتنا بشكل كبير في نصف الكرة الأرضية الغربي». ولأن الاتحاد الأوروبي لا يزال في مرحلة متوسطة من التطور، في وجود زعماء وطنيين أقوياء يسعون إلى صياغة سياسات خارجية منسقة لكنها تبقى على الرغم من ذلك مستقلة في نهاية المطاف، وعلى الرغم من إنشاء منطقة موحدة العملة، فمن السابق لأوانه إصدار حكم على تنبؤ سبيكمان. ومع ذلك، ففي وسع المرء أن يرى بالفعل أنه كلما ازدادت أوروبا اتحاداً، ازداد توترها مع الولايات المتحدة. ومن شأن دولة أوروبية، فائقة حقيقية تمتلك تحت تصرفها قوات مسلحة وسياسة خارجية موحدة، أن تكون منافساً قوياً للولايات المتحدة، وربما قوة خارجية مهيمنة في المنطقة الموحدة البعد من جنوب أمريكا الجنوبية⁽¹⁵⁾ (وبطبيعة الحال، فإن الأزمة المالية الحالية التي تعصف بأوروبا تجعل هذا الاحتمال مشكوكاً فيه). هذه هي النقطة التي يختلف فيها سبيكمان بشكل ملحوظ عن ماكيندر وعن سياسة الاحتواء التي أثبتت في الحرب الباردة⁽¹⁶⁾. إن سياسة الاحتواء، التي شجعت على ظهور أوروبا موحدة باعتبارها حصناً ضد الشيوعية السوفيتية، كانت متجذرة في المثل الليبرالية للمجتمع الحر، وكذلك في الجغرافيا السياسية. وعندما كتب جورج كينان برقيته الطويلة، وضع كامل ثقته في النمط الغربي للحياة، والذي اعتقد أنه سيبقى

بعد زوال قيود الشمولية التي فرضتها الشيوعية السوفييتية. ونتج عن ذلك إذن أن تشجعت الدول الأوروبية الديمقراطية المتشابهة التفكير على المضي قدما في جهودها نحو اتحاد سياسي واقتصادي مشترك. بيد أن سبيكمان، على الرغم من ذلك، كان أكثر وحشية من كينان - والذي كان هو نفسه واقعا متشددا. لم يكن سبيكمان ببساطة ليدع أي عناصر غير تلك الجغرافية تدخل في تحليله. وعلى عكس هاوسهوفر، لم يكن الأمر أنه لا يؤمن بالديموقراطية والمجتمع الحر: فكل ما هناك أنه لا يشعر بأن لهما دورا كبيرا في التحليل الجيوسياسي. كان سبيكمان يرى أن مهمته لا تتمثل في تحسين العالم، لكن في وصف ما يعتقد أنه يجري فيه. كانت حساسيته الشديدة البرودة هذه هي التي سمحت له بأن يرى فيما وراء كينان والحرب الباردة. وهكذا، ففي العام 1942، كان لا يزال يستطيع الكتابة عن يومنا هذا:

لا يمكن إلا لرجال الدولة الذين يستطيعون إجراء تحليلاتهم السياسية والاستراتيجية من حيث وجود أرض مستديرة وحرب ثلاثية الأبعاد أن ينقذوا بلدانهم من الهزيمة على الأجنحة البعيدة. ومع دعم القوة الجوية لتلك البحرية وكون سهولة التحرك هي جوهر الحرب، فلا توجد منطقة في العالم أبعد من أن تكون غير ذات أهمية استراتيجية، أو أبعد من أن يجري إغفالها في الحسابات السياسية للقوة⁽¹⁷⁾.

وبعبارة أخرى، فبسبب القوة الجوية وقدرة الجيش الأمريكي على القيام بالعمليات، على وجه الخصوص، للانتشار السريع في أي مكان، فإن ساحة اللعب تشمل الأرض بأسرها. لكنها لن تلعب لمصلحتنا وحدنا، بل لمصلحة جميع اللاعبين ضمن «النظام المغلق» الذي تصوره ماكيندر، وذلك بفضل تكنولوجيا الاتصالات، التي ترتبط بها القوة الجوية. ومع ذلك، فإن كوكبنا الأرضي يمثل نظاما أكبر بكثير من أن تسوده دولة مهيمنة واحدة. لذلك، كما كتب سبيكمان، ستكون هناك «لا مركزية إقليمية للقوة»، حيث تؤثر كل منطقة كبيرة في الأخرى. لقد توقع سبيكمان عالما من القوى المهيمنة المتعددة: على غرار تعدد الأقطاب الذي نتحدث اليوم جميعا عنه، والموجود بالفعل من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، لكن ليس تماما حتى الآن في الجوانب العسكرية، بسبب المسافة الهائلة التي

لاتزال تفصل بين جيش الولايات المتحدة والجيش الوطنية الأخرى. لكن العالم الناشئ للكيانات الإقليمية العملاقة: الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، والصين، والهند، وروسيا - مع قوى متوسطة مثل تركيا، وإيران، وإندونيسيا، وفيتنام، والبرازيل - سيعزز صحة ملاحظاته⁽¹⁸⁾.

كيف ستكون ديناميات مثل هذا العالم؟ يمارس سبيكمان هنا علم المستقبلات بأفضل طريقة ممكنة، من خلال التحديق في الخرائط من زوايا مختلفة. تأتي أكثر اكتشافاته إثارة من خريطة القطب الشمالي. «تبرز سمتان مهمتان بوضوح هنا: تركز كتل اليابسة في نصف الكرة الأرضية الشمالي، وتوزعها على هيئة نجم البحر انطلاقاً من القطب الشمالي كمركز لها، وباتجاه أفريقيا ورأس الرجاء الصالح، وأمريكا الجنوبية وكيب هورن، وأستراليا». وعند النظر إلى هذا المسقط (projection)، تبدو الأرض كأنها موجودة في كل مكان تقريبا، في حين أنك إذا حدقت من المسقط القطبي الجنوبي، فسيبدو الماء كأنه في كل مكان تقريبا. تبين خريطة القطب الشمالي كيف أن القارات الشمالية تتسم بأنها قريبة نسبياً بعضها من بعض، في حين تتباعد القارات الجنوبية بعضها عن بعض. وبطبيعة الحال، ففي هذا الإسقاط تتسم المسافات بين القارات الجنوبية بكونها مبالغاً فيها، لكن الخريطة لاتزال ممثلة لمدى بُعد أستراليا عن أمريكا الجنوبية، وأمريكا الجنوبية عن أفريقيا. وهكذا، فإن العلاقة الوثيقة جغرافياً بين أمريكا الشمالية وأوراسيا تتسم بكونها دينامية، كما أنها تشكل «خطوط أساس السياسة العالمية»، في حين تتسم تلك الموجودة بين القارات الجنوبية بأنها أقل أهمية بكثير. ومرة أخرى، فهو لا يقول بأن أمريكا الجنوبية وأفريقيا ليست لهما أهمية في حد ذاتهما، لكن علاقاتهما معا هي كذلك؛ إذ لا تكتسب أمريكا الجنوبية وأفريقيا أهمية في الجغرافيا السياسية إلا من حيث علاقاتهما مع القارات الشمالية. لكن الرسالة الحقيقية بشأن هذه الخريطة القطبية تتمثل في العلاقة الأساسية بين أمريكا الشمالية وأوراسيا. نحن ننظر إلى المحيط الهادئ الشاسع باعتبار أنه يفصل الساحل الغربي لأمريكا الشمالية عن شرق آسيا؛ لكن الطريق القطبي يدل على أنه لا يعدو كونه مجرد السفر بالطائرة شمالاً إلى ألاسكا ثم جنوباً، وصولاً إلى الشرق الأقصى الروسي، ثم إلى المنطقة المعتدلة من اليابان، وكوريا، والصين.

فرضية الأرض المحيطة

إن القطب الشمالي، لاسيما إذا ارتفعت درجة حرارته، سيضيف معنى جديدا على القوة البحرية، وعلى القوة الجوية بصفة خاصة خلال العقود المقبلة. بوسع وسائل النقل الأسرع من الصوت تقليص المسافة بين الساحل الغربي للولايات المتحدة والمدن الآسيوية بنسبة الثلثين؛ كما أن زيادة استخدام الطرق القطبية ستحبس الولايات المتحدة، وروسيا، والصين في عناق أشد قوة من أي وقت مضى. أما الجغرافيا، ولأنها ستكون أكثر سهولة، فسوف تصبح، على عكس المتوقع، أكثر أهمية⁽¹⁹⁾. وكذلك فإن العولمة، التي تُفهم على أنها تحطيم للجدران، ستؤدي إلى زيادة في عدد وكثافة الاتصالات، الأمر الذي يحمل في طياته الاحتمال الأقرب إلى كل من الصراعات وأوجه التعاون السياسية.

يجادل ماكيندر بأنه بمجرد أن يصبح العالم «نظاما سياسيا مغلقا، فإن الحقيقة الجغرافية النهائية ستُظهر نفسها بنفسها»⁽²⁰⁾. وهو يعني بذلك الاعتراف بالجزيرة العالمية كوحدة منفردة في الجغرافيا السياسية، والتي تكون فيها أمريكا الشمالية أكثر السواحل القارية أهمية في البحار المحيطة بها. يتحدث ماكيندر هنا عن النصف الشمالي من الكرة الأرضية، إذ يقع بداخله كل من البر الرئيسي لأوراسيا وجزء كبير من أفريقيا - وهي مكونات الجزيرة العالمية. تتوافق فرضية الأرض المحيطة لسبيكمان مع هذا السيناريو، حيث المناطق الهامشية من أوروبا والشرق الأوسط وشبه القارة الهندية، والشرق الأقصى تسيطر معا على المتصل الساحلي حول أوراسيا في المحيطين الهندي والهادي، مدعوما بأعداد السكان الكبيرة، والتنمية الاقتصادية، والموارد الهيدروكربونية: وعند تعاونها معا، ففي وسعها كبح جماح قوة المنطقة المركزية لروسيا، حتى لو كسبت روسيا المياه التي تزداد دفئا للساحل الشمالي للقطب الشمالي⁽²¹⁾. وكما أن القطب الشمالي سيصبح مركزا للطائرات والسفن التي تربط أمريكا الشمالية بالتخوم الشمالية للجزيرة العالمية، فإن المحيط الهندي الأكبر سيشكل مركز الحركة التجارية والعسكرية للجزيرة العالمية، من خلال ربط أفريقيا والشرق الأوسط بشرق آسيا.

ومع ذلك، فإن الأرض المحيطة لأوراسيا لن تكون موحدة بأي معنى سياسي محض. وفي عالم الكيانات المهيمنة الإقليمية المتعددة، فإن الخطر الذي شعر ماكيندر وسبيكمان بالقلق تجاهه، وهو وجود قوة برية واحدة تهيمن على أراضي

أوراسيا، أو قوة بحرية واحدة تهيمن على الأرض المحيطة لأوراسيا، لا تلوح له أي بوادر في الأفق. لا يبدو أنه حتى الصينيون، مع صعود قوتهم البحرية، في وسعهم تحقيق هذا الإنجاز، إذ سيكبح جماح مساعيهم كل من البحريات الأمريكية، والهندية، واليابانية، والأسترالية، والقوات البحرية الأخرى. ومع ذلك، وكما سنرى، فإن عالمًا تحركه ترتيبات القوة الخفية، حيث ستؤدي التجارة والاقتصاد إلى تآكل القوة العسكرية المحضة، سيظل عالمًا تسوده الجغرافيا السياسية التي تحكمها الجغرافيا، خاصة في محيطات العالم، التي ستصبح أكثر ازدحامًا من أي وقت مضى. ولرؤية هذا العالم البحري على نحو أفضل، سننتقل بعد ذلك إلى مفكر آخر من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

جاذبية القوة البحرية

في حين انصب تأكيد ماكيندر على القوة البرية بسبب التطورات التقنية الناشئة في السكك الحديد والنقل البري، فإن الثورة الصناعية نفسها هي التي جعلت الكابتن البحري الأمريكي ألفريد ثاير ماهان Mahan، وهو معاصر ماكيندر يكبره قليلا في العمر، من دعاة القوة البحرية. اعتقد ماهان أن القوة البحرية ليست أكثر أهمية من القوة البرية فقط في الكفاح من أجل الهيمنة، لكنها أيضا أقل تهديدا للاستقرار الدولي. وقد أشار ماهان إلى أن «القدرة المحدودة للقوات البحرية على تهديد القوة القسرية إلى الأجزاء الداخلية من البلاد» هي التي تجعلها لا تمثل أي خطر على الحرية. اعتقد ماهان أنه بدلا من أخذ الأراضي المركزية لأوراسيا باعتبارها المحور

«توفر الجغرافيا خلفية لما تدبره
الخيارات البشرية»

المؤلف

الجغرافي للإمبراطوريات، على العكس من ذلك، ما يشكل مفصلي hinges المصير الجيوسياسي هو المحيطان الهندي والهادي؛ فمن شأن هذين المحيطين السماح لدولة بحرية بإبراز قوتها في جميع أنحاء الأرض المحيطة لأوراسيا، مما يؤثر في التطورات السياسية الداخلية - بفضل نفس السكك الحديدية وشبكات الطرق المغذية لها - وصولاً إلى عمق آسيا الوسطى. أما نيكولاس سبيكمان، ولكونه هو نفسه يركز على الأرض المحيطة بالمحيطين الهندي والهادي، فقد تأثر عميقاً بأفكار ماهان كما تأثر بماكيندر.

وعلى الرغم من أن ماكيندر كان متهيماً من قوة روسيا، بالنظر إلى سيطرتها على الأرض المركزية، فإن ماهان، الذي سبق كتابه المعنون «مشكلة آسيا» نشر مقالة «المحور الجغرافي للتاريخ» لماكيندر بأربع سنوات، قد ألمح إلى قابلية روسيا للتعرض للخطر، بالنظر إلى بُعدها عن المياه الدافئة للمحيط الهندي. وقد ذكر ماهان أن «بعد روسيا الذي يتعذر إصلاحه عن البحر المفتوح قد ساعد على وضعها في موقف ضعيف من حيث القدرة على تكديس الثروات». وبناءً على ذلك، فمن الطبيعي والسليم أنها ينبغي أن تكون غير راضية، وعدم الرضا يأخذ بسهولة شكل العدوان». وبالتالي فإن ماهان يكشف أعماق أغوار التيارات النفسية - التي تستند، في الواقع، على الجغرافيا- للطبيعة الوطنية الروسية. أطلق ماهان على الأمم الواقعة إلى الجنوب من روسيا وشمال المحيط الهندي اسم «الأراضي المتنازع عليها» لآسيا، فقد وصفها بأنها «منطقة النزاع بين القوة البرية الروسية والقوة البحرية البريطانية». (أما سبيكمان، وبعد أربعة عقود، فقد أطلق على هذه المنطقة اسم الأرض المحيطة). ومن بين هذه الأراضي المتنازع عليها، يؤكد ماهان أهمية الصين، وأفغانستان، وإيران، وتركيا. وليس من قبيل المصادفة أنه تمكن في العام 1900 من تحديد الدول المحورية ذات الأهمية الجيوسياسية في عصرنا الحالي: فالجغرافيا غير قابلة للتغيير.

ساعدت الجغرافيا على فرض إستراتيجية الاحتواء ضد الاتحاد السوفييتي من الصف الجنوبي للدول الأوراسية خلال الحرب الباردة التي اكتنف كل هذه الدول الواقعة في الأرض المحيطة؛ وكذلك فإن الجغرافيا تساعد على التعرف على أهمية الصين، كدولة وحضارة ممتدة من الأراضي المركزية لأوراسيا إلى المياه الدافئة

للمحيط الهادي، حتى إن الجغرافيا تساعد على التعرف على أفغانستان وإيران باعتبارهما اثنتين من دول الأرض المركزية، اللتين تكتسبان أهمية بالغة بالنسبة إلى مصير منطقة الشرق الأوسط. كان ماهان، في العام 1902، هو أول من استخدم مصطلح «الشرق الأوسط» للدلالة على المنطقة الواقعة بين شبه الجزيرة العربية والهند والتي تمتلك أهمية خاصة بالنسبة إلى الإستراتيجية البحرية. وقد أشار إلى أن الهند، كونها تقع في وسط الشريط الساحلي للمحيط الهندي، والتي تحمي جناحيها الخلفيين سلسلة جبال الهيمالايا، تمتلك أهمية محورية لاختراق كل من الشرق الأوسط والصين من ناحية البحر. وقد اتضح أن القوة البحرية، توفر الوسيلة الماهانية Mahanian التي يمكن بها للولايات المتحدة البعيدة أن تؤثر في أوراسيا في ظل «النظام المغلق» الذي تصوّره ماكيندر⁽¹⁾.

يبد أن رؤية ماهان المرتكزة على المحيطات لها عيوبها. وكما يشرح روبرت شتراوس- هوبي في كتابه «الجغرافيا السياسية»: «ففيما يتعلق بحقيقة تمسك بريطانيا والولايات المتحدة بمذهب ماهان، فإن [هاوسهوفر وغيره من الجغرافيين السياسيين الألمان الآخرين] قد رأوا فرصة سانحة لألمانيا. ومادام أن القوى الأنغلوساكسونية جعلت هذا المذهب [الماهاني] - الذي يتسم بجاذبيته الشديدة لأنه يعد بالأمن والعمل كالمعتاد - أساسا لدفاعها، فقد ضمنت ألمانيا وجود المتنفس الذي تحتاج إليه تماما لتنظيم حرب شاملة»⁽²⁾. وبعبارة أخرى، فإن مذهب ماهان حول القوة البحرية، مع تركيزه على الأمن الكلي لأوراسيا، لم يأخذ في اعتباره بشكل كاف، على الرغم من عنفه، قدرة القوة البرية على فرض حصار سريع على أوروبا من شبه جزيرة أيبيريا إلى جبال الأورال.

ومع ذلك قام ماهان بتغطية تحركاته، إذ كتب أن «الاستخدام والتحكم الجيد في البحر ليس إلا حلقة واحدة في سلسلة التبادلات التي تتراكم من خلالها الثروات»⁽³⁾. ومع ذلك، كان تفكيره أكثر ملاءمة لتوسيع القوة البحرية للولايات المتحدة في جميع أنحاء العالم مما كان عليه للمحافظة على توازن القوى داخل أوروبا. كانت هناك، على حد تعبير شتراوس- هوبي، «إمبريالية مفعمة بالحيوية» في أفكار ماهان، الذي رأى أن الهدف النهائي للقوة الأمريكية هو أكثر من مجرد «البحر إلى البحر المتلائي» للمصير الظاهر Manifest Destiny، لكن أن يشمل أيضا الهيمنة على منطقة

الكاريبي والمحيط الهادي، الذي من شأنه أن يجعل الولايات المتحدة هي القوة المتفوقة الغالبة على مستوى العالم. اعتقد ماهان أن الأمة يجب أن تتوسع أو أن تضمحل - لأنه يستحيل على أي دولة أن تحافظ على كيائها وهي جامدة في مكانها. وعلى الرغم من كونه خبيراً تكتيكياً، فكثيراً ما كان محايداً أيضاً، إذ كان يؤمن بتركيز القوة البحرية من خلال التفوق في الأساطيل المقاتلة: أو «أسطول السفن المحتشدة على خط المعركة»⁽⁴⁾.

لكن ماهان، الذي نشر تسعة عشر كتاباً خلال فترة عشرين عاماً، ابتداءً من العام 1883، يصعب تحديد توجهاته: كانت الإمبريالية المفعمّة بالحيوية مجرد جانب واحد من جوانبه؛ فقد كان أيضاً ديموقراطياً، والذي - برغم ملاحظته أن الدول الديموقراطية لا تُحبذ الإنفاق العسكري، كان يعلن تفضيله للديموقراطية على الحكم الملكي. لم يكن ماهان يشعر بالضرورة بأن وجود أسطول ضخم كان ضرورياً للغاية بالنسبة إلى الولايات المتحدة، التي كان يعتقد أنها يجب أن تتعاون مع بريطانيا العظمى، باعتبار أن التفوق البحري لم يكن ليتحقق إلا من خلال ائتلاف ما coalition.

وقد اعتبر أن الحرب تُعد حالة غير طبيعية للأمم، التي، على الرغم من ذلك، يتعين عليها أن تستعد لها على نحو مأساوي. وقد تنبأ بظهور نظام متعدد الجنسيات من التحالفات الملاحية لحراسة المشاعات commons العالمية. لذلك فمن المهم عدم تشويهِه على نحو مبالغ فيه⁽⁵⁾.

وضع ماهان رؤيته الشاملة في كتاب «تأثير القوة البحرية في التاريخ بين العامين 1660 و1783». والمنشور في العام 1890، والذي أثر في تفكير الرئيسين وليام ماكينلي McKinley وثيرودور روزفلت Roosevelt - فضلاً عن تفكير القيصر الألماني فلهم الثاني Wilhelm II - وساعد في تحفيز بناء القوات البحرية قبل الحرب العالمية الأولى. أظهر ماهان أنه لكون البحر يمثل «الطريق العظيم» أو «المشاع الواسع» للحضارة، فإن القوة البحرية - أي القدرة على حماية الأساطيل التجارية - كانت دائماً هي العامل المحدد في الصراعات السياسية العالمية، خاصة أن «كلاً من السفر وحركة المرور عبر المياه كانت دائماً أسهل وأرخص من تلك البرية». تكمن قوة حجته في أصالتها بقدر ما تعتمد على شموليتها⁽⁶⁾.

يبدأ ماهان ملحتمه بتأكيد أن «الدولة السلمية المحبة للربح ليست بعيدة النظر، لكن هناك حاجة إلى بُعد النظر من أجل الاستعداد العسكري الكافي، خصوصا في هذه الأيام». لم يكن ماهان داعية حرب ولا نصيرا للاستعداد. وفي الواقع، وكما أشار فبسبب الاستعداد و«الجشع الضاري» لم تصل إسبانيا ولا البرتغال، ورغم كونهما قوتين بحريتين كبيرتين، إلى مصاف الأمم الكبرى في التحليل النهائي. ومع ذلك، «إذا كانت ثمة حكومة ديمقراطية فستمتلك البصيرة والحساسية الذكية لتحقيق المكانة الوطنية» اللازمة لردع الخصوم يبقى «سؤالا مفتوحا»؛ لأن المرافئ الأجنبية الصديقة التي توجد في جميع أنحاء العالم لا تستمر على الدوام، كما يقول لنا. ليس فقط أن الأمم في حالة السلم تكون غافلة بشكل عام عن المأساة الناتجة عن عدم تنشئة وعي تراجيدي، بل إن مؤرخيها يغفلون عن البحر على وجه التحديد، ويجهلون تلك المساحات الشاسعة من الأراضي التي تمارس نفوذا كبيرا على المناطق المكونة من أراض جافة، والتي تساهم في أمنها وازدهارها. وبالتالي، فثمة حاجة ملحة، كما يحذر، إلى الكتابة عن تاريخ الحرب البحرية: خاصة بسبب ثبات مبادئ هذه الحروب، على الرغم من التطورات التقنية من السفن التي تعمل بالمجاذيف إلى السفن البخارية (وإلى حاملات الطائرات والغواصات التي تعمل بالطاقة النووية في أيامنا هذه). يوضح ماهان هذه النقطة بإجراء قياس تمثيلي مع أحد الجيوش البرية:

عندما جرى استبدال الزحف على القدمين بحمل القوات في العربات، وعندما أفسح هذا الأخير بدوره مجالا لخطوط السكك الحديدية، ازداد حجم المسافات، أو، إذا صح التعبير، تضاعف حجم الزمن، لكن المبادئ التي تفرض النقطة التي ينبغي أن يُحشد الجيش عندها، والاتجاه الذي يجب أن يتحرك فيه، وذلك الجزء من موقع العدو الذي يجب أن يُهاجم، وحماية سبل الاتصالات، ظلت على حالها من دون تغيير⁽⁷⁾.

اهتم ماهان بصفة خاصة بالفترة منذ العام 1660، التي «بدأ فيها بوضوح» عصر السفن الشراعية، حتى العام 1783، الذي شهد نهاية الثورة الأمريكية. وأشار إلى أن جورج واشنطن Washington قد عزا انتصار أمريكا في حربها من أجل الاستقلال - بصورة جزئية - إلى سيطرة فرنسا على البحار - على الرغم من أن

فرنسا خسرت قبل ذلك بعقود حرب السنوات السبع، جزئيا، بسبب إهمالها للقوة البحرية. ومع ذلك فإن تعليق ماهان البانورامي على التكتيكات البحرية وكذلك شروحه حول مدى أهمية البحر في تاريخ البشرية يشملان فترات زمنية أبعد من ذلك بكثير. وكانت سيطرة الرومان على المياه هي التي أجبرت هانيبال Hannibal على خوض «تلك المسيرة الطويلة، المحفوفة بالمخاطر عبر بلاد الغال، والتي فقد فيها أكثر من نصف قواته من المحاربين المخضرمين. طوال فترة الحرب كانت فيالق [الرومان] تُنقل عبر المياه، من دون إزعاج ومن دون إنهاك، ما بين إسبانيا التي كانت قاعدة هانيبال، وإيطاليا». وقد أشار ماهان إلى أن عدم وقوع معارك بحرية كبرى خلال الحرب البونيقية الثانية Second Punic War، بسبب هيمنة روما على البحر الأبيض المتوسط كان عاملا حاسما في هزيمة قرطاج. ولو كان البحر الأبيض المتوسط مجرد صحراء مسطحة، كما كتب ماهان، وكانت الأرض هي الجبال الناتئة من الأرض الصحراوية، لكانت البحرية السائدة هي القوة القادرة على السفر ذهابا وإيابا عبر الصحراء من سلسلة جبال إلى أخرى وفق الرغبة. كانت هذه هي الحال مع روما. ولكن لأن الماء عنصر غريب، ولأن البحارة «يمثلون منذ زمن سحيق جنسا غريبا متميزا»، لم نضع القوات البحرية في المكانة الرفيعة التي تستحقها. وهنا يستطرد ماهان قائلا: «ما» البحرية في جوهرها إلا قوات خفيفة، فهي تحافظ على اتصالات مفتوحة بين موانئها؛ وتعرض سبيل اتصالات العدو؛ لكنها تجتاح البحر لخدمة البر، كما تسيطر على الصحراء حتى يمكن للبشر أن يعيشوا ويزدهروا على العالم الصالح للسكنى⁽⁸⁾.

وهكذا، وكما تغنى به ماهان، «ليس أخذ السفن أو القوافل المنفردة» هو الأمر المهم، بل إن «امتلاك تلك القوة الطاغية في البحر، التي تطرد منه أعلام العدو، أو لا تسمح لها بالظهور إلا وهي هاربة» هو الذي يهم حقا. «وإذا قَدَّرَ لأمة ما أن تمتلك موقعا يجعلها غير مضطرة للدفاع عن نفسها من ناحية البر ولا مدفوعة إلى السعي إلى توسيع أراضيها من ناحية البر، فستمتلك أفضلية، بفعل وحدة هدفها الموجه إلى البحر، بالمقارنة بشعب لا يمتلك إلا حدودا قارية»⁽⁹⁾.

تمتلك هذا الموقع كل من إنجلترا وأمريكا، وكلتاهما شهدت فترات طويلة من القوة العالمية عبر مسار التاريخ. لكن موقع أمريكا الجغرافي، كما أشار إليه ماهان،

له مساوئه الحقيقية أيضا. صحيح أن أمريكا هي جزيرة افتراضية ضخمة وغنية بالموارد، والتي تقع في المنطقة المعتدلة، بعيدة عن صراعات القوى المنهكة في أوراسيا، غير أنها في الوقت نفسه تفصلها مسافات شاسعة عن الموانئ الأوراسية، وبخاصة في منطقة المحيط الهادي، ما يعيق قدرتها على بسط نفوذها عليها. وبالتالي، فإن بناء قناة بنما في أمريكا الوسطى، الأمر الذي توقعه في كتابه، سيزيد من اتصال الأساطيل التجارية والحربية الأمريكية مع كل من طرفي أوراسيا. غير أن المسافة سوف تظل شاسعة، الأمر الذي «يسبب نفقات هائلة». وعلى الرغم من أن الأثر الحقيقي لقناة بنما سيتمثل في تحويل منطقة الكاريبي من «محطة نهائية» terminus و«مكان لحركة المرور المحلية» إلى «واحد من الطرق السريعة الكبرى في العالم»، إذ ستعبر القناة ليس فقط سفن الولايات المتحدة، بل سفن الدول الأوروبية، في طريقها إلى المحيط الهادي. وفي ضوء ذلك، على حد تعبيره، «فلن يعود الأمر بالسهولة نفسها» على الولايات المتحدة «أن تقف بمعزل عن التعقيدات الدولية»⁽¹⁰⁾.

إن الجغرافيا، التي تجعل إنشاء هذه القناة البرزخية ممكنا في المقام الأول، تتطلب أيضا وجود علاقات أوثق بين الولايات المتحدة وجيرانها في أمريكا الوسطى ومنطقة البحر الكاريبي من أجل حماية القناة والسيطرة على البحار القريبة منها. وعن طريق جعل أمريكا أقرب فعليا إلى آسيا، وأكثر اكتنافا في الشؤون الأوروبية من خلال عمليات الشحن التجاري، ستساعد القناة في نهاية المطاف على إضعاف النزعة الانعزالية وما يترتب على ذلك من صعود نزعة دولية internationalism ليبرالية قوية في أروقة السلطة في واشنطن.

غير أنه من المؤكد أن ذلك لم يكن قدرا محتوما، على الرغم من الدور القيادي للجغرافيا. كانت قناة بنما نتيجة لعدد من الظواهر التي تنطوي كل منها على الفاعلية الإنسانية: الحرب الإسبانية - الأمريكية، وسياسات القوة العظمى التي حرمت في نهاية المطاف أي دولة أوروبية من أن يكون لها دور في المشروع، أو لي إبرام الصفقات خلف الكواليس التي أسفرت عن اختيار بنما بدلا من نيكاراغوا، وقهر الأمراض المنتشرة في المناطق المدارية من أمريكا الوسطى، وقبل كل شيء العمل الهائل والبراعة. ومرة أخرى، توفر الجغرافيا خلفية لما تدبره الخيارات البشرية.

سعى ماهان بوضوح إلى التأثير في الخيارات البشرية. وفي كتابه الضخم، الذي نُشر على نحو ملائم في العام نفسه الذي وُحِد فيه الجيش الأمريكي القارة الأمريكية بفعل انتصار ظاهري نهائي (على الرغم من بشاعته) في الحروب الهندية، وقبل بضع سنوات فقط من تمكّن الولايات المتحدة، نتيجة للحرب، من الاستيلاء على الإمبراطورية الإسبانية في غرب المحيط الهادي، وكذلك الهيمنة على منطقة البحر الكاريبي، دعا ماهان إلى حمل السلاح من خلال القوة البحرية العالمية. لم يكن ماهان جغرافيا بقدر كونه مؤرخا وخبيرا في التكتيك الحربي، كما أنه يمثل حسا إمبرياليا يحمل في طياته تضمينات جغرافية واضحة. وهذا هو التفسير القاطع لاحترام سبيكمان الشديد له. ليس الأمر أن سبيكمان كان أحد المتحمسين للغزو؛ لكنه أدرك بحدسه، كما فعل ماهان، أن أمريكا لن يكون أمامها أي خيار سوى الدخول في صراعات القوة في جميع أنحاء العالم؛ لأن موقعها المتميز جغرافيا في النصف الغربي من الكرة الأرضية هو ما منحها نفوذا في النصف الشرقي.

وكما هو متوقع، فقد كان لماهان أعداؤه، ومنهم السير نورمان أنجيل Angell، والذي - في معرض دفاعه الجذاب والحماسي عن مبدأ السلامة pacifism، وهو كتابه المعنون «الوهم الأعظم»، المنشور في العام 1909 - شجب كتابات ماهان باعتبار أنها «هراء مؤذ لل غاية». كان هذا الصحافي والسياسي البريطاني، الذي يحسب له أنه كان يكره هاوسهوفر، يستنكر تأكيد ماهان أن «بسط السلطة الوطنية على المجتمعات الأجنبية» يمكن أن يمثل مبادرة جلية: لأنه «على غرار الأفراد، فإن الأمم والإمبراطوريات تمتلك أرواحا كما تمتلك أجسادا». وبالتالي فإن ماهان، في رأي أنجيل، كان يرفض بكل سخف الواقع الملموس تماما للفرد ويستبدله بالواقع غير الملموس نسبيا للدولة. وكما يقول أنجيل: «هل يفكر أي شخص في توقيير الفلاحين الروس moujik لمجرد أنهم ينتمون إلى واحدة من أكبر الإمبراطوريات مساحة؟ هل يفكر أحد في احتقار إيسن Ibsen ... أو أي مواطن إسكندنافي أو بلجيكي أو هولندي مثقف، لمجرد انتمائه إلى أصغر دولة في أوروبا؟»⁽¹¹⁾. وبعبارة أخرى، فإن ماهان، وبالأستدلال سبيكمان، وماكيندر، وغيرهم من المتخصصين في الجغرافيا - الجغرافيا السياسية، هم جميعا حتميون

وجوهريون essentialists. تنبع توجهاتهم المولعة بالحرب عن نظرتهم، كما اشتكى أشعيا برلين، للدول والإمبراطوريات باعتبارها أكثر واقعية من الأفراد الذين تحتويهم. ومرة أخرى، فلا يمكننا سوى أن نعرض دفاع هاوسهوفر: فإذا لم ينخرط ماهان والآخرين في ذلك النوع من الحتمية الذي يدينه أنجيل، فسيتروا ساحة الإستراتيجية الكبرى لأولئك الذين هم أشرار حقاً. وللأسف، نحن بحاجة إلى النقائص الأخلاقية لأمثال ماهان.

وفي الواقع أن كتاب أنجيل حول سبب كون الحروب وتناحر القوى العظمى أموراً غير منطقية عانى من سوء الحظ المتمثل في كونه قد نُشر قبل بضع سنوات فقط من اندلاع الحرب العالمية الأولى، التي استهلكت قرناً من الحروب والصراعات التي لم يسبق لها مثيل في أوروبا. أما أنجيل فقد صار، ظلماً، أضحوكة في كثير من الأوساط. وأقول ظلماً لأن كتابه، في حد ذاته، يمثل قراءة ممتعة تستحوذ على اهتمام القارئ، بالإضافة إلى براعة حجته؛ كما أن كتابه ربما أثبت كونه مستبصراً لو كانت الطبيعة البشرية أقل دناءة بقليل مما هي عليه. وبسبب وجود نقائص في الطبيعة البشرية، التي تضخمها الانقسامات التي تفرضها الجغرافيا، فإن كاتباً مثل ماهان تظل أفكاره باقية بصورة أفضل بكثير على مدى العقود من واحد مثل أنجيل.

وفي علامة على كيفية تغيير ديناميات القوة في العالم، فإن الخبراء الإستراتيجيين الهنود والصينيين يقرأون كتابات ماهان بشغف، بل إنهم هم أتباع ماهان Mahanians اليوم أكثر بكثير من الأمريكان: فهم يبنون أساطيل مصممة لخوض النزاعات المسلحة في البحر، في حين تنظر القوات البحرية الأوروبية إلى القوة البحرية من حيث وظيفتها الشرطية فقط. وعلى سبيل المثال، ففي ندوة عقدت في بكين في العام 2004، فإن «عالمنا بعد عالم كان يقتبس مقولات ماهان ... ما يدل على تأثيره القوي. ومن دون استثناء تقريباً، فقد كانوا يقتبسون الأكثر دعوة إلى الحرب من بين تعاليم ماهان، التي تساوي بين السيطرة على البحر وامتلاك قوة طاغية تُغلق الممرات البحرية المشتركة أمام سفن العدو»⁽¹²⁾، كما كتب الأستاذان في كلية الحرب البحرية جيمس ر. هولمز Holmes وتوشي يوشيهارا Yoshihara.

ومنذ ذلك الحين، ومع تزايد حجم البحرية الصينية واتساع نطاق عملياتها، فإن الميل إلى ماهان لم يزدد إلا قوة في بكين، خصوصا مع تنامي القوة البحرية الهندية، التي يخشاها الصينيون؛ أما الهنود ومن جانبهم، فينظرون إلى الصينيين بطرق ماهانية مماثلة. وفي الوقت نفسه، يبدو أن الأسطول الأمريكي قد تبنى نظرية أخرى، فاسمحوا لي أن أوضح الأمر.

لم يختلف جوليان كوربيت Corbett، وهو مؤرخ بريطاني من الحقبة نفسها، كثيرا مع ماهان، بيد أنه طرح نهجا أكثر دهاء للإستراتيجية البحرية، والذي يركز بدرجة أكبر على تحقيق نتائج أكبر في البحر باستخدام عدد أقل من السفن. ويؤكد كوربيت أن مجرد فقدان أمة ما للسيادة على البحر لا يعني بالضرورة أن أمة أخرى قد امتلكت هذه الهيمنة (كما كان يعتقد ماهان). إن تحالفا بحريا قد يبدو ضعيفا ومشتتا يمكنه، إذا جرى تشكيله كما ينبغي، أن يمتلك «واقعا من القوة». وأطلق كوربيت على هذا اسم «الأسطول المتاح» - أي مجموعة من السفن التي يمكن أن تُجمع بسرعة لتشكيل أسطول موحد عند الضرورة. ولن يحتاج هذا الأسطول المتاح للهيمنة على الأساطيل الأخرى أو إغراقها؛ بل يمكن أن يكتسب فعاليتها عن طريق الاستيلاء على القواعد ومراقبة نقاط الاختناق. بيد أن هذا الأسطول القادر بصورة مضللة، كما جادل كوربيت، يجب أن يسعى إلى «حياة نشطة وقوية» من خلال تسيير دفاعات محدودة⁽¹³⁾. وبمحض المصادفة، فقد نُشر كتاب كوربيت بعد أن قلّصت البحرية الملكية البريطانية وجودها في جميع أنحاء العالم من خلال الاستفادة من القوة البحرية المتنامية لحليفيتها، اليابان والولايات المتحدة.

أما الآن، فإن الولايات المتحدة تحظى بمكانة مماثلة لتلك التي امتلكتها بريطانيا منذ مائة سنة، ومع ذلك فإن عدد قطع البحرية الأمريكية ظل يتناقص: من نحو 600 سفينة خلال الحرب الباردة إلى 350 خلال تسعينيات القرن العشرين، إلى 280 الآن، مع إمكانية التراجع إلى 250 خلال السنوات والعقود القادمة - بسبب تخفيضات الميزانية وتجاوزات التكلفة. وعلى هذا النحو، فهي تعمل على ضم حلفاء بحريين مثل الهند، واليابان، وأستراليا، وسنغافورة. وفي أكتوبر 2007 نشرت البحرية الأمريكية وثيقة بعنوان «إستراتيجية تعاونية للقوة

البحرية في القرن الحادي والعشرين»، والتي تتسم بأنها أقرب إلى روح كوربيت، التي تؤكد على التعاون، منها إلى روح ماهان التي تؤكد على الهيمنة. وتستطرد الوثيقة قائلة «إن مصالح أمتنا ستتحقق بأفضل صورة من خلال رعاية نظام عالمي سلمي يتألف من شبكات مترابطة للتجارة، والتمويل، والمعلومات، والقانون، والشعوب، والحوكمة». وكما تراه البحرية الأمريكية، فقد صار عالمنا مترابطا على نحو متزايد مع تجمع سكان العالم في عُقد ديموغرافية نابضة بالقرب من البحار التي ستكون عرضة لاضطرابات كبيرة، مثل الهجمات عديمة التناسق والكوارث الطبيعية. حتى الصراعات الكبرى على السلطة، كما تقول الوثيقة، صارت عرضة لأن تكون خفية وغير متناسقة. هناك قليل من الحديث هنا عن المعارك البحرية والبرية التقليدية، كما أنه لم يُشر حتى إلى تنامي القوة البحرية للصين، في حين أن روح «الأمن الجماعي» في كل مكان. «ليست هناك أمة واحدة تمتلك الموارد اللازمة لتوفير السلامة... عبر النطاق البحري بأكمله». وفي هذا النطاق البحري، تشير الوثيقة إلى أن غرب المحيط الهادي والمحيط الهندي سيكونان أولى المناطق المتساوية في الأهمية الإستراتيجية⁽¹⁴⁾.

وبالتالي، فإن الأرض المحيطة لأوراسيا والرعن promontory العالمي الأكبر حجما (ساحل الجزيرة العالمية)، إذا أردنا استخدام تعبيرات سبيكمان وماكيندر، ستواجهان اثنتين من الحقائق العسكرية، على ما يبدو. فمن ناحية، سيكون هناك سلاح البحرية الأمريكي، بأسطوله الذي لايزال مهيمنا على الرغم من تراجع، والذي يقوم بدورياته، استلهاما لأفكار كوربيت، بالتنسيق مع الحلفاء المحليين من أفريقيا إلى شمال شرق آسيا، من أجل الحفاظ على كون البحار آمنة أمام حركة التجارة. ومن الناحية الأخرى، سيكون هناك تأكيد على القوة المتنامية من قبل الصين في المقام الأول، والهند في المقام الثاني، وكل منهما مسلحة بميولها الماهانية. وبالتحديد بسبب ترحيب الصينيين بهذه الأيقونة الأمريكية للطموح الإمبريالي، فإن البحرية الأمريكية لن تتمكن من الإفلات تماما من روحه؛ حيث سيستمر الصراع الأبدي على سياسات القوة، بقدر رغبتنا في الهروب منه. وكما كتب أستاذ العلوم السياسية بجامعة شيكاغو، جون ميرشايمر Mearsheimer، فإن «القول بأن التوسع مضر بطبيعته يعني أن كل القوى العظمى على مدى السنوات

الثلاثمائة والخمسين الماضية قد فشلت في فهم الكيفية التي يعمل بها النظام الدولي، وهي حجة لا يمكن تصديقها كما هي». ويستطرد ميرشايمر قائلاً: «بالنظر إلى الفوائد الهائلة للهيمنة»، ففي ظل نظام فوضوي لا توجد فيه قوة مهيمنة في العالم، «ستكون هناك رغبة دائمة لدى الدول القوية لمنافسة الولايات المتحدة، ومن ثم محاولة الهيمنة على المنطقة التي تقع فيها من العالم»⁽¹⁵⁾. وحتى الآن، وفيما يتعلق بسمعته، فإن أفضل أيام ماهان لم تأت بعد.

ومع اكتظاظ المنطقة الساحلية لأوراسيا على نحو متزايد بالسفن الحربية من أجل تلبية طموحات الصينيين، والهنود، وغيرهم إلى جانب تلك الأمريكية، على الرغم من أن ثمة مسارا قطبيا أكثر فعالية يقلص المسافات بين أوراسيا وأمريكا الشمالية على نحو متزايد، فإن صراعات الهيمنة في جميع أنحاء العالم لن تزيد إلا سرعة وحدة. وبالتالي، فنحن الآن بحاجة إلى استكشاف ملامح أي نظام جغرافي مغلق.

«أزمة المتسّع»

باعتباري أستاذًا زائرًا في الأكاديمية البحرية الأمريكية في أنابوليس قبل سنوات، قمت بتدريس دورة حول التحديات المستقبلية في مجال الأمن الوطني. بدأت الفصل الدراسي بجعل ضباط الصف البحريين يقرأون كتاب «نار في الشرق: صعود القوة العسكرية الآسيوية والعصر النووي الثاني» من تأليف أستاذ العلوم السياسية بجامعة ييل، بول براكن Bracken. ولكونه عملاً ألعيا وجيزاً ومستبصراً لم يحقق مبيعات جيدة عندما نشر في العام 1999، فإن كتاب براكن يُظهر روح ماكيندر وسيبيكمان بدرجة كبيرة، على الرغم من أنه لا توجد إشارات إليهما في نصه. أما براكن، الذي عمل مستشاراً في الأغلبية العظمى من مشروعات إعادة التقييم التي أجرتها الحكومة الأمريكية

«أدى العبء المتمثل في حكم التجمعات الحضرية الفقيرة والشاسعة إلى جعل إدارة الدول أكثر إرهاقاً مما كانت عليه في أي وقت مضى عبر التاريخ»

المؤلف

خلال فترة ما بعد الحرب الباردة، في رسم خريطة مفاهيمية لأوراسيا تتحدّد بالانهيار المستمر لكل من الزمن والمسافة، وبملاء المساحات الفارغة - وهو أمر نبهنا إليه أولاً وليام ماكنيل McNeill في الفصول الأخيرة من تاريخه الأكبر للبشرية. ولكن لأن براكن كتب مؤلفه خلال مرحلة أكثر دراماتيكية من هذا التطور، فقد أدى به هذا إلى الإعلان عن أن ثمة «أزمة في المتسع». يشير براكن هنا إلى فكرة عالم الرياضيات الهنغاري - الأمريكي الكبير جون فون نيومان von Neumann، الذي اعتبر أن الجغرافيا القليلة السكان التي تميّز بها الماضي قد عملت كآلية وقائية ضد التطورات العسكرية والتقنية. ومع ذلك، فقد شعر فون نيومان بالقلق من أن تكون الجغرافيا الآن في سبيلها إلى خسارة المعركة. ومما لا يمكن إنكاره أن «الحجم المحدود للأرض» سيعمل على نحو متزايد كقوة مُسببة لعدم الاستقرار، مع قيام الأجهزة hardware والبرامجيات العسكرية باختزال المسافات على الخريطة الجيوسياسية. ويحذرن براكن من أن «هذا التغيير يسهل تفويته، لأنه تدريجي»⁽¹⁾.

اسمحوا لي الآن بأن أوجز شرح فرضية براكن في بضع صفحات، لأن لها أهمية كبيرة في طرح فرضيتي.

وفي حين يركّز الأمريكيون والأوروبيون على العوامة، فإن جاذبية القومية والقوة العسكرية تتنامى في أوراسيا. إن اختبارات الصواريخ والقنابل، وبرامج الحرب البيولوجية، وتطوير الأسلحة الكيميائية هي «منتجات آسيا المزدهرة والمتحررة»، كما أشار إليه براكن. أما ما «فشل الغرب في تقديره» فهو أن تقنيات الحرب وبناء الثروات كانت دائماً وثيقة الارتباط: فمن النهضة الاقتصادية في آسيا أتى صعودها العسكري. وخلال السنوات الأولى للحرب الباردة، كانت القوات العسكرية الآسيوية في المقام الأول عبارة عن جيوش متناقلة الحركة من نوع تلك التي شاركت في الحرب العالمية الثانية، والتي تمثّل الغرض الأساسي منها - على الرغم من أنه غير معلن على الإطلاق - في التوحيد الوطني. «كان الجيش أداة للتلقين الجماعي، ومدرسة عملاقة تتمثل مناهجها الأساسية في السيادة القومية». وقد ساعد الجنود في جني المحاصيل أكثر بكثير مما عملوا على شحذ مهاراتهم القتالية. وهكذا، فقد انصب تركيز الجيوش على الداخل، حتى على الرغم من وجود مساحات شاسعة تفصل العديد من الجيوش القومية عن الجيوش القومية الأخرى. ولكن مع تراكم الثروات الوطنية

وترسّخ ثورة الحاسوب، عملت الجيوش الآسيوية - من الشرق الأوسط الغني بالنفط إلى اقتصاديات النمر في منطقة المحيط الهادئ - على تطوير مجمّعات عسكرية/مدنية متطورة من حقبة ما بعد التصنيع، والمزودة بالصواريخ والألياف البصرية والهواتف الخليوية. وفي الوقت نفسه، فقد صارت الدول الآسيوية أكثر تماسكا من الناحية البيروقراطية، مما سمح لجيوشها وقادتها بالتركيز على الخارج وبعيدا عن السياسة المحلية، نحو دول أخرى، وبالتالي صارت أشد فتكا واحترافية خلال هذه العملية. وبدلا من التراجع إلى الريف في مواجهة الخطر، وهو الخيار المتبّع في العهود الماضية، تقوم الآن أجهزة الاستشعار الإلكترونية بمراقبة الحدود الدولية، في حين تظل أسلحة الدمار الشامل على أهبة الاستعداد. أما الجغرافيا، فبدلا من أن تكون متكا، فقد صارت سجنا لا مهرب منه⁽²⁾.

«إن حزاما متصلا من البلدان، من إسرائيل إلى كوريا الشمالية» (هما في ذلك سورية، وإيران، وباكستان، والهند، والصين) «قد كدّس إما ترسانات نووية أو كيماوية كما يعمل على تطوير الصواريخ الباليستية. يمتدّ ثمة توازن متعدد الأقطاب من التهيب على شكل قوس يبلغ قطره 6 آلاف ميل»، والذي يتقاطع عبر الساحتين العسكرية والسياسية وإدارات «الدراسات الإقليمية» التي يقسّم فيها الغرب آسيا. وبالتالي، فإن «موت المسافة» يجثم علينا، كما يحذر براكن. ولناخذ اليابان مثلا على ذلك، والتي منذ أن أطلقت كوريا الشمالية صاروخا عبرها في العام 1998، والذي سقط في المحيط الهادئ، لم تعد منطقة محمية، ولكن جزءا لا يتجزأ من المساحة العسكرية للبر الرئيس للقارة الآسيوية، على الرغم من جغرافيتها الأرخيبيلية. وعلى مر القرون، تشكّل مفهوم آسيا بفعل القوة البحرية الغربية، بداية من البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر؛ قبل أن تُفكك إلى مناطق منفصلة بسبب الحرب الباردة. ولكن في سبعينيات القرن العشرين، مع اجتياح الطفرة الاقتصادية لشرق آسيا، وهي منطقة كبيرة وجديدة، تشكّل «حوض المحيط الهادئ»، والذي يمثل أساسا للعودة إلى خريطة شاملة لآسيا. ولم يكن لقصة النجاح الاقتصادي هذه أن تتحقق، إلا لأن التهديد بالقوة كان أمرا غير وارد؛ وهذا بدوره كان راجعا إلى وجود قوة مهيمنة عسكريا، وهي الولايات المتحدة، والتي عملت ضامنا للسلام. أما الآن، ومع عودة آسيا لتكون وحدة عضوية واحدة، فإن قوة الولايات المتحدة تنحسر

ببطء، في حين أن القوة العسكرية للصين والهند، وغيرهما من الدول القومية، آخذة في الارتفاع. تتزايد آسيا في الحجم مع انهيار الوحدات الفرعية subunits الإقليمية؛ كما يتزايد خوفها من الانغلاق بسبب تزايد كل من عدد السكان ومدى الصواريخ؛ كما أنها صارت أكثر تقلبا، بسبب تكديس الأسلحة من دون أن يترافق ذلك مع تحالفات منظمة⁽³⁾.

وكما يشرح براكن، فبسبب مساحتها الهائلة، طوال معظم الفترات التاريخية، فلم تكتسب التحالفات أهمية كبيرة في آسيا على الإطلاق، إذ كانت الجيوش بعيدة للغاية بعضها عن بعض بحيث لا يمكنها أن تقدم يد المساعدة بعضها إلى بعض. كان هذا نقيضا للوضع في أوروبا، حيث تتزاحم عديد من الدول القوية بعضها ضد بعض في شبه جزيرة ضيقة. لكن هذا الوضع يتغير الآن؛ ففي أرجاء أوراسيا، تُنشأ قواعد الصواريخ وأسلحة الدمار الشامل، وليس قوات المشاة. أما الدوريات البحرية والبحرية من مختلف الدول، والتي تنبض بالتكنولوجيا الحديثة، فتجوب المياح البعيدة عن الموانئ الرئيسية في المحيط الهندي وغرب المحيط الهادي. وتعمل الصين، واليابان، والهند، وإسرائيل، وغيرها من الدول على تطوير شبكات الاتصالات باستخدام الأقمار الاصطناعية وأجهزة التنصت التي تعمل تحت الماء. أما الهند، التي كانت طوال معظم الفترات التاريخية تنظر إلى الصين على أنها غير ذات صلة بمخاوفها الأمنية، لأن البلدين يفصلهما أعلى الجبال في العالم، فتمتلك الآن أقمارا اصطناعية وطائرات استطلاع تزودها بتفاصيل تحركات القوات الصينية في التبت. وفي الوقت نفسه، فقد أنشأت البحرية الهندية مركزا للقيادة في الشرق الأقصى في جزر أندامان Andaman Islands، التي تقع على بعد 750 كيلومترا إلى الشرق من البر الهندي، لمواجهة الوجود البحري الصيني الذي يعمل بدوره على مبعدة من شواطئ بلاده. وكما كتب براكن، فمع «تحالف القوة الصناعية الآسيوية مع القوة العسكرية الآسيوية»، فإن القارة صارت تفتقر حرفيا إلى أي مجال للخطأ وسوء التقدير، كما أصبحت، في الواقع، «رقعة الشطرنج الأوراسية المتقلصة»⁽⁴⁾.

وبالنسبة إلى رقعة الشطرنج المتقلصة هذه، يضيف براكن عاملا مزعزا للاستقرار، هو «التقنيات الهدامة»: أي التقنيات التي، بدلا من أن تساعد في

تعزیز الهيكل الحالي للقيادة والقوة العالمية، فهي «تعمل على تقويضها عن طريق عرقلة الوضع الراهن». تشمل هذه التقنيات فيروسات الحاسوب وأسلحة الدمار الشامل، خصوصا الأسلحة النووية والقنابل البيولوجية. وفي هذا السياق، كتب براكن:

تعمل التقنيات الهدامة على تغيير قواعد اللعبة. وعن طريق قلب المزايا القائمة، فهي ترعى مهارات جديدة وتعزز استراتيجيات مختلفة. أما حالة عدم اليقين الناجمة فستتهز أسس النظام الراسخ وتغيّر المعايير التي تُقاس بها القيادة⁽⁵⁾.

وبالفعل، فقد قامت التقنيات الهدامة، بتحريض من التعصب الديني، بجلب الهضبة الإيرانية إلى أعتاب فلسطين الجغرافية، على الرغم من أن إيران وإسرائيل يفصلهما أكثر من ثمانمائة كيلومتر. كما أن إيران ليست سوى جزء من توجه كامل. وكما أشرت إليه سابقا، فبدلا من أن تكتفي بشراء أحدث الأسلحة الغربية، فإن الصين، وكوريا الشمالية، والهند، وباكستان، وغيرها من البلدان تعكف على تطوير تقنيات هدامة. وفي عصر تعمل فيه بلدان العالم الثالث السابقة على حيازة أسلحة نووية تكتيكية، فإن القواعد الأمامية الكبيرة من النوع الذي احتفظ به الجيش الأمريكي في المملكة العربية السعودية والكويت قبل حرب الخليج الثانية، قد تكون من الآن فصاعدا عرضة لهجوم الأعداء. تعدُّ مثل هذه التطورات بإعاقة استعراض أمريكا للقوة في جميع أرجاء الأرض المحيطة لأوراسيا، وبالتالي تمهد الطريق نحو ترتيب للقوى يتسم بأنه متعدد الأقطاب وأقل استقرارا، إن حرية تكديس المعدات العسكرية في المواقع الرئيسية في جميع أنحاء العالم هي التي حافظت على القوة العسكرية الأمريكية، لكن الأسلحة النووية والكيميائية - البيولوجية يمكن أن تدمر هذه المواقع الأمامية، أو على الأقل جعلها غير صالحة للاستعمال لبعض الوقت. وفي هذا السياق، كتب براكن أن «الحفاظ على الوضع اللا متناظر، الذي تكون فيه أعظم قوة عسكرية في آسيا غير آسيوية [بل أمريكية] يعتمد على الحد من التسلح» - وهو أمر صار متزايدا الصعوبة مع اكتساب دول العالم الثالث السابق قدرات عسكرية هدامة. وعلى مدى عقود، استخدمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الأسلحة النووية، من دون تفجيرها في الواقع،

من أجل «المناورات السياسية، والتهديدات الضمنية، والردع، وإرسال الإشارات signaling، ورسم الخطوط في الرمال، وغيرها من أشكال الأفضلية السيكلوجية». أما الآن، فهناك مزيد من البلدان التي ترغب في أن تحذو حذوهم، حتى إن بعضها يتحرك بدافع من الغضب الناتج عن الفقر، على الرغم من افتقارها إلى آليات المراقبة البيروقراطية اللازمة للتحكم في استخدام هذه الأسلحة على نحو مسؤول. وخلال الحرب الباردة، تناولت كل من القوتين العظميين الحرب النووية بمنطق «الاستقلالية والعقلانية». لكن الأمر قد لا يكون كذلك في ما أسماه براكن «العصر النووي الثاني»، والذي تشكّل فيه أوراسيا مساحة صغيرة مكتظة بالبلدان الفقيرة، وبعضها من بين القوى النووية⁽⁶⁾.

وكما يقول براكن، فإن «انتشار الصواريخ وأسلحة الدمار الشامل في آسيا يشبه انتشار المسدس في الغرب الأمريكي القديم». ولكونه رخيصا ومميتا في الوقت نفسه، كان المسدس بمنزلة عامل مُعادل equalizer، لأنه جعل الحجم والقوة البدنية للرجال أقل أهمية بكثير. ومثلما غير المسدس من ميزان القوى بين الرجال في الغرب القديم، فإن القنابل النووية والتقنيات المدمرة الأخرى التي تمتلكها الأمم الفقيرة تغيّر التوازن العالمي للقوى⁽⁷⁾.

إن انتشار الأسلحة النووية في آسيا «يجعل العالم أقل توجهها نحو أوروبا Eurocentric»، وبالتالي يسرّع عملية العولمة إلى حد كبير⁽⁸⁾. ستصبح جغرافية أوراسيا بمثل حميمية جغرافية أوروبا، حيث يوجد عدد لا يحصى من الدول القوية، والمحصورة على نحو غير مريح داخل مساحة صغيرة، والتي خاضت الحروب باستمرار، مع حلول السلام بينها بالوتيرة نفسها عن طريق ممارسة سياسات توازن القوى. لن يكون هناك تكديس لأكوام من الرؤوس الحربية النووية الحرارية كمثال الذي شهدناه خلال الحرب الباردة، وبالتالي فإن السلام والاستقرار الناجمين عن القدرة على التدمير المتبادل لن يتحققا بالضرورة، على رغم أن الضرر الذي ستتمكن دولة ما من إلحاقه بأخرى سيكون هائلا - وفي عالم يعج بالمدن الكبرى المزدحمة - يقترب من كونه مستعصيا على الفهم. وبالتالي، فإن الجغرافيا المغلقة ستحتاج إلى أقدر ممارسي فن الحكم المتمثل في موازنة القوى على طريقة ميترنيش Metternichian من أجل منع وقوع العنف الجماعي.

ومن دون ريب، فقد ندلف إلى عالم من سياسة حافة الهاوية brinkmanship المتعددة الأبعاد. إن تقلص الخريطة لا يطمس المناطق الاصطناعية التي اخترعتها الدراسات التي تناولت مجال الحرب الباردة فحسب، لكنه أيضا يجعل تصوّر ماكيندر وسبيكمان لوجود محور محدّد تجاوره أراضٍ محيطية أقل وضوحا، إذ تمت إعادة تشكيل أوراسيا بفعل التكنولوجيا إلى كلّ عضوي. وعلى سبيل المثال، يمكن للمساعدات العسكرية المقدمة من الصين وكوريا الشمالية إلى إيران أن تجعل إسرائيل، الواقعة في الطرف الآخر من الكتلة القارية الأوراسية، إلى اتخاذ إجراءات عسكرية محدّدة. وبسبب الصور المثيرة للمشاعر التي يبثها التلفاز، فإن القنابل التي تسقط على غزة يمكنها الآن تحريك الحشود في إندونيسيا. وفي وسع القوات الجوية الأمريكية مهاجمة أفغانستان المحاطة بالأرض من كل جانب انطلاقا من جزيرة ديينغو غارسيا في وسط المحيط الهندي. وفي حين اعتادت الجيوش المحلية أن تظل محصورة في مناطقها، فستزداد استعراضات القوة من قبل القوات البحرية الصينية والهندية من خليج عدن وحتى بحر الصين الجنوبي وبحر اليابان - أي على طول كامل الأرض المحيطة الصالحة للملاحة. وهناك عديد من هذه الأمثلة على التأثير المتبادل للأوضاع السياسية في أحد أجزاء أوراسيا على الأجزاء الأخرى. لكن هذا لا يلغي دور الجغرافيا، بل يعني فقط أنه ينبغي علينا إضافة عوامل أخرى إليها، فهي لم تعد مهيمنة إلى الدرجة التي كانت عليها.

ليس فقط أن مخاوف ماكيندر وسبيكمان ستشتد بفعل التقنيات الهدامة التي يركز عليها براكن، ولكن بفعل الزيادة الهائلة في سكان المناطق الحضرية أنفسهم، مما لن يزيد خريطة أوراسيا إلا انغلاقا. وفي تسعينيات القرن العشرين، خلال الدورة الفكرية الأولى لمرحلة ما بعد الحرب الباردة، عندما جرى التقليل من شأن مصطلحي «الواقعية» و«الحتمية» خلال الفترة المتهورة التالية للإطاحة بالشيوعية، كما تمت السخرية من أفكار الفيلسوف الإنجليزي توماس روبرت مالثوس Malthus الذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر من قبل كثير من المثقفين باعتبارها قائمة للغاية وقدرية: لقد تعامل مalthوس مع البشرية كنوع من الأحياء يستجيب لبيئته المادية، وليس كمجموعة من الأفراد ذوي الإرادة المستقلة، والذين يتحركون بدافع

من أفكارهم. بيد أن نظرية مالثوس المحددة - والقائلة بأن عدد السكان يزداد هندسيا في حين لا تزيد الإمدادات الغذائية إلا حسابيا - كانت خاطئة. ومع ذلك فبمرور السنين، وفي ظل التقلبات الكبيرة في أسعار المواد الغذائية والطاقة في العالم، والجموع المحتشدة الغاضبة من الدهماء المخلصين - ومعظمهم من الذكور الشبان - المعزولين في أماكن مثل كراتشي وغزة (وهي Soweto الشرق الأوسط)، فإن مالثوس، باعتباره أول فيلسوف يركّز على الديموغرافيا وعلى التأثيرات السياسية لنوعية الحياة بين الفقراء، يحظى بقدر أكبر من الاحترام. إن نصف سكان الضفة الغربية وقطاع غزة هم دون سن الخامسة عشرة. وفي الواقع، ففي حين أن عدد سكان الشرق الأوسط الكبير سيزداد من 854 مليونا إلى أكثر من 1.2 مليار على مدى السنوات العشرين المقبلة، مع تضاعف سكان العالم العربي تقريبا، فإن إمدادات المياه الجوفية ستقل إلى حد كبير، وخاصة في أماكن مثل اليمن، مما سيؤدي إلى آثار جانبية ناسفة على السياسة، فسوف نسمع كلمة «مالثوسي» Malthusian بصورة أكثر تواترا.

وعلى الرغم من أن إثبات صحة نظرية مالثوس قد يكون ممارسة لا طائل منها، فإن رؤيته الكونية العامة تتناسب بشكل جيد مع مفهوم براكن لفقدان المتسّع في أوراسيا. إن المدن العملاقة المزدهمة، التي تعاني سوء الأحوال المعيشية، وتعرض لارتفاع في أسعار السلع الأساسية بصفة دورية، ونقص المياه، والخدمات البلدية غير المستجيبة، ستعمل بمنزلة أطباق بتري petri dishes خصبة لانتشار كل من الديموقراطية والتطرف، حتى مع تسلّح الأنظمة على نحو متزايد بالصواريخ والجيوش الحديثة ذات التوجه الخارجي.

سوف تكون المدينة العملاقة megacity في القلب من جغرافية القرن الحادي والعشرين. هناك بالفعل خمس وعشرون مدينة في العالم يبلغ عدد سكانها أكثر من عشرة ملايين نسمة، وسيرتفع هذا العدد إلى أربعين بحلول العام 2015، وجميعها باستثناء اثنتين في العالم الثالث السابق. تتقدم القائمة مدينة طوكيو الكبرى بسكانها البالغ عددهم 35 مليونا؛ فيما تتذيلها لاغوس بما يقرب من 12 مليون نسمة، في حين تقع ثلاث عشرة مدينة من الخمس والعشرين في جنوب أو شرق آسيا. إن كراتشي، وطهران، وإسطنبول، والقاهرة هي المدن العملاقة الواقعة في الشرق الأوسط الكبير.

«أزمة المتنّع»

وتتمثل الحقيقة الأساسية في أن هناك العديد من المدن في العالم الثالث السابق والتي غابت بفارق طفيف عن تلك القائمة، وأن أكثر من نصف البشرية تعيش الآن تحت ظروف مدينية، وهي حقيقة إحصائية سترتفع إلى الثلث بحلول العام 2025. هناك 468 مدينة في العالم يتجاوز عدد سكانها المليون، وسيكون كل النمو الحضري المستقبلي تقريباً في البلدان النامية، وبالتحديد في آسيا وأفريقيا. نحن نعيش في عصر تعيش فيه نسبة كبيرة من الناس في ظل ظروف بالغة السوء؛ أما في زمن ماكيندر، في مطلع القرن العشرين، فلم يكن سوى 14 في المائة من البشر يقطنون المدن.

وكما أشرت إليه، فقد كتب ابن خلدون في مقدمته، أو «مقدمة» تاريخ العالم، أن بدو الصحراء، في سبيل تطلعهم إلى وسائل الراحة المادية للحياة المستقرة، صنعوا الدينامية الأصلية للتمدّن، والتي التقطها الحكام والأسرات الحاكمة القوية، الأمر الذي سمح بدوره، من خلال توفير الأمن، للمدن بأن تزدهر. ولكن لأن السلطة تتطلب الرفاهية، فإن الفساد يحل في نهاية المطاف، مع تقويض التكافل الجماعي، في حين يعمل الأفراد - من خلال تكديس الثروة والنفوذ - على إضعاف السلطة التنفيذية. وهكذا، تصبح الأنظمة هشة، ومن ثم تتفتت وتحل محلها تشكيلات أخرى⁽⁹⁾. وللمرة الأولى في التاريخ، فإن هذه العملية تعمل الآن على نطاق عالمي. لقد نشأ عديد من المدن الواسعة والمدن العملاقة مع هجرة سكان الريف في جميع أنحاء أوراسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية باتجاه المراكز الحضرية مبتعدين عن الأرياف المتخلفة. ونتيجة لذلك، فإن قدرة رؤساء بلديات وحكام هذه التجمعات السكانية على حُكمها بشكل فعال من نقطة تحكم مركزية قد تضاءلت أكثر فأكثر: وبالتالي فإن هذه التجمعات المترامية الأطراف تتفتت بصورة غير رسمية إلى عديد من الضواحي ووحدات المساعدة الذاتية للأحياء، والتي غالباً ما يتحرك قادتها المحليون بدافع من المثل والأيدولوجيات التي تنشأ من بعيد، عن طريق تقنيات الاتصالات الإلكترونية. إن الإسلام المتطرف يمثل، في جزء منه، قصة التمدّن على مدى نصف القرن الماضي عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط الكبير. إن التمدّن مسؤول أيضاً عن إفراز المتظاهرين التقدميين من أجل الديمقراطية الذين أطاحوا بعديد من الأنظمة العربية في العام 2011. لننس

صورة العرب كبدو رحّل أو من سكان الواحات الواقعة في السهوب الصحراوية، فمعظمهم من سكان المدن، بل والمدن المزدحمة والمتهالكة في الأغلب، كما يحس بالارتياح ضمن الحشود الهائلة. إن الخاصية اللاشخصية للغاية التي تميّز الحياة الحضرية، التي تُعاش بين الغرباء، هي السبب في تزايد حدة الشعور الديني. في القرية القديمة، كان الدين امتدادا طبيعيا للتقاليد اليومية ولروتين الحياة بين أفراد الأسرة الممتدة؛ لكن الهجرات إلى المدينة واجهت المسلمين بضياغ الهوية المتأصل في العيش في الأحياء الفقيرة، وللحفاظ على تماسك الأسرة ووقاية الشباب من الانجراف إلى الجريمة، كان لا بد أن تُعاد صياغة الدين في شكل أشد وضوحا وأكثر أيديولوجية. وبهذه الطريقة تصبح الدول أضعف أمام، أو على الأقل تضطر إلى إفساح المجال إلى حد ما، لأنواع جديدة ومتطرفة في بعض الأحيان من القومية والتدين التي يعززها التمدّن. وهكذا، تترسخ مجتمعات جديدة تتجاوز الجغرافيا التقليدية، حتى إنها تشكّل أنماطا مكانية خاصة بها. كثيرا ما تحدث التغيرات الكبرى في التاريخ على نحو غير ملحوظ⁽¹⁰⁾.

إن أوراسيا وشمال أفريقيا التي تضم كثيرا من التجمعات الحضرية الشاسعة، ونطاقات الصواريخ المتداخلة، ووسائل الإعلام العالمية المثيرة ستكون باستمرار موطننا للحشود الغاضبة، والتي تغذيها الإشاعات وأنصاف الحقائق التي تنقل بسرعة الضوء عبر القنوات الفضائية في جميع أرجاء الأراضي المحيطة وفسحة المنطقة المركزية، من إحدى مدن العالم الثالث إلى الأخرى. وعلى العكس من ذلك، فإن الحشود، المسلّحة بوسائل الإعلام الاجتماعية مثل تويتر والفيسبوك، ستتغذى على الحقيقة نفسها التي أنكرها الحكام المستبدون. ستمثل هذه الحشود عنصرا رئيسا في حقبة جديدة تُظلم فيها خريطة التضاريس بفعل المدن الكبرى المكتظة بسكانها - وأعني بالحشود هنا مجموعة كبيرة من الناس الذين يتخلون عن فرديتهم لمصلحة رمز جماعي مُفقد للصواب. ومن جانبه، فقد كان إلياس كانيتي Canetti، اليهودي البلغاري الإسباني المولد والحائز جائزة نوبل في الأدب، مذهولا ومفروعا من عنف الغوغاء بسبب التضخم، والذي انتشر في مدينتي فرانكفورت وقيينا ما بين الحربين العالميتين، لدرجة أنه كرس جزءا كبيرا من حياته لدراسة «القطيع البشري» human herd في جميع مظاهره. كانت الفكرة المُلهمة لكتابه المعنون «الحشود

والقوة»، والمنشور في العام 1960، هي أننا جميعاً نتوق إلى أن نوجد ضمن نوع ما من الحشود، لأنه داخل الحشد - أو مجموعة من الغوغاء، من وجهة النظر هذه - هناك ملجأ من الخطر، وعن طريق الاستدلال، من الشعور بالوحدة. إن القومية والتطرف، والتوق إلى الديمقراطية كلها نواتج لتشكل الحشود، وبالتالي تمثل مظاهر للسعي إلى الهروب من الوحدة Loneliness. إن الشعور بالوحدة، الذي تخفف حدته عن طريق تويتر والفيسبوك، هو ما يؤدي في النهاية إلى انهيار السلطة التقليدية وإقامة أنواع جديدة من السلطة.

يمثل الشعور بالوحدة سمة خاصة بالعيش في المناطق الحضرية، التي تتسم بكثرة الغرباء وبالندرة النسبية للأهل والأصدقاء الحقيقيين. وبالتالي فإن الجغرافيا الحضرية الجديدة في العالم الثالث السابق في القرن الحادي والعشرين ستشكل خريطة من الشوق الشخصي الانفعالي. وفي الواقع أن تصوير جورج أورويل Orwell للطغيان يعتمد إلى حد كبير على النزعة الإنسانية، مهما حاولوا إنكار ذلك، لمبادلة الحرية الفردية بالحماية المطوّقة والاتصال الحميم الذي توفره المجموعة. وكما قالت إحدى شخصيات رواية أورويل، التي تحمل اسم «1984»: «عليك أن تصيح دائماً مع الجماهير، هذا ما أقوله. إنها الطريقة الوحيدة لأن تكون آمناً»⁽¹¹⁾. وبالفعل، فإن شبكة الإنترنت، كما يوضح الروائي توماس بينشون Pynchon، توفر الحماية التي يمثلها الحشد الافتراضي، وبالتالي فهي «تعدّ بفرض الرقابة الاجتماعية على نطاق لم يكن في وسع الطغاة العتيقي الطراز من القرن العشرين مع شواربهم الخرقاء سوى أن يحلموا به»⁽¹²⁾. وفي الوقت نفسه، تضخم وسائل الإعلام الوجود، والغضب، والنشوة، والفضيلة - حسب مقتضى الحال - الذي تحتويه اللحظة الحالية، سواء كان ذلك خيراً أم شراً. وبعبارة أخرى، فإن السياسة في عصر وسائل الإعلام الجماهيرية ستكون أشد حدة من أي شيء شهدناه، لأنها ستعمل على طمس الماضي والمستقبل معاً.

كان علم نفس الحشود crowd psychology، كما حلت محله التكنولوجيا، فاعلاً في انتخاب باراك أوباما Obama وفي حركة البيع المذعورة لأسهم وول ستريت في العام 2008؛ كما كان فاعلاً في المذابح المعادية للمسلمين في ولاية غوجارات الهندية في العام 2002، وفي المظاهرات الجماهيرية الحاشدة في أوروبا

ضد الغزو الأمريكي للعراق في العام 2003، وفي كل من المظاهرات المؤيدة والمناهضة للنظام في إيران في العام 2009 و 2010، وفي المسيرات الشعبوية الضخمة ضد الحكومة التايلندية في بانكوك خلال الفترة الزمنية نفسها، وكذلك بصورة متوطنة في المظاهرات المعادية لإسرائيل في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ وبطبيعة الحال، في سنة الثورة في الشرق الأوسط - أي في العام 2011، على الرغم من أن ثورات الربيع العربي قد نادت بحرمة الفرد في أثناء مهاجمة قوات الحكام المستبدین الذين سلبوا من الأفراد كرامتهم. وسيُظهر علم نفس الحشود أعظم آثاره الجيوسياسية في المدن الكبرى لآسيا وأوروبا بالدرجة الأولى. وتتسم الأفكار بأهميتها، كما ينادي به الإنسانیون الليبرالیون والمعادون لمبدأ الحتمية، كما أن انضغاط الجغرافيا نفسه هو ما يوفر الظروف المثلى لظهور أيديولوجيات جديدة وخطيرة - وكذلك لانتشار أفكار الديمقراطية democratizing السليمة. أما التعليم الجماهيري، ولأنه ينتج أفواجا من الأشخاص السيئي التعليم والمتحررين من الجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر)، فسوف يُسهم في زيادة عدم الاستقرار. وسيكون نقص المتسع هو العامل الرئيسي في ذلك. يتحول المأوى النفسي للهوية القومية بشكل متزايد إلى المدينة وليس إلى الطبيعة الريفية المثالية، كما كان عليه في الماضي، على الرغم من أن الحشود في المناطق الحضرية ستطالب حكوماتهم في بعض الأحيان بانتهاج سياسات خارجية اشتراكية متطرفة maximalist بناء على تلك التضاريس المثالية نفسها.

وستؤدي وسائل الإعلام دورا حاسما في هذه العملية؛ فكما كتب أوزوالد شبنغلر في كتابه «تراجع الغرب» The Decline of the West، «لم يتمكن أي مروض من التحكم في حيواناته» بأكثر منها (أي وسائل الإعلام)، ويضيف قائلا:

أطلق العنان للشعب كقطيع من القراء، وسيندفعون عبر الشوارع وسيلقون بأنفسهم على الهدف المحدد... لا يمكن تصوّر مبالغة كاريكاتيرية لحرية الفكر أكثر ترويعا من هذه. ففي السابق، لم يكن رجل ما يجرؤ على التفكير بحرية؛ أما الآن فهو يجرؤ على ذلك، لكنه لا يستطيع؛ فإرادته للتفكير ليست سوى استعداد للتفكير وفقا لما يمليه النظام، وهذا هو ما يشعر بأنه يمثل حرّيته⁽¹³⁾.

كان شبنغلر مفرطاً في التشاؤم والسخرية. ومع ذلك، لنذكر أن الكراهية التي كان السوفييت والأمريكيون يكتونها بعضهم لبعض كانت باردة ومجردة، ومن دون أساس عنصري، لكونه يفصل بينهم محيطان وسهول التوندرا في القطب الشمالي، وفي وقت كانت فيه تكنولوجيا الاتصالات في سن مبكرة. لكن شاشات التلفاز الرقمية المسطحة الكبيرة في الحاضر والمستقبل (والتي، مثل التي تعرض قناة CNN في المطارات، لا يمكنك إيقافها!) تجعل كل شيء قريباً وشخصياً على نحو متزايد. هنا، مرة أخرى، تظهر روح براكن:

إن ما يجده الغربيون صعوبة في فهمه هو شدة المشاعر التي يضيفها الآسيويون [والشرق أوسطيون] على تلك النزاعات الدينية والعرقية. من الممكن أن تنتشر الاضطرابات الداخلية بسرعة عبر أقاليم بأكملها، تُذكي أوارها وسائل الإعلام التي تصل إلى ما وراء الحدود والمنطق السياسي الذي يبحث عن كبش فداء خارجي للمشاكل المحلية. وبعد ذلك، فمن الممكن أن ينحشر القادة الوطنيون في زاوية خطابية - وهي مكان خطر بالنسبة إلى شعوب تمتلك قنابل ذرية تحت تصرفها⁽¹⁴⁾.

يحذر براكن من تعرّض النزاعات القومية «لإستخفاف خطير» من قبل المراقبين الغربيين، الذين يرون أنها جزء من ماضٍ منحسر يجعلنا التقدم الاقتصادي والاجتماعي نتجاوزه. «إن أهم قضايا القرن الحادي والعشرين هي فهم كيف تندمج النزاعات القومية مع التقنيات الهدامة الحديثة الظهور في آسيا». وكما قلت، فإن القوى النووية الجديدة، مثل باكستان، والهند، والصين، سيكون لديها سكان من الطبقتين الفقيرة والمتوسطة الدنيا، وسيحرّض هذا نزعة قومية مستاءة وسريعة الاحتياج في عصر ليست الرموز العسكرية الجديدة فيه جيوشاً، ولكن صواريخ وأسلحة نووية - وهي أحدث الأهداف المعتقدية للحشود⁽¹⁵⁾.

وعلى رغم أن امتلاك الصواريخ كمقتنيات تدعو إلى الفخر سيعزز النزعة القومية، ومن ثم القوة في بعض الدول، مما يجعل النزعة الوطنية أشد قوة، فإن السيكولوجيات الجماعية التي تقوم - بمساعدة من وسائل الإعلام - بتوحيد مختلف الجماعات العرقية والدينية، والطائفية، وكذلك الجماعات المكرسة للأمم الديمقراطية، ستقلّص قوة الدول الأخرى. وفي الوقت نفسه، فإن بعض الدول ستفقد

المعركة ضد العولمة ببطء، ولكن من دون هواده، مع تآكل قدراتها البيروقراطية بفعل الحروب المستمرة منذ فترة طويلة، وتحركات اللاجئين المصاحبة لها، والمهمة الشاقة المتمثلة في إدارة المدن الكبرى ذات الخدمات الحضرية الرديئة. وخلاصة القول أنه مع تقلص خريطة أوراسيا بفضل التكنولوجيا والنمو السكاني، فإن الحدود الجغرافية المصطنعة ستبدأ في التهاوي بداخلها.

إن فهم خريطة القرن الحادي والعشرين يعني قبول بعض التناقضات الخطيرة؛ ففي حين صارت بعض الدول أقوى عسكرياً، كونها تمتلك أسلحة الدمار الشامل، فإن البعض الآخر، خاصة في منطقة الشرق الأوسط الكبير، يعترها الضعف: فهي تفرخ جيوشاً لا نظامية مقيّدة بمناطق جغرافية محددة، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من تقاليد ثقافية ودينية، وبالتالي فهي تقاتل على نحو أفضل مما يمكن للجيوش النظامية أن تفعل في المنطقة نفسها. إن حزب الله في جنوب لبنان، وحمور التاميل السابقين في شمال سريلانكا، والناكساليين Naxalites الماويين في شرق ووسط الهند، ومختلف التجمعات القبلية من الباشتون الموالين لطالبان وغيرهم في شمال غرب باكستان، وطالبان نفسها في أفغانستان، وذلك الكم الكبير من الميليشيات العراقية، وخصوصاً خلال الحرب الأهلية التي دارت رحاها ما بين عامي 2006-2007، تعد جميعها أمثلة على القوات البرية اللانظامية التي تعمل ضمن أراض محددة. وفي زمن يمكن فيه للصواريخ الدقيقة التوجيه أن تدمر منزلاً محدداً على بُعد مئات الأميال، مع ترك المنزل المجاور سليماً على نحو متعمد، في وسع مجموعات صغيرة من الجنود غير النظاميين الذين يرتدون العمامات استخدام الطرق المتعرجة لمنطقة جبلية معقدة لإرباك قوة عظمى. في الحالة الأخيرة، يبدو انتقام الجغرافيا واضحاً؛ ولكن في الحالة الأولى، أيضاً، لا بد أن هذه الصواريخ قد أطلقت من مكان ما، الأمر الذي يتطلب قاعدة برية أو بحرية، مما يعود بنا إلى الجغرافيا، ولو إلى نوع أقل حميمية وتقليدية منها. بالنسبة إلى سيبكمان، تمتلك الأرض المحيطة المطلة على المحيط الهندي أهمية حاسمة بالنسبة إلى موضعة السفن الحربية الأمريكية، بصواريخها الموجهة إلى أعماق إيران وأفغانستان، وهما اثنتان من دول المنطقة المركزية، في حين أن الأخيرة منهما تمزقها الصراعات القبلية، كما كانت الحال في زمن الإسكندر الأكبر.

تتعايش مفاهيم سبيكمان وماكيندر التي تعود إلى أوائل القرن العشرين مع تلك التي سادت في العصور القديمة، وجميعها وثيقة الصلة بعصرنا الحالي.

أدى العبء المتمثل في حكم التجمعات الحضرية الفقيرة والشاسعة إلى جعل إدارة الدول أكثر إرهاقا مما كانت عليه في أي وقت مضى عبر التاريخ؛ فكان سببا في انهيار الديكتاتوريات المتصلبة، فضلا عن إضعاف الديموقراطيات الفتية. تمتلك دولة مثل باكستان أسلحة للدمار الشامل، على الرغم من أنها لا تستطيع إلا بصعوبة توفير الخدمات البلدية وحماية سكانها من المفجرين الانتحاريين؛ كما أن هناك دولا مثل نيجيريا واليمن والصومال، على سبيل المثال لا الحصر، تتسم بكونها بالكاد تعمل، إضافة إلى كونها محاصرة بالمليشيات اللانظامية. وقد انخرط الفلسطينيون، خصوصا في قطاع غزة، في أعمال العنف كوسيلة للاحتجاج على حالتهم، على الرغم من أنهم تجنبوا تقديم التنازلات المطلوبة لإقامة دولة فلسطينية. وينطبق الشيء نفسه على حزب الله في لبنان، الذي كان في وسعه الإطاحة بالحكومة في بيروت وقتما شاء، لكنه اختار عدم القيام بذلك. يتعين على أي دولة أن تلتزم بقواعد معينة، وبالتالي تُصبح هدفا أسهل. وبالتالي فنحن أمام ظاهرة جديدة في هذا العصر الذي تميّزه المدن العملاقة ووسائل الإعلام: وهي سلطة انعدام الجنسية *statelessness*.

وكما كتب جاكوب غريجل Grygiel، وهو أستاذ مشارك في جامعة جونز هوبكنز «إن الدولة تمثل عبئا»، وبالتالي فإن هذه الجماعات اللانظامية «تسعى إلى السلطة من دون تولي مسؤولية الحكم». تسمح وسائل الاتصالات والتقنيات العسكرية الحديثة لهذه الجماعات بأن تنظم صفوفها، وبأن تطلب المساعدة من الخارج، وتسليح نفسها بالأسلحة الفتاكة بحيث لم تعد الدولة تمتلك احتكارا للعنف. وكما ذكرت في موضع سابق، ففي حين أن الثورة الصناعية كانت تتعلق بضخامة الحجم (الطائرات، والدبابات، وحاملات الطائرات، والسكك الحديدية والمصانع، وهلم جرا) فإن حقبة ما بعد الثورة الصناعية تتعلق بصغر الحجم - كالقنابل المصغرة والمتفجرات البلاستيكية، والتي لا يتطلب نشرها مساحة كبيرة من الأرض كتلك التي تمتلكها الدولة. أما المجموعات عديمة الجنسية الصغيرة فهي المستفيدة من هذا العصر التكنولوجي الجديد. وفي الواقع، هناك مزيد ومزيد من الأسباب لعدم الانتماء إلى دولة ما. وكما كتب غريجل:

فكلما ازدادت قدرة الدول على تدمير بعضها البعض، وخصوصا القوى العظمى، زادت خطورة امتلاك دولة، خصوصا بالنسبة إلى الجماعات التي يتمثل هدفها في تحدي القوى القائمة⁽¹⁶⁾.

ويستطرد قائلا إن الدولة تمثل خيارا غير ملائم، بالنسبة إلى أولئك الذين يمتلكون أهدافا مُطلقية absolutist مستوحاة من الحماسة الدينية أو التطرف الأيديولوجي الذي لا يمكن أبدا أن يتحقق في وجود دولة رسمية. إن الهجرة الجماعية إلى الأحياء الفقيرة في عصرنا الحالي، ومن خلال قطع الصلة مع الريف التقليدي، قد ساعدت في عملية التحول إلى التطرف هذه عبر رقعة واسعة من الأرض المحيطة الجنوبية لأوراسيا. أما وسائل الإعلام، التي تمتلك هذه الجماعات وصولا ميسورا إليها، فتقوم بالترويج الإعلامي لمطالبها وفي أثناء ذلك تعزيز هوياتها أكثر فأكثر، مما يؤدي إلى تشكيل قطعان من الحشود المؤلفة من زملائهم المفكرين الذين لا تتحدد هوياتهم بالضرورة بولاءاتهم لدولة ما. وخلاصة القول أننا إذا تراجعنا لحظة لتدبر الوضع الحالي، فسنجد أمامنا خريطة لأوراسيا المؤلفة من منطقة واحدة ضخمة بدلا من تلك التقسيمات الصغيرة لأقاليم الحرب الباردة التي اعتدناها. بيد أن هذه الخريطة محملة فوق طاقتها بعقد التواصل والاتصالات التي لم تكن قائمة أبدا أو كانت موجودة بالكاد من قبل: فبالإضافة إلى المدن الممتدة، ونطاقات الصواريخ المتداخلة، والأيديولوجيات التي يتردد صداها عبر وسائل الإعلام، ستكون لدينا طرق وموانئ جديدة وخطوط لأنابيب الطاقة، والتي تربط الشرق الأوسط وآسيا الوسطى ببقية أوراسيا من روسيا إلى المحيط الهندي إلى الصين. ومع تكديس الحضارات بصورة مكتظة واحدة مقابل الأخرى، وكون وسائل الإعلام أداة للانتهاكات اللفظية المستمرة، إضافة إلى الضغط الشعبي من قبل الجماعات المضطهدة، فإن الحاجة إلى ديبلوماسية هادئة تعمل من وراء الستار ستزداد يوما بعد يوم. ستفضي الأزمة إلى تلك التي تليها، وستكون هناك حاجة دائمة إلى أن يهدأ الجميع. وبسبب تماسك الخريطة وانكماشها، فإن مفاهيم مثل «المنطقة المركزية» و«الأرض المحيطة» والمناطق «الهامشية»، والتي تشير ضمنا إلى تقسيم أفقي يفصلها إلى أجزاء مكونة كبيرة، ستكون أقل أهمية من ناحية ما، ولكن من الجانب الآخر ستكون مفعمة بالنتائج بسبب التفاعلات الدائمة بين هذه المجالات: إن ساعة يد، أو رقاقة حاسوبية

من وجهة النظر هذه، ليست أقل تعقيدا بسبب حجمها، ولكي نفهم كيف تعمل الساعة أو الرقاقة الحاسوبية لايزال ينبغي على المرء تفكيكها إلى مكوناتها ليرى كيف يؤثر أحد أجزائها في الأجزاء الأخرى. إن الطائرة، وشبكة الإنترنت، وتركز السياسة في المدن الشاسعة التي تبدو أكثر وأكثر شبيهة بعضها ببعض ستعمل، من دون ريب، على تقليص أهمية خريطة التضاريس. وبالفعل، فإن لسانية orality الإنترنت نفسها تمتلك طريقة لتحويل المعارك الإقليمية إلى معارك فكرية (وهو من أسباب أن النزعة الإنسانية لأشعيا برلين أمر سنكون في حاجة ماسة إلى التمسك به). ولكن مع ازدياد ضعف الدول أنفسها، بغض النظر عن مدى جودة تسليحها، وبالتحديد بسبب الكيفية التي صارت بها الديمقراطية والفضاء الإلكتروني موازية للقوات من دون الوطنية subnational وفوق الوطنية supranational، فإن الأقاليم الأصغر حجما ستظهر بصورة أكثر جرأة، كما فعلت خلال العصور الوسطى بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية.

ومع ذلك فنحن نعيش الآن في «النظام السياسي المغلق» الذي تصوره ماكيندر والذي، كما أشار إليه براكن، قد ازداد انغلاقا بكثير خلال القرن العشرين، كما أن الخريطة تخضع بدورها لقانون الإنتروبيا (الاعتلاج entropy)، والذي يعني أن حالة من التوازن ستسود في نهاية المطاف، في حين أن جميع الموائل البشرية الموجودة على خريطة التضاريس - وليس المدن العملاقة فحسب - ستبدو شبيهة بعضها ببعض على نحو متزايد، كما ستخضع لأهواء مماثلة. أما النتيجة، وفقا لأستاذ العلوم السياسية بجامعة ولاية أوهايو، راندال ل. شويلر Schweller، فهي أن «نوعا من الملل العالمي سينتج، من جراء فرط الاستثارة»، والمختلط بجرعة كبيرة على نحو مقلق من التطرف الفردي والمواقف العقائدية التي تتخذها الدول⁽¹⁷⁾. وبعبارة أخرى، فإن العالم سيكون مملا، وفي الوقت نفسه أكثر خطورة من أي وقت مضى. ولكن قبل أن يحل الضجر بالكامل، ستكون هناك اضطرابات وتحولات في القوى وتطورات جيوسياسية طبيعية، والتي يمكن وصفها عمليا بالرجوع إلى خريطة التضاريس.

وقد حان الوقت الآن لأن نستكشف بتعمق عدة مناطق مختلفة من العالم، مع التركيز بشكل خاص على القارة الفائقة لأوراسيا، واضعين في اعتبارنا كل ما تعلمناه

من هؤلاء المؤرخين، وخبراء الجغرافيا السياسية، وغيرهم من المفكرين. وفي الفصول التالية، سأحاول أن ألتزم بمدركاتهم وكذلك بنظرياتهم. سأكتب عن أوروبا، التي تقع بالقرب من المنطقة المركزية لماكيندر وتتأثر بها؛ وعن روسيا، وهي المنطقة المركزية ذاتها لماكيندر؛ وعن الصين، التي قد تهيمن في العقود المقبلة على جزء من المنطقة المركزية وجزء من الأرض المحيطة التي تصورها سبيكمان؛ وعن شبه القارة الهندية، التي تشكل المنطقة الرئيسية للأرض المحيطة؛ وإيران، حيث تلتقي المنطقة المركزية والأرض المحيطة بالفعل؛ وعن الشرق الأوسط التركي والعربي، والذي يمثل ويكومين هودجسون تقريبا؛ وأخيرا عن أمريكا الشمالية، وهي الأكبر من بين التوابع القارية continental satellites التي تصورها ماكيندر، والتي ستتحدى أوراسيا والجزيرة العالمية. سأحاول ألا أضع التنبؤات، وإنما أن أصف الجغرافيا من حيث تأثيرها في التاريخ، من أجل تكوين فكرة عما قد يحمله المستقبل.

الجزء الثاني
خريطة أوائل القرن الحادي والعشرين

جغرافية التقسيمات الأوروبية

عندما يتعلق الأمر بالجغرافيا السياسية المعاصرة، بكل اضطرابات وتطوراتها المتكررة، ينصبُّ التركيز بطبيعة الحال على أفرو - آسيا، من الشرق الأوسط إلى الصين. يميل التوجه إلى استبعاد أوروبا من المعادلة، وذلك باختزالها - كما يحدث في كثير من الأحيان - إلى أي قصة مالية. لكن هذا خطأ؛ فعدد سكان الاتحاد الأوروبي يبلغ 500 مليون نسمة، وبالتالي فهو ثالث أكبر عدد سكان في العالم بعد الصين والهند. كما يزيد حجم اقتصاد الاتحاد الأوروبي بنحو 16 تريليون دولار عن نظيره في الولايات المتحدة. ومن طرفها الغربي، تواجه أوروبا قلب أمريكا الشمالية، كما تبعد عن المخروط الجنوبي لأمريكا الجنوبية بُعد الولايات المتحدة نفسه. أما من طرفها الشرقي، فتطل أوروبا على أفرو - أوراسيا. تقع أوروبا في

«تعيش أوروبا بالتأكيد في طور التقلص ديموغرافيا بفعل بقية بلدان آسيا وأفريقيا، وحتى الشعوب الأوروبية أنفسهم أصبحت تضم أعدادا أكبر من مواطني أفريقيا والشرق الأوسط»

المؤلف

القلب من نصف الكرة الأرضية الشرقي أو «البري»، على مسافة واحدة بين الشرق الأقصى الروسي وجنوب أفريقيا⁽¹⁾. وفي الواقع، فإن تفسيرنا الجغرافي للسياسة العالمية ينبغي أن يبدأ بأوروبا. إن وجهة نظر كل من ماكيندر، وسبيكمان، ومورغنثاو، وبعض المفكرين الآخرين الذين تناولناهم، هي في جزء كبير منها أوروبية.

وبالتالي، لكي نتعرف على الكيفية التي تطوّر بها العالم منذ أيامهم، من المفيد أن نبدأ من حيث بدأوا. وعلى الرغم من أنه من الواضح أن مارشال هودجسون Hodgson كان مُحققاً من حيث منح الأولوية لويكومين الشرق الأدنى، فستشكل هذه المنطقة واحدة من المحطات النهائية لرحلتنا، وبالتالي فليس بنا حاجة إلى أن نبدأ بها. لا داعي للقلق، فسوف تقودنا أوروبا بطبيعة الحال إلى التدبر الجغرافي لروسيا والصين وشبه القارة الهندية، والشرق الأوسط الكبير. ولفهم الجغرافيا السياسية في القرن الحادي والعشرين، يجب أن نبدأ بالقرن العشرين، وهذا يعني أن نبدأ بأوروبا. إن أوروبا، كما أخبرنا ماكيندر، قد تشكّل مصيرها بفعل تدفق القبائل الرحالة hordes الآسيوية. وبالفعل، فحتى في القرن الحادي والعشرين، ستستمر أوروبا في التأثير على نحو محوري بعلاقاتها مع الشرق، وخاصة مع روسيا. إن الدرجة التي يمكن بها لأوروبا الوسطى والشرقية أن تشكّل حزاماً من الدول المزدهرة والمستقرة المنبعثة من رماد الشيوعية سيكون لها تأثير كبير في حماية أوروبا من روسيا، وأثناء هذه العملية، المتمثلة في تحويل حلم إحياء أوروبا الوسطى Mitteleuropa إلى واقع ملموس: وهو حلم يتشاركه المثقفون الليبراليون بالفعل مع ماكيندر.

ومع ذلك، فإن أوروبا، وبالتحديد بسبب سعيها إلى تحقيق وحدة أوسع وأعمق، ستستمر أيضاً في المعاناة من انقساماتها الداخلية الخاصة، والتي، على الرغم من الشكل الاقتصادي الذي تُظهره هذه الانشقاقات حالياً على السطح - كما هي الحال مع الغضب الألماني بسبب أزمة الديون اليونانية - هي في الحقيقة تمثل التعبيرات الخالدة للجغرافيا: بمعنى أنها أنماط التنمية المختلفة بين ألمانيا في شمال أوروبا واليونان في أوروبا البحر المتوسط والبلقان. من المؤكد أن أوروبا ستري أن تاريخها يتشابك على نحو متزايد مع أفريقيا إلى الجنوب وآسيا إلى الشرق، الأمر الذي يعود في معظمه إلى الطريقة التي تسهّل بها التكنولوجيا حركة الشعوب. ولكن، وفي الوقت نفسه، فلن تُحرم أوروبا من تنوعها الداخلي. وبعبارة أخرى، فإن حقيقة كون أوروبا لا تواجه في الوقت الراهن أي تهديد عسكري تقليدي قد يتركها فريسة لرجسية الاختلافات

الصغيرة. وهذا الأمر، بدوره، يمكن أن يجعل مخاوف سبيكمان حول تحدي أوروبا الموحدة للولايات المتحدة أمرا سابقا لأوانه.

إن التعقيد المبهج لجغرافية أوروبا، مع ثرائها في كل من البحار، وأشباه الجزر، ووديان الأنهار، وسلاسل الجبال، والتي ساعدت في تشكيل مجموعات لغوية مختلفة ودول قومية منفصلة، والتي ستواصل المساهمة في الانقسامات السياسية والاقتصادية خلال السنوات المقبلة، على الرغم من المؤسسات المتعلقة بعموم أوروبا. إن أوروبا، كما تشير إليه الخريطة، سيكون لها مستقبل كبير في عناوين الصحف.

كذلك فإن أوروبا، على حد تعبير عالم الآثار بجامعة أكسفورد، باري كونليف Cunliffe، هي «الزائدة الغربية» لقارة آسيا، باعتبارها شبه جزيرة واسعة النطاق تمكنت من الهيمنة على السياسة العالمية في أثناء الألفية الثانية للميلاد. وقد فرضت الجغرافيا هذا، كما أخبرنا ماكنيل، كما أسهب كونليف في شرح فرضية ماكنيل. تقع أوروبا في منطقة بيئية ecozone «متجانسة» بين الصحاري الأفريقية والصفائح الجليدية للقطب الشمالي، مع مناخ يلطفه تيار الخليج. كانت أوروبا غنية بالموارد، كالخشب والأحجار والمعادن، والفراء. والأمر الأكثر أهمية هو أن الخط الساحلي لأوروبا يتسم بكونه منحرفا ومتكسرا، تمتلئ نتوءاته بالعديد من الموانئ الطبيعية الجيدة، كما تكتظ بحارها بالجزر وأشباه الجزر. ويبلغ طول هذا الخط الساحلي 23 ألف كيلومتر - وهو طول ملحمي يساوي محيط كوكب الأرض. وفي الواقع، تمتلك أوروبا نسبة للخطوط الساحلية إلى المساحة تزيد على مثيلاتها في أي قارة أو شبه قارة أخرى⁽²⁾. وكذلك فإن حدود أوروبا تقع على ما لا يقل عن أربعة من البحار المغلقة وشبه المغلقة التي تعتصر شبه القارة، إذا جاز التعبير، إلى شبه جزيرة ضيقة نسيبا: البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، وبحر البلطيق، والبحار الشمالية، على الرغم من أن أوروبا تمتلك تضاريس نهريّة مواتية تتميز بالعديد من الطرق العابرة لشبه الجزيرة - نهر الراين، ونهر إلبه، وقبل كل شيء نهر الدانوب Danube. إن نهر الدانوب، كما تغنى به الإيطالي المتحمس لأوروبا الوسطى، كلاوديو ماغريس Magris، «يقرب الثقافة الألمانية، بحلمها المتمثل في ملحمة شعرية للروح، من الشرق، مما يمزجها مع الثقافات الأخرى في تحولات هجينة لا تُعد ولا تحصى»⁽³⁾. وهناك، أيضا، الفجوة المورافية Moravian Gap، وممر برينر، والسهل العريض الذي يمر عبر فرنسا إلى وادي الرون، والتي تعمل كممرات من أحد أجزاء أوروبا إلى الآخر.





مفتاح الخريطة:

Iceland	أيسلندا
Miles	أميال
Km	كلم
Atlantic ocean	المحيط الأطلسي
British isles	الجزر البريطانية
Ireland	أيرلندا
Irish Sea	البحر الأيرلندي
Great Britain	بريطانيا العظمى
English Channel	القنال الإنجليزي
North Sea	الشمال بحر
Elbe r.	نهر إلبه
Brussels	بروكسل
Aachen	آخن
Rhine river	نهر الراين
Germany	ألمانيا
Berlin	برلين
Danube river	نهر الدانوب
North European Plain	الشمالي السهل الأوروبي
Baltic Sea	بحر البلطيق
Scandinavia	إسكندنافيا
Russia	روسيا
Czech republic	جمهورية التشيك
France	فرنسا
Bay of Biscay	خليج بسكاي
Pyrenees	جبال الپرينيه
Rhone valley	وادي الرون
Rhone r.	نهر الرون
Alps	جبال الألب
Brenner pass	ممر برينر
Poland	بولندا
Moravian gap	الفجوة المورافية
Arctic circle	الدائرة القطبية الشمالية

جغرافية التقسيمات الأوروبية

Hungary	المجر (هنغاريا)
Balkans	البلقان
Adriatic sea	البحر الأدرياتيكي
Rome	روما
Spain	إسبانيا
Iberian peninsula	شبه جزيرة أيبيريا
Portugal	البرتغال
Lisbon	لشبونة
Strait of Gibraltar	مضيق جبل طارق
Italy	إيطاليا
Tyrrhenian sea	البحر التيراني
Warsaw	وارسو
Kosovo	كوسوفو
Strait of Sicily	مضيق صقلية
Mediterranean Sea	البحر الأبيض المتوسط
Ionian sea	البحر الأيوني
Greece	اليونان
Crete	كريت
Aegean sea	بحر إيجه
Caucasus	القوقاز
Black sea	الأسود البحر
Bulgaria	بلغاريا
Romania	رومانيا
Great Hungarian plain	السهل الهنغاري العظيم
Carpathian mts.	جبال الكاربات

إن هذا السطح البيئي البالغ التعقيد بين الأرض والمياه، وحقيقة كون أوروبا محمية من محيط شاسع - ومع ذلك يمكنها الوصول إليه بسهولة - أدت إلى دينامية وسهولة التنقل عبر البحر بين شعوب أوروبا، كما ساهمت في إيجاد مجموعة مكثفة من المشاهد الطبيعية داخل أوروبا نفسها. وقد أدى هذا، بدوره، إلى ظهور مجتمعات بشرية مختلفة على نحو لافت للنظر، وفي نهاية المطاف إلى اندلاع سياسة القوة: من الأثينيين، والإسبرطيين، والرومان، والإيبيريين، والفينيقيين، والسكيثيين المتحاربين وغيرهم

من أفراد القبائل البربرية الأخرى في العصور القديمة، إلى الصراعات بين الفرنسيين والألمان، والروس - وبين البروسيين، وآل هابسبورغ، والعثمانيين - في العصر الحديث. لكن على الرغم من هذه الانقسامات، فإن ممرا من الأراضي المنخفضة من المحيط الأطلسي إلى البحر الأسود، على سبيل المثال، سمح للمسافرين طوال قرون عدة بقطع المسافة عبر أوروبا في راحة نسبية، مما ساهم في تماسك أوروبا وشعورها بالتفوق الذاتي، كما يتضح باقتدار من نثر ماغريس⁽⁴⁾. وبالإضافة إلى ذلك، فإن حقيقة كون المسافات قصيرة داخل أوروبا كان عامل توحيد آخر: فالمسافة من لشبونة إلى وارسو، أي من إحدى نهايتي أوروبا إلى الأخرى، لا تزيد على 1500 ميل.

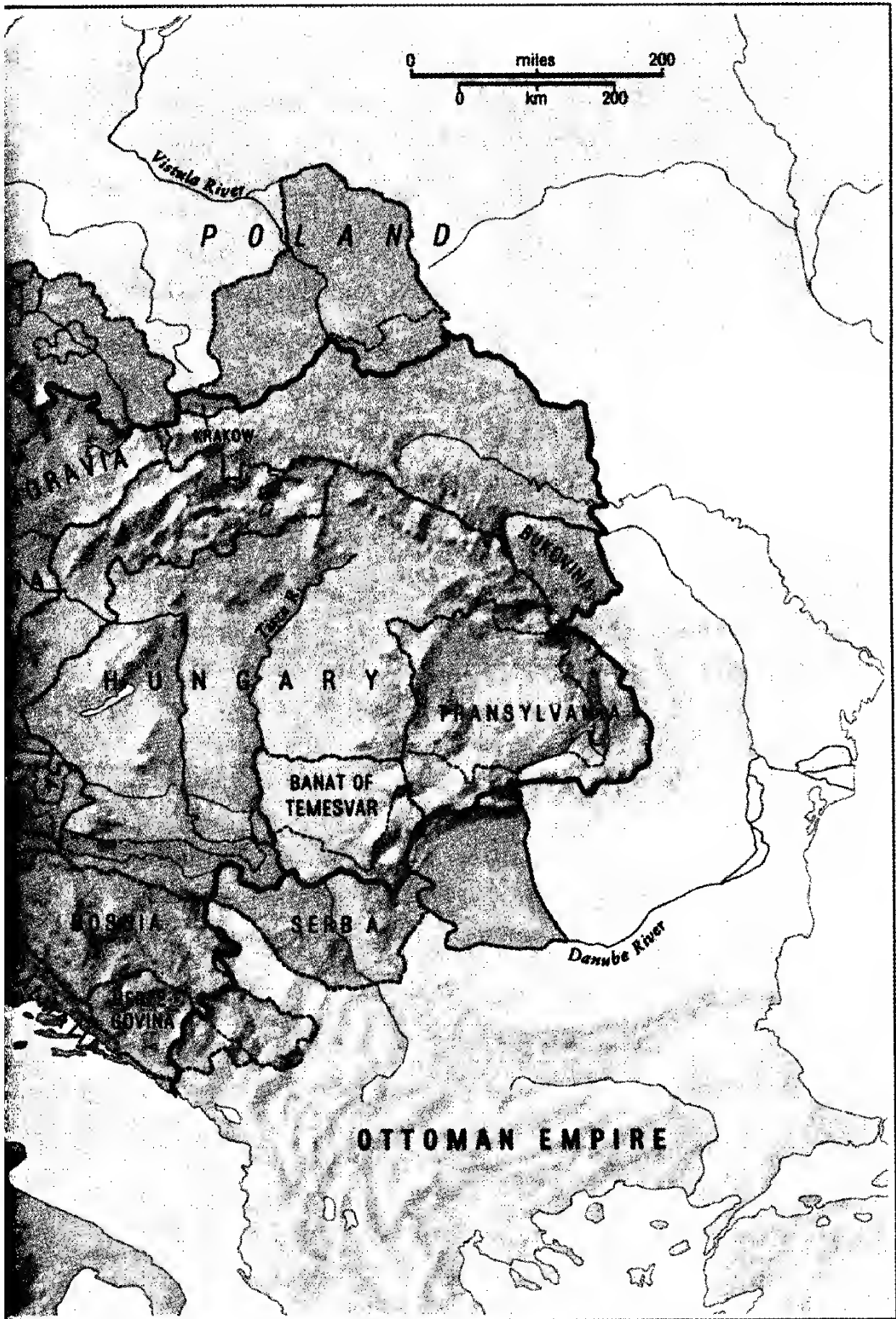
وبعبارة أخرى، فقد ساعدت الجغرافيا على التعرف على وجود فكرة تُدعى أوروبا، وهي التعبير الجغرافي عن الإنسانية الليبرالية عن طريق اندماج السيادة خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. بيد أن هذا الاتجاه المهدئ، فضلا عن كونه رد فعل لصراع عسكري مدمر طوال جميع العصور التاريخية، يمثل أيضا نتاجا لعدة قرون من النهضة المادية والفكرية. ومع ذلك فهناك، أيضا، عدة قارات أوروبية، والتي تقع أحيانا في صراع بعضها مع بعض. إن الانقسامات الاقتصادية التي نراها اليوم على شكل أزمة متعلقة بالعملية تمتلك، في الواقع، أساسا من العوامل التاريخية والجغرافية.

خلال السنوات السابقة والتالية مباشرة لانتهاء جدار برلين، كما رأينا في فصل سابق، احتفى المثقفون بمفهوم أوروبا الوسطى - أو بوسط أوروبا - باعتبارها منارة للتسامح المتعدد الأعراق والليبرالية التاريخية، والتي يمكن - بل ينبغي - أن تطمح لمحاكاتها بلدان البلقان المجاورة ومناطق العالم الثالث البعيدة عنها. لكن حقيقة الأمر هي أن القلب السياسي لأوروبا في القرن الحادي والعشرين يقع إلى الشمال الغربي قليلا من أوروبا الوسطى: فيبدأ من دول البنلوكس Benelux، ثم يتعرج إلى الجنوب بطول الحدود الفرنسية - الألمانية إلى تخوم جبال الألب. وتضم هذه المنطقة المفوضية الأوروبية وخدماتها المدنية في بروكسل، والمحكمة الأوروبية في لاهاي، وبلدة معاهدة ماستريخت، والبرلمان الأوروبي في ستراسبورغ، وهلم جرا. وفي الواقع، تقع كل هذه الأماكن عبر خط يمتد جنوبا من بحر الشمال «الذي شكل واسطة العقد والمسار الرئيسي لاتصالات المملكة الكارولنجية Carolingian monarchy في القرن التاسع»، كما أشار إليه الباحث الراحل توني جودت Judt، هو حجة في شؤون أوروبا الحديثة⁽⁵⁾. وليس من قبيل المصادفة حقيقة أن الدولة الأوروبية العظمى النامية في عصرنا الحالي تتركز في قلب أوروبا القرون الوسطى، حيث لاتزال عاصمة شارلمان Charlemagne

في آخن (إيكس لا شابيل) تقع في مركزها تماما. ليس هناك أي مكان آخر في القارة، وخصوصا بطول هذا العمود الفقري لحضارة العالم القديم، والذي يلتقي فيه البحر بالأرض في أوروبا يمثل هذا الثراء والعمق. وفي البلدان الواطئة، هناك انفتاح على المحيط العظيم، على الرغم من أن مدخل القنال الإنجليزي وسلسلة الجزر الهولندية تشكل حاجزا وقائيا مقيدا، بالنظر إلى أن هذه الدول الصغيرة تستفيد بدرجة غير متناسبة مع حجمها. وعند نهاية ساحل بحر الشمال هذا مباشرة، توجد ثروة من الأنهار والمجاري المائية المحمية، وكلها تعد بتسهيل التجارة، والحركة، وما يترتب على ذلك من التنمية السياسية. تتسم التربة الطفالية (اللوس: loess) الموجودة في شمال غرب أوروبا بكونها داكنة ومنتجة، حتى في الوقت الذي توفر فيه الغابات دفاعات طبيعية. وأخيرا، فإن المناخ البارد بين بحر الشمال وجبال الألب، أكثر بكثير مما فعل المناخ الدافئ في جنوبي جبال الألب، قد مثل تحديا كافيا لتحفيز التصميم البشري اعتبارا من العصر البرونزي المتأخر فصاعدا، حيث استقر الفرنجة Franks، والألمان Alamanni، والساكسون، والفريزلنديون Frisians في أواخر العصور القديمة في بلاد الغال، ولسان جبال الألب، والسهول الساحلية. وهنا، أيضا، سيكون مكانا لاختبار قوة كل من مملكة الفرنجة Francia والإمبراطورية الرومانية المقدسة في القرن التاسع، وبورغوندي، واللورين، وبرابانت، وفريزلاند، أيضا، والدول المدينة مثل تريير Trier ولييخ Liege، والتي حلت جميعها على نحو جماعي محل روما، وتطورت إلى الدول التي تقود اليوم منظومة الاتحاد الأوروبي.

وبطبيعة الحال، فقبل كل ما سبق جاءت روما، وقبل روما اليونان القديمة، وكل منهما، وفق التعبيرات التي اختارها وليام ماكنيل، تشكلان أروقة العالم «المتحضر قديما» الذي بدأ في مصر وبلاد ما بين النهرين، وانتشر من هناك، عن طريق جزيرة كريت المينوسية والأناضول، إلى الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط. إن جذور الحضارة، كما نعلم، قد ترسخت في وديان الأنهار الدافئة والمحمية مثل النيل ودجلة والفرات، وتواصلت هجرتها إلى المناخات المعتدلة نسبيا لبلاد الشام وشمال أفريقيا، وشبه الجزيرتين اليونانية والإيطالية، حيث كان العيش ميسورا على الرغم من وجود تقنيات بدائية فقط.

ولكن على الرغم من أن ازدهار الحضارة الأوروبية قد بدأ أولا بطول البحر المتوسط، فقد واصلت تطورها، خلال عصور تزايدت فيها التكنولوجيا وسهولة التنقل، إلى الشمال حيث المناخ أبرد.





Habsburg empire	إمبراطورية هابسبورغ
1914 boundary	حدود العام 1914
Habsburg acquisitions 1648 - 1913 (some lost during that period)	مكتسبات هابسبورغ ما بين العامين 1648 - 1913 (والتي خسرت بعضها خلال الفترة نفسها)
Austrian Netherlands	الأراضي الواطنة النمساوية
Seine river	نهر السين
France	فرنسا
Loire river	نهر اللوار
Country of Burgundy	دولة بورغوندي
Rhine river	نهر الراين
Germany	ألمانيا
Wurttemberg	فورتمبيرغ
Rhone river	نهر الرون
Vorarlberg	فورارلبرغ
Danube river	نهر الدانوب
Elbe river	نهر إلبه
Mediterranean sea	البحر الأبيض المتوسط
Tyrrhenian sea	البحر التيراني
Kingdom of Naples	مملكة نابولي
Italy	إيطاليا
Tiber r.	نهر التير
Tuscany	توسكانا
Papal states	الدول البابوية
Adriatic sea	البحر الأدرياتيكي
Cty. Of Istria	إستريا مدينة
Modena	مودينا
Parma	بارما
Lombardy	لومباردي

جغرافية التقسيمات الأوروبية

Mantua	مانتوا
Venetia	فينيسيا
Gorizia	غوريزيا
Tyrol	التيرول
Trent	ترينت
Salzburg	سالزبورغ
Carinthia	كارينثيا
Carniola	كارنيولا
Croatia	كرواتيا
Styria	ستيريا
Bohemia	بوهيميا
Austria	النمسا
Moravia	مورافيا
Dalmatia	دالماتيا
Herzegovina	الهرسك
Bosnia	البوسنة
Krakow	كراكوف
Poland	بولندا
Vistula river	نهر الفيستولا
Miles	أميال
Km	كلم
Hungary	المجر (هنغاريا)
Tisza r.	نهر تيسا
Bukovina	بوكوفينا
Transylvania	ترانسلفانيا
Banat of Temesvar	بنات تيمسفار
Serbia	صربيا
Ottoman empire	الإمبراطورية العثمانية
Danube river	نهر الدانوب
Vistula river	نهر فيستولا

هنا توسعت روما في العقود التي سبقت بداية الحقبة المشتركة، موفرة لأول مرة نظاما سياسيا وأمنا داخليا من جبال الكاربات في الجنوب الشرقي إلى المحيط الأطلسي في الشمال الغربي: أي في معظم أنحاء كثيرة من أوروبا الوسطى والمنطقة المتاخمة لبحر الشمال والقنال الإنجليزي. المجمعات الاستيطانية الكبيرة، التي أطلق عليها يوليوس قيصر Caesar اسم المستوطنات oppida، فقد ظهرت في جميع أنحاء هذه المنطقة المركزية الأوروبية ذات التربة السوداء والمترامية الأطراف، والمكسوة بالغابات، والمروية جيدا، والتي عملت كأساس بدائي لظهور مدن العصور الوسطى وتلك الحديثة⁽⁶⁾.

ومثلما منح التوسع الروماني مستوى معيناً من الاستقرار لما أطلق عليه القبائل البربرية في شمال أوروبا، فقد أدى انهيار روما على مر القرون إلى تشكّل الشعوب والدول القومية المألوفة لنا الآن، والتي أضفت عليها الطابع الرسمي معاهدة وستفاليا في العام 1648، بعد حرب الثلاثين عاما. وكما كتب الباحث وليام أنتوني هاي Hay، فإن «الضغط الذي مارسه القبائل الرحالة على السهوب والمحيط الأوروبي قد استهل تأثيرا متسلسلا أدى إلى دفع الجماعات الأخرى التي كانت تعيش ضمن حضارات مستقرة إلى حد ما، إلى الخواء الناجم عن انهيار السلطة الرومانية⁽⁷⁾». ويعني ذلك أن سقوط روما، إلى جانب الهجمات الضارية من جهة الغرب، والتي شنتها شعوب السهوب، قد ساعد على تشكيل الجماعات الوطنية في وسط وشمال غرب أوروبا.

لقد تحددت العصور القديمة، قبل كل شيء، بالمعقل الجغرافي الذي مثله للبحر الأبيض المتوسط، ومع «تراخي» هذا المعقل، من خلال خسارة روما لمناطقها النائية في شمال أوروبا والشرق الأدنى، فقد ولد عالم العصور الوسطى⁽⁸⁾. وقد تعرضت وحدة البحر المتوسط لمزيد من التحطيم بفعل الاجتياح العربي لشمال أفريقيا⁽⁹⁾. وبحلول القرن الحادي عشر، بدأت خريطة أوروبا تكتسب مظهرا عصريا، حيث اكتسبت فرنسا وبولندا شكلهما الحالي تقريبا، فيما تخفت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وراء ستار ألمانيا الموحدة، أما بوهيميا - التي تقع براغ في القلب منها - فكانت نذيرا لجمهورية التشيك. وبالتالي، فقد تحرك التاريخ شمالا.

أما مجتمعات البحر المتوسط، على الرغم من ابتكاراتهم في مجال السياسة - كالديموقراطية الأثينية والجمهورية الرومانية - فقد تحدّدت بدرجة كبيرة، وعلى حد قول المؤرخ والجغرافي الفرنسي فرنان بروديل Braudel، بفعل «التقليدية والتصلّب».

شجعت رداءة نوعية تربة البحر المتوسط على امتلاك حيازات كبيرة، والتي كانت - بالضرورة - واقعة تحت سيطرة الأثرياء. وهذا، بدوره، ساهم في خلق نظام اجتماعي يفتقر إلى المرونة. وفي الوقت نفسه، ففي الغابات الحرجية في شمال أوروبا، بتربتها الأغنى، نشأت حضارة أكثر حرية، ترسّخها علاقات السلطة غير الرسمية للإقطاع، والتي ستكون أكثر قدرة على الاستفادة من اختراع الحروف الطباعية المتحركة وغيرها من التقنيات التي ستظهر لاحقاً⁽¹⁰⁾.

وعلى الرغم من أن تفسير بروديل قد يبدو حتمياً deterministic، فهو يعمل بالفعل على شرح التيارات العريضة للماضي الأوروبي. من الواضح أن الفاعلية الإنسانية متمثلة في أشخاص رجال مثل يان هوس Hus، ومارتن لوثر Luther، وجون كالفن Calvin قد مارست دوراً محورياً في حركة الإصلاح البروتستانتية، وبالتالي في عصر التنوير، مما سمح بالنشوء الديناميكي لأوروبا الشمالية باعتبارها واحدة من أهم مسارح المعارك التاريخية في العصر الحديث. ومع ذلك، فلم يكن لأن يتحقق أي من ذلك دون الوصول الهائل إلى الأنهار والمحيط، وتربة اللوس، الغنية بالفحم ورواسب الحديد الخام، والتي شكلت خلفية لكل من الديناميات الفردية وعصر التصنيع. من المؤكد أنه كانت هناك إمبراطوريات عظيمة، وغنية بالتنوع، ومتألقة على ضفاف البحر المتوسط في العصور الوسطى، لاسيما تلك التي بناها الملك النورمندي روجر الثاني Roger II في صقلية في القرن الثاني عشر؛ وحتى لا ننسى، فقد ازدهر عصر النهضة أولاً في فلورنسا في أخريات العصور الوسطى، بما تضمنه من فن مايكل أنجلو Michelangelo والواقعية العلمانية لمكيافيلي Machiavelli؛ لكن المشقة الناتجة عن برودة الأطلسي هي ما فتح طرق الملاحة العالمية التي انتصرت في نهاية المطاف على البحر المتوسط المغلق. وفي حين كانت البرتغال وإسبانيا أول المستفيدين من هذه التجارة الأطلسية - بالنظر إلى موقع شبه جزيرتهم الناتئ - فإن مجتمعات البلدين خلال عصر ما قبل التنوير، والتي

عانت من انتهاكات مزمنة بسبب قربها من (واحتلالها من قبل) مسلمي شمال أفريقيا، فقد تخلفت في نهاية المطاف عن تلك الهولندية، والفرنسية، والإنجليزية في التنافس على المحيطات. ولذلك فمثلما تمكنت الإمبراطورية الرومانية المقدسة بقيادة شارلمان من خلافة روما، ففي الأزمنة الحديثة تمكن شمال أوروبا الآن من خلافة جنوب أوروبا، مع انتصار المنطقة المركزية الكارولنجية الغنية بالمعادن على هيئة الاتحاد الأوروبي: وذلك راجع في معظمه إلى الجغرافيا.

كانت منطقة البحر المتوسط نفسها منقسمة في العصور الوسطى بين الغرب الفرنجي والشرق البيزنطي. ولأن الانقسامات بين الشمال والجنوب ليست وحدها هي ما تحدّد وتزعج أوروبا اليوم، بل تلك الموجودة بين الغرب والشرق، كما سنرى، وبين الشمال الغربي والوسط. لتندبر طريق الهجرة من وادي الدانوب، والذي يتواصل شرقا إلى ما بعد السهل الهنغاري العظيم، وبلدان البلقان، والبحر الأسود، بطول الطريق عبر سهوب البحر الأسود وتلك الكازاخستانية وصولا إلى منغوليا والصين⁽¹¹⁾. إن هذه الحقيقة الجغرافية، جنبا إلى جنب مع الوصول المسطح والذي لا يحول دونه عائق إلى روسيا شمالا، تشكل أساس موجات الغزو التي شنتها الشعوب السلافية والتركية في معظمها من جهة الشرق، والتي ذكر تفاصيلها ماكيندر في مقالته «المحور الجغرافي للتاريخ»، والتي عملت، كما نعرف، على تشكيل المصير السياسي لأوروبا إلى حد كبير. وبالتالي، فمثلما توجد أوروبا الكارولنجية وأوروبا المتوسطية، فهناك، أيضا، الأمر الناتج في كثير من الأحيان عن تلك الغزوات الآتية من الشرق، أوروبا البيزنطية - العثمانية، وأوروبا البروسية، وأوروبا هابسبورغ، وجميعها متميزة جغرافيا، والتي تعيش اليوم أنماطا مختلفة إلى حد ما من التنمية الاقتصادية: وهي أنماط من الاختلاف بحيث لا يمكن محوها ببساطة عن طريق إنشاء عملة موحدة. وعلى سبيل المثال، فخلال القرن الرابع الميلادي، انقسمت الإمبراطورية الرومانية نفسها إلى نصفين غربي وشرقي. ظلت روما عاصمة الإمبراطورية الغربية، في حين أصبحت القسطنطينية عاصمة تلك الشرقية. استسلمت إمبراطورية روما الغربية لمملكة شارلمان الواقعة إلى الشمال وإلى الفاتيكان: إلى أوروبا الغربية، بعبارة أخرى. كان سكان الإمبراطورية الشرقية - أي بيزنطة Byzantium - في معظمهم من المسيحيين الأرثوذكس الناطقين باليونانية، ومن المسلمين لاحقا، عندما تمكن الأتراك

العثمانيون، المهاجرون من الشرق، من فتح القسطنطينية في العام 1453. كانت الحدود الفاصلة بين هاتين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية تمر عبر منتصف ما أصبح، بعد الحرب العالمية الأولى، دولة يوغوسلافيا المتعددة الأعراق. وعندما تفككت تلك الدولة على نحو عنيف في العام 1991، عكس تقسيمها - في البداية على الأقل - الانقسامات التي تعرّضت لها روما قبل ستة عشر قرنا. كان السلوفينيون والكروات الكاثوليك، وهم ورثة التقليد الذي استمر من النمسا والمجر إلى روما في الغرب: أما الصرب فكانوا من الأرثوذكس الشرقيين وورثة التركيّة العثمانية - البيزنطية لروما في الشرق. أما منطقة جبال الكاربات، التي تمتد إلى الشمال الشرقي من يوغوسلافيا السابقة وتقسّم رومانيا إلى قسمين اثنين، فعملت جزئيا على تعزيز هذه الحدود الفاصلة بين روما وبيزنطة، وفيما بعد بين أباطرة آل هابسبورغ في فيينا والسلطين الأتراك في القسطنطينية⁽¹²⁾. كانت الممرات، وبالتالي طرق التجارة، موجودة عبر هذه الجبال الهائلة، جالبة المستودع الثقافي لأوروبا الوسطى إلى عمق بلدان البلقان البيزنطية والعثمانية. ولكن حتى لو لم تكن جبال الكاربات تمثل حدودا يصعب اختراقها، مثل جبال الألب، فكانت تمثل ما يشبه التدرج، أو تحول في التوازن بين إحدى قارات أوروبا وبين الأخرى. ستصبح أوروبا الجنوبية الشرقية فقيرة ليس فقط بالمقارنة بأوروبا الشمالية الغربية، ولكن أيضا بالمقارنة بأوروبا الشمالية الشرقية، مع تقاليد البروسية. ويعني هذا أن بلدان البلقان لم تكن فقيرة فقط بالمقارنة بدول البنلوكس، ولكن بالمقارنة مع بولندا وهنغاريا أيضا.

أدى سقوط سور برلين إلى إنعاش هذه الانقسامات بصورة حادة. مثل حلف وارسو إمبراطورية شرقية كاملة، تُحكم انطلاقا من موسكو، وتنطوي على الاحتلال العسكري والقسري، وفقر متواصل بفعل الاقتصادات الموجهة command economies. وخلال أربع وأربعين سنة من حكم الكرملين، كان القسم الأكبر من أوروبا البروسية، والهابسبورغية، والبيزنطية، والعثمانية محبوسا في السجن السوفييتي للأمم، والذي كان يعرف إجمالا باسم أوروبا الشرقية. وفي الوقت نفسه، كان الاتحاد الأوروبي يتشكل في أوروبا الغربية، فاتخذ أولا شكل مجتمع الفحم والصلب الفرنسي - الألماني، ثم السوق الأوروبية المشتركة، وأخيرا على هيئة الاتحاد الأوروبي، متوسعا من قاعدته الكارولنجية المتمثلة في فرنسا، وألمانيا، ودول البنلوكس

ليشمل إيطاليا، وبريطانيا العظمى، واليونان ثم الدولتين الأيبيريتين لاحقا. وبسبب بدايتها الاقتصادية المبكرة خلال سنوات الحرب الباردة، برزت أوروبا الكارولنجية داخل منظمة حلف شمال الأطلسي، باعتبارها أقوى، في الوقت الحاضر، من أوروبا البروسية الشمالية الشرقية وأوروبا الوسطى الدانوبية، والتي كانت تاريخيا مزدهرة بالقدر نفسه، لكنها ظلت داخل حلف وارسو فترة طويلة.

أدى الاختراق السوفييتي لأوروبا الوسطى خلال المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية إلى إحداث هذا التحول في الأحداث برمته، مع إثباته صحة فرضية ماكيندر القائلة إن الغزوات الآسيوية هي ما شكّل المصير الأوروبي. وبطبيعة الحال، فلا ينبغي لنا أن نغالي كثيرا في تقدير هذه النزعة الحتمية، لأنه من دون تصرفات رجل واحد، هو أدولف هتلر Hitler، لم تكن الحرب العالمية الثانية لتقع، ولما كان هناك أي غزو سوفييتي في المقام الأول.

لكن هتلر كان موجودا بالفعل، وهكذا لم يبق لدينا سوى الوضع كما نراه اليوم: أوروبا شارلمان هي المتفوقة، ولكن بسبب عودة ظهور ألمانيا الموحدة، فقد يتحول ميزان القوى داخل أوروبا إلى الشرق قليلا إلى التقاء بروسيا بأوروبا الوسطى، مع قيام القوة الاقتصادية الألمانية بتنشيط بولندا، ودول البلطيق، والجزء العلوي من نهر الدانوب؛ أما منطقة ساحل البحر المتوسط ومنطقة البلقان البيزنطية - العثمانية فتتخلف وراءها. يلتقي عالم البحر المتوسط والبلقان في اليونان الجبلية وشبه الجزيرة، التي على الرغم من إنقاذها من براثن الشيوعية في أواخر أربعينيات القرن العشرين، تظل من بين أكثر أعضاء الاتحاد الأوروبي اضطرابا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. إن اليونان، التي تقع في الحافة الشمالية الغربية من ويكومين الشرق الأدنى وفقا لهودجسون، كانت المستفيد الأكبر من الجغرافيا في العصور القديمة - لكونها المكان الذي جرى فيه ترقيق وأنسنة الأنظمة التي لا تعرف الرحمة التي سادت مصر وبلاد فارس - بلاد ما بين النهرين، مما أدى إلى اختراع الغرب، إذا جاز التعبير. ولكن في أوروبا اليوم، التي يهيمن عليها الشمال، تجد اليونان نفسها عند النهاية الخطأ، وذات التوجه الشرقي، من الأمور؛ والتي على الرغم من كونها أكثر استقرارا وازدهارا بكثير من أماكن مثل بلغاريا وكوسوفو، فقد تأتي ذلك فقط لأنها نجت من ويلات الشيوعية. إن ما يقرب من ثلاثة أرباع

الشركات اليونانية مملوكة الأسر وتعتمد على العمالة العائلية، بحيث لا تنطبق قوانين الحد الأدنى للأجور، على الرغم من أنه لا يمكن ترقية أولئك الذين لا يمتلكون صلات عائلية⁽¹³⁾. وتمثل هذه ظاهرة ذات جذور ثقافية عميقة، وبالتالي تمتلك جذورا تاريخية وجغرافية.

وفي الواقع أن الجغرافيا تفسر الكثير. وكما أشرت إليه في فصل سابق، فعندما انهار حلف وارسو، تقدمت البلدان التي كانت أسيرة سابقا من الناحيتين الاقتصادية والسياسية وفقا لمواقعها على الخريطة بالضبط تقريبا: كان أداء بولندا ودول البلطيق، جنبا إلى جنب مع هنغاريا والنمسا البوهيمية من تشيكوسلوفاكيا أفضل، فيما عانت دول البلقان الواقعة إلى الجنوب الفقر الشديد والاضطرابات. وعلى الرغم من جميع تقلبات القرن العشرين - بما في ذلك الأثر الساحق للنازية والشيوعية - فإن إرث أنظمة الحكم البروسية، والهابسبورغية، والبيزنطية والعثمانية لا يزال وثيق الصلة. كانت هذه الإمبراطوريات هي أهم صنائع الجغرافيا، والتي تأثرت جميعها بأنماط الهجرة التي وصفها ماكيندر، والآتية من الشرق الآسيوي.

وبالتالي، لننظر مرة أخرى إلى خريطة أوروبا في القرن الحادي عشر، فس نجد في وسطها الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تشبه ألمانيا الموحدة. وفي جميع الأنحاء، هناك دول إقليمية: بورغوندي، وبوهيميا، وبومرانيا، وإستونيا؛ مع أراغون، وقشتالة، ونافار، والبرتغال إلى جنوب غرب البلاد. فُكر الآن في قصص النجاح الإقليمية في القرن الحادي والعشرين، لاسيما في أوروبا الكارولنجية: بادن - فورتمبيرغ، والرون - الألب، ولومبارديا، وكاتالونيا. وهذه، كما يذكرنا توني جوت، تقع في معظمها إلى الشمال، كما تُطل إلى الورا على ما يسمى الجنوب المتوسطي الكسول والمدعوم، حتى أنها تبدو في حالة رعب من احتمال انضمام دول البلقان، مثل رومانيا وبلغاريا، إلى الاتحاد الأوروبي⁽¹⁴⁾. يتمثل الوضع في مقارنة المركز مقابل المحيط، حيث يوجد الخاسرون في المحيط، عموما - ولكن ليس على وجه الحصر - في تلك المناطق القريبة جغرافيا إلى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ولكن بالتحديد لأن الدولة الأوروبية الفائقة التي تتخذ من بروكسل مقرا لها قد عملت بشكل جيد بما فيه الكفاية لمصلحة المناطق الفرعية الشمالية مثل بادن - فورتمبيرغ وكاتالونيا، فقد تحررت من

حكوماتها الوطنية ذات الحجم الواحد المناسب للجميع، كأنها سلسلة من متاجر التجزئة، وبالتالي فقد ازدهرت باحتلالها بيئات اقتصادية وسياسية وثقافية ملائمة ذات مرتكز تاريخي.

وفيما وراء عدم رضاها عن الخاسرين الأوروبيين في المنطقة المحيطة Periphery، فإن دول الشمال الأوروبي المزدهرة هناك قلق حول تفكك المجتمع نفسه. تبقى المجموعات السكانية والقوى العاملة الوطنية في أوروبا في حالة ركود ديموغرافي، وبالتالي تتقدم في العمر. سوف تفقد أوروبا 24 في المائة من سكانها ذوي الصحة الجيدة ممن هم في سن العمل بحلول العام 2050، فيما سيرتفع عدد سكانها الذين تزيد أعمارهم على ستين عاما بنسبة 47 في المائة خلال هذه الفترة الزمنية. ومن المرجح أن يؤدي هذا إلى زيادة هجرة الشباب من بلدان العالم الثالث لدعم دول الرفاه الشائخة في أوروبا. وفي حين بولغ في التقارير المتعلقة بهيمنة المسلمين على أوروبا، فإن نسبة المسلمين في الدول الأوروبية الكبرى، في الواقع، ستزيد بأكثر من ثلاثة أضعاف بحلول منتصف القرن، من 3 في المائة في الوقت الحالي إلى نحو 10 في المائة من السكان. وفي حين كان سكان أوروبا في العام 1913 أكثر من سكان الصين، فبحلول العام 2050، فلن يزيد مجموع سكان أوروبا والولايات المتحدة، وكندا على 12 في المائة من الإجمالي العالمي، انخفاضاً من 33 في المائة بعد الحرب العالمية الأولى⁽¹⁵⁾. تعيش أوروبا بالتأكيد في طور التقلص ديموغرافيا بفعل بقية بلدان آسيا وأفريقيا، وحتى الشعوب الأوروبية أنفسهم أصبحت تضم أعداداً أكبر من مواطني أفريقيا والشرق الأوسط.

وبالفعل، فإن خريطة أوروبا على وشك التحرك جنوباً، مرة أخرى لتشمل عالم البحر المتوسط بأكمله، كما فعلت ليس فقط تحت حكم روما، ولكن في ظل البيزنطيين والأتراك العثمانيين أيضاً. طوال عقود من الزمن، وبسبب الأنظمة الاستبدادية التي خنقت التنمية الاقتصادية والاجتماعية - في حين عملت على دعم السياسات المتطرفة - فقد انقطع شمال أفريقيا عملياً عن الحافة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط. زود شمال أفريقيا أوروبا بالمهاجرين لأسباب اقتصادية، وبالقليل فيما عدا ذلك. ولكن مع تطور دول شمال أفريقيا إلى ديمقراطيات فوضوية، فإن درجة التفاعلات السياسية والاقتصادية مع أوروبا القريبة، على الأقل بمرور الزمن،

سوف تتزايد (وقد يعود بعض أولئك المهاجرين العرب إلى ديارهم مع إنشاء فرص جديدة في أوطانهم بفعل السياسات الإصلاحية). وحينئذ، ستعمل منطقة البحر المتوسط كموصل، بدلا من عملها كمفرق كما كانت خلال معظم حقبة ما بعد الاستعمار.

ومثلما تحركت أوروبا شرقا لتشمل الدول التابعة سابقا للاتحاد السوفيتي عند اندلاع الثورات الديمقراطية في العام 1989، فإن أوروبا تتوسع الآن إلى الجنوب لتشمل الثورات العربية. لا توشك تونس أو مصر على الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، لكنهما على وشك أن تصبحا منطقتين شبحيتين تتعمق فيهما مشاركة الاتحاد الأوروبي. وبالتالي، فإن الاتحاد الأوروبي نفسه سيصبح مشروعا أكثر طموحا وجموحا من أي وقت مضى. ويتوافق هذا مع رأي ماكيندر، الذي جادل بأن الصحراء الكبرى تمثل الحدود الجنوبية الحقيقية لأوروبا، لأنها تعزل أفريقيا الاستوائية من جهة الشمال⁽¹⁶⁾.

ومع ذلك، فإن الاتحاد الأوروبي، على الرغم من أنه يعاني بسبب الانقسامات، والمخاوف، وآلام النمو المبرحة، سيظل واحدا من المحاور الكبرى في العالم خلال حقبة ما بعد التصنيع. وهكذا، فإن تحولات القوى الجارية بداخله، إلى الشرق من بروكسل - ستراسبورغ إلى برلين - أي من الاتحاد الأوروبي إلى ألمانيا - ستؤدي دورا محوريا في السياسة العالمية. وكما سأناقش، فإن ألمانيا، وروسيا، وكذلك اليونان، نعم، التي لا يزيد عدد سكانها على أحد عشر مليون نسمة، هي الدول التي تكشف مصير أوروبا بأوضح صورة.

إن حقيقة كون ألمانيا الموحدة يجب أن تعني تأثيرا أقل نسبيا للاتحاد الأوروبي مما كان عليه في أيام ألمانيا المنقسمة، بالنظر إلى التفوق الجغرافي والديموغرافي، والاقتصادي لألمانيا الموحدة في قلب أوروبا. يبلغ عدد سكان ألمانيا الآن 82 مليون نسمة، مقارنة بنحو 62 مليون في فرنسا، ونحو 60 مليونا في إيطاليا. ويبلغ الناتج الإجمالي المحلي في ألمانيا 3.65 تريليون دولار، مقارنة بنحو 2.85 تريليون دولار في فرنسا، و2.29 تريليون دولار في إيطاليا. والأكثر أهمية هنا هو حقيقة أنه في حين أن النفوذ الاقتصادي لفرنسا يقتصر أساسا على بلدان أوروبا الغربية خلال الحرب الباردة، فإن النفوذ الاقتصادي الألماني يشمل كلا من أوروبا الغربية ودول حلف

وارسو السابقة، وهو تقدير لموقعها الجغرافي الأكثر مركزية ولروابطها التجارية مع كل من الشرق والغرب⁽¹⁷⁾.

وإلى جانب موقع بلادهم الجغرافي على مفترق الطريق بين كل من أوروبا البحرية وأوروبا الوسطى، يمتلك الألمان توجهًا ثقافيًا فطريًا نحو التجارة. كما قال لي منذ فترة طويلة نوربرت فالتر Walter، الذي كان وقتها كبير الخبراء الاقتصاديين لدى دويتشه بنك: «يفضل الألمان الهيمنة على الأنشطة الاقتصادية الحقيقية بدلا من الأنشطة المالية الصرفة. نحن نحافظ على عملاتنا، ونعرف ما يحتاجون إليه، وبالتالي نبني بيئة ملائمة وعلاقات متينة على مدى عقود». وتدعم هذه القدرة دينامية ألمانية خاصة؛ فكما شرح لي الفيلسوف السياسي بيتر كوسلوفسكي Koslowski ذات مرة: «لأن كثيرا من الألمان بدأوا من الصفر بعد الحرب العالمية الثانية، فهم حداثيون modernist متعصبون. لقد ارتفعت الحداثة وثقافة الطبقة المتوسطة إلى مصاف الأيديولوجيات هنا». كذلك، فإن ألمانيا الموحدة منظمة مكانيا بحيث تستفيد من عصر ازدهار المناطق الشمالية الأوروبية. وبسبب التقليد المتمثل في وجود دول مستقلة صغيرة، والتي ظهرت إلى الوجود بعد حرب الثلاثين عاما في القرن السابع عشر - والتي لاتزال توجه النظام الاتحادي في ألمانيا - ليست هناك طنجرة ضغط واحدة تمثل عاصمة كبرى، بل سلسلة من الوحدات الأصغر التي نجحت في البقاء على قيد الحياة حتى العصر الذي ولدت فيه برلين من جديد. تمثل هامبورغ مركزا لوسائل الإعلام، ويقع مركز الأزياء في ميونيخ، أما مركز الصناعة المصرفية فهو فرانكفورت، وهلم جرا، مع منظومة للسكك الحديدية تنتشر في جميع الاتجاهات من دون تمييز. ولأن توحيد ألمانيا قد تأخر حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد حافظت على نكهتها الإقليمية التي تمثل أفضلية كبرى في أوروبا اليوم. وأخيرا، فإن سقوط جدار برلين، والذي - من المنظور التاريخي - حدث منذ فترة قصيرة، والذي ينطوي على توجهات سيستغرق ظهورها بشكل كامل عقودا من الزمن، أدى إلى إعادة توصيل ألمانيا بأوروبا الوسطى، مما يعيد - بطرق خفية وغير رسمية للغاية - تشكيل كل من الرايخ الأول والثاني اللذين ظهرا في القرنين الثاني عشر والتاسع عشر: والمقابلين تقريبا للإمبراطورية الرومانية المقدسة. وإلى جانب انهيار جدار برلين، فإن العامل الآخر الذي دعم القوة الجيوسياسية

الألمانية كان المصالحة الألمانية - البولندية التاريخية التي حدثت خلال منتصف تسعينيات القرن العشرين. وكما كتب مستشار الأمن القومي السابق زبيغنيو بريجنسكي Brzezinski، «عبر بولندا، يمكن للنفوذ الألماني أن يشع شمالا - إلى دول البلطيق - وشرقا - إلى أوكرانيا وروسيا البيضاء». وبعبارة أخرى، فإن القوة الألمانية تتعزز بكل من توسع أوروبا، وكذلك بفعل أوروبا التي تعاود فيها أوروبا الوسطى الظهور باعتبارها كيانا منفصلا⁽¹⁸⁾.

سيتمثل أحد العوامل الحاسمة في هذا التطور في درجة قوة استمرار الحالة شبه السلامية الأوروبية، وخاصة تلك الألمانية، في المستقبل. وكما كتب الخبير الإستراتيجي الذي يعيش في بريطانيا، كولن غراي Gray، «وكما عضتها الثعابين... على ضفاف نهر السوم، وفي فردان، ولدى سقوط النظام الألماني Götterdämmerung في العام 1945، فإن قوى أوروبا الغربية - الوسطى قد صارت تنفر من الحرب على نحو مقنع⁽¹⁹⁾». على الرغم من أن إرث الحرب والدمار لم يكن وحده هو ما جعل الأوروبيين مبغضين للحلول العسكرية (باستثناء حفظ السلام والتدخلات الإنسانية)، فقد كانت هناك أيضا حقيقة كون أوروبا حصلت خلال عقود الحرب الباردة على أمنها من قبل القوة العظمى الأمريكية، في حين أنها لا تواجه اليوم أي تهديدات تقليدية ملموسة. «لا يأتي الخطر على أوروبا مرتديا بزات عسكرية، بل يتمثل في الملابس الممزقة لللاجئين»، كما يقول الأكاديمي والصحافي الألماني - الأمريكي جوزيف جوفي Joffe⁽²⁰⁾. ولكن ماذا لو كان مصير أوروبا، كما رأى ماكيندر، لا يزال تابعا للتاريخ الآسيوي، المتمثل في روسيا الناهضة؟⁽²¹⁾ وفي هذه الحالة، قد يكون هناك تهديد بالفعل. إن ما دفع الاتحاد السوفييتي لإقامة إمبراطورية في شرق أوروبا عند نهاية الحرب العالمية الثانية لا يزال قائما حتى اليوم: ثمة إرث من غزوات السلب والنهب ضد روسيا من قبل الليتوانيين، والبولنديين، والسويديين، والفرنسيين، والألمان، مما أدى إلى الحاجة إلى بناء حاجز وقائي من الأنظمة الموالية في المساحة الواقعة بين روسيا التاريخية وأوروبا الوسطى.

لا شك في أن الروس لن يقوموا بنشر قوات برية لإعادة احتلال أوروبا الشرقية من أجل بناء حاجز وقائي جديد، ولكن من خلال توليفة من الضغوط السياسية والاقتصادية، الأمر الذي يرجع جزئيا إلى حاجة أوروبا إلى الغاز الطبيعي الوارد

من روسيا، يمكن للروس ممارسة نفوذ مفرط على الدول التابعة لهم سابقا خلال السنوات المقبلة: تزود روسيا نحو 25 في المائة من الغاز الطبيعي الذي تستهلكه أوروبا، و40 في المائة من استهلاك ألمانيا، وما يقرب من 100 في المائة من استهلاك فنلندا ودول البلطيق⁽²²⁾. وبالإضافة إلى ذلك، فقد نستيقظ جميعا من أزمة أوروبا الملحمية حول الاقتصاد والعملية على عالم يتسم بنفوذ روسي أكبر في القارة. إن الأنشطة الاستثمارية الروسية، فضلا عن دورها الحاسم كمورد للطاقة، ستكتسب أهمية أكبر في أوروبا الضعيفة والمُنقسمة حديثا.

وبالتالي، فهل ستستسلم ألمانيا النافرة من الحرب جزئيا للنفوذ الروسي، مما يؤدي إلى جعل أوروبا الشرقية شبيهة بالحالة الفنلندية Finlandized إلى حد ما، ويجعل حلف شمال الأطلسي أكثر خواء مما هو عليه؟ أم ستقف ألمانيا بدهاء أمام روسيا باستخدام مختلف الوسائل السياسية والاقتصادية، على الرغم من أن مجتمعها لا يزال منغمسا في حالة شبه سلامية بعد ملحمة؟ يهدد السيناريو السابق بإثبات صحة مخاوف ماكيندر وغيره من الجغرافيين: أي أنه، بالمعنى الجغرافي، ليس هناك وسط أوروبا أو أوروبا الوسطى Mitteleuropa، فكل ما هنالك هو أوروبا البحرية وتلك القارية، مع وجود منطقة من الحشود بينهما. ومن ناحية أخرى، فسيطرح السيناريو الأخير مصيرا أوروبا معقدا على نحو ثري: وهو مصير ستعود فيه أوروبا الوسطى إلى الظهور بشكل كامل، ومن ثم ستزدهر لأول مرة منذ ما قبل الحرب الأولى؛ كما ستزدهر أيضا فئة من الدول الواقعة بين ألمانيا وروسيا، كما كان ماكيندر يأمل، مما يدع أوروبا في سلام، حتى لو كان نفورها من التحركات العسكرية هو من الناحية الجيوسياسية غير مريح للولايات المتحدة. وفي هذا السيناريو، ستعمل روسيا على تحقيق التوافق مع بلدان بعيدة إلى الشرق منها، مع انضمام كل من أوكرانيا وجورجيا إلى أوروبا. وبالتالي، فإن فكرة أوروبا، باعتبارها تعبيرا جغرافيا عن الليبرالية التاريخية، ستتحقق أخيرا. مرت أوروبا بقرون من عمليات إعادة الترتيب السياسية في العصور الوسطى بعد انهيار روما. وفي معرض بحثها عن هذه الفكرة، فقد استمرت أوروبا في إعادة ترتيب نفسها بعد الحرب الأوروبية الطويلة التي دارت رحاها بين العامين 1914 و1989. وبالفعل، فقد كانت أوروبا - من الناحية الجغرافية - أمورا كثيرة طوال تاريخها.

وبعد عصر الاستكشاف، انتقلت أوروبا أفقياً إلى الغرب مع تحول التجارة عبر الأطلسي، مما جعل مدناً مثل كيبيك، وفيلادلفيا، وهافانا أقرب اقتصادياً إلى أوروبا الغربية من مدن مثل كراكوف ولفوف Lvov في أوروبا الشرقية؛ على الرغم من أن تقدم الجيوش العثمانية إلى الشمال الغربي حتى فيينا في أواخر القرن السابع عشر قد عزل منطقة البلقان عن معظم الجزء المتبقي من شبه القارة الأوروبية. وبطبيعة الحال، ففي وقتنا الحاضر، فإن أوروبا آخذة في التحول إلى الشرق بضمها إلى البلدان الشيوعية السابقة إلى الاتحاد الأوروبي، وإلى الجنوب حيث تكافح من أجل تحقيق الاستقرار السياسي والاقتصادي للشاطئ الجنوبي من البحر المتوسط في شمال أفريقيا.

وفي جميع عمليات إعادة ترتيب هذه، فإن اليونان، من بين جميع الأماكن، ستوفر سجلاً متبصراً لصحة المشروع الأوروبي؛ فاليونان هي الجزء الوحيد من منطقة البلقان الذي يمكن الوصول إليه من عدة سواحل مطلة على البحر المتوسط، وبالتالي فهو الموحد للعالمين الأوروبيين. تقع اليونان على مسافة واحدة جغرافياً بين بروكسل وموسكو، كما أنها على القرب الثقافي نفسه من روسيا كما هي من أوروبا، بحكم مسيحيتها الأرثوذكسية الشرقية، والتي ورثتها بدورها من بيزنطة. ظلت اليونان طوال فترات التاريخ الحديث مثقلة بالتخلف السياسي. وفي حين أن الثورات التي اندلعت في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر كانت في كثير من الأحيان ذات أصول تعود إلى الطبقة الوسطى وأهداف متمثلة في الحريات السياسية، كانت حركة الاستقلال اليونانية حركة عرقية بالدرجة الأولى، مع أسس دينية. وقد انحاز الشعب اليوناني بأغلبية ساحقة إلى روسيا لمصلحة الصرب ضد أوروبا خلال حرب كوسوفو في العام 1999، على الرغم من أن موقف الحكومة اليونانية كان أشد التباساً. واليونان هي الدولة الأوروبية الأشد اضطراباً اقتصادياً، والتي لم تكن جزءاً من الكتلة الشيوعية خلال الحرب الباردة. إن اليونان، التي تعود إلى العصور القديمة - هي المكان الذي تنتهي وتبدأ فيه أوروبا - وكذلك الغرب، عن طريق الاستدلال. أدت الحرب التي أرخ لها هيرودوت Herodotus بين اليونان وبلاد فارس إلى ترسيخ «انقسام» للغرب ضد الشرق، والذي استمر لآلاف السنين⁽²³⁾. ظلت اليونان بالكاد ضمن المعسكر الغربي في بداية الحرب الباردة، وذلك بسبب حربها الأهلية بين

اليمنيين والشيوعيين، وكذلك المفاوضات المصرية بين ونستون تشرشل Churchill وجوزيف ستالين Stalin، والتي أدت في نهاية المطاف إلى جعل اليونان جزءاً من حلف شمال الأطلسي. إن اليونان، كما كتب ماكيندر، تقع إلى الخارج قليلاً من المنطقة المركزية لأوراسيا، وبالتالي يمكن الوصول إليها من قبل القوات البحرية. لكن الاستحواذ على اليونان بصورة ما من قبل إحدى قوى المنطقة المركزية (أي روسيا) «قد يحمل في طياته السيطرة على الجزيرة العالمية»⁽²⁴⁾.

وبطبيعة الحال، فإن روسيا لن تتمكن من السيطرة على اليونان في أي وقت قريب. ومع ذلك، فمن المثير للاهتمام أن نتأمل ما كان سيحدث خلال الحرب الباردة لو سارت المفاوضات بين تشرشل وستالين على نحو مختلف: تخيل كم كان الموقف الإستراتيجي للكرملين سيصير أقوى لو كانت اليونان ضمن الكتلة الشيوعية، بتهديدها لإيطاليا عبر البحر الأدرياتيكي، فضلاً على كامل منطقة شرق البحر المتوسط والشرق الأوسط. إن الأزمة المالية اليونانية، والمعبرة كثيراً عن التخلف السياسي والاقتصادي لليونان، هزت نظام العملة الموحدة للاتحاد الأوروبي بداية من العام 2010، وبسبب التوترات التي أحدثها ذلك بين دول الشمال والجنوب الأوروبي، فقد مثلت أهم التحديات التي واجهت المشروع الأوروبي منذ حروب الانفصال اليوغوسلافية. وكما تُظهر اليونان بكل وضوح، فلا تزال أوروبا تمثل عملاً طموحاً لا يزال في طور التنفيذ: والذي سيتأثر بالاتجاهات والاضطرابات من الجنوب والشرق في عالم يترنح بفعل أزمة المتسع.

روسيا والمنطقة المركزية المستقلة

يفتح ألكسندر سولجينيتسين Solzhenitsyn روايته الملحمية عن الحرب العالمية الأولى، أغسطس 1914، بقصيدة حماسية عن سلسلة جبال القوقاز، والتي «بكل ثلثة منفردة منها... ذات البياض الساطع والتجاويف الزرقاء العميقة... تسمو على نحو شاهق فوق المخلوقات البشرية التافهة، بحيث صارت أساسية elemental، في عالم من صنع الإنسان، إلى درجة أنه حتى لو فتح كل الرجال الذين عاشوا في كل السنين الماضية أذرعهم بأقصى ما في وسعهم وحملوا كل الأشياء التي صنعوها منذ بدء الخليقة، وكدسوها جميعا في أكوام ضخمة، فلن يكون في وسعهم أبدا إنشاء سلسلة من التلال الجبلية بمثل روعة جبال القوقاز». ويستطرد سولجينيتسين في هذا السياق، فيكتب عن «المساحات الثلجية».

«أدت جاذبية فراء الحيوانات إلى جلب أوائل المستكشفين إلى هذا الجانب الجليدي الآخر من العالم، والذين سيحضرون لاحقا من أجل الموارد الطبيعية»

المؤلف

و«الجروف المنحدرة الجرداء»، و«الشجوج والروافد»، و«الشدف الضبابية التي لا يمكن تمييزها عن السحب الحقيقية»⁽¹⁾.

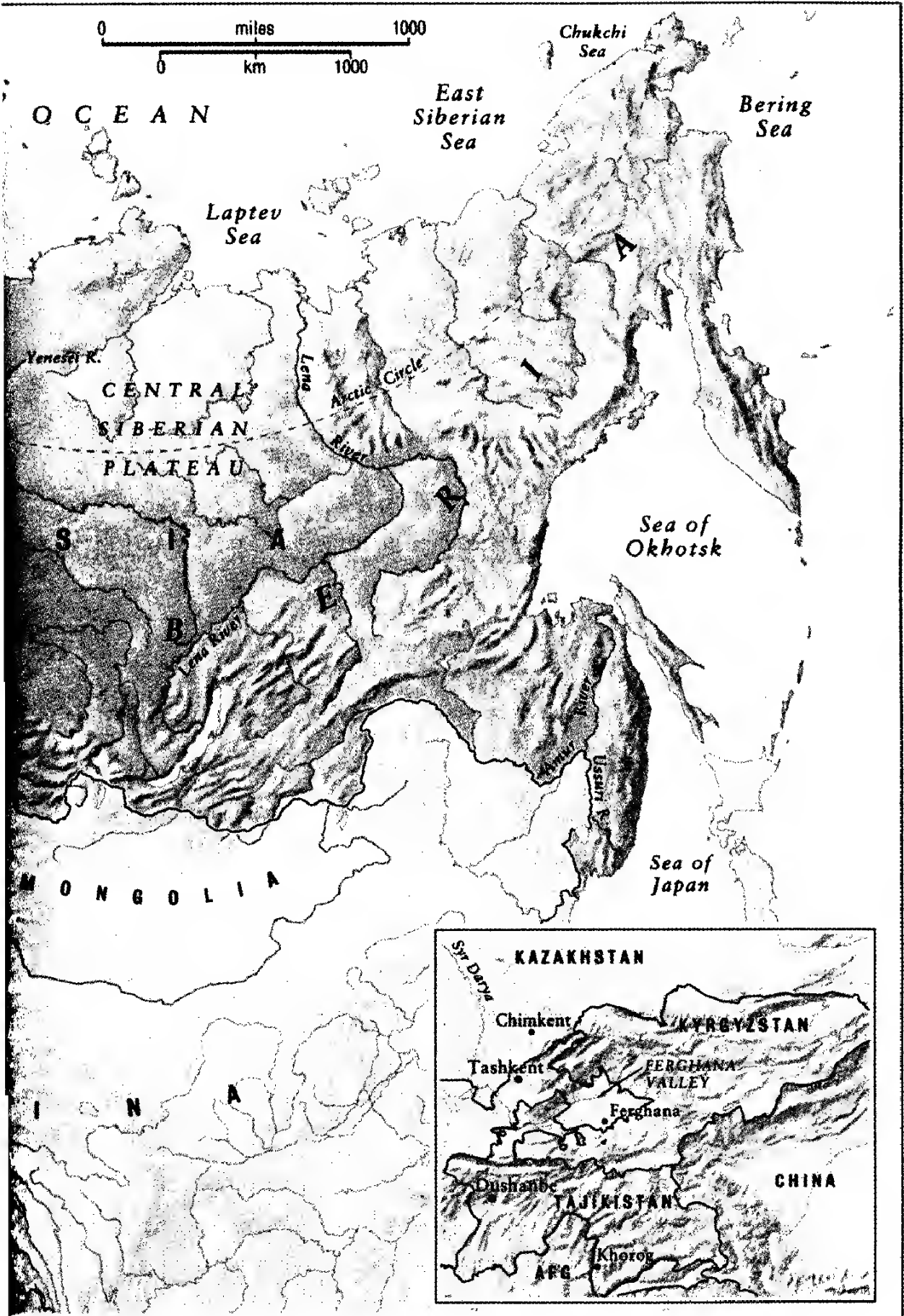
وعلى مر التاريخ، أخذت جبال القوقاز الروس، وهم من أشد القوميين تطرفا مثل سولجينيتسين، بكل من الخوف والرغبة. وفي هذا المكان، الواقع بين البحر الأسود وبحر قزوين، يوجد الجسر البري الذي تختفي عبره أوروبا تدريجيا وسط سلسلة من الجبال التي تمتد على مسافة ستمائة ميل، فيما يبلغ ارتفاعها ثمانية عشر ألف قدم- والتي تخب الألباب بجمالها اللامع، خصوصا بعد المساحة الشاسعة والمسطحة لأراضي السهوب الواقعة إلى الشمال. تمثل هذه منطقة الغرب البري لروسيا، على الرغم من أن الجبال تقع إلى الجنوب من موسكو وسانت بطرسبرغ. وفي هذا المكان، واعتبارا من القرن السابع عشر، حاول المستعمرون الروس إخضاع تشكيلة من الشعوب الأبية: الشيشان، والإنغوش، والأوسيتيين Ossetes، والداغستانيين Daghestanis، والأبخاز، والجورجيين Kartvelians، والكاخيتيين Kakhetians، والأرمن والأذربيجانيين، وغيرهم. وهنا، واجه الروس الإسلام بكل من شكله المعتدل والمتشدد. إن ردة الفعل العاطفية المعقدة للروس تجاه حقيقة جبال القوقاز ذاتها، التي تُعذبهم وتهددهم في الوقت نفسه، تفتح لنا نافذة على القصة الروسية بأكملها.

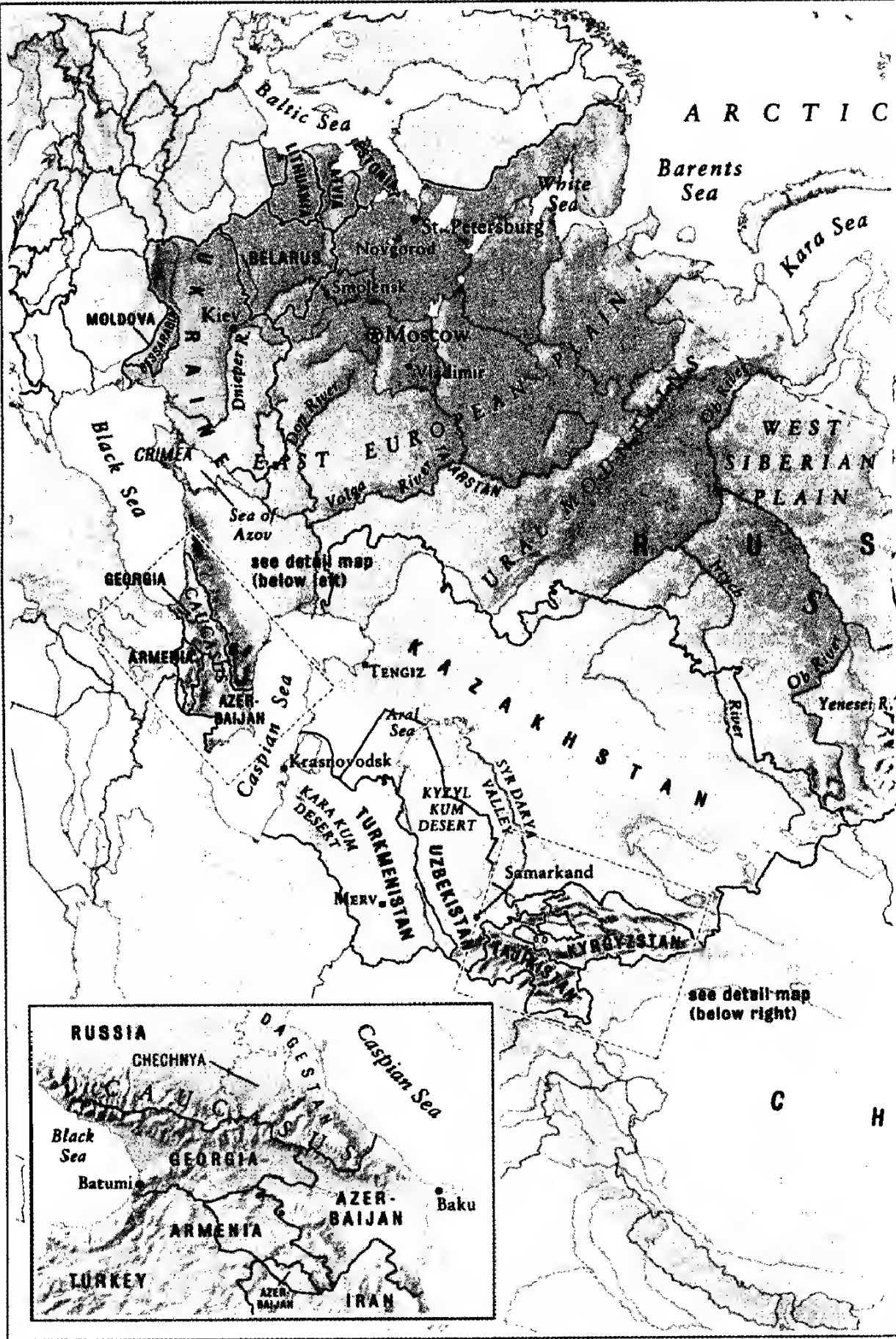
تمثل روسيا القوة البرية المتفوقة في العالم، كونها تمتد عبر 170 درجة من خطوط الطول، وهو ما يبلغ نصف قطر العالم بأسره تقريبا. يقع منفذ روسيا الرئيسي على البحر إلى الشمال، لكنه يتعرض للانسداد بواسطة جليد القطب الشمالي طوال شهور عديدة من السنة. وتتسم القوى البرية بأنها غير آمنة على الدوام، كما ألمح إليه ماهان. ومن دون بحار تحميهم، فسيظلون غير راضين على الدوام ومضطرين إلى مواصلة التوسع أو التعرض للغزو هم أنفسهم. ويتسم هذا بصحته بالنسبة إلى الروس على وجه الخصوص، الذين تتسم أرضهم الشاسعة المسطحة بأنها شبه خالية من الحدود الطبيعية، مما يوفر القليل من الحماية. يمثل خوف روسيا من الأعداء البرين أحد الموضوعات الرئيسية لماكيندر. لقد اندفع الروس إلى أوروبا الوسطى والشرقية لصد هجمات فرنسا في القرن التاسع عشر وألمانيا في القرن العشرين؛ كما اندفعوا تجاه أفغانستان لاعتراض سبيل البريطانيين في الهند والسعي إلى الحصول على منفذ على المياه الدافئة للمحيط الهندي، واندفعوا إلى الشرق الأقصى لاعتراض سبيل الصين. أما بالنسبة إلى جبال القوقاز، فقد شكلت تلك الجبال حاجزا ينبغي أن يهيمن عليه الروس لكي يكونوا في مأمن من الثورات السياسية والدينية في الشرق الأوسط الكبير.

وثمة حقيقة جغرافية أخرى بشأن روسيا، ألا وهي برودتها القارسة. يقع الجزء الشمالي من الولايات المتحدة عند الخط الموازي 49 لخط العرض الشمالي، حيث تبدأ كندا. لكن القسم الأعظم من روسيا يقع إلى الشمال من خط العرض 50، بحيث يقطن السكان الروس منطقة ذات مناخ أشد برودة من حيث يعيش الكنديون، الذين يعيش معظمهم في طول الحدود مع الولايات المتحدة. «وبسبب خطوط العرض، والبُعد عن البحار المفتوحة، والتأثيرات الحاجزة للجبال، والطبيعة القارية *continentality*»، كما كتب الجغرافي شاؤول كوهين Cohen، وبالتالي فإن مناخ روسيا يترك معظمها أبرد بكثير وأكثر جفافاً بكثير مما يسمح بالاستيطان المستديم والواسع النطاق⁽²⁾.

لكن جبال القوقاز، جنباً إلى جنب مع أجزاء الشرق الأقصى الروسي القريبة من الحدود الكورية الشمالية، تمثل استثناءات لهذا المبدأ: وبالتالي، فمن بين عوامل الجذب الأخرى لجبال القوقاز، نجد حرارتها المعتدلة نسبياً عند خط العرض 43 درجة⁽³⁾. صحيح أن المناخ والمناظر الطبيعية الروسية تتسم بوعورتها الشديدة، وبالتالي تحمل مفاتيح شخصية *character* الروس وتاريخهم.

يبدو أن البرد القارس قد طوّر لدى الروس «قدرة على تحمّل المعاناة، ودرجة معينة من الطائفية *communalism*، وحتى الاستعداد للتضحية بالفرد من أجل المصلحة العامة»، كما كتب المؤرخ المتخصص في الشأن الروسي، فيليب لونغويرث Longworth، الذي أوضح أن موسم الحصاد القصير في خطوط العرض الشمالية العليا تطلّب وجود «علاقات متبادلة بين المزارعين»، فضلاً عن «بذل جهود محمومة ومضنية، وقضاء ساعات طويلة في الحقل، وحشد الأطفال»، لأنه يستوجب القيام بكل من عمليتي البذر والحصاد على عجل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفوائض المنخفضة بسبب البرد قد شجعت أفراد النخبة في الدولة الروسية الناشئة على السيطرة على مناطق شاسعة، ما أدى إلى وأد حافز المزارعين للعمل بجد من دون إكراه، كما أسهم في خلق «نزعة عنيفة» في الحياة اليومية⁽⁴⁾. إن الشيوعية الروسية، إضافة إلى إظهارها لاحتقار معين للحريات الشخصية حتى وقت قريب، قد استمدت جذورها من المشهد المتجمد. إن إزالة الغابات، وبناء الكنائس والتحصينات في السهول الجليدية، وترديد الصلوات الأرثوذكسية كلها تُشير إلى طائفية *Communalism* تقشعر لها الأبدان.





مفتاح الخريطة:

Moldova	مولدوفا
Black sea	البحر الأسود
Crimea	شبه جزيرة القرم
Baltic sea	بحر البلطيق
Lithuania	ليتوانيا
Latvia	لاتفيا
Estonia	إستونيا
Belarus	روسيا البيضاء
Ukraine	أوكرانيا
Kiev	كييف
Sea of Azov	بحر آزوف
Georgia	جورجيا
Caucasus	القوقاز
Armenia	أرمينيا
Azerbaijan	أذربيجان
Caspian sea	بحر قزوين
See detail map (below left)	انظر خريطة التفاصيل (أسفل، إلى اليسار)
Volga river	نهر الفولغا
East European plain	سهل أوروبا الشرقية
Don river	نهر الدون
Dnieper r.	نهر الدنيبر
White sea	البحر الأبيض
St. Petersburg	سانت بطرسبرغ
Tatarstan	تتارستان
Smolensk	سمولينسك
Novgorod	نوفغورود
Moscow	موسكو
Vladimir	فلاديمير
Tengiz	تنجيز
Hrasnovodsk	هراسنوفودسك
Karakum desert	صحراء كاراكوم
Merv	ميرف
Aral sea	بحر آرال
Kyzylkum desert	صحراء كيزيلكوم

روسيا والمنطقة المركزية المستقلة

Kazakhstan	كازاخستان
Tengiz	تنجيز
Syr Darya valley	وادي سير داريا
Uzbekistan	أوزبكستان
Samarkand	سمرقند
Tajikistan	طاجيكستان
Kyrgyzstan	قيرغيزستان
Arctic ocean	المحيط المتجمد الشمالي
Barents sea	بحر بارنتس
Kara sea	بحر كارا
Ob river	نهر أوب
Ural mountain	جبال الأورال
Tatarstan	تتارستان
Russia	روسيا
Siberia	سبيريا
Lena river	نهر لينا
Irtych river	نهر إرتيش
Yenesei r.	نهر ينيسي
China	الصين
West Siberian plain	سهل سبيريا الغربي
Sea of Okhotsk	بحر أوخوتسك
Amur river	نهر أمور
Usuri r.	نهر أوسوري
Sea of Japan	بحر اليابان
Mongolia	منغوليا
Central Siberian plateau	هضبة سبيريا الوسطى
Miles	أميال
Km	كلم
East Siberian sea	بحر سبيريا الشرقي
Lapeu sea	بحر لابيو
Lena river	نهر لينا
Arctic circle	الدائرة القطبية الشمالية
Chukchi sea	بحر تشوكشي
Bering sea	بحر بيرينغ
Russia	روسيا

Chechnya	الشيشان
Caucasus	القوقاز
Black sea	البحر الأسود
Batumi	باتومي
Turkey	تركيا
Armenia	أرمينيا
Azerbaijan	أذربيجان
Iran	إيران
Baku	باكو
Azerbaijan	أذربيجان
Caspian sea	بحر قزوين
Dagestan	داغستان
See detail map (below right)	انظر خريطة التفاصيل (أسفل، إلى اليمين)
Syr Darya	سير داريا
Chimkent	شمكنت
Tashkent	طشقند
Kazakhstan	كازاخستان
Kyrgyzstan	قيرغيزستان
Ferghana valley	وادي فرغانة
Ferghana	فرغانة
China	الصين
Dushanbe	دوشنبه
Tajikistan	طاجيكستان
Khorog	خوروغ
AFG	أفغانستان

يتألف الحزام الشمالي لروسيا بين الدائرة القطبية الشمالية والمحيط المتجمد الشمالي من سهول التندرة المتجمدة والعديمة الشجر، والتي تغطيها الأشنات والحزاز lichen. وعندما يذوب الجليد في الصيف، يغطي الوحل الأرض التي تعج بقطعان البعوض العملاق. وإلى الجنوب من التندرة، تكمن التايغا taiga، وهي أكبر الغابات الصنوبرية في العالم، والتي تمتد من بحر البلطيق إلى المحيط الهادي؛ كما أن نحو 40 في المائة من مساحة سيبيريا والشرق الأقصى الروسي مغطاة بالأراضي الدائمة التجمد. وأخيرا، ففي جنوب روسيا، وبطول الطريق من السهل الهنغاري في الغرب، وعبر

أوكرانيا، وشمال القوقاز، وآسيا الوسطى إلى أقاصي منشوريا، تقع السهوب، وهي أوسع الأراضي العشبية في العالم، أو «الطريق العشبي العظيم»، على حد تعبير الباحث في الشؤون الروسية، دبليو بروس لينكولن Lincoln⁽⁵⁾. كما كتب ماكيندر، فقد كان الروس في الأصل شعبا محتشدا في التطويق المستتر للغابة؛ والذين، من أجل أمنهم، كان عليهم تتبع وقهر البدو الآسيويين القادمين من السهوب إلى الجنوب والشرق - وذلك اعتبارا من منتصف العصور الوسطى إلى أوائل العصر الحديث. وعلى وجه الخصوص، فإن الوجود المطول والمهين للمغول - القبيلة الذهبية بالقرب من مُسكوفيا Muscovy القرون الوسطى والقبيلة الزرقاء في آسيا الوسطى - قد أدى دورا في حرمان روسيا من تجربة عصر النهضة، ومنح ضحاياه من السلاف الأرثوذكس الشرقيين عددا من القواسم المشتركة، والطاقة، والشعور بالهدف، وهي أمور كان لها أثر بالغ الأهمية في تمكينهم في نهاية المطاف من الخروج من نير عبودية التتار وضم مساحات شاسعة من الأراضي خلال القرون الأخيرة⁽⁶⁾. إن عبودية التتار، وفقا للمؤرخ ج. باتريك مارش March، قد غرست في الروس «قدرة أكبر على تحمّل الاستبداد»، وفي الوقت نفسه عوّدتهم على الحرمان وأصابتهم «بخوف زوراني paranoid من الغزو»⁽⁷⁾.

إن انعدام الأمن هو العاطفة الوطنية الروسية الجوهرية؛ أي أن «الرغبة في إيجاد كل من الأسباب والمبررات في التاريخ قد نبعت من انعدام الأمن في السهول الشرقية»، كما كتب أمين مكتبة الكونغرس جيمس بيلينغتون Billington في مجلده الضخم عن الثقافة الروسية، «الأيقونة والفأس». إن «الجغرافيا، وليس التاريخ»، كما يقول، قد سيطرت على التفكير الروسي:

تسيطر على حياة الفلاحين العاديين دورات موسمية قاسية، وعدد قليل من الأنهار المتباعدة، وأمطار متفرقة من الأمطار وخصوبة التربة؛ كما أن انحسار وتدفق الغزاة من البدو الرحّل كثيرا ما بدا بأنه أكثر قليلا من حركة لا معنى لها لكائنات سطحية على بحر ثابت وغير موات⁽⁸⁾.

وبعبارة أخرى، فإن انبساط التضاريس الروسية نفسه، كونها تمتد من أوروبا إلى الشرق الأقصى، مع قليل من الحدود الطبيعية في أي مكان، وميلها إلى أن تضم مستوطنات متناثرة في مقابل التجمعات الحضرية، أدى خلال فترات طويلة إلى ظهور مشهد من الفوضى، والتي كانت كل مجموعة فيها تعاني انعدام الأمن على نحو مستديم. وبالنظر إلى تجمّعهم في الغابات في حين يترصد بهم أعداؤهم في السهوب، التجأ الروس إلى كل من الروحانية animism والدين. وكما كتب بيلينغتون، فإن مهرجان

عيد الفصح الأرثوذكسي الذي يحل في فصل الربيع قد «اكتسب حدة خاصة في الشمال الروسي». إن تحية عيد الفصح التقليدية لم تكن «عيد فصح سعيد» اللطيفة المنتشرة في الغرب الحديث، بل كانت تأكيداً مباشراً على الحقيقة المحورية للتاريخ المقدس، فكانت «لقد قام المسيح!»، وكان الرد: «لقد قام بالفعل!» ولا يشير هذا إلى «قيامة» المسيح فقط، بل إلى الطبيعة كذلك؛ باعتبار أن فصل الشتاء الطويل والمظلم كان على وشك الانتهاء، مع تساقط الثلج عن الأشجار التي تطرح أوراقها. تحتوي المسيحية الأرثوذكسية الشرقية على أكثر من تلميح إلى الوثنية، في حين كانت الشيوعية الروسية، بتركيزها البلشفي على الشمولية تمثل شكلاً آخر من أشكال الدين الروسي - وهو المقابل العلماني للأرثوذكسية، وفقاً للمفكر الروسي الذي عاش في أوائل القرن العشرين، نيكولاس برداييف Berdyaev. وكما يُظهر عنوان كتاب بيلينغتون، فقد كانت الأيقونة بمنزلة تذكرة حية لسكان الحدود المنهكين بقوة عقيدتهم الأرثوذكسية، وبالأمن والهدف الأسمى الذي تحمله في طياتها، في حين أن الفأس «كانت الأداة الأساسية لروسيا العظمى: أي الوسيلة التي لا غنى عنها من أجل إخضاع الغابة»⁽⁹⁾ لأغراضهم الخاصة.

وبعبارة أخرى، فإن الشمولية الدينية والشيوعية لروسيا قد عادت إلى هذا الشعور بانعدام الحماية في الغابة بالقرب من السهوب، والذي غرس في أذهان الروس، نتيجة لذلك، الحاجة إلى الغزو. ولكن لأن الأرض كانت مسطحة، ولأنها ترتبط عضويًا في اتساعها بآسيا والشرق الأوسط الكبير، فقد تعرضت روسيا نفسها للغزو. وفي حين تعرضت الإمبراطوريات الأخرى للصعود، والتوسع، والانهايار - بحيث لم يعد يسمع أحد عنها، فقد توسّعت الإمبراطورية الروسية، وانهارت، وأعيد إحيائها مرات عديدة⁽¹⁰⁾. تظهر الجغرافيا والتاريخ أننا لا نستطيع أبداً أن نستبعد روسيا من حساباتنا، وبالتالي فإن انبعاث روسيا من جديد في عصرنا الحالي بعد تفكك الإمبراطورية السوفييتية ليس إلا جزءاً من قصة قديمة.

إن أول إمبراطورية روسية كبرى، وهي بالفعل أول دولة عظمى في أوروبا الشرقية، كانت كيفان روس Rus Kievan، والتي ظهرت في منتصف القرن التاسع في كييف، والواقعة في أقصى جنوب المدن التاريخية على ضفاف نهر الدنيبر. وقد سمح هذا لكيفان روس بأن تكون على اتصال دائم مع الإمبراطورية البيزنطية إلى الجنوب، مما سهّل عملية تحوّل الروس إلى المسيحية الأرثوذكسية، والتي، كما نعلم، ستعزز بالحدة الخاصة التي منحها لها الروس، بناءً على تجربتهم الخاصة مع الطبيعة الشتوية القاسية.

لقد فرضت الجغرافيا أيضا أن تشكّل كيفان روس توحيدا ديموغرافيا بين الفايكنغ الإسكندنافيين (القادمين عبر الأنهار من الشمال) وبين السلاف الشرقيين من سكان البلاد. وقد عنت التربة الفقيرة في المنطقة وجوب غزو مساحات كبيرة من الأراضي في سبيل توفير الإمدادات الغذائية، وبالتالي بدأت الإمبراطورية في التشكّل، والتي جمعت بين قوتين إقليميتين ديناميتين، هما الفايكنغ والبيزنطيين. أما النتيجة فكانت روسيا، بوصفها مفهوما جغرافيا وثقافيا.

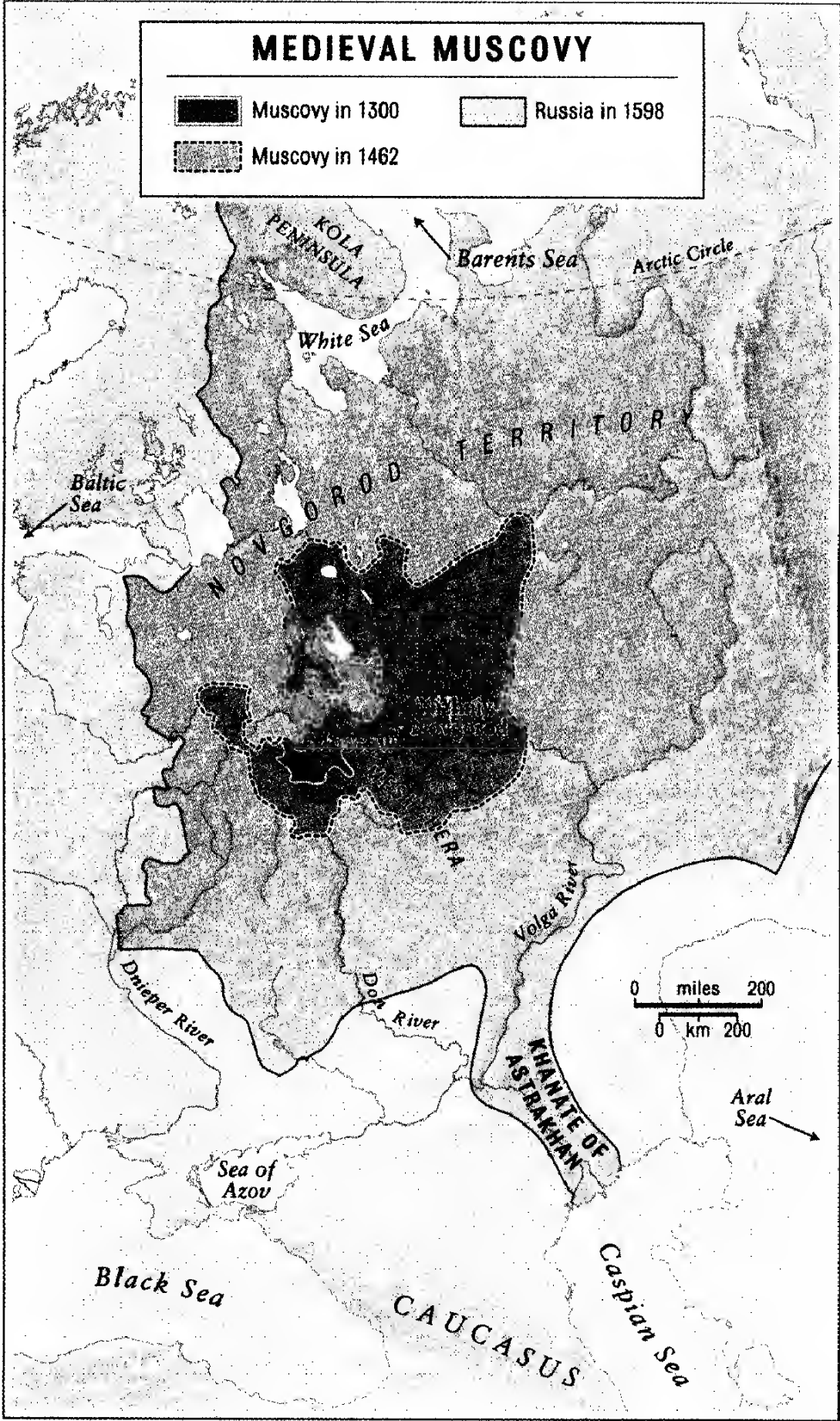
كافحت كيفان روس على الدوام ضد البدو الرحل الآتين من السهوب. وفي منتصف القرن الثالث عشر، دُمرت في نهاية المطاف على يد المغول بقيادة باتو خان Batu Khan، وهو حفيد جنكيز خان. أدت السنوات المتتالية من الجفاف في أراضي الرعي التقليدية إلى دفع المغول باتجاه الغرب بحثا عن مراعي جديدة لخيولهم، والتي كانت مصدرا لكل من طعامهم وقدرتهم على التنقل. وهكذا، تم سحق أول محاولة كبرى للتوسع الإمبراطوري الروسي إلى المنطقة المركزية لأوراسيا.

وكانت النتيجة أنه، من خلال تحركات وتحركات مضادة لا تعد ولا تحصى، وإضافة إلى الأحداث الدرامية السياسية التي مثلت مادة الفاعلية الإنسانية، تحوّل التاريخ الروسي إلى الشمال تدريجيا - إلى مدن مثل سمولينسك، ونوفغورود، وفلاديمير، وموسكو، حيث بلغت موسكو ذروة قوتها في القرون الوسطى اللاحقة: وقد تميزت هذه القرون الوسطى بدورها، كما رأينا، بالاستبداد وجنون العظمة، والتي كانت ناتجة جزئيا عن ضغوط المغول. وقد ساعد في صعود موسكو إلى مكانة بارزة موقعها المواتي للتجارة، كونها تقع على طرق نقل البضائع بين الأنهار الواقعة في الحوض المتوسط والعلوي لنهر الفولغا. وكما كتب بروس لينكولن: «تقع موسكو في وسط المرتفعات التي تنبع فيها الأنهار الكبرى لروسيا الأوروبية... كانت مركزا تتحرك انطلاقا منه الطرق النهرية السريعة الروسية على نحو متعرج إلى الخارج، مثل البرامق spokes غير منتظمة الشكل لعجلة غير متوازنة»⁽¹¹⁾. ومع ذلك، فلأن الروس في هذه المرحلة من تاريخهم كانوا يتجنبون السهوب التي يجوبها التتار، فقد ركزوا جهودهم على مواصلة تطوير أراضي الغابات التي لا يمكن اختراقها، حيث يمكن للدولة أن تتلاحم على نحو أفضل⁽¹²⁾. كانت مسكوفيا في القرون الوسطى محاطة وغير ساحلية تقريبا. وإلى الشرق منها، لم يكن هناك سوى التايغا، والسهوب، والمغول. أما إلى الجنوب، فقد حرم الأتراك والمغول الذين يعيشون على السهوب مسكوفيا من الوصول إلى البحر الأسود. وإلى الغرب والشمال الغربي، حرمها السويديون والبولنديون، والليتوانيون من

الوصول إلى بحر البلطيق. ولم يكن إيفان الرابع Ivan IV «الرهيب» (1553 - 1584)، يمتلك إلا وصولاً إلى ساحل واحد فقط، والذي كان بالكاد صالحاً للاستعمال، في أقصى الشمال: وهو البحر الأبيض، والذي يمثل مدخلا إلى المحيط المتجمد الشمالي. ولكونهم مهددين على كل من الجانبين بسهل لا نهاية له، فلم يكن أمام الروس من خيار سوى محاولة الخروج، وهو ما فعلوه تحت حكم إيفان الرابع.

كان إيفان الرهيب شخصية تاريخية مثيرة للجدل، سواء بوصفه وحشاً أو بطلا شعبياً، والذي يمثل لقبه ترجمة مضللة للفظـة «غروزي» Groznyi، بمعنى المرعب، والذي خلعه عليه أنصاره بفعل عقابه للمذنبين. وقد أثبت إيفان أنه في زمانه ومكانه، كان الترياق الوحيد للفوضى هو الاستبداد المطلق. كان إيفان هو الأول بين كبار الإمبرياليين الروس، وهو دور ألقى عليه جزئياً بفعل العوامل التاريخية والجغرافية. ففي العام 1453، هُزمت بيزنطة اليونانية على أيدي الأتراك العثمانيين، وتسرب اللاجئين اليونانيون شمالاً من القسطنطينية إلى موسكو، حاملين معهم الخبرة السياسية والعسكرية والإدارية البالغة الأهمية في بناء الإمبراطوريات. تمكن إيفان، بعدما صار القيصر، من هزيمة تاتار قازان، مما منحه وصولاً إلى جبال الأورال؛ وفي فترة لاحقة من حكمه، أقدم على خطوة كبرى في سبيله لغزو سيبيريا بانتصاره على خانية khanate سيبير المغولية بالقرب من نهر إرتيش، إلى الشمال الغربي من منغوليا الحالية. تلخّص قسوة إيفان ودهاؤه ما تعلمه شعبه من أجيال من «التعاملات الصبورة والمطواعة» مع الآسيويين⁽¹³⁾. كانت سرعة الاقتحام الروسي لهذا المشهد الواسع هائلة إلى درجة أنه بعد أقل من ستة عقود، أي في أوائل القرن السابع عشر، كان الروس قد وصلوا إلى بحر أوكhotsk، على حافة المحيط الهادي.

سعى إيفان أيضاً إلى غزو الجنوب والجنوب الشرقي، وبالتحديد خانية استراخان المسلمة، وهي شعبة من القبيلة الذهبية كانت تشرف على مصب نهر الفولغا والطرق المؤدية إلى منطقة القوقاز، وبلاد فارس، وآسيا الوسطى. كانت هذه أرض قبيلة النوغاي Nogai، وهي قبيلة من الأتراك الرحل الذين كانوا يتحدثون بإحدى لهجات لغة الكبشاق Kypchak. وعلى الرغم من أن النوغاي كانوا أعداء سياسيين لمسكوفيا، فقد كانوا يمارسون التجارة مع تلك الإمارة، كما رحبوا بقيام جيوش إيفان بالمحافظة على أمن الطرق الرئيسية. كان بحر أرض المراعي ضخماً بصورة معقدة، والذي شن فيه المغول والتتار، بجيوشهم المتداخلة أحياناً، الحروب - كما مارسوا التجارة أيضاً - مع الروس.



مفتاح الخريطة:

Medieval Muscovy	مسكوفيا في القرون الوسطى
Muscovy in 1300	مسكوفيا في العام 1300
Muscovy in 1462	مسكوفيا في العام 1462
Russia in 1598	روسيا في العام 1598
Kola peninsula	شبه جزيرة كولا
Barents sea	بحر بارنتس
Arctic circle	الدائرة القطبية الشمالية
White sea	البحر الأبيض
Baltic sea	بحر البلطيق
Novgorod territory	إقليم نوفغورود
Nizhniynnovgorod	نيجنيونوفغورود
Moscow	موسكو
Meshchera	مشكيرا
Volga river	نهر الفولغا
Don river	نهر الدون
Dnieper river	نهر الدنيبر
Sea of Azov	بحر آزوف
Black sea	البحر الأسود
Caucasus	القوقاز
Caspian sea	بحر قزوين
Aral sea	بحر آرال
Khanate of Astrakhan	خانية أسترخان
Miles	أميال
km	كلم

ولنتذكر أنه بمثل وعورة وتعقيد الأرض المستوية، كانت سلسلة جبال القوقاز أكثر منها في ذلك، وبالتالي أشد غرابية في أعين الروس، من حيث كونها تمثل الهاجس الروسي معهم. كان إيفان لا يعرف الكلل، ففي أعقاب انتصاره في الجنوب، شن الحرب على المنطقة التي تمثلها إستونيا ولاتفيا في الوقت الحاضر من أجل تأمين مجثم perch له على بحر البلطيق، لكنه هزم من قبل تحالف من الرابطة الهانزية Hanseatic League وجماعة ليفونيا الألمانية Order of Livonia. أدى هذا إلى عزل روسيا عن الغرب على

نحو حاسم، حتى على الرغم من تأثرها بنزع أراضيها حديثا في الشرق الأوسط وآسيا. أدت الحركة الروسية الأولى لتشكيل إمبراطورية قارية في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر إلى ترسيخ سمعة القوزاق Cossacks، الذين استخدمتهم الدولة الروسية لتدعيم موقفها في القوقاز. على الرغم من أن كلمة «القوزاق»، أو القازاق kazak، كانت تشير في الأصل إلى المحاربين المرتزقة من التتار، فقد صارت لفظة القوزاق تشير إلى الأفراد الروس، والليتوانيين، والبولنديين، الذين شعروا بالإحباط من الظروف القاسية في الضياع التي ينتمون إليها، ومن ثم هاجروا إلى السهوب الأوكرانية. وهناك، في ظل الظروف التي تسودها الفوضى على الحدود المنغولية السابقة، كانوا يعيشون كصوص، وتجار، ومستعمرين، ومرتزقة، متحولين تدريجيا إلى وحدات غير نظامية في جيش إيفان لأنهم كانوا محاربين أشداء على الرغم من أجورهم الزهيدة. وقد ظهرت مستوطنات القوزاق في وديان الأنهار، خصوصا وادي نهري الدون والدينير⁽¹⁴⁾. وكما اتفق، فإن رواية نيكولاي غوغل Gogol الكلاسيكية «تاراس بولبا» Taras Bulba، التي نشرت لأول مرة في العام 1835، قبل أن تصدر بنسختها النهائية بعد عقد من الزمن، هي قصة عن قوزاق نهر الدينير. كان غوغل قويا روسيا، لكنه رأى روسيا الأصلية الحقيقية في أوكرانيا (وهي كلمة تعني «الأرض الحدودية»)، والتي أدت سهوبها المتواصلة من دون عوائق - والتي تفتقر إلى الحدود الطبيعية ويغذيها عدد قليل نسبيا من الأنهار الصالحة للملاحة - إلى جعل شعوبها المتناحرة ميالة إلى الحرب. وعلى الرغم من أن غوغل استخدم عبارات «الروس»، و«الأوكرانيين»، و«القوزاق» للإشارة إلى هويات محددة، فقد أدرك أيضا أن هذه الهويات تتداخل فيما بينها (كما لاتزال تفعل الهويات المحلية)⁽¹⁵⁾. تتسم رواية غوغل بكآبتها بفعل العنف الذي لا يتوقف. وفي حين أن الغياب الكامل للبشرية الذي صور في هذه الصفحات هو عمل أفراد يتخذون خياراتهم الفظيعة الخاصة، فمن الصحيح أيضا أن العنف الذي تحتويه رواية تاراس بولبا يمثل، ولو جزئيا على الأقل، تعبيرا عن جغرافية السهوب الروسية والأوكرانية، حيث أدى التسطح، والقارية، وطرق الهجرة إلى وقوع النزاعات وإلى تغيرات سريعة في الحظوظ.

استمرت إمبراطورية إيفان الرابع في التوسع تحت حكم بوريس غودونوف (1598 - 1605)، لا سيما في اتجاه الجنوب الشرقي إلى ستالينغراد، وجبال الأورال، والسهوب الكازاخستانية. ولكن بعد ذلك، انهارت مسكوفيا القرون الوسطى، كما فعلت كييفان

روس قبل ذلك، هذه المرة مع قيام كل من السويديين، والبولنديين، والليتوانيين، والقوزاق بتقطيع أوصال الذبيحة. صاغت مسكوفيا القرون الوسطى نفسها على أنها «روما الثالثة»، أي الوريث الشرعي لكل من روما والقسطنطينية نفسها. وبالتالي فإن تراجع مسكوفيا، والمعروف باسم زمن الاضطرابات - وهو نتيجة التحزبات في العاصمة - جعل الأمر يبدو كأن عالمًا كاملاً وحضارة بأسرها كانت في سبيلها إلى الزوال. ومع ذلك، فلم تنته روسيا، على الرغم مما كانت تبدو عليه في ذلك الوقت. وفي غضون سنوات قليلة، وفي العام 1613، جرى تعيين ميخائيل رومانوف Romanov قيصرًا، ومن ثم فقد ظهرت أسرة حاكمة جديدة وكذلك بدأ فصل جديد في التاريخ الروسي.

كانت سلالة رومانوف التي حدّدت ملامح روسيا الحديثة، بإضافة الميكنة ومزيدا من التنظيم الإداري على الإمبريالية الروسية، فيما يمثل تحسنا عن غزوات مسكوفيا القرون الوسطى التي اتسمت بكونها رومانسية إلى حد ما، وذات هدف محدد. وخلال حكم آل رومانوف الذي استمر لثلاثة قرون، تمكنت روسيا من هزيمة وإخضاع بولندا، وليتوانيا، ودمرت السويد، وأذلت فرنسا النابليونية، واستعادت أوكرانيا، وتوسعت إلى شبه جزيرة القرم والبلقان على حساب الأتراك العثمانيين، كما وسّعت وأضفت الطابع الرسمي في الوقت نفسه على سيطرتها على منطقة القوقاز، وآسيا الوسطى، وسيبيريا وصولاً إلى الصين والمحيط الهادي. وكذلك فقد تعافت روسيا من الانتكاسات التي تعرضت لها في حرب القرم (1853 - 1856) والحرب الروسية- اليابانية (1904 - 1905). وفيما يتماشى مع الموضوع الرئيسي للتاريخ الروسي، والمتعلق بالتوسعات الهائلة والتراجعات التي لا تقل أهمية على خلفية جغرافية هائلة الاتساع وخالية من العوائق، خسر جيش آل رومانوف كلا من بولندا وغرب روسيا أمام جيش نابليون العظيم في العام 1812، بيد أنه تعافى في غضون أسابيع قليلة، مما عجّل بانسحاب الفرنسيين مرة أخرى إلى وسط أوروبا، الأمر الذي أدى إلى تدمير قوات نابليون على نحو كامل.

كان بطرس الأكبر Peter the Great، الذي حكم روسيا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، بالنسبة إلى سلالة رومانوف ما كانه إيفان الرابع لمسكوفيا في القرون الوسطى: شخصا غير عادي تثبت تصرفاته أن الجغرافيا ليست سوى جزء واحد من القصة.

بالتأكيد، فإن أشهر مآثر بطرس في التاريخ هي بناؤه مدينة سانت بطرسبرغ على شواطئ بحر البلطيق، الذي بدأ في العام 1703، والذي انطوى على حرب ضروس ضد

الإمبراطورية السويدية: قامت السويد بالغزو عبر أهوار ماسوريا في المنطقة التي تمثلها بيلاروسيا، فيما حرق الروس المحاصيل كجزء من سياسة الأرض المحروقة في المناطق الجافة، وهو تكتيك سيستخدمونه لاحقا ضد كل من نابليون وهتلر. وعلى الرغم من الإنجاز العظيم لبطرس، والمتمثل في توحيد ساحل البلطيق الروسي بإنشاء عاصمة جديدة هناك، والتي بُنيت باتجاه أوروبا، في محاولة منه لتغيير الهوية السياسية والثقافية لروسيا، فسوف يفشل في نهاية المطاف. فمع غزواتها التي تواصلت في كل اتجاه آخر، أيضا، ظلت روسيا أقرب ما تكون إلى بلد أوراسي، بل يمكن القول إنها كانت من النوع النمطي archetypal، وهي الوحيدة من هذا النوع في الواقع، والذي يجاهد لأن يصير أوروبا على الرغم من أن جغرافية وتاريخ الغزوات التي جسدها المغول قد حرمتها من هذه المكانة. وكما أشار إليه ألكسندر هيرزن Herzen، وهو مفكر أدبي روسي كبير عاش في القرن التاسع عشر:

حتى يومنا هذا، فنحن ننظر إلى الأوروبيين وإلى أوروبا بالطريقة نفسها التي ينظر بها سكان الأرياف إلى من يعيشون في العاصمة، أي باحترام وشعور بالنقص من جانبنا، والإذعان لهم والتشبه بهم، مع اعتبار أن كل ما نحن فيه مختلفون ما هو إلا نقص فينا⁽¹⁶⁾.

وعلى الرغم من أن الروس لم يكن ينبغي لهم أن يشعروا بأي خجل من حالتهم، لأنه لم يكن في وسعهم أن يكونوا إلا ما كانوا عليه: شعب انتزع إمبراطورية من طبيعة قارية مستحيلة، وبالتالي وصل إلى أبواب المشرق Levant والهند، ما شكل تهديدا لإمبراطوريتي فرنسا وبريطانيا. وقرب الوقت نفسه الذي سطر فيه هيرزن تلك الكلمات أعلاه، استولت القوات الروسية على طشقند وسمرقند على طريق التحرير القديم الموصل إلى الصين، على مقربة من حدود شبه القارة الهندية. وفي حين واجهت الإمبراطوريتان البحريتان لفرنسا وبريطانيا أعداء ألداء فيما وراء البحار، فقد واجههم الروس على أراضيهم، وبالتالي فقد تعلم الروس منذ وقت مبكر من تاريخهم أن يتسموا بالحرص واليقظة؛ فقد كانوا أمة تعيش دائما في حالة حرب، بشكل أو بآخر.

ومرة أخرى، فإن جبال القوقاز تزودنا بمثال معبر، وهو الشيشانيون المسلمون من شمال القوقاز، الذين حاربت ضدهم جيوش كاترين العظمى في أواخر القرن الثامن عشر، واستمر القتال تحت حكم القيصرية الذين خلفوها طوال القرن التاسع

عشر، فضلا عن الصراعات التي وقعت بينهم في عصرنا الحالي. وقد حدث هذا بعد فترة طويلة من كون المناطق الأكثر تكيّفا في القوقاز جنوبا، مثل جورجيا، قد خضعت بالفعل لحكم القياصرة. نبعت شراسة الشيشان من صعوبة كسب لقمة العيش من التربة الجبلية الصخرية، ومن الحاجة إلى حمل السلاح لحماية الأغنام والماعز من الحيوانات البرية. ولأن طرق التجارة تمر عبر منطقة القوقاز، فقد عمل الشيشان في الماضي كأدلة ولصوص⁽¹⁷⁾. وعلى الرغم من اعتناقهم الإسلام الصوفي - وهو أقل تعصبا في كثير من الأحيان من الفروع الأخرى للدين الإسلامي - فقد كانوا متحمسين في الدفاع عن وطنهم من الروس الذين يعتنقون الديانة المسيحية الأرثوذكسية. وفي القوقاز، كما كتب الجغرافي دينيس ج. ب. شو Shaw، فإن «التسوية بين الروس والأوكرانيين والقوزاق حول إمبراطورية المستوطنين قد اصطدمت بالمقاومة الباسلة لشعوب الجبال. ومعظم هذه الشعوب، باستثناء أغلبية الأوسيتيين، تتبع ثقافة إسلامية، مما عزز تصميمها على محاربة الدخيل الروسي». وبسبب خوفهم من الروح المستقلة لشعب شمال القوقاز، رفض البلاشفة دمج بلادهم في جمهورية واحدة وعمدوا إلى تقسيمها، ومن ثم إعادة ضمها لتشكيل وحدات مصطنعة لا تتناسب مع أنماطهم اللغوية والعرقية. وهكذا، كما يستطرد شو، فقد «جرى تجميع الكاربادينيين Karbardiens مع البلكار Balkars، على الرغم من حقيقة أن الشعب الأول لديه عدد أكبر من القواسم المشتركة مع الشراكسة Cherkessians، في حين يقترب البلكار من القراشاي Karachay». بالإضافة إلى ذلك، نفى ستالين الشيشان، والإنغوش، والكالميك Kalmyks، وغيرهم إلى آسيا الوسطى في العام 1944، بسبب تعاونهم المزعوم مع الألمان⁽¹⁸⁾.

لقد أسهمت منطقة القوقاز بقوة في جعل وجه الإمبريالية الروسية قاسيا. وهذا، كما قلنا، غالبا ما يكون مصير القوى البرية، التي تكون مضطرة في كثير من الأحيان إلى الإقدام على الغزو. ولذلك اندفع الروس، مما ألهم ماكيندر لصياغة نظريته بشأن المحور بسبب تزايد وتيرة بناء السكك الحديدية الروسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ والتي بلغت خمسة عشر ألف ميل بين عامي 1857 و1882، بحيث كانت موسكو على اتصال مع الحدود البروسية إلى الغرب ومع نيجني نوفغورود إلى الشرق، وكذلك مع شبه جزيرة القرم على شاطئ البحر الأسود في الجنوب.

وبالإضافة إلى ذلك، فما بين عامي 1879 و1886، بنى المهندسون الروس خط السكك الحديدية من كراسنوفودسك Krasnovodsk، على الشاطئ الشرقي لبحر قزوين،

إلى مرو (Merv)، التي تبعد أكثر من خمسمائة ميل إلى الشرق، على مقربة من حدود بلاد فارس وأفغانستان، وبحلول العام 1888 كان هذا الخط قد امتد 300 ميل أخرى باتجاه الشمال الشرقي إلى سمرقند (كما بُني فرع منه، من مرو جنوبا إلى قرب الحدود الأفغانية). اتبعت هذه الشرايين الجديدة للإمبراطورية التقدم العسكري الروسي في صحراء كارا كوم (Kara Kum) (الرمال السوداء) وكيزيل كوم (Kyzyl Kum) (الرمال الحمراء) الواقعة جنوبي سهوب آسيا الوسطى، في المنطقة التي تحتلها في الوقت الحاضر تركمانستان وأوزبكستان. وبسبب قربها من شبه القارة الهندية، حيث كانت القوة البريطانية حينئذ في أوجها، انضمت هذه الفورة من النشاط الإمبريالي الروسي إلى «اللعبة الكبرى» بين روسيا وبريطانيا للسيطرة على آسيا. وفي الوقت نفسه، بُني خط للسكك الحديدية لربط باكو، الواقعة على الشاطئ الغربي لبحر قزوين، مع باتومي على البحر الأسود، وذلك لتوسيع منطقة القوقاز. وفي العام 1891، بدأ الروس بناء خط للسكك الحديدية من جبال الأورال إلى المحيط الهادي، على بُعد أربعة آلاف ميل، عبر سيبيريا والشرق الأقصى، وجميع الغابات، والجبال، والمستنقعات، والأراضي الدائمة التجمد الواقعة بينها. وبحلول العام 1904، كان هناك 38 ألف ميل من السكك الحديدية في روسيا، وهي حقيقة منحت سانت بطرسبرغ وصولا إلى إحدى عشرة منطقة زمنية مختلفة، وصولا إلى مضيق بيرينغ بين ألاسكا وروسيا. أما ما حفز هذه النسخة الروسية الأخيرة من «القدر الواضح»، مرة أخرى، فهو انعدام الأمن: انعدام الأمن لدى قوة برية كان عليها أن تستمر في الهجوم والاستكشاف في كل الاتجاهات وإلا تعرضت هي نفسها للغزو.

وعلى خارطة التضاريس الأوراسية، ثمة حقيقة كبرى تبدو واضحة للعيان - والتي تشرح قصة روسيا. من جبال الكاربات في الغرب إلى هضبة سيبيريا الوسطى في الشرق، ليس هناك شيء سوى أراضٍ سهلية منخفضة، توجد بينها جبال الأورال كمجرد نتوءات صغيرة على هذا المشهد المسطح الذي تبلغ مساحته قارة كاملة. وهذا السهل المنبسط، الذي يتضمن المنطقة المركزية التي تصورها ماكيندر، يمتد من مدخلي المحيط المتجمد الشمالي للبحر الأبيض وبحر كارا إلى القوقاز، وإلى جبال هندو كوش وزاغروس في أفغانستان وإيران، وبالتالي فما كان يحرك الإمبريالية الروسية دائما هو أمل غامض في امتلاك منفذ على المياه الدافئة للمحيط الهندي القريب. لكن حالتي القوقاز وأفغانستان لم تكونا الوحيدتين اللتين توغل فيهما الروس فيما وراء المنطقة الأساسية لهذا السهل

العظيم وإلى عمق الجبال. واعتبارا من أوائل القرن السابع عشر إلى القرن العشرين، فإن الروس - أي القوزاق، وصيادي الفراء، والتجار - قد وصلوا بشجاعة إلى ما وراء نهر الينيسي Yenesei، من غرب إلى شرق سيبيريا والشرق الأقصى، وهي منطقة متجمدة مترامية الأطراف تضم سبع سلاسل جبلية، الرئيسية يبلغ عرضها 2500 كيلومتر، والتي يمكن فيها للصقيع أن يستمر طوال تسعة أشهر في السنة. وفي حين كان غزو روسيا البيضاء وأوكرانيا أمرا طبيعيا بسبب التقارب الوثيق والتاريخ المشترك والمتشابك لهذه الأراضي مع روسيا، ففي سيبيريا أنشأ الروس «إمبراطورية نهريّة شمالية»⁽¹⁹⁾ جديدة تماما. وكما كتب جورج بروس لينكولن في كتابه التاريخي الوقور «غزو قارة: سيبيريا والروس»، «إن الغزو الذي حدّد عظمتها [الروسية] كان في آسيا»، وليس في أوروبا⁽²⁰⁾. إن الدراما التي وقعت أحداثها في شرق سيبيريا وما وراءها تلخص التجربة التاريخية الروسية في شكلها الأشد حدة. من جانبه، كتب فيليب لونغويرث:

أدت قسوة المناخ إلى جعلهم يتسمون بالجرأة وقوة التحمل؛ إن ضخامة طبيعتهم وانخفاض كثافتها الاستيطانية، فضلا عن قصر مدة موسم الحصاد، قد شجعت كلا من التعاون والإكراه في العلاقات الاجتماعية، فقد احتاج الروس إلى قدر أكبر من التنظيم مقارنة بأغلبية الشعوب من أجل البقاء على قيد الحياة... أدت هذه الحاجة في الماضي إلى تسهيل ظهور الأنماط المركزية والاستبدادية للحكومة، كما شجعت تلك الأنماط التي تنطوي على قدر أكبر من المشاركة⁽²¹⁾.

يتضخم نهر الينيسي إلى فيضان يبلغ عرضه ثلاثة أميال، إضافة إلى كونه سادس أطول نهر في العالم، والذي يتدفق شمالا لمسافة 3400 ميل من منغوليا إلى القطب الشمالي. وباعتباره أكثر في ذلك بكثير من جبال الأورال، فهو يمثل الخط الفاصل الحقيقي بين الروسييتين - بين غرب وشرق سيبيريا، مع آلاف الأميال من الأراضي المنخفضة المنبسطة التي تشير إلى ضفته الغربية، وآلاف الأميال من الهضاب والجبال الثلجية على الضفة الشرقية. كتب الرحالة البريطاني كولن ثوبورن Thubron أن «تدفق هذا النهر من فراغ، كأنه شيء متجسّد، حامل للزمن، سلميّ ورهيب في آن معا، هو ما يسبب تقلص معدني». وعند نقطة أخرى، تقع للشمال أكثر على طول النهر، فيما وراء الدائرة القطبية الشمالية، كما يستطرد، فإن «الأرض تتسطّح على محورها، فيما يختفي خط الساحل shoreline على البُعد. لا شيء، على ما يبدو، قد حدث هنا منذ الأزل. ولذلك... فإن التاريخ يصبح هو الجيولوجيا»⁽²²⁾.

أدت جاذبية فراء الحيوانات إلى جلب أوائل المستكشفين إلى هذا الجانب الجليدي الآخر من العالم، والذين سيحضرون لاحقا من أجل الموارد الطبيعية: النفط، والغاز الطبيعي، والفحم، والحديد، والذهب، والنحاس، والغرافيت، والألومنيوم، والنيكل، ومجموعة كبيرة من المعادن والفلزات الأخرى، وكذلك الطاقة الكهربائية المولدة بواسطة أنهار سيبيريا: فكما يفصل نهر الينيسي بين غرب وشرق سيبيريا، فإن نهر لينا الذي لا يقل عنه مهابة يفصل شرق سيبيريا عن الشرق الأقصى الروسي. وبالفعل، ففي حين تتدفق الأنهار الكبرى لسيبيريا من الجنوب إلى الشمال، فإن روافدها تمتد شرقا وغربا، «مثل الفروع المتشابكة... للأشجار العملاقة»، ما يشكل منظومة كبرى لنقل البضائع⁽²³⁾.

كانت المناجم المنتشرة عبر هذا المشهد هي ما سيشكل قلب الأنظمة العقابية القيصرية والسوفييتية. وفي الواقع، كانت جغرافية سيبيريا مرادفا للقسوة والثروة الإستراتيجية، مما جعل روسيا على مدى عقود قوة مظلمة أخلاقيا وغنية بالطاقة في الوقت نفسه. وقد ارتبط الظهور المفاجئ لروسيا بين القوى العظمى في أوروبا في أوائل القرن الثامن عشر بالإمدادات الوفيرة من خام الحديد الذي اكتُشف في غابات الأورال، والذي يصلح لصنع المدافع والبنادق، وهي من المعدات الضرورية للغاية لشن الحرب الحديثة. وبالمثل، ففي منتصف ستينيات القرن العشرين، أدى اكتشاف حقول هائلة من النفط والغاز الطبيعي في شمال غرب سيبيريا إلى جعل روسيا إحدى القوى العظمى في مجال الطاقة في مطلع القرن الحادي والعشرين⁽²⁴⁾. وقد أدى غزو سيبيريا أيضا إلى تحقيق شيء آخر: فقد جلب روسيا إلى عالم الجغرافيا السياسية للمحيط الهادي، ومن ثم إلى الصراع مع كل من اليابان والصين. لقد كان الصراع الروسي مع الصين في قلب ديناميات الحرب الباردة، على الرغم من محورية هذا الصراع في إستراتيجية أمريكا الخاصة، والمتعلقة بالتعامل مع كل من هاتين القوتين في القرن الحادي والعشرين⁽²⁵⁾.

وخلافا لأنهار إرتيش Irtych، وأوب Ob، والينيسي، ولينا، فإن نهر أمور Amur لا يتدفق من الجنوب إلى الشمال، بل من الغرب إلى الشرق، حيث يتحد مع نهر أوسوري Ussuri لتشكيل الحدود الحالية بين الشرق الأقصى الروسي ومنشوريا الصينية. إن هذه المنطقة الحدودية، والمعروفة باسم أموريا Amuria، والواقعة إلى الشمال من الحدود الصينية، والتي تقع أوسوريا Ussuria إلى الشرق منها، قد نشبت الحروب من أجلها بين روسيا القيصرية والصين في عهد أسرة تشينغ Qing (مانشو) منذ منتصف القرن

السابع عشر، عندما دخل قطاع الطرق الروس إلى المنطقة، وبعدهم جنود مسكوفيا، الذين تبعهم الديبلوماسيون لاحقا، في وقت كان المانشو مشتتين فيه بفعل غزواتهم لتايوان وأجزاء من البر الرئيسي للصين. بلغت هذه العملية ذروتها في العام 1860، عندما أجبرت الصين الضعيفة تحت قيادة سلالة حاكمة مضمحلة على قبول نقل 350 ألف ميل مربع من الأراضي من السيادة الصينية إلى تلك الروسية، مما شكّل الحدود الحالية بين البلدين⁽²⁶⁾. أما الآن وقد صارت الصين قوية وروسيا ضعيفة نسبيا، تتعرض هذه الحدود مرة أخرى لضغوط من المستوطنين والشركات الصينية التي تسعى إلى التحرك شمالا، من أجل الاستفادة من النفط والغاز الطبيعي والأخشاب، وغيرها من الموارد التي تضمها هذه المنطقة. تفرض الجغرافيا علاقة متوترة على الدوام بين روسيا والصين، يخفيها تحالفهما التكتيكي الحالي، والذي يتسم بكونه مناهضا إلى حد ما للولايات المتحدة. وفي يوليو 2009، قدّم رئيس الأركان العامة الروسية نيكولاي ماكاروف Makarov عرضا بالشرائح ذكر أنه قال فيه إن «حلف شمال الأطلسي والصين... هم أخطر منافسينا الجيوسياسيين»⁽²⁷⁾.

وما تُلقى الضوء عليه هذه الجغرافيا هو شيء كثيرا ما يُنسى؛ وهو أن روسيا مثّلت، تاريخيا، جزءا مُهما من ديناميات السلطة في شرق آسيا. نشبت الحرب الروسية - اليابانية خلال عامي 1904 و1905 جزئيا بسبب مطالبة اليابان أن تعترف روسيا بالسيادة الصينية على منشوريا (وكذلك بحرية اليابان في التدخل في كوريا)، وهو ما رفضه الروس. إن نهاية تلك الحرب، بالإضافة إلى إذلال النظام القيصري، قد شكلت إهانة أكبر منها للصين تحت حكم أسرة تشينغ، إذ وقعت الحرب بسبب أراضٍ يعتبرها المانشو جزءا من تراثهم. ويعني ذلك أن هزيمة الروس أبقت على سيطرتهم على إقليمي أموريا وأوسوريا، اللذين كان المانشو يطمعون فيهما.

وبقدر أكثر مما فعلته الحرب الروسية - اليابانية، التي فقدت فيها روسيا النصف الجنوبي من جزيرة سخالين Sakhalin وأجزاء من جنوب منشوريا (التي ينبغي، وفقا لمنطق الجغرافيا، أن تكون جزءا من الصين على أي حال)، فقد كانت الثورة الروسية في العام 1917 وما أعقبها من الفوضى هي ما زعزع سيطرة روسيا على شرقها الأقصى. سيطرت الصين، واليابان، والولايات المتحدة (وهي قوة صاعدة في الشرق الأقصى في حد ذاتها) على أجزاء من السكك الحديدية العابرة لسيبيريا بين بحيرة بايكال في الغرب وميناء فلاديفوستوك في الشرق، في حين وقعت فلاديفوستوك

نفسها تحت الاحتلال الياباني بين العامين 1918 و1922، إذ احتل 80 ألف جندي ياباني منطقة أمور خلال تلك الفترة.

وعلى أي حال، فقد حوّل جيش لينين الأحمر تدريجياً تيار الحرب الأهلية ضد الروس البيض من مناهضي الثورة. ونتيجة لذلك، تمكنت الدولة السوفييتية الجديدة من استعادة السيطرة على الأراضي الواقعة على أطرافها، وخصوصاً في المناطق العرقية التركية من صحارى آسيا الوسطى، حيث خشي البلاشفة أن يكونوا عرضة للهجوم من قبل البريطانيين في الهند، الذين يعملون عبر أفغانستان. كان البلاشفة، على الرغم من أيديولوجيتهم المعلنه حول وحدة جميع العمال في العالم، واقعيين عندما واجهتهم «المشكلة القديمة قدم الأزل»، والمتعلقة بقوة الأرض المتراصة الأطراف: أي التهديد بالهجوم على أطرافها. وأياً كان من يحكم روسيا، فينبغي عليه مواجهة حقيقة وجود مساحات شاسعة من الأراضي المسطحة على نحو مأساوي، والتي تُفضي إلى الدول المتجاورة في عدة اتجاهات. ولتعويض ذلك، أصبح البلاشفة هم الإمبرياليين الروس مثل القيصرية الذين سبقوهم؛ فأخضعوا لسيطرتهم كلا من المولدوفيين، والشيشان، والجورجيين، والأذربيجانيين، والتركمان، والأوزبك، والكازاخ، والطاجيك والقرغيز، والبوريات - المغول، والتتار، وغيرهم. برر البلاشفة فتوحاتهم هذه بسهولة: فبعد كل شيء، فهم قد منحوا نعمة الشيوعية لهذه الشعوب، حتى في الوقت الذي أعلنوها جمهوريات سوفييتية تابعة لهم⁽²⁸⁾. وباتباع ما فرضته الجغرافيا، مهما كان ذلك لاشعورياً، فقد أعاد البلاشفة نقل العاصمة شرقاً إلى موسكو، بعد أن كانت سانت بطرسبرغ الواقعة على بحر البلطيق، مما عمل على استعادة الواقع الآسيوي في معظمه، والذي كانت له على الدوام أهمية محورية بالنسبة إلى الوجود الروسي. وبدلاً من النظام شبه العصري الذي منحه بطرس الأكبر، الذي حكم روسيا من «نافذتها على الغرب» الواقعة على بحر البلطيق، نشأت الآن دولة تُحكم من أروقة الكرملين، وهو المقر التاريخي شبه الآسيوي لمسكوفيا في العصور الوسطى⁽²⁹⁾. تألف الاتحاد السوفييتي الجديد من ثلاث جمهوريات اتحادية - هي روسيا، وأوكرانيا، وروسيا البيضاء - وإحدى عشرة جمهورية ذاتية الحكم ومنطقة فرعية. ولكن لأن كثيراً من هذه الجمهوريات لم تكن متراكبة بدقة على الحدود العرقية - فعلى سبيل المثال، كانت هناك أقلية طاجيكية كبيرة في أوزبكستان وأقلية أوزبكية أكبر في طاجيكستان - فقد كان الانفصال بينهما مستحيلاً من دون حرب أهلية، وبالتالي أصبح الاتحاد السوفييتي سجنًا للأمم.

كان سجن الأمم هذا عدوانيا بالقدر نفسه خلال القرن العشرين، على الرغم من كون هذه الفترة أكثر مدعاة لانعدام الأمن من أي وقت مضى. وفي العام 1929، هاجمت أسلحة المشاة، والفرسان، والطيران السوفييتية الحافة الغربية من منشوريا من أجل انتزاع السيطرة على السكك الحديدية التي تمر عبر الأراضي الصينية. وفي العام 1935، ضم الاتحاد السوفييتي دولا تابعة افتراضية تمثلت في مقاطعة شينجيانغ الواقعة غربي الصين، في حين أصبح الجزء الخارجي من منغوليا جمهورية منغوليا الشعبية، المنحازة بقوة للاتحاد السوفييتي. وفي الوقت نفسه، ففي روسيا الأوروبية، أدى توقيع المعاهدة الروسية - الألمانية في العام 1939 إلى السماح لستالين بضم شرق بولندا، وفنلندا الشرقية، وبيسارابيا Bessarabia، ودول البلطيق الثلاث؛ ليتوانيا، ولاتفيا، وإستونيا. كانت روسيا، تحت ستار الاتحاد السوفييتي، قد توسعت الآن من أوروبا الوسطى إلى شبه الجزيرة الكورية. ومع ذلك، وكما أثبتت الأحداث، فقد ظلت روسيا غير آمنة؛ فقد أصرت الجغرافيا على أن يكون لها رأي في هذه المسألة. أوصل غزو هتلر في العام 1941 باتجاه الشرق عبر سهول روسيا الأوروبية القوات الألمانية إلى ضواحي موسكو، كما صار في متناولها الوصول إلى بحر قزوين، إلى أن جرى إيقاف تقدمها في ستالينغراد في أوائل العام 1943. وعند نهاية الحرب، صبّ السوفييت جام انتقامهم، بإعطاء متنفس لقرون من انعدام الأمن الجغرافي منذ أيام نهب المغول لكيفان روس. بعد انهيار ألمانيا النازية واليابان الفاشية، استحوذ الاتحاد السوفييتي بفعالية على كامل النصف الشرقي لأوروبا عن طريق إقامة نظام من الدول الشيوعية التابعة، والتي ضمن السوفييت ولاءها في معظم الحالات بفعل وجود القوات السوفييتية، التي كانت قد تدفقت مرة أخرى عبر السهول المنبسطة غربا - عبر أنهار الدنيبر، وفيستولا، والدانوب - مع فشل الخطط اللوجستية لآلة هتلر الحربية وسط الاتساع الهائل لروسيا الأوروبية، وهو ما يشبه كثيرا ما حدث لجيوش نابليون قبل ذلك بقرن من الزمان. وبحلول ذلك الوقت، كانت هذه الإمبراطورية الأوروبية السوفييتية الشرقية قد امتدت في قلب أوروبا الوسطى بأعمق مما فعلت إمبراطورية آل رومانوف بين العامين 1613 و1917، بحيث شملت جميع الأراضي التي وعدت بها روسيا في المعاهدة بين النازيين والسوفييت⁽³⁰⁾. وفي الطرف المقابل من الاتحاد السوفييتي، استحوذت موسكو على جزيرتي سخالين والكوريل الواقعتين إلى شمال اليابان، والمتاخمتين لمنطقة الشرق الأقصى الروسي. سمحت دولة الصين التي كانت تعاني الفوضى والضعف في أعقاب

الاحتلال الياباني والصراع على السلطة بين الشيوعيين بقيادة ماو تسي تونغ Mao Zedong والقوميين بزعامة تشيانغ كاي تشيك Chiang Kaishek بوجود قوات روسية كبيرة في منشوريا، وتوطيد دعائم منغوليا الخارجية الموالية للاتحاد السوفيتي، إضافة إلى نظام شيوعي موال في النصف الشمالي من شبه الجزيرة الكورية. وفي شبه الجزيرة الكورية، فإن القوات البرية الهائلة للاتحاد السوفيتي - وتلك الخاصة بالصين التي توشك على التحول إلى الشيوعية - ستواجه القوات البحرية للولايات المتحدة، ما ساعد على تسهيل نشوب الحرب الكورية بعد خمس سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية. تمثلت نتيجة الحرب العالمية الثانية في إنشاء قوة المنطقة المركزية التي وصفها ماكيندر على هيئة روسيا السوفيتية، جنباً إلى جنب مع القوة البحرية العظمى التي تصورها ماهان وسبيكمان، متمثلة في الولايات المتحدة. ستأثر مصائر دول أوروبا والصين على حد سواء بالانتشار نفسه للقوات السوفيتية عبر المنطقة المركزية، على الرغم من أن الشرق الأوسط الكبير وجنوب شرق آسيا في الأرض المحيطة الأوراسية ستستشعر ضغط القوات البحرية والجوية الأمريكية. كانت هذه هي الحقيقة الجغرافية النهائية للحرب الباردة، التي حجبها الأيديولوجية الشيوعية القادمة من موسكو والمثال الديمقراطي الآتي من واشنطن.

لكن الحرب الباردة، والتي بدا أنه لا نهاية لها بالنسبة إلى أمثالي ممن نشأوا خلال هذه الفترة، قد ثبت أنها مجرد مرحلة أخرى من التاريخ الروسي، والتي انتهت وفقاً لما تفرضه الجغرافيا الروسية المألوفة. أدت محاولة ميخائيل غورباتشوف Gorbachev لإصلاح الشيوعية السوفيتية في ثمانينيات القرن العشرين إلى كشف صورة النظام كما كانت عليه في الواقع: إمبراطورية جامدة من الشعوب الخاضعة، التي تقطن في كثير من الحالات السهوب البرية والأطراف الجبلية للغابات والسهول الروسية. وفي الواقع، فبمجرد أن أعلن غورباتشوف نفسه أن المبادئ الأيديولوجية التي قامت عليها الإمبراطورية كانت معيبة للغاية، بدأ النظام بأكمله ينهار مع انفصال الأجزاء الهامشية عن المركز الروسي بقدر ما فعلت بعد فشل كيفان روس في منتصف القرن الثالث عشر، ومسكوفيا القرون الوسطى عند بداية القرن السابع عشر، وإمبراطورية آل رومانوف في أوائل القرن العشرين. ولهذا السبب، أشار المؤرخ فيليب لونغويرث إلى أن أحداث التوسع والانهيال المتكررة عبر تضاريس مسطحة عموماً كانت سمة رئيسية للتاريخ الروسي. وفي واقع الأمر، كما يشرح الجغرافي والمتخصص في الشأن الروسي دينيس شو

Shaw، ففي حين أدت الحدود المفتوحة والعبء العسكري الناتج عنها، إلى «تعزيز مركزية الدولة الروسية» - فبالفعل، كانت قوة القياصرة أسطورية - فقد كانت روسيا، مع ذلك، دولة ضعيفة، لأن القياصرة لم يقوموا ببناء مؤسسات إدارية قوية في المقاطعات النائية. أدى هذا إلى جعل روسيا حتى أكثر عرضة للغزو⁽³¹⁾.

وفي العام 1991، عندما انحل الاتحاد السوفييتي رسمياً، تقلصت روسيا إلى أصغر حجم لها منذ قبل عهد كاترين العظمى؛ فقد خسرت حتى أوكرانيا، وهي المنطقة المركزية الأصلية لكيفان روس. ولكن على الرغم من خسارة أوكرانيا، ودول البلطيق، ومنطقة القوقاز، وآسيا الوسطى، وعلى الرغم من الشكوك العسكرية في الشيشان وداغستان، وتتارستان، وعلى الرغم من ظهور منغوليا الخارجية كدولة مستقلة متحررة من وصاية موسكو، فلاتزال أراضي روسيا تزيد على تلك التي تمتلكها أي أمة أخرى على وجه الأرض، إذ تغطي أكثر من ثلث قارة آسيا، مع حدود برية لاتزال تمتد على مدى نحو نصف المناطق الزمنية في العالم من خليج فنلندا إلى بحر بيرينغ. وعلى الرغم من هذه المساحة الهائلة والجرداء - التي لم يعد تحرسها الجبال والسهوب من أطرافها - فلا بد لها الآن من أن تحظى بحماية السكان الذين لا يزيد عددهم سوى بقليل على نصف عدد سكان الجمهوريات السوفييتية السابقة⁽³²⁾ (كان عدد سكان روسيا يقل عن سكان بنغلاديش، في الواقع).

ربما لم يحدث من قبل أن كانت روسيا عرضة للهجوم جغرافيا في وقت السلم، ففي جميع أرجاء سيبيريا والشرق الأقصى الروسي، لم يكن هناك سوى 27 مليون نسمة⁽³³⁾. لم يضع قادة روسيا أي وقت في تقييم الوضع المزري، فبعد أقل من شهر من تفكك الاتحاد السوفييتي، صرح وزير الخارجية الروسي أندريه كوزيريف Kozyrev لجريدة روسيسكايا غازيتا Rossiyskaya Gazeta قائلاً «لقد أدركنا بسرعة أن الجغرافيا السياسية تحل محل الأيديولوجية»⁽³⁴⁾. وكما كتب الأستاذ الفخري بجامعة إدنبورج، جون إريكسون Erickson: «إن الجغرافيا السياسية، التي تعرضت لشيطنة مستمرة خلال أيام الاتحاد السوفييتي، قد عادت بغضب لتلاحق روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي». كانت إدانات الجغرافيا السياسية بوصفها أداة للعسكرة الرأسالية قد اختفت: ليس فقط أنه قد أعيد تأهيل الجغرافيا السياسية في روسيا بوصفها تخصصاً علمياً، بل وحتى تحسنت سمعة ماكيندر، وماهان، وكارل هاوسهوفر. وفي «مط ماكندري جديد لا يعرف الخجل»، أعلن الزعيم الشيوعي من الحرس القديم جينادي زيوغانوف Zyuganov أنه

ينبغي على روسيا أن تستعيد السيطرة على «المنطقة المركزية»⁽³⁵⁾. وبالنظر إلى صعود الحياة ونحوسها التي شهدتها التاريخ الروسي، بالإضافة إلى أوجه الضعف الجغرافية الجديدة، فلم يكن لدى روسيا أي خيار سوى أن تصبح قوة تعديلية revisionist، عازمة - بصورة خفية أو غير خفية حتى - على استعادة جوارها القريب في روسيا البيضاء، وأوكرانيا، ومولدوفا، والقوقاز، وآسيا الوسطى، حيث لا يزال يعيش نحو 26 مليون روسيا. وخلال عقد التسعينيات الضائع، عندما كانت روسيا على حافة الانهيار الاقتصادي، وكانت بالتالي ضعيفة ذليلة، كانت هناك دورة جديدة من التوسع في طور التكوّن. أشار الزعيم القومي الروسي المتطرف فلاديمير جيرينوفسكي Zhirinovsky إلى أن جنوب القوقاز، وكذلك تركيا وإيران، وأفغانستان، يجب أن تخضع الآن جميعها إلى السيادة الروسية. وعلى الرغم من أن تطرف جيرينوفسكي لا تشاركه فيه الأغلبية العظمى من الروس، فقد مس على الرغم من ذلك توجهها خفيا حيويًا في التفكير الروسي. وفي الواقع أن ضعف روسيا الحالي في أوراسيا قد جعل الجغرافيا نفسها تمثل هاجسا روسيا في مطلع القرن الحادي والعشرين.

وبطبيعة الحال، فلن يُعاد تشكيل الاتحاد السوفييتي مطلقا. ومع ذلك، فإن شكلا أكثر مرونة من الاتحاد الذي يصل إلى حدود الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية قد يكون أمرا قابلا للتحقيق. ولكن ما الذي يمكن أن يمثل النداء الأسمى وراء ذلك؟ ماذا عساها أن تكون الفكرة التي يمكن أن يبرر بها الروس أخلاقيا تلك الموجة المقبلة من التوسع؟ كتب زبيغنيو بريجنسكي في كتابه الملعون «رقعة الشطرنج الكبرى: التفوق الأمريكي وضروراته الجيوستراتيجية» أن الروس بدأوا، في تسعينيات القرن العشرين، إحياء مذهب الأوراسية Eurasianism الذي يعود إلى القرن التاسع عشر بديلا للشيوعية، من أجل إغراء الشعوب غير الروسية بالعودة إلى الاتحاد السوفييتي السابق⁽³⁶⁾. تتناسب الأوراسية جيدا مع شخصية روسيا التاريخية والجغرافية. ولكونها تمتد عبر مساحة شاسعة من أوروبا إلى الشرق الأقصى، على الرغم من عدم ارتباطها بأيهما، فإن روسيا، بطريقة لا تشبه أي بلد آخر، تجسد أوراسيا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الجغرافيا المغلقة التي تتسم بوجود أزمة للمتسع في القرن الحادي والعشرين - والتي تعمل على تحطيم التقسيمات التي وضعها الخبراء خلال فترة الحرب الباردة - يجعل فكرة أوراسيا أكثر وضوحا باعتبارها كلاً whole قاريا متناسقا. ولكن في حين أن أوراسيا قد تصبح مفهوما أكثر فائدة من أي وقت مضى بالنسبة إلى الجغرافيين وخبراء

الجغرافيا السياسية خلال السنوات المقبلة، فهذا لا يعني أن الجورجيين، أو الأرمن، أو الأوزبك، مع جميع الأحمال التاريخية والعاطفية المتوافقة مع هذه الهويات العرقية، سيبدأون التفكير في أنفسهم باعتبارهم «أوراسيين» Eurasians. صارت القوقاز قوقازا على وجه التحديد لأنها مرجل للهويات والصراعات العرقية: وهي الهويات التي، مع انهيار تكتلات القوى التي شهدتها الحرب الباردة، صارت تمتلك القدرة على أن تصبح أكثر تطوراً على نحو ثري. ويصدق الشيء نفسه على جزء كبير من آسيا الوسطى. فحتى لو استطاع الروس، والكازاخ مثلاً، قمع التنافس العرقي عن طريق نوع ما من «الاتحاد الأوراسي»، فلا يبدو أن الأوراسية تمثل قضية يمكن أن يموت الناس لأجلها؛ أو شيء يمكن أن يبعث القشعريرة في أوصالهم؛ خصوصاً أن الأوكرانيين، والمولدوفيين، والجورجيين، وغيرهم يتوقون إلى أن يصبحوا أوروبيين. ولكن إذا أمكن للأوراسية قمع الاختلافات مهما كانت طفيفة في بعض أوساط الاتحاد السوفييتي السابق، وبالتالي تساعد على الاستقرار، ألن تكون جديرة بالاهتمام في حد ذاتها؟

وكما أن الجغرافيا ليست تفسيراً لكل شيء، فإنها كذلك ليست حلاً. إن الجغرافيا هي مجرد خلفية ثابتة يمكن لمعركة الأفكار أن تستمر أمامها حتى النهاية. وحتى عندما تكون الجغرافيا موحدة - كما في حالة أمريكا أو بريطانيا العظمى، أو الهند أو إسرائيل - فإن المثل العليا للديموقراطية، والحرية، والصهيونية (بعنصرها الروحي) قد ظلت، على الرغم من ذلك، تمثل عناصر أساسية للهوية القومية. وعندما لا يكون لدى شعب ما أي شيء آخر يوحدهم سوى الجغرافيا، كما في حالة مصر تحت حكم الرئيس السابق حسني مبارك أو اليابان تحت الحزب الليبرالي الديموقراطي الحاكم سابقاً، ستُصاب الدولة حينئذ بوهن لا يقاوم: قد تكون مستقرة، بفضل الجغرافيا، لكن هذا هو كل شيء. وبالتالي فإن روسيا، بعد حرمانها من الحكم القيصري، والشيوعية، تتطلب مثلاً سامياً وموحداً يتجاوز الجغرافيا إذا كان لها أن تنجح في إعادة اجتذاب الشعوب التي كانت خاضعة لها في السابق، لا سيما أن سكانها القليلين آخذون في التناقص بسرعة. وفي الواقع، وبسبب انخفاض معدلات المواليد وارتفاع معدلات الوفيات، وزيادة معدلات الإجهاض، وانخفاض وتيرة الهجرة، فإن سكان روسيا البالغ عددهم 141 مليوناً قد ينخفض إلى 111 مليوناً بحلول العام 2050 (ومما يسرع هذه المعدلات، نجد المستويات السامة لتلوث المياه والتربة، كجزء من تدهور بيئي عام). وفي الوقت نفسه، فإن المجتمع الإسلامي الاسمي في روسيا آخذ في الازدياد، بحيث قد يشكلون

ما يصل إلى عشرين في المائة من سكان البلاد خلال عقد من الزمن، على الرغم من أنهم يعيشون في شمال القوقاز ومنطقة الفولغا - الأورال، وكذلك في موسكو وسانت بطرسبرغ، بحيث تميل نحو الانفصالية الإقليمية، بينما تمتلك أيضا القدرة على الانخراط في عمليات إرهابية في المناطق الحضرية. وكذلك فإن عدد أطفال النسوة الشيشانيات يزيد بأكثر من الثلث عما تلده نظيرتهن الروسيات. ومن دون ريب أن مجرد الاحتكام إلى الجغرافيا - وهو في الحقيقة ما تعنيه الأوراسية وما يصاحبها من رابطة الدول المستقلة - قد لا يسمح لإعادة بعث الإمبراطورية الروسية بالتنافس مع كیفان روس، أو مسكوفيا القرون الوسطى، أو سلالة رومانوف، والاتحاد السوفيتي.

في هذا السياق، يجادل ديمتري ترينين Trenin، مدير مركز كارنيغي في موسكو، بأنه في القرن الحادي والعشرين، فإن «قوة الجذب تتغلب على قوة الإكراه»، وبالتالي «يجب أن تكون القوة الناعمة محورية في سياسة روسيا الخارجية». وبعبارة أخرى، فإن روسيا التي جرى إصلاحها حقا ستكون في وضع أفضل لبسط نفوذها إلى جميع أنحاء أطرافها الواقعة في أوراسيا. ولكون اللغة الروسية هي اللغة المشتركة من البلطيق إلى آسيا الوسطى، فإن الثقافة الروسية، «من بوشكين إلى موسيقى البوب»، لاتزال مطلوبة. وبالتالي، فإن محطة تلفازية تبث برامجها باللغة الروسية سيمكنها، في حال وجود روسيا متجددة فكريا، «ستصبح مثل قناة الجزيرة بالنسبة إلى الناطقين بالروسية». ووفقا لطريقة التفكير هذه، فإن الديمقراطية الليبرالية هي المثال الوحيد الذي يمكن أن يسمح لروسيا بإعادة تحقيق ما ترى أنه مصيرها الجغرافي⁽³⁷⁾. وتتوافق هذه الفكرة مع ملاحظة سولجينيتسين في العام 1991 بأن «الوقت قد حان للقيام باختيار عسير بين إمبراطورية كنا نحن أنفسنا ضحاياها الرئيسيين، وبين الخلاص الروحي والجسدي لشعبنا»⁽³⁸⁾.

وفي الحقيقة أن هناك جانبا جغرافيا في تحليل ترينين، فهو يجادل بأن روسيا يجب أن تركز على أطرافها - أي أوروبا والمحيط الهادي - أكثر من تركيزها على منطقتها المركزية الأوراسية. ومن شأن التشديد على التعاون مع أوروبا أن يحرك سلوكيات روسيا غربا. وتُظهر الخريطة السكانية لروسيا أنه على الرغم من مساحة بلادهم الممتدة عبر إحدى عشرة منطقة زمنية، فإن الأغلبية الساحقة من الروس يعيشون في أقصى الغرب المجاور لأوروبا. وبالتالي، فمن الممكن للإصلاح السياسي والاقتصادي الحقيقي، عند اندماجه مع العوامل الديموغرافية، أن يجعل من روسيا دولة أوروبية أصيلة. وفيما

يتعلق بالمحيط الهادي، فإنه «يجدر بروسيا أن تفكر في جعل فلاديفوستوك عاصمتها في القرن الحادي والعشرين»، كما كتب ترينين. تتسم فلاديفوستوك بكونها ميناء بحريا عالميا، على مقربة من بكين، وهونغ كونغ، وسيول، وشنغهاي وطوكيو، وهي المنطقة الاقتصادية الأكثر ديناميكية في العالم⁽³⁹⁾. وبالفعل، لأن الاتحاد السوفييتي القديم كان ينظر إلى شرقه الأقصى كمنطقة لاستغلال المواد الخام بدلا من اعتبارها بوابة إلى الدول المطلة على المحيط الهادي، فإن النهضة الاقتصادية التي بدأت في شرق آسيا في سبعينيات القرن العشرين، واستمرت حتى وقتنا الحاضر، قد تجاوزت روسيا تماما⁽⁴⁰⁾. يجادل ترينين بأن الوقت قد فات لتصحيح ذلك - وبالتالي فإن روسيا تعاني نتيجة لذلك. أما الصين، والتي - بدلا من روسيا - اتبعت خطى جيرانها من الدول المطلة على المحيط الهادي، أي اليابان وكوريا الجنوبية، في تبني رأسمالية السوق، فتبرز الآن بوصفها القوة العظمى في أوراسيا. وقد منحت بكين آسيا الوسطى 10 مليارات دولار في شكل قروض، كما ساعدت روسيا البيضاء من خلال عملية لتبادل العملات، وقدمت مليار دولار كمساعدات لمولدوفا الواقعة على الطرف الآخر من القارة، كما تعمل على تطوير مساحة لنفوذها في الشرق الأقصى الروسي. وبالنسبة إلى روسيا، فإن الإستراتيجية المقابلة ستتمثل في ربط نفسها سياسيا بأوروبا، واقتصاديا بشرق آسيا. وهكذا، يمكن لروسيا أن تحل مشاكلها في القوقاز ووسط آسيا - بأن تصبح جذابة حقا لتلك الجمهوريات السوفييتية السابقة، التي ترغب شعوبها أنفسهم في الحصول على الحريات ومستويات المعيشة المتوافرة في الحواف الغربية والشرقية من أوراسيا.

تمتلك روسيا في الواقع فرصة للحصول على مصير مماثل لما شهدته قبل قرن من الزمان، فلو لم تكن السلطة في روسيا قد انتزعت في العام 1917 من قبل البلاشفة في لحظة هشة على وجه الخصوص، لكان من الممكن تماما، وحتى من المحتمل، أن تتطور روسيا خلال القرن العشرين إلى نسخة أشد فقرا وأكثر فسادا وأقل استقرارا بقليل من فرنسا وألمانيا، والمرتكزة على الرغم من ذلك إلى أوروبا، بدلا من أن تصبح الوحش الستاليني الذي صارت إليه. ففي نهاية المطاف، كان النظام القديم، الذي يشبه بشدة النظام القيصري الألماني، بنبلائه الناطقين بالفرنسية، وبرلمانه البرجوازي في العاصمة الأوروبية سانت بطرسبرغ، ذا توجه غربي، حتى لو لم تكن طبقة الفلاحين كذلك⁽⁴¹⁾. ولذلك، مرة أخرى، ففي حين أن خريطة التضاريس الروسية تنتشر في جميع أنحاء آسيا، فإن الخريطة السكانية لروسيا تفضل أوروبا.

كانت الثورة البلشفية بمنزلة رفض تام لهذا التوجه شبه الغربي. وبالمثل، فإن الجرعة المنخفضة من الفاشستية authoritarianism تحت حكم فلاديمير بوتين Putin منذ العام 2000، وسواء كرئيس أو كرئيس للوزراء في وقت لاحق، تمثل رفضا لتجربة الانسحاب المفاجئ من الديمقراطية الغربية ورأسمالية السوق التي جعلت روسيا التي تعملها الفوضى تجثو على ركبتها في تسعينيات القرن العشرين، في أعقاب انهيار الشيوعية. وخلال السنوات الأخيرة، لم يعمل بوتين والرئيس الروسي ديمتري ميدفيديف Medvedev على توجيه روسيا تماما نحو أوروبا والمحيط الهادي، وبالتالي لم يقوما بإصلاح روسيا من أجل جعلها قوة أكثر جاذبية للشعوب التي كانت خاضعة لها في السابق (وفي الواقع، فإن مجالات التجارة، والاستثمار الأجنبي، والتكنولوجيا، والبنية التحتية، والتحصيل العلمي، «قد غطتها الغيوم المظلمة» بالنسبة إلى روسيا تحت حكم بوتين)⁽⁴²⁾. وعلى الرغم من أن بوتين ليس إمبرياليا بالمعنى الدقيق للكلمة، فإن آخر إمبراطورية روسية قيد التشكل يجري بناؤها على ثروة الموارد الطبيعية الهائلة لدى روسيا، والتي تجد حاجة ماسة إليها في المحيط الأوروبي والصين، مع كل الأرباح والإكراه التي ينطوي عليها ذلك. لم يكن لدى بوتين وميدفيديف أي أفكار نهضوية لطرحها، ولا أيديولوجية من أي نوع، في الواقع: العامل الوحيد الذي يعمل لمصلحتهما هو الجغرافيا وحدها، وهذا لا يكفي.

تفخر روسيا بامتلاك أكبر احتياطات العالم من الغاز الطبيعي، وثاني أكبر احتياطات الفحم، وثامن أكبر احتياطات النفط، والتي يوجد معظمها في غرب سيبيريا بين جبال الأورال والهضبة الوسطى لسيبيريا. وهذا بالإضافة إلى احتياطات هائلة من الطاقة الكهرومائية المستمدة من جبال، وأنهار، وبحيرات شرق سيبيريا، والمتوفرة في هذه المرحلة التاريخية التي يمثل فيها نقص المياه مشكلة بالغة الأهمية للعديد من الدول، خصوصا الصين. وقد استخدم بوتين عائدات الطاقة لزيادة الميزانية العسكرية بأربعة أضعاف، وخصوصا القوات الجوية، خلال أول سبع سنوات له في منصبه؛ كما استمرت الميزانية العسكرية في الارتفاع منذ ذلك الحين. وبسبب الجغرافيا - فإن روسيا، كما ذكرت، ليست لها حدود طبوغرافية واضحة المعالم باستثناء المحيط المتجمد الشمالي والمحيط الهادي - يبدو أن الروس يقبلون بـ «العسكرة العميقة الجذور» لمجتمعهم و«بسعي لا ينتهي عن الأمن من خلال إنشاء إمبراطورية برية»، وهو ما منحه لهم بوتين من خلال خلافته caliphate لعالم الطاقة⁽⁴³⁾. وبدلا من

تحرير روسيا وإطلاق العنان لإمكاناتها الخاصة بالقوة الناعمة في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق والأرض المحيطة للمنطقة الأوراسية المجاورة، اختار بوتين التوسعية القيصريّة الجديدة، والتي تجعلها الموارد الطبيعية الوفيرة لبلاده ممكنة التحقق على المدى القصير.

ومع ذلك، فلم يتخل بوتين تماما عن البعد الأوروبي من الجغرافيا الروسية. وعلى العكس من ذلك، فإن تركيزه على أوكرانيا كجزء من جهد أكبر لإعادة إنشاء منطقة نفوذ في الجوار القريب يمثل دليلا على رغبته في توطيد علاقة روسيا بأوروبا، وإن كان ذلك بشروط غير ديمقراطية. إن أوكرانيا هي الدولة المحورية التي تعمل في حد ذاتها على تحويل روسيا. ولكونها متاخمة للبحر الأسود في الجنوب ومجاورة لبلدان أوروبا الشرقية السوفييتية السابقة إلى الغرب، فإن استقلال أوكرانيا ذاته يبقى روسيا إلى حد كبير بعيدة عن أوروبا. وفي وجود الكاثوليك اليونانيين والرومانيين في الجزء الغربي من أوكرانيا والأرثوذكس الشرقيين في الشرق، فإن غرب أوكرانيا تمثل أرضا خصبة للقومية الأوكرانية في حين يفضل الشرق بناء علاقات أوثق مع روسيا. وبعبارة أخرى، فإن الجغرافيا الدينية الخاصة لأوكرانيا توضح دور البلاد باعتبارها دولة حدودية بين أوروبا الوسطى والشرقية. وقد كتب زبيغنيو بريجنسكي أنه من دون أوكرانيا، فلايزال في وسع روسيا أن تكون إمبراطورية، لكنها واحدة «آسيوية بصورة غالبة»، والتي ستساق إلى مزيد من الصراعات مع القوقاز ودول آسيا الوسطى.

ولكن عند وقوع أوكرانيا مرة أخرى تحت السيطرة الروسية، فستضيف روسيا 46 مليون نسمة إلى تركيبها الديموغرافية الموجهة إلى الغرب، ويمكنها فجأة أن تتحدى أوروبا، حتى على الرغم من اندماجها فيها. وفي هذه الحالة، ووفقا لبريجنسكي، فإن بولندا، والتي تطمح فيها روسيا أيضا، ستصبح «محورا جيوسياسيا» يحدد مصير أوروبا الوسطى والشرقية، وبالتالي مصير الاتحاد الأوروبي نفسه⁽⁴⁴⁾. إن الصراع بين روسيا وأوروبا، خصوصا بين روسيا وألمانيا وفرنسا، سيستمر، كما كانت الحال منذ الحروب النابليونية، حيث سيظل مصير دول مثل بولندا ورومانيا بانتظار الحسم. لقد انهارت الشيوعية، لكن الأوروبيين لايزالون في حاجة إلى الغاز الطبيعي من روسيا، والذي يأتي 80 في المائة منه عن طريق أوكرانيا⁽⁴⁵⁾. أدى الانتصار في الحرب الباردة إلى تغيير الكثير، من دون شك، لكنه لم يخفف تماما من حقائق الجغرافيا. كما أن روسيا الناهضة، كما كتب المحلل الاستخباراتي الأسترالي بول ديب Dibb، قد تكون على استعداد لأن «تفكر

في التمزق من أجل خلق مساحة إستراتيجية»⁽⁴⁶⁾. وكما أظهر غزوها لجورجيا في العام 2008، فإن روسيا بوتين ليست قوة يفرضها الوضع الراهن.

وافقت أوكرانيا، تحت ضغط شديد من روسيا، على تمديد عقد إيجار قاعدة الأسطول الروسي على البحر الأسود في مقابل خفض أسعار الغاز الطبيعي، على الرغم من محاولة الكرملين وضع الشبكة الأوكرانية لخطوط أنابيب الغاز تحت سيطرته (تعتمد أوكرانيا على روسيا أيضا في الكثير من تجارتها). ومع ذلك، فليست كل جغرافية خطوط الأنابيب في أوراسيا تعمل لمصلحة روسيا؛ فهناك خطوط أنابيب تنقل النفط والغاز من آسيا الوسطى إلى الصين. تنقل خطوط الأنابيب نفط بحر قزوين الأذربيجاني عبر جورجيا إلى البحر الأسود وعبر تركيا إلى البحر المتوسط، وبالتالي تتجنب روسيا. وهناك أيضا خطة لبناء خط لأنابيب الغاز الطبيعي من بحر قزوين عبر جنوب القوقاز وتركيا، عبر منطقة البلقان، وصولا إلى أوروبا الوسطى، والذي يتجنب بدوره روسيا. وفي الوقت نفسه، على الرغم من ذلك، تخطط روسيا لبناء خط أنابيب الغاز الخاص بها تحت البحر الأسود جنوبا إلى تركيا، وخط آخر تحت البحر الأسود غربا إلى بلغاريا. وكذلك فإن تركمانستان، الواقعة على الجانب الآخر من بحر قزوين، تصدر غازها الطبيعي عبر روسيا. وهكذا، فعلى الرغم من إمداداتها المتنوعة من الطاقة - فإن أوروبا، وخصوصا أوروبا الشرقية والبلقان - ستظل معتمدة على روسيا بدرجة كبيرة. إن مستقبل أوروبا، كما كان في الماضي، يتوقف إلى حد كبير - من وجهة النظر الماكندرية - على التطورات الحادثة في الشرق.

تمتلك روسيا روافع levers أخرى أيضا: قاعدة بحرية قوية توجد بين ليتوانيا وبولندا على بحر البلطيق؛ ووجود أقليات كبيرة ناطقة بالروسية في دول البلطيق، ومنطقة القوقاز، وآسيا الوسطى؛ وأرمينيا الموالية لروسيا؛ وجورجيا، التي تهددها المقاطعات الانفصالية الموالية لروسيا في أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية؛ ومواقع لاختبار الصواريخ وقاعدة جوية في كازاخستان؛ وقاعدة جوية في قرغيزستان يصل مداها إلى أفغانستان، والصين، وشبه القارة الهندية؛ وطاجيكستان التي تسمح للقوات الروسية بأن تقوم بدوريات على حدودها مع أفغانستان. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الحملة الإعلامية التي أطلقتها روسيا والضغوط الاقتصادية التي ساعدت على الإطاحة بالرئيس القرغيزي كرمان بك باكييف Bakiyev من السلطة في العام 2010، عقابا له على جريمة استضافة قاعدة جوية أمريكية.

وفي كثير من هذه الأماكن، من الشيشان الواقعة في شمال القوقاز إلى طاجيكستان المجاورة للصين، يتعين على روسيا التعامل مع الإسلام الناهض على حدودها الجنوبية الشاسعة التي تُعد تاريخيا جزءا من نطاق ثقافي ولغوي فارسي أكبر. ولذلك، فإن استعادة روسيا لجمهورياتها المفقودة، عن طريق إنشاء منطقة للنفوذ عليها، يتطلب بالتأكيد إيران صديقة لا تتنافس مع روسيا في هذه المناطق، ولا تصدر التطرف الإسلامي. إن روسيا، ولأسباب متجذرة في الجغرافيا، لا يمكنها أن تقدم سوى مساعدة ضئيلة في الحملة الأمريكية ضد النظام الإيراني.

مع ذلك، فعلى الرغم من كل هذه المزايا، فليس من المرجح أن يعيد التاريخ نفسه من حيث ظهور إمبراطورية روسية أخرى في مطلع القرن الحادي والعشرين. ويرجع هذا إلى ظروف تاريخية وجغرافية خاصة ملتصقة بآسيا الوسطى.

بدأت روسيا ترسخ سيطرتها على آسيا الوسطى في أوائل القرن التاسع عشر، عندما ازدادت التجارة الروسية في المنطقة، على الرغم من أنه على السهوب الكازاخستانية، على سبيل المثال، سادت حالة من الفوضى في غياب نقاط الهيمنة السياسية التي تتجاوز تلك الخاصة بالعشائر المحلية⁽⁴⁷⁾. وفي أوائل القرن العشرين، أنشأ السوفييت عددا من الدول الفردية من السهوب والنجود الشاسعة في آسيا الوسطى، والتي لم تكن متوافقة مع الحدود العرقية، بحيث إذا حاولت أي منها الانفصال عن الاتحاد السوفييتي لكان ذلك أمرا مستحيلا - إذ سيؤدي ذلك إلى حرب بين الأعراق. كان السوفييت يخشون النزعة القومية التركية، والنزعة القومية الفارسية، والوحدة الإسلامية، والتي مثل تقسيم المجموعات العرقية حلا سحريا جزئيا بالنسبة إليها. أدى ذلك إلى إيجاد عدد كبير من الحالات الشاذة. يبدأ وادي سير داريا Syr Darya في الجزء الذي يسكنه الأوزبكيون من قيرغيزستان ويمر عبر أوزبكستان، ثم عبر طاجيكستان، قبل أن يعود إلى أوزبكستان وينتهي في كازاخستان. أما الطريق الذي يربط بين العاصمة الأوزبكية طشقند وبين مقاطعة فرغانة الأوزبكية، فلا بد أن يمر عبر طاجيكستان. وللوصول من دوشانبي عاصمة طاجيكستان، إلى المنطقتين العريقتين الطاجيكيتين - خوجنت وخوروغ - يجب أن يمر المرء عبر أوزبكستان وقيرغيزستان. إن بلدة شيمكنت، التي تقع على مقربة من أوزبكستان، تضم أغلبية أوزبكية، لكنها «ملحقة» بكازاخستان. وكذلك فإن مدينة سمرقند ذات الأغلبية الطاجيكية تقع في أوزبكستان، وهكذا دواليك. ولذلك، فما ظهر في آسيا الوسطى

كان قدرا من القومية العرقية أقل من «السوفييتية» Sovietism كأسلوب للسيطرة والقوة. ولكن في حين ظلت النزعة السوفييتية على قيد الحياة، حتى بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، فقد هُمّش الروس العرقيون في المنطقة، كما يوجد عداء قوي ضدهم في بعض الأماكن. ومع ذلك، فإن النزعة القومية التركية والنزعة القومية الفارسية تظل ضعيفة نسبيا. ظلت إيران شيعية منذ القرن السادس عشر، في حين أن أغلبية الطاجيك وغيرهم من المسلمين الناطقين بالفارسية في آسيا الوسطى هم من السنة. أما بالنسبة إلى الأتراك، فلم تسع تركيا الحديثة سوى أخيرا إلى أن تصبح نقطة محورية في العالم الإسلامي⁽⁴⁸⁾.

وقد أدت النزعة السوفييتية وعدم وجود هوية كاملة لكل دولة من حيث وجود مجموعة عرقية واحدة، يا للسخرية، إلى مستوى متواضع من الاستقرار في آسيا الوسطى، وإلى وقوع اضطرابات من آن إلى آخر في وادي فرغانة وغيره من الأماكن، على الرغم من ذلك.

(وعلى الرغم من ذلك، يجب أن أقول: لاتزال المنطقة تمثل برميل بارود يوشك على الانفجار). إن هذه الدينامية، التي تدعمها ثروة مفرطة في الموارد الطبيعية، قد منحت بعض هذه الدول قوة تفاوضية كبيرة أمام الدولتين الأوراسيتين الرئيسيتين - موسكو وبكين - وهو الدور الذي يمكن أن تؤديه قبالة بعضها البعض (تحتاج روسيا إلى غاز آسيا الوسطى لنقله إلى الأسواق الأوروبية، وهو الأمر الذي يمنح روسيا القدرة على التأثير في أوروبا، لكن موقف روسيا مهدد بفعل شراء الصين نفسها الغاز الطبيعي من آسيا الوسطى)⁽⁴⁹⁾. يتميز ناتج آسيا الوسطى بأنه هائل، فمن المعتقد أن حقول تنجيز النفطية في كازاخستان وحدها تحتوي على أكثر من ضعفي المخزون النفطي للمنحدر الشمالي في ألاسكا⁽⁵⁰⁾. وكذلك فإن الإنتاج السنوي لتركمانستان من الغاز الطبيعي هو ثالث أعلى إنتاج في العالم، في حين كانت قيرغيزستان أكبر منتج للزئبق والأنثيمون في الاتحاد السوفييتي، وتمتلك احتياطات كبيرة من الذهب، والبلاطين، والبالاديوم، والفضة⁽⁵¹⁾. بيد أن هذه الثروة في الموارد الطبيعية، إضافة إلى الامتناع المتبقي من الاحتلال السوفييتي، قد دفعت أوزبكستان، على سبيل المثال، إلى فتح جسر لها للسكك الحديدية الموصل إلى أفغانستان أمام عربات منظمة حلف شمال الأطلسي من دون استشارة روسيا في البداية على الأقل؛ كما دفعت تركمانستان إلى تنويع خطوط الطاقة لديها، بدلا من الاعتماد كليا على روسيا، كما دفعت بكازاخستان إلى الاستعانة

بالمهندسين الأوروبيين بدلا من نظرائهم الروس لاستغلال احتياطياتها النفطية «الصعبة» جيولوجيا في جرف بحر قزوين⁽⁵²⁾.

وهكذا، فسيكون من الصعب المحافظة على نفوذ روسيا، كما ستظل رهينة لدرجة ما لتقلب أسعار الطاقة العالمية، بالنظر إلى الطريقة التي يُدار بها اقتصاد روسيا نفسها، والمعتمد أساسا على الموارد الطبيعية، تماما مثل نظيره في آسيا الوسطى. ومن المرجح أن تكون الإمبراطورية الروسية الجديدة، إذا قُدر لها أن تظهر، مجرد نسخة باهتة من سابقتها، والمقيدة ليس فقط من قبل الدول المتشددة في آسيا الوسطى ولكن بفعل تزايد نفوذ الصين في آسيا الوسطى، وإلى حد أقل نفوذ كل من الهند وإيران. لقد استثمرت الصين أكثر من 25 مليار دولار في آسيا الوسطى، كما تدفع تكلفة شق طريق سريع طوله ألف ميل عبر كازاخستان. وهناك رحلات جوية يومية بين مدينة ألماتي Almaty الكازاخستانية ومدينة أورومكي Urumqui الواقعة في غرب الصين، فيما تملأ البضائع الصينية أسواق آسيا الوسطى⁽⁵³⁾.

قد تمثل كازاخستان المستودع الأهم للثروات الروسية في أوراسيا. كازاخستان هي دولة متوسطة الدخل، وتتسم بأنها مزدهرة بمقاييس آسيا الوسطى، أما من الناحية الجغرافية فهي تبلغ حجم أوروبا الغربية، مع ناتج محلي إجمالي يزيد على مثيله في جميع دول آسيا الوسطى الأخرى مجتمعة. تقع عاصمة كازاخستان الجديدة، أستانا Astana، في الشمال الروسي العرقي للبلاد، والذي أراد القوميون الروس المتطرفون ضمّه إلى بلادهم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي: وفي ذلك الوقت، ومن بين تسعة أقاليم تقع على طول الحدود الشمالية لكازاخستان مع روسيا، والبالغ طولها ثلاثة آلاف ميل؛ ففي ثمانية منها، كان ما يقرب من 90 في المائة من سكان الأجزاء الشمالية غير كازاخستانيين⁽⁵⁴⁾. أما المباني الرسمية في أستانا، والتي صممها السير نورمان فوستر Foster، فتشكل رفضا كازاخستانيا للطموحات الروسية بشأن بلادهم. ستكلف إعادة تصميم أستانا 10 مليارات دولار، كما رُبطت بجنوب البلاد بواسطة قطارات عالية السرعة⁽⁵⁵⁾. تتحول كازاخستان حقا إلى قوة مستقلة في حد ذاتها، فهي تعكف على تطوير ثلاثة حقول عملاقة بحجم «الفيل» للنفط والغاز ونواتج حقول التكثيف، يقع اثنان منها على بحر قزوين، والتي ضُخت فيها استثمارات كبيرة من قبل الشركات الغربية المتعددة الجنسيات. وسيجري قريبا الانتهاء من خط جديد لأنابيب النفط، والذي يمتد من بحر قزوين إلى غرب الصين. وتوشك كازاخستان على أن تصبح أكبر

منتج لليورانيوم في العالم، وتمتلك ثاني أكبر الاحتياطيات العالمية من الكروم، والرصاص، والزنك، وثالث أكبر احتياطيات المنغنيز، وخامس أكبر احتياطيات النحاس، كما أنها من بين الدول العشر الأولى في احتياطيات الفحم، والحديد، والذهب.

إن كازاخستان هي المنطقة المركزية التي وصفها ماكيندر! فهي غنية بجميع الموارد الطبيعية الإستراتيجية في العالم، كما أنها منطقة متميزة في وسط أوراسيا- والتي تتركب، كما هي الحال، فوق غرب سيبيريا وآسيا الوسطى - وتمتد على مسافة 1800 ميل من بحر قزوين في الغرب إلى منغوليا الخارجية في الشرق. تختفي جبال الأورال في شمال غرب كازاخستان؛ في حين تبدأ سفوح تيان شان في جنوب شرق كازاخستان. يتسم مناخ كازاخستان بأنه قاري عند أطرافها لدرجة أن درجة حرارة أستانا قبل الفجر في فصل الشتاء قد تصل إلى ناقص 40 درجة فهرنهايت. وقد اعتقد ماكيندر أن بعض القوى العظمى أو القوى الفائقة ستتمكن من السيطرة على المنطقة المركزية. لكن في عصرنا الحالي، فإن المنطقة المركزية توجد في حوزة السكان الأصليين، حتى على الرغم من اقتتال القوى العظمى مثل روسيا والصين على مواردها من الطاقة. من الممكن أن تؤثر روسيا في كازاخستان، بل وتضغط عليها بشدة بكثير من الطرق. وفي التحليل النهائي، يتسم الاقتصادان الروسي والكازاخستاني بتشابكهما، في حين لا يمكن لكازاخستان أن تدافع عن نفسها ضد الجيش الروسي. لكن كازاخستان ستمتلك دائما خيار التحول نحو الصين إذا صار أمثال بوتين أو من يأتون خلفه شديدي الجور لدرجة لا تُطاق؛ وعلى أي حال، فإن احتمالات أن تكون روسيا مستعدة لأن تُعاني الاستنكار الدولي والعزلة الدبلوماسية الناتجين عن إقدامها على غزو كازاخستان تبدو ضئيلة. وفي العام 2008، فإن جورجيا، وهي بلد أصغر بأربعين مرة من كازاخستان، مع ثلث سكانها وموارد طبيعية شحيحة، ربما كشفت حدود المغامرة العسكرية الروسية في القارة الفائقة. وفي الواقع، عندما وجهت قيرغيزستان نداء خفيا للقوات الروسية للتدخل ضد أعمال الشغب العرقية في العام 2010، لم تُقدم روسيا على تدخل كبير، لخوفها من التورط في دولة جبلية من بلدان آسيا الوسطى تقع على الجانب الآخر من كازاخستان.

وئمة عامل مقيد آخر ضد التدخل العسكري الروسي في آسيا الوسطى، ألا وهو الصين، التي تزايد نفوذها في المنطقة على حساب روسيا، والتي تشترك معها روسيا في حدود طويلة في الشرق الأقصى. تتسم العلاقات الروسية - الصينية بأنها جيدة إلى حد معقول، مما يوفر الزخم لمنظمة شانغهاي للتعاون: وهي مجموعة تضم

في عضويتها كازاخستان، والتي تسعى إلى توحيد القوى الأوراسية، الاستبدادية في معظمها، في محاولة لمواجهة نفوذ الولايات المتحدة. تتسم تكلفة العداء الروسي-الصيني في تزايد نفوذ الولايات المتحدة وأوروبا في أوراسيا. وبالتالي، فإن روسيا ستهدب سلوكها في آسيا الوسطى، كما يرجح أن تنبذ أي محاولة لاستعادة أجزاء من المنطقة المركزية لماكيندر بالقوة.

ثمة تحذير واجب بشأن هذا التحليل: ربما ضعف نفوذ روسيا في آسيا الوسطى بسبب صعود الصين ورغبة بلدان آسيا الوسطى في إجراء مزيد من الأعمال مع البلدان التي لا تمثل تهديدا، والعالية التكنولوجيا مثل كوريا الجنوبية واليابان. ولكن في حين تتسم الخيارات العسكرية الروسية بأنها مقيدة إلى حد ما، فلا يزال في وسع روسيا أن تحرك قواتها عبر جميع أنحاء آسيا الوسطى بطريقة لا تستطيعها أي قوة أخرى، كما أن بلدان آسيا الوسطى لاتزال تحمل بعض الحنين، في هذه الأزمنة المضطربة سياسيا، للسلام والأمن الذي كان سائدا في أيام الاتحاد السوفييتي القديم.

ومع ذلك، فإن ديمتري ترينين من مركز كارنيغي في موسكو قد يكون على حق: إن أفضل أمل حقيقي لروسيا على المدى الطويل هو تحرير اقتصادها وسياساتها، من أجل جعل روسيا جذابة للكازاخستانيين وغيرهم من الشعوب التي كانت خاضعة لهم في السابق. أما المنطقة المركزية، فمع انهيار الشيوعية وظهور العولمة، فقد صارت قوة في حد ذاتها. أما كازاخستان، التي تبلغ مساحتها أكثر من ضعف مساحة دول آسيا الوسطى الأخرى مجتمعة، فتوضح ذلك. إن ماكيندر، الذي كان يخشى التقسيم الأفقي للعالم إلى طبقات وأيديولوجيات، كان يعتقد أنه جنبا إلى جنب مع توازن القوى، فإن الإقليمية provincialism - أو التقسيم الرأسي للعالم إلى مجموعات ودول صغيرة - هو ما يساعد على ضمان الحرية⁽⁵⁶⁾.

جغرافية القوة الصينية

في نهاية مقالته الشهيرة «المحور الجغرافي للتاريخ»، ذكر ماكيندر ملاحظة مقلقة بخصوص الصين؛ فبعد توضيح سبب كون الجزء الداخلي من أوراسيا يشكل نقطة ارتكاز القوة الجيوستراتيجية للعالم، افترض أن الصينيين «قد يشكلون الخطر الأصفر على الحرية في العالم، لمجرد أنهم سيضيفون واجهة محيطية إلى موارد القارة العظيمة، وهي ميزة لايزال المحتل الروسي للمنطقة المحورية محروما منها⁽¹⁾». وبغض النظر عن المشاعر العنصرية المتأصلة للعصر الذي عاش فيه، فضلا على الهستيريا التي يُستقبل بها صعود أي قوة غير غربية، سنركز بدلا من ذلك على تحليل ماكيندر للموقف: في حين أن روسيا تمثل قوة برية تتعرض واجهتها المحيطية الوحيدة للانسداد بفعل الجليد في القطب الشمالي، فالصين هي أيضا قوة قارية الحجم، لكنها قوة لا تمتد

«هل يمكن للجغرافيا أن تؤدي مرة أخرى إلى التباعد بين روسيا والصين، اللتين يقتصر تحالفهما الحالي أساسا على الجوانب التكتيلية؟»

المؤلف

فقط إلى القلب الاستراتيجي للاتحاد السوفييتي السابق في آسيا الوسطى، مع كل ثرواته المعدنية والهيدروكربونية، ولكن أيضا إلى ممرات الشحن الرئيسية في منطقة المحيط الهادي على بُعد ثلاثة آلاف ميل، حيث تتمتع الصين بسواحل يبلغ طولها تسعة آلاف ميل، مع العديد من الموانئ الطبيعية الجيدة، والتي هي في معظمها خالية من الجليد. (كان ماكيندر، في الواقع، يخشى أن تتمكن الصين في يوم ما من قهر روسيا). وبالإضافة إلى ذلك، كما كتب ماكيندر في العام 1919، في كتابه المعنون «المثل الديمقراطية والواقع»، فإذا كانت أوراسيا المتحدة مع أفريقيا تشكلان «الجزيرة العالمية» - أي قلب الأراضي الجافة لكوكب الأرض، والتي تبلغ أربعة أضعاف حجم أمريكا الشمالية، مع ثمانية أضعاف عدد سكانها - فإن الصين، باعتبارها أكبر دولة قارية في أوراسيا مع خط ساحلي يمتد عبر كل من المناطق الاستوائية وتلك المعتدلة، تحتل الموقع الأكثر أفضلية في العالم. ويتوقع ماكيندر في ختام كتاب «المثل الديمقراطية والواقع» أن الصين، جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، ستقود العالم في نهاية المطاف من خلال «بناء حضارة جديدة لربع الجنس البشري، لا هي شرقية تماما ولا غربية تماما»⁽²⁾. وباعتباره وطنيا إمبرياليا حتى الرمق الأخير، فقد كان من الطبيعي أن يضم ماكيندر بريطانيا العظمى إلى هذه الفئة المتعالية. ومع ذلك، فباستخدام معايير الجغرافيا والديموغرافيا وحدها، فقد ثبتت صحة توقعاته حول الصين حتى الآن على الأقل.

إن حقيقة كون الصين متميزة جغرافيا هي أمر أساسي وواضح لدرجة أن البعض يميل إلى تجاهلها في جميع المناقشات الدائرة حول الدينامية الاقتصادية وتأثير الذات الوطنية طوال العقود الأخيرة. وبالتالي، فمن المفيد هنا أن نلقي نظرة على الخريطة من خلال منظور التاريخ الصيني.

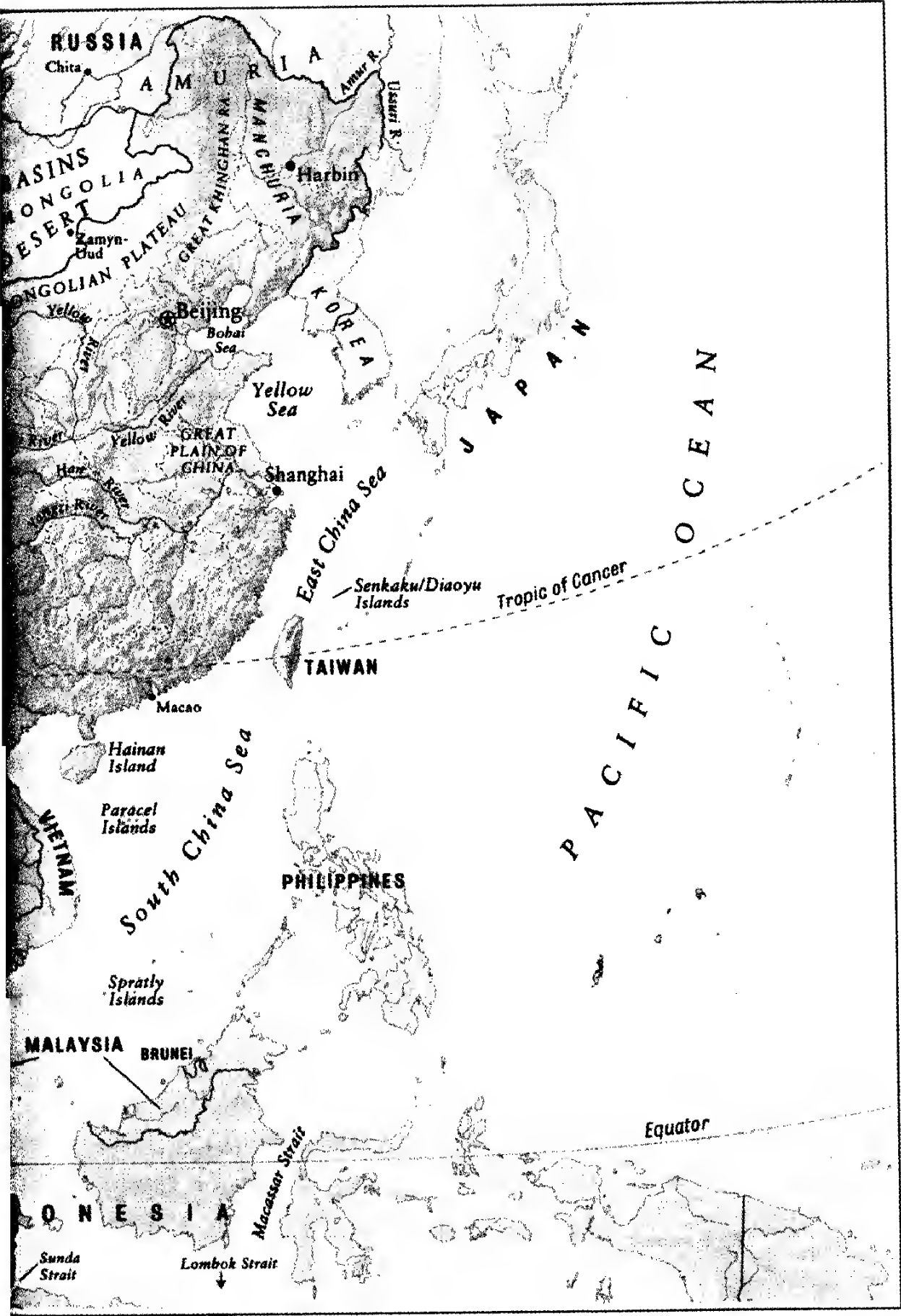
في حين تقع روسيا إلى الشمال من خط العرض 50 درجة شمالا، فإن الصين تقع إلى الجنوب منه، ضمن النطاق نفسه تقريبا لخطوط العرض المعتدلة التي تقع فيها الولايات المتحدة، مع كل التغيرات المناخية والفوائد التي ينطوي عليها ذلك⁽³⁾. وتقع هارбин Harbin، وهي المدينة الرئيسية في منشوريا، عند 45 درجة شمالا، وهو مستوى ولاية مين Maine نفسه. وتقع بكين بالقرب من خط العرض 40 درجة شمالا، وهو مستوى مدينة نيويورك نفسه. أما شنغهاي، الواقعة عند مصب نهر اليانغتسي، فتقع عند 30 درجة شمالا، وهو مستوى نيو أورليانز نفسه. يمر مدار السرطان عبر الطرف الجنوبي من الصين، كما يمر إلى الأسفل بقليل من سلسلة جزر فلوريدا كيس Florida Keys.

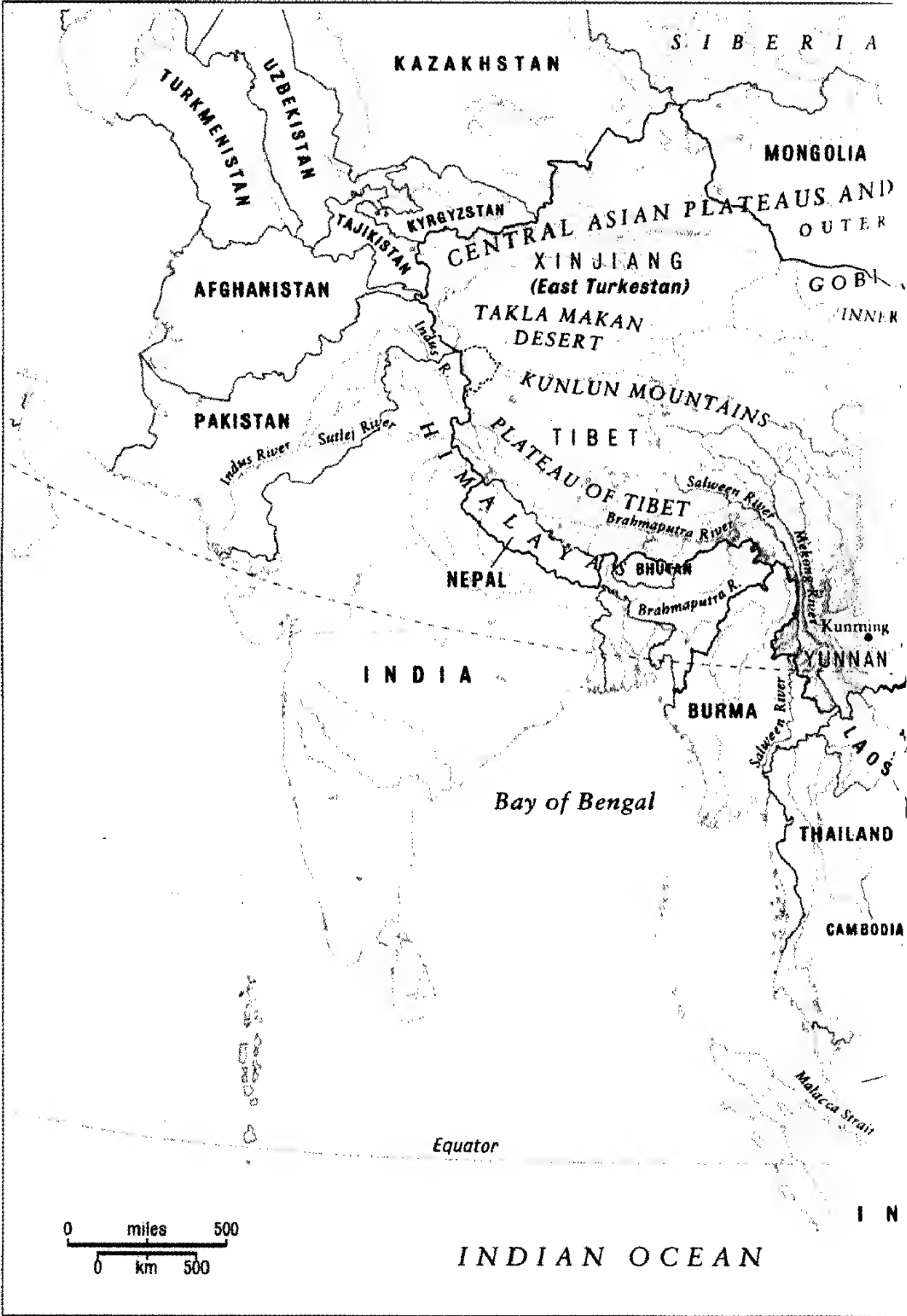
لا تمثل الصين قارة في حد ذاتها سوى أقل بقليل من الولايات المتحدة. أما

الولايات المتحدة، التي يحدها محيطان والقطب الشمالي الكندي، فلا يهددها سوى شبح التركيبة الديموغرافية المكسيكية إلى جنوبها.

وعلى مدى آلاف السنين، جاء التهديد إلى الصين بشكل رئيسي من سهوب أوراسيا البرية إلى الشمال والشمال الغربي، وهي السهوب البرية نفسها التي هددت روسيا من الاتجاه المعاكس: وبالتالي، فإن التفاعل بين الصينيين الأصليين، والمنشوريين، والمغول، والشعوب ذات الأصول التركية في الصحراء العليا شكل واحدا من الموضوعات الرئيسية في التاريخ الصيني. ولهذا السبب، ففي كثير من الأحيان بُنيت عواصم دول الأسرات الحاكمة الصينية المبكرة على ضفاف نهر الوي، لأعلى النهر من التقائه مع النهر الأصفر، حيث كان هناك ما يكفي من الأمطار للزراعة المستقرة، وفي الوقت نفسه كانت في مأمن من القبائل الرحالة في هضبة منغوليا الداخلية، والواقعة إلى الشمال مباشرة منها.

وفي حين تتحدّد الجغرافيا الأمريكية بالتسلسل «المُحكم» للغابات، والبراري، والصحارى العليا، والجبل، والساحل - والتي يعبر منتصفها نهرا الميسيسيبي والميزوري اللذان يتدفقان من الشمال إلى الجنوب؛ ففي الصين، يُلاحظ أن الأنهار العظيمة - الوي، والهان، الأصفر، واليانغتسي - تتدفق من الغرب إلى الشرق، من المرتفعات العالية والجافة في الداخل الأوراسي إلى الأراضي الزراعية الأكثر رطوبة بالقرب من سواحل المحيط الهادي⁽⁴⁾. وتنقسم هذه الأراضي الزراعية، بدورها، بين منطقة زراعة الدُّخْن الجافة نسبيا في شمال الصين، ذات الموسم الزراعي القصير، والتي تشبه شمال الغرب الأوسط الأمريكي، وبين ثقافة الأرز الرطبة، المزدوجة المحاصيل في جنوب الصين الخصب. وهكذا، فإن بناء القناة الكبرى ما بين العامين 605 و611، والتي تربط النهرين الأصفر واليانغتسي - وبين منطقة شمال الصين المعرضة للمجاعات مع جنوبها المنتج اقتصاديا، حيث يفيض إنتاج الأرز عن احتياجاتها، ووفقا للمؤرخ البريطاني جون كاي Keay، «كان له تأثير يشبه تأثير بناء أول خطوط السكك الحديد العابرة للقارات في أمريكا الشمالية»⁽⁵⁾. مثّلت القناة الكبرى مفتاح الوحدة الصينية، لأنها خففت من حدة غزو المناطق الشمالية للجنوب خلال القرون الوسطى حيث حكمت سلالتا تانغ وسونغ، مما ساعد على توطيد الجغرافيا الأساسية للصين الزراعية. ومرة أخرى، نرى هنا كيف أن الأفعال الفردية للرجال - والمتمثلة في بناء قناة - تُثبت كونها أكثر أهمية تاريخيا من الحقائق البسيطة للجغرافيا. ونظرا إلى الاختلافات الصارخة بين شمال الصين وجنوبها الصين، في أوائل حقبة القرون الوسطى، فإن الانقسام بين دولتي الصين - والذي استمر لقرنين من الزمان - ربما كان سيصير دائما، مثل ما حدث بين الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية⁽⁶⁾.





مفتاح الخريطة:

Kazakhstan	كازاخستان
Uzbekistan	أوزبكستان
Turkmenistan	تركمانيستان
Afghanistan	أفغانستان
Tajikistan	طاجيكستان
Kyrgyzstan	قيرغيزستان
Pakistan	باكستان
Indus River	نهر السند
Sutlej River	نهر سوتليج
Indus R.	نهر السند
Nepal	نيبال
India	الهند
Central Asian Plateaus And Basins	هضاب وأحواض آسيا الوسطى
Xinjiang	شينجيانغ
(Eastern Turkestan)	(تركستان الشرقية)
Himalaya	جبال الهمالايا
Bhutan	بوتان
Takla Makan Desert	صحراء تاكلا ماکان
Bay Of Bengal	خليج البنغال
Brahmaputra River	نهر براهماپوترا
Gobi	غوبي
Siberia	سبيريا
Burma	بورما
Kunlun Mountains	جبال كونلون
Plateau Of Tibet	هضبة التبت
Salween River	نهر سالوين
Mekong River	نهر الميكونغ
Kunming	كومينغ
Inner Mongolia Plateau	هضبة منغوليا الداخلية
Yunnan	يونان
Laos	لاوس
Thailand	تايلاند
Cambodia	كمبوديا

جغرافية القوة الصينية

Miles	أميال
Km	كلم
Equator	خط الاستواء
Indian Ocean	المحيط الهندي
Indonesia	إندونيسيا
Malacca Strait	مضيق ملاكا
Sunda Strait	مضيق سوندا
Russia	روسيا
Chita	تشيتا
Amuria	أموريا
Outer Mongolia	منغوليا الخارجية
Zamynnuud	زاميوند
Yellow River	النهر الأصفر
Great Khinghan Ra.	سلسلة جبال خينغان الكبرى
Amur R.	نهر آمور
Ussuri R.	نهر أوسوري
Harbin	هاربين
Beijing	بكين
Wei River	نهر الوي
Bohai Sea	بحر بوهاي
Yellow Sea	البحر الأصفر
Han River	نهر هان
Yangzi River	نهر اليانغتسي
Great Plain Of China	سهل الصين العظيم
Shanghai	شنغهاي
East China Sea	بحر الصين الشرقي
Korea	كوريا
Japan	اليابان
Senkaku/Diaoyu Islands	جزر سينكاكو / دياويو
Tropic Of Cancer	مدار السرطان
Taiwan	تايوان
Macao	ماكاو
Hainan Island	جزيرة هاينان
Paracel Islands	جزر باراسيل
Vietnam	فيتنام

South China Sea	بحر الصين الجنوبي
Pacific Ocean	المحيط الهادي
Philippines	الفلبين
Spratly Islands	جزر سبراتلي
Miles	أميال
Km	كلم
Equator	خط الاستواء
Malaysia	ماليزيا
Brunei	بروناي
Lombok Strait	مضيق لومبوك
Macassar Strait	مضيق ماكاسار

ولكن كما كتب الراحل الأستاذ في جامعة هارفارد جون كينغ فيربانك Fairbank، «تتسم التناقضات بين شمال الصين وجنوبها بأنها سطحية مقارنة بتلك الموجودة بين البداوة الرعوية في الهضاب الداخلية لآسيا والقرى المستقرة على أساس الزراعة الصينية المكثفة». ويعني فيربانك بآسيا الداخلية شيئا شاملا تماما: «ذاك القوس الواسع الممتد من منشوريا، مرورا بمنغوليا وتركستان، إلى التبت». ويستطرد قائلا إن إحساس الصين بذاتها يستند إلى الفرق الثقافي الموجود بين هذا الحزام المحيط من الصحراء ومنطقة بر الصين المزروعة، أي بين الحياة الرعوية والزراعية⁽⁷⁾. تعكس الجغرافية الإثنية للصين هذه «البنية المكونة من منطقة مركزية وأخرى محيطية»، مع كون المنطقة المركزية تمثل «السهل الأوسط» الصالح للزراعة زونغ يوان zhongyuan أو «الصين الداخلية» نايدي neidi)، وكون المنطقة المحيطية تمثل «الحدود» الرعوية بيانج يانغ bianjiang أو «الصين الخارجية»⁽⁸⁾. وايدي waidi.

كان هذا هو الغرض الأساسي من بناء سور الصين العظيم. وكما كتب اختصاصي العلوم السياسية ياكوب غريجل Grygiel، فإن سور الصين العظيم «قد عمل على تعزيز التميز الإيكولوجي الذي تُرجم إلى خلافات سياسية»⁽⁹⁾. وفي الواقع، فبالنسبة إلى الصينيين الأوائل، كانت الزراعة تعني الحضارة نفسها: فالمملكة الوسطى أو المتوسطة، تشونغهوا Zhongguo، لم تكن مدينة بأي شيء

للشعوب الرعوية المحيطة بها. ومن هذه المملكة نبع هذا النوع من اليقين الثقافي الذي ستتشاركه الصين مع العالم المسيحي الغربي⁽¹⁰⁾. واعتبارا من أواخر عهد أسرة تشو Zhou في القرن الثالث قبل الميلاد، بدأت الصين الصالحة للزراعة في استيعاب العناصر البربرية وشبه البربرية⁽¹¹⁾. وفي وقت لاحق، ومع بداية عهد أسرة هان Han في القرن الثاني قبل الميلاد، بدأ الصينيون يلتقون بغيرهم من الحضارات - الرومانية، والبيزنطية، والفارسية، والعربية - وبالتالي اكتسبوا حسا إقليميا مشابها بالمساحة⁽¹²⁾. إن حقيقة كون الدولة الصينية اليوم تشمل كلا من المناطق الصحراوية والزراعية، على نطاق قاري على الأقل، تعكس تنويعا لعملية تاريخية طويلة ومظفرة حتى الآن، والتي، بدورها، توفر الأساس الجغرافي للقوة الصينية - في الوقت الراهن على الأقل.

وقد انطلقت عملية التوسع هذه من منطقة «المهد» حول نهري الوي والأصفر الأدنى في الجزء الشمالي من المنطقة القابلة للزراعة إلى الجنوب مباشرة من منشوريا ومنغوليا الداخلية، والتي ازدهرت خلال عهد أسرة تشو الغربية قبل ثلاثة آلاف سنة⁽¹³⁾. لأن آسيا الداخلية الرعوية لم تكن تزرع المحاصيل، مع سكان متناثرين، وحجم يبلغ نحو جزء من ستة عشر جزءا من حجم منطقة المهد، فلم يكن في وسعها البقاء على قيد الحياة بشكل جيد من دون الوصول إليها⁽¹⁴⁾.

وهكذا تمت الصين إلى الخارج انطلاقا من نهري الوي والأصفر الأدنى، على الرغم من أن الحفريات الأثرية الأخيرة لا تشير إلى وجود تطوّر حضاري في جنوب شرق الصين وشمال فيتنام خلال هذا الوقت⁽¹⁵⁾. وخلال حقبة الدول المتحاربة (403 - 221 قبل الميلاد)، والتي شهدت تقلص عدد الأنظمة السياسية الحاكمة من 170 إلى 7، انتقلت الحضارة الصينية إلى الجنوب أكثر، وصولا إلى مناطق زراعة الأرز والشاي، لتشمل المنطقة التي تضم شنغهاي الحالية. وحتى مع ذلك، فقد ظلت السلطة السياسية في الشمال، التي احتضنت المنطقة التي تضم بكين في الوقت الحاضر⁽¹⁶⁾. كانت أسرة تشين Qin هي التي خرجت منتصرة من فترة الدول المتحاربة - وهي الأسرة التي، وفقا لبعض خبراء أصول الكلام، منحت الصين اسمها. وبحلول القرن الأول قبل الميلاد، وفي عهد أسرة هان

(التي حلت محل أسرة تشين)، شملت الصين كل الأرض المركزية القابلة للزراعة من منابع النهر الأصفر واليانغتسي إلى ساحل المحيط الهادي، ومن بحر بوهاي قرب شبه الجزيرة الكورية إلى بحر الصين الجنوبي. وقد سمحت توليفة من المبادرات الدبلوماسية والغزوات العسكرية لأباطرة أسرة هان بإنشاء اتحادات إقطاعية بين كيونغنو Xiongnu، أي قبائل الهون البدوية، في منغوليا الخارجية وتركستان الشرقية شينجيانغ Xinjiang، وكذلك في جنوب منشوريا والجزء الشمالي من كوريا.

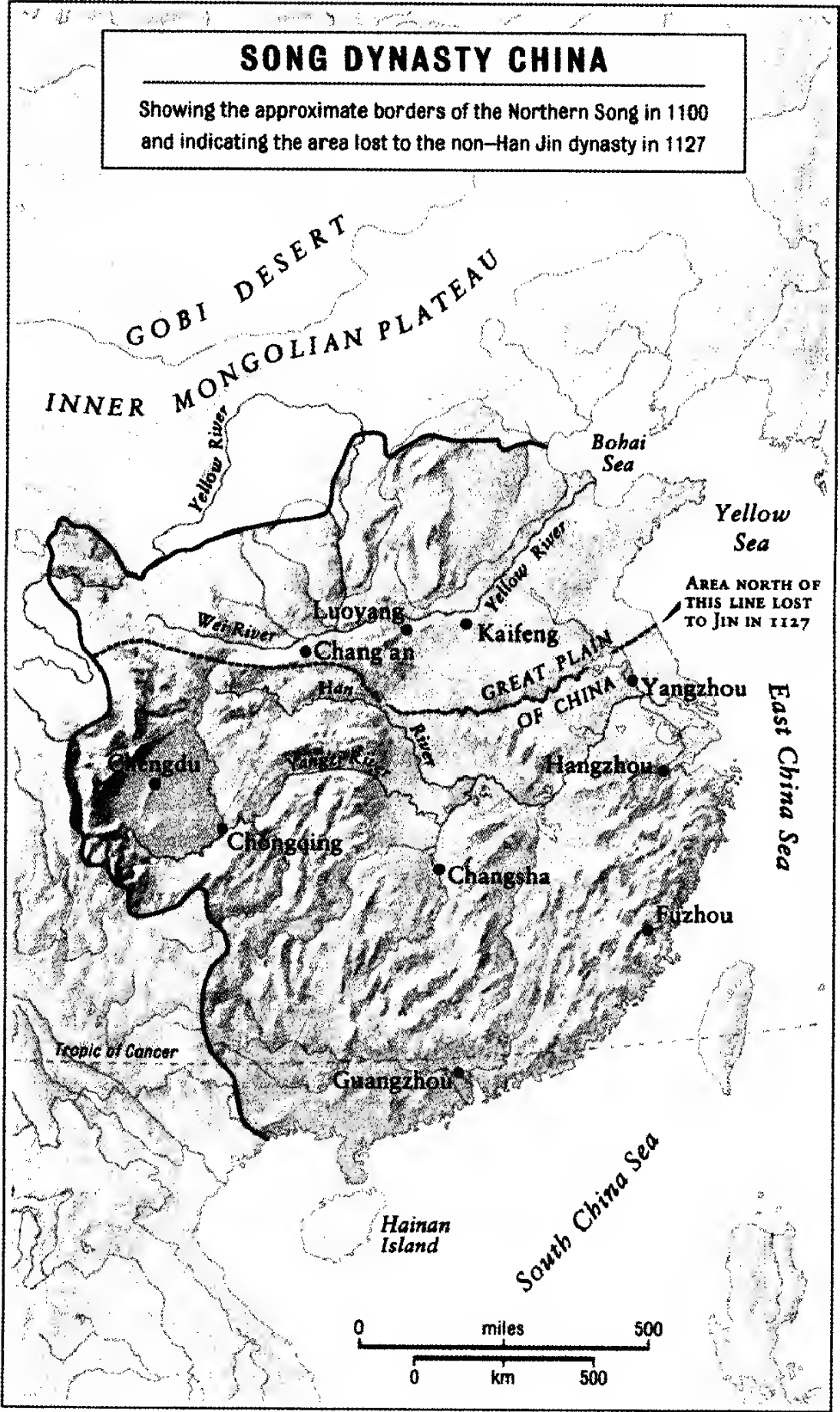
لقد تطوّر نمط محدد هنا: كان على الحضارة الزراعية الصينية المستقرة أن تسعى باستمرار إلى خلق منطقة عازلة ضد الشعوب الرحالة الآتية من المرتفعات المتاخمة الجافة التي تحيط بها من ثلاث جهات، من منشوريا بعكس اتجاه عقارب الساعة وحتى التبت⁽¹⁷⁾. كانت هذه المعضلة التاريخية تشبه بنويوا تلك التي واجهها الروس، الذين احتاجوا بدورهم إلى منطقة عازلة. ولكن في حين انتشر الروس عبر إحدى عشرة منطقة زمنية ضئيلة السكان، كانت الصين أكثر تماسكا وذات كثافة سكانية عالية نسبيا منذ العصور القديمة. مع قدر أقل نسبيا مما يمكنها أن تخشاه، أصبح المجتمع الصيني أقل عسكرية. ومع ذلك، فقد أنتجت الصين أسرات حاكمة ذات طاقة وعدوانية مميزة. وتحت حكم أباطرة أسرة تانغ Tang في القرن الثامن، ازدهرت البراعة العسكرية جنبا إلى جنب مع الآداب والفنون. شقت جيوش أسرة تانغ طريقها عبر المساحة الفاصلة بين منغوليا والتبت لإقامة محميات في جميع أنحاء آسيا الوسطى، والتي وصلت إلى خراسان في شمال شرق إيران، ما مكن طريق الحرير أكثر فأكثر. وفي الوقت نفسه، فقد خاض أباطرة تانغ حروبا ضد التبتيين في الجنوب الغربي بمساعدة من الويغور Uighurs الأتراك في الشمال الغربي. كان الأمر دائما متعلقا بالمنافسة وسط الشعوب التي تعيش في أراضي السهوب، بدلا من محاربتهم جميعا في الوقت نفسه. وفي الواقع، فقد شكلت الجندية واحدة فقط من أدوات دولة تانغ. وكما كتب المؤرخ البريطاني جون كاي، فإن «العقيدة الكونفوشيوسية التي تشكلت خلال عصر «الدول المتحاربة» ومنتجت عنها جزئيا، كانت متعنتة فيما يتعلق بسيطرة المدنيين على الشؤون العسكرية»⁽¹⁸⁾. ومن

بين «أمجاد الصين القديمة»، كما كتب فيربانك، كانت هناك «مسألة مسببة»، لأن واحدة من الخرافات الكونفوشيوسية للدولة كانت «حكومة الفضيلة»⁽¹⁹⁾. ووفقا للمؤرخين، فهذه السلامية pacifism هي الملوحة في بعض الأحيان على حقيقة أنه مثلما غزت الصين مناطق المراعي والهضاب، قام الرعاة الرحل في المقابل بغزو الصين. وفي العام 763 للميلاد، تمكنت القوات التبتية بالفعل من غزو وتدمير تشانغان Chang'an، وهي عاصمة إمبراطورية تانغ. والأهم من ذلك، فإن أسرات جين Jin، ولياو Liao، ويوان Yuan. - والتي ازدهرت جميعها في الأراضي المعشوشبة الشمالية - قد شنت اعتداءات عسكرية من آسيا الداخلية ضد الصين طوال العصور الوسطى. وقد سارت هذه جنبا إلى جنب مع فشل أسرتي سونغ ومينغ الأصليتين، على الرغم من تقنياتها العسكرية الثورية، في استعادة أراضي السهوب. أما آسيا الداخلية، من التبت وتركستان الشرقية مروراً بمنغوليا ووصولاً إلى الشرق الأقصى الحدودي مع روسيا، فقد جرت استعادتها مرة أخرى من قبل أسرة مانشو كينغ Manchu Qing في القرنين السابع عشر والثامن عشر. (وخلال تلك الفترة، جرت «المراهنة» على الإقليم المتعدد الأعراق الذي تسيطر عليه الدولة الصينية اليوم وكذلك تصوّره: فقد ضُمت تايوان في العام 1683)⁽²⁰⁾. وباختصار، فقد أصبحت الصين قارة شاسعة في حد ذاتها بحكم تفاعلاتها المستمرة إلى الخلف والأمام مع أراضي السهوب في آسيا الداخلية، والتي امتدت حتى المنطقة المركزية التي وصفها ماكيندر، وهذا هو ما يوجّه دفعة الواقع السياسي في الصين اليوم.

وفي الواقع، فإن السؤال يصبح الآن ما إذا كان أفراد الهان المهيمنون، الذين يشكلون أكثر من 90 في المائة من سكان الصين ويعيش معظمهم في أراضي المهد الصينية الصالحة للزراعة، قادرين على جعل التبتيين، والأتراك الويغوريين، والمغول الداخليين الذين يعيشون في المناطق الطرفية تحت السيطرة بشكل دائم، مع إحداث الحد الأدنى من الاضطرابات. إن المصير النهائي للدولة الصينية يتوقف على هذه الحقيقة، خاصة أن الصين تتعرض لاضطرابات اقتصادية واجتماعية.

في الوقت الحاضر، بلغت الصين ذروة قوتها القارية، على الرغم من أن جراح اغتصاب أراضيها من قبل دول أوروبا، وروسيا، واليابان لاتزال، حسب

المعايير التاريخية الخاصة في الصين، نازفة بشدة. وفي القرن التاسع عشر، عندما أصبحت أسرة كينغ رجل شرق آسيا المريض، خسرت الصين الكثير من أراضيها - إذ فقدت روافدها الجنوبية في نيبال وبورما لبريطانيا العظمى؛ والهند الصينية لفرنسا؛ وتايوان وروافد كوريا وسخالين لمصلحة اليابان؛ ومنغوليا، وأموريا، وأوسوريا لمصلحة روسيا⁽²¹⁾. وفي القرن العشرين، جاء الاحتلال الياباني لشبه جزيرة شاندونغ ومنشوريا في قلب الصين. وقد حدث كل هذا بالإضافة إلى الإذلال القسري الذي فرض على الصينيين بموجب اتفاقيات الولاية القضائية الخارجية في القرنين التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث حصلت الدول الغربية على حق السيطرة على أجزاء من المدن الصينية. لنعد الآن سريعا إلى خمسينيات القرن العشرين، عندما بدأت تظهر في المدارس الثانوية الصينية خرائط للصين الكبرى التي تشمل كلا من هذه المناطق المفقودة، وكذلك شرق كازاخستان وقيرغيزستان. إن ماو تسي تونغ، الذي وحد الصين القارية للمرة الأولى منذ العصر الذهبي لأسرة تشينغ High Qing، كان وحدويا بكل وضوح، كما استبطن جروح دولة كانت فيما مضى إمبراطورية واسعة تمكنت من البقاء على مر القرون، لكنها تعرضت للإذلال في الآونة الأخيرة⁽²²⁾. وبالنظر إلى هذه التقلبات التي مرت بتاريخ الصين، فقد يكون هذا عيبا في تفكير ماو، والذي يمكننا بالفعل أن نغفره له. وفي حين أن حكام الصين في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين قد لا يكونون بنفس قسوة ماو في نظرهم إلى الأمور، فإن تاريخ الصين، على أي حال، لم يغب عن أذهانهم قط. وعلى الرغم من أن حدود الصين الحالية تشمل منشوريا، ومنغوليا الداخلية، وتركستان الشرقية، والتبت - أي جميع الهضاب والأراضي المعشوشبة المحيطة - فإن الاستراتيجيات الاقتصادية والديبلوماسية نفسها لحكام الصين الحاليين تثبت فكرة الصين التي تتجاوز حتى المدى الإقليمي الذي بلغته الصين في عهد أسرة تانغ في القرن الثامن وخلال العصر الذهبي لأسرة تشينغ في القرن الثامن عشر. إن الصين، بكيانها الديموغرافي الهائل واقتصادها الأكثر نشاطا في العالم على مدى العقود الثلاثة الماضية، توسّع، على عكس روسيا، نطاق نفوذها الإقليمي عن طريق التجارة أكثر مما تفعل بالإكراه بكثير.



مفتاح الخريطة:

Song dynasty china	الصين تحت حكم أسرة سونغ
Showing the appropriate borders of the Northern Song in 1100 and indicating the area lost to the no - Han Jin dynasty in 1127	تبين حدود إمبراطورية سونغ الشمالية في العام 1100، كما تحدد المنطقة التي خسرتها لأسرة جين التي لا تنتمي إلى الهان في العام 1127
Gobi Desert	صحراء غوبي
Inner Mongolian Plateau	هضبة منغوليا الداخلية
Yellow River	النهر الأصفر
Bohai Sea	بحر بوهاي
Yellow Sea	البحر الأصفر
Area north of this line lost to Jin in 1127	تمت خسارة المنطقة الواقعة شمال هذا الخط لمصلحة أسرة جين في العام 1127
Yellow River	النهر الأصفر
Wei River	نهر الوي
Luoyang	لويانغ
Chang' an	تشانغآن
Kaifeng	كايفنغ
Great Plain Of China	سهل الصين العظيم
Han River	نهر الهان
Yangzhou	يانغتشو
East China Sea	بحر الصين الشرقي
Hangzhou	هانغتشو
Yangzi river	نهر اليانغتسي
Chengdu	تشنغدو
Chongqing	تشونغتشينغ
Changsha	تشانغشا
Fuzhou	فوتشو
Guangzhou	قوانغتشو
Tropic of Cancer	مدار السرطان
Hainan Island	جزيرة هاينان
South China Sea	بحر الصين الجنوبي
Miles	أميال
km	كلم

تشير الجغرافيا إلى أنه في حين أن مسار الصين نحو مزيد من القوة العالمية المتزايدة قد لا يكون خطيا - فالمعدلات السنوية لنمو ناتجها المحلي الإجمالي التي زادت على 10 في المائة على مدى السنوات الثلاثين الماضية ببساطة لا يمكن أن تستمر - والصين، حتى لو كانت في حالة من الفوضى الاقتصادية والاجتماعية، ستقف عند محور الجغرافيا السياسية. ليس من المرجح أن تقع الصين فريسة لحالة من الفوضى الكاملة. إن الصين، لو أردنا الاسترشاد بآراء ماكيندر، تجمع بين حداثة متطرفة غريبة الطراز وحضارة هيدروليكية من النوع الذي شاع في الشرق القديم والشرق الأدنى: ويعني ذلك أنها تتميز بسيطرة مركزية، مع نظام يبني مشاريع المياه الكبرى وغيرها من المشروعات الهندسية التي تتطلب عمالة تقدر بالملايين⁽²³⁾. وهذا يجعل الصين متشددة وديناميكية بطرق مختلفة عن الديمقراطيات الغربية. ولأن الحكام الشيوعيين الاسمين للصين يمثلون السلالة الأخيرة من نحو خمس وعشرين أسرة حاكمة صينية تعود جذورها إلى نحو أربعة آلاف سنة، فإن استيعاب التقنيات والممارسات الغربية يجري في الإطار المنضبط لنظام ثقافي مفصل: وهو نظام يمتلك تجربة فريدة من نوعها في تشكيل العلاقات الرافية، من بين أمور أخرى. وكما قال لي مسؤول سنغافوري، فإن «الصينيين سيسحرونك عندما يريدون أن يسحروك، وسيعتصرونك عندما يريدون أن يعصروك، وهم يفعلون ذلك بشكل ممنهج للغاية».

إن الدينامية الداخلية للصين، على الرغم من كل اضطرابات وأوجه عدم كفاءتها المدنية، ناهيك عن التباطؤ الاقتصادي، تخلق طموحات خارجية. وفي كثير من الأحيان، لا يجري السعي إلى بناء الإمبراطوريات بصورة واعية. وبدلا من ذلك، فكلما ازدادت الدول قوة، تتولد لديها احتياجات - وبصورة مناقضة للحدس - مجموعة جديدة كاملة من المخاوف التي تؤدي بها إلى التوسع بطريقة متناسقة. لتدبر التجربة الأمريكية؛ فتحت إشراف بعض أكثر الرؤساء نسيانا - روثفورد ب. هايز Hayes، وجيمس غارفيلد Garfield، وتشيستر ألان آرثر Arthur، وبنيامين هاريسون Harrison، وهلم جرا - سار الاقتصاد الأمريكي بهدوء جنبا إلى جنب مع تحقيق معدلات نمو سنوية عالية ما بين نهاية الحرب الأهلية والحرب الإسبانية - الأمريكية في العام 1898. ونتيجة لذلك، فمع زيادة معدلات التبادل التجاري الأمريكي مع العالم الخارجي، طورت أمريكا لأول مرة مصالح اقتصادية واستراتيجية معقدة في أماكن بعيدة؛ وهو الأمر الذي أدى، من بين إجراءات عسكرية أخرى، إلى إنزال جنود البحرية ومشاة البحرية (المارينز) في أمريكا

الجنوبية والمحيط الهادي. وقد حدث هذا على الرغم من جميع العلل الاجتماعية التي عانتها أمريكا في ذلك الوقت، والتي كانت، بدورها، نواتج لهذه الدينامية نفسها. وثمة عامل آخر تسبب في جعل أمريكا تركز على الخارج، وهو توحيدها للقارة الداخلية، إذ جرى خوض المعركة الكبرى الأخيرة ضمن الحروب الهندية في العام 1890.

تعزز الصين أيضا حدودها البرية، ومن ثم البدء في التركيز على الخارج. وعلى عكس أمريكا، فإن الصين لا تأتي مسلحة بمقاربة تبشيرية missionary للشؤون العالمية، فليست لديها أيديولوجية أو نظام للحكم تسعى إلى نشره. يمثل التقدم الأخلاقي في السياسة الدولية هدفا أمريكيا، لكنه ليس هدفا صينيا. ومع ذلك، فليست الصين قوة الوضع الراهن لأنها تتوسع إلى الخارج بسبب حاجتها إلى تأمين الطاقة، والمعادن، والفلزات الاستراتيجية من أجل دعم رفع مستوى معيشة ما يقرب من خمس البشرية. وبالفعل، فإن الصين قادرة على إطعام 23 في المائة من سكان العالم من 7 في المائة من الأراضي الصالحة للزراعة - «عن طريق تكديس نحو ألفي نسمة في كل ميل مربع من الأراضي المزروعة في الوديان والسهول الفيضية»، كما أشار إليه فيربانك⁽²⁴⁾. وهي واقعة الآن تحت ضغط شعبي لأن تحقق شيئا من هذا القبيل - أي توفير أسلوب حياة أفراد الطبقة المتوسطة لمعظم السكان في مناطقها الحضرية.

ولإنجاز هذه المهمة، بنت الصين علاقات مواتية للقوة، سواء في الأراضي المتاخمة لها أو في المناطق البعيدة الغنية بتلك الموارد التي تحتاج إليها لتغذية نموها. ولأن ما يدفع الصين إلى خارج حدودها الرسمية يتعلق بمصلحة وطنية أساسية - وهي البقاء والنمو الاقتصادي - فمن الممكن تعريف الصين على أنها قوة فوق واقعية - über realist. وهي تسعى إلى تطوير وجود غريب، وشبه استعماري، في جميع أنحاء أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، وهي منطقة تحظى بكميات وفيرة من النفط والمعادن، كما ترغب في تأمين الوصول إلى الموانئ في جميع أنحاء بحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي المجاور، والتي تربط العالم العربي - الفارسي الغني بالهيدروكربونات^(*) بالساحل الصيني. وبالنظر إلى امتلاكها عددا قليلا من الخيارات بشأن هذه المسألة، لا تهتم بكين إلا قليلا بنوع النظام الذي تتعامل معه؛ فهي تتطلب الاستقرار، وليس الفضيلة كما يتصورها الغرب. ولأن بعض هذه الأنظمة - مثل تلك التي تحكم إيران، والسودان،

(*) Hydrocarbons: مركب كيميائي عضوي يشكل في حالته السائلة النفط الخام، وفي حالته الغازية الغاز الطبيعي. [المحرر].

وزيمبابوي - هي إما جاهلة وإما سلطوية، وإما كلتاهما، فإن سعي الصين إلى الموارد في جميع أرجاء العالم يضعها في صراع مع المنحى التبشيري للولايات المتحدة، وكذلك مع دول مثل الهند وروسيا، والتي يقترب النفوذ الصيني من مناطق نفوذها الخاصة. أما ما يُغفل في كثير من الأحيان فهو أن هذه البلدان، وغيرها من بلدان جنوب شرق آسيا، وآسيا الوسطى، والشرق الأوسط، هي مناطق وقعت تحت سيطرة واحدة أو الأخرى من الأسر الصينية الحاكمة في الماضي.

وحتى السودان ليست بعيدة عن منطقة البحر الأحمر التي زارها أدميرال أسرة مينغ، تشنغ خه Zheng He، في أوائل القرن الخامس عشر. وبالتالي فما تقوم به الصين هو مجرد إعادة توطيد مجالها الاستعماري، بالكاد.

لا تشكل الصين تهديدا وجوديا، كما أن احتمال نشوب حرب بين الولايات المتحدة والصين يتسم بأنه بعيد للغاية. هناك تهديد عسكري من الصين، ولكن كما سنرى، فهو غير مباشر. إن التحدي الذي تمثله الصين هو تهديد جغرافي عند أبسط مستوياته، على الرغم من القضايا الحرجة مثل الديون والتجارة، والتغير المناخي. إن المجال الناشئ لنفوذ الصين في أوروبا وآسيا وأفريقيا - أي في «الجزيرة العالمية» لماكيندر - يتنامى، ليس بالمعنى الإمبريالي للقرن التاسع عشر، ولكن بطريقة أشد دهاء وأكثر ملاءمة لعصر العولمة. وعن طريق تأمين احتياجاتها الاقتصادية فحسب، تحوّل الصين ميزان القوى في النصف الشرقي من العالم، وهو أمر سيمثل مصدر قلق عميق للولايات المتحدة. وفي البر والبحر، بدعم من الموقع المواتي للصين على الخريطة، ينطلق نفوذ بكين من وسط آسيا إلى الشرق الأقصى الروسي، ومن بحر الصين الجنوبي إلى المحيط الهندي. تمثل الصين قوة قارية صاعدة، وكما ذكر نابليون في قوله المشهورة، فإن سياسات هذه الدول متأصلة في جغرافيتها.

وكما أشرت إليه، يتسم موقع الصين على خريطة آسيا الوسطى وشرق آسيا بأفضليته. لكن الصين في القرن الحادي والعشرين، وبطرق أخرى، تتسم بكونها غير مكتملة على نحو خطير. هناك مثال منغوليا (أو «منغوليا الخارجية» من الناحية الجغرافية) إلى الشمال: وهي فقاعة عملاقة من الأراضي التي تبدو كأنها اقتطعت من الصين، والتي تحدّ منغوليا من الجنوب والغرب، والشرق. أما منغوليا، التي تمتلك واحدة من أقل الكثافات السكانية في العالم، فتتعرض للتهديد بفعل آخر الهجرات التاريخية الكبرى في أوراسيا - وهي نزوح الحضارة الصينية في المناطق الحضرية إلى التحرك

شمالا. لقد أغرقت الصين بالفعل منغوليا الداخلية التي تقع ضمن حدودها بمهاجري الهان الصينيين، في حين يشعر المنغوليون الخارجيون بالقلق من أن يحل عليهم الدور في الغزو الديموغرافي. وبعد أن غزت منغوليا الخارجية بالفعل عن طريق تحريك خط الزراعة شمالا، فقد استعدت الصين لغزو منغوليا عن طريق العملة.

تتطلع الصين إلى النفط والفحم، واليورانيوم، والمعادن الاستراتيجية الأخرى والأراضي المعشوشبة الغنية والخالية التي تحتويها منطقة تشينغ - مانشو التي كانت تحت سيطرتها في السابق⁽²⁵⁾. ويجب أن ينظر إلى بناء الصين لطرق الوصول إلى منغوليا في ضوء تلك الحقيقة. وفي ظل حركتي التصنيع والتوسع الحضري من دون رادع، فإن الصين هي المستهلك الرائد في العالم لكل من الألومنيوم، والنحاس، والفحم، والرصاص، والنيكل، والزنك والقصدير، وخام الحديد، وكلها موجودة في منغوليا بكميات وفيرة. وقد قفزت حصة الصين من استهلاك المعادن في العالم من 10 في المائة إلى 25 في المائة منذ أواخر تسعينيات القرن العشرين. ونتيجة لذلك، فقد سعت شركات التعدين الصينية إلى الاستحواذ على حصص كبيرة من أصول منغوليا الموجودة في باطن الأرض. وبالنظر إلى أن الصين قد ضمت التبت، وماكاو، وهونغ كونغ إلى برها الرئيسي، فقد تمثل منغوليا بالون اختبار للحكم على النوايا الصينية المستقبلية. وفي الواقع، فإن الحدود المنغولية - الصينية، عندما زررتها في العام 2003 بالقرب من بلدة زامين - أود، لم تكن سوى حدود مصطنعة على صحراء غوبي المسطحة والمنحدرة تدريجيا. كانت النقطة الحدودية الصينية عبارة عن قوس مضاء على نحو ساطع، وذي تصميم هندسي جيد يشير إلى الوحدة الصناعية المتراسة والمزدحمة الواقعة إلى الجنوب، والتي تزحف على أراضي السهوب المنغولية القليلة السكان، والتي تضم أعدادا من الخيام المصنوعة من الشعر والأكواخ المصنوعة من خرقة الحديد. ومع ذلك، لنأخذ في اعتبارنا أن مثل هذه المزايا الديموغرافية والاقتصادية قد تكون سيفاً ذا حدين في حال وقوع اضطرابات عرقية في منغوليا الداخلية الصينية. إن مدى النفوذ الصيني نفسه، من خلال ضم مساحات شاسعة من الأراضي المحيطية الرعوية، يمكن أن يكشف نقاط الضعف التي تتسم بها الدول المتعددة الأعراق. وبالإضافة إلى ذلك، ثمة عامل آخر يمكن أن يقلب خطط الصين رأساً على عقب، وهو التنمية الاقتصادية السريعة التي انتهجتها منغوليا في الآونة الأخيرة، والتي تجتذب أعدادا كبيرة من مستثمري قطاع الأعمال من جميع أنحاء العالم، مما يحد من نفوذ بكين.

وإلى شمال منغوليا، وكذلك إلى الشمال من مقاطعات منشوريا الصينية الثلاث، يقع الشرق الأقصى الروسي، وهو امتداد لا نهائي من غابات البتولا الواقعة بين بحيرة بايكال وفلاديفوستوك. بيد أن هذا الاتساع المذهل، الذي يبلغ ضعف حجم أوروبا تقريبا، لا يضم سوى عدد ضئيل من السكان الذين لا يزيدون على 6.7 مليون نسمة، والذين سينخفض عددهم إلى 4.5 مليون. بيد أن روسيا، كما رأينا، قد توسعت إلى هذه المنطقة خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، خلال نوبة من الإمبريالية القومية وفي وقت كانت الصين فيه ضعيفة، وهو الآن ماضٍ بعيد. وفي عدد قليل من المناطق الأخرى، تتسم الدولة الروسية بمثل الضعف الذي يتضح في ثلثها الشرقي، وبخاصة ذلك الجزء منها القريب من الصين. ومع ذلك، فعلى الجانب الآخر من الحدود، وفي داخل منشوريا، يعيش مائة مليون صيني، وبالتالي فإن الكثافة السكانية هناك تزيد باثنين وستين ضعف مثلتها في شرق سيبيريا. ظل المهاجرون الصينيون يتسربون عبر هذه الحدود. وعلى سبيل المثال، ففي مدينة تشيتا Chita السيبيرية الواقعة إلى الشمال من منغوليا، هناك جالية كبيرة ومتزايدة من العرقية الصينية. يمثل اكتساب الموارد الهدف الرئيسي للسياسة الخارجية الصينية، في حين أن الشرق الأقصى لروسيا بديموغرافيته الجرداء يمتلئ باحتياجات كبيرة من الغاز الطبيعي، والنفط، والأخشاب، والماس، والذهب. وكما كتب ديفيد بلير Blair، وهو مراسل لصحيفة الديلي تلغراف الصادرة في لندن، فإن «روسيا والصين قد تبرمان تحالفا تكتيكيا، لكن هناك بالفعل توترات بينهما بشأن الشرق الأقصى: تشعر موسكو بالقلق من تحرك أعداد كبيرة من المستوطنين الصينيين إلى هذه المنطقة، جالبين في أعقابهم شركات الأخشاب والتعدين»⁽²⁶⁾. وهنا، كما هي الحال في منغوليا، ليس الأمر مسألة جيش يقوم بالغزو أو ضم رسمي، لكنه يتعلق بزحف السيطرة الصينية عبر العوامل الديموغرافية والشركات على المنطقة التي كانت أجزاء كبيرة منها تابعة للصين خلال عهد كل من أسرتي مينغ وتشينغ. وخلال الحرب الباردة، اشتعلت النزاعات الحدودية بين الاتحاد السوفييتي والصين مؤدية إلى اشتباكات عسكرية جرى خلالها حشد مئات الآلاف من القوات في هذه المنطقة الخلفية من سيبيريا - والتي بلغت ثلاثا وخمسين فرقة من الجيش السوفييتي بحلول العام 1969 على الجانب الروسي من نهري أمور وأوسوري. وقد ردت الصين بزعمامة ماو عن طريق نشر مليون جندي على جانبها من الحدود،

وكذلك بناء الملاجئ في المدن الكبرى. وللمساعدة في تخفيف الضغط على جبهته الغربية، بحيث يمكنه التركيز على الشرق الأقصى، أطلق الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف Brezhnev سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة. ومن جانبها، وجدت الصين نفسها محاطة تقريبا بالاتحاد السوفيتي، ودولة منغوليا التابعة للاتحاد السوفيتي، وفيتنام الشمالية الموالية للاتحاد السوفيتي وعميلتها في لاوس، وكذلك الهند الموالية للاتحاد السوفيتي. أدت كل هذه التوترات إلى قطيعة بين الصين والاتحاد السوفيتي، والتي تمكنت إدارة نيكسون Nixon من استغلالها في الانفتاح على الصين خلال العامين 1971 - 1972.

هل يمكن للجغرافيا أن تؤدي مرة أخرى إلى التباعد بين روسيا والصين، اللتين يقتصر تحالفهما الحالي أساسا على الجوانب التكتيكية؟ وهل يمكن أن يكون المستفيد من ذلك، كما حدث في الماضي، هو الولايات المتحدة؟ على الرغم من أنه من المنطقي أن تبني الولايات المتحدة في هذه المرة، بالنظر إلى تنامي القوة الصينية، شراكة مع روسيا ضمن تحالف استراتيجي لتحقيق التوازن ضد المملكة الوسطى، وذلك لتحويل اهتمام الصين بعيدا عن سلسلة الجزر الأولى في منطقة المحيط الهادي والاقتصار على حماية حدودها البرية. وفي الواقع فإن القدرة على إعاقة تنامي الوجود البحري الصيني على مقربة من اليابان، وكوريا الجنوبية، وتايوان تتطلب ضغوطا أمريكية من قواعدها في آسيا الوسطى القريبة من الصين، وكذلك امتلاك علاقة ودية بصفة خاصة مع روسيا. يمكن للضغوط البرية أن تساعد الولايات المتحدة على إحباط طموحات الصين في البحر.

وعلى أي حال، فقد يتكشف الواقع عن سيناريو آخر، والذي يتسم بأنه أكثر تفاؤلا بكثير، كما إنه مفيد لسكان شمال منشوريا والشرق الأقصى الروسي أنفسهم. وفي هذا السيناريو، والذي تعود جذوره إلى فترة ما قبل العام 1917، تؤدي التجارة الصينية والتسلل الديموغرافي إلى أموريا وأوسوريا إلى نهضة اقتصادية في الشرق الأقصى الروسي، والذي تتبناه حكومة أكثر ليبرالية في موسكو، والتي تستخدم هذه التنمية في تحسين مكانة ميناء فلاديفوستوك باعتباره مركزا عالميا لشرق آسيا. وإذا أردنا استكشاف هذا السيناريو أكثر، فسأفترض ظهور نظام أفضل في كوريا الشمالية، مما يؤدي إلى خلق منطقة ديناميكية في شمال شرق آسيا والتي تتسم بحدود مفتوحة وتتمحور حول بحر اليابان.

ليست الجبهة الصينية مع الجمهوريات السوفيتية السابقة في آسيا الوسطى غير مكتملة بقدر كونها اعتبارية، وبالتالي فهي غير تاريخية إلى حد ما. تمتد الصين عميقا للغاية في قلب أوراسيا، لكنها لا تمتد بعيدا بما فيه الكفاية. إن شينجيانغ، وهو الإقليم الغربي للصين، يعني «الدومينيون الجديد»، أما ما يهيمن عليه الصينيون فهو تركستان الشرقية، وهي مساحة جعلت حتى أكثر بعدا عن المنطقة المركزية الديموغرافية للصين بفعل وجود صحراء غوبي بينهما. وعلى الرغم من أن الصين كانت دولة بصورة أو بأخرى طوال ثلاثة آلاف سنة، فلم تُصبح شينجيانغ جزءا من الصين إلا في منتصف القرن الثامن عشر، عندما قام إمبراطور أسرة تشينغ (المانشو)، تشيان لونغ Qianlong، بغزو مساحات شاسعة من الأراضي الغربية، وبالتالي مضاعفة حجم الصين وثبتت «حدود غربية ثابتة» مع روسيا⁽²⁷⁾. ومنذ ذلك الحين، كما كتب الديبلوماسي وكاتب الرحلات البريطاني الراحل، السير فيتزروي ماكليان Maclean، فقد اتسم تاريخ تلك المقاطعة بوجود اضطرابات مستمرة⁽²⁸⁾. كانت هناك ثورات، وفترات من الحكم التركي المستقل حتى أربعينيات القرن العشرين. وفي العام 1949، زحف الشيوعيون بقيادة ماو تسي تونغ إلى شينجيانغ ودمجوها قسرا مع بقية أجزاء الصين. ولكن في فترة لاحقة، وبالتحديد في العام 1990، ومرة أخرى في العام 2009، كانت هناك أعمال للشغب وسفك الدماء ضد الحكم الصيني من قبل الويغور ذوي العرقية التركية، والذين ينتمون إلى القبائل التركية التي حكمت منغوليا ما بين العامين 745 - 840 للميلاد، عندما طردتها قيرغيزستان إلى تركستان الشرقية. لا يمثل الويغور، الذين يبلغ عددهم نحو ثمانية ملايين نسمة، سوى أقل من واحد في المائة من سكان الصين، لكنهم يشكلون 45 في المائة من سكان شينجيانغ، والتي هي كبرى المقاطعات الصينية، بحجمها الذي يبلغ ضعف حجم ولاية تكساس. وفي الواقع، يتركز سكان الصين بكثافة في المناطق الساحلية القريبة من المحيط الهادي وفي السهول النهرية والوديان الرسوبية في وسط البلاد؛ أما الهضاب الجافة، والتي كثيرا ما تقع على ارتفاع اثني عشر ألف قدم، في منطقتي الغرب والجنوب الغربي الشاسعتين، فهي خاوية نسبيا، على الرغم من أنها تمثل موطن الأقليتين الويغورية والتبتية المناهضتين للصين. برزت الصين الأصلية، كما لاحظنا، انطلاقا من وديان النهر الأصفر، ونهر الوي على وجه الخصوص، حيث يحتمل أن الجنس البشري كان موجودا منذ عصور ما قبل التاريخ. ومن هناك، بدأت الصين كمفهوم حضاري في الانتشار بصورة متناغمة بطول الأنهار الكبرى، والتي

حققت للصينيين الغرض الذي حققته الطرق للرومان. وهنا، في هذه البوتقة التي نشأت فيها الحضارة الصينية، تتقاطع الأرض بفعل «أعداد هائلة من الأنهار، والقنوات، وجداول الري التي تغذي الحدائق المورقة والحقول السوقية»؛ وفي هذا المكان «كانت الفيضانات الموسمية... تُعيد العناصر الغذائية اللازمة للتربة»⁽²⁹⁾. وفي أيامنا هذه، فإن الأراضي الصينية تتداخل ببساطة، ليس فقط في هذه المنطقة المركزية النهرية، ولكن في منطقتي آسيا الوسطى التركية والتبت التاريخية بالإضافة إليها، وهذا هو التحدي الخرائطي cartographic الرئيسي الذي تواجهه بكين، حتى على الرغم من اتفاقه بشكل جيد مع التاريخ الإمبريالي للصين. ومن وجهة نظر بكين، ليس هناك بديل للسيطرة الصينية على النجود المجاورة لها. وكما يذكرنا المبعوث الأمريكي إلى الصين في منتصف القرن العشرين أوين لاتي مور Lattimore: «يستمد النهر الأصفر مياهه من ثلوج التبت»، كما «يتدفق في جزء من مساره بالقرب من السهوب المنغولية»⁽³⁰⁾. أما التبت، ولكونها تضم منابع النهر الأصفر، وأنهار اليانغتسي، والميكونج، والسالوين، وبراهما بوترا، والسند، وسوتليج، فيمكن اعتبارها أكبر مستودع في العالم للمياه العذبة، على الرغم من أنه من المتوقع أن تعاني الصين نقصا في احتياجاتها من المياه بمقدار 25 في المائة بحلول العام 2030⁽³¹⁾. أما تأمين هذه المناطق، التي تكمن تحت تربتها أيضا مليارات الأطنان من النفط، والغاز الطبيعي، والنحاس، كان يعني توطينها على مر العقود بمهاجري الهان الصينيين من المنطقة المركزية الديموغرافية للبلاد. ويعني ذلك أيضا، في حالة شينجيانغ، مغازلة عدوانية للجمهوريات العرقية التركية المستقلة في آسيا الوسطى، بحيث لا يمتلك الويغور مطلقا قاعدة سياسية وجغرافية خلفية يمكنها منافسة حكم بكين.

في آسيا الوسطى، كما هي الحال في شرق سيبيريا، تتنافس الصين بشراسة مع روسيا على امتلاك منطقة للنفوذ. وقد ازداد حجم التجارة بين الصين وبلدان آسيا الوسطى السوفيتية السابقة من 527 مليون دولار في العام 1992 إلى 259 مليار دولار في العام 2009⁽³²⁾. لكن وسائل نفوذ بكين الحالية تشمل خطين رئيسيين للأنابيب؛ يحمل أحدهما النفط من بحر قزوين عبر كازاخستان إلى شينجيانغ، وينقل الآخر الغاز الطبيعي من الحدود بين تركمانستان وأوزبكستان، عبر أوزبكستان وكازاخستان، إلى شينجيانغ. ومرة أخرى، فلن يكون من الضروري استخدام أي قوات مع توسع الصين الكبرى إلى المنطقة المركزية لأوراسيا التي وصفها ماكيندر،

والذي هو نتيجة الطلب النهم على الطاقة والخطر الداخلي المتمثل في أقليتها العرقية الخاصة.

وفي كل هذا، لا تتجنب الصين المجازفة. وفي حين تتطلع إلى استغلال بعض آخر الاحتياطات غير المستغلة في العالم من النحاس، والحديد، والذهب، واليورانيوم، والأحجار الكريمة، تقوم الصين بالفعل بتعدين النحاس في أفغانستان التي مزقتها الحرب، إلى الجنوب مباشرة من كابول. وتنظر الصين إلى أفغانستان (وباكستان) كقناة آمنة للطرق وخطوط أنابيب الطاقة التي من شأنها جلب الموارد الطبيعية من موانئ المحيط الهندي، ومن ثم ربط الدول الأعضاء في ما يشبه اتحاد آسيا الوسطى الذي تسيطر عليه بكين. كانت الصين «نشطة بشكل استثنائي» في مجال بناء الطرق التي ستربط شينجيانغ بكل من قيرغيزستان، وطاجيكستان، وأفغانستان. وفي داخل أفغانستان نفسها، ثمة شركة صينية، وهي مجموعة شيتسيجو Shistiju الصينية للسكك الحديدية، والتي «تتحدى انعدام الأمن» هناك من خلال بناء طريق في مقاطعة واركنداك. كما تعمل الصين على تحسين البنى التحتية للسكك الحديدية التي تقترب من أفغانستان من عدة اتجاهات⁽³³⁾. وهكذا، فمع تحرك الولايات المتحدة لهزيمة تنظيم القاعدة وعناصر حركة طالبان غير المسلمين، فإن موقف الصين الجيوسياسي هو الذي سيتعزز. يتسم الانتشار العسكري بأنه مؤقت؛ في حين يمكن للطرق وخطوط السكك الحديدية، وخطوط الأنابيب، أن تبقى إلى الأبد تقريبا.

ومثل صحراء تكلماكان Taklamakan في مقاطعة شينجيانغ، فإن هضبة التبت الجبلية المترامية الأطراف، والغنية بالنحاس وخام الحديد، تمثل جزءا كبيرا من أراضي الصين، وبالتالي توضح الرعب الذي تنظر به بكين إلى مسألة الحكم الذاتي للتبت، ناهيك عن استقلالها. ومن دون التبت، ستصبح الصين أصغر حجما بكثير، كما ستتوسع شبه القارة الهندية عمليا؛ ويفسر هذا الوتيرة المتسارعة للمشروعات الصينية لبناء الطرق والسكك الحديدية في جميع أنحاء المناطق الجبلية التبتية.

وإذا تقبلنا باكستان، بطرقها الصينية الصنع ومشروع موانئ المحيط الهندي، كم منطقة مستقبلية للصين الكبرى، ومن ثم وضع الدول الضعيفة نسبيا في جنوب شرق آسيا ضمن الفئة نفسها، فإن الهند، التي يزيد سكانها على مليار نسمة، ستمثل إسفينا جغرافيا حادا يخترق هذا المجال الكبير من النفوذ الصيني. وتشرح هذه النقطة بوضوح شديد خريطة الصين الكبرى في كتاب زيغنيو بريجنسكي المعلنون «رقعة الشطرنج

الكبرى»⁽³⁴⁾. وفي الواقع أن الهند والصين - بعدد سكانهما الهائل؛ وتجربتهما الثقافيتين الغنيتين، والجليلتين، والشديدي الاختلاف؛ وقربهما الجغرافي، والنزاعات الحدودية غير المحكومة بينهما - وعلى الرغم من علاقتهما التجارية التكاملية، محتم عليهما بفعل الجغرافيا أن تكونا متنافستين بدرجة معينة. وتعمل قضية التبت على إذكاء هذا التنافس، على الرغم من كونها دالة أساسية عليه. تستضيف الهند حكومة الدالاي لاما في المنفى في دارامسالا، مما يمكنه من إبقاء قضية التبت على قيد الحياة في محكمة الرأي العام العالمي. وقد كتب دان توينينغ Twining، وهو زميل بارز للشؤون الآسيوية في صندوق مارشال الألماني في واشنطن، أن التوترات الأخيرة على الحدود الهندية - الصينية «قد تكون متعلقة بالمخاوف الدائرة في بكين حول خلافة الدالاي لاما»، بالنظر إلى احتمال تسمية الدالاي لاما المقبل خارج الصين - في الحزام الثقافي التبتى الذي يمتد عبر شمال الهند، ونيبال، وبوتان⁽³⁵⁾. يشمل هذا الحزام ولاية أرونشال براديش الهندية، التي تطالب الصين بملكيته أيضا، باعتبار أنها تمثل جزءا من هضبة التبت، وبالتالي خارج الأراضي المنخفضة التي تحدد شبه القارة الهندية من الناحية الجغرافية، عملت الصين أيضا على توسيع نفوذها العسكري في نيبال، وهي الدولة العازلة غير المستقرة الواقعة في الهيمالايا، والتي يسيطر عليها الماويون، الأمر الذي واجهته الهند بإبرام اتفاقية هندية - نيبالية للتعاون الدفاعي. سوف تلعب الصين والهند «لعبة كبرى» ليس فقط هنا، ولكن أيضا في بنغلاديش وسري لانكا. إن الضغط الصيني على الهند من الشمال، والذي ساعد على إشعال حرب حدودية بين الهند والصين في العام 1962، يجب أن يستمر كوسيلة للمساعدة في إحكام قبضة بكين على التبت. ويفترض هذا أنه في بيئة الإعلام العالمي المحمومة على نحو متزايد، فإن القضية الرومانسية للقومية التبتية لن تتبدد، بل قد تزداد حدة.

وبطبيعة الحال، ففي وسع المرء أن يجادل في أن امتلاكها حدودا مع الكثير من المناطق المضطربة سوف يقيّد القوة الصينية، وبالتالي فإن الجغرافيا تشكل عائقا أمام الطموحات الصينية. وبعبارة أخرى، فإن الصين مُحاطة تقريبا. ولكن بالنظر إلى التوسع الاقتصادي والديموغرافي للصين خلال العقود الأخيرة، وتوقعاتها المعقولة باستمرار النمو الاقتصادي، ولو بمعدلات أبطأ - مع احتمال حدوث مطبات خطيرة - في المستقبل المنظور، فإن الحدود البرية المتعددة للصين قد تعمل أيضا كمُضاعف لقوتها؛ فالصين هي التي تتعدى على تلك المناطق الأقل دينامية وأقل سكانا، وليس العكس. يفسر

بعض المؤلفين الأمر بأن وجود دولة فاشلة وأخرى شبه فاشلة على حدود الصين - وهما أفغانستان وباكستان - يشكل خطرا على بكين. وقد زرت تلك الحدود بنفسني، والتي تقع عند أقصى بقاع البلاد وعلى ارتفاعات شاهقة، حيث لا يعيش سوى قليل من السكان. من الممكن أن تتلاشى باكستان تماما ولا تلاحظ إلا بالكاد من الجانب الصيني من الحدود. بيد أن حدود الصين ليست هي المشكلة: فالمشكلة هي المجتمع الصيني، والذي، مع ازدياد ازدهاره، وفي ظل تباطؤ معدل النمو الاقتصادي في الصين، يثير شبح وقوع اضطرابات سياسية من نوع ما. ومن الممكن للاضطرابات الخطيرة أن تجعل الصين فجأة غير حصينة من جهة أطرافها العرقية.

إن منفذ الصين الأكثر فائدة لطموحاتها يقع باتجاه الدول الضعيفة نسبيا في جنوب شرق آسيا. وهنا، أيضا، تتسم جغرافية الصين بكونها غير مكتملة. سيطرت الصين على فيتنام خلال الألفية الأولى من العصر الحديث. غزت الصين تحت حكم أسرة يوان Yuan (ذوي الأصول المغولية) بورما، وسيام، وفيتنام في أواخر القرن الثالث عشر، أما الهجرة الصينية إلى تايلاند فتعود إلى قرون عديدة. كان عدم وجود سور الصين العظيم في جنوب شرقي الصين ليس ناتجا عن وجود الغابات الوعرة والمنعطفات الجبلية الشاهقة بين الصين وبورما فحسب، ولكن لأن التوسع الصيني على طول هذه الحدود بأسرها من بورما في الغرب إلى فيتنام في الشرق كان أكثر مرونة مما كان عليه في شمال الصين، وفقا للاتي مور⁽³⁶⁾. هناك عدد قليل من العوائق الطبيعية التي تفصل الصين عن أجزاء من بورما، وعن تايلاند، ولاوس، وفيتنام. أما العاصمة المحتملة لمحيط من الرخاء على نهر الميكونغ، والتي تربط جميع بلدان الهند الصينية عبر الطرق البرية والنقل النهري، فهي مدينة كونيغ Kunming في مقاطعة يونان Yunnan الصينية، والتي ستوفر سدودها الكهرباء التي يستهلكها التايلانديون وغيرهم في قمرة القيادة الديموغرافية العالمية هذه.

وهنا في منطقة جنوب شرق آسيا، سكانها البالغ عددهم 568 مليون نسمة، تلتقي الصين البالغ عدد سكانها 1.3 مليار نسمة مع شبه القارة الهندية التي يبلغ عدد سكانها 1.5 مليار نسمة.

أولا وقبل كل شيء بين دول جنوب شرق آسيا، هناك بورما التي تمتلك أكبر مساحة مترامية الأطراف في المنطقة. بيد أن بورما، أيضا، مثل منغوليا والشرق الأقصى الروسي والمناطق الأخرى على الحدود البرية المصطنعة للصين، هي دولة ضعيفة تمتلك وفرة

من نفس المعادن، والهيدروكربونات، والموارد الطبيعية الأخرى التي تحتاجها الصين بشدة. تبلغ المسافة أقل من خمسمائة ميل بين سواحل بورما على المحيط الهندي - حيث تتنافس الصين والهند على حقوق التنمية - ومقاطعة يونان الصينية. ومرة أخرى، نحن نتحدث عن مستقبل لخطوط الأنابيب، وهو في هذه الحالة الغاز الطبيعي المُنتج من الحقول البحرية في خليج البنغال، والتي ستوسع متناول الصين إلى ما وراء حدودها القانونية، وصولاً إلى تخومها الجغرافية والتاريخية الطبيعية. وسيحدث هذا في جنوب شرق آسيا التي يمكن أن تؤدي فيها دولة تايلاند القوية سابقاً دوراً أقل فأقل كمرساة إقليمية وكعامل متأصل لحفظ التوازن في مواجهة الصين، وذلك بسبب المشكلات البنيوية العميقة في السياسة التايلاندية: فدور العائلة المالكة كقوة معززة للاستقرار، مع ملكها المريض، يتناقص بشكل متزايد؛ في حين أن الجيش التايلاندي تعصف به التحزبات، كما ينقسم المواطنون أيديولوجياً بين طبقة وسطى تعيش في المدن، وطبقة ريفية صاعدة. تبني الصين، التي تفيض بالسيولة النقدية، علاقات ثنائية عسكرية مع تايلاند وغيرها من بلدان جنوب شرق آسيا، حتى مع تناقص أهمية الوجود العسكري الأمريكي نفسه، كما يتضح من التدريبات الإقليمية السنوية مثل كوبرا غولد، بالنسبة إلى الولايات المتحدة، منذ أن وُجّهت الطاقات الأمريكية إلى الحروب الدائرة في الشرق الأوسط. (وبطبيعة الحال، فهذا الوضع يتغير الآن: إذ إن محور اهتمام إدارة أوباما يتجه نحو آسيا، مبتعداً عن الشرق الأوسط، من أجل مواجهة الصين ذات القوة العسكرية المتنامية)⁽³⁷⁾.

وإذا توغلنا أكثر في جنوب شرق آسيا، فسنجد أن ماليزيا وسنغافورة تتوجهان إلى تحولات ديمقراطية تتسم بالصعوبة في حد ذاتها، مع غياب زعيميهما اللذين اتسم كل منهما بالبراعة وبناء الأمة، مهاتير بن محمد ولي كوان يو Yew. لأن كل الملاويين Malays العرقيين مسلمون، ينزع الإسلام في ماليزيا إلى التشدد، والنتيجة هي انقسام طائفي بين المجتمعات الملاوية، والصينية، والهندية.

وقد أدى زحف الأسلمة إلى مغادرة سبعين ألف صيني ماليزيا على مدى العقدين الماضيين، على الرغم من تزايد سقوط البلاد إلى ظل الصين اقتصادياً، حيث تأتي معظم واردات ماليزيا من هناك. قد لا يحظى الصينيون أنفسهم بشعبية في ماليزيا، لكن الصين «الدولة» هي أكبر من أن تمكن مقاومتها. يظهر الخوف الهادئ من الصين بكل وضوح في تصرفات سنغافورة، وهي دولة - مدينة تحتل موقعا استراتيجيا بالقرب من

أضيق نقطة في مضيق مالاکا. وفي سنغافورة، يهيمن العرق الصيني على العرق المالايو بنسبة 77 في المائة إلى 14 في المائة. ومع ذلك، تخشى سنغافورة أن تصبح دولة تابعة للصين، ومن ثم فقد طوّرت علاقة طويلة الأمد للتدريبات العسكرية مع تايوان. ومن جانبه، فقد حث رئيس الوزراء الذي تقاعد أخيراً، لي كوان يو، الولايات المتحدة علناً على مواصلة ارتباطاتها العسكرية والديبلوماسية في المنطقة. إن الدرجة التي ستتمكن بها سنغافورة من الحفاظ على استقلالها المتقلقل، مثل الجهود التنموية في منغوليا، ستعمل كمؤشر على النفوذ الإقليمي لبكين. ومن جانبها، تظل إندونيسيا عالقة بين الحاجة إلى وجود البحرية الأمريكية للتحوط ضد الصين وبين الخوف من أن تبدو حليفاً صريحاً للولايات المتحدة، مما سيغضب بقية العالم الإسلامي. إن منطقة التجارة الحرة التي دُشنت أخيراً بين الصين والآسيان ASEAN (رابطة دول جنوب شرق آسيا) توضح العلاقة الرافدية التي تتطور بين الصين وجيرانها الجنوبيين. عملت استراتيجية «فرق تسد» الصينية على جعل كل بلد عضو في رابطة الآسيان يتفاوض مع الصين على حدة، بدلاً من التفاوض معها كوحدة واحدة. تستخدم الصين الآسيان باعتبارها سوقاً لبضائعها المصنعة ذات القيمة العالية، في حين تستورد المنتجات الزراعية المنخفضة القيمة من جنوب شرق آسيا؛ وهي علاقة كلاسيكية على النمط الاستعماري⁽³⁸⁾. وقد أدى هذا إلى تحقيق فوائض تجارية لدى الصين، كما صارت دول الآسيان أشبه بمكبّ للسلع الصناعية التي تنتجها العمالة الرخيصة نسبياً في المناطق الحضرية من الصين. وفي الواقع، فإن الفجوة التجارية بين الصين والآسيان قد اتسعت بمقدار خمسة أضعاف خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وبمنظرة على التاريخ الحديث، سنجد أنه خلال الفترة ما بين عامي 1998 - 2001، فإن الصادرات الماليزية والإندونيسية إلى الصين قد «تضاعفت تقريباً»، وكذلك فعلت صادرات الفلبين إلى الصين ما بين عامي 2003 - 2004. وما بين عامي 2002 و2003، نمت الصادرات المجمّعة لجميع دول جنوب شرق آسيا إلى الصين بنسبة 51.7 في المائة، وبحلول العام 2004 «أصبحت الصين الشريك التجاري الأول في المنطقة، متفوقة على الولايات المتحدة»⁽³⁹⁾. ومع ذلك، فللهيمنة الاقتصادية الصينية فائدها أيضاً، من حيث عمل الصين كمحرك للعصرنة في جميع بلدان جنوب شرق آسيا. بيد أن العامل المسبب للتعقيد في هذا السيناريو هو فيتنام، وهي عدو تاريخي للصين وتمتلك جيشاً كبيراً وقواعد بحرية تحتل موقعاً استراتيجياً يؤهلها لأن تعمل سياجاً محتملاً ضد الصين، جنباً إلى جنب مع الهند واليابان.

ولكن حتى فيتنام، مع كل مخاوفها بشأن جارتها الشمالية التي هي أكبر منها بكثير، لا تمتلك خيارا سوى التعايش معها. قد تكون الصين بعد في المراحل الأولى من توسعها القاري، وبالتالي فإن سيطرتها على المناطق الهامشية لاتزال حديثة العهد. أما حبكة القصة الرئيسية خلال العقود القليلة القادمة فقد تكون الطريقة التي تحققها بها الصين. وإذا أمكنها تحقيق ذلك، فما نوع القوة المهيمنة الإقليمية التي ستكونها الصين؟ إن منغوليا، والشرق الأقصى الروسي، وآسيا الوسطى، وجنوب شرق آسيا تمثل كلها مناطق طبيعية لنفوذ وتوسع الصين، على الرغم من أن الحدود السياسية لن تتغير. لكن الصين تكون غير مكتملة بأقصى درجة على شبه الجزيرة الكورية، حيث يوجد احتمال قوي لتغير الحدود السياسية - وإذا تقبلنا الحجة القائلة بأنه في عالم مخترق بشكل متزايد من قبل تقنية المعلومات، فإن النظام الكوري الشمالي المنعزل لا يمتلك سوى عدد قليل من الاحتمالات الجيدة. يجعل هذا من كوريا الشمالية المحور الحقيقي لشرق آسيا، والذي يمكن أن يؤثر تفككه في مصير المنطقة بأسرها لعقود مقبلة. ولكونها ناتئة من منشوريا، والتي تمثل امتدادا جغرافيا طبيعيا لها، فإن شبه الجزيرة الكورية تتحكم في كل حركة الملاحة البحرية في شمال شرق الصين، وعلى الأخص، فهي تضم بحر بوهاي، الذي يحوي أكبر احتياطي نفطي بحري offshore لدى الصين. وفي العصور القديمة، غطت مملكة غوغوريو Goguryeo جنوب منشوريا والثلثين الشماليين من شبه الجزيرة الكورية. كانت غوغوريو تبجل الصين في عهد أسرة وي، لدرجة أنها خاضت لاحقا إحدى الحروب معها. وقد وقعت أجزاء من كوريا، خاصة في الشمال، تحت سيطرة أسرة هان في العصور القديمة وتحت حكم أسرة تشينغ في أوائل العصر الحديث. لن تقدم الصين أبدا على ضم أي جزء من كوريا، غير أنها لاتزال تشعر بخيبة أمل بسبب السيادة الوطنية الكورية. وقد دعمت الصين النظام الستاليني للرئيس الراحل كيم يونغ - أيل وابنه كيم يونغ - أون، لكنها تطمح في جغرافية كوريا الشمالية - مع منافذها الإضافية على المحيط الهادي قريبا من روسيا - بدرجة أكبر بكثير، وبالتالي فهي تمتلك خططا لشبه الجزيرة تتجاوز عهد «القائد العزيز» المتوفى وابنه، اللذين سببا لبيكين قدرا لا نهاية له من الصداق. وفي نهاية المطاف، سترغب الصين في إرسال الآلاف الذين تؤويهم من مارقي كوريا الشمالية لبناء قاعدة سياسية مواتية لاستيلاء بكيين الاقتصادي التدريجي على منطقة نهر تومين Tumen - حيث تتقاطع الصين، وكوريا الشمالية، والشرق الأقصى الروسي، والتي تضم عددا من الموانئ الجيدة على المحيط

الهادي المواجه اليابان. لا بد أن هدف الصين لكوريا الشمالية يتمثل في أن تكون دولة فاشية أكثر حداثة، والتي تتسم بأنها عازلة على النمط الغورباتشيفي بينها وبين ديموقراطية الطبقة الوسطى النابضة بالحياة في كوريا الجنوبية.

لكن حتى الصين لا يمكنها التحكم في مسار الأحداث في كوريا الشمالية.

وفي سيناريوهات البلدان المنقسمة الأخرى خلال العقود الماضية - فيتنام، وألمانيا، واليمن - نجد أن قوى الوحدة الوطنية قد انتصرت في نهاية المطاف. لكن التوحيد لم يتحقق في أي من هذه الحالات من خلال عملية مدروسة. وبدلاً من ذلك، فقد حدث بطريقة مفاجئة ومضطربة لم تحترم مصالح جميع الأطراف الرئيسية المعنية. ومع ذلك، فالأقرب احتمالاً أن تستفيد الصين في نهاية المطاف من إعادة توحد الكوريتين، على الرغم من خوفها من هذه الخطوة. إن دولة كورية كبرى موحدة ستكون واقعة تحت سيطرة سيول بشكل أو بآخر، والصين هي أكبر شريك تجاري لكوريا الجنوبية. ومن شأن كوريا بعد إعادة توحيدها أن تكون كوريا ذات توجهات قومية، مع تيارات من العداء تجاه أكبر جيرانها، وهما الصين واليابان التي سعت تاريخياً إلى السيطرة عليها واحتلالها. لكن العداء الكوري تجاه اليابان يتسم بأنه أكبر من ذلك بكثير، إذ احتلت اليابان شبه الجزيرة ما بين عامي 1910 - 1945. (لا تزال هناك خلافات بين سيول وطوكيو حول جزيرتي توكدو/ تاكيشيما فيما يسميه الكوريون البحر الشرقي، في حين يطلق عليه اليابانيون اسم بحر اليابان). وفي الوقت نفسه، فإن قوة الجذب الاقتصادية الصينية ستكون أقوى من تلك اليابانية. ومن شأن كوريا الموحدة التي تميل قليلاً إلى الاقتراب من الصين والابتعاد عن اليابان أن تكون دولة ذات أساس ضئيل أو منعدم لاستمرار وجود القوات الأمريكية، والذي سيؤدي بدوره إلى تصعيد إعادة تسليح اليابان. وبعبارة أخرى، فمن السهل أن نتصور المستقبل الكوري ضمن الصين الكبرى، حتى لو كان هناك عدد أقل من القوات الأمريكية في شمال شرق آسيا.

وهكذا، ومع شق الصين طريقها إلى قلب آسيا الوسطى التي وصفها ماكيندر، فمن المرجح أيضاً أن يكون لها تأثير كبير في الأرض المركزية لسبيكمان، والتي تمثل جنوب شرق آسيا وشبه الجزيرة الكورية جزأين منها.

وعند هذه المرحلة من التاريخ، تبدو الحدود البرية للصين مُلوحة بالفرص أكثر من تهديدها بالمخاطر. يُعيد هذا إلى الأذهان إشارة الأستاذ بجامعة شيكاغو، جون ج. ميرشهايمر، في كتابه المعنون «مأساة سياسات القوى العظمى»، إلى أن «الدول الأكثر

خطورة في النظام الدولي هي القوى القارية ذات الجيوش الضخمة»⁽⁴⁰⁾. ومع ذلك، فإن هذا الوصف لا ينطبق على الصين إلا بصورة جزئية. صحيح أن الصين تمثل بطريقتها الخاصة قوة برية متنامية وأن عدد أفراد القوات البرية لجيش التحرير الشعبي يبلغ نحو 1.6 مليون جندي، وبالتالي فهو الأكبر في العالم، ولكن كما أشرت إليه من قبل، فباستثناء شبه القارة الهندية وشبه الجزيرة الكورية، فما تفعله الصين هو مجرد ملء مساحات خاوية أكثر مما يمثل صداما ضد دول معادية. وبالإضافة إلى ذلك، وكما أظهرت أحداث عامي 2008 و2009، فلن يكون لدى القوات البرية لجيش التحرير الشعبي الصيني قدرة على التدخل السريع لسنوات مقبلة. وخلال السنوات الأخيرة، كان على جيش التحرير الشعبي الصيني أن يستجيب لحالة الطوارئ الناجمة عن الزلزال الذي ضرب منطقة سيتشوان، وللاضطرابات العرقية في التبت وشينجيانغ، ومواجهة التحديات الأمنية لإقامة دورة الألعاب الأولمبية في بكين. إن ما أثبتته هذه «التدريبات عبر الإقليمية على التحرك»، كما يسميها الصينيون، كان - وفقا لأبراهام دنمارك Denmark من مركز تحليل القوات البحرية - هو قدرة جيش التحرير الشعبي الصيني على تحريك القوات من إحدى النهايتين القاريتين للصين إلى الأخرى، ولكن ليس القدرة على نقل الإمدادات والمعدات الثقيلة بالسرعة المطلوبة. إن الظروف الوحيدة التي يمكن تصورها لقيام جيش التحرير الشعبي الصيني بالعبور إلى خارج حدود الصين ستتم خلال عملية من سوء تقدير، في حال نشوب حرب برية أخرى مع الهند، أو ملء الفراغ في حالة انهيار النظام في كوريا الشمالية، والتي قد تجتذب أيضا القوات الأمريكية والكورية الجنوبية فيما قد يمثل أم جميع حالات الطوارئ الإنسانية. (يتسم سكان كوريا الشمالية بأنهم أكثر فقرا من سكان العراق، مع قدر أقل بكثير من التاريخ الحديث للحكم الذاتي المسؤول). وكذلك فإن حقيقة امتلاك الصين ترف ملء فراغ السلطة عند حدودها الشاسعة من دون دعم من القوات البرية القادرة بالفعل على التدخل الخارجي يشير إلى أن الصين تتسم على الأرجح بأنها أكثر أمنا على الأرض مما كانت عليه كانت منذ عقود، أو قرون.

وقد انشغل الدبلوماسيون الصينيون خلال السنوات الأخيرة بتسوية النزاعات الحدودية المتبقية مع جمهوريات آسيا الوسطى ومع جيرانها الآخرين (مع كون الهند استثناء لافتا للنظر)⁽⁴¹⁾. وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات قد لا تكون متوافقة مع شروط الصين، فإن مجرد حقيقة هذه المقاربة الشاملة التي انتهجتها بكين تُعد مؤشرا

على توجه استراتيجي قوي. وقد وقعت الصين اتفاقيات عسكرية مع كل من روسيا، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان. وفي هذا السياق، كتب ياكوب جريغل: «إن استقرار الحدود البرية الصينية قد يكون واحدا من التغييرات الجيوسياسية الأكثر أهمية في آسيا خلال العقود القليلة الماضية»⁽⁴²⁾. لم يعد هناك جيش سوفيتي يهدد بالزحف على منشوريا مثلما حدث في أثناء الحرب الباردة، وهي فترة ركزت فيها الصين بقيادة ماو تسي تونغ ميزانيتها الدفاعية على جيشها، وأهملت البحار بشدة. ولا يمكن إنكار أهمية هذه الخطوة. فمنذ العصور القديمة، انشغلت الصين بالغزوات البرية من ذلك النوع أو الآخر. من الواضح أنه بُني سور الصين العظيم في القرن الثالث قبل الميلاد لمنع دخول الغزاة من القبائل التركية. كان الغزو المغولي من الشمال هو ما أدى إلى نهاية غزوات إمبراطورية مينغ في المحيط الهندي في القرن الخامس عشر. ومما يتعلق بذلك أن الوضع الحالي المواتي على الأرض، أكثر من أي متغير آخر، هو الذي سمح للصين بالبدء في بناء قوة بحرية كبيرة وربما إعادة ترسيخ المحيطين الهادي والهندي كجزء من جغرافيتها. وفي حين أن الدول المدينية الساحلية والدول الجزرية، الكبيرة منها والصغيرة، تسعى إلى القوة البحرية كمسألة بديهية، فإن أمة قارية انعزالية تاريخيا مثل الصين تفعل ذلك بصورة جزئية باعتباره ترفا: أي كعلامة على نشوء إمبراطورية من نوع ما. وفي الماضي، فإن الصينيين، لكونهم آمنين في الوديان الخصبة للأنهار، لم يُجبرهم الفقر على النزول إلى البحر مثل الإسكندنافيين الذين عاشوا في أراض باردة ومجدبة. لم يمنح المحيط الهادي الصينيين إلا القليل، وكان في كثير من الجوانب طريقا إلى المجهول، على عكس البحر المتوسط وبحر إيجه، الممتلئين بالجزر ضمن مجال بحري مغلق. وكان الفيلسوف الألماني الذي عاش في أوائل القرن التاسع عشر، جورج فيلهلم فريدريش هيغل Hegel، هو الذي أشار إلى أن الصينيين، على عكس الأوروبيين، يفتقرون إلى الجرأة لاستكشاف البحر، إذ كان الصينيون مقيدون بالدورات الزراعية للسهول التي يعيشون عليها⁽⁴³⁾. وربما لم يسمع الصينيون بفورموزا (تايوان) حتى القرن الثالث عشر، ولم يستقروا فيها حتى القرن السابع عشر، بعد أن أنشأ التجار البرتغاليون والهولنديون مخافرا لهم على الجزيرة⁽⁴⁴⁾. وهكذا، فبمجرد التوجه إلى البحر بالطريقة التي تقوم بها، فإن الصين تستعرض موقعها المواتي على الأرض في قلب آسيا.

تعرض شرق آسيا الآن القوة البرية الصينية ضد القوة البحرية الأمريكية، مع نقطتين رئيسيتين هما تايوان وشبه الجزيرة الكورية. وعلى مدى عقود، كانت الصين

مشغولة على الأرض حيث لم تكن أمريكا تشتتني الذهاب، ولا سيما منذ مغامرتها الطائشة في فيتنام. لاتزال أمريكا تفتقر إلى مثل هذه الشهية في آسيا، خصوصا بعد المحن التي تعرضت لها في العراق وأفغانستان. لكن الصين لاتزال في المراحل الأولى من التحول إلى قوة بحرية وكذلك قوة برية: وهذا هو التغير الكبير في المنطقة.

من الناحية الجغرافية، فإن الصين محظوظة بسواحلها وبقرى المياه من جزئها الداخلي القاري. تهيمن الصين على ساحل شرق آسيا المطل على المحيط الهادي في المنطقتين المعتدلة والاستوائية، وكذلك فإن حدودها الجنوبية قريبة إلى المحيط الهندي بما فيه الكفاية للتفكير في ربطه بها خلال السنوات المقبلة من خلال الطرق وخطوط أنابيب الطاقة. ولكن في حين تتمتع الصين بموقف طيب عموما بطول حدودها البرية، فإنها تواجه بيئة أكثر عدائية في البحر. لا ترى البحرية الصينية سوى المتاعب والإحباطات فيما تسميه سلسلة الجزر الأولى، والتي تضم، من الشمال إلى الجنوب، اليابان، وجزر ريوكو Ryuku، وما يسمى نصف جزيرة شبه الجزيرة الكورية (*)، وتايوان، والفلبين، وإندونيسيا، وأستراليا. وكل هذه الأماكن، باستثناء أستراليا، هي بؤر غير محتملة للتوتر. وتشمل السيناريوهات المحتملة انهيار كوريا الشمالية أو اندلاع حرب بين الكوريتين، أو نشوب صراع مع الولايات المتحدة حول تايوان، وأعمال القرصنة أو الإرهاب التي تعوق وصول أسطول الصين التجاري إلى مالاكا والمضائق الإندونيسية الأخرى. وهناك أيضا، النزاعات الإقليمية للصين على قاع المحيط المرجح كونه غنيا بالطاقة في بحري الصين الشرقي والجنوبي. وفي الأول، تمتلك الصين واليابان مطالبات متعارضة بالسيادة على جزر سينكاكو/ دياويو؛ وفي الأخير، تدعي الصين وكل من تايوان، والفلبين، وفيتنام أحقيتها في السيادة على بعض أو كل من جزر سبراتلي Spratly Islands، كما تتنازع مع فيتنام على جزر باراسيل. (الصين لديها أيضا صراعات إقليمية خطيرة أخرى في بحر الصين الجنوبي مع ماليزيا وبروناي). وبصفة خاصة في حالة جزر سينكاكو/ دياويو، فإن النزاع لا ينطوي على منفعة تزويد بكين برافعة لإذكاء التوجهات القومية، كلما احتاجت إلى ذلك. ولكن باستثناء ذلك، فهناك منظور بحري قائم للخبراء الاستراتيجيين البحريين الصينيين. إن مرصدها من سواحلها المطل على المحيط الهادي إلى سلسلة الجزر هذه يشبه نوعا من بناء «سور الصين العظيم في الاتجاه المعاكس»، على حد تعبير أستاذي

(*) half-island of Korean Peninsula.

كلية الحرب البحرية جيمس هولمز Holmes وتوشي يوشيهارا Yoshihara: خط جيد التنظيم من حلفاء الولايات المتحدة، والذي يعادل بناء أبراج للحراسة ممتدة من اليابان إلى أستراليا، وكل منها يحتمل أن يعرقل وصول الصين إلى المحيط الأوسع. وعندما ينظر الخبراء الاستراتيجيون الصينيون إلى هذه الخريطة، فهم يستشيطنون غضبا لكون بحريتهم محاصرة بهذا الشكل⁽⁴⁵⁾.

كان الحل الصيني عدوانيا بصورة ملحوظة. قد يكون هذا مفاجئا إلى حد ما: ففي العديد من الظروف، يمكن القول بأن القوة البحرية تكون أكثر اعتدالا من القوة البرية. يتمثل العامل المقيّد للقوات البحرية في أنه على الرغم من كل الأسلحة الموجهة بدقة، فهي لا تستطيع بنفسها أن تحتل مساحات كبيرة من الأراضي، وبالتالي يقال إنها لا تمثل خطرا على الحرية. تمتلك القوات البحرية أغراضا متعددة وراء خوضها للقتال، ومنها حماية التجارة. تتلاءم القوة البحرية مع الأمم التي لا تتحمل التعرض للخسائر الفادحة التي ينطوي عليها القتال على الأرض. إن الصين، التي سُبُرت في القرن الحادي والعشرين قوتها الصلبة من خلال قواتها البحرية في المقام الأول، ستكون، بالتالي، خيرة على طريقة الأمم البحرية والإمبراطوريات الأخرى في التاريخ، مثل البندقية، وبريطانيا العظمى، والولايات المتحدة: بمعنى أنها يجب أن تهتم أساسا بحرية حركة التجارة والحفاظ على سلمية النظام البحري. لكن الصين لم تصل إلى تلك المرحلة من الثقة بالنفس حتى الآن. عندما يتعلق الأمر بالبحر، فهي لاتزال تفكر إقليميا، مثل قوة برية غير آمنة، في محاولة للتوسع في دوائر متحدة المركز بالطريقة التي اقترحها سبيكمان. فالتعبيرات نفسها التي تستخدمها، مثل «سلسلة الجزر الأولى» و«سلسلة الجزر الثانية»، هي مصطلحات إقليمية، والتي، في هذه الحالات، ينظر إليها على أنها توسعات أرخبيلية لمساحة اليابسة الصينية. لقد استوعب الصينيون الفلسفة العدوانية لألفريد ثاير ماهان، من دون أن يصلوا بعد إلى قوة المحيط ذي المياه الزرقاء التي من شأنها أن تجعل الصين قادرة على تطبيق نظرية ماهان.

وفي نوفمبر 2006، قامت غواصة صينية بمطاردة السفينة الحربية الأمريكية كيتي هوك USS Kitty Hawk وظهرت على السطح بصورة استفزازية ضمن مرمى طوربيداتها. وفي نوفمبر 2007، رفض الصينيون دخول المجموعة الضاربة للناقلة كيتي هوك إلى ميناء هونغ كونغ، على الرغم من ارتفاع مستوى البحر وتدهور الطقس (قامت كيتي هوك بزيارة هونغ كونغ في مطلع العام 2010). وفي مارس 2009، تحرّشت

حفنة من السفن الصينية بسفينة المراقبة الأمريكية إمبيكابل USNS Impeccable في أثناء إجراء عملياتها علنا في بحر الصين الجنوبي على بُعد اثني عشر ميلا خارج الحدود الإقليمية للصين. منعت السفن الصينية مرور السفينة إمبيكابل وتظاهرت بالهجوم عليها، مما اضطر إمبيكابل إلى الرد بخراطيم المياه. ليست هذه تصرفات قوة عظمى، مطمئنة لموقعها من السيادة والتي تُقر بأعراف الأخوة في البحر وتتشاركها مع القوات البحرية العالمية الأخرى، لكنها تصرفات لا تنجم إلا عن قوة صاعدة ولا تزال غير ناضجة، والمهووسة بالإهانات الإقليمية التي تعرضت لها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. تعكف الصين على تطوير قدرات لا متماثلة Asymmetric متخصصة في إعاقة الوصول، والمصممة لحرمان الولايات المتحدة من الدخول البحري السهل إلى بحر الصين الشرقي والمياه الساحلية الأخرى. وينقسم رأي المحللين حول مدى أهمية ذلك. يعتقد روبرت س. روس Ross من كلية بوسطن أنه «حتى تطوّر الصين قدرتها على الوعي الظرفي situational awareness ومن ثم يمكنها تحليل تقنيات المراقبة المضادة لدى الولايات المتحدة، فهي لا تمتلك سوى قدر محدود من عمليات إعاقة الوصول الموثوقة». أما أندرو ف. كريبينيفتش Krepinevich، من مركز التقييمات الاستراتيجية وتلك المتعلقة بالميزانية، فيعتقد أنه مهما كانت الصعوبات التقنية التي قد تواجهها الصين في الوقت الحالي، فهي في سبيلها إلى «فنلندة» «Finlandizing» شرق آسيا⁽⁴⁶⁾. وهكذا، ففي حين حدثت أسطولها من المدمرات، كما تمتلك خططا لامتلاك لحاملة طائرات أو اثنتين، فلم تقم الصين بشراء منصات بحرية شاملة. وبدلا من ذلك، بنت الصين أربع فئات جديدة من الغواصات التي تعمل بالوقود النووي والتقليدي، والتي تتسم بأنها هجومية وحاملة للصواريخ الباليستية. ووفقا لسيث كروبسي Cropsey، وهو النائب السابق لوكيل وزارة البحرية، فسيكون بوسع الصين في المستقبل المنظور حشد قوة من الغواصات أكبر مما تمتلكه البحرية الأمريكية. ويضيف أن البحرية الصينية تخطط لتثبيت الرادارات الماسحة للأفق، والأقمار الاصطناعية، وشبكات السونار [فائق الصوت] الماسحة لقاع البحر، والحرب الإلكترونية في خدمة الصواريخ الباليستية المضادة للسفن مع مركباتها الراجعة القابلة للمناورة، والتي، جنبا إلى جنب مع أسطولها المزدهر من الغواصات، ستمثل جزءا من جهودها لمنع الولايات المتحدة من الوصول بحرية إلى أجزاء كبيرة من غرب المحيط الهادي. هذا ناهيك عن تحسّن قدرة الصين في مجال حرب الألغام، وامتلاكها المقاتلات النفثة الروسية من الجيل

الرابع، من طرازي Su - 27 و Su - 30، بالإضافة إلى 1500 صاروخ أرض - جو روسي، والمنتشرة على طول ساحل الصين.

وبالإضافة إلى ذلك، يثبت الصينيون أنظمتهم التي تعمل بالألياف الضوئية تحت الأرض، كما يحركون قدراتهم الدفاعية إلى عمق الجزء الغربي من الصين، والبعيد عن مدى الصواريخ البحرية - وفي الوقت نفسه وضع استراتيجية هجومية مصممة لكي تكون قادرة على ضرب الرمز الأعلى للثروة والقوة الأمريكيتين: حاملة الطائرات.

ستمتلك الصين طائرات مقاتلة من الجيل الخامس ما بين عامي 2018 و 2020، حتى مع تباطؤ الولايات المتحدة أو توقفها عن إنتاج الطائرة F - 22⁽⁴⁷⁾. إن الجغرافية الاستراتيجية لغرب المحيط الهادي تتغير بفضل مشتريات الأسلحة الصينية.

من المرجح ألا تكون لدى الصين نية لمهاجمة حاملات الطائرات الأمريكية على الإطلاق، فالصين ليست قادرة بعد على تحدي الولايات المتحدة عسكريا بصورة مباشرة. والهدف هنا هو الردع: أي حشد أكبر قدر من القدرات الهجومية والدفاعية على طول سواحلها، بحيث تضطر البحرية الأمريكية في المستقبل إلى التفكير مرتين وثلاث مرات قبل الدخول بين سلسلة الجزر الأولى والساحل الصيني. وهذا، بطبيعة الحال، هو جوهر القوة: أن تؤثر في سلوك خصمك. وهكذا تتحقق الصين الكبرى بالمفهوم البحري. إن الصينيين، من خلال حيازاتهم للأسلحة البحرية والجوية والصاروخية، يُظهرون نزعة إقليمية واضحة. أما العلاقة بين الولايات المتحدة والصين، في اعتقادي، فلن يتم تحديدها إلا عن طريق القضايا الثنائية والعالمية مثل التجارة، والديون، وتغير المناخ، وحقوق الإنسان، لكنها ستحدد بدرجة أهم بالجغرافيا المحددة للمجال المحتمل لنفوذ الصين في آسيا البحرية.

إن الأمر المحوري لمجال النفوذ هذا هو مستقبل تايوان. توضّح تايوان نقطة أساسية في السياسة العالمية؛ وهي أن المسائل الأخلاقية، التي تُوجد تحت السطح مباشرة، غالبا ما تمثل أسئلة تتعلق بالقوة. كثيرا ما تُناقش قضية تايوان على أسس أخلاقية، على الرغم من أنها دولة ذات سيادة من عدمه يحمل في طياته عواقب جيوسياسية بالغة الأهمية. تتحدث الصين عن تايوان من حيث تعزيز الميراث الوطني، ومن ثم توحيد الصين من أجل خير جميع أفراد العرقية الصينية. وتحدث أمريكا عن تايوان من منظور الحفاظ على ديموقراطية نموذجية. لكن تايوان هي شيء آخر: وعلى حد تعبير الجنرال في الجيش الأمريكي، دوغلاس ماك آرثر MacArthur، فهي «حاملة طائرات لا يمكن إغراقها»

والتي تسيطر على النقطة المركزية للساحل المحدث للصين، والتي يمكن من خلالها لقوة خارجية مثل الولايات المتحدة أن «تُشع» قوتها على طول المحيط الساحلي للصين، وفقا لهولمز ويوشيهارا⁽⁴⁸⁾. وعلى هذا النحو، لا شيء يزجج المخططين البحريين الصينيين بقدر الاستقلال الفعلي للتايوانيين. ومن بين جميع أبراج الحراسة على طول سور الصين العظيم البحري العكسي، فإن تايوان، مجازا، هي الأطول وتحتل الموقع الأكثر مركزية. ومع عودة تايوان إلى أحضان البر الرئيسي للصين، فإن سور الصين العظيم، والقيود البحرية التي يمثلها، سوف ينقطع فجأة. إذا نجحت الصين في ضم تايوان، ليس فقط قواتها البحرية ستكون فجأة في موقع من الأفضلية الاستراتيجية في مواجهة سلسلة الجزر الأولى، بل إن طاقاتها الوطنية، وخاصة تلك العسكرية، ستُحرر بالقدر نفسه من الإثارة بحيث تتجه إلى الخارج من حيث استعراض القوة، إلى درجة ظلت حتى الآن مستحيلة. وعلى الرغم من أن صفة «متعدد الأقطاب» multipolar تُستخدم من دون تحفظ لوصف الوضع العالمي، فإن الاندماج الفعلي لتايوان مع بر الصين الرئيسي هو ما سيمثل، بالمعنى العسكري، علامة على الظهور الحقيقي لعالم متعدد الأقطاب.

ووفقا لدراسة أجرتها مؤسسة راند RAND في العام 2009، فإن الولايات المتحدة لن تكون قادرة على الدفاع عن تايوان في مواجهة هجوم صيني بحلول العام 2020. تستعد الصين لذلك بالأسلحة الإلكترونية، وبقوات جوية تزخر بطائرات مقاتلة جديدة من الجيل الرابع، وبالصواريخ البالستية التي تُطلق من الغواصات، مع نشر آلاف الصواريخ على البر الرئيسي والتي تستهدف كلا من تايوان والطائرات التايوانية المقاتلة على الأرض. ووفقا للتقرير، سيكون للصينيين هزيمة الولايات المتحدة مع أو من دون الطائرات F-22S، ومع أو من دون استخدام قاعدة كادينا الجوية في اليابان، ومع أو من دون استخدام مجموعتيها من حاملات الطائرات الضاربة. ويشدد تقرير مؤسسة راند على أهمية المعركة الجوية. وعلى الرغم من ذلك، فسيتعين على الصينيين إنزال عشرات الآلاف من الجنود عن طريق البحر، كما سيكونون في مرمى غواصات الولايات المتحدة. ومع ذلك فإن التقرير، مع كل محاذيره، يلقي الضوء على اتجاه مقلق، فعلى الرغم من أن الصين لا تبعد سوى بضع مئات من الأميال، فإنه يتعين على الولايات المتحدة أن تنشر قواتها العسكرية المتمركزة على بُعد نصف العالم في بيئة ما بعد الحرب الباردة التي يمكنها أن تعتمد فيها أقل وأقل على استخدام القواعد الأجنبية. صُممت استراتيجية الصين البحرية لمنع الوصول ليس فقط لمنع دخول القوات الأمريكية

بشكل عام، ولكن لتسهيل عملية غزو تايوان بطريقة معينة. يمكن للجيش الصيني أن يركز على تايوان بصورة أشد كثافة مما تستطيع أمريكا، في ضوء كل المسؤوليات التي تضطلع بها الولايات المتحدة في العالم. ولهذا السبب، كانت الورطة الأمريكية في العراق وأفغانستان تمثل أخباراً مدمرة على نحو خاص بالنسبة إلى تايوان.

وعلى الرغم من أن الصين تغلف تايوان عسكرياً، فهي تفعل ذلك اقتصادياً واجتماعياً. تُجري تايوان 30 في المائة من تجارتها مع الصين، كما يذهب 40 في المائة من صادراتها إلى البر الرئيسي للصين، كما أن هناك 270 رحلة جوية تجارية في الأسبوع بين تايوان والبر الرئيسي للصين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ثلثي الشركات التايوانية، البالغ عددها نحو عشرة آلاف، قد استثمرت أموالها في الصين خلال السنوات الخمس الماضية. هناك روابط بريدية مباشرة بين البلدين وجهود مشتركة لمكافحة الجريمة، مع وفود نصف مليون سائح من البر الرئيسي إلى الجزيرة سنوياً، و750 ألف مقيم تايواني في الصين لمدة نصف عام. وبصورة إجمالية، يمر عبر المضيق خمسة ملايين شخص سنوياً. ستكون هناك حاجة متناقصة دوماً إلى الغزو إذا كانت ثمة حرب اقتصادية خفية يمكنها تحقيق النتيجة نفسها. وهكذا، فقد شهدنا زوال الحركة الانفصالية التايوانية⁽⁴⁹⁾. لكن في حين أن مستقبلاً من التكامل الأوسع يبدو محتملاً، فإن الطريقة التي سيتم بها ذلك ستكون محورية بالنسبة إلى سياسات القوى العظمى. فإذا أقدمت الولايات المتحدة ببساطة على التخلي عن تايوان، فمن الممكن أن يؤدي ذلك إلى تقويض العلاقات الثنائية بين أمريكا واليابان، وكوريا الجنوبية، والفلبين، وأستراليا، وغيرها من الدول الحليفة في منطقة المحيط الهادي، ناهيك عن علاقاتها مع الهند وحتى بعض الدول في أفريقيا، والتي سوف تبدأ تشك في التزامات أمريكا الثنائية الأخرى، وبالتالي تشجيعها على الاقتراب من الصين، مما يسمح بظهور الصين الكبرى ذات الحجم الذي يصل إلى نصف الكرة الأرضية بالفعل. يجب على الولايات المتحدة وتايوان البحث عن طرق نوعية وغير متماثلة خاصة بهما لمواجهة الصين عسكرياً. وليس الهدف هنا أن تكونا قادرتين على هزيمة الصين في حرب على المضيق، ولكن جعل تكلفة الحرب بالنسبة إلى الصين باهظة لدرجة لا تُقدم معها على التفكير فيها بجدية، وبالتالي جعل عملية الاستقلال الفعلي لتايوان طويلة بما يكفي لأن تصبح الصين مجتمعاً أكثر ليبرالية، وبالتالي تستطيع الولايات المتحدة الاستمرار في الحفاظ على مصداقيتها مع حلفائها. وبهذه الطريقة، فإن منظومة الدفاع الصاروخي الطبقي التايوانية وملاجئها المضادة

للطائرات البالغ عددها 350، إلى جانب بيع أسلحة بقيمة 6.4 مليار دولار إلى تايوان، في صفقة أعلنت عنها إدارة أوباما في أوائل العام 2010، تكتسب أهمية حيوية بالنسبة إلى مكانة أمريكا في أوراسيا ككل. إن الهدف المتمثل في تغيير الصين محليا ليس مجرد أضغاث أحلام. تذكر أن ملايين السياح الصينيين الذين يأتون إلى تايوان يشاهدون برامج النقاش السياسي الحماسية في التلفاز، كما يتسوقون في مكتباتها كتب ذات عناوين هدامة. إن الصين الأكثر انفتاحا هي بالتأكيد أقرب احتمالا من تلك القمعية. لكن الصين الأكثر ديموقراطية يمكنها أن تكون قوة عظمى حتى أكثر دينامية من الصين القمعية، من الناحيتين الاقتصادية والثقافية، وبالتالي من الناحية العسكرية. تحت تايوان على الخريطة يلوح بحر الصين الجنوبي، الذي تشكّله قمره القيادة الديموغرافية للبر الرئيسي لجنوب شرق آسيا، والفلبين، وإندونيسيا، مع أستراليا على مبعده منها. يمر عبر تلك المنطقة ثلث جميع البضائع التجارية المنقولة بحرا في العالم ونصف كل احتياجات شمال شرق آسيا من الطاقة. وباعتباره البوابة المؤدية إلى المحيط الهندي - وهو المنطقة الدولية للهيدروكربونات في العالم، حيث تشارك الصين في العديد من مشروعات تطوير الموانئ - فلا بد من أن تهيمن البحرية الصينية فعليا على بحر الصين الجنوبي عند نقطة ما في المستقبل إذا أريد للصين الكبرى أن تتحقق بالفعل. وفي هذه المنطقة، هناك تحديات القرصنة، والإسلام الراديكالي، وصعود البحرية الهندية، إلى جانب الاختناقات الجغرافية المزدهمة في مختلف المضائق الإندونيسية (مالاكا، وسوندا، ولومبوك، وماكاسار)، التي لا بد أن تمر عبرها نسبة كبيرة من ناقلات النفط والأسطول التجاري للصين. وهناك أيضا احتياطات كبيرة من النفط والغاز الطبيعي التي تأمل الصين في استغلالها، مما يجعل من بحر الصين الجنوبي يشبه «الخليج العربي الثاني» في بعض التقديرات، كما كتب الأستاذان بكلية الحرب البحرية أندرو إريكسون Erickson ولايل غولدشتاين Goldstein⁽⁵⁰⁾. وقد أشار سبيكمان إلى أنه على مدى التاريخ، انشغلت الدول في «التوسّع المحيطي وعبر - البحري» للسيطرة على البحار المجاورة: سعت اليونان إلى السيطرة على بحر إيجه، وروما على البحر المتوسط، والولايات المتحدة على منطقة البحر الكاريبي، والآن، وفقا لهذا المنطق، الصين على بحر الصين الجنوبي⁽⁵¹⁾. وفي الواقع أن بحر الصين الجنوبي مع مضيق مالاكا يفتحان المحيط الهندي أمام السيطرة الصينية بنفس الطريقة التي فتحت بها منطقة الكاريبي المحيط الهادي أمام أمريكا عند قناة بنما⁽⁵²⁾. ومثلما أطلق سبيكمان على منطقة البحر

جغرافية القوة الصينية

الكاريبي الكبرى - من أجل تأكيد أهميتها - اسم «البحر المتوسط الأمريكي»، يمكن أن نطلق على بحر الصين الجنوبي اسم البحر المتوسط الآسيوي، نظرا إلى أنه سيكون في قلب الجغرافيا السياسية خلال العقود المقبلة⁽⁵³⁾. قد تسعى الصين إلى الهيمنة على بحر الصين الجنوبي بطريقة مشابهة للطريقة التي هيمن بها الأمريكان على منطقة البحر الكاريبي، في حين أن أمريكا، التي تلعب الآن وفقا لقواعد مختلفة، سوف تسعى مع حلفائها مثل فيتنام والفلبين للحفاظ على كونه ممرا مائيا دوليا بحق. إن الخوف من الصين - وليس الحب لأمريكا - هو الذي يدفع هانوي إلى الارتقاء في أحضان واشنطن. وبالنظر إلى تاريخ حرب فيتنام، قد يبدو محيرا أن نشهد هذه العلاقة الناشئة بين العدوين السابقين؛ لكن تدبر في حقيقة أنها من خلال هزيمتها لأمريكا في الحرب على وجه التحديد، فهذا يعني أن فيتنام بلد واثق ولا يشعر بالمرارة، وبالتالي فهو حر نفسيا في الدخول في تحالف غير معلن مع الولايات المتحدة.

تستخدم الصين جميع أشكال سلطتها الوطنية - السياسية، والدبلوماسية، والاقتصادية، والتجارية، والعسكرية، والديموغرافية - للتوسع عمليا خارج حدودها البرية والبحرية القانونية من أجل اشتغال حدود الصين الإمبريالية عند أعلى نقاطها التاريخية. لكن هناك تناقضا هنا، فاسمحوا لي بشرحه.

كما أشرت من قبل، فالصين عازمة على إعاقة الوصول إلى بحارها الساحلية. وفي الواقع، فقد أشار الباحثان أندرو إريكسون وديفيد يانغ Yang إلى «احتمالية أن تكون الصين أقرب من أي وقت مضى لأن تُتقن» القدرة على ضرب هدف متحرك في البحر، مثل حاملة طائرات أمريكية، بصاروخ يُطلق من البر، كما يمكن أن تُخطط لإجراء «اختبار يُروج له استراتيجيا في وقت ما من المستقبل»⁽⁵⁴⁾. لكن إعاقة الوصول من دون القدرة على حماية خطوط الاتصالات البحرية الخاصة بها يجعل هجومها على سفينة مقاتلة أمريكية (ناهيك عن خوض حرب بحرية مع الولايات المتحدة) غير ذي جدوى، حيث ستحتفظ البحرية الأمريكية بقدرتها على قطع إمدادات الطاقة الصينية عن طريق اعتراض السفن الصينية في المحيطين الهادي والهندي. وبطبيعة الحال، يسعى الصينيون إلى التأثير في السلوك الأمريكي، بدلا من محاربة الولايات المتحدة مباشرة مُطلقا. ومع ذلك، فلماذا تهتم بإعاقة الوصول إذا لم تكن تنتوي القيام به أبدا؟ وفي هذا السياق، فإن جاكين نيومير Newmyer، التي تتأصل شركة للاستشارات الدفاعية في مدينة كامبريدج، ماساشوستس، توضح أن بكين لديها «هدف يتمثل في بناء ترهيب

للسلطة الموالية تماما لجمهورية الصين الشعبية، لدرجة أنها لن تكون في الواقع بحاجة إلى استخدام القوة لتأمين مصالحها»⁽⁵⁵⁾. ولذلك، فمثلما تبني تايوان دفاعاتها من دون نية الاشتباك مع الصين، فإن الصين تفعل الشيء نفسه مع الولايات المتحدة. تسعى جميع الأطراف إلى تغيير سلوك الأطراف الأخرى مع تجنب الحرب. إن المظاهر نفسها لمنظومات الأسلحة الجديدة (إذا كان إريكسون ويانغ على حق)، ناهيك عن إنشاء الموانئ ومراكز التنصت في المحيطين الهادي والهندي، وإضافة إلى الكميات الكبيرة من المساعدات العسكرية التي تزود بها بكين الدول الساحلية الواقعة بين الأراضي الصينية والمحيط الهندي، تمثل كلها استعراضات للقوة التي هي بطبيعتها غير سرية. ومع ذلك، هناك حد صلب ومعقد في بعض ذلك: وعلى سبيل المثال، تبني الصين قاعدة بحرية رئيسية على الطرف الجنوبي لجزيرة هاينان، في القلب تماما من بحر الصين الجنوبي، والتي تضم منشآت تحت الأرض تكفي لإيواء عشرين غواصة تعمل بالطاقة النووية، والديزل، والكهرباء. يتجاوز هذا النشاط التأثير في سلوك الطرف الآخر إلى كونه توكيدا في حد ذاته على سيادة شبيهة بمبدأ مونرو على المياه المحيطة بها. قد يبدو أن الصينيين يعكفون على بناء الصين الكبرى أولا، والتي سيكون في القلب منها بحر الصين الجنوبي وجنوب شرق آسيا، كما يمتلكون في الوقت نفسه خطة طويلة الأمد لامتلاك قوة في المياه الزرقاء، والتي ستجلب معها القدرة على حماية خطوطهم البحرية للاتصال بمنطقة الشرق الأوسط عبر المحيط الهندي، مما يجعل بالتالي التفكير في الدخول في نزاع عسكري مع الولايات المتحدة أقل معقولة من وجهة النظر الصينية. (لا تمتلك الصين دافعا لخوض حرب مع الولايات المتحدة، لكن الدوافع قد تتغير بمرور السنين والعقود، وبالتالي فمن الحصاد أن تعزز قدراتها الجوية والبحرية بدلا من ذلك). وفي الوقت نفسه، فمع انزلاق تايوان إلى الارتقاء في أحضان الصين، فمن الأرجح أن يتمكن الجيش الصيني من تحويل اهتمامه إلى المحيط الهندي وحماية الممرات البحرية في نصف الكرة الأرضية الغربي. يتزايد امتلاك الصينيين لحقوق استغلال المواد الخام التي يتعين حمايتها في بلدان أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، على النهاية المقابلة للمحيط الهندي: أسواق النفط في السودان، وأنغولا، ونيجيريا؛ ومناجم خام الحديد في زامبيا والغابون؛ ومناجم النحاس والكوبالت في جمهورية الكونغو الديمقراطية، والتي جار ربطها جميعا بواسطة شبكة من الطرق والسكك الحديد الصينية الصنع، والتي ترتبط بدورها بموانئ المحيطين الأطلسي والهندي⁽⁵⁶⁾. مما لا شك فيه أن السيطرة على خطوط

الاتصال البحرية والوصول إليها هو أكثر أهمية الآن مما كان عليه في عهد ماهان، كما أن التفوق الأمريكي على هذه الطرق قد لا يكون مقدرا له أن يستمر إلى الأبد. ويعني كل هذا أن لالتزام أمريكا بإطالة أمد الاستقلال الفعلي لتايوان آثار تتجاوز الدفاع عن الجزيرة نفسها، فمستقبل تايوان وكوريا الشمالية يمثل المحاور التي يركز عليها توازن القوى في جزء كبير من أوراسيا.

يتسم الوضع الأمني الحالي في آسيا بأنه في الأساس أكثر تعقيدا، وبالتالي أكثر اضطرابا من ذلك الذي كان موجودا في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية. ومع انحسار أحادية القطبية unipolarity الأمريكية، مع التراجع النسبي في حجم القوات البحرية الأمريكية، وبالتزامن مع صعود الاقتصاد الصيني وقدراتها العسكرية (ولو بمعدلات أبطأ من ذي قبل)، فإن تعدد الأقطاب يصبح بصورة متزايدة من ملامح علاقات القوة الآسيوية. يبني الصينيون أحواضا تحت الأرض للغواصات في جزيرة هاينان، كما يعكفون على تطوير الصواريخ المضادة للسفن. ويزود الأمريكان تايوان بنحو 114 من صواريخ باتريوت للدفاع الجوي والعشرات من أنظمة الاتصالات العسكرية المتقدمة. وفي الوقت نفسه، تدخل اليابان وكوريا الجنوبية تحديثا عابرا للحدود لأسطوليهما - مع التركيز بشكل خاص على الغواصات. وتبني الهند قوات بحرية ضخمة. تمثل هذه كلها أشكالا خاما للسعي إلى ضبط توازن القوى لمصلحة كل منها. ثمة سباق جارٍ للتسلح، والذي يحدث في آسيا. هذا هو العالم الذي ينتظر الولايات المتحدة عندما تكمل انسحابها من كل من العراق وأفغانستان. وفي حين لا توجد دولة واحدة في آسيا لديها أي حافز لخوض الحرب، فإن مخاطر الحوادث التي تقع في البحر والحسابات الخاطئة القاتلة بشأن ميزان القوى - والتي يسعى الجميع إلى تعديلها باستمرار - ستميل إلى التزايد بمرور الوقت ومع تعمق تعقيد المواجهة العسكرية.

تُحرض التوترات البحرية بفعل تلك البرية، لأنه كما رأينا، فإن الصين تملأ فراغات من شأنها أن تقودها في الوقت المناسب إلى احتكاك مضطرب مع روسيا والهند. إن المساحات الفارغة على الخريطة تصير مزدحمة بأعداد أكبر من الناس، والطرق وخطوط الأنابيب الاستراتيجية، والسفن التي تمخر عباب المياه، ناهيك عن تداخل الدوائر المتحدة المركز من الصواريخ. تتحول آسيا إلى جغرافية مغلقة، مع أزمة قادمة في «المتسع»، كما وصفها بول بيركن في العام 1999. لقد تواصلت تلك العملية، مما يعني زيادة الاحتكاك.

كيف إذن يمكن للولايات المتحدة أن تبقى متورطة عسكرياً، في الوقت نفسه الذي تعمل فيه على الحفاظ على استقرار آسيا؟ كيف يمكن للولايات المتحدة حماية حلفائها، وتقليص حدود الصين الكبرى، وفي الوقت نفسه تجنب نشوب نزاع مع الصين؟ وبالنسبة إلى الصين، فإذا تمكن اقتصادها من مواصلة النمو، فمن الممكن أن تشكل قوة أقل تطوراً من أي عدو واجهته الولايات المتحدة خلال القرن العشرين. وكذلك فإن كونها موازناً خارجياً كما يقترح البعض قد لا يكون كافياً تماماً. يتطلب الحلفاء الرئيسيون مثل اليابان، والهند، وكوريا الجنوبية، وسنغافورة من القوات البحرية والجوية الأمريكية أن تعمل في «تناغم» مع قوات كل منها، كما أخبرني مسؤول هندي رفيع المستوى: أن تكون جزءاً لا يتجزأ من المشهدين البري والبحري، بدلاً من مجرد المراقبة والترصد من ثمة أفق بعيد. لكن ما الشكل المحدد الذي يمكن أن يتخذه تناغم القوى في أعالي البحار وفي الأرض المركزية لأوراسيا، التي تصورها سيبكمان؟ هناك خطة جرى تداولها في البنتاغون في العام 2010، والتي ترسم مخططات الخرائط البحرية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين التي تسعى إلى «مواجهة القوة الاستراتيجية الصينية... من دون مواجهة عسكرية مباشرة». وهي تفعل ذلك في حين تتصور تقلص حجم البحرية الأمريكية من العدد الحالي البالغ 280 إلى 250 سفينة، وخفض الإنفاق على الدفاع بنسبة 15 في المائة. وضع الخطة العقيد البحري المتقاعد، بات غاريت Garrett، وهي تستحق الوصف هنا لأنها تُدخل في معادلة الأرض المحيطة لأوراسيا الأهمية الاستراتيجية لأوقيانوسيا، في وقت كان فيه الوجود العسكري الأمريكي ينمو بشكل كبير في جزيرة غوام Guam.

إن مجموعات جزر غوام، وبالاو، وماريانا الشمالية، وسولومون، ومارشال، وكارولين كلها إما أراض أمريكية، أو أعضاء في كومنولث يرتبط باتفاقيات دفاعية مع الولايات المتحدة، أو دول مستقلة قد تكون مفتوحة على مثل هذه الاتفاقيات بسبب فقرها. أتى موقع الولايات المتحدة في أوقيانوسيا Oceania بفضل غنائم الحرب الإسبانية - الأمريكية لعام 1898 ودماء مشاة البحرية التي سالت خلال الحرب العالمية الثانية، والذين حرروا هذه الجزر من اليابانيين. وستتنامي أهمية أوقيانوسيا لأنها قريبة بما فيه الكفاية من شرق آسيا، في حين تقبع إلى الخارج مباشرة من فقاعة إعاقه الوصول المتوسعة بفعل الصواريخ الصينية من طراز DF - 21، وغيرها من الصواريخ المتقدمة المضادة للسفن. بيد أن القواعد المستقبلية في أوقيانوسيا لن تكون استفزازية على نحو

جغرافية القوة الصينية

غير ملائم، على عكس القواعد القائمة على «أبراج الحراسة» المتمثلة في اليابان، وكوريا الجنوبية، والفلبين (حتى تسعينيات القرن العشرين). لا تبعد غوام سوى أربع ساعات بالطائرة من كوريا الشمالية، كما لا تبعد بالباخرة عن تايوان سوى يومين. والأهم من ذلك، فباعتبارها ملكية تامة للولايات المتحدة، أو ذات اقتصادات محلية معتمدة وظيفيا على الولايات المتحدة، فبإمكان الولايات المتحدة القيام باستثمارات دفاعية هائلة في بعض هذه الأماكن من دون خوف من أن تتعرض للطرد.

وبالفعل، فإن قاعدة أندرسن الجوية في غوام هي المنصة الأهم في العالم لنشر القوة الصلبة للولايات المتحدة. ولأنها تضم 100 ألف قبلة وصاروخ و66 مليون غالون من وقود الطائرات في أي وقت بعيته، فهي أكبر محطة استراتيجية لتزويد الطائرات الحربية بالوقود في أي مكان من العالم. وتمتلى مدرجات الإقلاع والهبوط في القاعدة بأرتال طويلة من طائرات C - 17 غلوب ماستر، وأسراب F/A - 18 هورنتس، وما إليها. وغوام هي أيضا موطن لسرب من الغواصات الأمريكية وقاعدة بحرية متوسعة.

إن جزيرة غوام وجزر ماريانا الشمالية القريبة منها، والتابعة بدورها للولايات المتحدة، تقع تقريبا على مسافة متساوية بين اليابان ومضيق مالاکا.

ثم إن هناك الإمكانية الاستراتيجية للطرف الجنوبي الغربي من أوقيانوسيا، والتي تدل عليها المراسي البعيدة عن شواطئ جزر أشمور وكارتييه التابعة لأستراليا، والساحل المجاور لغرب أستراليا نفسها، ما بين مدينتي داروين إلى بيرث: وكلها تطل من الأرخبيل الإندونيسي إلى المحيط الهندي، الذي تتزايد أهميته باعتباره المركز المائي للاقتصاد العالمي، حيث يُنقل النفط والغاز الطبيعي عبر عرضه من الشرق الأوسط إلى الطبقات المتوسطة المزدهرة في شرق آسيا. ستستفيد القوات البحرية والجوية الأمريكية، وفقا لخطة غاريت، من جغرافية أوقيانوسيا من أجل تشكيل «وجود إقليمي فعلي» يقع «فوق خط الأفق مباشرة» من الحدود الظاهرية للصين الكبرى وممرات الشحن الرئيسية لأوراسيا⁽⁵⁷⁾. إن «الوجود الإقليمي الفعلي» هو بديل «الأسطول الفعلي» الذي تصوره خبير الاستراتيجية البحرية البريطانية جوليان كوربيت Corbett منذ مائة سنة مضت، وهو عبارة عن مجموعة متفرقة من السفن التي يمكنها أن تتجمع بسرعة لتكون أسطولا موحدا عند الضرورة؛ في حين تعكس عبارة «فوق خط الأفق مباشرة» التقاء الموازنة على مبعدة من الشاطئ والمشاركة في تناغم للقوى⁽⁵⁸⁾.

إن مفهوم تعزيز الوجود الجوي والبحري الأمريكي في أوقيانوسيا يعكس حلا وسطا بين مقاومة الصين الكبرى بأي ثمن والارتضاء إلى حد ما بالدور المستقبلي للبحرية الصينية في مراقبة سلسلة الجزر الأولى، وفي الوقت نفسه جعل الصين تدفع ثمنا باهظا لأي عدوان عسكري من قبلها على تايوان. ومن دون أن يُذكر مضمونها على الإطلاق، فهذه الرؤية تسمح للمرء بالتفكير في عالم يجري فيه تقليص حجم القواعد «التراثية» الأمريكية الواقعة على سلسلة الجزر الأولى إلى حد ما، على الرغم من تواصل دوريات السفن والطائرات الأمريكية حولها، دخولا وخروجا من فقاوعة إعاقة الوصول الصينية. وفي الوقت نفسه، فإن الخطة تتصور حدوث توسع كبير في نشاط البحرية الأمريكية في المحيط الهندي. ولتحقيق ذلك، سيتعين على الولايات المتحدة امتلاك قواعد محصنة، وفي الوقت نفسه «مواقع تشغيلية» متقشفة واتفاقيات دفاعية مع كل من سنغافورة، وبروناي، وماليزيا؛ وعلى الدول الجزرية المتناثرة حول المحيط الهندي، مثل جزر القمر، وسيشيل، وموريشيوس، والريونيون، وجزر المالديف، وجزر أندامان، والتي يُدار عدد منها بشكل مباشر أو غير مباشر من قبل فرنسا والهند، وكلتاهما من حلفاء الولايات المتحدة.

يعمل هذا على حفظ حرية الملاحة في أوراسيا، جنبا إلى جنب مع تدفق إمدادات الطاقة من دون عوائق. تقلل الخطة من أهمية القواعد الأمريكية الموجودة في اليابان وكوريا الجنوبية، وتنوّع الوجود الأمريكي حول أوقيانوسيا ليحل محل التوتر الساحق في غوام، وبالتالي الابتعاد عن القواعد «الرئيسية» التي يمكن استهدافها بسهولة. وفي عصر السيادة القومية الشائك هذا، الذي تدافع عنه وسائل الإعلام المتقلبة التوجّه، فإن تعزيز القواعد الأجنبية يجعلها غير مهضومة سياسيا بالنسبة إلى السكان المحليين. أما غوام، باعتبارها أراضي تابعة للولايات المتحدة، فهي الاستثناء الذي يثبت القاعدة. شهدت الولايات المتحدة صعوبة بالغة في استخدام قواعدها في تركيا قبل حرب العراق في العام 2003، ولفترة قصيرة في استخدام قواعدها في اليابان في العام 2010. يتسم وجود الجيش الأمريكي في كوريا الجنوبية الآن بأنه أقل جاهزية، الأمر الذي يرجع أساسا إلى أن عدد القوات المتمركزة هناك قد انخفض من 38 ألفا إلى 25 ألف جندي خلال السنوات الأخيرة، في حين ابتعد الجيش الأمريكي إلى حد كبير عن الوجود في وسط العاصمة سيول.

وعلى أي حال، فإن السيطرة الأمريكية على سلسلة الجزر الأولى قد بدأت تتداعى. يتسم السكان المحليون بأنهم أقل قبولاً للقواعد الأجنبية، على الرغم من أن صعود الصين يعمل كأمر مُرعب وجذاب على حد سواء، والذي يمكن أن يعقد العلاقات الثنائية لأمريكا مع حلفائها في المحيط الهادي. لقد حان الوقت لحدوث هذا. وللطرافة، فإن الأزمة التي اعترت العلاقات الأمريكية - اليابانية خلال عامي 2009 - 2010، في ظل حكومة يابانية جديدة عديمة الخبرة، والراغبة في إعادة كتابة قواعد العلاقة الثنائية لمصلحة طوكيو، حتى في الوقت الذي تتحدث فيه عن بناء علاقات أعمق مع الصين، كان ينبغي لها أن تحدث قبل ذلك بسنوات عديدة. إن الموقف الأمريكي المتفوق في المحيط الهادي هو إرث قديم من أيام الحرب العالمية الثانية، والتي تركت الصين، واليابان، والفلبين مدمرة: وكذلك فلا يمكن لتقسيم كوريا، وهو نتيجة لمعركة انتهت منذ ستة عقود، والتي تركت الجيش الأمريكي في وضع مهيمن في شبه الجزيرة، أن يدوم إلى الأبد.

وفي الوقت نفسه، فإن الصين الكبرى تبزغ سياسياً واقتصادياً في وسط شرق آسيا وغرب المحيط الهادي، مع بُعد بحري مُعتبر في بحري الصين الشرقي والجنوبي، بينما تشارك بكين في الوقت نفسه في مشروعات بناء الموانئ وعمليات نقل الأسلحة عبر سواحل المحيط الهندي. ولا يمكن أن يغير هذا التوجّه سوى وقوع اضطرابات سياسية واقتصادية كبرى داخل الصين.

ولكن خارج حدود هذا المجال الجديد للقوة، فمن المرجح أن يكون هناك رتل من السفن الحربية الأمريكية، والتي ربما يقع مقرها الرئيسي في كثير من الحالات في أوقيانوسيا، والتي تعمل في شراكة مع سفن حربية من الهند، واليابان، والديمقراطيات الأخرى، وجميعها لا تستطيع مقاومة الارتماء في أحضان الصينيين، لكنها مضطرة في الوقت نفسه إلى تحقيق التوازن ضدها.

وإذا مُنحت الوقت الكافي، فبوسع القوة البحرية الصينية أن تُصبح أقل إقليمية مع تنامي ثقتها في نفسها، وبالتالي تنجر إلى نفس هيكل التحالف هذا. وبالإضافة إلى ذلك، وكما يشير العالم السياسي روبرت س. روس Ross في مقال له نشر في العام 1999، والذي يتسم بأهميته الحالية كما كان آنذاك، فبسبب الطبيعة الجغرافية الخاصة لشرق آسيا، فإن الصراع بين الصين والولايات المتحدة سيبقى أكثر استقراراً من ذلك الذي دار بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. ويرجع ذلك إلى أن القوة البحرية الأمريكية

خلال الحرب الباردة لم تكن كافية لاحتواء الاتحاد السوفييتي؛ كما احتاج الأمر أيضا إلى نشر قوات برية لا يستهان بها في أوروبا. ولكن حتى في وجود كوريا كبرى مؤيدة للصين على استحياء، فلن تكون هناك حاجة مطلقا إلى وجود قوات برية حول الأرض المحورية لأوراسيا، والتي ستُعرض فيها البحرية الأمريكية ضد البحرية الصينية الأضعف⁽⁵⁹⁾. (إن حجم القوات البرية الأمريكية في اليابان آخذ في التناقص، وهي على أي حال ليست موجهة إلى الصين، بل إلى كوريا الشمالية).

ومع ذلك، أعدنا حقيقة القوة الاقتصادية الصينية - التي تترافق على نحو متزايد مع القوة العسكرية - ستؤدي إلى درجة محورية من التوتر خلال السنوات المقبلة. وإذا أعدنا صياغة حجة ميرشايمر التي ضمنها كتابه المعنون «مأساة سياسات القوى العظمى»، فإن الولايات المتحدة، بوصفها قوة إقليمية مهيمنة في نصف العالم الغربي، سوف تسعى إلى منع الصين من أن تصبح قوة إقليمية مهيمنة على جزء كبير من نصف العالم الشرقي⁽⁶⁰⁾. قد تكون هذه هي الدراما المميّزة للعصر، والتي لن تفاجئ ماكيندر وسبيكمان.

معضلة الهند الجغرافية

مثلما أصبحت الولايات المتحدة والصين قوتين عظميين متنافستين، فإن الاتجاه الذي تميل إليه الهند يمكن أن يحدد مسار الجغرافيا السياسية في أوراسيا خلال القرن الحادي والعشرين. وبعبارة أخرى، فإن الهند تلوح في الأفق باعتبارها الدولة المحورية المطلقة. وهي، وفقا لسبيكمان، القوة الواضحة للأرض المحورية. أشار ماهان إلى أن الهند، التي تقع في وسط المحيط الهندي الساحلي، تتسم بأهمية محورية لاختراق كل من الشرق الأوسط والصين من اتجاه البحر. ولكن على الرغم من تفهم الطبقة السياسية الهندية على مستوى حميم للغاية للوضع التاريخي والجغرافي الخاص أمريكا، فإن الطبقة السياسية الأمريكية لا تمتلك مثل هذا الفهم للأوضاع في الهند. ومع

«تبذل الهند محاولات مستميتة من أجل الهروب من هذه الجغرافيا ومن هذا التاريخ»

المؤلف

ذلك، فإذا لم يتمكن الأمريكيان من فهم الجغرافيا السياسية الشديدة الاضطراب في الهند، خصوصا فيما يتعلق بباكستان، وأفغانستان، والصين، فسيستثون إدارة العلاقة بين البلدين بصورة مدمرة. إن تاريخ وجغرافية الهند منذ بدايات العصور القديمة يشكلان الشفرة الوراثية لكيف يبدو العالم من نيودلهي. وسأبدأ شرحي بوضع شبه القارة الهندية في سياق أوراسيا بشكل عام.

ومع سيادة روسيا على اليابسة في أوراسيا، على الرغم من كونها ذات كثافة سكانية منخفضة، فإن المراكز السكانية الأربعة الكبرى في القارة الفائقة super-continent تقع على أطرافها: أوروبا، والهند، وجنوب شرق آسيا، والصين. إن الحضارتين الصينية والأوروبية، كما كتب الجغرافي جيمس فيرغريف في العام 1917، تمت إلى الخارج بطريقة متناغمة من محاضن nurseries وادي نهر الوي وحوض البحر المتوسط⁽¹⁾. كان التطور الحضاري في جنوب شرق آسيا أكثر تطورا: مع قيام شعبي البيو Pyu والمون Mon، يليهما البورميون، والخمير، والسياميون، والفيتناميون، والملايو، وغيرهم- والذين تأثروا بدورهم بالهجرة جنوبا من الصين- بالتجمع على طول وديان الأنهار مثل الإيراوادي Irrawaddy والميكونغ، وكذلك على الجزر مثل جاوة وسومطرة. بيد أن الهند تمثل حالة مختلفة تماما. ومثل الصين، فإن الهند تمتلك قدرا من المنطق الجغرافي، كونها محاطة بالبحر العربي من جهتي الغرب والجنوب الغربي، وخليج البنغال من جهتي الشرق والجنوب الشرقي، وبأدغال بورما الجبلية من ناحية الشرق، وبجبال الهيمالايا وعقدة كاراكورام وهندو كوش من جهتي الشمال والشمال الغربي. وتتسم الهند، مثل الصين أيضا، بأنها شديدة الاتساع داخليا. لكن الهند، وبدرجة أقل من الصين، تفتقر إلى الحضانة المفردة التي توفرها منظمة ديموغرافية مثل وادي نهر الوي والنهر الأصفر السفلي، والذي يمكن من خلاله لدولة ما أن تتوسع إلى الخارج في جميع الاتجاهات.

وحتى وادي نهر الغانج لم يقدم منصة كافية لتوسع دولة هندية موحدة في الجزء الجنوبي العميق، وشبه الجزيرة من شبه القارة الهندية: إذ إن مختلف أنظمة الأنهار في شبه القارة بالإضافة إلى نهر الغانج- أي أنهار براهما بوترا، ونارمادا، وتونغابهارا، وكافيري، وجودافاري، وهلم جرا، تسبب في تقسيمها أكثر فأكثر. وعلى سبيل المثال، فإن دلتا نهر الكافير، هي جوهر حياة من يتحدثون لغات الدرافيدان Dravidian.

بقدر أهمية نهر الغانج بالنسبة إلى الشعوب الناطقة بالهندية⁽²⁾. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الهند (جنبا إلى جنب مع دول جنوب شرق آسيا) تتسم بأشد الظروف المناخية سخونة وبالمناظر الطبيعية الأكثر وفرة وترفا بين جميع المحاور السكانية لأوراسيا، وبالتالي فإن سكانها، كما يخبرنا فيرغريف، لم تكن لديهم حاجة إلى بناء هياكل سياسية لتنظيم الموارد، على الأقل بالحجم الذي فعله الصينيون والأوروبيون الذين يعيشون في المناطق المعتدلة.

وهذه النقطة الأخيرة، بطبيعة الحال، قد تبدو حتمية أكثر من اللازم، وربما عنصرية بطبيعتها في بساطتها الصارخة: وهي سمة شائعة في الحقبة التي كتب فيها فيرغريف. ومع ذلك، فكما هي الحال مع ماكيندر، الذي كان يخشى «الخطر الأصفر» الذي يُفترض أن تمثله الصين، فإن تحليل فيرغريف الأوسع للهند يتسم بصحته جوهريا، فضلا عن أنه مستبصر.

وعلى الرغم من أنه من الواضح أنها تمثل حضارة فريدة خاصة بها، فإن شبه القارة الهندية، بفعل الأسباب المذكورة أعلاه، كانت طوال فترة طويلة من تاريخها تفتقر إلى الوحدة السياسية التي امتلكتها الصين، إذ إنها كانت مفتوحة أمام سلسلة من الغزوات المركزة الآتية من شمال غرب البلاد، وهي الأقل تحديدا وحماية من بين مناطقها الحدودية، حيث تقترب الهند على نحو خطير من كل من سهوب آسيا الوسطى والهضبة الفارسية - الأفغانية، بحضاراتها الأكثر «فحولة» virile التي تنتمي إلى المناطق المعتدلة⁽³⁾. وقد شجّع وقوع هذه الغزوات على مر التاريخ وجود خصوبة مُرْحَبَة يعززها هطول الأمطار بمعدلات ليست مفرطة للغاية، والتي تميز سهل البنجاب الذي يرويه نهر السند وروافده عند نفس النقطة المحددة التي تهبط فيها الهضبة الفارسية - الأفغانية إلى مستوى أرضية شبه القارة. وفي الواقع، فقد أدت الغزوات الهادرة وعمليات التسلل من غرب ووسط آسيا إلى تعطيل السعي من أجل الوحدة والاستقرار في شبه القارة الهندية حتى العصر الحديث. وكما قال ماكيندر في واحدة من محاضراته: «في الإمبراطورية البريطانية، ليس هناك سوى حدود برية واحدة ينبغي أن تكون الاستعدادات الحربية فيها جاهزة على الدوام، وهي الحدود الشمالية الغربية للهند»⁽⁴⁾.





مفتاح الخريطة:

Iran	إيران
Iranian plateau	الهضبة الإيرانية
Turmenistan	تورمينستان
Bactria	باكتريا
Uzbekistan	أوزبكستان
Samarkand	سمرقند
Ferghana valley	وادي فرغانة
Afghanistan	أفغانستان
Kandahar	قندهار
Hindu Kush	هندو كوش
North west frontier	منطقة الحدود الشمالية الغربية
(Khyber Pakhtunkhwa)	(خيبر بختون خوا)
Kabul	كابول
Khyber pass	ممر خيبر
Tajikistan	طاجيكستان
Kyrgyzstan	قيرغيزستان
Karakoram range	سلسلة جبال كاراكورام
Siachen glacier	نهر سياتشن الجليدي
Kashmir	كشمير
Aksai chin	أقصاي تشين
Sindh valley	السند وادي
Srinagar Jammu	سريناغار جامو
Ladakh range	سلسلة جبال لاداخ
Indus valley	وادي السند
Baluchistan desert	صحراء بلوشستان
Indus river	نهر السند
Gilgit	جيلجيت
Peshawar	پيشاور
Taxila	تاكسيلا
Islamabad	إسلام أباد
Punjab	البنجاب
Baluchistan	بلوشستان
Himalaya	جبال الهمالايا

معضلة الهند الجغرافية

Delhi	دلهي
New Delhi	نيودلهي
Gangetic Plain	سهل الغانج
Ganges r.	نهر الغانج
Thar desert	صحراء ثار
Rajasthan	راجستان
Sindh Valley	وادي السند
Gulf of Oman	خليج عُمان
Gwadar	غوادار
Makran coast	ساحل مكران
Oman	عُمان
Tropic of cancer	مدار السرطان
Karachi	كراتشي
Narmada river	نهر نارمادا
India	الهند
Arabian sea	بحر العرب
Mumbai	مومباي
Godavari river	نهر غودافاري
Eastern Ghats	غاتس الشرقية
Kalinga	كالينغا
Deccan plateau	هضبة الدكن
Western Ghats	غاتس الغربية
Karwar	كاروار
Karnataka	كارناتاكا
Kaveri river	نهر كافيري
Bangalore	بنغالور
Kaveri delta	نهر كافيري دلتا
Palk strait	مضيق بالك
Maldives	جزر المالديف
Indian ocean	المحيط الهندي
Hambantota	هامبانتوتا
Sri lanka	سري لانكا
Miles	أميال
Km	كلم

Indonesia	إندونيسيا
Malaysia	ماليزيا
Bay of Bengal	خليج البنغال
Nepal	نيبال
Ganges river	نهر الغانج
Bihar	بيهار
Kolkata	كولكاتا
Kalinga	كالينغا
Xinjiang	شينجيانغ
China	الصين
Brahmaputra river	نهر براهماپوترا
Bhutan	بوتان
Arunahal Pradesh	براديش أروناهاال
Bangladesh	بنغلاديش
Chittagong	شيتاغونغ
Bay of Bengal	خليج البنغال
Thailand	تايلاند
Laos	لاوس
Burma	بورما

إن المزايا والعيوب المصاحبة لسعي الهند إلى مكانة القوى العظمى في أوائل القرن الحادي والعشرين تظل ملازمة لهذه الخصائص الجغرافية. وكما أشار إليه المؤرخ الراحل بيرتون شتاين Stein، فإن خريطة الهند حتى حقبة القرون الوسطى قد امتدت إلى أجزاء من آسيا الوسطى وإيران، وفي الوقت نفسه لم تُظهر سوى ارتباط ضعيف بين وادي السند في الشمال الغربي وبين شبه الجزيرة الهندية إلى الجنوب من نهر الغانج⁽⁵⁾. وكما أن الصين اليوم تمثل تنويعا مظفرا للعلاقة بين أراضي السهوب الداخلية الآسيوية وبين السهول الفيضية للأراضي المركزية الصينية، فقد تأثرت الهند بشدة طوال آلاف السنين بمناطقها الظلية المرتفعة، والتي-على عكس الوضع في الصين- لم تتمكن من السيطرة عليها، وبالتالي ظلت الهند قوة أضعف.

هناك أواصر واضحة بين شبه القارة الهندية وجنوب شرق أفغانستان بسبب تجاورهما، ومع ذلك فإن العلاقات بين الهند وبين أراضي السهوب في آسيا الوسطى، وبين الهند وبين الهضبة الإيرانية تتسم بنفس الدرجة من العمق. تشاركت الهند وإيران مآزق الوجود على الطرف المتلقي لغزوات المغول من آسيا الوسطى، على الرغم من أن دينامية الثقافة الإيرانية، التي حرستها الغزوات منذ زمن الأخمينيين Achaemenids (ما بين القرنين السادس إلى الرابع قبل الميلاد)، أدى إلى أن الفارسية هي اللغة الرسمية في الهند حتى العام 1835⁽⁶⁾. أما أباطرة الهند من المغول خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد «صاروا تجسيدا للثقافة الفارسية»، كما أشار إليه المؤرخ الراحل ك.م. بانيكار Panikkar، وأضاف «كما كانوا يحتفلون بالنوروز [السنة الفارسية الجديدة] باحتفالات تقليدية، كما عَمَّموا استخدام التقنيات الفارسية في الفنون»⁽⁷⁾. وفي الوقت نفسه، فإن الأردية Urdu، وهي اللغة الرسمية في باكستان، وهي الدولة التي تحتل الربع الشمالي الغربي من شبه القارة الهندية -تعتمد بشدة على الفارسية (وكذلك العربية) كما تُكتب بحروف عربية معدلة⁽⁸⁾. وبالتالي، فإن الهند هي شبه قارة وطرف حيوي للشرق الأوسط الكبير على حد سواء. وهذا هو المكان الذي يمكننا فيه أن نفهم حقا وجهة نظر وليام ماكنيل فيما يتعلق باختلاط وامتزاج الحضارات.

وبالتالي فإن مفتاح فهم الهند يتمثل في إدراك أنه على الرغم من أن الهند تحمل مغزى جغرافيا بارزا باعتبارها شبه قارة، فإن حدودها الطبيعية، مع ذلك، تتسم بضعفها الشديد في بعض الأماكن. وكانت النتيجة هي ظهور العديد من الدول عبر التاريخ، والتي لا تتوافق مع فكرتنا المكانية عن الهند، والتي تقع في الواقع عبرها. وفي الواقع أن الدولة الهندية الحالية لا تتبع حدود شبه القارة، وهذا هو جوهر معضلتها: إن باكستان، وبنغلاديش، وبدرجة أقل نيبال تقع أيضا داخل شبه القارة، وتشكل تهديدات أمنية كبيرة للهند، مما يسلب الهند من طاقة سياسية حيوية كان في وسعها تسخيرها لاستعراض قوتها في أنحاء كثيرة من أوراسيا.

لا تتمثل القضية في أن الاستيطان البشري اعتبارا من بواكير العصور القديمة لم يلتزم بجغرافية شبه القارة؛ بل في أن جغرافية الهند هي نفسها محيرة، ولا سيما في الشمال الغربي، مما يروي قصة مختلفة عما تكشفه الخريطة عند النظر إليها لأول

وهلة. للوهلة الأولى، فإن خريطة التضاريس تُظهر طبقة بنية من الجبال والنجود التي ترسم بدقة الحدود الفاصلة بين القفار الباردة في وسط آسيا وبين الأرضية المدارية الخضراء لشبه القارة الهندية على طول الحدود الحالية بين أفغانستان وباكستان. لكن النزول من أفغانستان إلى نهر السند، الذي يتدفق طوليا عبر منتصف باكستان، يتم بشكل تدريجي للغاية، بحيث احتلت ثقافات متشابهة طوال آلاف السنين كلا من الهضاب العالية والأراضي المنخفضة، والسهول النهرية، سواء قبائل الهاربان Harappan، أو الكوشان Kushan، أو تلك التركية، أو المغولية، أو الهندية - الفارسية، أو الهندية - الإسلامية، أو البشتون، على سبيل المثال لا الحصر. ولا يشمل هذا ذكر الصحارى القلوية في مكران Makran وبلوشستان، والتي توحد إيران مع شبه القارة الهندية؛ أو حركة المرور البحري في العصور الوسطى التي عملت على توحيد جزيرة العرب مع الهند بفضل الرياح الموسمية التي يمكن التنبؤ بها. وعلى مر التاريخ، إن «حدود الهند Al-Hind»، كما يسميها أندريه وينك Wink، وهو باحث من جنوب آسيا- مرددا الاسم العربي للبلاد- والتي تشمل كامل المنطقة الممتدة من شرق إيران إلى غرب الهند، والتي يسيطر عليها سكان مسلمون ناطقون بالفارسية، ظلت طوال معظم فترات التاريخ تمثل كائنا حيا ثقافيا رشيقا، ولذلك كان تعريف حدود الدولة صعبا بطبيعته⁽⁹⁾.

أن خريطة حضارة الهاربان، وهي شبكة معقدة من العشائر التي كانت تُحكم مركزيا ما بين أواخر الألفية الرابعة إلى منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد، تُخبرنا بكثير في هذا الخصوص. ووفقا للبقايا الأثرية، كانت المدينتان الرئيسيتان هما مونجودارو Moenjodaro وهارابا Harappa، وكلاهما تقع على ضفاف نهر السند في السند العليا؛ بحيث كان نهر السند، بدلا من أن يمثل حدودا تفصل بين شبه القارة وبين آسيا الداخلية، يشكّل قلبا حضاريا في حد ذاته. امتدت تخوم منطقة الهاربان من شمال شرق بلوشستان وحتى كشمير ثم إلى الجنوب الشرقي وصولا إلى مشارف كل من دلهي ومومباي، متجنبه صحراء ثار: أي أنها تلامست تقريبا مع إيران وأفغانستان الحاليتين، وتضمنت جزءا كبيرا من باكستان، وامتدت إلى كل من شمال غرب وغرب الهند. كانت هذه جغرافيا معقدة للاستيطان الذي التصق بمنطقة تدعم الري الزراعي، على الرغم من إشارة عديد من الباحثين إلى أن شبه

القارة الشاسعة كانت تطوي داخلها عديدا من التقسيمات الفرعية الطبيعية. ربما تسلل الآريون Aryans من الهضبة الإيرانية، ومن ثم فقد شكلوا - جنبا إلى جنب مع السكان الأصليين لشبه القارة - جزءا من عملية أدت إلى توحيد التنظيم السياسي لسهل نهر الغانج في شمال الهند نحو العام 1000 قبل الميلاد. أدى هذا إلى ظهور مجموعات من الأنظمة الملكية ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، والتي بلغت ذروتها مع إمبراطورية ناندا Nanda Empire، التي امتدت في القرن الرابع قبل الميلاد عبر شمال الهند وسهل نهر الغانج من البنجاب إلى البنغال. في العام 321 قبل الميلاد، خلع شاندرأغوبتا موريا ضانا ناندا وأسس إمبراطورية الماوريين Mauryan Empire، التي تمكنت من تطويق جزء كبير من شبه القارة، باستثناء أقاصي الجنوب، وبالتالي شجعت للمرة الأولى في التاريخ فكرة الهند بوصفها كيانا سياسيا يتوافق مع جغرافية جنوب آسيا. يشير بيرتون شتاين إلى أن دمج عديد من الدول المدنية والعشائر في نظام واحد متماسك كان، بالإضافة إلى تشجيع «التجارة القوية» بينها، مستوحى جزئيا من التهديد الذي شكله الإسكندر الأكبر Alexander the Great، الذي كان على وشك غزو وادي نهر الغانج لولا تمرد جنوده في العام 326 قبل الميلاد. وثمة عامل آخر ساعد على تحقيق الوحدة، وهو ظهور أيديولوجيتين جديدتين على مستوى شبه القارة، وهما البوذية واليانية Jainism، واللذان «استحوذتا على ولاء الشعوب التجارية»، كما كتب شتاين⁽¹⁰⁾.

اعتنق ملوك الماوريين البوذية، وأداروا إمبراطوريتهم وفقا لممارسات الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية التي تسربت عبر الطريق الرئيسي للهجرة في المنطقة المعتدلة المناخ من حوض بحر إيجه وغرب آسيا إلى الهند. ومع ذلك، فقد احتاج الأمر إلى جميع أشكال البراعة الإنسانية للمحافظة على تماسك إمبراطورية الماوريين. ربما كان رئيس وزراء شاندرأغوبتا هو كوتيليا Kautilya، الذي ألف أحد الكتب السياسية الكلاسيكية، وهو بعنوان أرثاشاسترا Arthashastra، أو «كتاب الدولة»، والذي يُظهر كيف يمكن لأحد الفاتحين أن ينشئ إمبراطورية عن طريق استغلال العلاقات بين مختلف الدول المدنية: ينبغي أن تُعتبر أي دولة مدنية تلامس دولة المرء عدوا، لأنه سينبغي إخضاعها في سياق بناء الإمبراطورية؛ لكن الدولة المدنية البعيدة التي تجاور عدوا ينبغي اعتبارها صديقة. ولأن المحافظة

على تماسك مثل هذه الإمبراطورية شبه القارية الشاسعة كان أمرا يتسم بالصعوبة، فقد آمن كوتيليا بأهمية شبكات التحالف المعقدة، وبالإحسان إلى الشعوب التي يجري غزوها، والتي ينبغي المحافظة على أنماط حياتها⁽¹¹⁾. اتسمت إمبراطورية الماورين باللامركزية، على أقل تقدير، مع وجود منطقة مركزية في السهل الشرقي لنهر الغانج وأربعة مراكز إقليمية في الوقت الذي تولى فيه الحكم أشوكا Ashoka، وهو حفيد شاندراغوبتا: تاكسيلا Taxila في شمال غرب البلاد، والواقعة على مشارف العاصمة الباكستانية إسلام آباد؛ وأوجاين Ujjain على هضبة مالوا في الجزء الغربي من وسط الهند؛ وسوفارانجيري Suvarnagiri في ولاية كارناتاكا الواقعة في جنوب الهند؛ وكالينجا Kalinga على طول خليج البنغال إلى الجنوب من كولكاتا.

كان ذلك إنجازا استثنائيا في هذه المرحلة المبكرة من التاريخ، حيث لم تكن هناك سوى وسائل بدائية للنقل والاتصالات، أن تتمكن إمبراطورية واحدة من تغطية معظم أجزاء شبه القارة الهندية. أظهر الماوريون إمكان توظيف دولة واحدة المنطق الجغرافي على مساحة شاسعة لبعض الوقت. وللأسف، فقد أدى تراجع الماورين إلى الغزوات المألوفة من جهة الشمال الغربي، لا سيما عبر ممر خير: الإغريق في القرن الثاني قبل الميلاد، والسكيثيين في القرن الأول قبل الميلاد. وشجع هذا على إعادة تقسيم شبه القارة إلى أسرات حاكمة إقليمية: سونجا، وبانديان، وكونيندا، وهلم جرا. ظهرت إمبراطورية كوشان Kushan Empire في القرن الأول الميلادي في باكتريا Bactria، حيث يلتقي شمال أفغانستان مع طاجيكستان، وأوزبكستان، كما غزا حكامها الهندو-أوروبيين أراضي وادي فرغانة في القلب الديموغرافي لآسيا الوسطى، ومن ثم ضمها إلى ولاية بيهار في شمال شرق الهند. تتسم خريطة نطاق كوشانا بكونها مذهلة بمفاهيم عالمنا المعاصر، كونها متراكبة بين آسيا الوسطى السوفييتية السابقة، وأفغانستان، وباكستان، وجزء كبير من سهل نهر الغانج في شمال الهند. اتبعت إمبراطورية كوشان أودية الأنهار من ناحية، لكنها تعبر السلاسل الجبلية من ناحية أخرى، بحيث إنها تتبع الجغرافيا وتناقضها في الوقت نفسه. وهي تمثل أيضا درسا مَعْلَميًا من حيث حقيقة أن الحدود الحالية قد لا تشير بالضرورة إلى القول الفصل في التنظيم السياسي لوسط وجنوب آسيا.

أما إمبراطورية غوبتا Gupta Empire (320-550 م) فقد استعادت مظهرها

من مظاهر الوحدة عبر شبه القارة، إذ حكمتها من نهر السند في الغرب إلى ولاية البنغال في الشرق، ومن جبال الهيمالايا في الشمال إلى هضبة الدكن في الوسط، وإن كان معظم الجنوب خارج نطاق سيطرتها، حتى عانى حكام غوبتا غزوات فرسان آسيا الوسطى الذين قادوا جيادهم من الشمال الغربي إلى ولاية راجاستان والسهل الغربي لنهر الغانج. وبالإضافة إلى ذلك، كما هي الحال مع الماوريين، كانت إمبراطورية غوبتا أقل من أن تُعتبر دولة موحدة، بل كانت أشبه بمنظومة واهية من الولايات العميلة التي توحيدها التجارة والإجلال لماهية نهر الغانج. كان الجنوب غير التابع لسلطان غوبتا هو مصدر الشكل التعبدي من الديانة الهندوسية الذي انتشر شمالاً إلى نهر الغانج. أما جنوب شبه الجزيرة الهندية، الذي يميزه استخدام اللغات الدرافيدية بكثافة، على عكس اللغات السنسكريتية المنطوقة في الشمال، فقد كانت بالفعل إقليماً في حد ذاتها، إذ كان يفصلها عن الشمال هضبة الدكن، كما كانت واقعة تحت النفوذ البحري لكل من الشرق الأوسط والهند الصينية. طوال أكثر من ستة قرون بعد انهيار مملكة غوبتا، الذي تسارع بفعل تدفق قبائل الهون Huns من آسيا الوسطى، ظهر تجمّع من الدول الصغيرة، والذي يدل - مرة أخرى - على أن الهند لم تكن تشبه الصين تماماً، مع ميل أكبر لدى الأخيرة إلى المركزية والوحدة السياسية. وفي الواقع أن الممالك التي ظهرت بعد زوال إمبراطورية غوبتا، على حد تعبير شتاين، كانت «تحدد بفعل طرق الإدارة بصورة أقل من تأثرها باللغة، والانتماءات الطائفية، والمعابد»⁽¹²⁾. وما بين القرنين السابع وحتى السادس عشر، كما كتب فيرغريف، دخلت الشعوب المسلمة إلى الهند تباعاً. «جاء العرب أولاً، كما كان منطقياً، عن طريق البر بطول الساحل، وعن طريق الملاحة الساحلية بطول الشواطئ، لكنهم لم يتركوا أي أثر دائم؛ وتلاههم الأتراك»، واستطرد قائلاً: «من قبل العام 1000 للميلاد بقليل فصاعداً، ومن فوق هضبة إيران ووصولاً إلى أفغانستان. وفي ما يزيد قليلاً على قرن من الزمان، وبدرجة كبيرة بسبب الخلافات بين الحكام الهندوس، اعتنق السهل الشمالي بأسره بالحكم الإسلامي»⁽¹³⁾. وفي الجنوب، كانت بلوشستان والسند جزءاً من نفس «الحزام الصحراوي» الذي امتد حتى بلاد ما بين النهرين⁽¹⁴⁾. وفي الواقع أن شبه القارة الهندية قد زُرعت في الشرق الأوسط الكبير. ومن بين أبرز ملامح ذلك أن العرب العراقيين احتلوا في أوائل القرن الثامن أجزاء

من ولايات السند، والبنجاب وراجستان، وغوجارات. كما أن المحارب المملوكي ذا الأصول التركية محمود الغزنوي Mahmud of Ghazni، والذي كانت عاصمته في شرق أفغانستان، ضم إلى إمبراطوريته التي قامت في أوائل القرن الحادي عشر ما تمثله في الوقت الحاضر كردستان العراق، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، وشمال غرب الهند حتى دلهي، كما أغار على ولاية غوجارات الجنوبية المطلة على بحر العرب. واعتباراً من القرن الثالث عشر وحتى أوائل القرن السادس عشر، سيطرت ما تسمى سلطنة دلهي Delhi Sultanate على شمال الهند وأجزاء من الجنوب من قبل أسرة تغلوق Tughluq التركية، ولودي Lodi الأفغانية، وغيرهما من السلالات الآتية من آسيا الوسطى.

وكان اختيار هؤلاء الغزاة لدلهي عاصمة للهند وظيفه جغرافية إلى حد كبير. وكما كتب فيرغريف، «إن السند ووادي نهر السند، بما في ذلك البنجاب... يمثلان ما يشبه غرفة انتظار للهند، والتي يفضي إليها ممر ضيق نسبياً لا يزيد عرضه على 150 ميلاً، بين الصحراء الهندية وجبال الهملايا. وعند مخرج هذا الممر تقع دلهي»⁽¹⁵⁾. وإلى الخلف من دلهي يوجد العالم الإسلامي؛ وأمامها العالم الهندوسي. (بحلول ذلك الوقت، كانت البوذية قد اختفت تقريباً من الهند، أرض مولدها، لتنتقل إلى الشرق والشمال الشرقي). فرضت الجغرافيا ألا يمثل شمال غرب شبه القارة الهندية حدوداً ثابتة بقدر كونه سلسلة لا تنتهي من التدرجات التي تبدأ من إيران وأفغانستان، وتنتهي في دلهي: وهذا، مرة أخرى، يثبت صحة فكرة ماكنيل في تاريخه الكبير للحضارة الإنسانية.

كانت الإمبراطورية المغولية Mughal Empire تعبيراً ثقافياً وسياسياً عن هذه الحقيقة. يفخر عدد قليل من الإمبراطوريات الانتقالية eclecticism الفنية والدينية التي امتلكها المغول، الذين حكموا الهند وأجزاء من آسيا الوسطى بقوة من أوائل القرن السادس عشر إلى العام 1720 (وبعدها تراجعت الإمبراطورية بسرعة). والمغول Mughal هو التعبير العربي والفارسي من المنغول Mongol، والذي أطلق على جميع المسلمين الأجانب من الشمال والشمال الغربي للهند. تأسست الإمبراطورية المغولية التي أسسها ظاهر الدين محمد بابر Babur، وهو تركي من قومية الشغطاي Chaghtai، والذي ولد في العام 1483 في وادي فرغانة

في أوزبكستان الحالية، الذي أمضى فترة شبابه الباكر في محاولة فتح سمرقند، وهي العاصمة القديمة لتيمورلنك Tamarlane (تيمور). وبعد أن لقي هزيمة حاسمة على يد محمد الشيباني خان، وهو سليل جنكيز خان، توجه بابر وأتباعه إلى الجنوب واستولوا على كابول. وانطلاقاً من كابول، نزل بابر مع جيشه من هضبة أفغانستان العالية لاجتياح ولاية البنجاب. وهكذا، تمكن من بدء غزوه لشبه القارة الهندية. كانت الإمبراطورية المغولية أو التيمورية، التي تشكلت تحت قيادة أكبر الكبير Akbar the Great، حفيد بابر، تضم طبقة من النبلاء تتألف من الراجبوت Rajputs، والأفغان، والعرب، والفرس والأوزبك، والشغطي الأتراك، وكذلك من الهنود السنة، والشيعية، والهندوس، ناهيك عن عديد من المجموعات المتداخلة الأخرى؛ كانت الإمبراطورية عالماً عرقياً ودينياً بدأ في جنوب روسيا من جهة الشمال الغربي ومن البحر الأبيض المتوسط إلى الغرب⁽¹⁶⁾. كانت الهند تشبه كثيراً مستودعاً للاتجاهات الثقافية والسياسية الجارية في منطقة الشرق الأوسط المجاورة.

مثّلت كابول وقندهار امتداداً طبيعياً لهذه الأسرة الجليلة المنتمية إلى دلهي، ومع ذلك فإن المنطقة ذات الأغلبية الهندوسية في جنوب الهند حول بنغالور الحالية - وهي العاصمة الهندية لشركات التقنية العالية - كان أقل من ذلك بكثير في هذا الصدد. أما أورنجزيب Aurangzeb، أو «آسر العام»، وهو الحاكم الذي وصلت إمبراطورية المغول في عهده - في أواخر القرن السابع عشر - إلى ذروة توسعها، فقد كان رجلاً مسنناً في العقد التاسع من عمره، ومع ذلك فقد واصل قتال متمردي المهراتا Maratha في جنوب وغرب الهند. وقد توفي في العام 1707 في معسكره في هضبة الدكن Deccan، من دون أن يتمكن من إخضاعهم. إن هضبة الدكن، على حد تعبير بانيكار «قد مثّلت دائماً السور الأوسط الكبير للهند»، والتي لم تتمكن من إخضاعها شعوب وادي نهر الغانج. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تدفق الأنهار من الغرب إلى الشرق في شبه القارة المتوجهة من الشمال إلى الجنوب أدى، كما أوضحت تجربة أورنجزيب، إلى صعوبة تمكّن الشمال من حكم الجنوب حتى مرحلة تاريخية متأخرة نسبياً. وعلى سبيل التبسيط: هناك عدد قليل نسبياً من الوشائج الجغرافية التي تربط بين شمال وجنوب الهند⁽¹⁷⁾. وفي الواقع أن هذا التمرد الذي استمر لفترة طويلة واستعصى على الحل في جنوب الهند هو ما قوّض التماسك والروح المعنوية

للنخبة المغولية الشمالية. أدى انشغال أورنجزيب في قتال محاربي المهراتا العظماء- مع تجاهل مشاكل الإمبراطورية الأخرى- إلى تسهيل مهمة شركات الهند الشرقية الهولندية، والفرنسية، والبريطانية لكسب موطن قدم على الساحل، مما أدى في النهاية إلى الحكم البريطاني للهند⁽¹⁸⁾.

وللتأكيد على أهمية هذه النقطة: تمثل وضع أورنجزيب في مركز الحكام في دلهي منذ مئات السنين، وكذلك حتى الحكام الأقدم لشبه القارة منذ العصور القديمة. ويعني هذا أن المنطقة الشاسعة التي تشمل اليوم شمال الهند وكذلك باكستان وجزء كبير من أفغانستان كانت خاضعة عادة لنظام واحد للحكم، على الرغم من كون السيادة على جنوب الهند مشكوكا فيها in doubt. وهكذا، فبالنسبة إلى النخب الهندية، كان التفكير ليس في باكستان وحدها، بل وفي أفغانستان أيضا، كجزء من أراضي الهند ليس طبيعيا فحسب، بل له ما يبرره تاريخيا. يقع قبر بابر في كابول، وليس في دلهي. ولا يعني هذا أن الهند لديها أطماع توسعية في أفغانستان، بل يعني أن نيودلهي تهتم بعمق بهوية من يحكم أفغانستان، وترغب في ضمان كون من يمتلكون زمام الأمور هناك يحتفظون بمشاعر ودية تجاه الهند.

كان البريطانيون، على عكس الحكام السابقين للهند، يمثلون قوة بحرية أكثر بكثير من كونهم قوة برية. فقد كانت جهة البحر، كما تجلى ذلك في رئاسات بومباي، ومدراس، وكالكوتا التي صارت نقاطا محورية لحكمهم، هي الجهة التي تمكن البريطانيين عبرها من غزو الهند. ونتيجة لذلك، فقد كان البريطانيون هم الذين، بعد أكثر من ألفي سنة من الغزوات والهجرات من الغرب والشمال الغربي، من استعاد للهند الحقيقة الأساسية لجغرافيتها بوصفها واقعا سياسيا: أنها تمثل شبه قارة في الواقع. توضح خريطة الهند في العام 1901 هذه النقطة بصورة رائعة؛ فهي تُظهر مجموعة كبيرة من خطوط السكك الحديد التي بناها البريطانيون التي تمتد بطريقة شريانية عبر كامل أجزاء شبه القارة - من الحدود الأفغانية إلى مضيق بالك قرب سيلان في عمق الجنوب، ومن كراتشي في باكستان الحالية في الغرب إلى شيتاجونج في بنغلاديش الحالية في الشرق. سمحت التكنولوجيا للفضاء الداخلي الشاسع لشبه القارة بأن يتوحد أخيرا تحت نظام حكم واحد، بدلا من تقسيمه بين عدة أنظمة، أو أن تحكمه منظومة ضعيفة من الإمبراطوريات المتحالفة.

صحيح أن المغول (جنباً إلى جنب مع، وإلى حد أقل، مع كونفدرالية المهراتا في بواكير العصر الحديث) كانوا طلائع هذا الإنجاز، بالنظر إلى قدرتهم على إدارة معظم أجزاء شبه القارة الهندية باقتدار. لكن حكم المغول، على الرغم من تألقه، كان يعني غزواً إسلامياً آخر من الشمال الغربي، وهو أمر ظل حتى يومنا هذا موضع ازدراء من قبل القوميين الهندوس. ومع ذلك فقد مارست بريطانيا العظمى، باعتبارها قوة بحرية، دوراً محايداً في الدراما التاريخية التي دارت بين الهندوس والمسلمين: وهي دراما يكمن أساسها في الجغرافيا؛ حيث يعيش الجزء الأكبر من مسلمي الهند في كل من الشمال الغربي، وهي الجهة التي أتت منها الأغلبية الساحقة من الغزوات، وفي شرق البنغال - وهي الحد الشرقي الغني زراعياً لسهل الغانج، حيث انتشر الإسلام مع الغزو المغولي - التركي في القرن الثالث عشر الذي ترافق مع إزالة الغابات⁽¹⁹⁾.

ربما وُحد البريطانيون شبه القارة الهندية بواسطة البيروقراطية الحديثة ونظام السكك الحديدية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولكن بفعل الطريقة السريعة والصاخبة لمغادرتهم في العام 1947، فقد ساعدوا على إعادة تقسيمها بطريقة كانت أشد عمقا وأكثر رسمية من أي انشقاق بين الإمبراطوريات السابقة. وفي الماضي، فإن الأماكن التي التقى فيها الهنود - الإغريق Indo-Greeks مع إمبراطورية غوبتا، على سبيل المثال، أو حيث التقت إمبراطورية المغول مع كونفدرالية المهراتا، لم تكن تعني - كما تفعل الحدود اليوم - وجود أسلاك شائكة وحقول ألغام وجوازات سفر مختلفة، ووسائل إعلام دنيئة، والتي تنتمي جميعها إلى مرحلة لاحقة من التكنولوجيا. يمثل الشقاق القائم الآن إجراء قانونياً قاسياً وحضارياً في جزء منه، وأصبح بالتالي ناتجاً عن العوامل الجغرافية بدرجة أقل من كونه نتيجة لقرارات البشر.

وباختصار، فمن المنظور التاريخي للهند، تشكل باكستان أكثر بكثير حتى من عدو مسلح نووياً، أو من دولة راعية للإرهاب، أو جيش تقليدي ضخم يجثم على الحدود. إن باكستان، الواقعة على الشمال الغربي للهند، حيث تلتقي الجبال مع السهول، هي التجسيد الجغرافي والوطني لكل الغزوات الإسلامية التي اجتاحت الهند طوال تاريخها. تلوح باكستان في الجزء الشمالي الغربي من الهند، كما فعلت

جحافل قوات الفتح الإسلامي في الماضي. إن «باكستان»، كما كتب جورج فريدمان Friedman، وهو مؤسس ستراتفور- وهي شركة استخباراتية عالمية، «هي بقايا العصر الحديث للحكم الإسلامي للهند خلال القرون الوسطى»، على الرغم من أن جنوب غرب باكستان هي أول منطقة من شبه القارة يحتلها الغزاة العرب المسلمون القادمون من إيران وجنوب أفغانستان⁽²⁰⁾.

من المؤكد أن صناع القرار الهنود ليسوا مناهضين للمسلمين، فالهند موطن نحو 154 مليون مسلم، وهي ثالث أكبر جالية مسلمة في العالم بعد إندونيسيا وباكستان نفسها، كما كان للهند ثلاثة رؤساء مسلمين. لكن الهند هي دولة ديمقراطية علمانية بحكم حقيقة سعيها إلى الهروب من المناورات السياسية للدين من أجل رأب الفجوة بين الهندوس والمسلمين في دولة تقطنها أغلبية من الهندوس. أما باكستان، باعتبارها جمهورية إسلامية، ناهيك عن عناصرها الراديكالية، فتمثل بعدة طرق تحدياً للأسس الليبرالية التي تقوم عليها الهند.

إن حقيقة كون خوف الهند من باكستان- والعكس بالعكس- هو أمر وجودي لا ينبغي أن تفاجئ أحداً. وبطبيعة الحال، فمن الممكن أن تهزم الهند باكستان في حرب تقليدية، ولكن في معركة نووية، أو في حرب إرهابية، ففي وسع باكستان أن تحقق تعادلاً من نوع ما مع الهند. لكن الأمر أبعد من ذلك؛ فليست باكستان وحدها هي ما تمثل، بطريقة ما، تهديداً بهجوم مغولي آخر من دون استعادة المغول الكوزموبوليتية؛ بل هناك أفغانستان أيضاً. وكما نعلم، فإن الحدود التي تفصل باكستان عن أفغانستان هي وهمية إلى حد كبير، سواء في الحاضر أو على مر التاريخ. إن الجروف والأخوار الموجودة في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية من باكستان (واسمها الرسمي خيبر بختون خوا Khyber Pakhtunkhwa)، على الحدود مع أفغانستان، يسهل اختراقها تماماً. وفي جميع المرات التي عبرت فيها الحدود بين باكستان وأفغانستان، لم أفعل ذلك بصورة قانونية. وحتى عن نقطة حدود خيبر الرسمية، يمر عشرات الآلاف من عرقية البشتون بصفة أسبوعية من دون أن يظهروا أي أوراق ثبوتية، بينما تمر يومياً مئات من شاحنات الجنكل (jingle trucks) من دون أن تخضع للتفتيش. إن عدم وجود إجراءات رسمية يشهد ليس فقط على وجود نفس القبائل على جانبي الحدود، بل وعلى الطبيعة الواهية للدولتين

الأفغانية والباكستانية نفسيهما، والذي يرجع السبب الرئيسي له إلى افتقارهما إلى التماسك الجغرافي كقلب للمتصلات الهندو- إسلامية والهندو- فارسية التي يستحيل تقريبا رسم خطوط فاصلة بينها. إن الإمبراطوريات الأخمينية، والكوشانية، والهندو - إغريقية، والغزنوية، والمغولية، وغيرها، قد اعتبرت كلا من أفغانستان وباكستان جزءا من الأراضي التابعة لها، والتي إما هددت الهند أو ضمت أجزاء منها أيضا. ثم هناك تيمور آسيا الوسطى (تيمورلنك) والتركمان نادر شاه الكبير، اللذين تمكنا في عامي 1398 و1739، على الترتيب، من هزيمة دلهي انطلاقا من قواعد إمبراطورية كل منهما الواقعة في إيران، وأفغانستان، وباكستان الحالية.

يمثل هذا تاريخا ثريا لا تعلم به سوى قلة في الغرب، في حين يحفظه أفراد من النخبة الهندية عن ظهر قلب. عندما ينظر الهنود إلى خرائطهم لشبه القارة، فهم ينظرون إلى أفغانستان وباكستان الواقعتين في شمال غرب البلاد، تماما كما ينظرون إلى نيبال وبوتان وبنغلادش في شمال شرق البلاد، باعتبار أنها تمثل جميعها جزءا من النطاق المباشر للنفوذ الهندي، مع النظر إلى إيران، والخليج العربي، والجمهوريات السوفييتية السابقة في آسيا الوسطى، وبورما باعتبارها مناطق ظليلة بالغة الأهمية. أما عدم النظر إلى تلك المناطق على هذا النحو، فهو، من وجهة نظر نيودلهي، يمثل تجاهلا لدروس التاريخ والجغرافيا.

وكما يُظهر هذا السجل لتداول الإمبراطوريات جيئة وذهابا على مدار آلاف السنين، فإن أفغانستان والحرب فيها ليست مجرد مشكلة أمنية أخرى ينبغي التعامل معها بالنسبة إلى الهند. إن كون أفغانستان جزءا من آسيا الوسطى لا يوجد إلا في المنظور الغربي؛ أما بالنسبة إلى الهنود فهي جزء من شبه القارة التي ينتمون إليها⁽²¹⁾. إن جغرافية أفغانستان تضيف عليها أهمية محورية ليس فقط باعتبارها الطريق الرئيسي لغزو الهند، سواء بالنسبة إلى الإرهابيين في أيامنا هذه أو للجيش في الأيام الخوالي، ولكن كقاعدة خلفية بالغة الأهمية الاستراتيجية لباكستان، وهي العدو الرئيسي في الهند.

وفي حين أن منطق الهند الجغرافي ليس مثاليا، فإن باكستان، التي تقع في زاوية قائمة على طريق الغزوات الماضية، في رأي الكثيرين، لا تمتلك أي منطق جغرافي على الإطلاق، في حين لا تمتلك منه أفغانستان سوى النذر اليسير. ويمكن النظر

إلى باكستان بوصفها قطعة اصطناعية من أحجية تمثل إقليمًا، يقع على جانبي الحدود بين الهضبة الإيرانية - الأفغانية والأراضي المنخفضة من شبه القارة، ويشمل النصف الغربي من ولاية البنجاب، ولكن ليس النصف الشرقي، والذي يوحد على نحو مجنون بين جبال كاراكورام في الشمال (وهي واحدة من أعلى سلاسل الجبال في العالم) وصحراء مكران التي تبعد عنها ما يقرب من ألف كيلومتر إلى الجنوب وتطل على البحر العربي⁽²²⁾. في حين ينبغي أن يمثل نهر السند حدودًا من نوع ما، فإن الدولة الباكستانية تقع على كلا ضفتيه. تضم باكستان أربع مجموعات عرقية رئيسية، تُضمّر كل منها العداء للآخرى وتتمركز كل منها في منطقة محددة: البنجاب في الشمال الشرقي، والسند في جنوب شرق البلاد، وبلوشستان في الجنوب الغربي، والحدود الشمالية الغربية التي يهيمن عليها البشتون. كان من المفترض أن يوفر الإسلام غراء لتوحيد الدولة، لكنه فشل بشكل بارز في هذا الصدد: فعلى الرغم من أن الجماعات الإسلامية في باكستان قد صارت أكثر راديكالية، يستمر البلوش والسنديون في النظر إلى باكستان بوصفها كيانا أجنبيًا تسوده قومية البنجاب، مع انجرار البشتون في شمال غرب البلاد إلى السياسات المتأثرة بحركة طالبان في منطقة الحدود الأفغانية - الباكستانية. ومن دون الجيش الذي يسيطر عليه البنجاب، قد تزول باكستان من الوجود - حيث ستُختزل إلى بقية من البنجاب الإسلامية الكبرى، مع بلوشستان شبه الفوضوية وانجذاب السند أقرب إلى المدار الهندي.

تأسست باكستان في العام 1947 على يد محمد علي جناح، وهو مفكر عاش ما بين لندن وبومباي، وابن تاجر من ولاية غوجارات، حيث بنى باكستان على فرضية أيديولوجية هي وجود وطن للمسلمين في شبه القارة الهندية. صحيح أن أغلبية المسلمين في شبه القارة كانوا يعيشون في باكستان الغربية والشرقية (التي أصبحت بنغلاديش في العام 1971)، ومع ذلك فقد ظل عشرات الملايين من المسلمين في الهند نفسها، بحيث أدت التناقضات الجغرافية الباكستانية إلى جعل أيديولوجيتها معيبة بدرجة خطيرة. وبالفعل، فقد أصبح الملايين من المسلمين والهندوس لاجئين عند إنشاء دولة باكستان. وتتمثل الحقيقة في أن تاريخ شبه القارة المملوء بالغزوات والهجرات يمثل مزيجًا عرقيًا ودينيًا وطائفيًا مثيرًا. وعلى سبيل المثال، فالهند هي مهد عديد من الديانات؛ مثل الهندوسية، والبوذية، واليانية، والسيخية. وقد عاش

الزرادشتيون واليهود والمسيحيون في الهند لمئات وآلاف السنين. تتقبل فلسفة الدولة الهندية هذا الواقع وتحتفي به؛ في حين أن فلسفة الدولة الباكستانية هي أقل اشتمالا بكثير، وهذا هو أحد أسباب كون الهند مستقرة وباكستان ليست كذلك. لكن الجغرافيا تخضع في هذه الحالة لتفسيرات مختلفة.

ومن منظور آخر، تمتلك باكستان منطقاً جغرافياً مؤثراً بوصفه وسيطاً حضارياً وممرًا لطرق التجارة التي تربط شبه القارة بآسيا الوسطى، وقلبا للعالم الهندو-إسلامي؛ ولأنه يصعب تحديد مفهوم أندريه وينك عن «الهند» الهندو-إسلامية من منظور الحدود المعاصرة، فقد يتساءل المرء عن سبب كون باكستان أكثر اصطناعية من الهند؟ وفي نهاية المطاف، كانت لاهور في باكستان رافدا رئيسيا لنجاح حكم المغول بقدر ما كانت دلهي في الهند. إن القلب الجغرافي الحقيقي للسهل الشمالي لشبه القارة الهندية هو إقليم البنجاب، والذي ينقسم بين البلدين، مما لا يجعل أيهما كاملاً من وجهة النظر التاريخية أو الجغرافية. ومثلما نما شمال الهند من الصميم الديموغرافي لنهر الغانج، فإن باكستان، كما يمكن القول، تنمو من ذلك الصميم الديموغرافي الحيوي الآخر، وهو نهر السند وروافده. وبهذا المنظور، فإن نهر السند ليس بالمفروق، بل هو موحد⁽²³⁾. جرى التعبير عن هذه النقطة بأفضل صورة في كتاب اعتزاز إحسان المعنون «القصة الملحمية لنهر السند وإنشاء باكستان». وباعتباره عضواً في حزب الشعب الباكستاني الذي يتخذ من إقليم السند قاعدة له، والذي أسسته الراحلة بي نظير بوتو، يؤكد إحسان أن «الخط الفاصل الحرج» على مر التاريخ في شبه القارة هو «نتوء غورداسبور - كاثياو (Gurdaspur-Kathiawar)»: الذي يمر إلى الجنوب الغربي من غورداسبور في شرق البنجاب إلى كاثياوار في ولاية غوجارات على بحر العرب، وهو الخط التقريبي للحدود الحالية بين الهند وباكستان⁽²⁴⁾.

ولكن هنا تكمن الإشكالية؛ فخلال فترات قصيرة نسبياً من التاريخ، عندما كانت تلك المناطق من الهند وباكستان موحدة - خلال حكم الماوريين، والمغول، والبريطانيين - لم تكن هناك مشكلة بشأن من يسيطر على طرق التجارة في آسيا الوسطى (أفغانستان وما وراءها). أما خلال الفترة المتبقية من التاريخ، فلم تكن هناك مشكلة أيضاً، لأنه في حين أن إمبراطوريات مثل الكوشانا، ومملكة الغزنويين،

وسلطنة دلهي لم تكن تتحكم في الجانب الشرقي لنهر الغانج، فقد كانت تسيطر بالفعل على نهر السند وعلى الجانب الغربي من نهر الغانج، بحيث كانت دلهي ولاهور خاضعتين لنفس نظام الحكم، حتى عندما كانت آسيا الوسطى واقعة أيضا تحت سيطرتهم- ولذلك، مرة أخرى، لم يكن هناك أي صراع. تتسم الجغرافيا السياسية اليوم بأنها فريدة من نوعها تاريخيا، على أي حال: دولة قائمة في وادي نهر السند ودولة قوية على نهر الغانج، واللذان تتقاتلان من أجل السيطرة على الخارج القريب المستقل لآسيا الوسطى.

ولأن نهر السند وروافده، مع إقليم البنجاب في القلب، هو الجوهر الديموغرافي للمنطقة الممتدة من السند إلى جيحون، والتي تشمل باكستان وأفغانستان الحاليتين، فمن غير المناسب من الناحية التاريخية أو الجغرافية، على سبيل المثال، أن تكون مديرية الخدمات الاستخباراتية الباكستانية (ISI)، التي تهيمن عليها قومية البنجاب، ضالعة بقوة في العمليات الإرهابية والتفريعية لشبكة حقاني Haqqani، التي تعمل بدورها في جميع أرجاء منطقة السند إلى جيحون. يتمثل الاهتمام الأكبر للاستخبارات الباكستانية في السيطرة على جنوب وشرق أفغانستان؛ وهذا من شأنه أن يدع المنطقة الواقعة شمال هندو كوش تؤثر في عملية اندماج من نوع ما مع منطقة جيحون وعبر جيحون trans-Oxus في جنوب أوزبكستان وجنوب طاجيكستان - في إحياء منطقة باكتريا القديمة. وبالفعل، فمن الممكن لخريطة أوائل القرن الحادي والعشرين أن تبدو وكأنها خريطة قديمة.

أما بالنسبة إلى أفغانستان نفسها - والتي تمتلك أهمية محورية، كما رأينا، بالنسبة إلى حظوظ الهند الجيوسياسية على مر التاريخ - دعونا نتدبر حالتها بمزيد من التفصيل؛ فهي دولة لا يزيد فيها متوسط العمر المتوقع على 44 سنة، مع معدل للإلمام بالقراءة والكتابة يبلغ 28 في المائة (وأقل من ذلك بكثير بالنسبة إلى النساء)، وحيث لا يلتحق سوى 9 في المائة من الإناث بالمدارس الثانوية، كما لا يتمتع سوى خمس السكان بوصول المياه الصالحة للشرب. ومن أصل 182 بلدا، تحتل أفغانستان المرتبة قبل الأخيرة على مؤشر التنمية البشرية للأمم المتحدة. أما العراق، فقد احتلت المرتبة 130 عشية الغزو الأمريكي للعراق في العام 2003، لكن الإلمام بالقراءة والكتابة فيها يبلغ معدلا معقولا قدره 74 في المائة. وفي حين أن

نسبة سكان المناطق الحضرية في العراق تقف عند 77 في المائة، بحيث إن الحد من العنف في بغداد الكبرى خلال فترة زيادة عدد القوات الأمريكية في العام 2007 كان له تأثير مهدئ في البلد بأكمله، فإن نسبة سكان المناطق الحضرية في أفغانستان تقف عند 30 في المائة فقط: بمعنى أن جهود مكافحة التمرد في قرية أو منطقة بعينها قد لا يكون لها أي تأثير في الأخرى.

وفي حين أن بلاد ما بين النهرين، التي تتسم بوجود مجموعات حضرية كبيرة على طبيعة مسطحة، توفر ظروفًا مواتية لقوات الاحتلال العسكرية؛ فإن أفغانستان، من الناحية الجغرافية، لا تكاد تُعد بلدًا على الإطلاق، إذ تمزقها السلاسل الجبلية الشبيهة بالكاتدرائيات داخل أراضيها، والتي تساعد على تقرير الانقسامات بين البشتون والطاجيك وغيرهم من الأقليات، على الرغم من وجود عدد قليل نسبيًا من العوائق الطبيعية التي تفصل أفغانستان عن باكستان، أو أفغانستان عن إيران. وعند النظر إلى خريطة التضاريس، وملاحظة أن أكثر من نصف البشتون في العالم، والبالغ عددهم 42 مليونًا، يعيشون داخل باكستان، يمكن للمرء أن يتصور بلدًا اسمه بشتونستان Pushtunistan، والذي يقع بين جبال هندو كوش ونهر السند، وبالتالي يترآب على الدولتين الأفغانية والباكستانية.

لم تظهر أفغانستان فقط كبلد من نوع ما إلا في منتصف القرن الثامن عشر، عندما قام أحمد خان، قائد فرقة العبدلي Abdali contingent في الجيش الفارسي للملك نادر شاه الكبير، باقتطاع منطقة عازلة بين بلاد فارس وبين الإمبراطورية المغولية المتداعية في شبه القارة الهندية، والتي تطورت لاحقًا إلى منطقة عازلة بين روسيا القيصرية والهند البريطانية. وهكذا، يمكن إقامة الحجّة على أنه مع التفكك البطيء للإمبراطورية السوفييتية السابقة في آسيا الوسطى، والضعف التدريجي للدولة الباكستانية، فإن إعادة تنظيم تاريخية تجري حاليًا، والتي قد يتمخض عنها اختفاء أفغانستان من الخريطة السياسية: وفي المستقبل، على سبيل المثال، فإن هندو كوش (وهي الحدود الشمالية الغربية الحقيقية لشبه القارة) يمكن أن تشكل الحدود بين بشتونستان وطاجيكستان الكبرى. أما طالبان، وهي ثمرة القومية البشتونية، والحماسة الإسلامية، وأموال المخدرات، وأمراء الحرب الفاسدين، والكرهية للاحتلال الأمريكي، فمن الممكن، على حد تعبير الباحث المتخصص في

الشؤون الآسيوية سيليج هاريسون Harrison، أن تكون مجرد وسيلة لهذا التحول الذي هو من الاتساع والضخامة بحيث لا يمكن بأي شكل من الأشكال منع وقوعه من خلال حملة عسكرية أجنبية يشنها مديون نافذو الصبر في واشنطن.

لكن هناك حقيقة أخرى تضاد هذه الأولى: وهي حقيقة تتجنب مثل هذه الحتمية. إن حقيقة كون أفغانستان أكبر حجما من العراق وأن سكانها أكثر تشتتا لا معنى لها أساسا، إذ إن 65 في المائة من سكان البلاد يعيشون ضمن حدود خمسة وثلاثين ميلا من شبكة الطرق الرئيسية، والتي تشبه طرق القوافل القديمة في العصور الوسطى، مما يجعل 80 فقط من أصل 342 منطقة حيوية للحكم المركزي. وقد حُكمت أفغانستان مركزيا بصورة أو بأخرى منذ زمن أحمد خان: أما كابول، وإن لم تكن دائما نقطة للسلطة، فقد كانت على الأقل نقطة للتحكيم. ولا سيما بين أوائل ثلاثينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين، شهدت أفغانستان حكومة معتدلة وبناءة في ظل النظام الملكي الدستوري لظاهر شاه، وهو سليل أحمد خان. كانت المدن الكبرى في البلاد مرتبطة ببعضها البعض من خلال منظومة من الطرق السريعة التي كانت آمنة للسفر، كما كانت البلاد على وشك القضاء على الملاريا من خلال البرامج الصحية والتنمية الجديرة بالاحترام. وقرب نهاية هذه الفترة، تجولت عبر البلاد وركبت الحافلات المحلية في أنحاء أفغانستان، فلم أشعر بالتهديد مطلقا، وكان في وسعي إرسال الكتب والملابس إلى الوطن من خلال مكاتب البريد العاملة. كانت هناك أيضا هوية وطنية أفغانية قوية متميزة عن تلك التابعة لإيران أو باكستان أو الاتحاد السوفييتي. ربما كانت البلاد عبارة عن شبكة هشة من القبائل، لكنها كانت تتطور أيضا لكي تصبح أكثر من مجرد دولة عازلة. قد تصبح بشتونستان حقيقة واقعة، ولكن كما هي الحال في الطريقة التي تعمل بها الجنسية المزدوجة، بصورة مؤكدة للغاية في أفغانستان. ويمكن إلقاء اللوم في الانقلابات الثلاثة التي شهدتها كابول في سبعينيات القرن العشرين، والتي دفعت البلاد إلى سلسلة لا تنتهي على ما يبدو من العنف، على قوة عظمى مجاورة، هي الاتحاد السوفييتي، وعلى الأفغان بنفس القدر. وكجزء من عملية لتأمين خضوع البلاد بحزم لنفوذهم وتأثيرهم، عمل السوفييت من دون قصد على زعزعة الاستقرار السياسي لأفغانستان، ما أدى إلى غزوهم لها في ديسمبر 1979. إن أفغانستان، باعتبارها حازا جغرافيا

بين الهضبة الإيرانية، وسهوب آسيا الوسطى، وشبه القارة الهندية، تتسم بأهميتها الاستراتيجية المذهلة، وبالتالي لم يطمع فيها الروس وحدهم، ولكن أيضا الإيرانيون والباكستانيون، حتى إن صناع القرار الهنود صاروا مهووسين بها.

إن أفغانستان التي تقع تحت سيطرة طالبان تهدد بإنشاء سلسلة من المجتمعات الإسلامية المتطرفة الممتدة من الحدود الهندية - الباكستانية إلى آسيا الوسطى. وسيمثل هذا، في الواقع، باكستان الكبرى، مما منح الاستخبارات الداخلية الباكستانية القدرة على إنشاء إمبراطورية سرية تتألف من أمثال جلال الدين حقاني، وقلب الدين حكمتيار، وعسكر طيبة: والتي تستطيع مواجهة الهند بالطريقة التي يقوم بها حزب الله وحماس بمواجهة إسرائيل. وعلى العكس من ذلك، فإن أفغانستان التي تعيش في سلام والتي تُحكم من كابول بصورة متحررة بشكل أو بآخر ستمنح نيودلهي القدرة على تخليص نفسها من عدوها التاريخي الجاثم على حدودها الشمالية الغربية، وكذلك على مواجهة باكستان على كل من حدودها الغربية والشرقية. ولهذا السبب، دعمت الهند في ثمانينيات القرن العشرين النظام العميل للسوفييت في كابول بقيادة محمد نجيب الله، والذي كان علمانيا وحتى ليبراليا بالمقارنة بذلك الذي حاول الإطاحة به بعض المجاهدين الإسلاميين الموالين لباكستان: وللسبب نفسه، تقوم الهند الآن بدعم حكومة كابول برئاسة حامد كرزاي.

إن أفغانستان المستقرة والمعتدلة على نحو معقول ستصبح حقا محورا ليس لجنوب آسيا الوسطى فحسب، بل ولأوراسيا بشكل عام. توجد الأرض المركزية التي تصورها ماكيندر من حيث «التقارب» في مصالح كل من روسيا، والصين، والهند، وإيران التي تؤيد وجود ممرات للنقل عبر آسيا الوسطى. تتمثل أقوى العوامل الموجهة إلى طرق التجارة الأوراسية في الاقتصادين الصيني والهندي. إن تقديرات التجارة البرية الهندية عبر آسيا الوسطى إلى أسواق الشرق الأوسط وتلك الأوروبية تتوقع نموا يزيد على 100 مليار دولار سنويا. لا يقتصر الأمر على أن أفغانستان لاتزال في حالة حرب ألا يوجد اتصال بينها وبين نيودلهي عن طريق الشاحنات والقطارات، والسفن العابرة لبحر قزوين إلى إسطنبول وتبليسي؛ أو إلى ألماتي وطشقند عن طريق الطرق البرية والسكك الحديدية. ومع ذلك، فقد أسهمت الهند بشكل كبير في بناء

شبكة الطرق في أفغانستان، جنباً إلى جنب مع إيران والمملكة العربية السعودية. يربط طريق زارانج - دولارام السريع الذي مولت بناءه الهند غرب أفغانستان بميناء شاه بهار الإيراني على بحر العرب⁽²⁵⁾. يمكن للهنود تذوق الفوائد التي يمكن أن يجلبها لهم الهدوء في أفغانستان، على الرغم من أنها اتسمت بالعنف لأكثر من ثلاثة عقود. ومن شأن الهدوء في أفغانستان أن يحفز شق الطرق وبناء السكك الحديدية، وإنشاء خطوط الأنابيب ليس فقط في جميع الاتجاهات عبر أفغانستان، ولكن في جميع أنحاء باكستان، أيضاً، وهنا يكمن الحل النهائي لعدم الاستقرار الذي تعانيه باكستان نفسها. ومع ذلك، فإن حلول السلام في المنطقة سيفيد الهند أكثر من أي طرف آخر، لأن اقتصادها يتفوق بكثير على مثيله في أي دولة أخرى باستثناء الصين. لكن هذا ليس هو الوضع السائد حالياً. ففي الوقت الحاضر، تتسم شبه القارة الهندية الكبرى بأنها من بين أقل مناطق العالم استقراراً من الناحية الجيو-سياسية. إن سجل الإمبراطوريات والغزوات يمثل تاريخاً ينبض بالحياة بالنظر إلى أهميته بالنسبة إلى الانعدام العميق للأمن وللمشكلات السياسية السائدة اليوم. ومن نواح كثيرة، تشبه الهند الكبرى خريطة للمرحلة المبكرة من أوروبا الحديثة، على الرغم من أنها أسوأ من هذه بسبب الأسلحة النووية. في المرحلة الأولى من ظهور أوروبا الحديثة، كانت هناك جماعات عرقية ووطنية متناحرة، والتي كانت في طور التحول إلى دول بيروقراطية، على الرغم من انشغالها في الترتيبات المعقدة لتوازن القوى، والتي - بسبب احتكاكاتها المتكررة وحساباتها الخاطئة لاحقاً - أفضت في بعض الأحيان إلى حرب مفتوحة. كانت القومية الحديثة في مرحلة فتية وقوية، كما هي الحال في جنوب آسيا اليوم. ولكن على عكس تعددية الأقطاب الذي ميّز المراحل المبكرة من أوروبا الحديثة، تُظهر جنوب آسيا صراعاً ثنائي القطبين بين الهند وباكستان، مع وجود أفغانستان كإحدى ساحات القتال بينهما، ودولة كشمير المتنازع عليها كساحة أخرى. وعلى أي حال، فعلى عكس الثنائية القطبية بين القوتين العظميين، لا يوجد شيء بارد، أو نزيه، أو شعائري بخصوص هذا الصراع. ليس هذا صداماً أيديولوجياً لا يُضمر طرفاه المتنازعان أي كراهية دينية أو تاريخية لبعضهما البعض، والليذان تفصل بينهما مساحة واسعة تبلغ نصف الكرة الأرضية وتشمل جليد القطب الشمالي. يمثل هذا معركة بين دولة ذات أغلبية هندوسية،

على الرغم من أنها علمانية، وبين دولة مسلمة، وكلاهما في مراحل العنفوان الكامل للقومية الحديثة، واللتين تفصل بينهما حدود مشتركة مزدحمة، والتي يوجد على مقربة منها عدد من العواصم والمدن الكبرى. ولا يفصل سوى أقل من مائتي ميل بين المنطقة المركزية لنهر السند في باكستان وبين المنطقة المركزية الشمالية لنهر الغانج في الهند⁽²⁶⁾. وبالإضافة إلى كل شيء آخر بخصوص هذه الجغرافيا، فهي جغرافية مغلقة وخائفة، من النوع الذي وصفه بول براكن Bracken جيدا في استبصاره للعصر النووي الجديد.

تبذل الهند محاولات مستميتة من أجل الهروب من هذه الجغرافيا ومن هذا التاريخ. إن المنافسة مع الصين والاهتمام المرضي بها يشكلان اثنين من عناصر هذا الهروب. بيد أن تنافس الهند مع الصين لا يشبه تنافسها مع باكستان على الإطلاق: فهو أكثر تجريدا، وأقل عاطفية، أقل تقلبا (وهو الأمر الأكثر أهمية بكثير). وهو التنافس لا يوجد ثمة تاريخ حقيقي وراءه.

مضى ما يقرب من نصف قرن منذ خاضت الهند حربا محدودة مع الصين على الحدود المتنازع عليها، والتي دار القتال فيها على ارتفاع أربعة عشر ألف قدم في منطقة أقصاي تشين بالقرب من كشمير في الشمال الغربي، وفي أروناشال براديش قرب بوتان في شمال شرق البلاد. تمثلت خلفية هذه الحرب التي اندلعت في العام 1962، وقُتل فيها أكثر من ألفي جندي وأصيب 2,744 آخرون، في انتفاضة نشبت في العام 1959 في التبت وأدت إلى إرسال الدالاي لاما إلى المنفى في الهند، في أعقاب الغزو الصيني للتبت في العام 1950. إن فكرة استقلال التبت أو حصولها على الحكم الذاتي، وكونها موالية للهند حتى بصورة مبهمة ستجعل الخبراء الاستراتيجيين الصينيين عصبيين للغاية. ونظرا إلى التوترات التي انطوت عليها أزمة التبت، نظرت الصين إلى إنشاء بؤر استيطانية هندية إلى الشمال من الخطوط الحدودية المتنازع عليها باعتباره مبررا لشن الحرب، وتمكنت خلال شهر واحد من القتال الذي دار في الخريف من دحر القوات الهندية. لم ينشر أي من الطرفين قواته البحرية أو الجوية، وبالتالي فقد اقتصر القتال على المناطق النائية التي يعيش فيها عدد قليل من الناس، مقارنة بالحدود الهندية - الباكستانية، التي بالإضافة إلى مرورها عبر المستنقعات والصحارى، فهي تقطع إقليم البنجاب الغني زراعيًا والذي يقطنه الملايين.

لاتزال الحدود الهندية - الصينية موضع خلاف في بعض المناطق. بنى الصينيون الطرق والمطارات في جميع أنحاء التبت، وتقع الهند الآن ضمن نطاق عمليات طياري المقاتلات الصينية، على الرغم من أن سلاح الطيران الهندي هو رابع أكبر سلاح جوي في العالم، مع أكثر من 1300 طائرة منتشرة في أكثر من ستين قاعدة جوية. توفر الأقمار الاصطناعية وطائرات الاستطلاع الهندية المعلومات الاستخبارية عن تحركات القوات الصينية في التبت، ثم إن القوات البحرية تتنامى في البلدين. وقد استعرضنا صعود البحرية الصينية في الفصل السابق. ولأن الهند لا تمتلك مقابلا للبحر الأبيض المتوسط، ولا بحارا مغلقة ومجموعات من الجزر تُغري البحارة بالرسو عليها، على الرغم من كون أراضيها دافئة ومنتجة، فقد كانت الهند حتى وقت قريب أمة برية بشكل أو بآخر، والتي تشكلت في مواجهة المحيط المفتوح. لكن ذلك كله تغير فجأة مع التطورات التي تحققت في التكنولوجيا العسكرية، والتي ضغطت جغرافية المحيطات، ومع تطور الاقتصاد الهندي، بحيث صار في إمكانه تمويل عمليات كبرى لبناء السفن واقتنائها. ثمة عامل آخر عمل على دفع الهند باتجاه البحر، ألا وهو التهديد الذي تمثله الصين نفسها، إذ إن الطموحات البحرية الصينية توجهها إلى ما وراء منطقة غرب المحيط الهادي، وصولا إلى المحيط الهندي.

قدمت الصين يد المساعدة في بناء أو تطوير الموانئ في البلدان المحيطة بالهند: في كيوكيو، بورما؛ وشيتاغونغ، بنغلاديش؛ وهامبانتوتا، سري لانكا؛ وغوادر، باكستان. وفي كل من هذه البلدان، قدمت الصين مساعدات عسكرية واقتصادية ضخمة، إضافة إلى الدعم السياسي. إن الصين، كما نعلم، تمتلك بالفعل أسطولا تجاريا ضخما، وتطلع إلى امتلاك قوات بحرية عاملة في المحيطات ذات المياح الزرقاء، والتي ستقوم بحماية مصالحها وحماية طرق تجارتها بين الشرق الأوسط الغني بالنفط والساحل الصيني المطل على المحيط الهادي. يحدث هذا في نفس الوقت الذي تمتلك فيه الهند طموحات على غرار مذهب مونرو لأن تحظى بوجود في جميع أنحاء المحيط الهندي من جنوب أفريقيا إلى أستراليا. إن نطاقات المصالح البحرية المتداخلة إلى حد كبير تعمل على تعقيد القضايا الحدودية في الشمال، عند جبال الهيمالايا، والتي لاتزال عالقة. لا تفعل الصين سوى مجرد السعي إلى حماية خطوطها للاتصالات البحرية من خلال إيجاد موانئ صديقة ومتطورة على طول الطريق، في حين تشعر

الهند بأنها محاصرة. أدى الاحتمال المستقبلي لإنشاء مركز باكستاني-صيني للعمليات البحرية بالقرب من مدخل الخليج العربي في غوادر إلى توسيع ميناء كاروار البحري الهندي على بحر العرب. أما الميناء وخطوط أنابيب الطاقة التي تقوم الصين ببنائها في منطقة كيوكيو Kyaukpyu في بورما، فقد دفع الهند إلى البدء في إنشاء ميناء ومجمع للطاقة في سيتوي Sittwe، التي تقع على بُعد خمسين ميلا إلى الشمال، مع تسارع وتيرة المنافسة بين الهند والصين على الطرق والموارد في غرب الهند الصينية. ومع ذلك، لو أردنا التكرار على سبيل التوكيد، فإن التنافس الهندي-الصيني يمثل صراعا جديدا من دون أن تكون وراءه قوة التاريخ. كانت التفاعلات التي جرت بين الهند والصين في الماضي مُثمرة في العادة؛ وأشهرها انتشار البوذية من الهند إلى الصين في منتصف وأواخر العصور القديمة، كما صارت البوذية دينا رسميا في عهد أسرة تانغ. وعلى الرغم من قضية التبت، حيث يصب الحكم الذاتي للتبت أو استقلالها في المصلحة الجيوسياسية للهند في حين يضر بوضوح بمصالح الصين، فإن الأسوار العالية المتمثلة في جبال الهيمالايا تفصل سكان البلدين بعضهما عن البعض على نحو فعال. ولم يحدث إلا في العقود الأخيرة، عندما حشدت الجيوش الوطنية في الشرق قوات بحرية، وجوية، وصاروخية متقدمة، أن ظهرت الجغرافيا الجديدة للصراع على النطاق الأوراسي إلى بؤرة الاهتمام بقوة. إن تبدد المسافات، وبصورة أكثر بكثير من الانقسامات الثقافية، هو ما يوهن العلاقات بين الهند والصين اليوم. وحدها النخب السياسية الهندية التي تشعر بالقلق إزاء الصين، في حين أن مشكلة باكستان تشغل البلد بأكمله، خصوصا شمال الهند. وبالإضافة إلى ذلك، تمتلك الهند والصين علاقات تجارية من بين الأكثر ديناميكية وتكاملا في العالم. وبطريقة ما، فإن التوتر بين الهند والصين يوضح مشكلات النجاح: التنمية الاقتصادية البالغة الأهمية، والتي يمكن لكل من نيودلهي وبكين استخدامها الآن لأغراض عسكرية، خصوصا فيما يتعلق بالمنصات الجوية والبحرية الباهظة التكلفة. من المؤكد أن التنافس الجديد بين الهند والصين يوضح بجلاء وجهة نظر براكن القائلة بأن تقنيات الحرب وبناء الثروات تسير جنبا إلى جنب، في حين أن الحجم المحدود للأرض يعمل على نحو متزايد كقوة مسببة لعدم الاستقرار، في حين تعمل الأجهزة والبرامجيات العسكرية على اختزال المسافات على الخريطة الجيوسياسية. وللتوضيح، فعلى مدى العقود

القليلة الأولى التي أعقبت الحرب الباردة، كانت الهند والصين تمتلكان قوات برية متدنية التقنية نسبياً، والتي كانت قانعة بمراقبة حدودها والقيام بدور حصون التضامن الوطني. وبالتالي، فلم يكن أيهما يهدد الآخر. ولكن مع دخول الطائرات، والصواريخ، والسفن الحربية إلى المخزونات العسكرية للبلدين، مع كون جيشيهما أكثر قدرة على الانتشار، صار البلدان فجأة ينظران إلى نفسيهما كطرفي نقيض من ساحة المعركة الجديدة. ولا ينطبق هذا الوضع على الهند والصين فحسب، بل وعلى الدول الواقعة عبر مساحة شاسعة من أوراسيا - إسرائيل، وسورية، وإيران، وباكستان، وكوريا الشمالية، وهلم جرا، والواقعة في أحضان الجغرافيا الجديدة والمهلكة لنطاقات الصواريخ المتداخلة.

لاحظ، إذن، شبه القارة الهندية؛ التي تحدها البحار والجبال، على الرغم من أنها لاتزال شديدة الاتساع في الداخل، كما أن افتقارها إلى الأسس الطبيعية للوحدة والتنظيم السياسي المبكرين لا يزال ظاهراً، على الرغم من أن نظام الحكم في الصين يبقى أفضل تنظيماً وأكثر كفاءة من نظيره الهندي، على الرغم من افتقار الصين إلى الديمقراطية. تضيف الصين سنوياً إلى طرقها السريعة عدداً من الأميال يزيد على إجمالي ما تمتلكه الهند منها؛ وتتسم الوزارات الهندية بالعجرفة والضعف مقارنة بتلك الصينية. من الممكن أن تصاب الصين بالدمار جراء الإضرابات والمظاهرات، لكن الهند تعصف بها حركات التمرد العنيفة؛ وخصوصاً تلك التي يقوم بها الناكساليون Naxalites ذوو التوجهات الماوية في الأجزاء الوسطى والشرقية من البلاد. وفي هذا الصدد، فإن وصف فيرغريف لحضارة «أقل تقدماً» بالمقارنة مع بعض الحضارات الخارجية لا يزال سارياً⁽²⁷⁾. من يجلس في دلهي، وظهره إلى آسيا الوسطى المسلمة، يجب أن يشعر بالقلق بشأن الاضطرابات الجارية على الهضاب الواقعة إلى الشمال الغربي. ستقوم الولايات المتحدة بسحب قواتها من أفغانستان، لكن الهند سينبغي عليها التعايش مع النتائج، وبالتالي ستظل مكتنفة في الأحداث هناك عن كثب؛ وهنا تواجه الهند معضلة، إذ إن مكانتها كقوة عظمى في القرن الجديد ستتعزز بفعل تنافسها السياسي والعسكري مع الصين، على الرغم من أنها لاتزال مُحاصرة بحدودها مع الدول الضعيفة وشبه الفاشلة داخل شبه القارة. لقد ناقشنا حالتنا أفغانستان وباكستان، لكن هناك نيبال وبنغلاديش، أيضاً، واللّتين سنناقشهما بعد لحظات.

بعد إلغاء نظامها الملكي ووصول المتمردين الماويين السابقين إلى السلطة، فإن الحكومة النيبالية تسيطر بالكاد على الريف حيث يعيش 85 في المائة من شعبها. ولأنها لم تستعمر أبداً، فلم ترث نيبال أي تقاليد بيروقراطية قوية من الإنجليز. وعلى الرغم من الهالة التي ورثوها من جبال الهيمالايا، فإن الشطر الأكبر من سكان نيبال يعيشون في المناطق المنخفضة الباردة والرطبة على طول الحدود مع الهند، والتي لا تكاد تخضع للمراقبة. لقد سافرت عبر أرجاء هذه المنطقة؛ فوجدت أنه لا يمكن تمييزها في نواح كثيرة عن سهل الغانج. وإذا كانت الحكومة النيبالية لا تستطيع زيادة قدرات الدولة، فمن الممكن أن تتلاشى الدولة نفسها تدريجياً. أما بنغلاديش، وهي في ذلك أكثر حتى من نيبال، فلا تمتلك أي دفاعات جغرافية لتصنيفها كدولة: إنها نفس المشاهد المائية المسطحة تماماً لحقول الأرز والأشجار الخفيفة على كلا جانبي الحدود مع الهند؛ أما النقاط الحدودية، كما اكتشفت، فهي متهدمة، وغير منظمة، وآيلة للسقوط. هذه البقعة التي شكّلت على نحو مصطنع من الأراضي- والتي تشمل على الترتيب مناطق البنغال، وشرق البنغال، وشرق باكستان، وبنغلاديش- يمكن أن تتغير مرة أخرى في خضم القوى العاصفة للمناورات السياسية الإقليمية، والتطرف الديني الإسلامي، وتغير المناخ. ومثلها في ذلك مثل باكستان، فقد تعاقب على تاريخ بنغلاديش عدد من الأنظمة العسكرية والمدنية، والتي كان عدد قليل منها يعمل جيداً بما فيه الكفاية. عبر ملايين اللاجئين البنغاليين بالفعل الحدود إلى الهند باعتبارهم مهاجرين غير شرعيين، ومع ذلك فإن الحكومة البنغلاديشية لاتزال تكافح، وتعمل على تحسين أداؤها حتى كتابة هذه السطور. ومع ذلك، فمن الممكن أن تنجح كمركز لطرق التجارة البرية وخطوط الأنابيب التي تربط بين الهند، والصين، وبورما الحرة والديموقراطية في المستقبل.

كانت شبه القارة الهندية منذ بواكير العصور القديمة مقسمة سياسياً، وهذا هو ما تعانيه حتى الآن. دعونا الآن نلقي نظرة على أقصى الشمال، حيث تلتقي جبال كاراكورام بجبال الهيمالايا. ويقع هنا إقليم كشمير، المنحشر بين باكستان، وأفغانستان، والهند، والصين. تقع المناطق الشمالية من سلسلة جبال كاراكورام، بما في ذلك بلدة جيلجيت Gilgit، تحت سيطرة باكستان وتطالب بها الهند، كما تطالب بشريحة من كشمير آزاد («الحرّة») الواقعة إلى الغرب. أما سلسلة

جبال لاداك Ladakh Range في قلب كشمير، بما في ذلك بلدتا سريناغار وجامو، فتخضع للإدارة الهندية في حين تطالب بها باكستان، كما تطالب بمنطقة نهر سياتشن الجليدي الواقعة إلى الشمال. وباتجاه أقصى الشمال والشمال الشرقي، يقع وادي شاكسام ومنطقة أقصاي تشين، اللذين تديرهما الصين وتطالب بهما الهند. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ولاية جامو وكشمير الهندية (سلسلة جبال لاداك) تضم أغلبية مسلمة تصل إلى 75 في المائة، الأمر الذي ساعد على إشعال حركات التمرد الجهادية لسنوات. وفي تصريحاته، دان الراحل أسامة بن لادن الهيمنة الهندوسية - الهندية على كشمير. ومع ذلك، فإن جزءا كبيرا من كشمير يتكون من أراض وعرة تقع على ارتفاعات شاهقة، مما يجعلها غير صالحة للسكنى. لكن حروبا قد دارت رحاها على هذه الأراضي وبسببها، ولايزال في الإمكان نشوب عديد منها. خاض الصينيون حربا ضد الهنود في العام 1962 لأنهم أرادوا بناء طريق من منطقة شينجيانغ إلى التبت عبر كشمير الشرقية؛ كما حاربت الهند الصين لاعتراض الحدود المشتركة بين الصين وباكستان.

إن كشمير، مثل فلسطين، وبسبب تأثير الفضاء الإلكتروني (الإنترنت) ووسائل الإعلام الجديدة، لايزال في وسعها بث روح الكراهية بين الملايين، مما يجعل وضع حل لمشكلاتها المتشابكة أبعد وأبعد عن المتناول. إن التقنيات نفسها التي تُلحق الهزيمة بالجغرافيا تمتلك القدرة أيضا على تعزيز أهمية الجغرافيا. تمثل شبه القارة الهندية واقعة جغرافية فجوة، لكن تعيين حدودها سيستمر إلى ما لا نهاية.

وفي حين أن ممالك السلالات الصينية القديمة تقع جميعها تقريبا ضمن الحدود الحالية للصين، فإن السلالات التي ورثتها الهند، وكما رأينا، ليست كذلك. وهكذا، تنظر الهند إلى أفغانستان ومناطقها الظلية الأخرى بقدر من الصفاء أقل مما تفعل الصين مع مناطقها الظلية. تتسم الهند بكونها قوة إقليمية حتى الدرجة التي تقع فيها في شراك هذه الجغرافيا؛ وهي قوة عظمى محتملة حتى الدرجة التي يمكنها بها أن تتحرك متجاوزة لها.

المحور الإيراني

كما يُخبرنا الأستاذ بجامعة شيكاغو، وليام ماكنيل، فإن الهند والصين واليونان تقع جميعها «على هامش العالم المتحضر قديماً»، إذ كانت تحميها الجبال والصحارى، والمسافة المحضة⁽¹⁾. وبطبيعة الحال كانت هذه حماية جزئية، لأن اليونان - كما نعلم - دُمرت على أيدي الفرس، وكذلك الصين على يد المغول وشعوب السهوب التركية، كما غزت الهند جحافل الفاتحين المسلمين. ومع ذلك، فقد قدمت الجغرافيا ما يكفي من الحواجز لكي تترسخ ثلاث حضارات عظيمة وفريدة من نوعها. في الفضاء الهائل بين هذه الحضارات، كما ذكرنا في فصل سابق، يقع ما أشار إليه زميل ماكنيل في جامعة شيكاغو مارشال هودجسون Hodgson باسم «الويكومين»، وهو مصطلح إغريقي عتيق يعني «الربع المأهول» من العالم: وهذا هو عالم هيرودوت، أي المنطقة الجافة المعتدلة من اليابسة

«إن وجود إيران ديمقراطية أو شبه ديمقراطية، وتحديدًا بسبب القوة الجغرافية للدولة الإيرانية، يحمل إمكان تحقيق مئات الملايين من إخوانهم المسلمين في كل من العالم العربي، وآسيا الوسطى»

المؤلف

الأفرو آسيوية الممتدة من شمال أفريقيا إلى التخوم الغربية من الصين، وهو حزام من الأراضي يطلق عليه هودجسون أيضا اسم «النيل إلى جيحون» Nile - to - Oxus^{(*) (2)}. تلتقط رؤية هودجسون براءة عددا من الحقائق الرئيسية والمتناقضة: أن الويكومين Oikoumen - أي الشرق الأوسط الكبير - هو منطقة يمكن تحديدها بسهولة، والتي تقع بين اليونان، والصين، والهند، والمنفصلة بكل وضوح عن كل الدول الثلاث، على الرغم من أنه كان لها تأثير محوري في كل من منها، بحيث كانت العلاقات بينها متناغمة للغاية؛ وأنه في حين يتحد الشرق الأوسط الكبير بفعل الإسلام وموروثات البداوة القائمة على الخيل والإبل - على عكس زراعة المحاصيل في الصين والهند - فهو يشهد كذلك انقسامات عميقة من الداخل بفعل الأنهار، والواحات، والمرتفعات، مع تداعيات كبيرة فيما يتعلق بالتنظيم السياسي حتى يومنا هذا. إن التفاوت بين الشرق الأوسط والصين الكبرى، مثلا، يزودنا بمثال معبر بصفة خاصة. وفي هذا السياق، كتب جون كينغ فيربانك Fairbank، وهو خبير الشؤون الصينية الراحل في جامعة هارفارد، ما يلي:

إن التجانس الثقافي للصين القديمة، كما يتضح من السجل الآثاري، يتناقض بشكل ملحوظ مع تعدد وتنوع الشعوب، والدول، والثقافات في الشرق الأوسط القديم. واعتبارا من نحو العام 3000 قبل الميلاد، بدأ المصريون والسومريون والساميون والأكديون والأموريون والآشوريون، والفينيقيون، والحيثيون، والميديون والفرس، وغيرهم، يزاحمون بعضهم بعضا ضمن قلب محير من... الحرب والسياسة. ويتسم السجل بكونه مشحونا بالتعددية مع الانتقام. ساعد الري على ازدهار الزراعة في العديد من المراكز - مثل وديان أنهار النيل، ودجلة والفرات، والسند... ومن ثم فقد انتشرت اللغات، وأنظمة الكتابة، والأديان⁽³⁾.

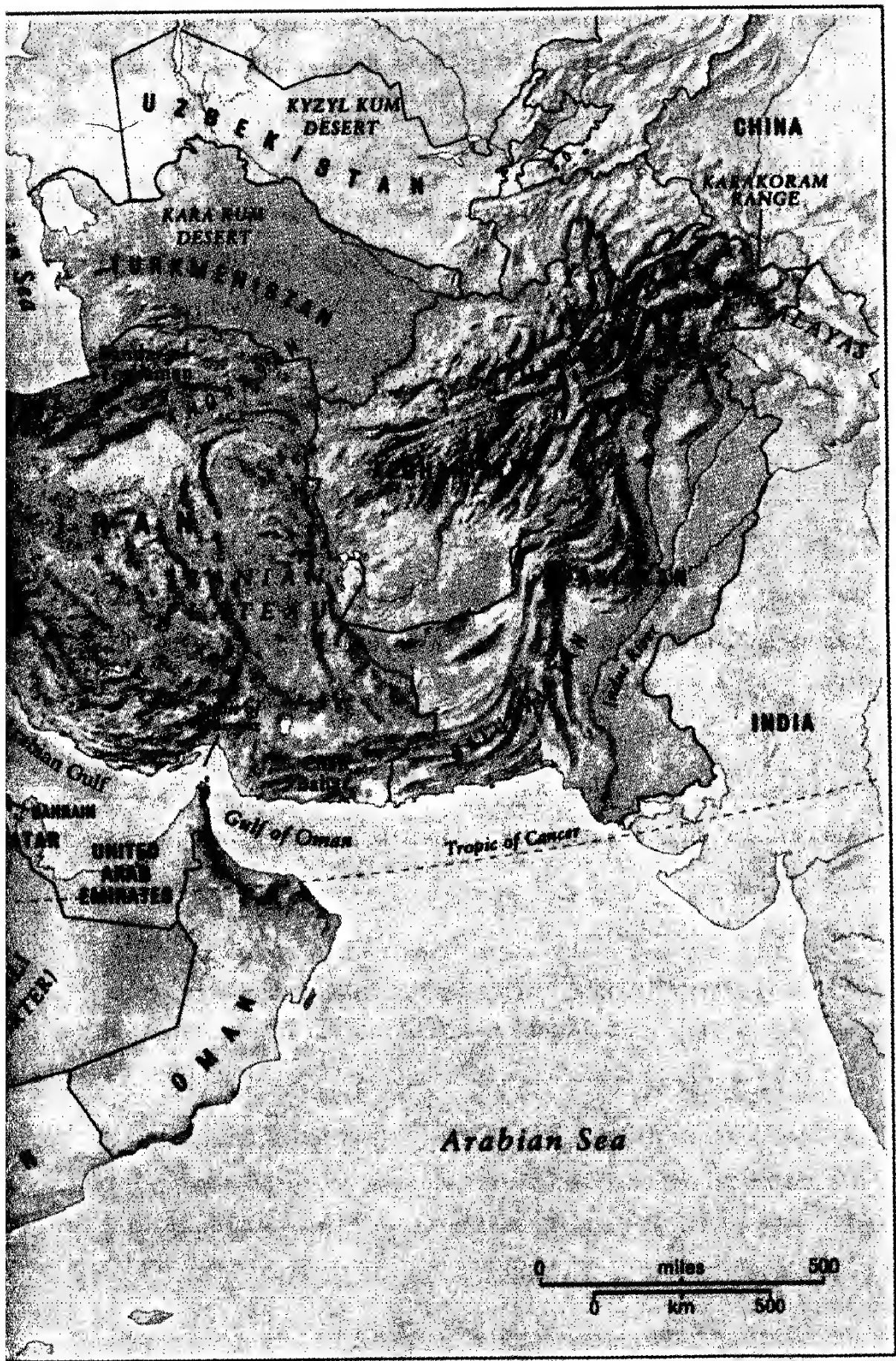
بيد أن هذا الإرث الكلاسيكي للانقسام يبقى معنا بصورة أشد عمقا عبر هوة ممتدة على مدى آلاف السنين، وبالتالي فهو أمر حاسم في السياسة المضطربة في الشرق الأوسط الكبير اليوم. وفي حين تمكنت اللغة العربية من توحيد جزء كبير من المنطقة، فإن اللغتين الفارسية والتركية هما السائدتان في مناطق الهضاب الشمالية، فضلا عن العديد من لغات آسيا الوسطى والقوقاز. وكما أوضح هودجسون، فإن العديد من دول الشرق الأوسط المنفردة، على الرغم من كونها لعملية اعتبارية لرسم الخرائط تعود إلى الحقبة الاستعمارية، تمتلك أيضا أساسا قويا يعود إلى العصور القديمة، وهو الأساس

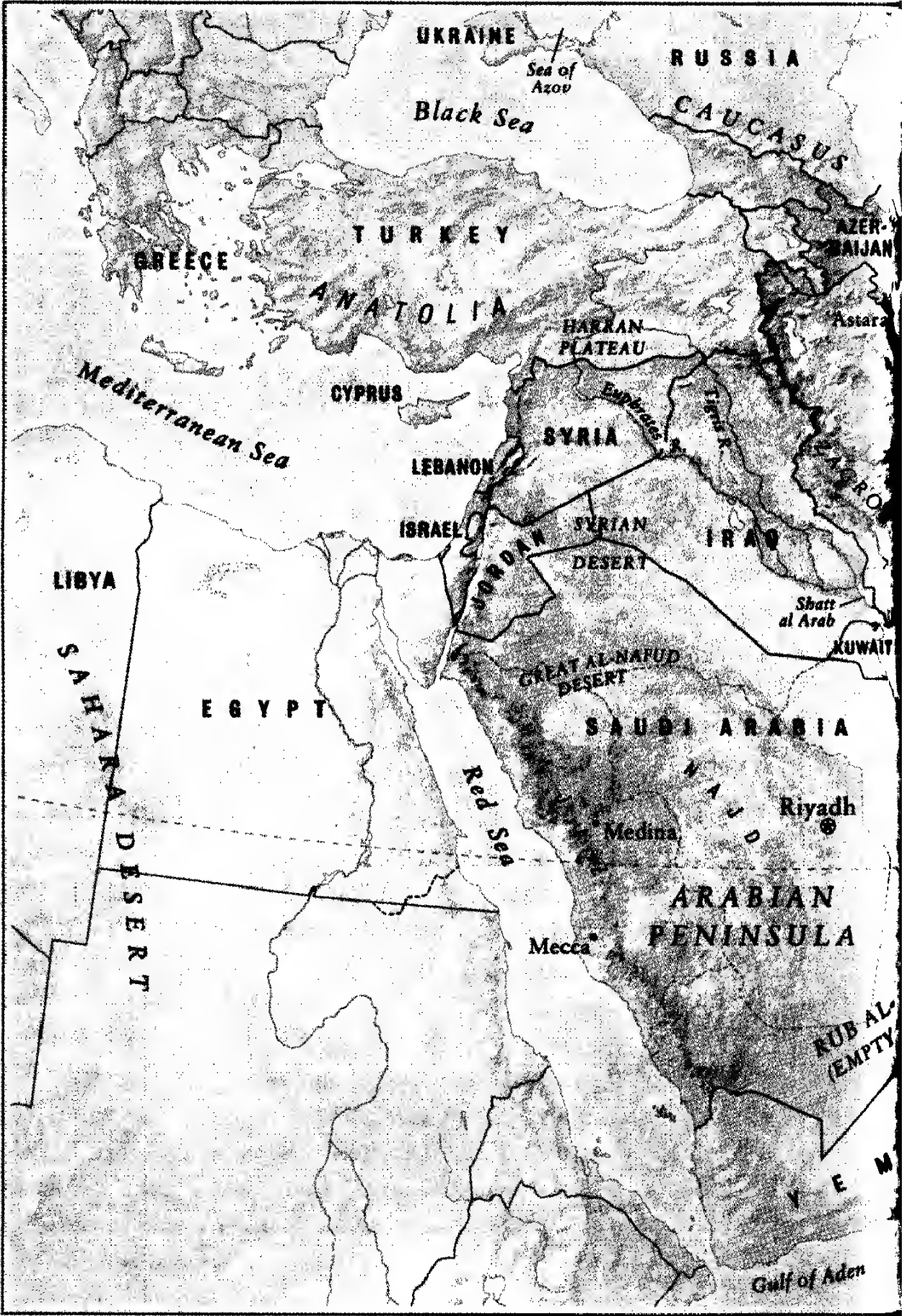
(*) Oxus: جيحون نهر قديم يسمى قسمه الغربي اليوم «آمو - دريا»، وقسمه الشرقي «واخش». يجري النهر على مسافة 2400 كيلومتر عبر طاجيكستان، وأفغانستان، وتركمانستان، وأوزبكستان. [المحرر].

الجغرافي. ومع ذلك، فإن تعددية هذه الدول، فضلا عن القوى الدينية والأيدولوجية والدمقرطة democratizing العاملة بداخلها، تُضفي مزيدا من التجسيد على وصفها كجزء من الأرض المتنازع عليها التي وصفها ألفريد ثاير ماهان. وفي الواقع، فإن الحقيقة العليا في السياسة العالمية في القرن الحادي والعشرين تتمثل في أن المنطقة الأكثر مركزية جغرافيًا من الأراضي الجافة هي أيضا أقلها استقرارا.

وفي الشرق الأوسط الحالي، على حد قول العالمين جيفري كيمب Kemp وروبرت إ. هاركافي Harkavy، يوجد «رباعي أضلاع quadrilateral هائل المساحة»، حيث تتقاطع أوروبا وروسيا وآسيا وأفريقيا؛ والذي يحده البحر الأبيض المتوسط والصحراء من الغرب؛ والبحر الأسود وجبال القوقاز وبحر قزوين والسهوب البرية لآسيا الوسطى من الشمال؛ وجبال الهندو كوش وشبه القارة الهندية من الشرق؛ والمحيط الهندي من الجنوب⁽⁴⁾. وعلى عكس الصين أو روسيا، فإن رباعي الأضلاع هذا لا يشكل دولة هائلة واحدة؛ ولا حتى، مثل شبه القارة الهندية، تهيمن عليه دولة واحدة بأغلبية ساحقة، والتي قد توفر له بعض مظاهر الاتساق على الأقل. كما أنه لا يتألف، مثل أوروبا، من مجموعة من الدول الواقعة ضمن هياكل للتحالف تحظى بدرجة عالية من التنظيم (حلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوروبي). وبدلاً من ذلك، تتميز منطقة الشرق الأوسط بوجود مجموعة غير منتظمة من الممالك، والسلطنات، والحكومات الدينية، والديموقراطيات، والأنظمة الاستبدادية ذات الطراز العسكري، والتي تبدو الحدود المشتركة بينها كأنها شُقَّت باستخدام سكين مهترزة. وكما قد يتوقع القارئ، فهذه المنطقة كلها، والتي تضم شمال أفريقيا ومنطقة القرن الأفريقي وآسيا الوسطى، وشبه القارة الهندية إلى حد ما، تشكل - في الواقع - محورا مكتظا بعدم الاستقرار، حيث تتلاقى القارات، وشبكات الطرق التاريخية، والممرات البحرية. والأكثر من ذلك أن هذه المنطقة تضم 70 في المائة من الاحتياطات النفطية المؤكدة في العالم، و40 في المائة من احتياطات الغاز الطبيعي⁽⁵⁾. وكذلك، كما أن هذه المنطقة عرضة لجميع العلل التي ذكرها الأستاذ في جامعة ييل، بول براكن: الأيدولوجيات المتطرفة، وعلم نفس الحشود، ونطاقات الصواريخ المتداخلة، ووسائل الإعلام الموجهة لتحقيق الربح، والمخلصة لوجهات نظرها بنفس درجة إخلاص محطة فوكس نيوز Fox News لمبادئها^(*). وفي الواقع، فباستثناء شبه الجزيرة الكورية، فإن الانتشار النووي هو أحد العوامل المؤثرة في الشرق الأوسط أكثر من أي منطقة أخرى.

(*) عرفت المحطة بمساندتها للمحافظين، وتعتبر لسان اليمين الأمريكي. [المحرر].





مفتاح الخريطة:

Najd	نجد
Oman	عمان
Pakistan	باكستان
Qatar	قطر
Red Sea	البحر الأحمر
Riyadh	الرياض
Rub Al-Khali (Empty Quarter)	الربع الخالي
Russia	روسيا
Sahra Desert	الصحراء الكبرى
Saudi Arabia	العربية السعودية
Sea of Azov	بحر آزوف
Shatt al Arab	شط العرب
Strait of Hormust	مضيق هرمز
Syria	سورية
Syria Desert	الصحراء السورية
Tigris R.	نهر دجلة
Tropic of Cancer	مدار السرطان
Turkmenistan	تركمانستان
Ukraine	أوكرانيا
United Arab Emirates	الإمارات العربية المتحدة
Uzbekistan	أوزبكستان
Yemen	اليمن
Zagros MTS.	جبال زاغروس
Afghanistan	أفغانستان
Anatolia	الأناتول
Arabian Gulf	الخليج العربي
Arabian Peninsula	شبه الجزيرة العربية
Arabian Sea	بحر العرب
Astara	أستارا
Azerbaijan	أذربيجان
Bahrain	البحرين
Baluchistan	بلوشستان
Bandar-e Torkman	بندر تركمان
Black Sea	البحر الأسود

المحور الإيراني

Caspian Sea	بحر قزوين
Caucasus	القوقاز
Chanbahar	تشانبهار
China	الصين
Cyprus	قبرص
Egypt	مصر
Elburz MTS.	جبال البرز
Eupharates R.	نهر الفرات
Great Al-Nafud	صحراء النفود الكبرى
Greece	اليونان
Gulf of Aden	خليج عدن
Gulf of Oman	خليج عمان
Harran Plateau	هضبة حران
Hijaz	الحجاز
Himalayas	الهمالايا
Hindu Kush	هيندوكوش
India	الهند
Indus River	نهر السند
Iran	إيران
Iranian Plateau	الهضبة الإيرانية
Iraq	العراق
Israel	إسرائيل
Jordan	الأردن
Karakum Desert	صحراء قره قوم
Karakoram Range	مدى قراقم
Khorasan	خراسان
KM	كيلومتر
Kuwait	الكويت
Kyzyl Kum Desert	صحراء قيزيل قم
Lebanon	لبنان
Libya	ليبيا
Mecca	مكة
Medina	المدينة
Mediterranean Sea	البحر المتوسط
Miles	أميال

يعيش الشرق الأوسط أيضا في خضم طفرة شبابية، إذ إن 65 في المائة من سكانه هم دون سن الثلاثين. وما بين عامي 1995 و2025، سيكون سكان العراق والأردن والكويت، وعمان وسورية والضفة الغربية وقطاع غزة واليمن قد تضاعف. إن السكان الشبان، كما رأينا في الربيع العربي، هم الأقرب احتمالا لفرض الاضطراب والتغيير. أما الجيل المقبل من حكام الشرق الأوسط، سواء في إيران أو في الدول العربية، فلن يملك ترف الحكم الاستبدادي المطلق كما فعل أسلافهم، على الرغم من أن التجارب الديمقراطية في المنطقة تبين أنه في حين تنجز الانتخابات بسهولة، فإن الأنظمة الديمقراطية المستقرة والليبرالية هي عمليات قد يستغرق صقلها أجيالا. وفي الشرق الأوسط، أشعلت الطفرات الشبابية وثورة الاتصالات سلسلة من سيناريوهات الفوضى على الطراز المكسيكي (أي استبدال دول الحزب الواحد بأخرى أكثر فوضوية تتسم بتعدد الطوائف وبالتعددية الحزبية)، ولكن من دون بلوغ مستوى المكسيك من إضفاء الطابع المؤسسي institutionalization، والذي - على الرغم من محدوديته - لا يزال متقدما على معظم بلدان الشرق الأوسط. كان التعامل مع المكسيك التي تتمتع بديموقراطية أصيلة أصعب على الولايات المتحدة من تعاملها مع المكسيك تحت الحكم الفعلي للحزب الواحد. ولكونه يعج بالأسلحة المتقدمة، فضلا عن أسلحة الدمار الشامل، فإن الشرق الأوسط في العقود القليلة المقبلة سيجعل الحقبة الأخيرة من الصراع العربي - الإسرائيلي حالة تبدو أشبه بفصل رومانسي، داكن من الحرب الباردة وما بعد الباردة الحرب، والذي تتسم فيه حسابات الأخلاق والتفوق الإستراتيجي بكونها واضحة نسبيا.

إن مفهوم هودجسون عن النيل إلى جيحون يعني أساسا مصر إلى آسيا الوسطى، مع كون مصر تمثل اختزالا لكل أرجاء شمال أفريقيا. يتألف هذا المصطلح من المكون الجنوبي، الذي يشمل صحارى وسهول الشرق الأوسط، وهو عربي، والنجد الجبلي الشمالي، وهو غير عربي، والذي يبدأ من البحر الأسود وينتهي في شبه القارة الهندية. ويمكن أيضا أن يطلق على المنطقة الهضبة الشمالية المترامية الأطراف اسم «البوسفور إلى السند» (Bosporus - to - Indus). وقد تأثرت منطقة البوسفور إلى السند تأثرا كبيرا بالهجرات الآتية من آسيا الوسطى؛ وقد

تأثرت بها منطقة النيل إلى جيحون أيضاً، فضلاً عن حركة المرور البحري الكثيفة في منطقة البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي. إن حقيقة كون الشرق الأوسط يمثل نقطة لتقاطع القارات، مع جغرافية داخلية أكثر تعقيداً من أي منطقة باستثناء أوروبا، لكنه أكبر حجماً ومنتشر عبر ضعف المناطق الزمنية لأوروبا، تجعل من الضروري لأغراض هذه المناقشة تفكيك المنطقة إلى الأجزاء المكونة لها. من الواضح أن الاتصالات الإلكترونية والسفر الجوي قد تغلبت على الجغرافيا في الآونة الأخيرة، بحيث تتحدد الأزمات من خلال التفاعلات السياسية في المنطقة بأكملها. وعلى سبيل المثال، فعندما اعترض الإسرائيليون قافلة تحمل إمدادات إغاثية لغزة، اشتعلت المظاهرات الحاشدة في تركيا وإيران وجميع أنحاء العالم العربي. وعندما قام بائع للخضار والفواكه في جنوب وسط تونس بإشعال النار في نفسه، اندلعت مظاهرات ضد الحكم الدكتاتوري ليس في تونس وحدها، بل وفي الكثير من بلدان العالم العربي. ومع ذلك، هناك الكثير مما يمكن تمييزه من خلال دراسة الخريطة والانقسامات المتأصلة فيها.

عند النظر إلى خريطة الشرق الأوسط، تبرز ثلاثة معالم جغرافية فوق تلك الأخرى: شبه الجزيرة العربية والهضبة الإيرانية وجسر الأناضول البري. تهيمن المملكة العربية السعودية على شبه الجزيرة العربية، غير أنها تضم أيضاً دولا مهمة أخرى. وفي الواقع أن المملكة العربية السعودية، التي لا يزيد سكانها على 28.7 مليون نسمة، تضم ما يقل بكثير عن نصف إجمالي سكان شبه الجزيرة. لكن معدل النمو السنوي للسكان في المملكة العربية السعودية يقترب من اثنين في المائة؛ فإذا استمر هذا المعدل المرتفع، فسوف يتضاعف عدد سكانها في غضون بضعة عقود، مما سيفرض ضغطاً هائلاً على الموارد، نظراً إلى أن البلد يقع على سهوب برية وصحراوية شحيحة المياه. إن ما يقرب من 40 في المائة من السعوديين هم دون الخامسة عشرة من العمر، كما أن 40 في المائة من الشباب السعودي عاطلون عن العمل، وبالتالي فإن الضغوط السياسية التي سيفرضها أولئك الشبان الساعون لفرص العمل والتعليم ستكون هائلة. بيد أن قوة المملكة العربية السعودية ليست مستمدة من حجم سكانها، والذي يمثل في الواقع مسؤولية قانونية، ولكن من حقيقة امتلاكها لأكثر احتياطات نفطية في العالم،

والتي تبلغ 262 مليار برميل، كما تحتل المرتبة الرابعة عالميا في احتياطات الغاز الطبيعي، بمخزونها البالغ 240 تريليون قدم مكعبة.

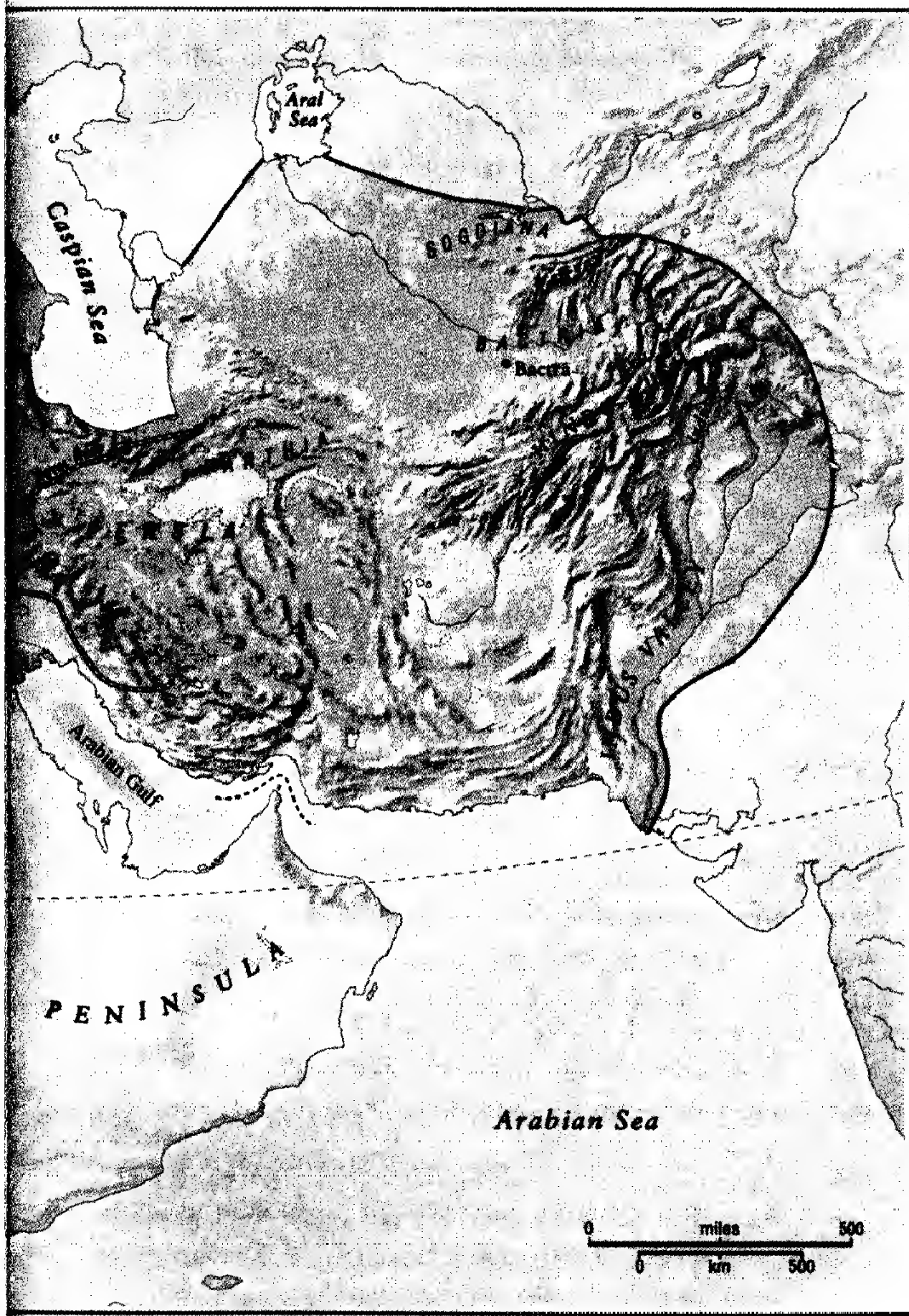
إن المهّد الجغرافي للدولة السعودية، وللحركة الدينية السنية المعروفة باسم «الوهابية»، والمرتبطة بها، هو نجد؛ وهي منطقة قاحلة في وسط شبه الجزيرة العربية، والتي تقع بين صحراء النفود الكبرى في الشمال والربع الخالي في الجنوب؛ أما إلى الشرق منها فيوجد الشريط الساحلي للخليج العربي؛ كما تحدها من الغرب جبال الحجاز. ويلاحظ أن كلمة «نجد» تعني منطقة مرتفعة. ويتباين ارتفاعها المتوسط بين خمسة آلاف قدم في الغرب إلى ما دون 2500 قدم في الشرق. قام المستكشف والمستعرب البريطاني الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر، تشارلز م. داوتي Doughty، بوصف نجد كما يلي:

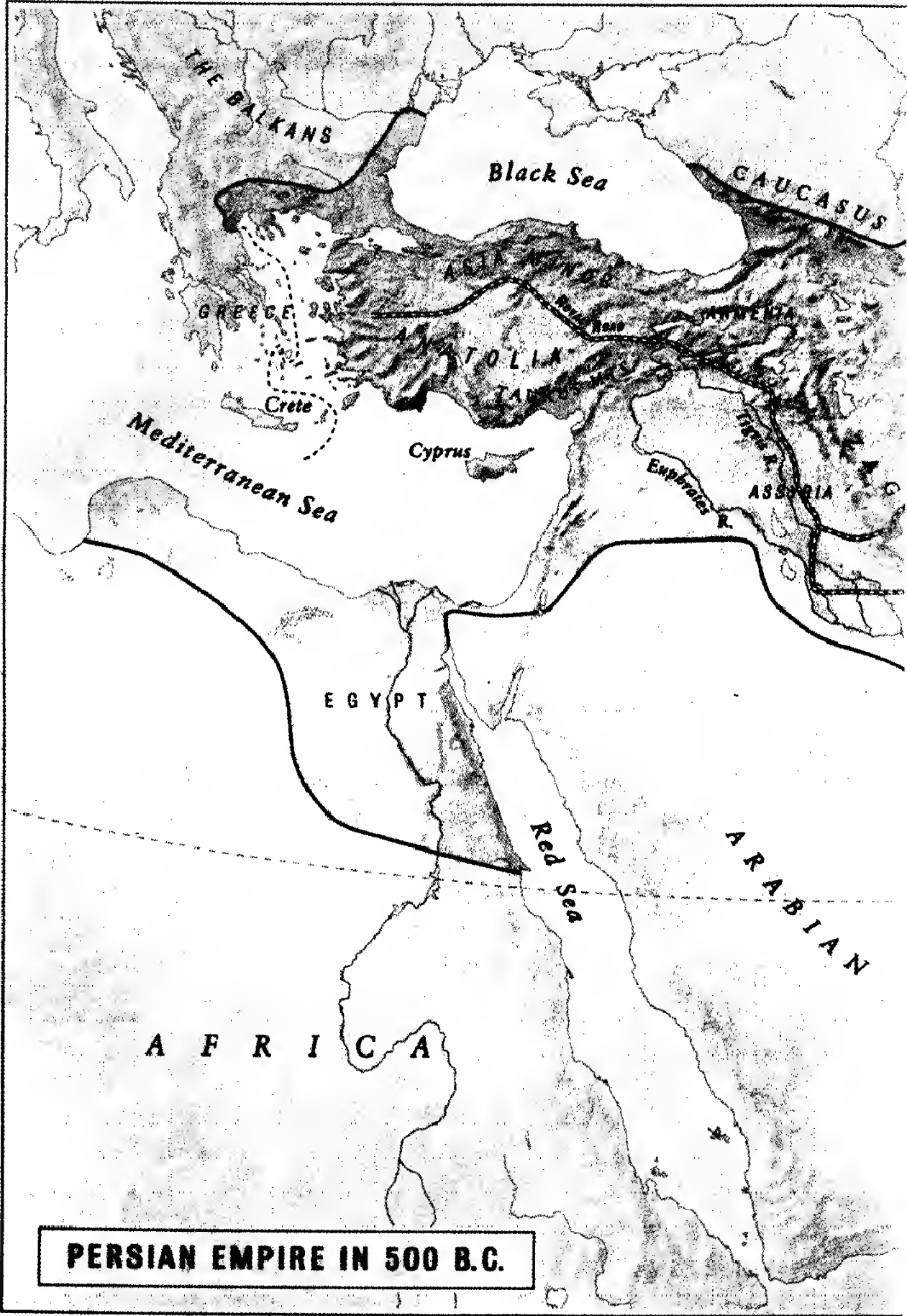
إن الصدى الصياح وضجيج المياه المتدفقة هو، كما كانت عليه الحال، الصوت الحزين للأرض الشحيحة المطر في كل قرى نجد. إن خرير المياه هذا قد لا ينقطع ليلا أو نهارا. لا يمكن لقوة الثيران سحب المياه بصورة ذات جدوى من الآبار بما يزيد على ثلاث أو أربع قامات fathoms، وإن لم تكن الإبل موجودة، لظلت نجد - كما يقولون - بلا سكان⁽⁶⁾.

إن نجد هي بمنزلة القلب حقا لما أسماه هودجسون البداوة القائمة على الإبل. ومن معاقلهم في نجد، انطلق الوهابيون في القرون الأخيرة في غاراتهم التي شملت كل الاتجاهات. وعلى الرغم من أن الحجاز، المتاخمة للبحر الأحمر، تضم المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد اعتبر النجديون الوهابيون أن الحج إلى مختلف الأماكن المقدسة (باستثناء الحج إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة) يمثل شكلا من أشكال الوثنية. وفي حين أن المدينتين المقدستين، مكة المكرمة والمدينة المنورة، تشيران ضمنا إلى التدين الإسلامي في العقل الغربي، فإن الحقيقة هي العكس من ذلك إلى حد ما؛ فحج المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي هو ما يضيف كونية معينة على هاتين المدينتين المقدستين وعلى منطقة الحجاز المحيطة بهما. إن الحجاز، «بسكانها من الشبان المتحضرين، والمتنوعين دينيا، لم تتوافق بالكامل مطلقا مع الحكم السعودي والوهابي»، كما كتب الضابط في وكالة الاستخبارات المركزية بروس ريدل (Riedel)⁽⁷⁾. يتطلع شعب الحجاز إلى

البحر الأحمر، ومصر، وسورية للحصول على المعونة الثقافية، وليس إلى صحراء نجد الكالحة بمن فيها من الوهابيين. والحقيقة الجوهرية لهذا التاريخ هي أن الوهابيين لم يتمكنوا من السيطرة بصورة دائمة على محيط شبه الجزيرة العربية، على الرغم من أن خصومهم لاقوا صعوبة مماثلة في الاستحواذ على المنطقة المركزية لنجد. إن المملكة العربية السعودية القائمة اليوم، على الرغم من أن تسميتها تمثل تكريماً لرؤية ومهارات رجل عاش في النصف الأول من القرن العشرين، هو الملك عبد العزيز بن سعود - النجدي الذي غزا الحجاز في العام 1925 - تنطبق على هذا التصميم الجغرافي⁽⁸⁾. تركّز الدولة على نجد وعاصمتها، الرياض، ولا تشمل إمارات ساحل الخليج العربي، ولا عُمان أو اليمن.

إن الخطر الأساسي على المملكة العربية السعودية المرتكزة على نجد هو اليمن؛ فعلى الرغم من أن اليمن لا تمتلك سوى ربع مساحة أراضي المملكة العربية السعودية، فإن سكانها يبلغون الحجم نفسه تقريباً؛ بحيث يقع القلب الديموغرافي البالغ الأهمية لشبه الجزيرة العربية في الركن الجنوبي الغربي الجبلي منها، حيث الهضاب البازلتية الشاسعة، التي تنتصب مشكّلة تكوينات تشبه القلاع الرملية والفوهات البركانية، في حين تؤوي شبكة من الواحات الكثيفة سكانها منذ العصور القديمة. وفي الحقيقة، لم يتمكن الأتراك العثمانيون ولا البريطانيون من السيطرة على اليمن أبداً. ومثل نيبال وأفغانستان، فلم يكن اليمن مستعمرة حقيقية على الإطلاق، ولذلك لم تتطور فيه مؤسسات بيروقراطية قوية. وعندما سافرت عبر أرجاء منطقة الحدود السعودية - اليمنية قبل سنوات، كانت مزدحمة بشاحنات صغيرة مملوءة بالشبان المسلحين، الموالين لهذا الشيخ أو ذاك، حتى أن وجود الحكومة اليمنية كان لا يكاد يُذكر. تصل تقديرات عدد الأسلحة النارية داخل حدود اليمن إلى معدلات عالية تبلغ إلى ثمانين مليون قطعة - أي ما يقرب من ثلاثة أسلحة لكل يمني. لن أنسى أبداً ما قاله لي خبير عسكري أمريكي في العاصمة اليمنية صنعاء: «في اليمن، هناك أكثر من عشرين مليون شخص مكافح، وذو عقلية تجارية، ومسلح تسليحاً جيداً، وكل منهم يعمل بكل جد مقارنة بجيرانهم السعوديين. إنها المستقبل، وهو ما يصيب الحكومة في الرياض بالقلق».





انتقام الجغرافيا

مفتاح الخريطة:

Africa	أفريقيا
Anatolia	الأناتول
Arabian Gulf	الخليج العربي
Arabian Peninsula	شبه الجزيرة العربية
Arabian Sea	بحر العرب
Aral Sea	بحر أرال
Armenia	أرمينيا
Asia Minor	آسيا الصغرى
Assyria	آشور
Bactra	بلخ
Bactria	باخترا
Black Sea	البحر الأسود
Caspian Sea	بحر قزوين
Caucasus	القوقاز
Crete	كريت
Cyprus	قبرص
Egypt	مصر
Euphrates R.	نهر الفرات
Greece	اليونان
Hindu Kush	هندوكوش
Indus R.	نهر السند
Indus Valley	وادي السند
KM	كيلومتر
Mediterranean Sea	البحر المتوسط
Miles	أميال
Parthia	بارثية
Persia	فارس
Persian Empire in 500 B.C	الإمبراطورية الفارسية في العام ٥٠٠ ق. م
Red Sea	البحر الأحمر
Royal Road	الطريق الملكية
Sogdiana	سوقديانا
Taurus MTS.	جبال طوروس
The Balkans	البلقان
Tigris R.	نهر دجلة
Zagros MTS.	جبل زاغروس

تُعد المملكة العربية السعودية مرادفاً لشبه الجزيرة العربية بالطريقة التي تُعد بها الهند مرادفاً لشبه القارة الهندية. ولكن في حين أن كل أرجاء الهند تتسم بكثافة سكانية عالية، فإن المملكة العربية السعودية تشكل شبكة مبهمّة nebulous جغرافياً من الواحات التي تفصل بينها مساحات شاسعة من الصحارى الجذباء. وهكذا، تمتلك الطرق السريعة والخطوط الجوية المحلية أهمية حاسمة في تحقيق تماسك المملكة العربية السعودية. وفي حين بُنيت الهند على فكرة الديمقراطية والتعددية الدينية، فقد تأسست المملكة العربية السعودية على الولاء لعائلة ممتدة. وعلى الرغم من أن الهند محاطة تقريباً بدول شبه فاشلة، تتلاشى حدود المملكة العربية السعودية إلى صحراء غير ضارة إلى الشمال، وتحميها (في معظم الأجزاء) إمارات قوية، وجيدة الحكم، ومكتفية ذاتياً إلى الشرق والجنوب الشرقي: وهي إمارات تُعد، بدورها، نتاجاً لعوامل التاريخ والجغرافيا. ولأن الأراضي التي تمثل الكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات العربية المتحدة في الوقت الحاضر تقع جميعها على طول الطريق التجارية للقوة البحرية الأكبر في القرن التاسع عشر، أي بريطانيا العظمى، وخاصة بطول الطريق إلى الهند، قامت بريطانيا بالتفاوض مع شيوخها على الصفقات التي أدت إلى استقلالها في أعقاب الحرب العالمية الثانية. أما الاحتياطات الهائلة من النفط فتحتكي بقية قصة «دول الكنوز الأسطورية» Eldorado States هذه، على حد قول المستعرب البريطاني بيتر مانسفيلد Mansfield⁽⁹⁾.

خلاصة القول أنه في شبه الجزيرة العربية، يبقى جنوب غرب البلاد ذو الكثافة السكانية العالية هو المنطقة التي تكون المملكة العربية السعودية فيها غير حصينة بالفعل: فمن هنا تتدفق الأسلحة، والمتفجرات، والمخدرات، وأوراق القات عبر الحدود اليمنية. إن مستقبل اليمن المزدهم بسكانه، وذو الطبيعة القبلية سيمارس دوراً كبيراً في تحديد مستقبل المملكة العربية السعودية، وربما كان ذلك متعلقاً بالجغرافيا أكثر مما يتعلق بالأفكار.

أما الهضبة الإيرانية، من الناحية الأخرى، فتتمثل مرادفاً لدولة واحدة فقط، هي إيران. يبلغ عدد سكان إيران 74 مليون نسمة، وهو 2.5 ضعف سكان المملكة العربية السعودية، ويُعد الأكبر في الشرق الأوسط، جنباً إلى جنب مع تركيا ومصر.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد تمكنت إيران بشكل لافت للنظر من تقليل معدل نموها السكاني، وصولاً إلى أقل من واحد في المائة، في حين أن 22 في المائة فقط من سكانها هم دون سن الخامسة عشرة. وبالتالي، فإن سكان إيران لا يمثلون عبئاً مثل المملكة العربية السعودية، بل أحد الأصول المفيدة. وبوسع المرء أن يجادل بأن تركيا، على سبيل المثال، تضم عدداً أكبر من السكان، مع معدل منخفض بالمثل للنمو السكاني، ومعدل أعلى لمعرفة القراءة والكتابة. وعلاوة على ذلك، فإن تركيا تمتلك اقتصاداً زراعياً وصناعياً يتسم بكونه أكثر استقراراً من مثيله في إيران. سوف أتناول حالة تركيا في وقت لاحق. أما الآن، فلاحظوا أن تركيا تقع إلى الشمال الغربي من إيران، أي أقرب إلى أوروبا وأبعد بكثير عن المراكز السكانية العربية السنية الرئيسية. تقع تركيا أيضاً في المراتب الدنيا من منتجي النفط والغاز؛ في حين تحتل إيران المرتبة الثالثة في العالم من حيث الاحتياطيات النفطية، بمخزون يبلغ 133 مليار برميل، لكنها الثانية من حيث احتياطيات الغاز الطبيعي، إذ يبلغ حجم مخزونها 970 تريليون قدم مكعبة. ومع ذلك، فإن أفضلية إيران من حيث الموقع - حيث تقع إلى الجنوب مباشرة من الأرض المركزية التي وصفها ماكيندر، وداخل الأرض المحيطة التي وصفها سبيكمان - هي التي، أكثر من أي عامل آخر، تستحق التدبر بالفعل. تمكن الأغلبية الساحقة من مخزونات النفط والغاز الطبيعي في الشرق الأوسط الكبير إما في الخليج العربي أو المناطق المتاخمة لبحر قزوين. مثلما تشع ممرات الشحن من الخليج العربي، فإن خطوط الأنابيب تشع، وسوف تشع، من منطقة بحر قزوين إلى البحر المتوسط والبحر الأسود والصين والمحيط الهندي. بيد أن الدولة الوحيدة التي تمتد عبر كلتا المنطقتين المنتجتين للطاقة هي إيران، والتي تمتد من بحر قزوين إلى الخليج العربي⁽¹⁰⁾. تشير بعض التقديرات إلى أن منطقة الخليج العربي تمتلك نحو 55 في المائة من احتياطيات النفط الخام في العالم، في حين تسيطر إيران على الخليج كله، من شط العرب على الحدود العراقية إلى مضيق هرمز على بُعد 615 ميلاً. وبسبب خلجانه ومدخله وخيرانه وجزره - وهي أماكن ممتازة لإخفاء القوارب الانتحارية السريعة التي تصطدم بالناقلات - فإن طول الخط الساحلي الإيراني داخل مضيق هرمز يبلغ 1356 ميلاً بحرياً؛ في حين أن الساحل التالي له في الطول، والخاص بدولة الإمارات العربية المتحدة، لا يبعد عنه سوى 733 ميلاً بحرياً.

تمتلك إيران أيضا 300 ميل من السواحل على بحر العرب، بما في ذلك ميناء تشابهار بالقرب من الحدود الباكستانية، مما يجعل إيران بالغة الأهمية لإتاحة الوصول إلى المياه الدافئة أمام البلدان غير الساحلية في آسيا الوسطى، والتي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي السابق. وفي الوقت نفسه، فإن الساحل الإيراني على بحر قزوين في أقصى الشمال، والذي تعلوه جبال تكسوها غابات كثيفة، فيمتد نحو 400 ميل: من أستارا في الغرب، على الحدود مع جمهورية أذربيجان السوفيتية السابقة، ثم يلتف حتى يصل إلى بندر تركمان في الشرق، على الحدود مع تركمانستان.

وعند إلقاء نظرة على خريطة تضاريس أوراسيا، سيتضح لنا أكثر من ذلك؛ فالجزء الخلفي الواسع من جبال زاغروس يمر عبر إيران نزولا من هضبة الأناضول في الشمال الغربي إلى بلوشستان في جنوب شرق البلاد. وإلى الغرب من سلسلة جبال زاغروس، تكون كل الطرق مفتوحة إلى بلاد ما بين النهرين. وعندما قامت كاتبة الرحلات البريطانية المتخصصة في شؤون المنطقة، فريا ستارك Stark، باستكشاف منطقة لُرستان الإيرانية في جبال زاغروس في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، اتخذت مقرا طبيعيا لها خارج بغداد، وليس طهران⁽¹¹⁾. وإلى الشرق والشمال الشرقي، فإن الطرق مفتوحة إلى خراسان وصحارى قره قوم (الرمال السوداء) وقيزيل كوم (الرمال الحمراء) في تركمانستان وأوزبكستان، على الترتيب. وكما أن إيران تمتد عبر حقول الطاقة الغنية في كل من الخليج العربي وبحر قزوين، فهي تمتد أيضا عبر الشرق الأوسط الحقيقي وآسيا الوسطى. ولا تحظى أي دولة عربية بمثل هذه المكانة (تماما كما أنه لا توجد دولة عربية تمتد عبر المنطقتين المنتجتين للطاقة). والواقع أن الغزو المغولي لإيران، الذي أسفر عن مقتل مئات الآلاف من البشر على الأقل، وتدمير منظومة قنوات الري، كان بمثل هذه الشدة على وجه التحديد بسبب التطلعات الإيرانية بالنسبة إلى آسيا الوسطى. من المحتمل أن يكون النفوذ الإيراني في الجمهوريات السوفيتية السابقة في القوقاز وآسيا الوسطى هائلا، على الرغم من أن هذه الجمهوريات السوفيتية السابقة نفسها، وبسبب وجود أبناء العرقية نفسها في شمال إيران، قد تؤدي إلى زعزعة الدولة الإيرانية نظريا. وفي حين أن أذربيجان، الواقعة على الحدود الشمالية الغربية لإيران، تضم نحو ثمانية ملايين من الأتراك الأذربيجانيين، يوجد ضعف هذا العدد في المحافظتين الإيرانيتين المجاورتين،

أذربيجان وطهران. كان الأذربيجانيون هم من أسسوا نظام الحكم الإيراني. كان أول شاه شيعي لإيران (إسماعيل، في العام 1501) متحدرا من أصول أذرية تركية. هناك رجال أعمال أذربيجانيين وآيات الله مهمين في إيران. وما أقصده هو أنه في حين تمتلك إيران نفوذا راسخا إلى الغرب في تركيا المجاورة وفي العالم العربي، فإن نفوذها إلى الشمال والشرق يتسم بالعمق نفسه؛ وإذا أتى المستقبل بأنظمة أقل قمعا، سواء في إيران أو في المنطقة الجنوبية المسلمة من الاتحاد السوفيتي السابق، يمكن أن يزداد النفوذ الإيراني عمقا، مع مزيد من التفاعلات الثقافية والسياسية. علاوة على ذلك، فقد كانت إيران، كما نعرف من عناوين الصحف، وعلى الأقل حتى العام 2011، في موقف سياسي تُحسد عليه بقرب البحر المتوسط: في قطاع غزة الذي تسيطر عليه حركة حماس، وجنوب لبنان الذي يسيطر عليه حزب الله، وفي سورية العلوية. ومع ذلك، فإن أحد تفسيرات التاريخ والجغرافيا يشير إلى وجود اختراق إيراني في جميع الاتجاهات. في قصر أباطرة الفرس من الأسرة الساسانية التي حكمت خلال القرن السادس، والواقع في المدائن [طيسفون: (Ctesiphon)]، إلى الجنوب من بغداد المعاصرة، كانت هناك مقاعد فارغة تحت العرش الملكي لإمبراطوري روما والصين، ولزعيم البدو الرحل في آسيا الوسطى، لاستخدامها في حال مجيء أولئك الحكام كمتوسلين إلى بلاط ملك الملوك⁽¹²⁾. ولم تقل طموحات الحكام الإيرانيين مع الحداثة؛ وبهذه الطريقة، فإن رجال الدين يشبهون الشاه الراحل في كثير من النواحي. وهذا هو السبب الرئيسي الذي يوجب على موسكو أن تتعامل بحذر فيما يتعلق بعلاقاتها مع إيران. منذ قرن من الزمان، كان لروسيا منطقة نفوذ في شمال إيران. وعلى الرغم من أن روسيا هي أضعف نسبيا الآن، فلا يزال القرب والتواصل بين البلدين من الأهمية بمكان.

تتوافق إيران تماما تقريبا مع الهضبة الإيرانية - أو «قشتالة الشرق الأدنى»، كما وصفها مؤرخ جامعة برينستون، بيتر براون Brown - على الرغم من أن ديناميكية حضارتها تصل إلى أبعد منها بكثير. كانت إيران هي أول قوة عظمى في العالم القديم. وكما كتب براون، فإن الإمبراطورية الفارسية، حتى في الوقت الذي كانت تحاصر فيه اليونان، «قد انبسطت، مثل ذيل الثنين... حتى وصلت إلى جيحون، وأفغانستان ووادي السند»⁽¹³⁾. ويتفق مع ذلك دبليو بارتولد Barthold، الجغرافي

الروسي العظيم الذي عاش في القرن العشرين، فيضع إيران الكبرى بين نهري الفرات والسند، ويصف الأكراد والأفغان على أنهما شعبان إيرانيان في الأساس⁽¹⁴⁾.

ومن بين الشعوب القديمة في الشرق الأدنى، العبرانيون والإيرانيون وحدهم «يمتلكون نصوصا وتقاليد ثقافية بقيت حتى العصر الحديث»، كما كتب عالم اللغويات نيكولاس أوستلر Ostler⁽¹⁵⁾. لم تحل العربية محل الفارسية، مثلما حدث مع عدد كبير من اللغات الأخرى، وهي اليوم بالشكل نفسه الذي كانت عليه في القرن الحادي عشر، على الرغم من أنها اعتمدت الحروف العربية. تمتلك إيران سجلا أكثر مهابة بكثير كـ «دولة - أمة» وكحضارة راقية من معظم مناطق العالم العربي، ومن جميع أرجاء منطقة الهلال الخصيب، بما في ذلك بلاد ما بين النهرين وفلسطين. ليس هناك شيء مصطنع بخصوص إيران، وبعبارة أخرى: إن مراكز القوى الشديدة التنافس ضمن نظامها الكهنوتي تشير إلى وجود مستوى من النظام المؤسسي أعلى من أي مكان تقريبا في المنطقة، باستثناء إسرائيل وتركيا. ومثلما أن الشرق الأوسط هو رباعي الأضلاع الخاص بأوراسيا، أي الجزيرة العالمية، فإن إيران هي المحور المشترك الخاص بمنطقة الشرق الأوسط. إن محور ماكيندر، بدلا من أن يقع في أراضي السهوب في آسيا الوسطى، ينبغي أن يُنقل إلى الهضبة الإيرانية الواقعة إلى الجنوب مباشرة. وليس من المستغرب أن يزداد التودّد إلى إيران من قبل كل من الهند والصين، اللتين قد تتشارك قواتهما البحرية عند نقطة ما من القرن الحادي والعشرين في الهيمنة، مع الولايات المتحدة، على الممرات البحرية الأوراسية. وعلى الرغم من أن إيران هي أصغر بكثير في الحجم وعدد السكان من هاتين القوتين، أو من روسيا أو أوروبا بالمناسبة؛ فإن إيران، ولأنها تحظى بالجغرافيا الرئيسية للشرق الأوسط - من حيث الموقع والسكان وموارد الطاقة - فهي، بالتالي، ذات أهمية محورية بالنسبة إلى الجغرافيا السياسية العالمية.

هناك، أيضا، ما يسميه المؤرخ البريطاني مايكل أكسورثي Axworthy «الفكرة الإيرانية»، والتي، كما يفسرها هو، تتعلق بالثقافة واللغة بقدر ما تتعلق بالعرق والأرض⁽¹⁶⁾. وهو يعني بذلك أن إيران، مثلما كانت اليونان والصين في العصور القديمة، هي عامل جذب حضاري، والذي يسحب الشعوب واللغات الأخرى إلى

مداره اللغوي: وهو جوهر القوة الناعمة، بعبارة أخرى، والذي يجسد بدرجة كبيرة مفهوم ماكنيل لتأثير حضارة وثقافة بعينها على أخرى. إن لغات الداري، Dari، والطاجيكية Tajik، والأردية Urdu، والهندية Hindi، والبنغالية Bengali، والعربية العراقية كلها إما متفاوتات Variants من الفارسية أو أنها تأثرت بها كثيرا. ويعني هذا أنه بوسع المرء أن يسافر من بغداد إلى كالكوتا ويظل ضمن المجال الثقافي الفارسي بصورة ما. إن مسحاً سريعاً للتاريخ الإيراني، مع التركيز على الخرائط القديمة، يوضح هذه الدينامية بصورة أكبر.

بدأت إيران الكبرى في العام 700 قبل الميلاد، مع قيام الميديين Medes، وهم شعب إيراني قديم، بمساعدة السكوثيين (الإصقوث) Scythians، بإنشاء دولة مستقلة في شمال غرب إيران. وبحلول العام 600 قبل الميلاد، امتدت هذه الإمبراطورية من وسط الأناضول إلى جبال هندو كوش (تركيا إلى أفغانستان)، وكذلك امتدت جنوباً إلى الخليج العربي. وفي العام 549 قبل الميلاد، قام كورش (الكبير)، وهو أمير من الأسرة الأخمينية Achaemenes الفارسية، بالاستيلاء على عاصمة الميديين إكبتانا (همدان) في غرب إيران، ومن ثم انطلق إلى جولة أخرى من الغزوات. إن خريطة الإمبراطورية الأخمينية، التي كانت تُحكم من برسبوليس (قرب شيراز) في جنوب إيران، تُظهر بلاد فارس العتيقة في أوج مجدها، إذ امتدت ما بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد من تراقيا Thrace ومقدونيا في شمال غرب البلاد، ومن ليبيا ومصر في الجنوب الغربي، بطول الطريق إلى البنجاب في الشرق؛ ومن القوقاز وبحر قزوين وبحر آرال في الشمال إلى الخليج العربي وبحر العرب في الجنوب. كان هذا هو «البوسفور إلى السند»، بما في ذلك نهر النيل. لم تتمكن أي إمبراطورية من مجاراتها حتى تلك النقطة من تاريخ العالم. وفي حين أن حروب القرن الخامس قبل الميلاد بين بلاد فارس واليونان تهيمن على المواقف الغربية تجاه إيران القديمة، حيث ينحاز تعاطفنا مع الإغريق المستغربين Westernized ضد الفرس الآسيويين، فإن الحال أيضاً، كما أشار إليه هودجسون، هو أن الويكومين، في ظل السلم والتسامح النسبي والسيادة الوطنية لبلاد فارس تحت حكم الأخمينيين والإمبراطوريات اللاحقة، قد وفر قاعدة قوية لظهور وازدهار الديانات السماوية الكبرى⁽¹⁷⁾.

كتب أكسوردي أن «البارثيين يجسدون أفضل جوانب العبقرية الإيرانية - أي الاعتراف، والتقبل، والتسامح مع تعقيد الثقافات... التي حكموها»⁽¹⁸⁾. ومن مقرهم الرئيسي في منطقة خراسان إلى الشمال الشرقي من إيران، والمتاخمة لجبال قره قوم، كما كانوا يتحدثون إحدى اللغات الإيرانية، حكم البارثيون ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي، وامتدت مملكتهم عموماً من سورية والعراق إلى وسط أفغانستان وباكستان، بما في ذلك أرمينيا وتركمانستان. وهكذا، فبدلاً من أن تمتد من «البوسفور إلى السند» أو من «النيل إلى جيحون» مثل بلاد فارس في عهد الأخمينيين، فإن الإمبراطورية البارثية تشكل رؤية أكثر واقعية لإيران الكبرى في القرن الحادي والعشرين، وهذا ليس بالضرورة أمراً سيئاً. كانت الإمبراطورية البارثية لامركزية للغاية، إذ كانت منطقة للنفوذ القوي بدلاً من الحكم المباشر، والتي كانت لها توجهات قوية تجاه الفن، والهندسة المعمارية، والممارسات الإدارية الموروثة عن الإغريق. أما بالنسبة إلى إيران الحالية، فليس سرا أن نظام الملالي يتسم بكونه متشدداً، لكن القوى الديموغرافية، والاقتصادية، والسياسية تتسم بالقدر نفسه من الدينامية، كما تعاني قطاعات رئيسية من السكان بسبب التملل.

إن سجل القرون الوسطى، من الناحيتين الخرائطية واللغوية، ينبع من ذلك القديم، وإن كان ذلك يُحتمل أنه تحقق بطرق أكثر غموضاً. وفي القرن الثامن، تحول المركز السياسي للعالم العربي شرقاً من سورية إلى بلاد ما بين النهرين: أي من الخلفاء الأمويين إلى العباسيين. حكمت الخلافة العباسية، التي بلغت أوجها في منتصف القرن التاسع للميلاد، من تونس شرقاً إلى باكستان، ومن القوقاز وآسيا الوسطى جنوباً إلى الخليج العربي. وكانت عاصمتها هي المدينة الجديدة التي سميت بغداد، على مقربة من العاصمة القديمة للدولة الساسانية الفارسية في المدائن؛ أما الممارسات البيروقراطية الفارسية، التي أضافت طبقات جديدة كاملة من التسلسل الهرمي، فقد عززت أركان هذه الإمبراطورية الجديدة. أصبحت الخلافة العباسية رمزا لنظام إيراني مستبد أكثر من كونها ترمز إلى مملكة عربية. وقد وصف بعض المؤرخين الخلافة العباسية باعتبارها ما يقابل «إعادة غزو ثقافي» للشرق الأوسط من قبل الفرس المتخفين تحت غطاء الحكام العرب⁽¹⁹⁾. استسلم العباسيون للممارسات الفارسية تماماً كما استسلم الأمويون، لكونهم أقرب إلى آسيا

الصغرى، لتلك البيزنطية. وكما كتب المؤرخ فيليب ك. حتي Hitti، فقد «سادت الألقاب الفارسية، والنبذ والزوجات الفارسيات، والمحظيات الفارسيات، والأغاني الفارسية، وكذلك الأفكار والآراء الفارسية»⁽²⁰⁾. وقد ساعد الفرس أيضا على تحديد العمارة الفخمة المعتمدة على القرميد في بغداد القرون الوسطى وعلى التصميم الدائري لأحيائها.

وكما كتب بيتر براون من جامعة برينستون، «في الخيال الغربي، تقف الإمبراطورية الإسلامية [العباسية] كمثال على قوة شرقية. ولا يدين الإسلام بهذا التوجّه الحاسم إلى النبي محمد، ولا للفاتحين القادرين على التلاؤم في القرن السابع الميلادي، ولكن للانبعاث الهائل للتقاليد الشرقية الفارسية خلال القرنين الثامن والتاسع». لم يكن شارل مارتل Martel في معركة بلاط الشهداء Tours التي دارت رحاها في العام 732م هو السبب الرئيسي في «إجبار آلة الحرب العربية على التوقف»، بل إنشاء بغداد، التي استبدلت دينامية فرسان البدو بإدارة فارسية إمبراطورية ومترفة⁽²¹⁾.

بيد أنه حتى الاجتياح المغولي لبغداد في القرن الثالث عشر، والذي دمر العراق، وبخاصة منظومة الري فيها (كما فعل في إيران)، وهو دمار لم يتعاف العراق منه بالكامل قط، لم يتمكن من إيقاف حيوية الفنون والآداب الفارسية. وقد ازدهرت أشعار كل من الرومي، والعراقي، وسعدي الشيرازي، وحافظ الشيرازي في أعقاب هجوم هولاكو خان، الذي اختزل بلاد ما بين النهرين إلى مستنقع للملاريا. وبسبب شعورهم بالحنين إلى أسلافهم الساسانيين، الذين حكموا إمبراطورية أكبر من تلك التي سادها أسلافهم البارثيون، وعلى قدم المساواة تقريبا لتلك التي حكمها الأخمينيون، قام الفنانون والعلماء الفارسيون بزخرفة الساحة الفكرية واللغوية لسلسلة من الإمبراطوريات غير الفارسية - العباسية، والغزنوية، والسلجوقية، والمغولية، والمنغولية. كانت الفارسية هي لغة البلاط المغولي، وكذلك اللغة الدبلوماسية للعثمانيين. وفي القرون الوسطى، ربما لم يتمكن الفرس من البوسفور إلى السند بصورة مباشرة، كما فعلوا في العصور القديمة، لكنهم هيمنوا على الحياة الأدبية بالقدر نفسه. كانت «إمبراطورية العقل الإيرانية»، كما يسميها أكسوردي، هي الفكرة القوية التي عملت على تضخيم موضع إيران الجغرافي الذي تُحسد عليه، بحيث كانت إيران الكبرى ظاهرة طبيعية تاريخيا⁽²²⁾. وفي

هذا السياق، يطرح أرنولد توينبي Toynbee هذه الفرضية المحيرة: إذا لم يكن تيمورلنك (تيمور) قد أدار ظهره لشمال ووسط أوراسيا وهاجم إيران في العام 1381، فمن المحتمل أن العلاقة بين بلاد ما وراء النهر Transoxiana وروسيا ستكون «معكوس» ما صارت إليه بالفعل في العصر الحديث، مع وجود دولة في حجم الاتحاد السوفييتي تقريبا، لكنها لا تُحكم من قبل الروس من موسكو، بل عن طريق إيرانيين يحكمون من سمرقند⁽²³⁾.

أما المذهب الشيعي فيمثل أحد العناصر المهمة لهذه الفكرة، وفي حين أن وصول المهدي المنتظر على هيئة الإمام الثاني عشر الغائب يعني نهاية الظلم، وبالتالي فهو محفز للنشاط الراديكالي، فليس هناك الكثير في المذهب الشيعي، فيما عدا ذلك، مما يدفع رجال الدين إلى ممارسة دور سياسي علني؛ وكذلك يضم المذهب الشيعي نزعة صوفية تدعن للقوى التي تستنير بالصوفية في كثير من الأحيان⁽²⁴⁾. شاهد المثال الذي ضربه رجل الدين العراقي البارز في السنوات الأخيرة، آية الله علي السيستاني، الذي أطلق في لحظات محورية تماما نداء من أجل المصالحة السياسية من وراء الكواليس. وعلى وجه التحديد بسبب العلاقة التكافلية بين العراق وإيران على مر التاريخ، والتي يرجع أساسها إلى الجغرافيا، فمن المعقول تماما في إيران ما بعد الثورة أن يتوجه الإيرانيون روحيا نحو المدينتين الشيعيتين المقدستين في العراق، أي النجف وكربلاء، أكثر مما يفعلون تجاه مدينتهم المقدسة، «قم»؛ أو أن تعتمد قُوم نفسها الطريقة الصوفية quietism للنجف وكربلاء.

يخبرنا الباحث الفرنسي أوليفيه روي Roy بأن التشيع، تاريخيا، هو ظاهرة عربية جاءت متأخرا إلى إيران، لكنها أدت في نهاية المطاف إلى إنشاء التسلسل الهرمي الذي مكن رجال الدين من تولي السلطة. وقد تعزز المذهب الشيعي أكثر بفعل تقاليد الدولة القوية والبيروقراطية التي تمتعت بها إيران منذ العصور القديمة، مقارنة بتلك السائدة في العالم العربي، والذي هو، كما نعرف، يمثل جزئيا هبة للتماسك المكاني للهضبة الإيرانية. جلب الصفويون المذهب الشيعي إلى إيران في القرن السادس عشر. ويأتي اسمهم من اسم جماعتهم الصوفية المقاتلة الخاصة، الصفوية، التي كانت في الأصل تتبع المذهب السني. كان الصفويون يمثلون واحدة من عدد من الجماعات الصوفية التي كانت تتنقل على ظهور الخيل في أواخر القرن

الخامس عشر، ولها أصول مختلطة - تركية، وأذربيجانية، وجورجية، وفارسية - وهي احتلت منطقة الهضاب الجبلية بين البحر الأسود وبحر قزوين، حيث تلتقي مناطق شرق الأناضول، والقوقاز، وشمال غرب إيران. ومن أجل بناء دولة مستقرة على الهضبة الإيرانية التي تتحدث الفارسية، اعتنق أولئك الملوك الجدد ذوو الأصول اللغوية والجغرافية الانتقائية مذهب الشيعة الإثني عشرية باعتباره دين الدولة، الذي ينتظر عودة الإمام الثاني عشر، وهو سليل مباشر للنبي محمد، وهو الإمام الذي يعتقدون أنه لم يمُت، ولكنه في حالة غيبة⁽²⁵⁾. وبطبيعة الحال، لم يكن تطور هذا محتما بسبب التاريخ أو الجغرافيا، كما اعتمد إلى حد كبير على مجموعة متنوعة الشخصيات والظروف. وعلى سبيل المثال، فلو لم يكن الحاكم الإلخاني Ilkhanid أولجيتو، وهو سليل خانات المغول، قد تحول إلى المذهب الشيعي الإثني عشري في القرن الثالث عشر، فلربما كان تطور المذهب الشيعي في شمال غرب إيران قد اتخذ منحى مختلفا، ومن يدري كيف كانت الأحداث ستسير اعتبارا من تلك النقطة. وعلى أي حال، فقد كان المذهب الشيعي يزداد قوة بين مختلف الجماعات التركية في شمال غرب إيران، مما مهد الساحة أمام ظهور الشاه إسماعيل الصفوي، الذي فرض المذهب الشيعي في أعقاب غزواته، وجلب رجال الدين العرب من جنوب لبنان والبحرين الحالية لتشكيل نواة رجال الدين التابعين للدولة⁽²⁶⁾.

امتدت الإمبراطورية الصفوية في أوج مجدها ما بين هضبة الأناضول، وسورية وبلاد ما بين النهرين، إلى وسط أفغانستان وباكستان - فيما يمثل صورة مغايرة أخرى لإيران الكبرى عبر التاريخ. كان المذهب الشيعي عاملا مساعدا على تشكّل إيران كدولة قومية حديثة، على الرغم من أن «أيرنة» Iranianization الأقليات الشيعية غير الفارسية في القرن السادس عشر قد ساعد أيضا في هذا الصدد⁽²⁷⁾. ربما كانت إيران دولة وأمة كبرى منذ العصور القديمة، لكن الصفويين، بفرضهم للمذهب الشيعي على الهضبة الإيرانية، عملوا على إعادة تنظيم إيران وإعدادها للعصر الحديث. والواقع أن إيران الثورية في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين تمثل تعبيرا مناسباً عن هذا الإرث القوي والاستثنائي. وبطبيعة الحال، كان صعود آيات الله حدثا كئيبا من حيث العنف الذي أحدثه - وأنا لا أقصد أن أبالغ - في التقاليد الحسية، والرفيعة الثقافة، والمحفزة فكريا للماضي الإيراني، (بلاد فارس - أو «أرض الشعراء والورد!»)، كما تصيح

بها الفقرة التمهيدية لكتاب جيمس ج. مورييه Morier المعنون «مغامرات حاجي بابا الأصفهاني»⁽²⁸⁾. لكن المقارنة، كما تقول الحكمة المشهورة، هي بداية كل معرفة جادة. ومقارنة بالاضطرابات والثورات التي وقعت في العالم العربي خلال المراحل الأولى والوسطى من الحرب الباردة، كان النظام الذي بشرت به الثورة الإيرانية خلال عامي 1978 - 1979 لافتا للنظر من حيث حيويته وحدثه. والحقيقة هي، وهو أمر يعود مباشرة إلى الأحمينيّين الذين عاشوا العصور القديمة، أن كل ما يتعلق بالماضي والحاضر الإيراني يتسم بجودته العالية، سواء تمثل ذلك في دينامية إمبراطورياتها من كورش إلى محمود أحمد نجاد، أو في الفكر السياسي وكتابات رجال الدين الشيعة؛ أو في الكفاءة المعقدة للنظام البيروقراطي وأجهزة الأمن في تضيق الخناق على المعارضين. وقد شكّل النظام الثوري في طهران هيكلًا حكوميًا متطورًا على نحوٍ ثري، مع تنويع مراكز السلطة: فلم تكن قط حكومة إجرامية فظة يديرها رجل واحد من النوع الذي أداره صدام حسين في العراق العربي المجاور.

وفي هذا السياق، يخبرنا أوليفيه روي بأن «أصالة» الثورة الإيرانية تكمن في التحالف بين رجال الدين ونخبة المثقفين الإسلاميين:

لا شك في أن رجال الدين الشيعة هم أكثر انفتاحًا على مجموع النصوص غير الإسلامية من علماء السنة [العرب]؛ فأيات الله هم من كبار القراء (بما في ذلك قراءتهم لفكر ماركس وفيورباخ Feuerbach، ففي نفوسهم شيء من الرهبان اليسوعيين أو الدومنيكان، وبالتالي فهم يجمعون بين التوفيق الواضح بين المعتقدات الفلسفية وبين التقيد الصارم بالفتاوى الدينية... تتسم الثقافة المزدوجة لرجال الدين الشيعة بكونها لافتة للنظر: فهي متمسكة بالتقاليد للغاية... ومع ذلك منفتحة للغاية على العالم الحديث⁽²⁹⁾.

والواقع أن هذه السلالة المتقدمة والحداثيّة نسبيًا هي ما يجعل من «الخيال الشيعي»، على حد تعبير روي، «أكثر قدرة على التكيف مع فكرة الثورة بسهولة»: وهي الفكرة التي، بدورها، تتطلب حسًا بالتاريخ والعدالة الاجتماعية، جنبًا إلى جنب مع ذلك المتعلق بالشهادة martyrdom. أما العالم العربي السني، فعلى الرغم من وجود عدد من المصلحين والمحدثين به، مثل محمد عبده ورشيد رضا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد افتقر ببساطة إلى فترة طويلة جدًا

من التعرض للفلاسفة السياسيين الغربيين، مثل هيغل وماركس، مقارنة بالدرجة التي تعرضت بها لهم إيران، التي بنى الملالي فيها، من خلال أفكار هيغل وماركس، قاعدة تفوقهم الأخلاقي على فهم مغزى التاريخ. وعلى عكس السياسة المحافظة للمجاهدين الأفغان أو الأنظمة العسكرية الخائفة في العالم العربي، رأت إيران الثورية في ثمانينيات القرن العشرين نفسها كجزء من أخوة شملت الساندينيين (*) في نيكاراغوا والمؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا⁽³⁰⁾. وعلى الرغم من انحدار حكم رجال الدين في السنوات الأخيرة إلى مجرد قمع وحشي - وهي علامة على نظام مُنْهَك في مرحلة الانحدار، على طريقة بريجينيف - فإن الطبيعة المذهبية والمجردة للاقتتال الداخلي الذي لايزال يحدث وراء الأبواب المغلقة هي شهادة على الطبيعة الرفيعة للثقافة الإيرانية. ظلت الدولة الإيرانية أقوى وأكثر تنظيماً من أي دولة في الشرق الأوسط الكبير، باستثناء تركيا وإسرائيل، كما أن الثورة الإسلامية لم تفكك الدولة الإيرانية، ولكنها، بدلا من ذلك، ربطت نفسها بها. حافظ النظام على حق الاقتراع العام، وأسّس نظاما رئاسيا، على الرغم من إساءة استخدامه من قبل رجال الدين وأجهزة الأمن من خلال إجراء انتخابات مزورة على ما يبدو في العام 2009. ومرة أخرى، ما جعل نظام الملالي في إيران فعالا للغاية في السعي إلى تحقيق مصالحه، من لبنان إلى أفغانستان، هو اندماجه في الدولة الإيرانية، والتي هي نفسها نتاج التاريخ والجغرافيا. أما الحركة الخضراء، التي ظهرت أثناء المظاهرات الضخمة المناهضة للنظام في أعقاب الانتخابات المتنازع عليها للعام 2009، فتشبه إلى حد كبير النظام الذي سعت إلى الإطاحة به؛ أي راقية إلى حد كبير وفقا لمعايير المنطقة (على الأقل حتى اندلاع ثورة الياسمين في تونس بعد ذلك بعامين)، وبالتالي تمثل دليلا آخر على العبقرية الإيرانية. يشكل الخضر حركة ديمقراطية على مستوى العالم، بعد أن ألقوا استخدام أحدث وسائل تكنولوجيا الاتصالات - مثل تويتر، والفيسبوك، والرسائل النصية - لتعزيز ثقلهم التنظيمي، كما اعتمدوا مزيجا قويا من القومية والقيم الأخلاقية العالمية للدفاع عن قضيتهم. وقد احتاج الأمر إلى استخدام كل وسائل القمع لدى الدولة الإيرانية، سواء الخفية والمعلنة، لدفع الخضر إلى العمل السري. ولو تمكن الخضر من الاستيلاء على السلطة في أي وقت كان، أو من تسهيل إحداث تغيير في فلسفة

(*) الجبهة الساندينية للتحرير الوطني: حزب سياسي حكم نيكاراغوا في الفترة من 1979 وحتى 1990. [المحرر].

نظام الملالي وسياسته الخارجية نحو الاعتدال، فإن إيران، بسبب دولتها القوية وفكرتها الديناميكية، ستمتلك الوسائل اللازمة لتحويل أسس الشرق الأوسط كله بعيدا عن التطرف؛ مما يوفر تعبيرا سياسيا عن برجوازية جديدة تحمل قيم الطبقة المتوسطة التي تنامت بهدوء في جميع أنحاء الشرق الأوسط الكبير، والتي حجبها الهوس الأمريكي بتنظيم القاعدة والتطرف، حتى أحداث الربيع العربي في العام 2011⁽³¹⁾.

يتسم الحديث عن المصير بخطورته، لأنه ينطوي على قبول القدر والحتمية، لكن من الواضح أنه بالنظر إلى الجغرافيا والتاريخ ورأس المال البشري الإيراني، يبدو من المرجح أن الشرق الأوسط الكبير، وأوراسيا بالتبعية، سيتأثران بشدة بالتطور السياسي الداخلي في إيران، سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ. إن أفضل مؤشر على أن إيران لم تحقق مثل هذا المصير حتى الآن يكمن فيما لم يحدث بالكامل حتى الآن في آسيا الوسطى. اسمحو لي أن أشرح ما أعنيه: إن الطبيعة الجغرافية لإيران، كما لاحظنا، تمنحها واجهة على آسيا الوسطى بالدرجة نفسها التي تطل بها على بلاد ما بين النهرين والشرق الأوسط. لكن تفكك الاتحاد السوفييتي لم يجلب سوى مكاسب محدودة لإيران، عندما نأخذ في اعتبارنا التاريخ الكامل لإيران الكبرى في المنطقة. إن لاحقة «ستان»، التي تستخدم في أسماء بلدان آسيا الوسطى، والتي تعني «مكان»، هي لفظة فارسية. كما تمثلت قنوات الأسلمة والحضارة في آسيا الوسطى في اللغة والثقافة الفارسييتين. كانت لغة المثقفين والنخب الأخرى في آسيا الوسطى حتى بداية القرن العشرين هي شكل أو آخر من الفارسية. ومع ذلك، كما يخبرنا روي وغيره من الباحثين، فبعد العام 1991، اعتمدت أذربيجان الشيعية الواقعة إلى الشمال الغربي الأبجدية اللاتينية، واتجهت إلى تركيا للوصاية عليها. أما بالنسبة إلى الجمهوريات الواقعة إلى الشمال الشرقي من إيران، فقد توجهت أوزبكستان السنية نحو أساس قومي أكثر من كونه إسلاميا للحكم، خوفا من الأصوليين المحليين: وهذا يجعلها تشعر بالخطر من إيران. أما طاجيكستان، السنية ولكن الناطقة بالفارسية، فتسعى إلى الحصول على الحماية من إيران، لكن إيران تتحفظ عن ذلك خوفا من استعداد كثير من المسلمين الناطقين باللغات التركية في المناطق الأخرى من آسيا الوسطى⁽³²⁾. والأكثر من ذلك أنه بسبب كونهم من البدو الرحل وشبه الرحل، فنادرا ما كان سكان آسيا الوسطى من المسلمين الملتزمين في المقام الأول، ولم تؤد سبعة عقود من

الشيوعية إلا إلى تعزيز توجهاتهم العلمانية. وبالنظر إلى حاجتهم إلى تعلم الإسلام من جديد، فهم يشعرون بالتثبيط والترهيب بسبب نظام الملالي في إيران. وبالتأكيد، كانت هناك تطورات إيجابية من وجهة نظر طهران. إن إيران، كما يشهد برنامجها النووي، هي من بين البلدان الأكثر تقدماً من الناحية التقنية في الشرق الأوسط (بما يتفق مع ثقافتها وسياستها)، وبالتالي فقد بنت العديد من مشروعات توليد الطاقة الكهرومائية والطرق والسكك الحديدية في بلدان آسيا الوسطى، والتي ستربط كل منها بإيران في يوم ما - سواء مباشرة أو عن طريق أفغانستان. وعلاوة على ذلك، فهناك حالياً خط لأنابيب الغاز الطبيعي يربط جنوب شرق تركمانستان بشمال شرق إيران، ناقلاً الغاز التركماني إلى منطقة بحر قزوين في إيران، وبالتالي السماح لطهران بتخصيص إنتاجها من الغاز في جنوب إيران للتصدير عبر الخليج العربي. (يتوافق هذا مع وصلة السكك الحديدية التي بنيت في تسعينيات القرن العشرين، والتي تربط بين البلدين). تمتلك تركمانستان رابع أكبر احتياطيات من الغاز الطبيعي في العالم، لكنها قصرت كامل صادراتها من الغاز إلى إيران، والصين، وروسيا. ومن هنا ينشأ احتمال قيام محور أوراسي للطاقة، والذي توّده الجغرافيا الحاسمة لثلاث قوى قارية كانت جميعها حتى العام 2011 مناهضة للديموقراطية الغربية⁽³³⁾. قامت إيران وكازاخستان ببناء خط لأنابيب النفط يربط بين البلدين، حيث يُضخ النفط الكازاخستاني إلى شمال إيران، على الرغم من أن كمية مساوية من النفط تُشحن من جنوب إيران عبر الخليج العربي. كما سيتم ربط كازاخستان وإيران عن طريق السكك الحديدية، مما يزود كازاخستان بإمكان الوصول المباشر إلى الخليج. ويمكن أيضاً أن يربط خط للسكك الحديدية بين طاجيكستان الجبلية وإيران، عبر أفغانستان. تمثل إيران أقصر الطرق التي يمكن أن تسلكها جميع هذه الدول الغنية بالموارد الطبيعية للوصول إلى الأسواق الدولية.

لنتخيل، إذن، إيران التي تقع بالعرض على مسارات خطوط أنابيب آسيا الوسطى، جنباً إلى جنب مع شبه الإمبراطورية التابعة لها في الشرق الأوسط الكبير. من الواضح أننا نتحدث هنا عن وريث في القرن الحادي والعشرين لمحور الأرض المركزية لماكيندر. ولكن لاتزال هناك مشكلة. بالنظر إلى المكانة التي لا تزال تتمتع بها إيران الشيعية في بعض القطاعات في العالم العربي، فضلاً عن القطاع الشيعي من جنوب لبنان ومن العراق - بسبب الدعم الذي لا يلين من قبل النظام للقضية الفلسطينية - فمن

المهم ألا تنتقل هذه القدرة على جذب الجماهير خارج حدودها إلى آسيا الوسطى بالمثل. من بين القضايا المهمة هنا أن الجمهوريات السوفييتية السابقة تحتفظ بعلاقات دبلوماسية مع إسرائيل، كما تفتقر ببساطة إلى الكراهية تجاه الدولة اليهودية التي قد لاتزال موجودة في كل مكان من العالم العربي، على الرغم من المراحل الأولية للربيع العربي. لكن هناك شيئا أكبر وأعمق يجري بالفعل؛ وهو أمر يحد من جاذبية إيران ليس فقط في آسيا الوسطى، بل وفي العالم العربي أيضا. وهذا الشيء هو استمرار الحكم الخانق لرجال الدين، والذي على الرغم من أنه مؤثر بالمعنى السلبي - أي استخدام تقاليد الدولة الإيرانية القوية لسحق المعارضة الديمقراطية بدهاء - فقد قلل أيضا من الجاذبية اللغوية والكوزموبوليتانية التي حظيت بها على مر التاريخ إيران الكبرى، بالمعنى الثقافي. لقد اختفت الألوان الصاخبة من المشهد الإيراني في ظل هذا النظام، وحل محلها اللونان الأسود والأبيض.

قبل عدة سنوات، كنت في عشق أباد، عاصمة تركمانستان، التي تلوح في الأفق دائما، من موقعها الشبيه بنقطة المراقبة، طهران ومشهد عبر الحدود في خراسان الإيرانية كمركزين عالميين للتجارة والحج، في تناقض صارخ مع مشهد البداوة السائد في تركمانستان ذات الكثافة السكانية المنخفضة. ولكن في حين تسير المفاوضات السياسية حول التجارة وخطوط الأنابيب على قدم وساق، فإن إيران لا تحمل أي سحر حقيقي، أو أي جاذبية حقيقية لدى التركمان المسلمين، الذين هم علمانيون في معظمهم، والذين ينفرهم الملاي. وعلى الرغم من النفوذ الواسع الذي تحظى به إيران بسبب تحديها المباشر لأمريكا وإسرائيل، فإنني لا أعتقد أننا سوف نرى الجاذبية الحقيقية لإيران، في كل مجدها الثقافي، حتى يتحرر النظام. إن وجود إيران ديمقراطية أو شبه ديمقراطية، وتحديدًا بسبب القوة الجغرافية للدولة الإيرانية، يحمل إمكانية تحفيز مئات الملايين من إخوانهم المسلمين في كل من العالم العربي وآسيا الوسطى.

من الممكن مساعدة الليبرالية العربية السنية الصاعدة، ليس فقط بسبب المثل الغربي، أو بسبب وجود عراق ديمقراطي على الرغم من كونه مختلا، ولكن أيضا بسبب التحدي الذي تفرضه إيران الليبرالية حديثا والشيوعية الاصطفائية eclectic تاريخيا. وربما كان بوسع إيران مثل هذه أن تفعل ما فشل في تحقيقه عقدان من الديمقراطية الغربية وتعزيز مشاركة المجتمع المدني بعد الحرب الباردة، أي أن تؤدي إلى تخفيف كبير في القيود التي تفرضها الدول البوليسية في بلدان آسيا الوسطى السوفييتية السابقة.

ولبعض الوقت، تمكّن النظام الشيعي في إيران من إلهام المجموعات المهمّشة من السّنة المؤمنين والمضطهدين في جميع أنحاء الشرق الأوسط للثورة ضد حكوماتهم الفرعونية المنهكة، والتي سقط بعضها بالفعل منذ ذلك الحين. ومن خلال رسالتها المتشددة وأجهزتها الاستخباراتية الذكية، تمكنت إيران لفترة طويلة من إدارة إمبراطورية غير تقليدية، بعد حداثيّة، من الكيانات الإقليمية، بما في ذلك حركة حماس في فلسطين وحزب الله في لبنان، وجيش المهدي في جنوب العراق. ومع ذلك فقد ازدادت بهدوء مشاعر الكراهية للنظام الإيراني في الوطن ضمن كثير من الأوساط، حيث كان مفهوم الثورة الإسلامية، الذي عايشه الإيرانيون بالفعل، يعني انقطاع التيار الكهربائي، وتدمير العملة المحلية، وسوء الإدارة. إن المعركة على أوراسيا، كما أوضحت، تضم العديد من الجبهات، وجميعها متشابكة بعضها مع بعض بشكل متزايد. لكن الأولى بين هذه الجبهات المتساوية هي محاولة كسب قلوب وعقول الإيرانيين، الذين يشكلون، جنباً إلى جنب مع الأتراك، أكثر المجموعات السكانية تطوراً في العالم الإسلامي. وهنا يلتقي صراع الأفكار بالإملاءات التي تفرضها الجغرافيا: فهذا هو المكان الذي تلتقي فيه الإنسانية الليبرالية التي وضعها أشعيا برلين مع شبه الحتمية التي تصورها هالفورد ماكيندر.

وكما يبدو أن قوى الجغرافيا لا تُقاوم إضافة إلى كونها ساحقة، فلا يزال هناك الكثير من الأمور المعلقة. ولنأخذ، على سبيل المثال، قصة الفاتح الأمعي نادر شاه، الذي حكم في القرن الثامن عشر خلال الحقبة بعد الصفوية. وعلى الرغم من أنه ذو أصول تركية Turkic، إذ يتحدر من خراسان في شمال شرق إيران، فقد امتدت الإمبراطورية الفارسية لنادر شاه من منطقة القوقاز إلى نهر السند. وقد حاصر العديد من البلدان مثل بغداد، والبصرة، وكرّوك، والموصل، وقندهار، وكابل، وهي الأماكن التي تورطت فيها أمريكا في أوائل القرن الحادي والعشرين، والتي نادراً ما كانت بعيدة عن الحكم الإيراني. وكما كتب مايكل أكسوردي، لو لم يكن نادر شاه قد صار مختل العقل خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته، فلربما استطاع أن يجعل إيران «دولة متعصرنة قادرة على مقاومة التدخل الاستعماري» لكل من البريطانيين والروس في القرن التاسع عشر. ولكن بدلاً من أن يذكره التاريخ باعتباره بطرس الأكبر الفارسي، والذي ربما كان سيغير بشكل كبير من التاريخ الإيراني منذ ذلك الحين نحو الأفضل، فقد انتهى نظامه بفوضى وكارثة اقتصادية⁽³⁴⁾.

ثمّة مثال آخر، وهو سقوط الشاه في العام 1979. قال لي هنري كيسنجر ذات مرة إنه لو كانت إدارة جيمي كارتر قد تعاملت مع التمرد ضد الشاه في أواخر سبعينيات

القرن العشرين بصورة أكثر فعالية، فلربما كان الشاه قد نجا، ولكانت إيران الآن مثل كوريا الجنوبية، بامتلاكها نظاما ديناميكيا وديموقراطية متطورة على نحو غير مكتمل، والتي لديها دائما خلافات طفيفة مع الولايات المتحدة، لكنها تبقى حليفة لها في الأساس. كان نظام الشاه، في رأيه، قادرا على الإصلاح، لاسيما في ضوء الثورات الديموقراطية في الإمبراطورية السوفيتية التي ستأتي بعد عقد واحد من الزمان. وعلى الرغم من أن إلقاء اللوم في سقوط الشاه على الرئيس كارتر قد يكون سطحيا للغاية، فإن الاحتمالات التي تثيرها حتى نتيجة مختلفة قليلا للثورة الإيرانية لاتزال مثيرة للاهتمام. من يدري؟ ما أعرفه هو أنني عندما سافرت في جميع أنحاء إيران في تسعينيات القرن العشرين، بعد أن جئت أخيرا من مصر، كانت الدولة الأولى أقل بكثير من حيث مناهضة الولايات المتحدة ومعاداة إسرائيل من تلك الأخيرة. امتدت علاقة إيران الحميدة نسبيا مع اليهود منذ العصور القديمة وحتى عهد الشاه الراحل. ينطوي سكان إيران على كل من الأمل والاحتمالات.

أو لنأخذ مثال الفرصة التي أتاحت للولايات المتحدة في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001، عندما دان كل من آية الله علي خامنئي والرئيس محمد خاتمي إرهاب تنظيم القاعدة السني بعبارات لا لبس فيها، كما نظم الإيرانيون وقفات احتجاجية للترحم على الضحايا في شوارع طهران، على الرغم من أن حشودا هلت ابتهاجا بالهجمات في بعض أجزاء من العالم العربي؛ أو المساعدة التي قدمتها إيران للتحالف الذي قاده الولايات المتحدة ضد طالبان في وقت لاحق من ذلك العام، أو العرض الإيراني لاجراء محادثات مصيرية بعد سقوط بغداد في ربيع العام 2003. وتمثل هذه كلها مؤشرات تدل على أن التاريخ، حتى هذه النقطة من الزمن، لم يكن في حاجة إلى أن يسير في الاتجاه الذي سار إليه، فقد كانت هناك نتائج ممكنة أخرى. تفرض الجغرافيا أن تمتلك إيران أهمية محورية لخطوط الاتجاهات السائدة في الشرق الأوسط الكبير وأوراسيا، كما قد تفرض الكيفية التي ستكون بها محورية، لكنها لا تستطيع إملاء الغرض الذي ستكون من أجله محورية، فهذا أمر يتعلق بقرارات الرجال.

أثناء كتابة هذه السطور، ولكونها وفيّةً للتقاليد الإمبريالية المبتكرة لماضيها في العصور الوسطى والقديمة، فقد أقامت إيران ببراءة إمبراطورية عسكرية بعد

حدثية، وهي الأولى من نوعها: واحدة من دون مستعمرات ومن بدون الدبابات، والمدرعات، وحاملات الطائرات التي تمثل المرافقات المعتادة للسلطة. وبدلاً من الإمبريالية النمطية - المتمثلة في الغزو والاحتلال - فإن إيران، كما أشار إليه المؤلف والضابط الميداني السابق في وكالة الاستخبارات المركزية، روبرت باير Baer، هي قوة عظمى في منطقة الشرق الأوسط بفضل وجود «استراتيجية ذات ثلاث شعب للحرب بالوكالة، والأسلحة غير المتكافئة، واكتساب تعاطف... المضطهدين»، لاسيما جحافل الذكور من الشبان المحبطين. إن حزب الله، كما أشار إليه باير، «هو الدولة المفروضة بحكم الأمر الواقع» هناك، مع ثقل عسكري وتنظيمي أكثر، والتزام طائفي أكبر مما تمتلك السلطات الرسمية في بيروت. وفي غزة، فإن المساعدات العسكرية والمالية الشيعية الإيرانية السرية، إضافة إلى «رسالتها الفجة المناهضة للاستعمار»، قد أغرت الفلسطينيين الفقراء المحاصرين في ظروف أشبه بنظام الفصل العنصري في سويتو Soweto-like^(*)، والمعزولين عن الدول العربية السنية المجاورة التي يحكمها أمثال الرئيس السابق مبارك⁽³⁵⁾. إن إيران، التي تبعد بألف ميل إلى الشرق، شعرت بأنها أقرب إلى هؤلاء الفلسطينيين المضطهدين. كان هذا، أيضاً، مثالا على العبقرية الإيرانية. وبالإضافة إلى ذلك، وعلى الأقل حتى العام 2011، كانت هناك حكومتان صديقتان في سورية والعراق، حيث تشبثت الأولى بإيران من أجل وجودها نفسه، لأنها حليفها الحقيقية الوحيدة، أما الأخيرة فكانت مؤسستها السياسية مخترقة من قبل الاستخبارات الإيرانية، التي كان بوسعها المساعدة على تحقيق الاستقرار في البلاد أو زعزعة استقرارها، كما يحلو لها. وأخيراً، هناك الخليج العربي نفسه، حيث إيران هي القوة الرئيسية الوحيدة بسواحلها الطويلة والمتكسرة، في مقابل الإمارات العربية الصغيرة والضعيفة نسبياً، والتي تستطيع طهران بمفردها أن تهزم كل واحدة منها عسكرياً، أو الإضرار بها اقتصادياً من خلال رعاية الإرهاب في مضيق هرمز.

على الرغم من كونه بغضاً ومرعباً، فهذا العنصر الأهم، مرة أخرى، والمتعلق بالتنوير، كان غائباً. وخلافاً للإمبراطوريات الأخمينية، والساسانية، والصفوية، والإمبراطوريات الإيرانية الأخرى في الأيام الخوالي، التي كانت إما حميدة أو مُلهمة

(*) Soweto: اسم مركب من أول حرفين في كل من الكلمات: South Western Townships، وهي منطقة مدنية من مناطق ومدينة جوهانسبرغ في جنوب أفريقيا. [المحرر].

حقاً من الناحيتين الأخلاقية والثقافية على حد سواء، فإن إمبراطورية العقل الإيرانية الحالية هذه تحكم في الغالب بدافع الخوف والترهيب، من خلال الانتحاريين بدلاً من الشعراء. ويؤدي هذا إلى تقليص قوتها وينذر بسقوطها في الوقت نفسه.

إن إيران، بثقافتها الغنية، ومساحة أرضها الشاسعة، ومدنها المكتظة والمتنامية الأطراف، على غرار الصين والهند، تمثل كَوْنًا في حد ذاتها، والذي سيتحدد مستقبله على نحو ساحق بفعل السياسات الداخلية والأوضاع الاجتماعية. ولكن إذا كان للمرء أن يستفرد محوراً واحداً عند التفكير في مصير إيران، فسيكون العراق. إن العراق، كما يُخبرنا التاريخ والجغرافيا، مُكتنف في السياسة الإيرانية بدرجة لا تحظى بها أي دولة أجنبية أخرى. أدى الضريحان الشيعيان للإمام علي (ابن عم النبي وصهره) في النجف، وللإمام الحسين (حفيد النبي) في كربلاء، وكلاهما في وسط جنوب العراق، لإنشاء مجتمعين لاهوتين شيعيين ينافسان مدينة قم في إيران. ولو تمكنت الديمقراطية العراقية من ضمان حتى الحد الأدنى من الاستقرار، فمن الممكن لوجود مناخ فكري أكثر حرية في المدن العراقية المقدسة أن يؤثر في السياسة الإيرانية. وبمعنى أوسع، فإن وجود عراق ديمقراطي سيكون بمنزلة قوة جاذبة يمكن للإصلاحيين الإيرانيين الاستفادة منها في المستقبل. ومع تورط الإيرانيين في السياسة العراقية بعمق أكثر، فإن التشابه بين البلدين بحدودهما الطويلة والمشاركة يمكن أن يعمل على تقويض الأشد قمعاً من النظامين. ستزداد السياسة الإيرانية شراسة بفعل التفاعل مع المجتمع التعددي الشيعي ذي الأصول العرقية العربية. ومع استمرار تكشف الأزمة الاقتصادية الإيرانية للعيان، فقد ينفجر الإيرانيون العاديون غضباً على مئات الملايين من الدولارات التي تُنفق من قبل حكومتهم لشراء النفوذ في العراق، ولبنان، وأماكن أخرى؛ فضلاً عن كيف ستزداد الكراهية للإيرانيين داخل العراق، كمقابل لـ «الأمريكيين البشعيين». ترغب إيران ببساطة في الاستفادة من الأحزاب الشيعية العراقية في مواجهة تلك السنية. لكن ذلك ليس ممكناً على الإطلاق، لأن ذلك من شأنه تضيق الشمولية الإسلامية الراديكالية التي تسعى إلى تمثيلها في عموم العالم السني إلى طائفية لا جاذبية لها خارج مجتمع الشيعة. وبالتالي، فقد تعلق إيران في محاولتها للمساعدة في صياغة تحالفات هشة بين السنة والشيعة في العراق، وإبقائها فاعلة على الدوام، على الرغم من تزايد مشاعر الكراهية لدى العراقيين بسبب التدخل في شؤونهم الداخلية. من دون تبرير الطريقة التي خطط ونفذ بها غزو العراق في العام 2003، أو

تسويغ تريليونات الدولارات التي أنفقت ومئات الآلاف من الأرواح التي أزهقت في زمان ومكان هذه الحرب، قد يكون الأمر أن سقوط صدام حسين قد استهل عملية من شأنها أن تؤدي إلى تحرير بلدين اثنين؛ وليس واحدة. وكما أن الجغرافيا سهلت الاستعمار الإيراني الخفي للسياسة العراقية، فمن الممكن للجغرافيا أيضا أن تمثل عاملا محرّضا لتأثير العراق في إيران.

إن احتمال حدوث تغيير - أو تطور - سلمي في النظام الحاكم في إيران، على الرغم من الإخفاق المؤقت للحركة الخضراء، لايزال الآن أكبر مما كان عليه في الاتحاد السوفييتي خلال معظم فترة الحرب الباردة. إن إيران المحررة، إلى جانب وجود حكومات أقل استبدادية في العالم العربي - وهي حكومات ستركز أكثر على القضايا المحلية بسبب انعدام الأمن فيها - من شأنها أن تشجع وجود توازن أكثر تعادلا وسلاسة في القوة بين السنة والشيعة في الشرق الأوسط: الأمر الذي سيساعد على جعل المنطقة منشغلة بعصبية بنفسها، ووفقا لديناميات القوة الداخلية والإقليمية الخاصة بها، أكثر بكثير من التركيز على أمريكا وإسرائيل.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن وجود نظام أكثر ليبرالية في طهران سيحدث متصلا ثقافيا واسعا جديرا بالإمبراطوريات الفارسية القديمة: والذي لن يكون مقيدا بفعل قوى استجابة رجال الدين.

إن إيران الأكثر ليبرالية، بالنظر إلى الأقليات الكردية، والأذرية، والتركمانية الكبيرة، وغيرها، سواء في الشمال أو في المناطق الأخرى، قد تكون أيضا إيران المحكومة بصورة أقل مركزية، مع انجراف أطرافها العرقية بعيدا عن مدار طهران. كانت إيران في كثير من الأحيان دولة منظمة أقل من كونها إمبراطورية غير منظمة ومتعددة الجنسيات، كما أن حجمه الحقيقي سيكون دائما أعظم وأصغر من أي رسم للخرائط معترف به رسميا. وفي حين أن شمال غرب إيران اليوم يهيمن عليه الأكراد والأذريون الأتراك، فإن أجزاء من غرب أفغانستان وطاجيكستان هي متوافقة ثقافيا ولغويا مع دولة إيرانية. إن حالة انعدام الشكل هذه، الشبيهة للغاية بمملكة بارثيا القديمة، هي ما يمكن لإيران أن تعود إليه مع انحسار موجة التطرف الإسلامي وتآكل الشرعية المتصورة لنظام الملالي⁽³⁶⁾.

الإمبراطورية العثمانية السابقة

إذا كانت الهضبة الإيرانية تمثل الجغرافيا الأكثر محورية في الشرق الأوسط الكبير، فإن الجسر البري للأناضول، أو آسيا الصغرى، يليها في الأهمية بطبيعة الحال. وكما أن الهضبة الإيرانية مغطاة بالكامل ببلد واحد، هو إيران، فكذلك الحال مع جسر الأناضول البري، الذي تغطيه تركيا. معا، يفخر هذان البلدان، اللذان تحدهما الجبال والهضاب المطلة على الصحراء العربية من الشمال، بعدد سكان إجمالي يبلغ نحو 150 مليون نسمة، وهو ما يزيد قليلا على سكان جميع الدول العربية الاثنتي عشرة الواقعة إلى الجنوب منهما، والتي تكون منطقتي الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية، وبالتالي، ينبغي على المرء أن يضيف مصر وبقية بلدان شمال أفريقيا التي تمتد حتى المحيط الأطلسي من أجل أن يتفوق العرب ديموغرافيا على ثقل تركيا وإيران.

«طوال سنوات، كانت تركيا
بتنفس عزلة إسرائيل تقريبا في
الشرق الأوسط.»

المؤلف





مفتاح الخريطة:

Tunisia	تونس
Mediterranean sea	البحر الأبيض المتوسط
Greece	اليونان
Ukraine	أوكرانيا
Black sea	البحر الأسود
Turkey	تركيا
Anatolia	الأناضول
Cyprus	قبرص
Lebanon	لبنان
Israel	إسرائيل
Jordan	الأردن
Egypt	مصر
Libya	ليبيا
Sahara desert	الصحراء الكبرى
Africa	أفريقيا
Miles	أميال
Km	كلم
Red sea	البحر الأحمر
Sea of Azov	بحر آزوف
Russia	روسيا
Caucasus	القوقاز
Caspian sea	بحر قزوين
Azerbaijan	أذربيجان
Harran plateau	هضبة حران
Syria	سورية
Tigris r.	نهر دجلة
Euphrates r.	نهر الفرات
Iraq	العراق
Syrian desert	الصحراء السورية
Saudi Arabia	المملكة العربية السعودية
Arabian peninsula	شبه الجزيرة العربية
Yemen	اليمن
Oman	عمان

Gulf of Aden	خليج عدن
Arabian Sea	بحر العرب
United Arab Emirates	الإمارات العربية المتحدة
Tropic of Cancer	مدار السرطان
Gulf of Oman	خليج عمان
Qatar	قطر
Bahrain	البحرين
Persian gulf	الخليج العربي
Kuwait	الكويت
Zagros mts.	جبال زاغروس
Iran	إيران
Iranian plateau	الهضبة الإيرانية
Pakistan	باكستان
Afghanistan	أفغانستان
Turkmenistan	تركمانيستان
Uzbekistan	أوزبكستان

وبالتالي، فقد عملت الخصائص الديموغرافية التركية على إبراز أهمية الجغرافيا التركية. تتسم هضبة الأناضول بأنها أبعد عن الأراضي المركزية للشرق الأوسط من الهضبة الإيرانية، كما أن الترتيب المكاني الشمالي الغربي للسكان الأتراك خلال القرون الأخيرة قد زادها بُعداً. كان التشرذم السياسي في أوروبا نفسها عاملاً ميسراً لغزوات الجيش العثماني على أوروبا الوسطى، والتي كانت لها نكهة القبائل الرحالة، والتي بلغت ذروتها في العام 1683، مع حصار فيينا. كان تركيز فرنسا، وبريطانيا العظمى، وإسبانيا منصباً على هزيمة بعضها بعضاً، وعلى مستعمراتها في العالم الجديد على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. كانت البندقية Venice عالقة في صراع طويل مع جنوة؛ كما كانت البابوية مكتنفة في أزمات أخرى؛ وانقسم السلاف في جنوب البلقان ضد أنفسهم، فيما يمثل حالة أخرى من الجغرافيا الجبلية التي تشجع الانقسام الاجتماعي والسياسي. وأخيراً، وكما كتب المراسل الأجنبي في أوائل القرن العشرين، هربرت آدمز غيبونز Gibbons: «انطلاقاً من أوروبا، يمكن غزو آسيا الصغرى وأكثر منها: أما من آسيا، فلا يمكن غزو أي جزء من أوروبا»⁽³⁾. كان

يعني بذلك أنه من أجل توحيد حقيقي للمساحات الشاسعة الجرداء في الأناضول والتوسع إلى منطقة الشرق الأوسط، احتاج الأتراك العثمانيون أولا إلى الثروة التي لا يمكن أن يوفرها سوى غزو البلقان. ومما سهّل هذا الترتيب المتناغم بين أوروبا والشرق الأوسط، كان موقع العاصمة العثمانية القسطنطينية، وهي مرفأ آمن يتيح الوصول إلى منطقة البلقان والبحر المتوسط، وشمال أفريقيا، بالإضافة إلى كونها محطة لطرق القوافل الآتية من بلاد فارس والقوقاز، وما وراءها.

وانطلاقا من هذه الجغرافيا جاءت الإمبراطورية المترامية الأطراف والمتعددة الجنسيات التي كانت تحتضر بحلول أخريات القرن التاسع عشر، مع زهوق روح السلطنة العثمانية في أعقاب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. أما مصطفى كمال أتاتورك (أبو الترك)، وهو الجنرال العثماني الوحيد الذي لم تُهزم قواته، والذي بنى دولة عصرية في الأناضول بعد الخسائر الإمبراطورية في البلقان والشرق الأوسط، فقد كان ثوريا أصيلا: بمعنى أنه غير منظومة القيم لدى شعبه. وقد تكهن بأن القوى الأوروبية قد هزمت الإمبراطورية العثمانية ليس بسبب امتلاكها جيوشا أضخم بل بسبب حضارتها الأعظم، والتي أنتجت الجيوش الأكبر. ولذلك قال إن تركيا ستكون غربية من الآن فصاعدا، بحيث تتوجه ثقافيا وسياسيا نحو أوروبا. وهكذا، ألغى المحاكم الدينية الإسلامية، وحظر على الرجال ارتداء الطربوش، ومنع النساء من ارتداء الحجاب، واستبدل الحروف العربية بتلك اللاتينية. ولكن على الرغم من كون هذه الأفعال ثورية، فقد مثلت أيضا تنويعا للافتتان التركي بأوروبا، والذي يرجع إلى قرون. وعلى الرغم من أن تركيا ظلت محايدة خلال معظم فترات الحرب العالمية الثانية، فإن الكمالية Kemalism - وهي المذهب العلماني الموالي للغرب الذي وضعه كمال أتاتورك - قد وجهت الثقافة التركية، خصوصا سياستها الخارجية، حتى نهاية العقد الأول بعد انتهاء الحرب الباردة. وفي الواقع أن تركيا ظلت سنوات تأمل في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وهو هاجس أظهره لي المسؤولون الأتراك خلال عديد من زياراتي إلى البلاد في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين. ولكن في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، صار واضحا أن تركيا قد لا تنال العضوية الكاملة في الاتحاد الأوروبي مطلقا. كان السبب فظا ومعبقا بالحتمية الجغرافية والثقافية: فعلى الرغم من أن تركيا دولة ديمقراطية وعضو في منظمة حلف شمال

الأطلسي (الناقو)، فإنها أيضا دولة مسلمة، وبالتالي غير مرغوبة. كان الرفض صدمة للجسم السياسي التركي. والأهم من ذلك أنه اندمج مع التوجهات المجتمعية الأخرى التي كانت في خضم إصدار عملية تصحيحية كبرى في تاريخ وجغرافية تركيا.

وفي الواقع أن التوجه الأوروبي الذي فرضه أتاتورك على تركيا ينطوي على تناقض: لقد ولد أتاتورك وترعرع في سالونيك الواقعة في شمال اليونان، بين الإغريق واليهود وغيرهما من الأقليات. وبعبارة أخرى، فقد كان رجلا أوروبيا، كما كانت سالونيك في أواخر القرن التاسع عشر موقعا متعدد اللغات للكوزموبوليتانية. وبالمثل، كان تعريف أتاتورك للجنسية عصريا بشكل لافت للنظر، إذ إنه كثيرا ما صرح بأن كل من يقول إنه تركي، ويتحدث التركية، ويعيش في تركيا فهو تركي، حتى لو كان يهوديا أو مسيحيا. وقد نقل العاصمة إلى أنقرة، في قلب الأناضول، من إسطنبول (القسطنطينية) الواقعة في تركيا الأوروبية، نظرا إلى ارتباط إسطنبول بالنظام القديم. بيد أنه لم يبذل أي جهد لاستعادة المقاطعات العثمانية المفقودة في البلقان أو في الشرق الأوسط: وبدلا من ذلك، فقد تمثلت إستراتيجيته في بناء دولة تركية غير عرقية انطلاقا من قلب الأناضول، والتي سيكون توجهها قويا نحو أوروبا والغرب. كان حامل الشعلة الكمالية هو الجيش التركي، إذ إن الديمقراطية الأصلية كانت شيئا لم تقترب منه الكمالية طوال حياة أتاتورك. كانت المشكلة، والتي ستستغرق عقودا لكي تتضح معالمها، هي أنه من خلال التركيز على الأناضول، فقد أكد من دون قصد الحضارة الإسلامية، التي كانت متجذرة بعمق في آسيا الصغرى أكثر مما كانت عليه الحال في تركيا الأوروبية التي تضم القسطنطينية والسلطنة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الديمقراطية، كونها تطورت في تركيا بصورة متقطعة وغير منتظمة بين انقلابات عسكرية دورية، فقد سلمت الامتياز الانتخابي إلى كتلة من الأتراك الوريثين المنتمين إلى الطبقة العاملة في المناطق النائية للأناضول.

وعلى مدى العقود القليلة الأولى من وجود الجمهورية التركية، تركزت الثروة والسلطة لدى الجيش ومع أفراد النخبة العلمانية المتطرفة في إسطنبول. وخلال هذه الفترة، امتلك المسؤولون الأمريكيون ترف إعلان الحالة الديمقراطية في تركيا على الرغم من أن الجنرالات الأتراك كانوا هم المسؤولين عن سياستها الخارجية الموالية للغرب. لكن ذلك بدأ يتغير في أوائل ثمانينيات القرن العشرين،

عندما نفذ رئيس الوزراء المنتخب حديثا، تورغوت أوزال Ozal، وهو مسلم متدين ذو ميول صوفية ينتمي إلى وسط الأناضول، سلسلة من الإصلاحات التي حررت الاقتصاد الدولاني statist. جرت خصخصة عدد كبير من الشركات الكبرى، كما خُففت الضوابط المفروضة على الاستيراد. أدى هذا إلى خلق طبقة متوسطة من حديثي الثراء، والمؤلفة من المسلمين الملتزمين الذين يمتلكون سلطة سياسية حقيقية. ومع ذلك، فقد تمثلت عبقرية أوزال خلال السنوات الأخيرة من الحرب الباردة في البقاء مرتبطا من الناحية السياسية بالغرب، على الرغم من أنه خفف التوجهات الفائقة العلمانية للكمالية لإعطاء المسلمين المتدينين دورا أكبر في النظام. أصبحت تركيا أكثر تأسلا Islamist وأكثر ميلا إلى الأمريكيين في الوقت نفسه. سمحت إسلاموية Islamism أوزال له بالوصول إلى الأكراد، الذين كانوا متحدين مع الأتراك في الدين لكنهم منقسمون عرقيا. أما الجنرالات الأتراك، الذين كانوا منزعين للغاية من تدين أوزال، فقد احتفظوا بسيطرتهم على سياسة الأمن القومي، والتي لم ينازعهم فيها أوزال، لأنه والجنرالات كانوا متفقين بصورة عامة على وجود تركيا باعتبارها حصن حلف الناتو في الأرض المحورية لأوراسيا، التي تصورها سبيكمان، والذي يقف في مواجهة الاتحاد السوفيتي.

بيد أن أوزال توفي فجأة في العام 1993 عن عمر يناهز الخامسة والستين، بعد أن قضى عشر سنوات رئيسا للوزراء ورئيسا للبلاد. وكانت لهذا تداعيات عميقة بالنسبة إلى مستقبل تركيا، وهو مثال آخر على الكيفية التي تؤثر بها حياة وموت الأفراد من الرجال والنساء في مصير الجغرافيا السياسية بقدر ما تفعل الجغرافيا، والتي تحتفظ بتفوقها أساسا بسبب ديمومتها. ولأن أوزال نفسه كان يحمل عددا من التناقضات الواضحة - أي محاباة الإسلاموية والموالة لأمريكا - فقد حطم موته إجماعا وطنيا واهيا، على الرغم من أن هذا قد استغرق عدة سنوات لكي تتكشف ملامحه. ولمدة عشر سنوات بعد وفاة أوزال، كان قادة تركيا من العلمانية غير الملهمين، على الرغم من أن القوة الاقتصادية والتقوى الإسلامية قد واصلت ازدهارها في الأرض المركزية الأناضولية. وفي أواخر العام 2002، فقدت النخبة العلمانية التي يحتسي أفرادها الويسكي مصداقيتها، وأسفرت الانتخابات عن منح الأغلبية البرلمانية المطلقة لحزب العدالة والتنمية الإسلامي بقيادة رجب طيب أردوغان Erdogan، الرئيس السابق لبلدية إسطنبول. أما إسطنبول، فعلى

الرغم من كونها موطنًا للنخبة العلمانية، فقد كانت أيضًا موطنًا لملايين الفقراء الأتراك المتدينين الذين هاجروا من ريف الأناضول بحثًا عن فرص عمل يشقون بها طريقهم إلى صفوف الطبقة المتوسطة الدنيا؛ كان هؤلاء الملايين هم من منحوا أردوغان أصواتهم. وعندما تولى أردوغان السلطة، منح السلطة لموجة من الإسلاموية، التي عمل أوزال على تقويتها، والتي كانت تتسلل عائدة إلى الحياة التركية تحت شاشة رادار الكمالية الرسمية. في العام 1945، كان هناك 20 ألف مسجد في تركيا؛ أما في العام 1985، فقد وصل عددها إلى 72 ألفًا، كما ارتفع هذا العدد بشكل مطرد منذ ذلك الحين، وبصورة غير متناسبة مع الزيادة في عدد السكان. ووفقًا لبعض الدراسات، فإن نحو ثلثي الأتراك من الطبقة العاملة الحضرية يصلون يوميًا، فضلًا على معظم الأتراك في المناطق الريفية، كما ارتفعت هذه النسب المئوية أكثر خلال السنوات الأخيرة⁽⁴⁾. لقد تنافست النزعة الإسلامية التي أعيد إحيائها بشكل جيد للغاية مع الأيديولوجيات العلمانية اليمينية (الفاشية) واليسارية (الماركسية) «باعتبارها منقذا للشباب المحبطين في المناطق الحضرية»، والذين لم تكن الكمالية بالنسبة إليهم بمنزلة «نظام اجتماعي - أخلاقي» يسترشدون به في الحياة اليومية، كما كتب المؤلف والصحافي الذي يعيش في لندن، ديليب هيرو Hiro. وبمجرد أن ترسخت جذور القومية الطبيعية المرتبطة بالإسلام، فقدت الكمالية تدريجياً «مبررات وجودها»⁽⁵⁾.

ومع ذلك، فعندما صوت البرلمان التركي في مارس 2003 ضد السماح للقوات الأمريكية بالمرور عبر تركيا لغزو العراق، لم يكن حزب العدالة الإسلامي حقا هو الذي أضعف الموقف الأمريكي، بل العلمانيون، الذين كانوا، عند هذه النقطة، قد انضموا إلى الأوروبيين في معاداتهم للولايات المتحدة كرد فعل على الخطاب الصريح بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وعلى تصرفات إدارة جورج دبليو بوش Bush. وكذلك فإن النتائج الكارثية لغزو العراق، والتي أدت إلى حرب طائفية داخل العراق، على الرغم من عدم العثور على أسلحة للدمار الشامل، قد تزامنت تقريبا مع إدراك أن تركيا لن تقبل في الاتحاد الأوروبي. وكانت نتيجة هذه الأحداث الدرامية - التي جاءت في وقت امتلكت فيه تركيا حكومة جديدة تتمتع بالشعبية، وذات جذور إسلامية عميقة - هي تحوّل البندول السياسي والثقافي للبلاد بشكل كبير نحو الشرق الأوسط وبعيدا عن الغرب، وذلك لأول مرة منذ قرون بالفعل.

ومعنى من المعاني، كما قلْتُ، فقد حاا المكر السيئ للولايات المتحدة بها؛ فعلى مدى عقود، نادى القادة الأمريكيون بتركيا الديمقراطية باعتبارها معقل حلف الناتو في منطقة الشرق الأوسط، والمؤيدة لإسرائيل، على الرغم من أنهم كانوا يعرفون أن السياسة الخارجية والأمنية التركية في يد جيشها. وأخيرا، وفي أوائل القرن الحادي والعشرين، برزت تركيا بوصفها ديموقراطية سياسية، واقتصادية، وثقافية حقيقية، والتي تعكس الطابع الإسلامي لمعظم الأتراك، فيما كانت النتيجة تركيا مناهضة لأمريكا نسبيا، ومعادية لإسرائيل.

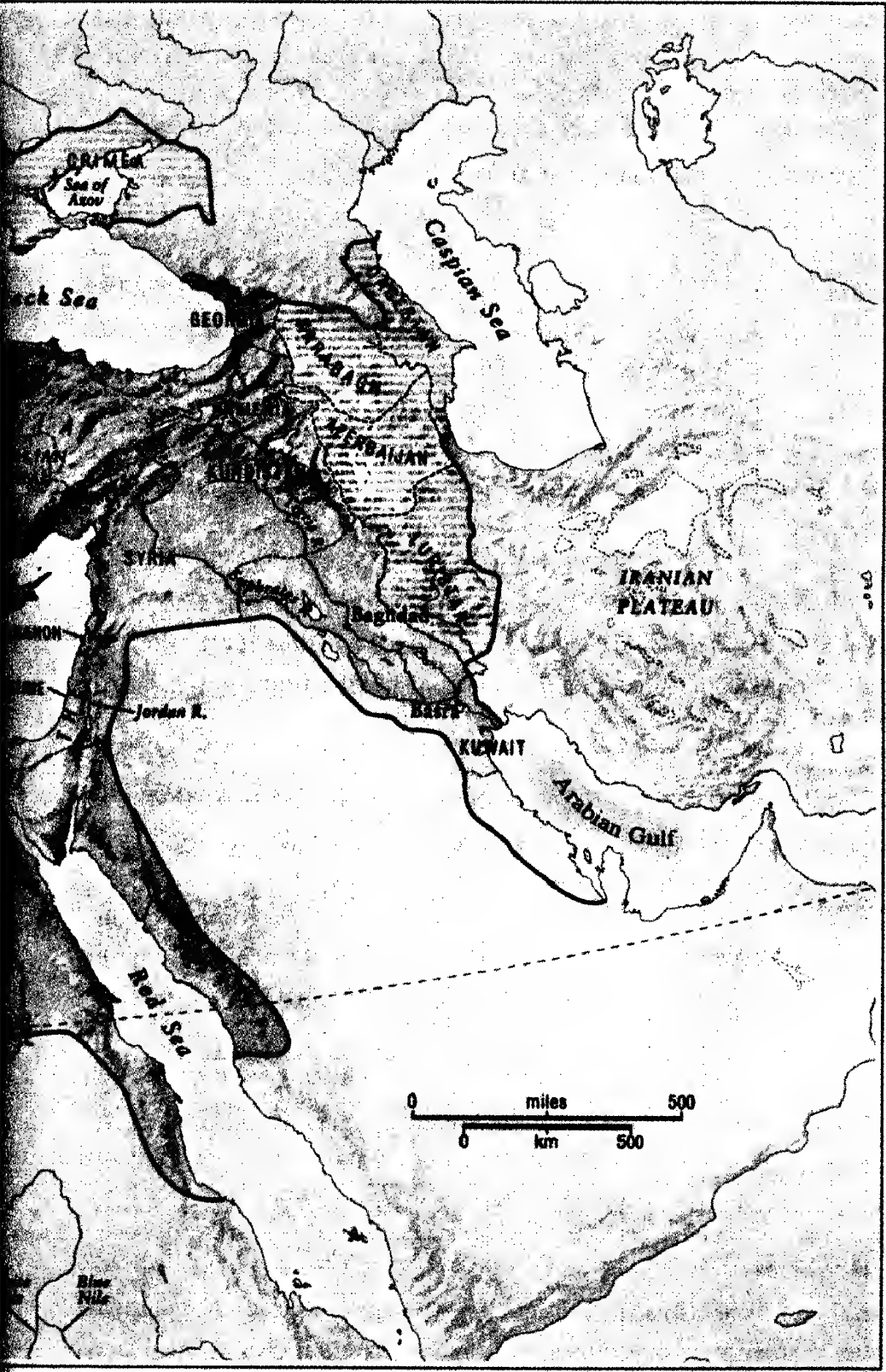
وفي خريف العام 1998، وفي مدينة قيصري Kayseri في وسط الأناضول، أجريت مقابلات صحافية مع أهم القادة الإسلاميين في تركيا، بمن فيهم عبدالله غول Gul، الرئيس التركي الحالي. كانت المناسبة هي لقاء وتجمع لحزب الفضيلة، الذي حل لاحقا، ومن ثم فقد أعاد تنظيم نفسه باحتباره حزب العدالة. وكان حزب الفضيلة نفسه يمثل بعثا لحزب الرفاه الإسلامي، الذي لم تلوثه اتهامات الفساد وسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية التي كانت موجودة تحت الحكم الإسلامي العثماني. وفي تقريرى عن تلك الاجتماعات، الذي نشر في العام 2000، أصبت في أمر كبير، كما أخطأت في أمر جسيم. أما الأمر الكبير الذي أصبت فيه فهو أن هؤلاء الناس، على الرغم من كونهم حزبا للأقلية، كانوا على وشك أن يصبحوا أغلبية في غضون سنوات قليلة. كان موضوعهم الأساسي هو الديمقراطية: فكلما ازدادت تركيا ديموقراطية، ازدادت قوة الإسلاميين؛ لأنهم ربطوا بين الغرب وبين هيكل السلطة العسكرية الاستبدادي في تركيا، والذي كان مدعاة للسخرية، لكنه صحيح.

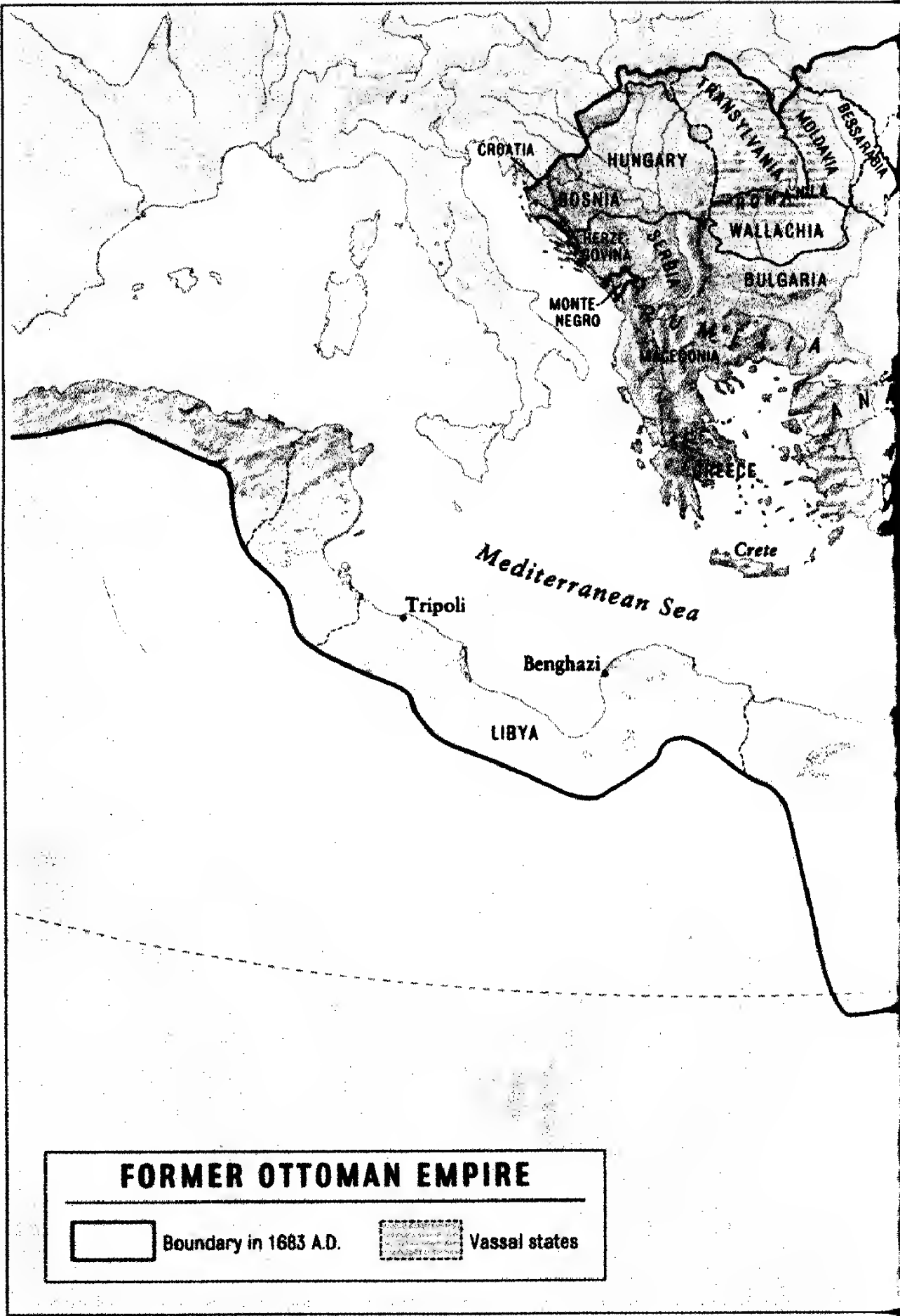
سألني الرجل الجالس بجواري في حفل العشاء الذي أقامه حزب الفضيلة: «متى ستدعم الولايات المتحدة الديمقراطية في تركيا؟ لأنها لاتزال حتى الآن تدعم الجيش». وقبل أن ينتظر ردي، أضاف: «لقد زرت إسرائيل، وهناك وجدت أن الديمقراطية أكثر تطورا مما هي عليه في تركيا»⁽⁶⁾. كان ذلك هو الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه. لأن الإسلاميين الأتراك المعتدلين كانوا آنذاك منفتحين نسبيا فيما يتعلق بإسرائيل، فقد افترضت أنهم سيظلون هكذا دائما.

وفي الواقع أن الظروف ستتغير بصورة دراماتيكية: نتيجة للتطور التاريخي للأتراك أنفسهم مع قيام وسائل الاتصالات الإلكترونية بتقريبهم على نحو أوثق إلى فكر الخلافة الإسلامية (أي هزيمة الجغرافيا، بعبارة أخرى)، وبسبب الإجراءات والأخطاء المحددة لكل من الحكومتين الأمريكية والإسرائيلية خلال السنوات التالية.

في بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، كانت الجغرافيا التركية تعكس السياسة التركية. ولكونها تتشارك حدودها مع اليونان في الغرب، وإيران في الشرق، وبلغاريا في الشمال الغربي، والعراق في الجنوب الشرقي، وأذربيجان في الشمال الشرقي، وسورية في الجنوب، إضافة إلى أن أكثر من نصف الأناضول يقع على سواحل البحر الأسود أو البحر المتوسط، فإن تركيا تقع حقا على مسافة واحدة من أوروبا، وروسيا، والشرق الأوسط. وينطبق الشيء نفسه على سياستها الخارجية وتلك المتعلقة بالأمن القومي. كانت تركيا لاتزال عضوا في حلف شمال الأطلسي، كما كانت تتعاون مع أجهزة الاستخبارات الأمريكية، وكانت لها سفارة في إسرائيل، كما سهّلت محادثات السلام غير المباشرة بين إسرائيل وسورية. لكنها كانت تتوغل عسكريا ضد الأكراد في شمال العراق، وكانت تساعد إيران على تجنب فرض العقوبات عليها بسبب تطويرها للأسلحة النووية، وكانت تدعم أكثر الجماعات الفلسطينية تطرفا سياسيا عاطفيا.

كانت الغارة الإسرائيلية في مايو 2010 ضد أسطول مكون من ست سفن كانت تنقل الإمدادات الإنسانية من تركيا إلى قطاع غزة الذي تسيطر عليه حركة حماس، وردود الفعل التركية الشرسة عليها، حافزا لإعلان المحور التاريخي التركي، الممتد من الغرب إلى الشرق، على العالم. كان الأتراك ينظرون إلى النضال من أجل فلسطين ليس باعتباره معركة بين العرب وإسرائيل، والتي لا يمكن للأتراك لعب أي دور فيها، ولكن بوصفها صراعا يؤلب المسلمين ضد اليهود، والذي يمكن للأتراك فيه مناصرة القضية الإسلامية. من بين التبصرات الرئيسية التي كثيرا ما يجري تجاهلها في كتاب أستاذ هارفارد الراحل صموئيل هنتنغتون «صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي»، والذي تمثل فيه تركيا المثلال الرئيسي، هو أن العولمة، على الرغم من عملها كقوة موحدة على مستوى ما، فهي قوة من أجل التوتر بين الحضارات على مستوى آخر، لأنها تقرب بين مجموعات التضامن الكبيرة والواسعة الانتشار؛ ولذلك ففي حين أن العالم الإسلامي يفتقر إلى التماسك السياسي، فإن الوعي الإسلامي يتزايد على الرغم من ذلك جنبا إلى جنب مع العولمة. وبالتالي، فقد تنامي الجانب الإسلامي من الهوية التركية. وقد حدث هذا في الوقت الذي صار فيه العالم غير الغربي أكثر صحة وتحضرا، وأكثر إلماما بالقراءة والكتابة، وبالتالي كان هناك صعود وارتفاع في القوة السياسية والاقتصادية لدول الفئة المتوسطة، مثل تركيا⁽⁷⁾.





مفتاح الخريطة:

Former Ottoman Empire	الإمبراطورية العثمانية السابقة
Boundary in 1683 A.D.	حدود العام 1683 م
Vassal states	الدول التابعة
Tripoli	طرابلس
Libya	ليبيا
Benghazi	بنغازي
Mediterranean sea	البحر الأبيض المتوسط
Crete	كريت
Greece	اليونان
Anatolia	الأناضول
Macedonia	مقدونيا
Rumelia	رومليا
Montenegro	الجبل الأسود
Black sea	البحر الأسود
Bulgaria	بلغاريا
Serbia	صربيا
Wallachia	واليتشيا
Herzegovina	الهرسك
Bosnia	البوسنة
Romania	رومانيا
Croatia	كرواتيا
Hungary	المجر
Transylvania	ترانسلفانيا
Moldavia	مولدافيا
Bessarabia	بيسارابيا
Anatolian plateau	هضبة الأناضول
Crimea	شبه جزيرة القرم
Sea of Azov	بحر آزوف
Taurus MTS.	جبال توروس
Cyprus	قبرص
Lebanon	لبنان
Palestine	فلسطين
Nile river	نهر النيل

الإمبراطورية العثمانية السابقة

Egypt	مصر
Red Sea	البحر الأحمر
White Nile	النيل الأبيض
Blue Nile	النيل الأزرق
Km	كلم
Miles	أميال
Jordan R.	نهر الأردن
The Levant	بلاد الشام
Syria	سورية
Georgia	جورجيا
Armenia	أرمينيا
Kurdistan	كردستان
Tigris R.	نهر دجلة
Euphrates R.	نهر الفرات
Baghdad	بغداد
Basra	البصرة
Kuwait	الكويت
Arabian Gulf	الخليج العربي
Luristan	لوريستان
Azerbaijan	أذربيجان
Karabagh	كاراباخ
Dagestan	داغستان
Caspian Sea	بحر قزوين
Iranian Plateau	الهضبة الإيرانية

ساعد الأتراك في قيادة «دار الإسلام» لما يقرب من 850 سنة، منذ انتصار السلاجقة الأتراك على البيزنطيين في معركة ملاذكرد في شرق الأناضول في العام 1071 وحتى هزيمة الإمبراطورية العثمانية من قبل الحلفاء الغربيين في العام 1918. ولم يحدث إلا في القرن الماضي أن كان العرب على رأس الحضارة الإسلامية حقاً. وفي الواقع أنه حتى قيام الثورة الإيرانية خلال عامي 1978 - 1979، وعلى الرغم من أن مسلمي إيران البالغ عددهم في ذلك الحين خمسين مليوناً كانوا غير مرثيين إلى حد كبير بالنسبة إلى الغرب؛ تماماً كما كان 75 مليون مسلم في تركيا المعاصرة غير مرثيين

إلى حد كبير حتى اندلعت أزمة أسطول غزة في الوقت نفسه الذي أبرم فيه الأتراك صفقة مع إيران لقبول اليورانيوم المخصب فيها، كما صوتوا ضد فرض عقوبات على إيران في الأمم المتحدة. فجأة، استيقظت الجماهير ووسائل الإعلام الغربية على الحقيقة الجغرافية الفظة لتركيا.

وبعد ذلك، وفي العام 2011، جاءت الانتفاضات ضد الأنظمة الاستبدادية المنهكة عبر بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط، والتي كان المستفيد منها من الناحيتين التاريخية والجغرافية هو تركيا. حكمت تركيا العثمانية شمال أفريقيا وبلاد الشام طوال مئات السنين في العصر الحديث. وعلى الرغم من أن هذا الحكم كان مستبداً، فلم يكن قمعياً بحيث يترك ندبة دائمة في أذهان العرب المعاصرين. تمثل تركيا نموذجاً للديموقراطية الإسلامية التي يمكن أن تصبح مثالا يحتذى بالنسبة إلى تلك الدول المتحررة حديثاً، خصوصاً أن ديموقراطيتها تطورت من نظام هجين تقاسم فيه الجنرالات والسياسيون السلطة حتى وقت قريب - وهي عملية ستمر بها بعض الدول العربية في طريقها إلى أنظمة أكثر تحملاً. وبسكانها البالغ عددهم 75 مليون نسمة ومعدل النمو الاقتصادي الذي كان صحياً حتى وقت قريب، فإن تركيا تمثل أيضاً قوة ماحقة ديموغرافياً واقتصادياً يمكن أن تنتشر منه القوة الناعمة في جميع أنحاء منطقة البحر المتوسط. إنها تمتلك، ببساطة، العديد من المزايا التي لا تمتلكها الدول المتوسطة الرئيسية الأخرى القريبة من شمال أفريقيا - أي اليونان، وإيطاليا، وإسبانيا. ومع ذلك، فهناك أشياء أساسية تنبغي معرفتها عن الإسلام التركي، والتي تشير إلى أن الغرب قد يجد عزاء في صعود تركيا في الشرق الأوسط.

وفي الواقع أننا لو كنا نعرف أكثر قليلاً عن جلال الدين الرومي، الذي أسس في القرن الثالث عشر «الطريقة» tariqat التركية التي ارتبطت بالدراويش، لكانت دهشتنا أقل من معرفة توافق الإسلام مع الديموقراطية، وربما لم تكن الأصولية الإسلامية قد بدت بمثل هذا التوحد والتهديد. نبذ الرومي أولئك «المتعصبين غير الناضجين» الذين يحتقرون الموسيقى والشعر⁽⁸⁾. وحذر من أن وجود لحية أو شارب لدى رجل الدين ليس علامة على الحكمة. كان الرومي يفضل الفرد على الحشد، كما كان يتحدث باستمرار ضد الطغيان. ينطبق إرث الرومي على نزعات الدقطة في

العالم الإسلامي أكثر مما تفعل صور العظماء من العرب والإيرانيين، والمألوفين أكثر لدى الغرب. إن الطبيعة الانتقائية للإسلام التركي، كما يوضحها الرومي، تتوافق تماما مع نزعات التغريب في تركيا. إن النظام الديمقراطي في تركيا، على الرغم من عيوبه وتأثره لفترة طويلة للغاية بمؤسسة عسكرية مستبدية، قد تضمن عناصر إسلامية تقليدية orthodox على مدى عقود. وعلى عكس عدد قليل من الدول العربية وإيران، فلم تنشأ قاعدة تركيا الصناعية وطبقها الوسطى من العدم بفضل عائدات النفط. ومرة أخرى، فالفضل يرجع إلى الجغرافيا في المستوى المتقدم من التنمية البشرية الذي تحظى به تركيا مقارنة بمعظم الأماكن في منطقة الشرق الأوسط. إن موقع تركيا بوصفه جسرا بریا لا يربطها بأوروبا فحسب، لكنه سمح لموجة من غزوات البدو الرحل الآتين آسيا الوسطى بإنعاش حضارة الأناضول، والتي يمثل شعر الرومي مثالا عليها. وقد مارست الإمبراطورية العثمانية دورا كبيرا في التقريب الوثيق بين السياسة الأوروبية - على الأقل في صيغتها البلقانية - وبين مثلتها في الشرق الأوسط. أدت حركات الكفاح من أجل الاستقلال الوطني التي شهدها القرن التاسع عشر في صربيا، وبلغاريا، ورومانيا، واليونان إلى تشجيع ظهور المجتمعات القومية العربية في دمشق وبيروت. وبالمثل، فقد ولد الإرهاب الحديث في بداية القرن العشرين في مقدونيا وبلغاريا، قبل أن يتسرب إلى سورية الكبرى.

وفي أوائل القرن الحادي والعشرين، كانت تركيا تفخر بوجود حركة إسلامية حيوية ومهيمنة سياسيا، وقدرة عسكرية هائلة بالمقارنة مع أي بلد في الشرق الأوسط تقريبا باستثناء إسرائيل، وباقتصاد ظل ينمو بمعدل 8 في المائة سنويا لسنوات عديدة، بل تمكنت من تحقيق نمو بنسبة 5 في المائة خلال فترة الركود في جميع أنحاء العالم، بالإضافة إلى منظومة من السدود التي جعلت تركيا قوة مائية بقدر ما تُعد إيران والمملكة العربية السعودية قوتين نفطيتين. إن هذه العوامل، سواء كانت مرئية أو غير مرئية، تسمح لتركيا بالتنافس مع إيران على موقع القيادة والشرعية الإسلامية. طوال سنوات، كانت تركيا بنفس عزلة إسرائيل تقريبا في الشرق الأوسط. إن سيادتها المطلقة في العهد العثماني هي ما أدى إلى تعقيد علاقتها مع العرب، كما كانت علاقاتها مع سورية المجاورة سافرة العداء، كما كانت تلك مع العراق البعثي وإيران الأصولية متوترة. وفي العام 1998، كانت تركيا بالفعل على

حافة الحرب مع سورية بسبب دعم دمشق لحزب العمال الكردستاني الراديكالي المناهض لتركيا. وخلال هذه الفترة، احتفظت تركيا بتحالف عسكري ظاهري مع إسرائيل، مما عزز مكانتها كدولة منبوذة في الشرق الأوسط. لكن كل هذا بدأ يتغير مع تولي أردوغان وحزب العدالة لمقاليد السلطة، والذي جاء في الوقت نفسه مع انهيار شعبية الغرب لدى الرأي العام التركي، وذلك بسبب الرفض الفعلي لانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي وتزايد وحشية أمريكا اليمينية وإسرائيل اليمينية.

لم تنسحب تركيا من منظمة حلف شمال الأطلسي، ولم تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل. وبدلاً من ذلك، فمن خلال وزير خارجية أردوغان، أحمد داود أوغلو Davutoglu، اعتمدت تركيا سياسة «اللامشاكل» مع جيرانها المباشرين، وهو ما يعني على وجه الخصوص تقارباً تاريخياً مع سورية، والعراق، وإيران. وبفضل اقتصاد تركيا، الأكثر تقدماً بكثير من الناحية التكنولوجية عن جيرانها، إضافة إلى كونه ينمو بوتيرة أسرع، فقد كان النفوذ التركي القوي في منطقة البلقان إلى الغرب والقوقاز إلى الشرق حقيقة ثابتة بالفعل. كانت بلغاريا، وجورجيا، وأذربيجان تفيض جميعها بالأجهزة الكهربائية التركية وغيرها من السلع الاستهلاكية.

لكن النصر التركي للفلسطينيين، والشعبية الهائلة التي تولدت تجاه الشعب التركي في غزة، هي ما جعل تركيا حقيقة تنظيمية راسخة في العالم العربي، وبدرجة لم تتمتع بها منذ العصور العثمانية. ربما كانت العثمانية الجديدة Neo Ottomanism - استراتيجية محددة وضعها داود أوغلو، لكنها تشكل أيضاً تطوراً سياسياً طبيعياً: فهي نتيجة للمكانة الجغرافية والاقتصادية الرائدة لتركيا، والتي صارت فجأة بالغة الأهمية بسبب تنامي تيار الأسلمة في تركيا نفسها. استندت جاذبية العثمانية الجديدة إلى الافتراض غير المعلن أن تركيا كانت تفتقر في حقبة العولمة هذه إلى كل من السبل والإرادة لإقامة إمبراطورية جديدة - قديمة في الشرق الأوسط؛ وبدلاً من ذلك، فقد استندت إلى تطبيع تركيا لعلاقاتها مع الدول العربية التابعة لها سابقاً، الذين كان الحكم العثماني بالنسبة إليهم بعيداً بما فيه الكفاية، وحميداً بما فيه الكفاية، على الأقل عندما ينظر إليه على مدى فترة عقود وقرن، للترحيب بعودة تركيا إلى الجماعة، خصوصاً بعد أن زاد مستوى عدائها ضد إسرائيل كثيراً.

كان ابتكار داود أوغلو الحقيقي هو الوصول إلى إيران. امتلكت حضارتا هضبة الأناضول وتلك الإيرانية، أي التركية والفارسية، على الترتيب، علاقة طويلة ومعقدة: فاللغة الفارسية، كما ذكرت، كانت هي اللغة الدبلوماسية للإمبراطورية العثمانية التركية، على الرغم من أن العثمانيين والصفويين الفرس قد انخرطوا في نزاع عسكري طويل خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. يمكن للمرء أن يقول إن الشعبين التركي والإيراني متنافسان، على الرغم من أنهما، مع ذلك، يمتلكان ثقافتين ولغتين متشابهتين بعمق؛ فقد كتب جلال الدين الرومي أشعاره باللغة الفارسية، على الرغم من أنه قضى معظم حياته في تركيا. وبالإضافة إلى ذلك، فلم تحتل تركيا ولا إيران إحداهما الأخرى. ومن الناحية الجغرافية، تتسم مناطق نفوذهما، على الرغم من التداخل بينهما، لأنهما منفصلتان إلى درجة كبيرة، حيث تقع إيران أفقيا إلى الشرق من تركيا. وخلال عهد الشاه، كانت كل من تركيا وإيران مواليتين للغرب، وحتى عندما صارت إيران راديكالية تحت حكم رجال الدين، ظلت أنقرة حريصة على الحفاظ على علاقات طيبة مع طهران. هناك حقيقة تاريخية صادمة قليلا عن احتضان أنقرة لآيات الله، والتي لها قيمة صادمة كبيرة حتى في سياق سياسي معاصر.

تدبر ما يلي: كانت الولايات المتحدة، بقيادة رئيس محبوب عالميا في ذلك الوقت، وهو باراك أوباما Obama، تسعى جاهدة، جنبا إلى جنب مع حلفائها الأوروبيين، لإحباط مسيرة إيران الساعية لامتلاك أسلحة نووية، وذلك لمنع إسرائيل من شن هجوم على إيران؛ فإيران النووية ستغير ميزان القوى في الشرق الأوسط بشكل كبير ضد الغرب، في حين أن عواقب أي هجوم إسرائيلي ضد إيران قد تكون أسوأ من حيث زعزعة استقرار المنطقة. ومع ذلك، ففي مايو 2010، عملت تركيا، إلى جانب البرازيل، من خلال سلسلة من المناورات الدبلوماسية المثيرة على مساعدة إيران في التهرب من العقوبات الاقتصادية، وبالتالي كسب الوقت الحرج اللازم لصنع مثل هذه القنبلة. ومن خلال الموافقة على تخصيص اليورانيوم الإيراني، حصلت تركيا على مكانة أعلى في العالم الإسلامي، والتي تتماشى مع تلك التي اكتسبتها من خلال دعم حركة حماس في غزة. وكذلك كانت إيران تمتلك القدرة «على مساعدة تركيا على تحقيق هدفها الاستراتيجي الجوهري المتمثل في أن تصبح

مركزا للطاقة، بحيث تنقل الغاز الطبيعي والنفط [من إيران] إلى أسواق أوروبا الغربية»⁽⁹⁾. وباعتبار تركيا تمثل همزة الوصل فيما يتعلق بنقل الطاقة الواردة من إيران، فضلا عن الهيدروكربونات القادمة من بحر قزوين عبر منطقة القوقاز، وكذلك امتلاكها القدرة على تحويل ما يقرب من 90 في المائة من مدخول العراق من مياه نهر الفرات و40 في المائة من مدخول سورية، تنضم تركيا إلى إيران باعتبارها قوة فائقة hyperpower في الشرق الأوسط، في وجود خطوط للأنابيب تجري في كل الاتجاهات محملة بالنفط والغاز الطبيعي، والمياه - والتي تشكل الأساس الجوهري للحياة الصناعية⁽¹⁰⁾.

قبل عصر النفط، كما أشرت إليه من قبل، اقتربت تركيا من البلقان وأوروبا من أجل تطوير قدرتها الاقتصادية بحيث يمكنها أن تتقدم في الشرق الأوسط أيضا. أما في عصر النفط، فالعكس هو الصحيح؛ فمع تحول تركيا إلى الممر الأوروبي للنفط الإيراني وذلك المستخرج من بحر قزوين، فقد صارت عاملا اقتصاديا من الأهمية بحيث لا يمكن لأوروبا أن تتجاهله. وبدلا من أن تكون مجرد جسر بري، على الرغم من أنه أكبر جسر بري على الكرة الأرضية، فإن تركيا - هي أحد البلدان الأعضاء في مجموعة العشرين - قد صارت منطقة محورية في حد ذاتها، والتي، جنبا إلى جنب مع إيران، تمتلك القدرة على تحييد الهلال الخصيب العربي، الذي تعاني مجتمعاته الاضطرابات الداخلية الناتجة عن عقود من أنظمة الأمن القومي العقيمة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الخطوة التي أقدمت عليها تركيا والبرازيل لحماية اليورانيوم المخصب الإيراني كانت أكثر من مجرد عمل مارق ليست له نتيجة عملية تذكر لمساعدة إيران الأصولية في امتلاك قبلة نووية؛ فهي تعكس صعود القوى المتوسطة المستوى في مختلف أنحاء العالم، مع انضمام مزيد ومزيد من الملايين من سكان البلدان النامية إلى الطبقة المتوسطة.

أما الجانب المشرق بالنسبة إلى الغرب هنا فهو ما يلي: من دون صعود تركيا، ستصبح إيران الثورية هي القوة المهيمنة في الشرق الأوسط؛ ولكن مع الصعود الجامح لتركيا كقوة شرق أوسطية للمرة الأولى منذ انهيار الإمبراطورية العثمانية، ستجد إيران أمامها منافسة من أقرب جيرانها - إذ يمكن لتركيا أن تكون صديقا ومنافسا لإيران في الوقت نفسه. كما يجب ألا ننسى أن تركيا لاتزال تنتمي إلى

منظمة حلف شمال الأطلسي، وأنها لاتزال تحتفظ بعلاقات مع إسرائيل، على الرغم من أنها متوترة. وعلى الرغم من ازدياد صعوبة تحمّل الغرب لوجودها، فلاتزال القيادة الإسلامية في تركيا تمثل تحسنا هائلا مقارنة بعقلية الحكومة الدينية الإيرانية. لا يزال في إمكان تركيا أن تعمل وسيطا بين إسرائيل والدول الإسلامية، تماما كما تمتلك إيران القدرة على تعديل سياساتها الخاصة، سواء عن طريق الاضطرابات السياسية أو بفعل عواقب طول بقاء النظام وتناقضاته الخاصة. والواضح هو أنه مع تلاشي أحداث الحرب الباردة من الذاكرة، فستتمكن كل من تركيا وإيران من إطلاق العنان لمنطقتيهما الجغرافية أكثر فأكثر من أجل أن تؤدي أدوارا مكثفة في الشرق الأوسط العربي. لم تعد تركيا مرتبطة بنفس القوة بمنظمة حلف شمال الأطلسي، على الرغم من أن حلف شمال الأطلسي لا يعدو كونه قصبة ضعيفة مقارنة بما كان عليه سابقا. ومع نهاية نظام صدام حسين في العراق - وهو نفسه دولة شرطية على الطراز السوفييتي من مخلفات الحرب الباردة - تورطت إيران في المناورات السياسية للعالم العربي كما لم يحدث من قبل. تم كل ذلك بطرق خفية تماما؛ إذ تعمل تركيا بالتنسيق مع إيران، على الرغم من كونها قوة موازنة مضادة لها. وفي الوقت نفسه، يظهر العراق كبديل ذي أغلبية شيعية لإيران، مهما كان مدى ضعف العراق في الوقت الراهن. ومما ساعد تركيا وإيران، الثورة التي تحققت في مجال الاتصالات العالمية، والتي - في حالتيهما على الأقل - مكنت الناس من الارتقاء فوق العرق واعتماد الدين حقا كفئة للهوية. وهكذا، فالأتراك والإيرانيون والعرب هم جميعا من المسلمين، وكلهم متحدون ضد إسرائيل وإلى حد ما ضد الغرب. وبالتالي، فمع العوامل الجغرافية المحسنة لتركيا وإيران، والتي تؤثر في العالم العربي، فإن رباعي الأضلاع الشاسع الذي يمثله الشرق الأوسط قد صار مترابطا على نحو أكثر تناسقا من أي وقت مضى.

وخلافا لحالتي تركيا وإيران، فلم يكن للدول العربية التي تقع بين البحر المتوسط والهضبة الإيرانية أي مغزى قبل القرن العشرين؛ فلم تكن فلسطين، ولبنان، وسورية، والعراق سوى مصطلحات جغرافية، كما لم يكن قد جرى التفكير في الأردن بعد. وعندما نزيل الخطوط الرسمية من الخريطة، سنجد لوحة بدائية مرسومة بالأصابع لتجمعات من السكان السنة والشيعية، والتي تتعارض مع الحدود

الوطنية. داخل هذه الحدود، سنجد أن السلطات المركزية الحاكمة في كل من لبنان والعراق لا تعمل إلا بالكاد. أما النظام في سورية فهو استبدادي، لكنه واقع تحت حصار شديد من جماهيره الخاصة (وقد لا يظل في الحكم حتى نشر هذا الكتاب)، في حين أن الأردن يحكمه نظام ملكي مطلق، لكن ربما لن يكون له أي مستقبل إلا في التحول إلى الملكية الدستورية. (إن السبب الرئيسي في وجود الأردن يظل غير معلن على الدوام؛ فهو يعمل كدولة عازلة للأنظمة العربية الأخرى التي تخشى من امتلاك حدود برية مع إسرائيل). عندما أطاح الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش بالنظام الدكتاتوري في العراق، كان من المعتقد في ذلك الوقت أنه صانع للتاريخ في العالم العربي، بتكدير صفوه بدرجة أكبر مما فعلت أي شخصية غربية منذ نابليون. لكن بعد ذلك جاءت الثورات الديمقراطية في الربيع العربي، والتي كانت لها أسبابها الداخلية الخاصة التي لا علاقة لها بما فعله بوش. وعلى أي حال، فإن منظومة الدول بعد زوال الإمبراطورية العثمانية، والتي جاءت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تخضع لضغوط أكبر من أي وقت مضى. قد لا يتبع ذلك بالضرورة ظهور ديمقراطية على النمط الغربي، ولكن يجب أن يليه في نهاية المطاف ضرب من أشكال التحرر، والذي تساعده الثورة التي نشبت في مصر، وكذلك المرحلة الانتقالية المتمثلة في الابتعاد عن الدول البوليسية العربية التي تعود إلى حقبة الحرب الباردة، وهو الأمر الذي سيجعل عملية انتقال أوروبا الوسطى والبلقان بعيدا عن الشيوعية يبدو أمرا هينا مقارنة بذلك. وفي الواقع، تتميز بلاد الشام حاليا بأنظمة استبدادية منهارة وبديمقراطيات متناثرة هنا وهناك، والتي لا يمكنها تحقيق أي شيء. إن الطاقة الجامحة التي تميز قيادتي تركيا وإيران، والناجمة جزئيا عن الطبيعة الجغرافية للبلدين، لم تكن ظاهرة طوال عقود في أي مكان من العالم العربي تقريبا - وهو سبب آخر في أن العالم العربي قد دخل الآن مرحلة انتقالية سياسية مصيرية.

وفي الواقع أن الانتفاضات العربية التي نشبت في العام 2011، والتي أزاحت العديد من الأنظمة، كانت تتعلق بقوة تكنولوجيا الاتصالات وهزيمة الجغرافيا. ولكن بمرور الوقت، فإن جغرافيات كل من تونس، وليبيا، ومصر، واليمن، وسورية، والدول الأخرى ستعيد تأكيد ذواتها. تمثل تونس ومصر تجمعات قديمة من الحضارات، والتي تعود نشأة دولهما إلى العصور القديمة، في حين أن ليبيا

واليمن، على سبيل المثال، ليسا سوى منطقتين جغرافيتين مبهمتين، واللّتين لم تنشأ دولهما حتى القرن العشرين. إن ليبيا الغربية القريبة من طرابلس (تريبوليتانيا: Tripolitania) كانت متوجهة دائماً نحو الحضارات الغنية والمتحضرة في قرطاج بتونس، في حين أن ليبيا الشرقية حول بنغازي (برقة: Cyrenaica) كانت متوجهة دائماً نحو حضارة الإسكندرية في مصر. كانت اليمن غنية ومكتظة بالسكان منذ العصور القديمة فصاعداً، لكن ممالكها الجبلية العديدة كانت دائماً منفصلة بعضها عن بعض. ولذلك فليس من المستغرب أن بناء دولتين عصريتين وغير استبداديتين في ليبيا واليمن يثبت أنه أكثر صعوبة مما هي الحال في تونس ومصر. لكن بلاد الشام ومنطقة الهلال الخصيب هي المكان الذي قد تتكشف فيه ملامح المرحلة المقبلة من الصراع.

إن العراق، بسبب الغزو الأمريكي في العام 2003، مكتنف بعمق في تطور سياسي لا يسعه إلا أن يؤثر في العالم العربي بأسره. ويرجع هذا إلى الاحتياطات النفطية الهائلة في العراق (الذي يحتل المرتبة الثانية في العالم بعد المملكة العربية السعودية)؛ وعدد سكانه الكبير الذي يزيد على 31 مليون نسمة؛ وموقعه الجغرافي عند ملتقى العالمين السني والشيوعي؛ والبُعد المتساوي بينه وبين إيران، وسورية، والمملكة العربية السعودية؛ وأهميته التاريخية والسياسية كعاصمة سابقة للدولة العباسية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن العراق تعذبه تركّات ثلاث: ما يقرب من نصف قرن من الدكتاتورية العسكرية الوحشية في ظلّ عديد من الحكام، والتي بلغت ذروتها في عهد صدام حسين، ما أدى إلى انحراف ثقافته السياسية؛ وتاريخ قاتم وعنيف، سواء قديم أو حديث، الذي يمتد إلى ما هو أبعد بكثير من العقود الدكتاتورية الأخيرة، والذي شجع على ظهور طابع وطني يتسم بالقسوة والريية (مهما بدا ذلك جوهرياً essentialist)؛ والانقسامات العرقية والطائفية الحادة.

لم يُترك العراق وشأنه مُطلقاً. ومرة أخرى، تقول فريا ستارك: «على الرغم من أن مصر تقع بصورة موازية وسلمية لطرق الهجرات البشرية، فقد كان العراق منذ القدم إقليماً حدودياً، يقع في زاوية قائمة وبغيضة على المسارات المقدرة سلفاً لهجرات البشر»⁽¹¹⁾. تتقاطع بلاد ما بين النهرين مع واحد من أكثر مسارات الهجرة دموية في التاريخ، والذي عمل على تأليب البشر بعضهم ضد بعض وإلى

بث روح التشاؤم بينهم كنتيجة لذلك. وسواء تعرّض العراق للهجوم من جهة الصحراء السورية في الغرب أو من هضبة عيلام الإيرانية من الشرق، فقد ظل ضحية للاحتلال باستمرار. واعتبارا من الألفية الثالثة قبل الميلاد، تحاربت الشعوب القديمة في الشرق الأدنى من أجل السيادة على بلاد ما بين النهرين. وسواء كان الملكان الأخمينيان الفارسيان داريوس Darius وأحشويروش Xerxes اللذان حكما بابل، أو قبائل المغول التي اجتاحت البلاد لاحقا، أو الحكم العثماني الطويل الذي انتهى مع الحرب العالمية الأولى، فقد شهد العراق تاريخا مأساويا من الاحتلال⁽¹²⁾.

ومما عزّز سفك الدماء هذا أن بلاد ما بين النهرين نادرا ما كانت دولة متماسكة ديموغرافيا. إن نهري دجلة والفرات، اللذين يمران عبر العراق، قد شكلا لفترة طويلة منطقة حدودية تقوم فيها الجماعات المختلفة، التي كثيرا ما كانت تمثل بقايا هذه الغزوات الأجنبية، بالتقاتل والتزاحم. وكما وثّقه المستشرق الفرنسي جورج رو Roux بكل اجتهاد في العراق القديم، فمنذ العصور القديمة، كان شمال، وجنوب، ووسط البلاد في العادة محلا لمعارك ضارية. أما حكام أولى الدول المدنية، أي السومريون الجنوبيين، فقد حاربوا الأكديين الذين عاشوا في وسط بلاد ما بين النهرين؛ وقاتل كلاهما الآشوريين قاطني الشمال. وفي المقابل، فقد حارب الآشوريون البابليين، فضلا على الجيوب العديدة من الفرس الذين كانوا يعيشون وسط السكان الأصليين لبلاد ما بين النهرين، مما مثل مصدرا آخر للنزاع⁽¹³⁾. ولم تتمكن سوى الأنظمة الاستبدادية الأشد قسوة من منع وقوع التفكك التام الذي كانت هذه المنطقة الحدودية معرضة له. وكما أشار إليه الباحث أديد داويشا Dawisha، فقد كانت «هشاشة النظام الاجتماعي [على مر التاريخ] متأصلة في أرض ما بين النهرين»⁽¹⁴⁾. وهذا النظام الهش، الذي عمل على تأليب جماعة ضد أخرى في وادٍ نهري مكتظ بالسكان والذي يفتقر إلى وجود حدود واقية، هو الذي أدى في نهاية المطاف، وبصورة حتمية على ما يبدو، إلى ظهور حكم استبدادي في القرن العشرين ويبدو كأنه جاء من العصور القديمة مباشرة: وهو الطغيان الذي أفضى، بمجرد الإطاحة به، إلى سنوات عديدة من الفوضى المريعة التي تنطوي على فظائع اكتست هالة قديمة. ولأن العراق مثقل بالتاريخ الحديث فضلا عن ذلك القديم، فقد كانت بلاد ما بين النهرين من أضعف أجزاء الإمبراطورية العثمانية حُكما؛ فيما يمثل حالة

أخرى من التعبير الجغرافي الغامض - أي تجمّع فضفاض من القبائل، والطوائف، والأعراق التي قسمها الأتراك أكثر إلى ولايات vilayets الموصل الكردية، وبغداد السنية، والبصرة الشيعية، مرتبة من الشمال إلى الجنوب. وعندما حاول البريطانيون «نحت» نظام سياسي بين نهري دجلة والفرات في أعقاب انهيار الإمبراطورية التركية، بنوا توليفة شاذة من النزعة الانفصالية الكردية، والقبلية الشيعية، والحزم السنّي⁽¹⁵⁾. ولربط حقول النفط الكردستانية في الشمال بأحد موانئ الخليج العربي الواقعة إلى الجنوب - كجزء من إستراتيجية برية وبحرية للدفاع عن الهند - عمل البريطانيون على التقريب بين القوى العرقية والطائفية التي سيكون من الصعب تهدئتها بالوسائل العادية.

وقد أدى صعود القومية العربية بعد الحرب العالمية الثانية إلى مزيد من الانقسامات، فقد تم تأليب الضباط والسياسيين العراقيين بعضهم ضد بعض: أولئك الذين رأوا أن أفضل حل لهوية العراق الإشكالية يتمثل في انضمامها تحت لواء أمة عربية واحدة تمتد من المغرب إلى بلاد ما بين النهرين، مقابل أولئك الذين جاهدوا ضد احتمالات ثقيلة للخسارة من أجل عراق موحد، على الرغم من انتفاء منطق الجغرافي، والذي سيتمكن من قمع أهوائه الطائفية الخاصة. وعلى أي حال، فإن ما يقرب من أربعة عقود من الديمقراطية الطائشة، وغير المستقرة، وغير الفعالة منذ العام 1921، والتي تخللها عدد من الثورات وشبه السلطوية باسم القصر الملكي، قد انتهت بصورة مفاجئة في الرابع عشر من يوليو 1958، عندما خلع انقلاب عسكري الحكومة العراقية الموالية للغرب. وقد أجبر الملك فيصل الثاني، الذي حكم على مدى السنوات التسع عشرة الماضية، وأفراد أسرته على الوقوف في مواجهة حائط ومن ثم إعدامهم رميا بالرصاص، كما أطلق النار على رئيس الوزراء، نوري السعيد، ودفن؛ وبعد ذلك جرى نبش قبره وإخراج جثته، ثم حرقها وتشويهها على يد الغوغاء. لم يكن هذا عملا عشوائيا، بل فعلا يدل على العنف الوحشي والمنحرف الذي كثيرا ما ميّز الحياة السياسية العراقية. وفي الحقيقة أن قتل كامل العائلة المالكة الهاشمية، مثل مقتل عائلة القيصر الروسي نيكولاس الثاني Nicholas II في العام 1918، كان جريمة رمزية بعمق، والتي بشرت بعقود من القتل والتعذيب من قبل سلطات الدولة في العراق،

والذي سيحتاج إلى مزيد من السنوات لكي يتعافى من آثارها. بدأ خط الحكومات الاستبدادية على غرار الكتلة الشرقية بالعميد عبد الكريم قاسم، وانتهى بصدام حسين، حيث كان كل دكتاتور أكثر تطرفاً من سابقه؛ فبهذه الطريقة وحدها كان من الممكن الاحتفاظ بتماسك دولة مؤلفة من مثل هذه الجماعات المتباينة والقوى السياسية المتناحرة.

ومع ذلك، كما كتب داويشا، فإن «ذاكرة التاريخ ليست خطية ولا تراكمية... وبالتالي فعلى الرغم من أنه لا شك في أن جزءاً كبيراً من تاريخ العراق كان استبدادياً، فقد كانت هناك أيضاً أشعة من الأمل في أن تسود الديمقراطية»⁽¹⁶⁾. وفي حين يناضل العراق من أجل تجنب الانزلاق مرة أخرى سواء إلى الاستبداد أو الفوضى بفعل العبء الذي تمثله الولاءات العتيقة، يجدر بنا أن نأخذ في الاعتبار أنه ما بين عامين 1921 و1958، شهد العراق ديموقراطية فاعلة إلى حد ما. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الجغرافيا نفسها تخضع لتفسيرات مختلفة. ومع كل ميل بلاد ما بين النهرين للانقسام البشري، كما نبهنا إليه مارشال هودجسون، فإن هذه الدولة، في الواقع، ليست مصطنعة بالكامل، إذ كان لها أساس في العصور القديمة. إن الشريط الزراعي الذي خلقه نهرا دجلة والفرات يمثل واحدة من الحقائق الديموغرافية والبيئية المعلمية للشرق الأوسط. ومع ذلك، فإن أي ديموقراطية عراقية ستظهر في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين ستكون غير جديرة بالثقة، وفاسدة وغير كفؤة، وجامعة إلى حد كبير، وربما كانت الاغتيالات السياسية تمثل جزءاً معتاداً من حياتها اليومية. وباختصار، فإن عراقاً ديموقراطياً، على الرغم من الثروات البترولية الهائلة والجيش المدرب على أيدي القوات الأمريكية، سيكون دولة ضعيفة - على الأقل في المدى القريب. وسيسعى السياسيون العراقيون المتناحرون للحصول على الدعم المالي والسياسي من القوى المجاورة - أي إيران والمملكة العربية السعودية أساساً - ونتيجة لذلك، سيصبحون ألعوبة في أيديهما، إلى حد ما. ومن الممكن للعراق أن يصبح مرة أخرى نسخة أكبر من لبنان الذي دمرته الحرب في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. ولأن المخاطر كبيرة جداً في العراق - فسيملك من يسكون بالسلطة وصولاً فاسداً إلى ثروات نفطية مذهلة - وبالتالي، فإن الاقتتال الداخلي بينهم،

كما رأينا، سيكون شديدا ومستمرًا. يتطلب وجود قاعدة أمامية موالية للغرب في قلب العالم العربي أن تكون الدولة قوية من الداخل، لكن هناك القليل من الإشارات على وجودها حتى الآن.

يبدو أن بلاد ما بين النهرين الضعيفة تمثل فرصة لوجود محور آخر في العالم العربي، سواء لأسباب ديموغرافية أو متعلقة بالموارد الطبيعية، والذي سيمتلك الهيبة ويمسك بزمام القيادة. لكن من الصعب أن نرى الاتجاه الذي سيأتي منه. يتسم السعوديون بطبيعتهم الانفعالية، وذلك بسبب ثرواتهم النفطية الهائلة مع وجود عدد صغير نسبيا من السكان يتميز مع ذلك، بوجود جحافل من الذكور الشبان الذين هم عرضة لكل من التطرف والتوق إلى الديمقراطية - وهم من الفوج نفسه الذي رأيناه يشعل الثورات في تونس ومصر. إن حقبة ما بعد مبارك في مصر، التي تضم أكبر عدد من السكان في العالم العربي، ستميز بوجود حكومات، سواء كانت ديمقراطية أو لا، والتي ستكرس طاقاتها لتعزيز السيطرة على الأوضاع الداخلية، ومجابهة التحديات الديموغرافية المتعلقة بمناخ النيلين الأبيض والأزرق الواقعين في دولتي السودان وفي إثيوبيا. (إن إثيوبيا، بسكانها البالغ عددهم 83 مليون نسمة، تتفوق في مصر من حيث عدد السكان، في حين يضم كل من شمال وجنوب السودان أكثر من 40 مليون نسمة. وبالتالي، فإن الصراع على استخدام المياه سيمثل عبئا متزايدا يُثقل كاهل كل هذه الحكومات في القرن الحادي والعشرين). إن ضعف العالم العربي نفسه، هو ما ستسعى إلى الاستفادة منه تركيا وإيران، باستماتهما للأمة الإسلامية الكبرى.

لا يتجلى هذا الضعف في حالة عراق ما بعد الغزو فقط، بل في حالة سورية، أيضا. تمثل سورية قطبا جغرافيا حيويا آخر في العالم العربي - في كل من العصور الوسطى والحديثة. وفي الواقع أنها ادّعت ممارسة دور القلب النابض للعروبة خلال حقبة الحرب الباردة.

في العام 1998، غادرت جبال طوروس في اتجاه الجنوب الشرقي، ومن ثم نزلت بشكل حاد من آسيا الصغرى إلى السهل السور - الذي تتخلله أشجار الصنوبر والزيتون، مع تلال من الحجر الجيري في بعض الأحيان - تركت ورائي مجتمعا واثقا وصناعيا في تركيا، التي تتعزز قوميتها بفعل المنطق الجغرافي المتمثل في وجود

البحر الأسود إلى الشمال، والبحر المتوسط إلى الجنوب والغرب، والمعقل الجبلية إلى الشرق والجنوب الشرقي. وفي هذه القلعة الطبيعية، صُنف الإسلام تحت فئة الديموقراطية rubric of democracy. لكنني دخلت الآن قطعة اصطناعية من الأراضي الواقعة في صحراء مترامية الأطراف، التي لم يكن يحفظ تماسكها سوى الفكر البعثي وعبادة الشخصيات المصاحبة له: كانت صور الرئيس حافظ الأسد المعلقة على كل نوافذ المتاجر وعلى الزجاج الأمامي للسيارات تشوه المنظر هناك. لم تحدد الجغرافيا مصير سورية - أو تركيا - لكنها كانت نقطة البداية.

تخبرنا الجغرافيا والتاريخ بأن سورية، التي يبلغ عدد سكانها عشرين مليوناً، ستظل بؤرة الاضطرابات في العالم العربي. إن حلب الواقعة في شمال سورية هي مدينة تجارية تمتلك روابط تاريخية بالموصل وبغداد في العراق أكثر من ارتباطها بدمشق، وهي العاصمة السورية. وكلما انخفضت حظوظ دمشق، استعادت حلب عظمتها. وعند التجول عبر أسواق حلب، فمن المدهش أن ترى كم تبدو دمشق بعيدة وغير ذات صلة. يهيمن على أسواق حلب التجار الأكراد، والأتراك، والشركس، والمسيحيون العرب، والأرمن، وغيرهم، على عكس سوق دمشق، والذي يقترب من كونه عالماً من العرب السنة. وكما هي الحال في باكستان ويوغوسلافيا السابقة، ففي سورية ترتبط كل طائفة ودين بمنطقة جغرافية محددة. وفيما بين حلب ودمشق، توجد المعقل المتزايدة للإسلاميين السنة في حمص وحماة؛ وبين دمشق والحدود الأردنية يوجد الدروز؛ وفي المعقل الجبلية المتاخمة للبنان يعيش العلويون، سواء من بقايا موجة التشيع التي اجتاحت سورية قبل ألف سنة، انطلاقاً من بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين. أدت الانتخابات الحرة والنزيهة التي جرت في الأعوام 1947، و1949، و1954 إلى تفاقم هذه الانقسامات بفعل تقسيم الأصوات بطول الخطوط الإقليمية والطائفية والعرقية. جاء الرئيس الراحل حافظ الأسد إلى السلطة في العام 1970 بعد واحد وعشرين تغييراً في الحكومات خلال السنوات الأربع والعشرين السابقة. وعلى مدى ثلاثة عقود، كان ليونيد بريجنيف العالم العربي، بمحاولته حجب المستقبل من خلال فشله في بناء مجتمع مدني في الداخل. وفي حين كانت يوغوسلافيا لاتزال تمتلك طبقة مثقفة في وقت تفتتها، فلم تكن الحال في سورية كذلك، فقد كان نظام حافظ الأسد خانقاً للنخاع.

خلال الحرب الباردة وبداية سنوات ما بعد الحرب الباردة، كانت النزعة العروبية الحماسية في سورية بديلا عن هويتها الضعيفة كدولة. كانت سورية الكبرى مصطلحا جغرافيا يعود إلى العهد العثماني، والذي كان يشمل المنطقة التي تحتلها في الوقت الحاضر لبنان، والأردن، وإسرائيل - فلسطين، والتي تضر بها الحدود المقتطعة للدولة السورية الحالية أيما ضرر. كان الباحث بجامعة برينستون، فيليب ك. حتي Hitti، يصف سورية الكبرى التاريخية هذه بأنها «أكبر دولة صغيرة على الخريطة، فهي مجهرية في حجمها لكنها كونية في نفوذها»، والتي تشمل في جغرافيتها، عند التقاء أوروبا وآسيا، وأفريقيا، «تاريخ العالم المتحضر في صورة مصغرة»⁽¹⁷⁾. أمدت سورية العالم اليونان - الروماني بعدد من ألمع مفكره، ومن بينهم الرواقيون Stoics والأفلاطونيون المحدثون Neoplatonists. كانت سورية مقر الإمبراطورية الأموية، وهي أول سلالة عربية بعد [النبي] محمد صلى الله عليه وسلم، والتي كانت أكبر من روما في أوجها، كما كانت مسرحا لما يمكن القول إنه أعظم مأساة في التاريخ بين الإسلام والغرب: الحروب الصليبية.

لكن سورية كانت في العقود الأخيرة شبحا باهتا لهذه التركة الجغرافية والتاريخية العظيمة. ويدرك السوريون ذلك على نحو لاذع؛ فكما يعلمون، فقد أدت خسارتهم لبنان إلى تقليص معظم منافذ سورية على البحر المتوسط، والتي كانت مستودعاتها الثقافية الغنية تنبض بالحياة. ومنذ أن انتزعت فرنسا لبنان من سورية في العام 1920، استمات السوريون في استعادتها مرة أخرى. ولذلك فإن الانسحاب السوري الكامل من لبنان، والذي طالب به جورج دبليو بوش في العام 2005 في أعقاب اغتيال رئيس الوزراء اللبناني المعارض لسورية، رفيق الحريري، من شأنه أن يقوّض الأساس السياسي لنظام الأقلية العلوية في دمشق على الفور. إن العلويين، وهم أفراد طائفة شيعية مبتدعة (heterodox)، يتوزعون ديموغرافيا في كل من سورية ولبنان. وبالتالي فإن قيام دويلة للعلويين في شمال غرب سورية لن يكون أمرا مستحيلا بعد انهيار النظام العلوي في دمشق.

وفي الواقع أنه بعد العراق وأفغانستان، فإن الهدف القادم للجهاديين السنة قد يكون سورية نفسها؛ ففي النظام السوري، الذي ترأسه حتى أوائل العام 2012 بشار الأسد، وجد الجهاديون عدوا يتسم بكونه «مستبدا، وعلمانيا، ومهرطقا heretical في

الوقت نفسه»⁽¹⁸⁾. كان هذا النظام العلوي مقرباً من إيران الشيعية، كما أنه مذهب بقتل عشرات الآلاف من الإسلاميين السنة في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. يمتلك الجهاديون إماماً لوجستياً عميقاً بسورية - فمؤازة الجهاد في العراق تستلزم وجود شبكة كاملة من البيوت الآمنة داخل سورية. وفي الواقع أن أحداً لا يعرف ما ستؤول إليه في نهاية المطاف سورية في مرحلة ما بعد السلطوية، وبعد سقوط نظام الأسد. ما مدى عمق الطائفية؟ قد لا تكون عميقة على الإطلاق، ولكن بمجرد أن يبدأ القتل، يرتد الناس إلى هوياتهم الطائفية المكبوتة. قد تكون الحال أيضاً أن سورية في مرحلة ما بعد الأسد ستكون أفضل حالا من العراق بعد صدام، وذلك تحديداً لأن طغيان النظام الأول كان أقل حدة مما كان عليه الأخير، مما يجعل سورية مجتمعاً أقل فساداً. كان السفر من العراق في عهد صدام إلى سورية تحت حكم الأسد، كما فعلت عدة مرات، مثل الخروج إلى هواء إنساني متحرر. ومن ناحية أخرى، كانت يوغوسلافيا طوال الحرب الباردة مجتمعاً أكثر انفتاحاً من جيرانها في منطقة البلقان، لكن انظر كيف قوّضت الاختلافات العرقية والدينية هذا المجتمع! لقد حافظت الأقلية العلوية على السلام في سورية؛ لكنه يبدو من غير المحتمل أن يقوم الجهاديون السنة بعمل الشيء نفسه. قد يكونون بالوحشية نفسها، لكنهم يفتقرون إلى المعرفة المتمرسية بطرق الحكم، والتي اكتسبها العلويون خلال أربعين عاماً من وجودهم في السلطة. وبطبيعة الحال، فليس من الضروري أن تسير الأمور بهذه الطريقة على الإطلاق، لأنه يوجد أساس جغرافي متين من أجل السلام والنهضة السياسية في سورية. ولنتذكر مرة أخرى قول هودجسون: إن دولا مثل سورية والعراق تمتلك بالفعل جذورا في الأراضي الزراعية؛ ومن ثم فهي ليست اصطناعية تماماً. أما سورية، وعلى الرغم من حدودها الحالية، فهي لاتزال تمثل قلب العالم المشرقي، وهو ما يعني عالماً متعدد الهويات العرقية والدينية توحدته التجارة⁽¹⁹⁾. إن الشاعر سوري المولد علي أحمد سعيد (المعروف باسمه المستعار «أدونيس») يمثل تعبيراً واضحاً للغاية عن هذه السورية الأخرى، بثروتها من التفاعل بين الحضارات، والتي - كما نعلم من كتابات وليام ماكنيل - تشكّل الدراما الأساسية للتاريخ. يحضّ أدونيس مواطنيه السوريين على نبذ القومية العربية وتشكيل هوية وطنية جديدة مبنية على الانتقائية والتنوع الذي يميّز سورية: والتي تمثل مقابلاً عملياً في القرن الحادي والعشرين لما كانت

عليه بيروت، والإسكندرية، وإزمير في أوائل القرن العشرين. ينتمي أدونيس، مثل آل الأسد، إلى الطائفة العلوية، لكنه أثر بدلا من اعتناق العروبة والدولة البوليسية كدروع لوضعه كأحد أفراد الأقلية، فقد اعتنق مبادئ الكوزموبوليتية بدلا منها⁽²⁰⁾. وبدلا من التطلع نحو الصحراء، يتطلع أدونيس نحو البحر المتوسط، الذي لاتزال سورية الحديثة، على الرغم من خسارتها لبنان، تمتلك على شواطئه كثيرا من العقارات. يمثل البحر المتوسط بوتقة عرقية وطائفية، والتي تشكل الأساس الفكري الوحيد لوجود ديمقراطية مستقرة في سورية. تتداخل أفكار ماكنيل، وهودجسون، وأدونيس بالفعل من حيث الوعد الذي تحمله سورية⁽²¹⁾.

أما الآثار المترتبة على هذا بالنسبة إلى بقية أجزاء سورية الكبرى الجغرافية - أي لبنان، والأردن، وإسرائيل فتتسم بأنها هائلة. وسواء كانت أو لم تكن هناك ثورة جهادية في سورية تلي تلك الديمقراطية - في حالة عدم ترسخ ديمقراطية جديدة بأفكار أدونيس - يبدو أن سورية تتجه إلى أن تصبح أقل مركزية، وبالتالي ستتحول إلى دولة أضعف. كما أنها ستكون دولة ذات تضخم ملحوظ في عدد الشبان؛ إذ إن 36 في المائة من السكان يبلغون من العمر أربع عشرة سنة أو أقل. بيد أن ضعف سورية قد يعني ظهور بيروت كعاصمة ثقافية واقتصادية لسورية الكبرى، مع دفع دمشق إلى ثمن ابتعادها عن العالم الحديث منذ عقود طويلة، على النمط السوفييتي. ومع ذلك، فمع استمرار الشيعيين الفقراء من أنصار حزب الله في بيروت الجنوبية في كسب نفوذ ديموغرافي على بقية أجزاء تلك المدينة، وزيادة نفوذ الإسلاميين السنة في دمشق، فمن الممكن أن تصبح سورية الكبرى الجغرافية أقل استقرارا بكثير مما هي عليه الآن.

ومع ذلك فقد ينجو الأردن من مثل هذا التطور، وذلك لأن السلالة الهاشمية (على عكس تلك العلوية) قد أمضت عقودا في بناء وعي الدولة عن طريق بناء نخبة موحدة. تعج العاصمة الأردنية عمان بعدد من وزراء الحكومة السابقين الموالين للعائلة المالكة الأردنية - وهم رجال لم يتعرضوا للسجن أو القتل نتيجة للتعديلات الوزارية، بل يُسمح لهم فقط بأن يصبحوا أثرياء. ولكن، مرة أخرى، تتمثل اللعنة هنا في التركيبة السكانية: يعيش 70 في المائة من سكان الأردن البالغ عددهم 6.3 ملايين في المناطق الحضرية، وثلثهم تقريبا لاجئون فلسطينيون، الذين يتسمون

بمعدل مواليد أعلى من السكان الأصليين للضفة الشرقية لنهر الأردن. (أما بالنسبة إلى سكان الضفة الشرقية أنفسهم، فقد توترت العلاقة التقليدية بين القبائل والنظام الملكي مع تطوّر الثقافة القبلية نفسها، حيث حلت الشاحنات الصغيرة والهواتف المحمولة محل الإبل منذ فترة طويلة). ثم إن هناك 750 ألف لاجئ عراقي في الأردن، مما يجعل نصيب الفرد الأردني من اللاجئين الأعلى في جميع أرجاء العالم. ومرة أخرى، نعود إلى حقيقة وجود جغرافيا مغلقة وخنقة clanstrophobic، وفقا لبول براكن، والتي تتعرض جماهيرها الحضرية الفقيرة والمكتظة لمزيد من الجدل لعواطفهم من قبل وسائل الإعلام الإلكترونية، وفقا لإلياس كانيتي Canetti. وبسبب أعمال العنف في العراق وأفغانستان على مدى العقد الماضي، فقد صرنا غير مباينين بمدى عدم الاستقرار الذي يسود ما يسمى بالأجزاء المستقرة من الشرق الأوسط. وقد فعلنا ذلك على مسؤوليتنا الخاصة - كما أظهرت الثورات العربية. بدأت تلك الانتفاضات بوصفها تعبيرا عن التوق إلى المجتمع المدني وكرامة الفرد، التي سلبتها أنظمة الأمن القومي المتحجرة من الشعوب. ولكن في المستقبل، من الممكن أن يؤدي التمدن والاتصالات الإلكترونية إلى تعبيرات أقل لطفا benign عن الغضب الجماهيري. إن الحشود النابحة على المظالم الحقيقية والمتصورة هي أمر ما بعد الحداثة الجديد، والذي سيكافح الجيل القادم من القادة العرب للحفاظ عليه تحت السيطرة.

لقد عبرت الحدود من الأردن إلى إسرائيل عدة مرات. يمثل وادي نهر الأردن جزءا من صدع عميق في سطح الأرض، والذي يمتد من سورية إلى مسافة 3700 كيلومتر جنوبا إلى موزمبيق. وهكذا، فإن النزول المتعرج الغارب westering إلى نهر الأردن من النجد ذي اللون البني لمدينة إربد الأردنية كان مثيرا إلى حد مذهل. كان الطريق في أواخر تسعينيات القرن العشرين مبطنا بمرائب متربة، وأكشاك متهاكة لبيع الفاكهة، ومجموعات من الشبان المتسكعين وهم يدخلون. وفي الجزء السفلي، يقع شريط من الحقول الخضراء على طول النهر، حيث ترتفع الجبال بالحدة نفسها، على الجانب الآخر - في إسرائيل. كانت نقطة الحدود ومكاتب الجمارك الأردنية عبارة عن سلسلة من حاويات البضائع القديمة الملقاة في قطعة أرض خاوية. أما النهر فهو ضيق، إذ يمكنك عبوره في حافلة خلال ثوان قليلة. وعلى الجانب الآخر، كانت هناك حديقة خضراء

تفصل بين حارات المرور: مثل الجزر المرورية الموجودة في أي مكان في الغرب، لكنها تمثل أعجوبة بعد الأماكن العامة القائمة التي يتناثر عليها الغبار في الأردن ومعظم أجزاء العالم العربي. كانت قاعة الجوازات الإسرائيلية مثل أي مطار صغير في الولايات المتحدة. كان رجال الأمن الإسرائيليون يرتدون قمصانا من ماركة «تمبرلاند»، والمدسوسة بالكاد في سراويلهم الجينز لإفساح المجال لمسدساتهم. وبعد أن قضيت أسابيع في العالم العربي، بدا هؤلاء الشبان غير تقليديين للغاية. وبعد قاعة الجوازات، توجد أرصفة ومقاعد جديدة، ومرافق سياحية، والتي - مرة أخرى - تشبه تلك الموجودة في أي مكان في الغرب. وعلى الرغم من أنه كان فضاء عاما فارغا وغير ودي؛ فلم يكن هناك ببساطة أي متسكعين، كما هي الحال في العالم العربي، حيث كانت البطالة متوطنة. كان الإسرائيليون العاملون في الأكشاك غير ودودين بل وقحين، كما كانت روح الضيافة التقليدية في الشرق الأوسط غائبة. وعلى الرغم من أنني عشت في إسرائيل في سبعينيات القرن العشرين وخدمت في جيشها، فإن وصولي إلى هناك بهذه الطريقة قد أتاح لي أن أراها بصورة جديدة. كانت إسرائيل تبدو شاذة للغاية في الشرق الأوسط، ومع ذلك فقد كانت تمثل حقيقة واضحة وقوية.

وبالنسبة إلى العالم الإسلامي كله، الذي توخّده وتهيجه وسائل الإعلام، فإن محنة الفلسطينيين تمثل ظلما طوطميا في الشؤون البشرية. قد لا يكون الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية عاملا مرثيا في المراحل الأولى من الربيع العربي، ولكن لا ينبغي لنا أن نخدع أنفسنا. لقد صارت الحقائق، إلى حد معين، غير ذات معنى؛ فالتصورات هي كل شيء، وما يدعم كل ذلك هو الجغرافيا. وفي حين تُظهر الصهيونية قوة الأفكار، فإن المعركة الدائرة على الأرض بين الإسرائيليين والفلسطينيين - أو بين اليهود والمسلمين، كما ينظر إليها كل من الأتراك والإيرانيين - هي حالة من الحتمية الجغرافية المطلقة.

«سوف يصبح اليهود قريبا جدا أقلية في الأراضي التي يحتلونها أو يحكمونها من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط (وقد حدث هذا بالفعل وفقا لبعض الحسابات)، كما يتوقع بعض علماء الديموغرافيا أنهم سيمثلون في غضون خمسة عشر عاما ما لا يزيد على 42 في المائة من السكان في هذه المنطقة». هكذا كتب

بنيامين شوارتز Schwarz، رئيس التحرير الوطني لمجلة The Atlantic، في أحد أعداد المجلة الصادرة في العام 2005، وذلك في مقال له بعنوان «هل ستعيش إسرائيل إلى سن المائة؟» ومنذ ذلك الحين، لم يتغير شيء بدرجة تؤثر في تلك الحسابات، أو في تحليله النزيه. يتسم معدل المواليد في الأراضي العربية المحتلة بأنه أعلى بصورة مذهلة من مثيله في إسرائيل: ففي قطاع غزة، يزيد النمو السكاني بمقدار الضعف عما هو عليه في إسرائيل، حيث تلد السيدة المتوسطة أكثر من خمسة أطفال خلال حياتها البالغة. ونتيجة لذلك، ففي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ظهر توافق في الآراء داخل الأوساط السياسية، والعسكرية، والمخابراتية الإسرائيلية على أن إسرائيل يجب أن تنسحب من جميع الأراضي المحتلة تقريباً أو أن تصبح عملياً دولة للتمييز العنصري - إذا لم يكن على الفور، فمع مرور الوقت. وكانت نتيجة ذلك هي «السياج»: أي الجدار الذي بناه الإسرائيليون لعزل إسرائيل فعلياً عن السكان الفلسطينيين المتنامين ديموغرافياً والفقراء اقتصادياً، والذين يعيشون في الضفة الغربية. أما أرنون سوفر Soffer، وهو جغرافي إسرائيلي، فيصف السياج بأنه «محاولة يائسة أخيرة لإنقاذ دولة إسرائيل»، لكن المستوطنات اليهودية القريبة من الخط الأخضر في الأراضي المحتلة، كما كتب شوارتز، «قد تكون لها جذور بالغة العمق، وقد تمثل جزءاً لا يتجزأ جداً من الحياة اليومية لكثير من الإسرائيليين لدرجة أنه لا يمكن التخلي عنها»⁽²²⁾. ثم إن هناك المبدأ والمنطلق الأساسي للفكر الفلسطيني، ألا وهو «حق العودة»؛ والذي ينطبق على 700 ألف فلسطيني جرى تهجيرهم من إسرائيل عند إنشائها، وكذلك ذريتهم، الذين قد يربو عددهم الآن على خمسة ملايين نسمة. وفي العام 2001، رفض 98.7 في المائة من اللاجئين الفلسطينيين الحصول على تعويض بدلا من حق العودة. وأخيراً، لا بد أن نأخذ في الاعتبار عرب إسرائيل: أي من يعيشون داخل حدود إسرائيل ما قبل العام 1967. وفي حين أن النمو السكاني بين اليهود الإسرائيليين هو 1.4 في المائة، فهو بين عرب إسرائيل 3.4 في المائة: وفي حين أن متوسط عمر mediam age^(*) اليهود هو خمسة وثلاثين عاماً، فإن مثيله بين العرب هو أربعة عشر.

(*) يشير هذا المقدار الإحصائي إلى القيمة العددية للعمر الذي إذا بلغه شخص في تجمع سكاني، يكون عدد الأشخاص الذين يكبرونه مساوياً لعدد من يصغرونه. [المحرر]

وفي عالم عقلائي، يمكن للمرء أن يأمل في التوصل إلى معاهدة سلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، والتي يتنازل فيها الإسرائيليون عن الأراضي المحتلة ومن ثم تفكيك معظم المستوطنات، في حين يتخلى الفلسطينيون عن حق العودة. وفي موقف كهذا، فإن إسرائيل الكبرى، على الأقل بوصفها مفهوما اقتصاديا، ستشكل منطقة جذب إقليمية على البحر المتوسط، والتي لن تتوجه نحوها الضفة الغربية وقطاع غزة فقط، بل الأردن، وجنوب لبنان، وجنوب سورية بما في ذلك دمشق. لكن قلة من الشعوب تبدو، حتى كتابة هذه السطور، متباعدة نفسيا بعضها عن بعض وشديدة الانقسام فيما بينها - وبالتالي متجمدة سياسيا - كما هي الحال بين الإسرائيليين والفلسطينيين. ولا يسع المرء إلا أن يأمل في أن الزلزال السياسي الذي شهده العالم العربي في العام 2011 وأوائل العام 2012 سيحث إسرائيل على تقديم تنازلات إقليمية محورية.

يوشك الشرق الأوسط على التعرض لتفاعلات بشرية مصيرية، الأمر الذي يرجع في المقام الأول إلى الجغرافيا المغلقة والمكتظة بسكانها. لم تختف الجغرافيا خلال الثورات الجارية في مجالات الاتصالات، والأسلحة، بل صارت ببساطة أكثر قيمة، وأثمن بالنسبة إلى عدد أكبر من الناس.

وفي مثل هذا العالم، يجب أن تكون القيم العالمية متوقفة على الظروف. نحن نصلي من أجل بقاء الأردن هاشميا وأن تظل سورية موحدة في مرحلة ما بعد الأسد، كما نصلي من أجل نهاية ديكتاتورية الملالي في إيران. وفي إيران، من المرجح أن تكون الديمقراطية صديقنا، مما يجعل إيران الكبرى من غزة إلى أفغانستان قوة من أجل الخير وليس من أجل الشر، وبالتالي يمكنها تغيير الحسابات في منطقة الشرق الأوسط بأسرها؛ وبالتالي فقد يمكن ترويض حزب الله وحماس، وتحسين آفاق السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. ولكن في الأردن، من الصعب أن نتصور نظاما أكثر اعتدالا وموالاة للغرب من النظام الملكي غير الديمقراطي الحالي. وبالمثل، فإن الديمقراطية في المملكة العربية السعودية يرجح أن تكون عدوا لنا. وفي سورية، يجب أن تأتي الديمقراطية تدريجيا؛ لئلا يُقوض التنظيم السياسي لسورية الكبرى على أيدي الجهاديين السنة، كما حدث في بلاد ما بين النهرين بين العامين 2006 و2007.

كان قادة أوروبا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين منهمكين في ما يسمى بالمسألة الشرقية Eastern Question: أي اندلاع عدم الاستقرار والتطلعات القومية الناتجة عن تحلل الإمبراطورية العثمانية الذي بدا بلا نهاية. حُسمت المسألة الشرقية بفعل الجائحة cataclysm التي مثلتها الحرب العالمية الأولى، والتي ولدت منها منظومة الدول العربية الحديثة، والتي ساعدت في تشكيلها المعالم الجغرافية والتجمعات السكانية القديمة التي كتب عنها مارشال هودجسون ببلاغة. ولكن على الرغم من مرور مائة سنة، فينبغي ألا ننظر إلى متانة منظومة الدول بعد العثمانية هذه في قلب الويكومين على أنها أمر مفروغ منه.

الجزء الثالث
مصير أمريكا

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

كتب مؤرخ أكسفورد الراحل هيو تريفور -
روبر Trevor-Roper في العام 1972 أنه لا يوجد
فريق من العلماء كان له «تأثير مخضب» أكثر في
دراسة التاريخ مما أطلق عليه اسم «مجموعة
الحوليات» Annales group، التي أسسها في
العام 1929 لوسيان فافر Febvre ومارك بلوخ
Bloch، وسميت على اسم الدورية الصادرة في
باريس، التي كانا ينشران فيها كثيرا من المقالات:
أي حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي
Annales d'Histoire Economique et Sociale.
وفي مقدمة أولئك الباحثين الفرنسيين، كان
فرنان بروديل Braudel. وفي العام 1949 نشر
بروديل كتابا بعنوان «البحر الأبيض المتوسط
والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني»، وهو
بحث مثل فتحا جديدا في الكتابة التاريخية

«لنتفكر في كيف أن العولمة،
التي تمثل بمعنى ما أمركة العالم،
تعمل على الرغم من ذلك كوسيلة
لتحدي الهيمنة الأمريكية»

المؤلف

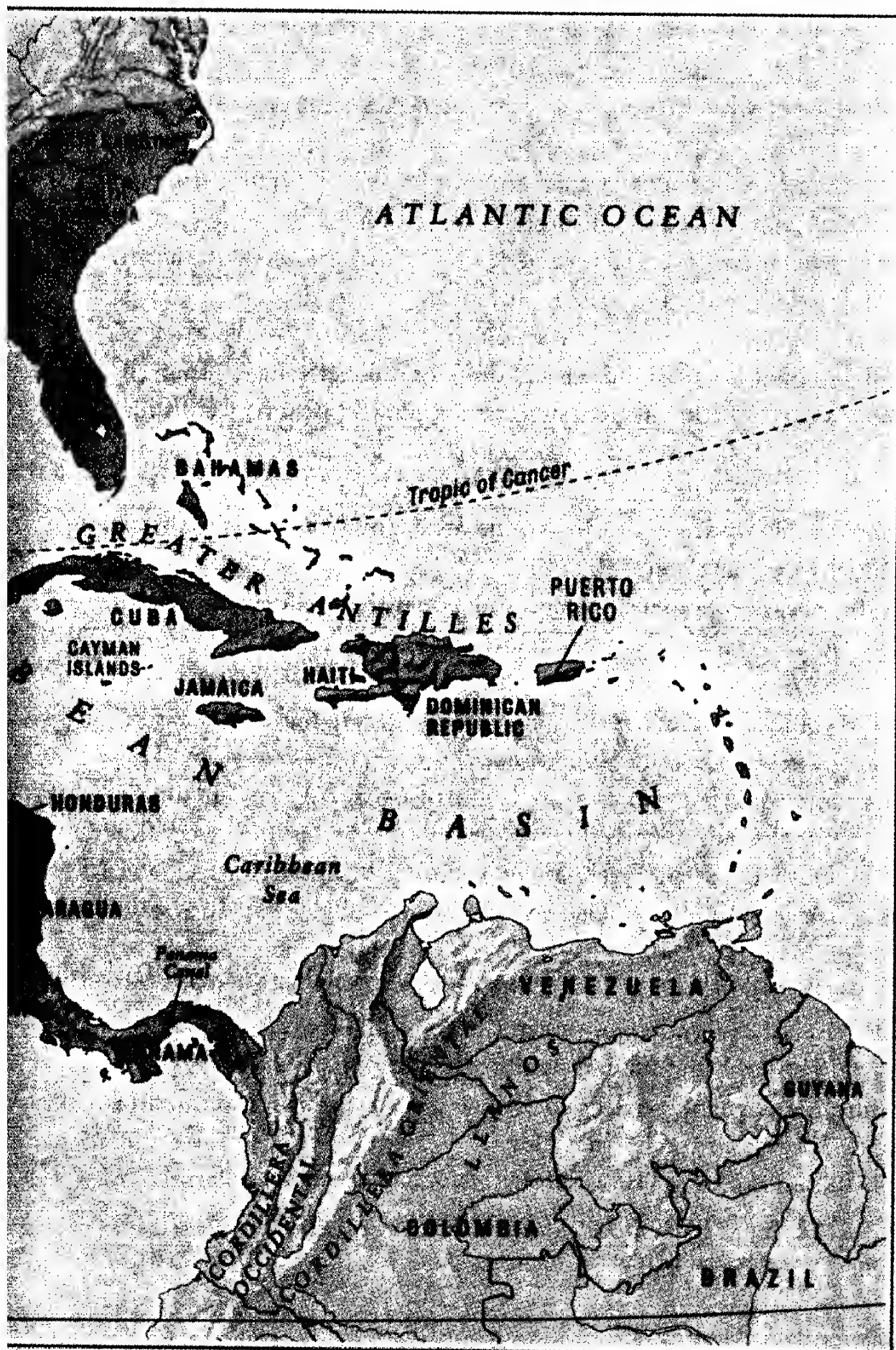
من خلال تركيزه على الجغرافيا، والديموغرافيا، والمادية، والبيئة⁽¹⁾. جلب بروديل الطبيعة نفسها إلى كتاب عن التاريخ، مما عمل بالتالي على إثراء هذا الفرع العلمي بصورة هائلة، كما ساعد على إعادة الجغرافيا إلى مكانتها اللائقة في الأوساط الأكاديمية. إن جهده الضخم هذا، والمؤلف من مجلدين، يُعد أمرا مثيرا للإعجاب بشكل خاص لأنه كتب معظمه وهو أسير لدى الألمان خلال الحرب العالمية الثانية. وفي نسيج بروديل السردى الهائل تؤدي القوى البيئية الدائمة والثابتة إلى اتجاهات تاريخية ثابتة تستمر طوال عدة عقود وقرون، حتى إن أنماط الأحداث السياسية والحروب الإقليمية التي نشغل أنفسنا بها تبدو أمرا حتميا تقريبا، إن لم تكن مجرد تفاصيل ثانوية.

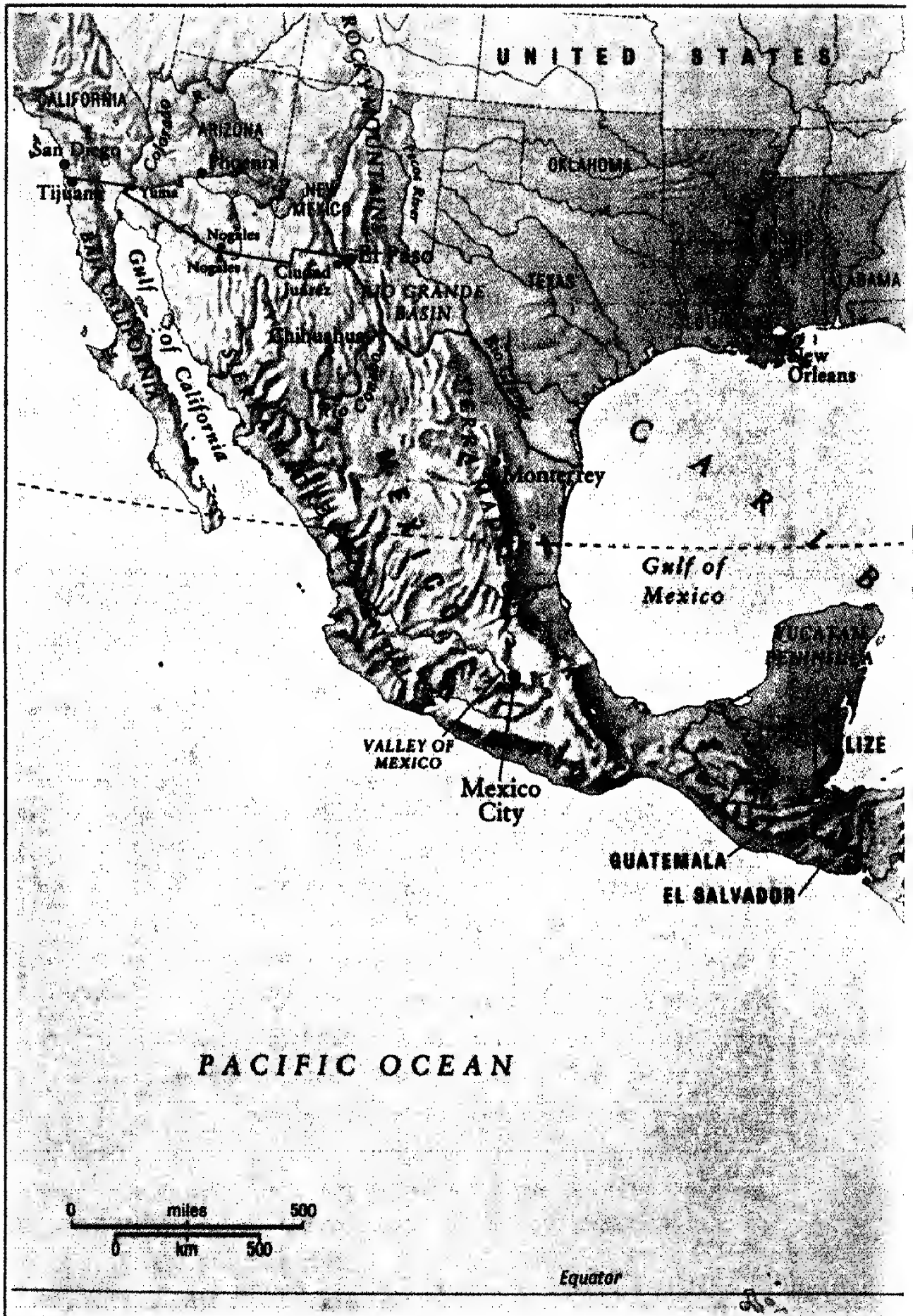
كان بروديل هو من ساعدنا على فهم كيف أن تربة الغابات الغنية في شمال أوروبا، التي لا تتطلب سوى القليل لجعل الفلاحين الأفراد منتجين، أدت في نهاية المطاف إلى ظهور مجتمعات أكثر ديناميكية وأكثر حرية مقارنة بتلك التي نشأت على سواحل البحر المتوسط، حيث كانت التربة الأردأ والأكثر قلقلية تعني وجود ضرورة للري، الأمر الذي أدى بدوره إلى ظهور الأوليغاركيات (حُكم الأقلية: oligarchies). إن تربة بمثل هذا الفقر، جنبا إلى جنب مع مناخ غير متقلب يضربه الجفاف، هي التي دفعت الإغريق والرومان للسعي إلى الغزو⁽²⁾. باختصار، نحن نخدع أنفسنا بالاعتقاد بأننا قادرون تماما على التحكم في مصائرنا؛ وبدلا من ذلك، يقودنا بروديل إلى الإدراك المصاحب بأننا كلما ازددنا وعيا بحدودنا، ازدادت قدرتنا على التأثير في النتائج الحاصلة ضمن هذه الحدود.

حدّدت بوصلة بروديل الجغرافية البحر المتوسط باعتباره مُجمّعا للبحار بالقرب من الصحراء الكبرى. وهكذا، أعاد إلى شمال أفريقيا مكانتها البارزة في الدراسات المتوسطية، ومن ثم فقد أضاف سياقاً إلى الهجرة الجماعية للعمال في عصرنا الحالي من شواطئ البلدان الإسلامية الواقعة جنوب البحر المتوسط (التي غرست اللاتينية بعض الجذور عند سفوح جبالها الحجرية) إلى تلك المسيحية الواقعة في الشمال. إن قصة بروديل، برغم تركيزها على الحاكم الإسباني فيليب الثاني، ليست في الحقيقة متعلقة برجال أفراد يقومون بالتغلب على العقبات، بل إنها قصة عن الرجال ومجتمعاتهم، والتي صيغت بمهارة من قبل قوى غير شخصية وبنوية بعمق. وفي

هذا العصر الذي يتسم بتغير المناخ، وانفتاح البحار القطبية الشمالية على الحركة التجارية بفعل ارتفاع درجات الحرارة، وارتفاع مستوى سطح البحر الذي يُنذر بوقوع كوارث في البلدان الساحلية المزدهمة في العالم الثالث الاستوائي، وبسياسة عالمية تتشكل أساسا بفعل مدى توافر النفط وغيره من السلع، قد حان وقت قراءة ملحمة بروديل عن الحتمية الجغرافية. وفي الواقع فإن بروديل، من خلال كتاباته عن منطقة البحر المتوسط، قد رسّخ المزاج-السياق الأدبي لعصر اتسم بالندرة وبأحداث موجهة بيثيا في كوكب متزايد الازدحام والتعطش إلى الماء.

إن إنجاز بروديل وغيره من أعضاء المدرسة الحولية، كما كتب تريفور- روبر، «هو التقريب بين أفكار الجغرافيا، وعلم الاجتماع، والقانون، ضمن السياق الواسع للتاريخ، وبالتالي إنعاش، وتغذية، وتعزيز ذلك السياق». ففي نهاية المطاف، كما يستطرد تريفور- روبر: «الجغرافيا، والمناخ، والسكان هي التي تحدّد الاتصالات، والاقتصاد، والتنظيم السياسي»⁽³⁾. إن بروديل - على عكس ماكيندر، أو سبيكمان، أو ماهان - يفتقر إلى امتلاك نظرية معينة يمكننا استقصاؤها حول الجغرافيا السياسية، ومع ذلك فهو يحقق شيئا أكبر؛ لأنه أكثر من مجرد خبير جغرافي أو إستراتيجي، فهو مؤرخ يمتلك موهبة في السرد المتقن الذي يرسم كل تفاصيل الوجود البشري على لوحة مكونة من القوى الطبيعية. وإذا كانت الجغرافيا والأدب قد التقيا على الإطلاق، فقد فعلا ذلك على يدي بروديل. وبأحد المعاني، فهو يمثل محصلة لجميع المفكرين الإستراتيجيين الذين التقيناهم حتى الآن. وقد أشار عالم الآثار في جامعة أكسفورد، باري كونليف Cunliffe، إلى أن مساهمة بروديل الرئيسية في الطريقة التي يُدرك بها التاريخ ربما كانت مفهومه عن «الموجات المتفاوتة للزمن». في القاعدة توجد الفترة الطويلة *longue durée*: وهو الزمن الجغرافي البطيء الذي يتغير بصورة تدريجية، «للمشاهد التي تمكّن وتقيّد»؛ وفوقه، وعند طول موجي أسرع، تأتي «الدورات المتوسطة الأجل»، والتي أشار إليها بروديل نفسه باسم المراحل الحاسمة *conjunctures*، أي التغيرات المنهجية في التركيبة السكانية، والاقتصاد، والزراعة، والمجتمع، والسياسة. ويوضح كونليف أن هذه تمثل أساسا «قوى جماعية، غير شخصية وعادة ما تكون محدودة زمنيا بما لا يزيد على قرن من الزمان».





California	كاليفورنيا
San Diego	سان دييغو
Tijuana	تيخوانا
Colorado	كولورادو
Arizona	أريزونا
Phoenix	فينكس
Yuma	يوما
Nogales	نوغاليس
Gulf of California	خليج كاليفورنيا
Baja California	باجا كاليفورنيا
New Mexico	نيو مكسيكو
Rocky mountains	جبال روكي
El Paso	إل باسو
Ciudad Juarez	سيوداد خواريز
Chihuahua	تشيهواهوا
Rio Conchos	ريو كونشوس
Sierra Madre Occidental	سييرا مادري الغربية
Mexico	المكسيك
Sierra Madre Oriental	سييرا مادري الشرقية
Valley of Mexico	وادي المكسيك
Mexico city	مكسيكو سيتي
Pecos river	نهر بيكوس
United states	الولايات المتحدة
Rio Grande Basin	حوض نهر ريو غراندي
Rio Grande	ريو غراندي
Monterrey	مونتييري
Caribbean Basin	حوض الكاريبي
Gulf of Mexico	خليج المكسيك
Texas	تكساس
Oklahoma	أوكلاهوما
Louisiana	لويزيانا
Mississippi	ميسيسيبي

Alabama	ألاباما
Mississippi river	نهر المسيسيبي
New Orleans	نيو أورليانز
North Carolina	نورث كارولينا
South Carolina	ساوث كارولينا
Georgia	جورجيا
Florida	فلوريدا
Bahamas	جزر البهاما
Atlantic ocean	المحيط الأطلسي
Tropic of cancer	مدار السرطان
Greater Antilles	جزر الأنثيل الكبرى
Cuba	كوبا
Cayman islands	جزر كايمان
Jamaica	جامايكا
Haiti	هايتي
Puerto Rico	بورتوريكو
Dominican republic	جمهورية الدومينيكان
Caribbean sea	البحر الكاريبي
Honduras	هندوراس
Belize	بليز
Guatemala	غواتيمالا
El Salvador	السلفادور
Pacific ocean	المحيط الهادي
Miles	أميال
Km	كلم
Equator	خط الاستواء
Nicaragua	نيكاراغوا
Costa Rica	كوستاريكا
Panama canal	قناة بنما
Panama	بنما
Cordillera Occidental	كورديليرا الغربية
Cordillera oriental	كورديليرا الشرقية
Llanos	يانوس
Colombia	كولومبيا
Venezuela	فنزويلا
Guyana	غيانا
Brazil	البرازيل

وعند أخذهما معا، فإن الفترة الطويلة والمراحل الحاسمة يوفران «الهيكل الأساسية» الخفية في معظمها، والتي تستنزف الحياة البشرية. وقد جرى تصميم توضيحي لأهمية الجغرافيا بحيث يركز على هذه الهياكل الأساسية. يطلق بروديل على الدورة القصيرة الأجل اسم التاريخ الأحداثي *l'histoire événementielle* - أي التقلبات اليومية للمناورات السياسية والديبلوماسية التي تمثل العنصر الرئيسي في التغطية الإعلامية. إن القياس الذي استخدمه بروديل هو البحر: ففي أعماق أعماقه توجد الحركة البطيئة للكتل المائية التي تتحمل كل شيء؛ أما في جزئه العلوي فيوجد المد والجزر والأمواج العاتية؛ وأخيرا على السطح، وبعبارة كونليف، توجد «بقع عابرة من الأمواج المتكسرة والمخفوقة، والتي تختفي في غضون دقيقة واحدة»⁽⁴⁾.

بيد أنه من المستحيل التكهن بالكيفية التي ستعمل بها الجغرافيا السياسية على مدى زمني غير إنساني في معظم تحليل بروديل، وبخاصة بالنظر إلى الجدل الدائر حول التغير المناخي وآثاره في مناطق جغرافية بعينها. وبالتالي فإن الحديث عن العلاقات بين أمريكا وأوروبا، مثلا، من مائة أو مائتي سنة يعد أمرا مثيرا للسخرية، بسبب العوامل العديدة التي لم تظهر تفاصيلها حتى الآن. وبدلا من ذلك، لننظر إلى بروديل ببساطة على أنه يشجعنا على اعتماد وجهة نظر أكثر بُعدا ونزاهة تجاه نقاط ضعفنا. وعلى سبيل المثال، فعند قراءة بروديل وفي ذهن المرء أحداث العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، فمن المستحيل أن نتجنب السؤال: هل الحروب في العراق وأفغانستان مجرد بقع عابرة للتصفح فقط، أم إنها جزء من شيء أعمق، وأبعد غورا، وذو تأثير محوري في مصير أمريكا؟ ومن وجهة النظر هذه، فهل كانت الحرب العالمية الأولى وحتى الحرب العالمية الثانية، والتي شهدت أعمال عنف على نطاق لم يشهده التاريخ من قبل، تنتمي ببساطة إلى التاريخ الأحداثي؟ إن بروديل، وعلى وجه التحديد، لأنه يضع الأحداث للبشرية في مقابل ضغط القوى الطبيعية، يسهل التفكير من منظور الفترة الطويلة.

لقد عرضت كتابات بروديل كمقدمة للحظة استثنائية في مؤتمر عُقد في واشنطن في يونيو 2009، حيث أثير سؤال منح إلحاحا خاصا لاستفساري عن أهمية الجغرافيا بالنسبة إلى الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين. كان سؤالاً من النوع الذي يُعجب بروديل، والذي يأخذ الناس بعيدا عن هواجس اللحظة الحالية إلى منظور

أعظم وأطول أمدا. نُظم هذا الحدث برعاية من مركز الأمن الأمريكي الجديد، حيث أعمل كزميل بارز. كانت المناسبة هي حلقة نقاشية حول ماهية الخطوات القادمة التي يجب اتخاذها في أفغانستان وباكستان، مع التركيز بشكل خاص على صقل جهود مكافحة التمرد. شرع أعضاء اللجنة في طرح التفاصيل المعقدة والمضلة للقضية «الأفغانية الباكستانية»، في أثناء تناول منطقة الحدود بين أفغانستان وباكستان من قبل الخبراء في واشنطن. ثم طرح عضو آخر، وهو الأستاذ في جامعة بوسطن أندرو باسيفيتش Bacevich، تعليقا غير مهذب، والذي سأعيد - لأنني كنت جالسا في الصف الأمامي - صياغته: إن مؤرخا ينظر إلى هذه اللجنة من منظور المستقبل البعيد قد يستنتج، كما خُمن باسيفيتش، أنه في حين أن الولايات المتحدة كانت تركز بعمق على أفغانستان وعلى الأجزاء الأخرى من الشرق الأوسط الكبير، فإن ثمة دولة فاشلة ضخمة كانت تنمو مباشرة على الحدود الجنوبية لأمريكا، مع آثار أكثر عمقا بكثير في كل من المستقبل القريب والبعيد بالنسبة إلى أمريكا، ومجتمعها، ولل قوة الأمريكية من أي شيء يحدث على بُعد نصف العالم.

تساءل باسيفيتش: ما الذي حققناه في الشرق الأوسط بكل تدخلاتنا منذ ثمانينيات القرن العشرين؟ لماذا لا نُصلح المكسيك بدلا من ذلك؟ كم كنا سنزدهر لو وضعنا كل هذه الأموال والخبرات والابتكارات التي ذهبت إلى العراق وأفغانستان في المكسيك؟!

في تلك المسألة، المغلفة في سؤال بسيط، يكمن أبسط نقد للسياسة الخارجية الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة: وهو نقد، كما سنرى، يتجاوز كثيرا حدود المكسيك، فهو يشمل أوراسيا، ومع ذلك فهو متجذر في جغرافية أمريكا الشمالية. سأبدأ بباسيفيتش لمجرد كون إحباطه صارخا ولأن صراحته مثيرة للإعجاب - ومؤثرة بصفة خاصة: فبالإضافة إلى أنه من خريجي أكاديمية وست بوينت العسكرية ومن قدامى محاربي فيتنام، فقد قُتل ابنه في العراق. غير أنه في حين يمكن لباسيفيتش في كتبه أن يكون مجادلا مع تجاهل ساحق لنخب الساحل الشرقي ولجميع أنواع التشابكات التي يورطون فيها أمريكا في الخارج، فهناك آخرون ممن تتوافق وجهات نظرهم بشكل كبير مع آرائه. إن تحليلاتهم، جنبا إلى جنب مع تحليل باسيفيتش، تتسم قبل كل شيء بأنها متجذرة في محاولة واعية لتجاوز

التاريخ الأحداثي إلى ذلك الطويل المدى. وعندما أفكر في ما يقلق كل أولئك المحللين حقا تتبادر إلى ذهني الفترة الطويلة التي اقترحها بروديل.

بيد أن باسيفيتش، جنبا إلى جنب مع ستيفن والت Walt، وجون ميرشايمر Mearsheimer، وبول بيلار Pillar، ومارك هيلبرن Helprin، وتيد غالين كاربنتر Carpenter، والراحل صامويل هنتنغتون Huntington ليسوا، في جميع الحالات، هم أكثر الأصوات شهرة في مجال تحليل السياسات الخارجية، كما أن إدراجهم ضمن الفئة نفسها هو في حد ذاته ضرب من التوسيع. ومع ذلك، فبالمعنى المركب نجد أنهم شككوا في التوجهات الأساسية للسياسة الخارجية الأمريكية على المدى الطويل. يعمل والت أستاذًا بجامعة هارفارد وميرشايمر في جامعة شيكاغو، لكن مع كل الهيبة التي يحملها هذان المنصبان، فإن كتابهما المعنون «اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأمريكية»، والمنشور في العام 2007، قد تلقى معاملة خشنة للغاية بسبب ادعائهما بأن أنصار إسرائيل في أمريكا كانوا هم الجناة الرئيسيين وراء حرب العراق، وهي حرب كان جميع أفراد هذه المجموعة من المحللين معارضين لها بكل قوة؛ أو للكيفية التي جرى بها خوضها. أما هيلبرن، وهو روائي وجندي إسرائيلي سابق، فلديه اعتقاد راسخ بأن الصين ستكون الخصم العسكري الرئيسي لأمريكا، وهو اعتقاد يتشاركه معه أيضا ميرشايمر. وكلاهما، جنبا إلى جنب مع بيلار، وهو محلل سابق في وكالة الاستخبارات المركزية CIA، يشعرون بالغضب بسبب تحويل الموارد الأمريكية إلى حروب لا طائل منها في الشرق الأوسط، في حين تستحوذ الصين على أحدث التقنيات الدفاعية. وفي الواقع إننا حتى لو تمكنا من تحقيق الاستقرار في أفغانستان وباكستان، فستكون الصين هي المستفيد الرئيسي، لكونها قادرة على بناء الطرق وخطوط الأنابيب في جميع أنحاء المنطقة كجزء من سعيها إلى الحصول على الطاقة والمعادن والفلزات الاستراتيجية. وفي الوقت نفسه، يحذر كاربنتر بشدة من الخطر الذي تمثله المكسيك التي يعصف بها العنف؛ كما فعل هنتنغتون في سنواته الأخيرة. إن دمج أفكارهما، فضلا عن أفكار آخرين يمكنني تسميتهم، وجميعهم ينتمي بصورة أو بأخرى إلى معسكر الواقعيين في دوائر السياسة الخارجية، يعني التوصل إلى استنتاج مفاده أن أمريكا تواجه ثلاث معضلات جيوسياسية أساسية: أرض مركزية أوراسية تعج بالفوضى في الشرق الأوسط، وقوة عظمى صينية صاعدة وحازمة، ودولة واقعة في ورطة كبيرة بالمكسيك. وكذلك

فإن التحديات التي نواجهها مع الصين والمكسيك يمكن التعامل معها بأكثر قدر من الكفاءة عن طريق الحذر من التورط في مزيد من التدخل العسكري في الشرق الأوسط؛ فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن الحفاظ بها على القوة الأمريكية نفسها لعقود قادمة، والبقاء على قيد الحياة خلال جزء من الفترة الطويلة.

وبطبيعة الحال، هناك موضوع الأمن، أي بعض العجرفة من هذا المنظور، في مثل هذا التفكير البعيد المدى. لم يقم أي من أولئك الرجال بمعالجة كافية، على سبيل المثال، لما يمكن أن يحدث في الواقع إذا انسحبنا بسرعة، مثلا، من أفغانستان. هل ستجف المعلومات الاستخباراتية التي أدت إلى الهجمات الناجحة بالطائرات من دون طيار على تنظيم القاعدة في وزيرستان؟ هل سيتمكن أيمن الظواهري وغيره من الشخصيات البارزة التي لاتزال على قيد الحياة من تنظيم القاعدة من الدخول منتصرين، أمام كاميرات تلفزيون الجزيرة، إلى مدينة جلال أباد؟ هل ستصبح أفغانستان دولة متطرفة تحكمها طالبان بوصاية من الاستخبارات الباكستانية؟ وهل الهند، وهي الدولة المحورية العالمية في القرن الحادي والعشرين، ستفقد احترامها للولايات المتحدة نتيجة لذلك؟ وهل ستضم إيران غرب أفغانستان بصورة غير رسمية؟ وماذا كان سيحدث للعراق لو انسحبنا بالكامل في العام 2006، في ذروة أعمال العنف هناك، كما كان بعض هؤلاء المحللين يتمنى من دون شك؟ هل كانت الفظائع الطائفية ستتزايد من مستوى البلقان إلى مستوى رواندا، مع سقوط مليون قتيل بدلا من مائة أو مائتي ألف؟ يجب أن يكون المرء بارد الدم بشكل خاص بحيث لا يدرك التأثير الهائل لمثل هذه النتائج المختلفة في حياة الأفراد. وبالإضافة إلى ذلك، ماذا كان يحدث في المنطقة، ولسمعة أمريكا باعتبارها قوة عظمى، لو كنا قد انسحبنا بهذه الطريقة؟ وكيف كان سيتمكن تنفيذ مثل هذا الانسحاب السريع؟ لا تقل مطلقا إن الأمور لا يمكن أن تزداد سوءا بكثير عما هي عليه، لأنها يمكن أن تفعل ذلك.

وفي الواقع فإن الانسحاب المتسرع من العراق أو أفغانستان سيكون تصرفا غير مسؤول - سواء رضينا بذلك أم لا - لأننا لمجرد قيامنا بغزو هذه الأماكن والبقاء هناك لفترة طويلة للغاية، فقد اكتسبنا حصة كبيرة من نتائج أفعالنا هذه. ومع ذلك، فإنه سيكون من الظلم أن نحكم على هؤلاء المحللين وغيرهم ممن يتفقون معهم بناء على التفاصيل المتعلقة بالعراق وأفغانستان وحدها. يتمثل منبع العاطفة المستبطنة

لمعتقداتهم في أننا لم يكن ينبغي أبدا أن نتدخل في هذه البلدان في المقام الأول. وبغض النظر عما ستؤول إليه حال العراق في نهاية المطاف، فإن عدد القتلى، سواء الأمريكيون أو العراقيون، سيظل يخيم على مناقشات السياسة الخارجية الأمريكية طوال عقود، تماما كما فعلت فيتنام؛ فهم يمثلون أكثر من مجرد التاريخ الأحداثي. ومن المؤكد أن هؤلاء المحللين غير مهتمين بما يجب القيام به لاحقا في أفغانستان والعراق. وبدلا من ذلك - ومرة أخرى، من خلال الدمج بين أفكارهم - فهم يسألون أنفسهم، ماذا كانت تكلفة الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها بالفعل؟ هل يمكن إنقاذ مكانتنا كقوة عظمى؟ وإلى أين نوجه قصارى جهدنا، من حيث عمليات الانتشار العسكري والمساعدات المدنية الشديدة الانتقائية، بحيث يمكن لأمريكا أن تساعد في الحفاظ على توازن القوى في أوراسيا، وألا تغرق على مدى العقود من قبل المكسيكيين الفارين من دولتهم المضطربة؟ وكما صاغها ياكوب جريغل، فإن «العزلة الجغرافية هي نعمة إستراتيجية يجب ألا تُبدد بانتهاج إستراتيجية توسعية»⁽⁵⁾. إذن فما مقدار ما أهدرناه بالفعل؟ يتفق مايكل ليند Lind، الباحث في مؤسسة نيو أمريكا في واشنطن، مع باسيفيتش حول حماقة كل من حرب العراق وتصعيد الحرب في أفغانستان؛ غير أنه يختلف مع باسيفيتش بشأن ما إذا كان بوسع أمريكا تحمّل تكلفة مثل هذه الصراعات. يجادل ليند بأن جزءا قليلا نسبيا من الدين debt الوطني هو نتيجة الإنفاق العسكري، فضلا عن خوض حربين في وقت واحد، وأن خفض تكاليف الرعاية الصحية أكثر محورية بكثير للملاءة المالية الأمريكية من الحماقات شبه الإمبريالية، بقدر ما هو معارض لها⁽⁶⁾. وفي الواقع أن إلقاء نظرة على بعض أخطاء الإمبراطوريات الماضية يمكن أن يضيئ منظورا ما على الهزيمة التي لحقت بنا في كل العراق وأفغانستان، سواء من حيث تأثيرها في السياسة الخارجية للولايات المتحدة بالفعل، أو تأثيرها في قدرتنا على التعامل مع التحديات المستقبلية في الشرق الأوسط، والصين، والمكسيك طوال القرن الحادي والعشرين.

في العام 1449، وفي أثناء عودته من حملة فاشلة في منغوليا، كان جيش مينغ الصيني محاطا بقوات المغول. ومن دون ماء، شعر الصينيون بالذعر. ونظرا إلى ثقتهم في رحمة المغول، كما كتب جريغل، فإن «العديد ألقوا دروعهم وركضوا

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

نحو خطوط العدو». دُبح ما يصل إلى نصف مليون جندي صيني، وأصبح إمبراطور أسرة مينغ أسيرا لدى المغول. مثلت مغامرة جيش مينغ في منغوليا بداية الانحسار الطويل لأسرة مينغ. لم يحاول جيش مينغ مواجهة المغول مرة أخرى في البادية الشمالية مطلقا، رغم أن التوتر مع المغول كان يستنزف الطاقة من قيادة أسرة مينغ. وأدى ذلك إلى تراجع الصين من آسيا البحرية، ما ساعد على تشجيع دخول القوى الأوروبية إلى الأرض المحورية⁽⁷⁾.

لم يحدث شيء كارثي كهذا في أعقاب مغامرة أمريكا في العراق - فمكانتنا العسكرية والاقتصادية في جميع أنحاء العالم، وخاصة في شرق آسيا، تتسم بالقوة ولا تُظهر أي علامات على الخندقة retrenchment، فضلا عن التراجع. لقد فقدنا أقل من 5,000 جندي، كما أصيب 32,000 آخرون بجروح خطيرة، وهو ثمن باهظ، ولكن ليس بالنسبة إلى قوة غازية قوامها نصف مليون جندي. إن الجيش الأمريكي، الذي تحمل العبء الأكبر من القتال في العراق، يضم ما يقرب من نصف مليون منتسب في الخدمة الفعلية، وبالتحديد بسبب خبرته التي اكتسبها في الحرب غير النظامية في العراق فهو الآن أفضل تدريبا، وأكثر مرونة من الناحية العقائدية، وأكثر دهاء من الناحية الفكرية من أي وقت مضى؛ والشئ نفسه ينطبق على قوات مشاة البحرية.

إن الولايات المتحدة، لم تقع - لا في العراق ولا في أفغانستان - في هذا النوع من الخطأ المحوري الذي وقعت فيه البندقية Venice في أواخر القرون الوسطى. لم يكن الموقع الجغرافي المتميز للبندقية بين طرق التجارة في غرب وشرق البحر المتوسط، هو وحده ما أتاح لها بناء إمبراطورية بحرية؛ بل حقيقة إن البندقية كانت محمية من البر الرئيسي الإيطالي بواسطة بضعة أميال من المياه، ومحمية من الغزو من جهة البحر بواسطة حواجز رملية طويلة. ومن بين أسباب تراجع البندقية اعتبارا من القرن الخامس عشر، كان قرارها أن تصبح قوة في البر الرئيسي لإيطاليا.

ومن خلال خوض الحرب مرارا وتكرارا ضد فيرونا، وبادوا، وفلورنسا، وميلانو، واتحاد كامبراي، لم تعد البندقية بعيدة عن السياسة «القاتلة» لتوازن القوى على البر، وكان لهذا أثر سلبي في قدرتها على نشر القوة البحرية⁽⁸⁾. لا بد لمثال البندقية

أن يسبب قلقا لدى صناع السياسة الأمريكية إذا - فقط إذا - رغبت الولايات المتحدة في اعتياد التدخلات العسكرية البرية في الشرق الأوسط الكبير. لكن إذا تمكنت أمريكا من أن تحصر نفسها من الآن فصاعدا باعتبارها قوة جوية وبحرية، فسيمكنها بسهولة أن تتجنب مصير البندقية. إن ديمومة الحروب الصغيرة هي ما يمكنها تحطيمنا، وليس سوء التقدير الصاعق الذي يحدث مرة في كل ثلث قرن، مهما كان حجم المأساة والرعب الناتجين عنه.

وفي ضوء ذلك، من الممكن مقارنة العراق خلال أسوأ قتال شهده بين عامي 2006 و2007 بالتمرد الهندي ضد البريطانيين خلال عامي 1857 و1858، عندما فقد المستشرقون وغيرهم من البراغماتيين في هيكل السلطة البريطانية، والذين كانوا يريدون ترك الهند التقليدية كما كانت، بعض نفوذهم للإصلاحيين الإنجليين والنفعيين الذين كانوا يريدون تحديث وتنصير الهند - بجعلها أقرب شبيها بإنجلترا. لكن محاولة جلب ثمار الحضارة الغربية إلى شبه القارة الهندية واجهها تمرد ضد السلطة الإمبراطورية. تعرّضت دلهي، ولكنو Luknow، وغيرهما من المدن للحصار والاستيلاء عليهما قبل أن تستعيدهما القوات الاستعمارية. ومع ذلك، لم تؤذن هذه الهزيمة بنهاية الإمبراطورية البريطانية، التي ازدادت توسعا طوال قرن آخر من الزمان. وبدلا من ذلك، فقد مثلت علامة على التحوّل من إمبراطورية ذات هدف محدّد، والتي أطلقتها شهوة البروتستانتين لفرض قيمهم إلى إمبراطورية أكثر هدوءا وواقعية، والمبنية على التجارة الدولية والتكنولوجيا⁽⁹⁾.

وكذلك فإن التاريخ القديم يزودنا بأمثلة تلقي بظلال من الشك حول ما إذا كانت أفغانستان والعراق، في حد ذاتهما، قد حكمتا علينا بالفشل. ومن المشهور، نجد حملات صقلية التي رواها ثوكوديدس Thucydides في الكتاب السادس عن الحرب البيلوبونيسية. انقضت أربعة عشر عاما بين أولى غزوات أثينا على صقلية وكارثتها النهائية هناك، أي في معركة سيراكيوز البحرية في العام 413 قبل الميلاد، وهو نفس العدد من السنوات الذي انقضى بين الغزوات المبكرة لإدارة جون ف. كينيدي Kennedy في فيتنام وبين الانسحاب النهائي للرئيس جيرالد فورد Ford بعد احتلال سايجون. أدت الحرب الصقلية إلى تقسيم الجبهة الداخلية في أثينا، كما فعلت حربا فيتنام والعراق. وبالنظر إلى شعورهم بالعجز بسبب التشاؤم

وتبادل الاتهامات، فقد مضى وقت طويل قبل أن يصبح الأثينيون على استعداد جدي لاستئناف الصراع الثنائي القطب مع إسبرطة. إن صقلية، كما اتضح لاحقاً، لم تكن حاسمة تماماً بالنسبة إلى بقاء ديموقراطية أثينا وإمبراطوريتها البحرية. وعلى الرغم من أنها فقدت وعانت كثيراً، فقد كانت أثينا لاتزال تمتلك الموارد اللازمة لقيادة تحالف، برغم أن مغامرتها في صقلية سيثبت أنها نقطة تحول في الحرب البيلوبونيسية، التي خسرتها أثينا.

وهناك أيضاً المثال الأكبر، المتمثل في انحدار وسقوط روما، والذي وصفه بالتفصيل في العام 1976 من قبل إدوارد ن. لوتواك Luttwak في كتابه المعنون «الاستراتيجية الكبرى للإمبراطورية الرومانية: من القرن الأول إلى الثالث للميلاد». تتمثل طريقة لوتواك، بدلاً من الحديث عن الانحدار بصورة عامة، في مناقشته من حيث استراتيجية روما الكبرى. يحدّد لوتواك ثلاث مراحل زمنية للإستراتيجية الرومانية الكبرى: الأولى هي النظام اليوليوسي - الكلوديوسي Julio-Claudian، أو منظومة الإمبراطورية الجمهورية، التي كانت فيها الدول العميلة التي تحيط بالقلب الإيطالي للإمبراطورية معجبة «بشمولية» القوة الرومانية بما يكفي لتنفيذ رغبات الإمبراطورية، من دون الحاجة إلى جيوش محتلة. وفي هذه المرحلة، كانت الدبلوماسية - وليس القوة العسكرية - مكوّناً نشطاً من الإكراه الروماني، برغم متركز تشكيلات ساحقة من القوات الرومانية ضمن «دائرة هائلة» حول روما. ولأنه لم تكن هناك حاجة إلى قيام هذه القوات باحتلال الدول العميلة، أو للدفاع عن أراضيها بأي معنى من المعاني، فقد كانت، على حد تعبير لوتواك، «متنقلة بطبيعتها ويمكن إعادة توزيعها بسهولة». هنا كانت القوة في أوجها، والتي تمارس بحكمة، وتُدار على أساس اقتصاد القوة. كانت القدرة على التدخل السريع متاحة بسهولة لمواجهة أي طوارئ عسكرية، وكان جميع من يعيشون في عالم البحر المتوسط على علم بذلك. لذلك، كان الجميع يخشون روما. وهنا تتبادر إلى الذهن أمريكا في عهد رونالد ريغان، مع التزايد الهائل في القوة العسكرية التي كان وزير الدفاع كاسبار واينبرغر Weinberger، على الرغم من ذلك، عاقد العزم على عدم استخدامها، وذلك لتعزيز سمعة القوة من دون الحاجة إلى خوض مغامرات محفوفة بالمخاطر. أما النظام الأنطوني Antonine،

الذي حكم خلال الفترة من منتصف القرن الأول إلى منتصف القرن الثالث للميلاد، فيعكس ما يسميه لوتواك «أقلمة» territorialization الإمبراطورية: شعرت روما بالحاجة إلى نشر قواتها العسكرية في كل مكان، وفي الدول العميلة نفسها، من أجل ضمان ولائها، وبالتالي فقد ضاع مبدأ اقتصاد القوة. ومع ذلك، كانت الإمبراطورية مزدهرة، وكان هناك ترويم Romanization طوعي واسع النطاق بين القبائل البربرية، «ما أدى إلى القضاء على ما تبقى من آثار السخط القومي»، ولو إلى حين.

ومع ذلك، فهذا الترويم للإمبراطورية سيؤدي بمرور الوقت إلى بناء وحدة بين القبائل المختلفة، ما أدى إلى تضافر جهودها في قضيتها المشتركة ضد روما، لأنها كانت قد توحدت الآن ضمن ثقافة لا تنتمي إليها.

لنتفكر في كيف أن العولمة، التي تمثل بمعنى ما أمركة العالم، تعمل على الرغم من ذلك كوسيلة لتحدي الهيمنة الأمريكية. ومن هنا جاء النظام الثالث ليشكل الإستراتيجية الكبرى لروما: ما أسماه دقلديانوس «الدفاع في العمق»، حيث تجمعت الشعوب الحدودية في اتحادات رسمية قادرة على تحدي روما، وهكذا كانت الدولة في موقف دفاعي في كل مكان، مع تواصل انتشار حالات الطوارئ باستمرار؛ وهنا فقدت القدرة على التدخل السريع التي احتفظ بها حتى النظام الثاني. ومع وصول فيالقها إلى نقطة الانهيار، تناقص عدد الشعوب التي تخشى روما شيئا فشيئا⁽¹⁰⁾.

مع الأسف، نحن عالقون في منطقة مألوفة بشكل مخيف؛ فمثلما عملت القوة الرومانية على تحقيق الاستقرار على سواحل البحر المتوسط، فإن القوات البحرية والجوية الأمريكية تجوب المشاعات العالمية لمصلحة الجميع، برغم أن هذه الخدمة نفسها - كما كانت الحال مع روما - تؤخذ على أنها أمر مفروغ منه، في حين أن ما انكشف على مدى العقد الماضي كان الإجهاد المفرط لكل من الجيش الأمريكي ومشاة البحرية، المشغولين بمحاولة إخماد حركات التمرد في أقاصي الأرض. ولذلك، ينبغي على أمريكا أن تفكر في ثمة استراتيجية كبرى تسعى إلى استعادة مكانتها من شيء يُشبه نظام روما الثالث إلى ذلك الثاني، أو إلى الأول. وفي حين أن أمريكا ليس لديها دول عميلة، فلديها حلفاء وأصدقاء

يفكرون بالعقلية نفسها، والتي تحتاج إلى إبهارهم من أجل جعلهم أكثر فعالية في التحرك نيابة عنها. تستطيع أمريكا أن تفعل ذلك بأفضل صورة من خلال اعتماد ديبلوماسية نشطة وبناء احتياطي من القوات، التي لا تستخدم إلا قليلا، وذلك لاستعادة قدرتها على التدخل السريع، من ذلك النوع الذي تمتعت به روما في ظل النظام اليوليوسي - لكلوديوسي الأصلي. إن طول بقاء روما نفسه قد أثبت نجاح إستراتيجيتها الكبرى، ومع ذلك كان انحدارها وسقوطها الصاخب في أوروبا الغربية في نهاية المطاف بسبب فشلها في التكيف مع تشكيل تجمعات وطنية جديدة في شمالها، والتي وفرت الخطوط العريضة لظهور الدول الأوروبية الحديثة. وبسبب هذه التشكيلات، كانت الإمبراطورية الرومانية في سبيلها إلى الانقراض على أي حال، لكن لم يكن من الضروري أن يحدث ذلك مُبكرا كما وقع بالفعل، ولا بالطريقة التي حدث بها. تمثل الفشل الحقيقي لروما في المرحلة النهائية من استراتيجيتها الكبرى في أنها لم توفر آلية للتراجع المتناسق، حتى في الوقت الذي فسدت فيه من الداخل. لكن على وجه التحديد - وعلى عكس التوقعات البديهية - من خلال التخطيط لمثل هذا الخروج البارع من هذا النوع من الهيمنة، يمكن لدولة أو إمبراطورية أن تطيل بالفعل من أمد موقفها القوي. ليس هناك شيء أفضل بالنسبة إلى أمريكا من تهيئة العالم لاحتمال زوالها، فبهذه الطريقة ستكافح من أجل هدف ما، وليس لمجرد الاستمتاع بالقوة لذاتها.

لكن، كيف يمكن أن تُعد أمريكا نفسها لخروج طويل ومتناغم من التاريخ بوصفها قوة مهيمنة؟ ومثل بيزنطة، فبوسعها تجنب التدخلات المكلفة، واستخدام الدبلوماسية لتدمير الأعداء، وتوظيف أصولها الاستخباراتية في استخدام إستراتيجية، وما إلى ذلك⁽¹¹⁾. وبوسعها أيضا - وهو الأمر الذي يعود بنا مرة أخرى إلى باسيفيتش - ضمان عدم التقوّض من جهة الجنوب بالطريقة التي تعرضت لها روما من الشمال. يحدّ أمريكا محيطان من الشرق والغرب، ومن الشمال هناك القطب الشمالي الكندي، الذي لا تسكنه سوى جماعات ضئيلة العدد من أفراد الطبقة الوسطى على الحدود الأمريكية. (إن الحدود الأمريكية - الكندية هي الحدود الأكثر استثنائية في العالم لأنها طويلة، واصطناعية، ومع ذلك فقد فقدت أهميتها⁽¹²⁾). لكن الجنوب الغربي هو حيث تصبح أمريكا عرضة للخطر؛ فهي

المنطقة الوحيدة التي تشهد فيها الحدود الوطنية والإمبريالية الأمريكية بعض التوتر: وحيث يمكن التشكك في اتساق أمريكا كوحدة متماسكة جغرافيا⁽¹³⁾. ولأن الأراضي الحدودية التاريخية بين أمريكا والمكسيك تتسم بأنها واسعة وغير محدّدة المعالم، والتي تُشبه كثيرا الجزء الشمالي الغربي من شبه القارة الهندية، برغم أنه يكشف ضغوطا حضارية. وكما أشار إليه المؤرخ بجامعة ستانفورد، ديفيد كينيدي، فإن «الفجوة في الدخول بين الولايات المتحدة والمكسيك هي الأكبر بين أي بلدين متجاورين في العالم»، حيث يبلغ الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي تسعة أضعاف مثيله في المكسيك⁽¹⁴⁾.

تنبع السياسة الخارجية الأمريكية من الحالة الداخلية لمجتمعها، كما أن شيئا لن يؤثر في مجتمعها أكثر من حركة درامية للتاريخ اللاتيني باتجاه الشمال. تمثّل المكسيك وأمريكا الوسطى قوة ديموغرافية متنامية، التي تمتلك الولايات المتحدة معها علاقة لا تنفصم. إن سكان المكسيك البالغ عددهم 111 مليوناً، بالإضافة إلى سكان أمريكا الوسطى البالغين 40 مليوناً يمثلون نصف سكان الولايات المتحدة. وبسبب النافتا NAFTA (اتفاقية التجارة الحرة لبلدان أمريكا الشمالية)، يذهب 85 في المائة من جميع صادرات المكسيك إلى الولايات المتحدة، حتى نصف إجمالي تجارة أمريكا الوسطى يتم مع الولايات المتحدة. وفي حين أن متوسط عمر median age الأمريكيين يقترب من السابعة والثلاثين، ما يشير إلى توجه لتشيخ سكان الولايات المتحدة، فإن العمر المتوسط في المكسيك هو الخامسة والعشرون، ويقل عن ذلك بكثير في أمريكا الوسطى (إذ يبلغ عشرين عاماً في غواتيمالا وهندوراس، على سبيل المثال). وبالتالي، فإن مصير الولايات المتحدة سيتحدد بين الشمال والجنوب، وليس من الشرق إلى الغرب، أو من البحر إلى البحر الساطع، وهي خرافة قارية ووطنية (والتي ستتضخم بفعل التوسيع المقرر في العام 2014 لقناة بنما، والذي سيفتح حوض الكاريبي أمام السفن العملاقة الآتية من شرق آسيا، ما سيؤدي إلى مزيد من التطوير لمدن الموانئ الواقعة على خليج المكسيك في الولايات المتحدة، من تكساس إلى فلوريدا)⁽¹⁵⁾.

إن نصف طول الحدود الجنوبية لأمريكا عبارة عن خط من الحدود المصطنعة في الصحراء، والتي أنشئت بموجب المعاهدات التي قلت الحرب المكسيكية -

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

الأمريكية التي دارت رحاها بين عامي 1846 و1848. وعند عبوري هذه الحدود ذات مرة، بعد أن سافرت بالحافلة شمالا من مدينة مكسيكو سيتي، أصبت بقدر من الصدمة يشبه ما استشعرته لدى عبور الحدود الأردنية - الإسرائيلية وجدار برلين. كنت محاطا بالمتسولين على الرصيف المتكسر لمدينة نوغاليس، بولاية سونورا، وعندها حددت في العلم الأمريكي الذي يشير إلى الحدود. كانت نقطة عبور المشاة إلى نوغاليس، أريزونا، تقع في مبنى صغير. وبمجرد لمس مقبض الباب، فقد دخلت عالما ماديا جديدا. كان المقبض المصنوع بمتانة من معدن ذي جودة عالية، والزجاج النظيف، والطريقة الدقيقة التي تم بها تركيب بلاط السيراميك في الغرفة بمنزلة إلهام بعد قضاء أسابيع وسط المباني المكسيكية الرثة. كان هناك شخصان فقط في الغرفة: مسؤول الهجرة ومسؤول الجمارك، ولم يكن أحدهما يتحدث إلى الآخر. في المرافق الحكومية بهذا الحجم في المكسيك وغيرها من دول العالم الثالث، توجد دائما حشود من المسؤولين والمتسكعين المنهمكين في محادثات صاخبة، وهم يحتسون الشاي أو القهوة. وبالنظر عبر النافذة إلى حارات السيارات، رأيت كيف أن عددا قليلا من الأفراد يقومون بحماية المحطة الحدودية، ومع ذلك لاحظت مدى الكفاءة التي تُدار بها المحطة. ولم يمض سوى وقت ضئيل، كما كانت الحال في إسرائيل، وكنت داخل بيئة قياسية تماما على الرغم من كونها باردة ومنقّرة، مع شوارع خاوية كانت شعارات المتاجر فيها مصنوعة من بوليمرات عصرية بدلا من المعادن الصدئة والبلاستيك الرخيص.

وبسبب الاضطراب وشبه الفوضى التي شهدتها لمدة أسابيع وسط أكثر من مائة مليون مكسيكي إلى الجنوب مباشرة، فقد بدت لي هذه الشوارع الهادئة عرضة للخطر، وغير طبيعية أيضا. كتب أرنولد توينبي، في إشارة إلى الشعوب البربرية وروما، أن الحدود بين مجتمعين أحدهما على درجة عالية من التطور والآخر أقل تطورا، عندما «تتوقف عن التقدم، فإن الميزان لا يثبت على توازن مستقر غير أنه يميل، بمرور الوقت، إلى مصلحة المجتمع الأكثر تخلفا»⁽¹⁶⁾.

ومنذ العام 1940 ازداد عدد سكان المكسيك بأكثر من خمسة أضعاف. وما بين عامي 1970 و1995، تضاعف عدد السكان تقريبا، كما ازداد بأكثر من الثلث ما بين عامي 1985 و2000. إن سكان المكسيك البالغ عددهم 111 مليونا الآن يزيد على ثلث

سكان الولايات المتحدة، لكنه ينمو بمعدل أسرع. ومع ذلك، لا تُظهر نخب الساحل الشرقي سوى اهتمام ضئيل نسبياً بالمكسيك. إن التحديات الفعلية، والحوادث، والأعمال التجارية اليومية والتفاعلات الثقافية بين المكسيك والولايات الحدودية - كاليفورنيا، وأريزونا، ونيو مكسيكو، وتكساس - تتسم ببعدها الجغرافي عن اهتمامات النخب في الساحل الشرقي: التي تركز، بدلاً من ذلك، على العالم الأوسع وعلى مكانة أمريكا في ذلك العالم. وبالفعل، فإن نصيب المكسيك من تفكير النخبة يقل بكثير عن حصة إسرائيل أو الصين، أو حتى الهند. ومع ذلك، من الممكن أن تؤثر المكسيك في مصير أمريكا بأكثر مما تفعل أي من تلك البلدان. إن المكسيك، جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة وكندا، تضم الأهم من بين الأقمار القارية التي تحوم حول الجزيرة العالمية التي تصورها ماكيندر.

وفي وادي المكسيك، كانت تقف في الماضي بحيرة كبيرة تضم بندقيتي Venices حضارة الأزتيك: تينوختيتلان وتلاتيلولكو؛ وهو الموقع نفسه الذي تحتله الآن مكسيكو سيتي. كان هذا هو «وادي النيل» بالنسبة إلى العالم الجديد، أو «مصفوفة الحضارة» لكل من أمريكا الشمالية والجنوبية، على حد تعبير المؤرخ هنري بامفورد باركس Parkes، فمنها انتشرت زراعة الذرة عبر القارتين. ولكونه يقع في منتصف المسافة بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي، كما يدمج بين أمريكا الوسطى واليابسة القارية لنصف الكرة الأرضية الغربي، فإن وادي المكسيك والبلد الذي انبثق عنه يشكل واحدة من الأنوية الحضارية الكبرى للأرض⁽¹⁷⁾.

ومع ذلك فإن المكسيك، على عكس مصر، لا تُظهر وحدة جغرافية؛ إذ تقع سلسلتان جبليتان كبيرتان، هما سيرا مادري الغربية وسيرا مادري الشرقية، على الجانبين هضبة وسطى تتسم بالوعورة. ثم إن هناك سلاسل جبلية متقاطعة أخرى، لا سيما في الجنوب: مثل سيرا مادري ديل سور، وسيرا مادري دي أواكساكا.. وهلم جرا. تعج المكسيك بالجبال لدرجة أنه إذا سُويت بالأرض فستكون بحجم قارة آسيا. إن كلا من شبه جزيرة يوكاتان وولاية باخا كاليفورنيا منفصلتان أساساً عن بقية المكسيك، التي هي في حد ذاتها منقسمة على نحو جهنمي. هذا هو السياق الذي ينبغي اتباعه لفهم التوحد المستمر، وغير المعلن وغير المبلغ عنه إلى حد كبير، والذي

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

لا يمكن إنكاره لشمال المكسيك مع جنوب غرب الولايات المتحدة، وما يترتب على ذلك من انفصاله عن بقية أجزاء المكسيك.

لقد ازداد سكان شمال المكسيك بأكثر من الضعف منذ توقيع اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (الناftا) في العام 1994. ويمثل الدولار الأمريكي حاليا وحدة مشتركة للصرف جنوبا حتى مدينة كوليساكان، الواقعة في منتصف الطريق إلى مكسيكو سيتي. إن شمال المكسيك مسؤول عن 87 في المائة من جميع الصناعات التحويلية التصديرية (المعفاة من الرسوم الجمركية) و85 في المائة من إجمالي التجارة بين الولايات المتحدة والمكسيك. أما مدينة مونترى في شمال شرق المكسيك، وهي واحدة من كبرى المدن في البلاد، فترتبط ارتباطا وثيقا مع قطاعات البنوك، والصناعة، والطاقة بولاية تكساس. إن ديفيد دانيلو Danelo، وهو جندي سابق في مشاة البحرية الأمريكية الذي يعمل الآن في مصلحة الجمارك الأمريكية، والذي درس شمال المكسيك بتعمق، وارتحل عبر جميع الولايات الحدودية المكسيكية الست، قد أخبرني بأنه لم يلتق أي شخص هناك يمتلك أكثر من درجة واحدة من الانفصال عن الولايات المتحدة. وكما قال لي، فإن «شمال المكسيك يحتفظ بإحساس بالقضية الثقافية؛ فسكان الشمال nortenos يعتبرون أنفسهم نقيضا [مثقفي المدينة] من سكان مكسيكو سيتي» chilangos. ومع ذلك، فإن شمال المكسيك ينطوي على تقسيماته الجغرافية الخاصة. تتسم السهول والصحراء في سونورا الواقعة في الغرب باستقرارها عموما؛ أما حوض نهر ريو غراندي في الشرق فهو الأكثر تطورا وتوصلا في الولايات المتحدة الأمريكية- ثقافيا واقتصاديا، وهيدرولوجيا - وبالتالي استفاد أكثر من غيره من اتفاقية الناftا⁽¹⁸⁾. وفي الوسط، هناك الجبال والسهول، التي ينعدم فيها القانون تقريبا: شاهد مدينة سيوداد خواريز Ciudad Juárez الحدودية، الواقعة على الجهة المقابلة لمدينة إلباسو بولاية تكساس، التي دمرتها المعارك الجارية بالأسلحة النارية ووجود السفاحين. إن سيوداد خواريز هي عاصمة الاغتيالات في المكسيك، حيث قتل 700 شخص في الأشهر الأولى من العام 2010 وحده. وفي العام 2009 توفي أكثر من 2600 نتيجة لأعمال العنف في مدينة لا يزید سكانها على 1.2 مليون، كما يرجح أن يكون 200.000 آخرون قد فروا

منها⁽¹⁹⁾. وفي شيووا، وهي الولاية التي تقع فيها سيوداد خواريز، بلغ معدل جرائم القتل 143 لكل 100.000، وهو من أسوأ المعدلات في النصف الغربي من الكرة الأرضية. كانت الجبال والسهوب الشمالية دائماً معقل القبائل المكسيكية: كارتلات المخدرات، والمينونايت، وهنود الياكي Yaqui، وما إليها. وكان من الصعب على الإسبان ترويض هذه الحدود القاسية. وفي وقت لاحق، وبالتحديد في ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت مخبأ لجيرونيمو وهنود الأباتشي التابعين له. وبوسع المرء أن يفكر أيضاً في المرتفعات النائية الأخرى التي وفرت ملجأ للمتمردين: الشيوعيين الصينيين في شنشي Shaanxi، والثوار الكوبيين في سلسلة جبال سييرا مايسترا، وتنظيم القاعدة وحركة طالبان في وزيرستان⁽²⁰⁾. وقد خرجت كارتلات المخدرات بدورها من رحم هذا التقليد الجغرافي.

إن حقيقة كون معظم حالات القتل المرتبطة بالمخدرات قد وقعت في ست فقط من الولايات المكسيكية الـ 32 التي يقع معظمها في الشمال، هي مؤشر آخر على مدى انعزال شمال المكسيك عن بقية البلاد (برغم وجود عنف ملحوظ أيضاً في مناطق فيراكروز وميتشواكان وغيريرو). وإذا تعرضت الهجمات التي يقودها الجيش لسحق كارتلات المخدرات، التي بدأها الرئيس المحافظ فيليبي كالديرون Calderón في العام 2006، لفشل تام، ومن ثم عادت مكسيكو سيتي إلى إبرام الاتفاقيات مع الكارتلات، فإن العاصمة - بالمعنى الوظيفي - قد تفقد السيطرة على الشمال، مع تداعيات خطيرة بالنسبة إلى الولايات المتحدة. إن النظام الفدرالي في المكسيك - وهو نتاج مباشر لجغرافيتها الجبلية المفككة - والذي يضم وكاليتين اتحاديتين للشرطة، و32 وكالة تابعة لحكومات الولايات، وأكثر من 1.500 من وكالات الشرطة البلدية، هو ما يجعل إصلاح تلك الوكالات أمراً بالغ الصعوبة. من جانبه، فإن روبرت بونر Bonner، وهو المدير السابق لإدارة مكافحة المخدرات الأمريكية، كتب أنه إذا نجحت العصابات، فإن «الولايات المتحدة ستشارك حدوداً طولها ألفا ميل مع دولة مخدرات narcostate تسيطر عليها كارتلات المخدرات الدولية القوية التي تهدد استقرار أمريكا الوسطى والجنوبية»⁽²¹⁾.

أما الأستاذ الراحل في جامعة هارفارد صموئيل هنتنغتون، الذي صنع شهرته المهنة من الاستبصار، فقد كرّس كتابه الأخير للتحدي الذي تمثله المكسيك بالنسبة

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

إلى الولايات المتحدة⁽²²⁾. وفي كتابه المعنون «من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الوطنية الأمريكية»، الذي نشر في العام 2004، افترض هنتنغتون أن تاريخ البلدان اللاتينية يتحرك ديموغرافيا إلى الشمال باتجاه الولايات المتحدة، وبالتالي سيقوم بتغيير الطابع الأمريكي⁽²³⁾.

يقول هنتنغتون إن كون أمريكا أمة من المهاجرين هو حقيقة جزئية، وليست حقيقة شاملة؛ فأمريكا هي أمة من المستوطنين والمهاجرين الأنجلو - بروتستانتين على حد سواء، حيث وفر السابقون العمود الفقري الفلسفي والثقافي للمجتمع؛ وبالتالي لا يصبح المهاجرون أمريكيين إلا من خلال تبني الثقافة الأنجلو - بروتستانتية. لقد صارت أمريكا إلى ما هي عليه، كما يستطرد هنتنغتون، لأنها استوطنت من قبل البروتستانت البريطانيين، وليس من قبل الكاثوليك الفرنسيين، أو الإسبان، أو البرتغاليين. ولأن أمريكا ولدت بروتستانتية، فلم يكن عليها أن تصبح كذلك، كما أن الليبرالية الكلاسيكية في أمريكا تنبع من هذه الحقيقة ذاتها. إن المعارضة، والنزعة الفردية، والحكم الجمهوري تنبع جميعها من البروتستانتية في نهاية المطاف. «في حين أن العقيدة الأمريكية تتمثل في البروتستانتية من دون الله، فإن الدين المدني الأمريكي هو المسيحية من دون المسيح». غير أن هذه العقيدة، كما يعلل هنتنغتون، قد تتحطم على نحو خفي بفعل تنامي مجتمع هسباني Hispanic، كاثوليكي، ينتمي إلى عصر ما قبل التنوير⁽²⁴⁾. وكما كتب هنتنغتون:

فإن الهجرة المكسيكية تدفع باتجاه إعادة الاحتلال الديموغرافي للمناطق التي استولى عليها الأمريكيون من المكسيك بالقوة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، وبالتالي مكسكتها Mexicanizing بطريقة مشابهة، على الرغم من كونها مختلفة، للكوبنة Cubanization التي حدثت في جنوب فلوريدا. ويؤدي ذلك أيضا إلى ضبابية الحدود بين المكسيك وأمريكا، عن طريق إدخال ثقافة شديدة الاختلاف⁽²⁵⁾.

من جانبه، كتب الأستاذ في كلية بوسطن، بيتر سكيري Skerry، أن واحدة من «أكثر رؤى هنتنغتون أصالة وإثارة للجدل بصورة مذهلة» هي أن الأمريكان، برغم كونهم رواد التنوع، فإن «موجة المهاجرين الحالية هي في الواقع أقلها تنوعا في تاريخنا، بكل تأكيد». ويواصل سكيري حديثه، مُعيدا صياغة ما كتبه هنتنغتون، «إن

المهاجرين غير اللاتينيين هم أكثر تنوعا من أي وقت مضى. غير أنه بصورة إجمالية، يمثل الخمسون في المائة من المهاجرين الذين هم من أصل إسباني فوجا أقل تنوعا بكثير من أي وقت مضى. أما بالنسبة إلى هنتنغتون، فإن تقلص التنوع هذا يجعل الاستيعاب أقل احتمالا»⁽²⁶⁾.

وكما أشار إليه ديفيد كينيدي، فإن «تنوع وتشتت تيار المهاجرين» قد مهد سبيل تقدم الاستيعاب. «أما اليوم، وعلى أي حال، يتدفق أحد تيارات المهاجرين الكبرى إلى منطقة محددة من مصدر ثقافي، ولغوي، وديني، ووطني واحد: المكسيك ... إن الحقيقة الواعية هي أن الولايات المتحدة لم تُعايش أي تجربة مماثلة لما يحدث الآن في جنوبها الغربي»⁽²⁷⁾.

وبحلول العام 2050، فإن ثلث سكان الولايات المتحدة قد يكون ناطقا بالإسبانية⁽²⁸⁾.

تكمّن الجغرافيا في طبيعة كل هذه الحجج، فها هو هنتنغتون يكتب: «لم تقم أي مجموعة أخرى من المهاجرين في التاريخ الأمريكي بمحاولة تأكيد أو تمكّن بالفعل من تأكيد مطالبة تاريخية بأراضٍ أمريكية. بيد أن المكسيكيين والأمريكيين المكسيكيين يمكنهم، بل يقومون، بهذه المطالبة بالفعل». كانت معظم أجزاء ولايات تكساس، ونيو مكسيكو، وأريزونا، وكاليفورنيا، ونيفادا، ويوتا جزءا من المكسيك حتى حرب استقلال تكساس بين عامي 1835-1836 والحرب المكسيكية - الأمريكية ما بين عامي 1846-1848. إن المكسيك هي البلد الوحيد الذي قامت الولايات المتحدة بغزوه، واحتلت عاصمته، وضمت قدرا كبيرا من أراضيه. وبناء على ذلك، كما يشير إليه سكيري، يصل المكسيكيون إلى الولايات المتحدة، ويقيمون في تلك المناطق من البلاد التي كانت ذات يوم جزءا من وطنهم، وهكذا «يتمتعون بشعور من الوجود على أرضهم» لا يشاركهم فيه المهاجرون الآخرون. يقوم الأمريكيون المكسيكيون حتى الجيل الثالث وما بعده بالحفاظ على كفاءتهم في لغتهم الأم لدرجة أكبر بكثير مما يفعله غيرهم من المهاجرين، الأمر الذي يرجع إلى حد كبير بسبب التركز الجغرافي للمجتمعات الإسبانية، والذي يُظهر النفي الديموغرافي لنتائج حرب تكساس والحرب المكسيكية - الأمريكية. والأكثر من ذلك أن معدلات تجنس المكسيكيين من بين الأدنى في جميع الجماعات المهاجرة. يشير هنتنغتون إلى أن

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

الأمة هي «مجتمع مُستعاد من الذاكرة»، أي المجتمع الذي يمتلك ذاكرة تاريخية عن نفسه. إن الأمريكيين من أصول مكسيكية، الذين يشكلون 12.5 في المائة من سكان الولايات المتحدة، فيما عدا اللاتينيين الآخرين، ويتركزون - بصورة أو بأخرى - في الجنوب الغربي، المجاور للمكسيك، يقومون لأول مرة في تاريخ أمريكا بتعديل ذاكرتنا التاريخية⁽²⁹⁾.

من جانبه، يتوقع الأستاذ بجامعة نيو مكسيكو، تشارلز تروكسيللو Truxillo، أنه بحلول العام 2080 ستتوحد الولايات الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة وولايات شمال المكسيك معا لتشكّل دولة جديدة، هي «لا ريوبليكا ديل نورتي» [بالإسبانية: جمهورية الشمال La República del Norte]. وبحلول العام 2000، كانت ست من اثنتي عشرة مدينة مهمة على الجانب الأمريكي من الحدود تضم أكثر من 90 في المائة من السكان ذوي الأصول الإسبانية، في حين كانت اثنتان فقط (سان دييغو، كاليفورنيا، ويوما، أريزونا) تضمان أقل من 50 في المائة من السكان ذوي الأصول الإسبانية⁽³⁰⁾.

إن ضبابية الحدود الجنوبية الغربية لأمريكا تصير حقيقة جغرافية لدرجة أن كل الأجهزة الأمنية على الحدود الفعلية نفسها لا تستطيع إبطالها. ومع ذلك، ففي حين أنني معجب بقدرة هنتنغتون على عزل وفضح معضلة أساسية كان الآخرون في الأوساط الأكاديمية ووسائل الإعلام أكثر كياسة من تناولها، غير أنني لا أتفق تماما مع استنتاجاته. يؤمن هنتنغتون بالاعتماد القوي على القومية الأمريكية من أجل الحفاظ على ثقافتها وقيمها الأنجلو - بروتستانتية في وجه اللتنة Latinoization الجزئية لمجتمعنا. إنني أعتقد بأنه بالرغم من أن الجغرافيا لا تحدّد المستقبل بالضرورة، فإنها تعيّن ملامح ما يمكن وما لا يمكن تحقيقه. أما العلاقة العضوية بين المكسيك وأمريكا - سواء الجغرافية، والتاريخية، والديموغرافية - فهي ببساطة ساحة لدرجة أننا لا نستطيع الافتراض، كما كان يأمل هنتنغتون، أن القومية الأمريكية يمكن أن تظل نقية كما هي. يسخر هنتنغتون، وهو محق في ذلك، من الكوزموبوليتية (والإمبريالية، أيضا) باعتبارهما من الرؤى النخبوية. لكن قدرا مُعينا من الكوزموبوليتية، بعكس رأي هنتنغتون، هو أمر لا مفر منه وبالتالي يجب عدم الاستخفاف به.

وفي اعتقادي أن أمريكا سوف تظهر في الواقع خلال القرن الحادي والعشرين باعتبارها حضارة بولينية مختلطة، متوجهة من الشمال إلى الجنوب، أي من كندا إلى المكسيك، بدلا من أن تكون جزيرة عنصرية يقطنها أصحاب البشرة الفاتحة، والمتوجهة من الشرق إلى الغرب، والتي تقع في المنطقة المعتدلة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي. سيكون هذا التجمع المتعدد الأعراق مكونا من دول مدينية تضم العديد من الضواحي المترامية الأطراف، والتي ستكون من الناحية البصرية مماثلة تدريجيا لبعضها البعض، سواء كانت مدينة كاسكاديا في شمال غرب المحيط الهادي أو أوماها - لنكولن في ولاية نبراسكا، والتي تقوم كل منها برعاية علاقاتها الاقتصادية الخاصة مع المدن والشبكات التجارية في جميع أنحاء العالم، مع مواصلة التكنولوجيا لتقويض المسافات. ومن وجهة نظري، ستصبح أمريكا أبرز مناطق العالم الساخنة للمعاملات التجارية المعفاة من الرسوم الجمركية، وبالتالي ستصبح مكانا مفضلا لإقامة النخبة العالمية. وسيرا على التقاليد الرومانية، ستواصل استخدام قوانين الهجرة الخاصة بها لتجريد العالم من أفضل وألمع الأصول، ومن ثم مواصلة تنويع السكان المهاجرين الذين، كما يخشى هنتنغتون، يتكونون في معظمهم من المكسيكيين. ومن هذا المنظور، فإن النزعة القومية ستكون، بالضرورة، مخففة قليلا، لكن ليس بالدرجة التي تحرم أمريكا من هويتها الفريدة من نوعها، أو التي تقوّض قوتها العسكرية. وباختصار، لم تعد أمريكا جزيرة يحميها المحيطان الأطلسي والهادئ. وهي تزداد قربا من بقية أجزاء العالم، ليس فقط عن طريق التكنولوجيا، بل بفعل الضغوط الناجمة عن ديموغرافية المكسيك وأمريكا الوسطى.

لكن هذه الرؤية تتطلب أن تكون المكسيك دولة ناجحة، وليست دولة فاشلة؛ فإذا نجح الرئيس كالديرون وخلفاؤه في مهمة كسر ظهر كارتلات المخدرات على نحو حاسم (وهو احتمال بالغ الصعوبة، على أقل تقدير) فستكون الولايات المتحدة قد حققت نصرا إستراتيجيا أكبر من أي نصر ممكن في الشرق الأوسط. إن المكسيك المستقرة والمزدهرة، التي تعمل بالتنسيق الوثيق مع الولايات المتحدة، ستكون مزيجا لا يضاهاى في الجغرافيا السياسية. ومن شأن المكسيك بعد زوال الكارتلات، جنبا إلى جنب مع كولومبيا مستقرة وموالية للولايات المتحدة (وهو أمر

يقترب من كونه حقيقة في الوقت الحالي)، أن تدمج معا أكبر، وثالث أكبر، ورابع أكبر البلدان في نصف الكرة الأرضية الغربي من حيث عدد السكان، ما يخفف من حدة استمرار هيمنة أمريكا على أمريكا اللاتينية ومنطقة بحر الكاريبي الكبرى. باختصار، كان باسيفيتش مُحققا في استنتاجه القائل بأن إصلاح المكسيك أكثر أهمية من إصلاح أفغانستان.

مع الأسف، كما يدّعي باسيفيتش، فإن المكسيك هي كارثة محتملة، والتي أدى تركيزنا على الشرق الأوسط الكبير إلى تحويل انتباهنا عنها؛ وإذا ظلت الأمور على هذا النحو، فسيؤدي ذلك إلى مزيد من الهجرة، القانونية وخاصة غير الشرعية، التي من شأنها خلق السيناريو الذي يتخوّف منه هنتنغتون. أدت حملة كالديرون ضد أباطرة المخدرات إلى مقتل 47 ألف شخص منذ العام 2006، مع ما يقرب من 4 آلاف ضحية خلال النصف الأول من العام 2010 وحده. فضلا عن ذلك، طوّرت الكارتلات أسلوبها بحيث صارت تنفّذ هجمات ذات طابع عسكري، في وجود مجموعة معقدة من الفخاخ وإغلاق طرق الهروب أمامها. من جانبه، خلص خافيير كروز أنغولو Angulo، وهو خبير أمني مكسيكي، إلى أنهم «ينفذون تكتيكات قتالية من النوع المستخدم في الحروب؛ فقد تجاوزوا تلك الإستراتيجيات المعتادة للجريمة المنظمة». أما تيد غالين كاربنتر، وهو نائب الرئيس لشؤون دراسات الدفاع والسياسة الخارجية في معهد كاتو في واشنطن، فقد كتب قائلا: «إذا استمر هذا الاتجاه فسيكون تطورا مقلقا للغاية بالنسبة إلى صحة، وربما إمكانية بقاء، الدولة المكسيكية». تتسم الأسلحة التي تستخدمها الكارتلات عموما بتفوقها على تلك الموجودة لدى الشرطة المكسيكية وبكونها شبيهة بتلك التي يمتلكها الجيش المكسيكي. وإلى جانب التكتيكات ذات الطراز العسكري، بوسع الكارتلات أن تنتقل، على حد تعبير كاربنتر، «من كونها مجرد منظمات إجرامية إلى كونها تمردا خطيرا». لقد جرى نشر قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في الأماكن التي تشهد عنفا أقل مما في ولايتي سيوداد خواريز وتيخوانا. وبالفعل، صار ضباط الشرطة والسياسيون المحليون يتخلون عن مناصبهم خوفا من الاغتيال، كما أن أفراد النخبة المكسيكية في قطاعي الأعمال والسياسة يقومون بإرسال أسرهم إلى خارج البلاد، مع تواصل فرار أفراد الطبقة المتوسطة والطبقة المتوسطة العليا إلى الولايات المتحدة⁽³¹⁾.

تقف المكسيك الآن على مفترق طرق: فهي إما في المرحلة المبكرة من الهجوم أخيرا على الكارتلات، وإما أنها تغرق في مزيد من الفوضى؛ أو كلاهما. ولأن مستقبلها معلق، فما تفعله الولايات المتحدة قد يكون محوريا. غير أنه في أثناء حدوث ذلك انشغلت المؤسسة الأمنية الأمريكية في مجتمعات فاسدة معروفة وغير مستقرة أخرى في النصف الآخر من العالم، مثل العراق حتى العام 2011، وأفغانستان على الأقل حتى العام 2014.

وخلافا لتلك الأماكن، فإن سجل التدخل العسكري الأمريكي في منطقة الحدود المكسيكية يُظهر نجاحا معقولا. وبالرغم من أن القرب من المكسيك يهدد الولايات المتحدة ديموغرافيا، فهو مفيد من الناحية اللوجستية عند محاولة السيطرة على الحدود. وكما أشار إليه دانيلو، فخلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تمكنت الولايات المتحدة والمكسيك من تقليص اللصوصية على الحدود من خلال التعاون الثنائي بين البلدين. وبين العامين 1881 و1910، تضافرت جهود الرئيس المكسيكي بورفيريو دياز Díaz مع الرؤساء الأمريكيين في القيام بدوريات مشتركة على الحدود. كان حرس الحدود المكسيكيون يركبون مع تكساس رينجرز أثناء مطاردة هنود الكومانش Comanche. وفي ولاية أريزونا، شن جنود أمريكا والمكسيك حملات مشتركة ضد هنود الأباتشي Apaches. أما اليوم، فإن مهمة القضاء على كارتلات المخدرات عبر التضاريس الوعرة والناثية في الجبال والسهوب التي تمتد إلى الخلف حتى مدينة سيوداد خواريز هي مهمة يضطلع بها الجيش، الذي يقدم المساعدة للسلطات المكسيكية بهدوء، بيد أنه لا يوجد إطار قانوني لهذا التعاون، الأمر الذي يرجع جزئيا إلى التفسير الصارم من جانب الولايات المتحدة للقوانين المتعلقة بقوة الإقليم posse comitatus، والتي تعود إلى القرن التاسع عشر⁽³²⁾. وفي حين أننا أنفقنا مئات المليارات من الدولارات للتأثير في النتائج التاريخية في أوراسيا، فقد كنا سلبين على نحو غريب تجاه ما يحدث في بلد نتشارك معه حدودا برية طويلة، والذي يوشك على السقوط في دوامة الفوضى، والذي يبلغ عدد سكانه ما يقارب ضعفي سكان العراق وأفغانستان مجتمعين.

من المؤكد أنه بوسع المرء أن يجادل في أنه، في ظل المهمة الهرقلية التي تتمثل في مراقبة الحدود، يمكن لأمريكا الفعالة والقومية أن تتعايش جنبا إلى جنب مع

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

المكسيك المختلفة والتي تعاني من الفوضى جزئيا، لكن هذا ينطبق أساسا على المدى القصير.

وعلى المدى الطويل، وبالنظر عميقا إلى القرن الحادي والعشرين وما بعده، مرة أخرى، كما أشار إليه توينبي، فإن الحدود بين مجتمع متطور للغاية ومجتمع أقل تطورا لن تحقق أي توازن، لكنه سيتقدم لمصلحة المجتمع الأكثر تخلفا. وبعبارة أخرى، فإن الحفاظ على القومية الأمريكية للدرجة التي ترضي هنتنغتون لا يمكن تحقيقه ما لم تصل المكسيك إلى مصاف دول العالم الأول. وإذا وصلت المكسيك بالفعل إلى مصاف دول العالم الأول، فقد تصبح حينئذ أقل تهديدا، ومن ثم فإن وتيرة الامتزاج بين المجتمعين ستتسارع.

وفي كلتا الحالتين، وبسبب الحقائق التي تفرضها الخريطة، فنحن نتجه نحو اتحاد بين المكسيك وأمريكا بشكل أو بآخر؛ برغم أنه، وبطبيعة الحال، يمكن لأفعال واضعي السياسات على كلا جانبي الحدود أن تحدد الشروط والظروف التي يمكن أن يحدث هذا بموجبها. ونعود هنا إلى توينبي:

أدى بناء الحوايط limes [الرومانية] إلى تفعيل التأثير بين القوى الاجتماعية، والذي كان لزاما أن ينتهي بصورة كارثية لمن قاموا ببنائه. إن سياسة عدم التعامل مع «البرابرة» في ما وراء الأسوار كانت غير عملية تماما. وأيا كان ما تقرره الحكومة الإمبراطورية، فإن مصالح التجار والرواد، والمغامرين، وما إليها، ستجذبهم حتما إلى ما وراء الحدود⁽³³⁾.

وقد كتب توينبي أيضا أن «الدولة العالمية تُفرض من قبل مؤسسيها، ويقبلها رعاياها، باعتبارها الدواء الشافي للعلل السائدة زمن الاضطرابات»، كما أنه يذكر مصر في عهد «الإمبراطورية الوسطى» والإمبراطورية البابلية الجديدة، وبلاد فارس في عهد الأخمينيين، والنظام الملكي السلوقي Seleucid، والسلام الروماني، وسلام هانيكا Pax Hanica في العالم الصيني Sinic باعتبارها جميعا أمثلة على دول عالمية أساسا، والتي تعايشت فيها الشعوب والعقائد المختلفة من أجل المنفعة المتبادلة. أما روما، على وجه الخصوص، فقد أتقنت التعامل مع هذه القضية الشائكة للولاء المزدوج، بحيث لا تتعارض المواطنة للمدينة العالمية المتمثلة في روما مع الانتماء لإقليم محلي بعينه⁽³⁴⁾. وقد يكون الأمر، بالتالي،

أن الدولة العالمية سيثبت عند نقطة ما من المستقبل أنها الدواء الشافي لزمان الاضطرابات هذا، والذي يعصف حاليا بشمال المكسيك وجنوب غرب الولايات المتحدة في المنطقة الحدودية.

سيكون من الصعب أن نبالغ في أهمية هذا التحول الهائل في مفهوم وخرافة السيادة الوطنية، حتى في الوقت الذي يحدث فيه هذا ونحن نتحدث فيما هو، وفقا لمعايير وسائل الإعلام، الزمن الجيولوجي. عندما تجوّلت في أرجاء الولايات المتحدة في العام 1970، فقد عايشة بشكل ملموس كيف أنه لا توجد قارة أخرى أكثر ملاءمة لبناء الأمم من المنطقة المعتدلة من أمريكا الشمالية. وفرت جبال الأبلاش Appalachians حدودا غربية لمجتمع وليد من الولايات حتى نهاية القرن الثامن عشر، لكن وديان الأنهار المتقاطعة مع هذه الجبال، مثل الموهوك وأوهايو، سمحت باختراق الغرب من قبل المستوطنين. وفيما وراء جبال الأبلاش، وجد المستوطنون مساحات مسطحة من الأراضي الزراعية الغنية التي تفتقر إلى العوائق الجغرافية حيث كان بإمكانهم، في القرن التاسع عشر، بناء الثروات، مع طرح اختلافاتهم البشرية وصولا إلى صياغة الثقافة الأمريكية المميزة.

يضم حوض نهر المسيسيبي الأكبر، جنبا إلى جنب مع قنواته بين الساحلية، مسافة من الأنهار الصالحة للملاحة أطول من بقية دول العالم مجتمعة، كما يغطي أكبر قطعة من الأراضي المتجاورة الصالحة للزراعة في العالم. وبحلول الوقت الذي وصل فيه رواد الغرب إلى عوائق شاقة بالفعل - أي الصحراء الأمريكية الكبرى، على كل من الجانبين الشرقي والغربي لجبال روكي - كان خط السكك الحديدية العابر للقارة قد اكتمل بناؤه⁽³⁵⁾. وكما أشارت إليه إحدى وثائق شركة ستراتفور، فإن «ساحل المحيط الأطلسي للولايات المتحدة يضم عددا أكبر من الموانئ الرئيسية مما تحتويه بقية بلدان نصف الكرة الأرضية الغربية مجتمعة ... لا يتسم الأمريكان بالأهمية بسبب مَنْ هم، بل بسبب المكان الذي يعيشون فيه»⁽³⁶⁾. عندما قام الجغرافي أرنولد غويو Guyot بدراسة الجزء القاري من الولايات المتحدة في العام 1849، أي قبل الحرب الأهلية وانتصار الثورة الصناعية، فقد اعتبرها إليها - جنبا إلى جنب مع أوروبا وآسيا - واحدة من «الأنوية القارية» التي كان من المقدر لها أن تسيطر على العالم. لكنه اعتقد

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

في ذلك الوقت أن أمريكا ستقود الطريق متفوقة على النواتين الآخرين. أما الأسباب فهي أن أمريكا محمية وراء «ستار من المحيطات» على الجانبين، مما سمح لها - برغم ذلك - بأن تتفاعل مع أوراسيا؛ كما أن تطورها كان مضمونا بفعل «التواصل البيني للأجزاء الداخلية المروية جيدا»⁽³⁷⁾. من القارة. وكما كتب جيمس فيرغريف في العام 1917.

«هنا، إذن، هي الولايات المتحدة»، وهي تتبوأ مكانة في دائرة الأراضي، ممثلة «خريطة الأرض» orbis terrarium الجديدة؛ برغم كونها تقع خارج النظام [الأوراسي] الذي كان الأهم حتى ذلك الوقت، إذ كانت متضامة ومتماسكة، مع مستودعات هائلة من الطاقة، في حين تواجه المحيطين الأطلسي والهادئ، وتمتلك علاقات مع شرق وغرب أوروبا وآسيا، والمستعدة من خلال قناة بنما المحصنة لدفع أسطولها الموحد إلى أي المحيطين⁽³⁸⁾.

إن هذه العظمة القارية، المؤطرة من قبل محيطين اثنين، لاتزال موجودة حتى الآن؛ لكن ثمة جغرافيا مفاهيمية أخرى بدأت في التداخل معها، وهي تلك المتعلقة برحلة كورونادو Coronado بين العامين 1540 و1542 لاستكشاف الجزء الأوسط من غرب المكسيك شمالا عبر ولايات أريزونا، ونيو مكسيكو، وتكساس، وأوكلاهوما، وكانساس. وفي حين أن الرحلة التي قام بها لويس وكلاارك Lewis and Clark بين العامين 1804 و1806 لاستكشاف أراضي لويزيانا وأوريغون جعلت أمريكا متصلة من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، ما عمل بالتالي على وضع الأساس الفكري لبناء دولة قومية قارية حديثة، فإن استكشافات كورونادو - من الجنوب إلى الشمال بدلا من الشرق إلى الغرب - على الرغم من أنها جرت في وقت سابق، كانت بعد - حداثيّة بطريقتها الخاصة: فهي لم تكن مقيدة بأي وعي وطني، كما وفرت توجها لإقامة دولة عالمية مستقبلية تمتد من المكسيك شبه الاستوائية إلى المناطق المعتدلة من أمريكا الشمالية. كان فرانسيسكو فاسكيز دي كورونادو يبحث عن الذهب، والسلب والنهب، والثروة السهلة، كما كان صاحب عقلية ترجع إلى القرون الوسطى. غير أن المهاجرين الجدد من ذوي الأصول الإسبانية المتوجهين شمالا لم يكونوا منتمين إلى القرون الوسطى، فهم يبحثون عن وظائف - التي غالبا ما تستلزم القيام بأعمال يدوية مُضنية - وبالتالي فهم على استعداد للعمل بجِد لتحقيق مكاسب مادية، ومن

ثم يخضعون للتحوّل بفعل أخلاقيات العمل الأنجلو - بروتستانتية في الوقت نفسه الذي يقومون فيه بتحويل ثقافة أمريكا الأنجلو - بروتستانتية.

إن جودة وسيولة هذا التفاعل الثقافي والثنائي القومية، كما يمكن المجادلة، وأكثر من أي دينامية منفردة أخرى، تحدّدان مدى جودة تفاعل أمريكا مع الجزيرة العالمية التي وصفها ماكيندر (أوراسيا وأفريقيا). من المرجح أن تتسم السياسة الخارجية الأمريكية بكل من الحكمة والطيش بالتناوب على مر العقود؛ لكن القوة الاقتصادية، والقوة الثقافية، والقوة المعنوية، وحتى القوة السياسية والعسكرية الأمريكية ستتأثر بشكل كبير بما إن كان في وسعنا أن نتطور إلى دولة فائقة من نوع ما، والتي تتسم بكونها متماسكة وثنائية اللغة مع المكسيك وكندا، أو، بدلا من ذلك، أن نصبح محاصرين من قبل منطقة حدودية مختلة، وشاسعة، وجامحة على نحو متزايد، والتي ترسخ التوتر الحضاري بين الثقافة الأمريكية الأنجلو - بروتستانتية التي لاتزال مهيمنة وبين نظيرتها الإسبانية. هناك ما يبرر مخاوف هنتنغتون؛ لكن الحل الذي طرحه هو الذي يتسم بكونه خاطئا جزئيا.

لنضع في اعتبارنا، كما أخبرنا بول براكن وغيره، أن الجغرافيا السياسية للأرض تشكل نظاما مغلقا وخانقا على نحو متزايد. أما التقاطعات الثقافية والسياسية عبر البحار فستصبح عضوية أكثر وأكثر. وبالتالي، إذا لم تقتارب الولايات المتحدة والمكسيك في نهاية المطاف بالدرجة نفسها التي تمتلكها الولايات المتحدة مع كندا بالفعل - أي إذا لم نتخذ المكسيك حليفا حميما وموثوقا به في المنتديات العالمية - فسيؤثر ذلك سلبا في علاقات أمريكا الأخرى، خصوصا مع تزايد سكان المكسيك (وأمريكا الوسطى) بمعدلات أعلى بكثير مما لدينا، وبالتالي ستزداد أهمية المكسيك بمرور الوقت. إن استكشاف بروديل للبحر المتوسط في القرن السادس عشر يوضح الدور الذي تؤديه القوى الطبيعية مثل الجغرافيا على مر الزمن، ولهذا السبب يجب أن تؤدي المكسيك دورا محوريا في أي إستراتيجية كبرى نستقر عليها.

لنفكر في مستقبل العالم على أنه يشبه تقريبا النظام المليّ millet system في الإمبراطورية العثمانية القديمة: وكما وصفه توينبي، فهو «شبكة من المجتمعات

بروديل، والمكسيك، والاستراتيجية الكبرى

المتداخلة جغرافيا»، وليس «خليطا من ... الولايات الضيقة المعزولة»⁽³⁹⁾. وفيه ستؤثر كل علاقة في العلاقات الأخرى كما لم يحدث من قبل. وكما رأينا، فإن العقود المقبلة ستشهد قيام السكك الحديدية، والطرق، وخطوط الأنابيب بربط جميع أجزاء أوراسيا من خلال مركز يقع في آسيا الوسطى، وبصفة خاصة في أفغانستان. ومن شأن أوراسيا المتناغمة والمتحدة أن تستلزم، من أجل موازنتها، كون أمريكا الشمالية متناغمة ومتحدة، من القطب الشمالي الكندي إلى أدغال أمريكا الوسطى. إن عدم مواصلة تعميق الروابط مع المكسيك وأمريكا الوسطى، اللتين تضمان مجتمعتين عددا من السكان يماثل نصف عدد سكان الولايات المتحدة، ستنتج عنه رؤية المكسيك وربما بعض جيرانها الجنوبيين، وهي تنزلق إلى مدار ديبلوماسي وسياسي عدائي في عالم ستكون أوراسيا فيه أقرب مما كانت عليه في أي وقت مضى. يتمثل الطريق في الوقاية من فنزويلا الموالية لإيران، وغيرها من الدول الراديكالية الأخرى التي قد تظهر من وقت إلى آخر في نصف الكرة الأرضية الغربي، هو إدراج منطقة الكاريبي الكبرى في منطقة للتجارة الحرة والهجرة البشرية، والتي، بالضرورة، ستكون خاضعة للهيمنة الأمريكية، حيث يقوم السكان الشبان من المكسيك وأمريكا الوسطى بتوريد القوى العاملة بدلا من سكان أمريكا الذين تدهمهم الشيخوخة. وبطبيعة الحال، فهذا ما يحدث بالفعل، غير أن شدة التبادل البشري ستزداد، كما ينبغي لها أن تفعل.

وكما كتب نيكولاس سبيكمان، فإن «الحرب العالمية، وكذلك السلام العالمي، يعني أن جميع الجبهات والمناطق مترابطة. ومهما كان مقدار تباعدها بعضها عن بعض، فإن النجاح أو الفشل في واحدة منها سيكون له تأثير فوري وحاسم في الأخرى»⁽⁴⁰⁾. ويصح هذا الأمر اليوم على نحو أكثر بكثير مما كان عليه في العام 1944، عندما نشر هذا التصريح بعد وفاته؛ كما سيكون أكثر صحة بكثير في المستقبل. وكما أشار إليه روبرت شتراوس - هوي، فإن «تاريخ اليونان هو كفاح من أجل البقاء على قيد الحياة في مواجهة الغزوات الدورية القادمة من آسيا»⁽⁴¹⁾. إذا فكّرنا في مدى قرب اليونان القديمة من بلاد فارس، فسنتشعر مدى قربنا نحن من أوراسيا الآن، بالنظر إلى الثورة الجارية في وسائل النقل والاتصالات. وبالتالي، فإن التأكد من أن إحدى القوى في نصف الكرة الأرضية

الشرقي لن تصبح مهيمنة بصورة مفرطة، وبالتالي تهدد الولايات المتحدة في نصف الكرة الأرضية الغربي، ستكون مهمة أسهل بكثير إذا قمنا بتعزيز الوحدة في نصف الكرة الأرضية الغربي في المقام الأول.

يجب أن نعمل كقوة موازنة في أوراسيا وكقوة موحدة في أمريكا الشمالية- فالقيام بالدورين معا سيكون أسهل من القيام بدور واحد فقط. وبطبيعة الحال، لا بد من القيام بحفظ توازن القوى لغرض معين يتجاوز حماية المصالح المادية والاقتصادية للولايات المتحدة. ويتمثل ذلك الغرض في استخدام الاستقرار الذي يكفله توازن القوى في نصف الكرة الأرضية الشرقي في تعزيز القضية الفكرية الليبرالية لأوروبا الوسطى، ومن ثم في جميع أنحاء العالم.

وكما يؤكد ستيفن ديدالوس Dedalus «أهميته كحيوان عقلائي واع»، والتي تعني في الواقع مقاومة المصير، يجب علينا ألا نستسلم للجغرافيا مطلقا، لكن يجب أن نكون واعين بها في الأساس خلال سعيينا من أجل تحقيق عالم أفضل. إن التوق إلى مفهوم أوروبا الوسطى الكوزموبوليتانية الذي ظهر في أعقاب الحرب الباردة، والذي استرشدت به في بداية هذه الدراسة، هو ما وصلنا إليه في نهايتها. أما إن كان هذا الهدف قابلا للتحقيق أو لا، فهو أمر يستحق دائما أن نسعى جاهدين إليه، على أمل أن تكون المكسيك إلى جانبنا. وقد استشعر ماكيندر هذا بحدسه في دعوته إلى إنشاء دول عازلة حيوية ومستقلة بين أوروبا البحرية والأرض المركزية، مشيرا إلى أن العالم المتوازن هو عالم حُر.

الهوامش

مقدمة

- (1) Jeremy Black, Maps and History: Constructing Images of the Past (New Haven: Yale University Press, 1997), p. 85.
- (2) James C. Scott, The Art of Not Being Governed: An Anarchist History of Upland Southeast Asia (New Haven: Yale University Press, 2009), p. ix.
- (3) تمت تسمية هذه المقاطعة لاحقاً باسم خيبر باختونخوا Khyber Pakhtunkhwa.
- (4) Sugata Bose, A Hundred Horizons: The Indian Ocean in the Age of Global Empire (Cambridge: Harvard University Press, 2006), p. 56.
- (5) Golo Mann, The History of Germany Since 1789, translated by Marian Jackson (London: Chatto & Windus, 1968), pp. 525 and 880, 1987 Peregrine edition.
- (6) Ernest Gellner, Muslim Society (New York: Cambridge University Press, 1981), pp. 38, 41, 180, 187.

الفصل الأول

- (1) Francis Fukuyama, "The End of History," The National Interest, Washington, Summer 1989. Book version: The End of History and the Last Man (New York: The Free Press, 1992).
- (2) Jonathan C. Randal, "In Africa, Unrest in One-Party States," International Herald Tribune, Paris, March 27, 1990.
- (3) Timothy Garton Ash, "Bosnia in Our Future," New York Review of Books, December 21, 1995.
- (4) Carl E. Schorske, Fin-de-Siècle Vienna: Politics and Culture (New York: Knopf, 1980); Claudio Magris, Danube (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1986, 1989), p. 268.
- (5) Timothy Garton Ash, The File: A Personal History (New York: Random House, 1997), p. 51.
- (6) Michael Ignatieff, Isaiah Berlin: A Life (New York: Holt, 1998), p. 24.
- (7) Timothy Garton Ash, "Does Central Europe Exist?," New York Review of Books, October 9, 1986.
- (8) W. H. Parker, Mackinder: Geography as an Aid to Statecraft (Oxford: Clarendon Press, 1982), p. 201; K. A. Sinnhuber, "Central Europe-Mitteuropa-Europe Centrale: An Analysis of a Geographical Term," Transactions of the Institute of British Geographers, vol. 20, 1954; Arthur Butler Dugan, "Mackinder and His Critics Reconsidered," The Journal of Politics, May 1962, p. 250.
- (9) Saul B. Cohen, Geography and Politics in a World Divided (New York: Random House, 1963), pp. 79-83.
- (10) Halford J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction (Washington: National Defense University, 1919, 1942), p. 90.
- (11) Cohen, Geography and Politics in a World Divided, p. 222.

- (12) Colin S. Gray, *Another Bloody Century: Future Warfare* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2005), pp. 37, 95, 176-77.
- (13) Michael Ignatieff, "Homage to Bosnia," *New York Review of Books*, April 21, 1994.
- (14) James Joyce, *Ulysses* (New York: Modern Library, 1922, 1934), p. 697, 1990 Vintage edition.
- (15) Timothy Garton Ash, "Kosovo and Beyond," *New York Review of Books*, June 24, 1999.
- (16) Timothy Garton Ash, "Cry, the Dismembered Country," *New York Review of Books*, January 14, 1999.

(17) لي سَردي التاريخي الخاص بشأن قصة هذه التدخلات المتأخرة. ذكرت التقارير أن كتابي المعلنون «أشباح البلقان: رحلة عبر التاريخ» (الناشر: سانت مارتن، نيويورك)، كان أحد العوامل التي ساهمت في قرار الرئيس بيل كلينتون بعدم التدخل عسكرياً في العام 1993، وبالتالي تأجيل إرسال قوات حلف شمال الأطلسي إلى البلقان لمدة عامين. وهذا الكتاب، الذي يمثل سجلاً لتجاري في البلقان خلال ثمانينيات القرن العشرين، والذي ظهر للمرة الأولى كسلسلة من المقالات الشهرية التي كتبها مجلة *The Atlantic Monthly* قبل سقوط جدار برلين. وبعد ذلك، وفي يونيو 1991، نشرت الفصل الثالث من كتاب «أشباح البلقان» (عن مقدونيا) في مجلة *The Atlantic*. ووفقاً لمسؤول سابق في وزارة الخارجية، حسبما نُشر عنه في صحيفة واشنطن بوسست (21 فبراير 2002)، فقد لعب هذا المقال دوراً أساسياً في تنفيذ «عملية الانتشار الوقائي الأولى والوحيدة لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في يوغوسلافيا السابقة». وبرغم أن تقريراً صدر عن وكالة الاستخبارات المركزية في العام 1990 قد حذر من تفكك يوغوسلافيا، بيد أن وزارة الخارجية «كانت في حالة من الإنكار... حتى نشر مقال كابلان».

وكما حدث، فقد أدى نشر 1500 فرد من قوات حفظ السلام في مقدونيا إلى منع أعمال العنف التي اندلعت في وقت لاحق في البوسنة وكوسوفو. وقد نشرت «أشباح البلقان» في شكل كتاب في شهر مارس 1993. وفي الشهر نفسه، نشرت مقالا عن يوغوسلافيا في مجلة ريدرز دايجست، والذي كتبت فيه: «ما لم نتمكن من كسر حلقة الكراهية والانتقام - عن طريق الوقوف بقوة من أجل تقرير المصير وحقوق الأقليات - فسيتم فقدان المكاسب التي تحققت منذ نهاية الحرب الباردة. إن كل المساعدات، وجميع الجهود الدبلوماسية، وكل القوة إذا جرى استخدام القوة، يجب أن تكون مرتبطة بفكرة بسيطة وهي أن كل شعب يوغوسلافيا يستحق أن يتحرر من العنف». وبعد فترة وجيزة، ظهرت على شاشة التلفاز للحدث علناً على التدخل في البلقان، كما دعوت أيضاً إلى التدخل على الصفحة الأولى من قسم استشراف الأحداث بجريدة واشنطن بوسست في السابع عشر من أبريل 1994، قبل أكثر من عام من وقوع التدخل في نهاية المطاف.

يرسم كتاب «أشباح البلقان» صورة قائمة للعلاقات العرقية في جنوب شرق أوروبا، لكن الحالات الإنسانية الأشد بؤساً هي التي تتطلب عادة التدخل في المقام الأول: لا يحتاج المرء أبداً إلى تعجيد الحالات الإنسانية من أجل القيام بالأفعال نيابة عنها. وكما تعلمنا في وقت لاحق في العراق، فعند القيام بالتدخل، يجب عليك أن تفعل ذلك من دون أوهام. وعلى الرغم من أن كتبي ومقالاتي كانت تُقرأ من قبل الرئيس وغيره، فلم يتم في أي نقطة أن اتصل بي أي شخص من إدارة كلينتون بأي شكل من الأشكال حول كتاباتي، وكيف يمكن تطبيقها على الأحداث والخيارات السياسية المعينة التي ظهرت بعد أن اكتملت فصول الكتاب.

- (18) Leon Wieseltier, "Force Without Force: Saving NATO, Losing Kosovo," *New Republic*, Washington, April 26 and May 3, 1999.
- (19) Leon Wieseltier, "Winning Ugly: The War Ends, Sort Of. The Peace Begins, Sort Of," *New Republic*, Washington, June 28, 1999.
- (20) Ibid.
- (21) Leon Wieseltier, "Useless," *New Republic*, Washington, April 17, 2006.
- (22) Bob Woodward, *State of Denial: Bush at War, Part III* (New York: Simon & Schuster, 2006), pp. 84–85.
- (23) Stephen Walt and John Mearsheimer, *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2007).
- (24) كانت إسرائيل في وقت وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر تتعرض لهجمات إرهابية متكررة، وبالتالي كان من الطبيعي أن تكون عند النهاية المتلقية للتعاطف الأمريكي. ومع ذلك، فقد جرى استثناء مطالباتها بتجميد النشاط الاستيطاني في الأراضي المحتلة في وقت لاحق. وخلال الحشد لحرب العراق، كتبت أنه إذا نجح بوش في العراق وجرى انتخابه لولاية ثانية، فسيتعين عليه أن ينهي «هيمنة الإسرائيليين على ثلاثة ملايين فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة»، وهو الوضع الذي وصفته بأنه «يتعذر الدفاع عنه على نحو خاص». المصدر: "A Post-Saddam Scenario," *Atlantic Monthly*, Boston, November 2002.
- (25) Robert D. Kaplan, *Warrior Politics: Why Leadership Demands a Pagan Ethos* (New York: Random House, 2002), p. 84.
- (26) يتسم هوبز وبرلين بعظمتهم على وجه التحديد بسبب الفارق البسيط بينهما. قد تمثل فلسفة هوبز وجهة نظر قائمة للإنسانية، لكنه كان أيضاً مجدداً ليبرالياً، لأنه في الوقت الذي نشر فيه كتاباته كان التحديث يعني انهيار نظام العصور الوسطى من خلال إنشاء سلطة مركزية، والتي كان طاغوته Leviathan يمثلها. وبالمثل، فإن برلين، على الرغم من أنه يمثل تجسيدا للإنسانية الليبرالية، فقد كان أيضاً واقعياً؛ والذي أدرك، على سبيل المثال، أن البحث عن الغذاء والمأوى الكافي يأتي في الأهمية قبل البحث عن الحرية.
- (27) في الواقع أن الأرتال المتقدمة من القوات الأمريكية في حرب الخليج الأولى قد وصلت إلى حدود 150 كيلومترا من بغداد، لكن الجزء الأكبر من القوات كان متمركزاً في الكويت وفي الصحراء السعودية. المصدر:

Robert D. Kaplan, "Man Versus Afghanistan," *The Atlantic*, April 2010.

الفصل الثاني

- (1) Robert D. Kaplan, "Munich Versus Vietnam," *The Atlantic Online*, May 4, 2007.
- (2) Hans J. Morgenthau, *Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace*, revised by Kenneth W. Thompson and W. David Clinton (New York: McGraw Hill, 1948, 2006), pp. 3, 6, 7, 12; Thucydides, *The Peloponnesian War*, translated by Thomas Hobbes (1629) (Chicago: University of Chicago Press, 1989); Anastasia Bakolas, "Human Nature in Thucydides," Wellesley College, unpublished; Robert D. Kaplan, *Warrior Politics: Why Leadership Demands a Pagan Ethos* (New York: Random House, 2001).

- (3) Morgenthau, *Politics Among Nations*, pp. xviii-xix, 37, 181, 218- 20, 246, 248; William Cabell Bruce, *John Randolph of Roanoke* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1922), vol. 2, p. 211; John J. Mearsheimer, "The False Promise of International Institutions," *International Security*, Cambridge, Massachusetts, Winter 1994-1995.
 - (4) Thomas Hobbes, *Leviathan*, 1651, Chapter 15.
 - (5) Fareed Zakaria, "Is Realism Finished?," *The National Interest*, Winter 1992-1993.
 - (6) Raymond Aron, *Peace and War: A Theory of International Relations* (Garden City: Doubleday, 1966), p. 321; José Ortega y Gasset, *The Revolt of the Masses* (Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1985), p. 129.
 - (7) Black, *Maps and History: Constructing Images of the Past* (New Haven: Yale University Press, 1997), pp. 58, 173, 216.
 - (8) Halford J. Mackinder, *Democratic Ideas and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction* (New York: Henry Holt and Company, 1919), pp. 15-16, 1996 National Defense University edition.
 - (9) Morgenthau, *Politics Among Nations*, p. 165.
 - (10) Alfred Thayer Mahan, *The Problem of Asia and Its Effect Upon International Policies* (London: Sampson Low, Marston, 1900), p. 56, 2005 Elibron edition.
 - (11) W. H. Parker, *Mackinder: Geography as an Aid to Statecraft* (Oxford: Clarendon Press, 1988), pp. 93, 130-31.
 - (12) W. Gordon East, *The Geography Behind History* (New York: Norton, 1965, 1967), p. 120.
 - (13) Nicholas J. Spykman, *America's Strategy in World Politics: The United States and the Balance of Power*, with a new introduction by Francis P. Sempa (New York: Harcourt, Brace, 1942), pp. xv, 41. 2007 Transaction edition.
 - (14) East, *The Geography Behind History*, p. 38.
 - (15) *Federalist No. 8*.
 - (16) Williamson Murray, "Some Thoughts on War and Geography," *Journal of Strategic Studies*, Routledge, London, 1999, pp. 212, 214; Colin S. Gray, "The Continued Primacy of Geography," *Orbis*, Philadelphia, Spring 1996, p. 2.
 - (17) Mackubin Thomas Owens, "In Defense of Classical Geopolitics," *Naval War College Review*, Newport, Rhode Island, Autumn 1999, p. 72.
 - (18) Spykman, *America's Strategy in World Politics*, p. 92.
 - (19) James Fairgrieve, *Geography and World Power* (New York: E. P. Dutton, 1917), pp. 273-74.
 - (20) John Western, Department of Geography, Syracuse University.
 - (21) John Gallup and Jeffrey Sachs, "Location, Location: Geography and Economic Development," *Harvard International Review*, Cambridge, Winter 1998-1999.
- وبصورة جزئية، فقد كانوا يستقرئون كتابات جارد دياموند Diamond.

- (22) M. C. Ricklefs, Bruce Lockhart, Albert Lau, Portia Reyes, and Maitrii Aung-Thwin, *A New History of Southeast Asia* (New York: Palgrave Macmillan, 2010), p. 21.
- (23) John Adams, *Works* (Boston: Little, Brown, 1850–1856), vol. 4, p. 401.
- (24) Robert D. Kaplan, *Warrior Politics: Why Leadership Demands a Pagan Ethos* (New York: Random House, 2001), pp. 101–2.
- (25) Spykman, *America's Strategy in World Politics*, p. 43.
- (26) Murray, "Some Thoughts on War and Geography," p. 213.
- (27) Jakub J. Grygiel, *Great Powers and Geopolitical Change* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006), p. 15.
- (28) Gray, "The Continued Primacy of Geography"; Murray, "Some Thoughts on War and Geography," p. 216.
- (29) Morgenthau, *Politics Among Nations*, p. 124.
- (30) Isaiah Berlin, *Four Essays on Liberty* (Oxford: Oxford University Press, 1969).
- (31) See Daniel J. Mahoney's "Three Decent Frenchmen," a review of Tony Judt's *The Burden of Responsibility, The National Interest*, Summer 1999; see, too, *History, Truth and Liberty: Selected Writings of Raymond Aron*, edited by Franciszek Draus (Chicago: University of Chicago Press, 1985).
- (32) Norman Davies, *God's Playground: A History of Poland*, vol. 1, *The Origins to 1795* (New York: Columbia University Press, 2005 [1981]), p. viii.

الفصل الثالث

- (1) William H. McNeill, *The Rise of the West: A History of the Human Community* (Chicago: University of Chicago Press, 1963), pp. 22, 27.
- (2) Freya Stark, "Iraq," in *Islam To-day*, edited by A. J. Arberry and Rom Landau (London: Faber & Faber, 1943).
- (3) Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History* (1377), translated by Franz Rosenthal, 1967 Princeton University Press edition, pp. 133, 136, 140, 252; Robert D. Kaplan, *Mediterranean Winter* (New York: Random House, 2004), p. 27.
- (4) Georges Roux, *Ancient Iraq* (London: Allen & Unwin, 1964), pp. 267, 284, 297, 299.
- (5) McNeill, *The Rise of the West*, pp. 32, 41–42, 46, 50, 64.
- (6) James Fairgrieve, *Geography and World Power* (New York: E. P. Dutton, 1917), pp. 26–27, 30, 32.
- (7) McNeill, *The Rise of the West*, pp. 69, 71; Roux, *Ancient Iraq*, pp. 24–25.
- (8) McNeill, *The Rise of the West*, pp. 167, 217, 243.
- (9) *Ibid.*, pp. 250, 484, 618.

- (10) Ibid., p. 535.
- (11) Arthur Helps, preface to 1991 abridged English-language edition of Oswald Spengler, *The Decline of the West* (Oxford, UK: Oxford University Press).
- (12) Ibid., p. 249.
- (13) Oswald Spengler, *The Decline of the West*, translated by Charles Francis Atkinson (New York: Knopf, 1962 [1918, 1922]), pp. 324, 345, 352.
- (14) Ibid., pp. 177-78, 193-94, 353-54; Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, abridgement of vols. 7-10 by D. C. Somervell (New York: Oxford University Press, 1957), pp. 144-45.
- (15) Ibid., pp. 451, 539.
- (16) W. Gordon East, *The Geography Behind History* (New York: Norton, 1967), p. 128.
- (17) Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, abridgement of vols. 1-6 by D. C. Somervell (New York: Oxford University Press, 1946), pp. 123, 237.
- (18) Toynbee, *A Study of History*, vols. 1-6, pp. 146, 164-66; Jared Diamond, *Collapse: How Societies Choose to Fail or Succeed* (New York: Viking, 2005), pp. 79, 81, 106-7, 109, 119-20, 136-37, 157, 159, 172, 247, 276.
- (19) لم تكن أوروبا بأي حال من الأحوال وحدها في هذا الصدد. وعلى سبيل المثال، فقد أشار توينبي إلى التحديات التي واجهت سكان هضبة الإنديز بفعل المناخ القاتم والتربة الرديئة، في حين أن سكان ساحل المحيط الهادي لأمريكا الجنوبية واجهوا الحرارة والجفاف الذي استلزم القيام بأعمال الري. إن الفرق، على الرغم من ذلك، بين أوروبا وأمريكا الجنوبية، والذي لم يشر إليه توينبي، هو أن أوروبا، مع موانئها الطبيعية ذات المياه العميقة، تقع عرضياً على العديد من طرق التجارة والهجرة. انظر: Toynbee, *A Study of History*, vol. 1, p. 75.
- (20) McNeill, *The Rise of the West*, pp. 565, 724.
- (21) Ibid., p. 253.
- (22) Ibid., pp. 722, 724.
- (23) Ibid., p. 728.
- (24) Robert Gilpin, *War and Change in World Politics* (New York: Cambridge University Press, 1981).
- (25) Morgenthau, *Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace*, revised by Kenneth W. Thompson and W. David Clinton (New York: McGraw Hill, 2006), pp. 354-57.
- (26) Ibid., p. 357.
- (27) McNeill, *The Rise of the West*, p. 807.
- (28) Ibid., p. 352.
- (29) Toynbee, *A Study of History*, vols. 1-6, p. 284.
- (30) Toynbee, *A Study of History*, vols. 7-10, p. 121.

(31) للاطلاع على أمثلة على المعاهدات الخرائطية الأوروبية، انظر:

Jeremy Black, Maps and History, pp. 60, 62.

(32) Marshall G. S. Hodgson, The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization, vol.1: The Classical Age of Islam (Chicago: University of Chicago Press, 1974), pp. 50, 56, 60-61, 109-11.

(33) Ibid., pp. 114, 120-24, 133; Marshall G. S. Hodgson, The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization, vol. 2: The Expansion of Islam in the Middle Periods (Chicago: University of Chicago Press, 1974), pp. 65, 71.

(34) Hodgson, The Classical Age of Islam, pp. 154, 156, 158.

(35) Ibid., pp. 151, 204-6, 229

(36) Toynbee, A Study of History, vols. 1-6, p. 271.

(37) Ibid., p. 268.

كانت المرتفعات الحبشية أكثر صعوبة في الوصول إليها، ومن ثم فقد ظلت تحت تأثير المسيحية بشدة.

(38) Hodgson, The Expansion of Islam in the Middle Periods, pp. 54, 396, 400-401.

(39) Marshall G. S. Hodgson, The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization, vol. 3: The Gunpowder Empires and Modern Times (Chicago: University of Chicago Press, 1974), pp. 114, 116.

(40) الاقتباسات المباشرة مأخوذة من ترجمة ديفيد غرين Grene الصادرة في العام 1987 عن مطبعة جامعة شيكاغو. ولقد اعتمدت أيضا على مواد مستقاة من مقدمتي الترجمتين الآخرين اللتين قام بترجمتهما أ.ر. بيرن Burn وتوم غريفيث Griffith.

(41) Boris Pasternak, Doctor Zhivago, translated by Max Hayward and Manya Harari (New York: Pantheon, 1958), p. 43.

(42) Hodgson, The Classical Age of Islam, p. 25.

الفصل الرابع

(1) Jakub J. Grygiel, Great Powers and Geopolitical Change (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006), pp. 2, 24; Mackubin Thomas Owens, "In Defense of Classical Geopolitics," Naval War College Review, Newport, Rhode Island, Autumn 1999, pp. 60, 73; Saul B. Cohen, Geography and Politics in a World Divided (New York: Random House, 1963), p. 29.

(2) Paul Kennedy, "The Pivot of History: The U.S. Needs to Blend Democratic Ideals with Geopolitical Wisdom," The Guardian, June 19, 2004; Cohen, Geography and Politics in a World Divided, p. xiii.

(3) Zbigniew Brzezinski, The Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperatives (New York: Basic Books, 1997), p. 37.

(4) Hans J. Morgenthau, Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace, revised by Kenneth W. Thompson and W. David Clinton (New York: McGraw Hill, 1948), pp. 170-71.

- (5) Halford J. Mackinder, *Democratic Ideals and Reality: A Study in Politics of Reconstruction* (Washington, DC: National Defense University, 1919, 1942), p. 205; W. H. Parker, *Mackinder: Geography as an Aid to Statecraft* (Oxford: Clarendon Press, 1982), pp. 211-12.
- (6) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, p. 155.
- (7) H. J. Mackinder, "On the Necessity of Thorough Teaching in General Geography as a Preliminary to the Teaching of Commercial Geography," *Journal of the Manchester Geographical Society*, 1890, vol. 6; Parker, *Mackinder*, pp.95-96.
- (8) H. J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History," *The Geographical Journal*, London, April 1904, p. 422.
- (9) *Ibid.*, p. 421.
- (10) *Ibid.*, p. 422.
- (11) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, p. 72; James Fairgrieve, *Geography and World Power*, p. 103.
- (12) ستواجه الولايات المتحدة مصيرا ماثلا، إذ إن الحرب العالمية الثانية تركتها شبه سائلة تماما، في حين أن البنى التحتية في أوروبا، والاتحاد السوفيتي، والصين، واليابان تعرضت للدمار، مما منح أمريكا عقودا من التفوق الاقتصادي والسياسي.
- (13) Toynbee, *A Study of History*, abridgement of vols. 7-10 by D. C. Somervell (New York: Oxford University Press, 1946), pp. 151, 168.
- (14) Geoffrey Sloan, "Sir Halford J. Mackinder: The Heartland Theory Then and Now," in *Geopolitics, Geography and Strategy*, edited by Colin S. Gray and Geoffrey Sloan (London: Frank Cass, 1999), p. 19.
- (15) Kennedy, "The Pivot of History: The U.S. Needs to Blend Democratic Ideals with Geopolitical Wisdom."
- (16) Parker, *Mackinder*, p. 154.
- (17) Gerry Kearns, *Geopolitics and Empire: The Legacy of Halford Mackinder* (New York: Oxford University Press, 2009), p. 38.
- (18) Parker, *Mackinder*, p.121.
- (19) Daniel J. Mahoney, "Three Decent Frenchmen," *The National Interest*, Washington, Summer 1999; Franciszek Draus, *History, Truth and Liberty: Selected Writings of Raymond Aron* (Chicago: University of Chicago Press, 1985).
- (20) Grygiel, *Great Powers and Geopolitical Change*, p. 181; Raymond Aron, *Peace and War: A Theory of International Relations* (Garden City: Doubleday, 1966), pp. 197-98.
- (21) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, p. 2.
- (22) *Ibid.*, p. 1.
- (23) Parker, *Mackinder*, p. 160.
- (24) *Ibid.*, p. 163.

- (25) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, pp. 24–25, 28, 32; Parker, Mackinder, 122–23; Fairgrieve, *Geography and World Power*, pp. 60–62.
- (26) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, pp. 22, 38, 41, 46.
- (27) *Ibid.*, pp. 46, 48.
- (28) Brzezinski, *The Grand Chessboard*, p.31.
- (29) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, pp. 41–42, 47.
- (30) *Ibid.*, p. xviii, from introduction by Stephen V. Mladineo.
- (31) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, pp. 95–99, 111–12, 115; Cohen, *Geography and Politics in a World Divided*, pp. 85–86; James Fairgrieve, *Geography and World Power* (London: University of London Press, 1915).
- (32) Sloan, "Sir Halford J. Mackinder: The Heartland Theory Then and Now," p. 31.
- (33) Arthur Butler Dugan, "Mackinder and His Critics Reconsidered," *The Journal of Politics*, May 1962.
- (34) Brian W. Blouet, *Halford Mackinder: A Biography* (College Station: Texas A & M Press, 1987), pp. 150–51.
- (35) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, pp. 55, 78; Cohen, *Geography and Politics in a World Divided*, pp. 42–44.
- (36) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, pp. 64–65.
- (37) *Ibid.*, p.116.
- (38) *Ibid.*, pp. 74, 205.
- (39) *Ibid.*, p. 201.

الفصل الخامس

- (1) Robert Strausz-Hupé, *Geopolitics: The Struggle for Space and Power* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1942), pp. 48–53; Parker, Mackinder: *Geography as an Aid to Statecraft* (Oxford: Clarendon Press, 1982), pp. 178–80.
- (2) Strausz-Hupé, *Geopolitics*, pp. 59–60.
- (3) *Ibid.*, pp. 60–61, 68–69.
- (4) *Ibid.*, pp. 142, 154–55.
- (5) *Ibid.*, pp. 85, 101, 140, 197, 220.
- (6) Holger H. Herwig, "Geopolitik: Haushofer, Hitler and Lebensraum," in *Geopolitics: Geography and Strategy*, edited by Colin S. Gray and Geoffrey Sloan (London: Frank Cass, 1999), p. 233.
- (7) Brian W. Blouet, *Halford Mackinder: A Biography* (College Station: Texas A & M Press, 1987), pp. 190–91.
- (8) Strausz- Hupé, *Geopolitics*, p. 264.
- (9) *Ibid.*, p. 191.

- (10) Ibid., pp. 196, 218.
- (11) Paul Bracken, *Fire in the East: The Rise of Asian Military Power and the Second Nuclear Age* (New York: HarperCollins, 1999), p.30.

الفصل السادس

- (1) Brian W. Blouet, *Halford Mackinder: A Biography* (College Station: Texas A & M Press, 1987), p. 192.
- (2) Nicholas J. Spykman, "Geography and Foreign Policy I," *The American Political Science Review*, Los Angeles, February 1938; Francis P. Sempa, "The Geopolitical Realism of Nicholas Spykman," introduction to Nicholas J. Spykman, *America's Strategy in World Politics* (New Brunswick: Transaction Publishers, 2007).
- (3) Nicholas J. Spykman, *America's Strategy in World Politics: The United States and the Balance of Power* (New York: Harcourt, Brace, 1942), pp. xvii, xviii, 7, 18, 20-21, 2008 Transaction edition.
- (4) Ibid., pp. 42, 91; Robert Strausz-Hupé, *Geopolitics: The Struggle for Space and Power* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1942), p. 169; Halford J. Mackinder, *Democratic Ideals and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction* (Washington, DC: National Defense University, 1919, 1942), p. 202; Daniel J. Boorstin, *Hidden History: Exploring Our Secret Past* (New York: Vintage, 1987, 1989), p. 246; James Fairgrieve, *Geography and World Power*, pp. 18-19, 326-27.
- (5) Spykman, *America's Strategy in World Politics*, p. 89.
- (6) Ibid., pp. 49-50, 60.
- (7) Ibid., p. 50.
- (8) Ibid., pp. 197, 407.
- (9) Ibid., p. 182.
- (10) Nicholas John Spykman, *The Geography of the Peace*, edited by Helen R. Nicholl (New York: Harcourt, Brace, 1944), p. 43.
- (11) Mackinder, *Democratic Ideals and Reality*, p. 51.
- (12) W. H. Parker, *Mackinder: Geography as an Aid to Statecraft* (Oxford: Clarendon Press, 1982), p.195.
- (13) Henry A. Kissinger, *Nuclear Weapons and Foreign Policy* (New York: Doubleday, 1957), pp. 125, 127.
- (14) Spykman, *America's Strategy in World Politics*, pp. 135-37, 460, 469.
- (15) Ibid., p. 466.
- (16) Michael P. Gerace, "Between Mackinder and Spykman: Geopolitics, Containment, and After," *Comparative Strategy*, University of Reading, UK, 1991.
- (17) Spykman, *America's Strategy in World Politics*, p. 165.

- (18) Ibid., p. 166.
- (19) Ibid., p. 178; Albert Wohlstetter, "Illusions of Distance," *Foreign Affairs*, New York, January 1968.
- (20) Parker, Mackinder, p. 186.
- (21) Geoffrey Kemp and Robert E. Harkavy, *Strategic Geography and the Changing Middle East* (Washington, DC: Brookings Institution Press, 1997), p. 5.

الفصل السابع

- (1) A. T. Mahan, *The Problem of Asia: And Its Effect Upon International Policies* (London: Sampson Low, Marston, 1900), pp. 27–28, 42–44, 97, 161; Cohen, *Geography and Politics in a World Divided* (New York: Random House, 1963), pp. 48–49.
- (2) Robert Strausz-Hupé, *Geopolitics: The Struggle for Space and Power* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1942), pp. 253–54.
- (3) A. T. Mahan, *The Influence of Sea Power Upon History, 1660–1783* (Boston: Little, Brown, 1890), pp. 225–26, 1987 Dover edition.
- (4) Strausz-Hupé, *Geopolitics*, pp. 244–45.
- (5) Jon Sumida, "Alfred Thayer Mahan, Geopolitician," in *Geopolitics, Geography and Strategy*, edited by Colin S. Gray and Geoffrey Sloan (London: Frank Cass, 1999), pp. 53, 55, 59; Jon Sumida, *Inventing Grand Strategy and Teaching Command: The Classic Works of Alfred Thayer Mahan* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1997), pp. 41, 84.
- (6) Mahan, *The Influence of Sea Power Upon History*, p. 25.
- (7) Ibid., pp. iii, 8, 26–27, 50–52, 67.
- (8) Ibid., pp. iv–vi, 15, 20–21, 329.
- (9) Ibid., pp. 29, 138.
- (10) Ibid., pp. 29, 31, 33–34, 138; Eric Grove, *The Future of Sea Power* (Annapolis: Naval Institute Press, 1990), pp. 224–25.
- (11) Norman Angell, *The Great Illusion* (New York: Cosimo Classics, 1909, 2007), pp. 310–11.
- (12) James R. Holmes and Toshi Yoshihara, *Chinese Naval Strategy in the 21st Century: The Turn to Mahan* (New York: Routledge, 2008), p. 39.
- (13) Julian S. Corbett, *Principles of Maritime Strategy* (London: Longmans, Green and Co., 1911), pp. 87, 152–53, 213–14, 2004 Dover edition.
- (14) U.S. Navy, U.S. Marine Corps, U.S. Coast Guard, "A Cooperative Strategy for 21st Century Seapower," Washington, DC, and Newport, Rhode Island, October 2007.
- (15) John J. Mearsheimer, *The Tragedy of Great Power Politics* (New York: W. W. Norton, 2001), pp. 210, 213, 365.

الفصل الثامن

- (1) Paul Bracken, *Fire in the East: The Rise of Asian Military Power and the Second Nuclear Age* (New York: HarperCollins, 1999), pp. 33–34.
- (2) *Ibid.*, pp. xxv–xxvii, 73.
- (3) *Ibid.*, pp. 2, 10, 22, 24–25.
- (4) *Ibid.*, pp. 26–31.
- (5) *Ibid.*, pp. 37–38.
- (6) *Ibid.*, pp. 42, 45, 47–49, 63, 97, 113.
- (7) *Ibid.*, p.156.
- (8) *Ibid.*, p. 110.
- (9) Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History* (1377), translated by Franz Rosenthal, pp. 93, 109, 133, 136, 140, 1967 Princeton University Press edition.
- (10) R. W. Southern, *The Making of the Middle Ages* (New Haven: Yale University Press, 1953), pp. 12–13.
- (11) George Orwell, 1984 (New York: Harcourt, Brace, 1949), p. 124.
- (12) Thomas Pynchon, foreword to George Orwell, 1984 (New York: Penguin, 2003).
- (13) Oswald Spengler, *The Decline of the West*, translated by Charles Francis Atkinson (New York: Vintage, 1922, 2006), p.395.
- (14) Bracken, *Fire in the East*, pp. 123–24.
- (15) *Ibid.*, pp. 89, 91.
- (16) Jakub Grygiel, "The Power of Statelessness: The Withering Appeal of Governing," *Policy Review*, Washington, April-May 2009.
- (17) Randall L. Schweller, "Ennui Becomes Us," *The National Interest*, Washington, DC, December 16, 2009.

الفصل التاسع

- (1) Saul B. Cohen, *Geography and Politics in a World Divided* (New York: Random House, 1963), p. 157.
- (2) William Anthony Hay, "Geopolitics of Europe," *Orbis*, Philadelphia, Spring 2003.
- (3) Claudio Magris, *Danube* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1988, 1989), p. 18.
- (4) Barry Cunliffe, *Europe Between the Oceans: Themes and Variations: 9000 BC–AD 1000* (New Haven: Yale University Press, 2008), pp. vii, 31, 38, 40, 60, 318, 477.

- (5) Tony Judt, "Europe: The Grand Illusion," *New York Review of Books*, July 11, 1996.
- (6) Cunliffe, *Europe Between the Oceans*, p.372.
- (7) Hay, "Geopolitics of Europe."
- (8) Peter Brown, *The World of Late Antiquity: AD 150–750* (London: Thames & Hudson, 1971), pp. 11, 13, 20.
- (9) Henri Pirenne, *Mohammed and Charlemagne* (ACLS Humanities e-book 1939, 2008).
- (10) Fernand Braudel, *The Mediterranean: And the Mediterranean World in the Age of Philip II*, translated by Sian Reynolds (New York: Harper & Row, 1949), p. 75.
- (11) Cunliffe, *Europe Between the Oceans*, pp. 42–43.
- (12) Robert D. Kaplan, *Eastward to Tartary: Travels in the Balkans, the Middle East, and the Caucasus* (New York: Random House, 2000), p. 5.
- (13) Philomila Tsoukala, "A Family Portrait of a Greek Tragedy," *New York Times*, April 24, 2010.
- (14) Judt, "Europe: The Grand Illusion."
- (15) Jack A. Goldstone, "The New Population Bomb: The Four Mega-trends That Will Change the World," *Foreign Affairs*, New York, January–February 2010.
- (16) Hay, "Geopolitics of Europe."
- (17) Judt, "Europe: The Grand Illusion."
- (18) Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperatives* (New York: Basic Books, 1997), pp. 69–71.
- (19) Colin S. Gray, *Another Bloody Century: Future Warfare* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2005), p. 37.
- (20) Josef Joffe in conversation, Madrid, May 5, 2011, Conference of the Fundación para el Análisis y los Estudios Sociales.
- (21) Geoffrey Sloan, "Sir Halford Mackinder: The Heartland Theory Then and Now," in *Geopolitics: Geography and Strategy*, edited by Colin S. Gray and Geoffrey Sloan (London: Frank Cass, 1999), p. 20.
- (22) Steve LeVine, "Pipeline Politics Redux," *Foreign Policy*, Washington, DC, June 10, 2010; "BP Global Statistical Review of World Energy," June 2010.
- (23) Hay, "Geopolitics of Europe."
- (24) Halford J. Mackinder, *Democratic Ideals and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction* (Washington, DC: National Defense University, 1919, 1942), p. 116.

الفصل العاشر

- (1) Alexander Solzhenitsyn, August 1914, translated by Michael Glenny (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1971, 1972), p. 3.
- (2) Saul B. Cohen, Geography and Politics in a World Divided (New York: Random House, 1963), p. 211.
- (3) G. Patrick March, Eastern Destiny: Russia in Asia and the North Pacific (Westport, CT: Praeger, 1996), p. 1.
- (4) Philip Longworth, Russia: The Once and Future Empire from Pre-History to Putin (New York: St. Martin's Press, 2005), pp. 16–17.
- (5) March, Eastern Destiny, pp. 4–5; W. Bruce Lincoln, The Conquest of a Continent: Siberia and the Russians (New York: Random House, 1994), p. xx, 2007 Cornell University Press edition.
- (6) التتري من المسلمين السنة الناطقين بالتركية، والذين تضمنت الجيوش المغولية كثيرا منهم، مما أدى إلى استخدام التسمية بشكل متبادل.
- (7) March, Eastern Destiny, p. 18.
- (8) James H. Billington, The Icon and the Axe: An Interpretive History of Russian Culture (New York: Knopf, 1966), p. 11.
- (9) Ibid., pp. 18–19, 26.
- (10) Longworth, Russia, p. 1.
- (11) Lincoln, The Conquest of a Continent, p. 19.
- (12) Longworth, Russia, pp. 48, 52–53.
- (13) Robert Strausz-Hupé, The Zone of Indifference (New York: G. P. Putnam's Sons, 1952), p. 88.
- (14) Longworth, Russia, pp. 94–95; March, Eastern Destiny, p. 28.
- (15) Robert D. Kaplan, introduction to Taras Bulba, translated by Peter Constantine (New York: Modern Library, 2003).
- (16) Alexander Herzen, My Past and Thoughts, translated by Constance Garnett (Berkeley: University of California Press, 1968, 1982), p. 97.
- (17) Longworth, Russia, p. 200.
- (18) Denis J. B. Shaw, Russia in the Modern World: A New Geography (Oxford: Blackwell, 1999), pp. 230–32.
- (19) Ibid., pp. 5, 7; D. W. Meinig, "The Macrogeography of Western Imperialism," in Settlement and Encounter, edited by F. H. Gale and G. H. Lawson (Oxford: Oxford University Press, 1968), pp. 213–40.
- (20) Lincoln, The Conquest of a Continent, p. xix.
- (21) Longworth, Russia, p. 322.
- (22) Colin Thubron, In Siberia (New York: HarperCollins, 1999), pp. 99, 122.
- (23) Lincoln, The Conquest of a Continent, p. 57.

- (24) Ibid., pp. 89,395.
- (25) هناك، أيضا، مسألة ارتفاع درجة حرارة القطب الشمالي، التي من شأنها إذابة البحار المتجمدة التالية: الأبيض، وبارنتس، وكارا، ولابتييف، وبحر شرق سيبيريا، التي تصب فيها جميع أنهار سيبيريا الهائلة، مما يُطلق العنان للإمكانات الاقتصادية للمنطقة.
- (26) March, Eastern Destiny, pp. 51, 130.
- (27) Simon Saradzhyan, "Russia's Red Herring," ISN Security Watch, Zurich, May 25, 2010.
- (28) March, Eastern Destiny, p. 194.
- (29) Shaw, Russia in the Modern World, p. 31.
- (30) تضمنت الخرائط السوفييتية لأوروبا من الآن فصاعدا كلا من روسيا الأوروبية، وهي طريقة لرسم الخرائط تضمن ألا يُنظر إلى موسكو على أنها دخيلة؛ كما أنها جعلت دول أوروبا الشرقية تظهر كأنها أكثر مركزية، حيث أصبحت الجمهوريات السوفييتية مثل أوكرانيا ومولدوفا، في الواقع، تمثل أوروبا الشرقية الجديدة. المصدر:
- Jeremy Black, Maps and History: Constructing Images of the Past (New Haven: Yale University Press, 2009), p.151.
- (31) Shaw, Russia in the Modern World, pp. 22-23.
- (32) March, Eastern Destiny, pp. 237-38.
- (33) Saradzhyan, "Russia's Red Herring"
- (34) Zbigniew Brzezinski, The Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperative (New York: Basic Books, 1997), p. 98.
- (35) John Erickson, " 'Russia Will Not Be Trifled With': Geopolitical Facts and Fantasies," in Geopolitics, Geography and Strategy, edited by Colin S. Gray and Geoffrey Sloan (London: Frank Cass, 1999), pp. 242-43, 262.
- (36) Brzezinski, The Grand Chessboard, p. 110.
- (37) Dmitri Trenin, "Russia Reborn: Reimagining Moscow's Foreign Policy," Foreign Affairs, New York, November-December 2009.
- (38) Shaw, Russia in the Modern World, p. 248.
- (39) Trenin, "Russia Reborn."
- (40) Paul Bracken, Fire in the East: The Rise of Asian Military Power and the Second Nuclear Age (New York: HarperCollins, 1999), p.17.
- (41) W. H. Parker, Mackinder: Geography as an Aid to Statecraft (Oxford: Clarendon Press, 1982), p. 157.
- (42) Philip Stephens, "Putin's Russia: Frozen in Decline," Financial Times, London, October 14, 2011.
- (43) Paul Dibb, "The Bear Is Back," The American Interest, Washington, DC, November-December 2006.
- (44) Brzezinski, The Grand Chessboard, p. 46.

- (45) Richard B. Andres and Michael Kofman, "European Energy Security: Reducing Volatility of Ukraine-Russia Natural Gas Pricing Disputes," National Defense University, Washington, DC, February 2011.
- (46) Dibb, "The Bear Is Back."
- (47) Martha Brill Olcott, The Kazakhs (Stanford: Hoover Institution Press, 1987,1995), pp. 57-58.
- (48) Olivier Roy, The New Central Asia: The Creation of Nations (New York: New York University Press, 1997, 2000), pp. xiv-xvi, 8-9, 66-69, 178.
- (49) Andres and Kofman, "European Energy Security."
- (50) Olcott, The Kazakhs, p. 271.
- (51) Dilip Hiro, Inside Central Asia: A Political and Cultural History of Uzbekistan, Turkmenistan, Kazakhstan, Kyrgyzstan, Tajikistan, Turkey, and Iran (New York: Overlook Duckworth, 2009), pp. 205, 281, 293.
- (52) Martin C. Spechler and Dina R. Spechler, "Is Russia Succeeding in Central Asia?," Orbis, Philadelphia, Fall 2010.
- (53) James Brooke, "China Displaces Russia in Central Asia," Voice of America, November 16, 2010.
- (54) Olcott, The Kazakhs, p. 273.
- (55) Hiro, Inside Central Asia, p. 262.
- (56) Parker, Mackinder, p. 83.

الفصل الحادي عشر

- (1) H. J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History," The Geographical Journal, London, April 1904.
- (2) Halford J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction (Washington, DC: National Defense University, 1919, 1942), pp. 46-48, 203.
- (3) إن الصين، والتي تقع في المنطقة المعتدلة، يبلغ عدد سكانها 1.32 مليار نسمة وقد بلغ ناتجها المحلي الإجمالي 4,326 مليار دولار في العام 2008، في حين أن روسيا، التي تقع بين منطقة القطب الشمالي والمنطقة المعتدلة، يبلغ عدد سكانها 141 مليوناً كما بلغ ناتجها المحلي الإجمالي 1,601 مليار دولار في العام 2008. المصدر:
Simon Saradzhyan, "Russia's Red Herring," ISN Security Watch, Zurich, May 25, 2010.
- (4) John Keay, China: A History (London: HarperCollins, 2008), p. 13.
- (5) Ibid., p. 231.
- (6) Patricia Buckley Ebrey, China: The Cambridge Illustrated History (New York: Cambridge University Press, 1996), p. 108.

- (7) John King Fairbank and Merle Goldman, *China: A New History* (Cambridge: Harvard University Press, 1992, 2006), p.23.
- (8) M. Taylor Fravel, *Strong Borders, Secure Nation: Cooperation and Conflict in China's Territorial Disputes* (Princeton: Princeton University Press, 2008), pp. 41-42.
- (9) Jakub J. Grygiel, *Great Powers and Geopolitical Change* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006), p. 133.
- وبالإضافة إلى ذلك، فقد كتب أوين لاتي مور ما يلي: «من الواضح أنه كان هناك خط فاصل عند نقطة ما، بين البلدان والشعوب التي يمكن ضمها على نحو مفيد إلى الإمبراطورية الصينية وتلك التي لا يمكن ضمها. وكان هذا هو الخط الذي كان المقصود من سور الصين العظيم تعديده. المصدر:
- Owen Lattimore, "Origins of the Great Wall," *Geographical Review*, vol. 27, 1937.
- (10) Fairbank and Goldman, *China: A New History*, pp. 23, 25, 45.
- (11) Ebrey, *China*, p. 57.
- (12) Saul B. Cohen, *Geography and Politics in a World Divided* (New York: Random House, 1963), pp. 238-39.
- (13) Keay, *China*, maps pp. 8-9, 53.
- (14) Ebrey, *China*, p. 164.
- (15) Fairbank and Goldman, *China: A New History*, pp. 41-42.
- (16) عمل موقع بكين، كما كتب الجغرافي ت.ر. تريغير، على تلبية احتياجات أسرات يوان ومينغ وتشينغ حتى العصر الحديث من خلال موقعها المركزي بما فيه الكفاية، والذي مكنها من حكم الصين، كما أنه كان قريباً بما يكفي لحراسة أراضي السهوب الواقعة إلى الشمال والغرب. المصدر:
- T. R. Tregear, *A Geography of China* (London: Transaction, 1965, 2008), pp. 94-95.
- (17) The threat of "barbarian" invasions is a theme in the work of the late China hand Owen Lattimore. Owen Lattimore, "China and the Barbarians," in *Empire in the East*, edited by Joseph Barnes (New York: Doubleday, 1934).
- (18) Keay, *China*, p. 259.
- (19) Fairbank and Goldman, *China: A New History*, p. 109.
- (20) Ebrey, *China*, p.227.
- (21) "Map of Nineteenth Century China and Conflicts," www.fordham.edu/halsall, reprinted in *Reshaping Economic Geography* (Washington, DC: The World Bank, 2009), p. 195.
- (22) G. Patrick March, *Eastern Destiny: Russia in Asia and the North Pacific* (Westport, CT: Praeger, 1996), pp.234-35.
- (23) وضع نظرية المجتمعات الهيدروليكية hydraulic societies المؤرخ وعالم الصينيات الأمريكي- الألماني كارل فيتفوجل Wittfogel، الذي عاش في القرن العشرين، والذي أوضح

أنها تطورت أصلاً في الحضارات القديمة في وديان الأنهار، حيث توافرت العمالة الهائلة اللازمة لبناء منظومات الري الكبرى.

- (24) Fairbank and Goldman, *China: A New History*, p. 5.
- (25) كتب جوناثان د. سبنس Spence، الأستاذ بجامعة ييل، عن غالدان، وهو محارب من شعب الزونغار Zunghar الموالي للدلاي لاما في التبت، والذين انهزمت قواتهم في نهاية المطاف في شمال منغوليا الخارجية من قبل الجيش الغازي لأسرة تشينغ (المانشو) والذي قُدر عدد أفراد بنحو ثمانين ألفاً، وذلك في العام 1696. المصدر:
- Jonathan D. Spence, *The Search for Modern China* (New York: Norton, 1990), p. 67.
- (26) David Blair, "Why the Restless Chinese Are Warming to Russia's Frozen East," *Daily Telegraph*, London, July 16, 2009.
- (27) Spence, *The Search for Modern China*, p. 97.
- (28) Fitzroy Maclean, *Eastern Approaches* (New York: Little, Brown, 1949), p. 120.
- (29) Spence, *The Search for Modern China*, p. 13.
- (30) Owen Lattimore, "Inner Asian Frontiers: Chinese and Russian Margins of Expansion," *The Journal of Economic History*, Cambridge, England, May 1947.
- (31) Uttam Kumar Sinha, "Tibet's Watershed Challenge," *Washington Post*, June 14, 2010.
- (32) Edward Wong, "China Quietly Extends Footprints into Central Asia," *New York Times*, January 2, 2011.
- (33) S. Frederick Starr and Andrew C. Kuchins, with Stephen Benson, Elie Krakowski, Johannes Linn, and Thomas Sanderson, "The Key to Success in Afghanistan: A Modern Silk Road Strategy," Central Asia-Caucasus Institute and the Center for Strategic and International Studies, Washington, DC, 2010.
- (34) Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperatives* (New York: Basic Books, 1997), p. 167.
- (35) Dan Twining, "Could China and India Go to War over Tibet?," *ForeignPolicy.com*, Washington, DC, March 10, 2009.
- (36) Owen Lattimore, "Chinese Colonization in Manchuria," *Geographical Review*, London, 1932; Tregear, *A Geography of China*, p. 270.
- (37) Hillary Clinton, "America's Pacific Century," *Foreign Policy*, Washington, DC, November 2011.
- (38) Dana Dillon and John J. Tkacik Jr., "China's Quest for Asia," *Policy Review*, Washington, DC, December 2005-January 2006.
- (39) Robert S. Ross, "The Rise of Chinese Power and the Implications for the Regional Security Order," *Orbis*, Philadelphia, Fall 2010.
- (40) John J. Mearsheimer, *The Tragedy of Great Power Politics* (New York: W. W. Norton, 2001), p. 135.

- (41) M. Taylor Fravel, "Regime Insecurity and International Co-operation: Explaining China's Compromises in Territorial Disputes," *International Security*, Fall 2005.
- (42) Grygiel, *Great Powers and Geopolitical Change*, p. 170.
- (43) Spence, *The Search for Modern China*, p. 136.
- (44) James Fairgrieve, *Geography and World Power*, pp. 242-43.
- (45) James Holmes and Toshi Yoshihara, "Command of the Sea with Chinese Characteristics," *Orbis*, Philadelphia, Fall 2005.
- (46) Ross, "The Rise of Chinese Power and the Implications for the Regional Security Order" (see Ross's footnotes which accompany his quote); Andrew F. Krepinevich, "China's 'Finlandization' Strategy in the Pacific," *Wall Street Journal*, September 11, 2010.
- (47) Seth Cropsey, "Alternative Maritime Strategies," grant proposal; Robert S. Ross, "China's Naval Nationalism: Sources, Prospects, and the U.S. Response," *International Security*, Cambridge, Massachusetts, Fall 2009; Robert D. Kaplan, "How We Would Fight China," *Atlantic Monthly*, Boston, June 2005; Mark Helprin, "Why the Air Force Needs the F-22," *Wall Street Journal*, February 22, 2010.
- (48) Holmes and Yoshihara, "Command of the Sea with Chinese Characteristics."
- (49) Ross, "The Rise of Chinese Power and the Implications for the Regional Security Order."
- (50) Andrew Erickson and Lyle Goldstein, "Gunboats for China's New 'Grand Canals'? Probing the Intersection of Beijing's Naval and Oil Security Policies," *Naval War College Review*, Newport, Rhode Island, Spring 2009.
- (51) Nicholas J. Spykman, *America's Strategy in World Politics: The United States and the Balance of Power* (New York: Harcourt, Brace, 1948), p. xvi. The phrase first appeared in Nicholas J. Spykman and Abbie A. Rollins, "Geographic Objectives in Foreign Policy II," *The American Political Science Review*, August 1939.
- (52) سيكون هذا صحيحا بصفة خاصة إذا أُريد النجاح للقناة والجسر البري المقترحين للربط بين المحيطين الهندي والهادي.
- (53) Spykman, *America's Strategy in World Politics*, p. 60.
- (54) Andrew S. Erickson and David D. Yang, "On the Verge of a Game-Changer: A Chinese Antiship Ballistic Missile Could Alter the Rules in the Pacific and Place U.S. Navy Carrier Strike Groups in Jeopardy," *Proceedings*, Annapolis, Maryland, May 2009.
- (55) Jacqueline Newmyer, "Oil, Arms, and Influence: The Indirect Strategy Behind Chinese Military Modernization," *Orbis*, Philadelphia, Spring 2009.
- (56) Howard W. French, "The Next Empire," *The Atlantic*, May 2010.
- (57) Pat Garrett, "Indian Ocean 21," November 2009.

- (58) Julian S. Corbett, *Principles of Maritime Strategy* (London: Longmans, Green, 1911), pp. 213–214, 2004 Dover edition.
- (59) Robert S. Ross, "The Geography of the Peace: East Asia in the Twenty-First Century," *International Security*, Cambridge, Massachusetts, Spring 1999.
- (60) Mearsheimer, *The Tragedy of Great Power Politics*, pp. 386, 401–2.

الفصل الثاني عشر

- (1) James Fairgrieve, *Geography and World Power*, p. 253.
- (2) K. M. Panikkar, *Geographical Factors in Indian History* (Bombay: Bharatiya Vidya Bhavan, 1954), p. 41.
- ثمة عامل محدّد في ما يتعلق بأهمية هذه الأنهار وهو أنها، كما كتب بانيكار، «تندفق عبر المرتفعات وليس الوديان، وبالتالي لا تنشر مياهها المخصّبة على الريف». (ص 37).
- (3) Fairgrieve, *Geography and World Power*, pp. 253–54.
- (4) H. J. Mackinder, *Eight Lectures on India* (London: Visual Instruction Committee of the Colonial Office, 1910), p. 114.
- (5) Burton Stein, *A History of India* (Oxford: Blackwell, 1998), pp. 6–7.
- (6) انتقلت الفارسية إلى الهند كلغة أدبية في القرن الثاني عشر، مع ترسخ دورها الرسمي في القرن السادس عشر.
- (7) Panikkar, *Geographical Factors in Indian History*, p. 21.
- (8) Nicholas Ostler, *Empires of the Word: A Language History of the World* (New York: HarperCollins, 2005), p. 223.
- (9) André Wink, *Al-Hind: The Making of the Indo-Islamic World*, vol. 1: *Early Medieval India and the Expansion of Islam 7th–11th Centuries* (Boston: Brill Academic Publishers, 1996), Chapter 4.
- (10) Stein, *A History of India*, pp. 75–76.
- (11) Adam Watson, *The Evolution of International Society: A Comparative Historical Analysis* (London: Routledge, 1992), pp. 78–82.
- (12) Stein, *A History of India*, p. 121.
- (13) Fairgrieve, *Geography and World Power*, p. 261.
- (14) Panikkar, *Geographical Factors in Indian History*, p. 43.
- (15) Fairgrieve, *Geography and World Power*, p. 262.
- (16) Robert D. Kaplan, *Monsoon: The Indian Ocean and the Future of American Power* (New York: Random House, 2010), pp. 119, 121.
- (17) Panikkar, *Geographical Factors in Indian History*, pp. 40, 44.
- (18) Kaplan, *Monsoon*, pp. 122–23; John F. Richards, *The New Cambridge History of India: The Mughal Empire* (New York: Cambridge University Press, 1993), pp. 239, 242.
- (19) Richard M. Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204–1760*

(Berkeley: University of California Press, 1993), pp. xxii-xxiii, 313.

- (20) George Friedman, "The Geopolitics of India: A Shifting, Self-Contained World," Stratfor, December 16, 2008.

(21) تكاد العلاقاتان الجغرافية والثقافية بين الهند وإيران تكونان بالقوة نفسها.

(22) تعني كلمة البنجاب «الأنهار الخمسة»، وكلها من روافد نهر السند: بياز Beas، وتشيناب Chenab، وجيلوم Jhelum، ورافي Ravi، وسوتليج Sutlej.

- (23) André Wink, *Al-Hind: The Making of the Indo-Islamic World*, vol. 2: *The Slave Kings and the Islamic Conquest, 11th–13th Centuries* (Leiden: Brill, 1997), pp. 1, 162; Muzaffar Alam, *The Crisis of Empire in Mughal North India: Awadh and the Punjab, 1707–1748* (New Delhi: Oxford University Press, 1986), pp. 11, 141, 143.

- (24) Aitzaz Ahsan, *The Indus Saga and the Making of Pakistan* (Karachi: Oxford University Press, 1996), p. 18.

- (25) S. Frederick Starr and Andrew C. Kuchins, with Stephen Benson, Elie Krakowski, Johannes Linn, and Thomas Sanderson, "The Key to Success in Afghanistan: A Modern Silk Road Strategy," Central Asia–Caucasus Institute and the Center for Strategic and International Studies, Washington, DC, 2010.

- (26) Friedman, "The Geopolitics of India."

- (27) Fairgrieve, *Geography and World Power*, p. 253.

الفصل الثالث عشر

- (1) William H. McNeill, *The Rise of the West: A History of the Human Community* (Chicago: University of Chicago Press, 1963), p. 167.

- (2) Marshall G. S. Hodgson, *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*, vol. 1: *The Classical Age of Islam* (Chicago: University of Chicago Press, 1974), pp. 50, 60, 109.

- (3) John King Fairbank and Merle Goldman, *China: A New History* (Cambridge: Harvard University Press, 1992, 2006), pp. 40–41.

- (4) Geoffrey Kemp and Robert E. Harkavy, *Strategic Geography and the Changing Middle East* (Washington, DC: Brookings Institution Press, 1997), pp. 15–17.

(5) تضع اكتشافات وتطورات حديثة بشأن رمال القطران والرواسب الحجرية، خصوصاً في أمريكا الشمالية، هذه الإحصائيات موضع التساؤل.

- (6) Charles M. Doughty, *Travels in Arabia Deserta* (Cambridge: Cambridge University Press, 1888), vol. 1, p. 336, 1979 Dover edition.

- (7) Bruce Riedel, "Brezhnev in the Hejaz," *The National Interest*, Washington, DC, September–October 2011.

- (8) Alexei Vassiliev, *The History of Saudi Arabia* (New York: New York University Press, 2000), pp. 29, 79–80, 88, 136, 174, 177, 182; Robert Lacey, *The Kingdom* (London: Hutchinson, 1981), p. 221.

- (9) Peter Mansfield, *The Arabs* (New York: Penguin, 1976), pp. 371-72.
- (10) Kemp and Harkavy, *Strategic Geography and the Changing Middle East*, map, p. 113.
- (11) Freya Stark, *The Valleys of the Assassins: And Other Persian Travels* (London: John Murray, 1934).
- (12) Peter Brown, *The World of Late Antiquity, AD 150-750* (London: Thames & Hudson, 1971), p. 160.
- (13) *Ibid.*, p. 163.
- (14) W. Barthold, *An Historical Geography of Iran* (Princeton: Princeton University Press, 1903, 1971, 1984), pp. x-xi, 4.
- (15) Nicholas Ostler, *Empires of the Word: A Language History of the World* (New York: HarperCollins, 2005), p. 31.
- (16) Michael Axworthy, *A History of Iran: Empire of the Mind* (New York: Basic Books, 2008), p. 3.
- (17) Hodgson, *The Classical Age of Islam*, p. 125.
- (18) Axworthy, *A History of Iran*, p. 34.
- (19) *Ibid.*, p. 78.
- (20) Philip K. Hitti, *The Arabs: A Short History* (Princeton: Princeton University Press, 1943), p. 109.
- (21) Brown, *The World of Late Antiquity*, pp. 202-3.
- (22) Axworthy, *A History of Iran*, p. 120.
- (23) Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, abridgement of vols. 1-6 by D. C. Somervell (New York: Oxford University Press, 1946), p. 346.
- (24) Dilip Hiro, *Inside Central Asia: A Political and Cultural History of Uzbekistan, Turkmenistan, Kazakhstan, Kyrgyzstan, Tajikistan, Turkey, and Iran* (New York: Overlook Duckworth, 2009), p. 359.
- (25) Olivier Roy, *The Failure of Political Islam*, translated by Carol Volk (Cambridge: Harvard University Press, 1992, 1994), pp. 168-70.
- (26) Marshall G. S. Hodgson, *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*, vol. 3: *The Gunpowder Empires and Modern Times* (Chicago: University of Chicago Press, 1974), pp. 22-23.
- (27) Roy, *The Failure of Political Islam*, p. 168.
- (28) James J. Morier, *The Adventures of Hajji Baba of Ispahan* (London: John Murray, 1824), p. 5, 1949 Cresset Press edition.
- (29) Roy, *The Failure of Political Islam*, p. 172.
- (30) *Ibid.*, 174-75.
- (31) Vali Nasr, *Forces of Fortune: The Rise of the New Muslim Middle Class and What It Will Mean for Our World* (New York: Free Press, 2009).

- (32) Roy, *The Future of Political Islam*, p. 193.
- (33) M. K. Bhadrakumar, "Russia, China, Iran Energy Map," *Asia Times*, 2010.
- (34) Axworthy, *A History of Iran*, p. 162.
- (35) Robert Baer, "Iranian Resurrection," *The National Interest*, Washington, DC, November–December 2008.
- (36) Robert D. Kaplan, *The Ends of the Earth: A Journey at the Dawn of the 21st Century* (New York: Random House, 1996), p. 242.

الفصل الرابع عشر

- (1) George Friedman, *The Next 100 Years: A Forecast for the 21st Century* (New York: Doubleday, 2009), p. 7.
- (2) William Langer and Robert Blake, "The Rise of the Ottoman Turks and Its Historical Background," *American Historical Review*, 1932; Jakub J. Grygiel, *Great Powers and Geopolitical Change* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006), p. 96.
- (3) Herbert Adams Gibbons, *The Foundation of the Ottoman Empire* (New York: Century, 1916); Grygiel, *Great Powers and Geopolitical Change*, pp. 96–97, 101.
- (4) Dilip Hiro, *Inside Central Asia: A Political and Cultural History of Uzbekistan, Turkmenistan, Kazakhstan, Kyrgyzstan, Tajikistan, Turkey, and Iran* (New York: Overlook Duckworth, 2009), p. 89; Dilip Hiro, "The Islamic Wave Hits Turkey," *The Nation*, June 28, 1986.
- (5) Hiro, *Inside Central Asia*, pp. 85–86.
- (6) Robert D. Kaplan, *Eastward to Tartary: Travels in the Balkans, the Middle East, and the Caucasus* (New York: Random House, 2000), p. 118.
- (7) Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York: Simon & Schuster, 1996), pp. 85, 125, 177.
- (8) Erkan Turkmen, *The Essence of Rumi's Masnevi* (Konya, Turkey: Misket, 1992), p. 73.
- (9) Marc Champion, "In Risky Deal, Ankara Seeks Security, Trade," *Wall Street Journal*, May 18, 2010.
- (10) Geoffrey Kemp and Robert E. Harkavy, *Strategic Geography and the Changing Middle East* (Washington, DC: Brookings Institution Press, 1997), p. 105.
- (11) Freya Stark, *Islam To-day*, edited by A. J. Arberry and Rom Landau (London: Faber & Faber, 1943).
- (12) Robert D. Kaplan, "Heirs of Sargons," *The National Interest*, Washington, DC, July–August 2009.
- (13) Georges Roux, *Ancient Iraq* (London: Allen & Unwin, 1964).
- (14) Adeed Dawisha, *Iraq: A Political History from Independence to Occupation* (Princeton: Princeton University Press, 2009), p. 4.

- (15) Ibid., p. 5.
- (16) Ibid., pp. 286–87.
- (17) Philip K. Hitti, *History of Syria: Including Lebanon and Palestine* (New York: Macmillan, 1951), pp. 3–5.
- (18) Nibras Kazimi, “Move Assad: Could Jihadists Overthrow the Syrian Government?,” *New Republic*, June 25, 2010.
- (19) Michael Young, “On the Eastern Shore,” *Wall Street Journal*, April 29, 2011.
- (20) Franck Salameh, “Assad Dynasty Crumbles,” *The National Interest*, Washington, DC, April 27, 2011; see, too, Philip Mansel, *Levant* (New Haven: Yale University Press, 2011).
- (21) من سوء الحظ، على الرغم من الوعد الذي ينضح به شعر أدونيس، فقد تبين أنه يمثل خيبة أمل بالنسبة للمتظاهرين في الأيام الأولى من الربيع العربي، رافضا تماما أن ينحاز إلى معارضي بشار الأسد. ومع ذلك، فلا يزال شعره يدل على وجود سورية انتقائية مبنية على مزيج من الثقافات. المصدر:
- Robert F. Worth, “The Arab Intellectuals Who Didn’t Roar,” *New York Times*, October 30, 2011.
- (22) Benjamin Schwarz, “Will Israel Live to 100?,” *The Atlantic*, May 2005.

الفصل الخامس عشر

- (1) Fernand Braudel, *The Mediterranean: And the Mediterranean World in the Age of Philip II*, vols. 1 and 2, translated by Sian Reynolds (New York: Harper & Row, 1949, 1972, 1973).
- (2) Ibid., vol. 1, pp. 243, 245–46.
- (3) H. R. Trevor-Roper, “Fernand Braudel, the Annales, and the Mediterranean,” *The Journal of Modern History*, University of Chicago Press, December 1972.
- (4) Barry Cunliffe, *Europe Between the Oceans: Themes and Variations: 9000 BC–AD 1000* (New Haven: Yale University Press, 2008), pp. 17–18.
- (5) Jakub J. Grygiel, *Great Powers and Geopolitical Change* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006), p. 17.
- (6) Michael Lind, “America Under the Caesars,” *The National Interest*, Washington, July–August 2010.
- (7) Grygiel, *Great Powers and Geopolitical Change*, p. 123.
- (8) Ibid., pp. 63, 79–83.
- (9) Francis G. Hutchins, *The Illusion of Permanence: British Imperialism in India* (Princeton: Princeton University Press, 1967), pp. 196–97; Niall Ferguson, *Empire: The Rise and Demise of the British World Order and the Lessons for Global Power* (New York: Basic Books, 2003), pp. 137–38, 151–53; Robert D. Kaplan, *Imperial Grunts: The American Military on the Ground* (New York: Random House, 2005), p. 368.

- (10) Edward N. Luttwak, *The Grand Strategy of the Roman Empire: From the First Century A.D. to the Third* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1976), pp. 192–94.
 - (11) Edward N. Luttwak, *The Grand Strategy of the Byzantine Empire* (Cambridge: Harvard University Press, 2009).
 - (12) W.H. Parker, *Mackinder: Geography as an Aid to Statecraft* (Oxford: Clarendon Press, 1982), p. 127; Robert Strausz-Hupé, *Geopolitics: The Struggle for Space and Power* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1942), p. 240.
 - (13) Bernard DeVoto, *The Course of Empire* (Boston: Houghton Mifflin, 1952), p. xxxii, 1989 American Heritage Library edition.
 - (14) David M. Kennedy, "Can We Still Afford to Be a Nation of Immigrants?," *Atlantic Monthly*, November 1996.
 - (15) Joel Kotkin, "The Rise of the Third Coast: The Gulf's Ascendancy in U.S.," *Forbes.com*, June 23, 2011.
 - (16) Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, abridgement of vols. 1–6 by D. C. Somervell (New York: Oxford University Press, 1934, 1946), p. 10.
 - (17) Henry Bamford Parkes, *A History of Mexico* (Boston: Houghton Mifflin, 1960), pp. 3–4, 11.
 - (18) David J. Danelo, "The Many Faces of Mexico," *Orbis*, Philadelphia, Winter 2011.
 - (19) Jackson Diehl, "The Crisis Next Door: U.S. Falls Short in Helping Mexico End Its Drug War," *Washington Post*, July 26, 2010.
 - (20) Mackubin T. Owens, "Editor's Corner," *Orbis*, Philadelphia, Winter 2011.
 - (21) Robert C. Bonner, "The New Cocaine Cowboys: How to Defeat Mexico's Drug Cartels," *Foreign Affairs*, New York, July–August 2010.
 - (22) Robert D. Kaplan, "Looking the World in the Eye: Profile of Samuel Huntington," *Atlantic Monthly*, December 2001.
 - (23) Samuel P. Huntington, *Who Are We? The Challenges to America's National Identity* (New York: Simon & Schuster, 2004).
- اعتمد كتاب هنتنغتون بدرجة محدودة على كتابي، والذي طرح فرضية مماثلة.
- Robert D. Kaplan, *An Empire Wilderness: Travels into America's Future* (New York: Random House, 1998), Chapters 10–13.
- (24) Huntington, *Who Are We?*, pp. 39, 59, 61, 63, 69, 106.
 - (25) *Ibid.*, p. 221.
 - (26) Peter Skerry, "What Are We to Make of Samuel Huntington?," *Society*, New York, November–December 2005.
 - (27) Kennedy, "Can We Still Afford to Be a Nation of Immigrants?"
 - (28) Carlos Fuentes, *The Buried Mirror: Reflections on Spain and the New World* (Boston: Houghton Mifflin, 1992), p. 343.

- (29) Huntington, *Who Are We?*, pp.115–16, 229–30, 232, 238; Peter Skerry, *Mexican Americans: The Ambivalent Minority* (Cambridge: Harvard University Press, 1993), pp. 21–22, 289.
- (30) Huntington, *Who Are We?*, pp.246–47; *The Economist*, London, July 7, 2001.
- (31) Ted Galen Carpenter, “Escape from Mexico,” *The National Interest Online*, Washington, June 30, 2010.
- (32) David Danelo, “How the U.S. and Mexico Can Take Back the Border—Together,” *Foreign Policy Research Institute*, Philadelphia, April 2010.
- (33) Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, abridgement of vols. 7–10 by D. C. Somervell (New York: Oxford University Press, 1957), p. 124.
- (34) *Ibid.*, pp. 15–16, 75.
- (35) Kaplan, *An Empire Wilderness*, p. 14. See the bibliography in that book.
- (36) Stratfor.com, “The Geopolitics of the United States, Part 1: The Inevitable Empire,” Austin, Texas, August 25, 2011.
- (37) Saul B. Cohen, *Geography and Politics in a World Divided* (New York: Random House, 1963), p. 95.
- (38) James Fairgrieve, *Geography and World Power*, p. 329.
- (39) Toynbee, *A Study of History*, vols. 7–10, p. 173.
- (40) Nicholas John Spykman, *The Geography of the Peace*, edited by Helen R. Nicholl (New York: Harcourt, Brace, 1944), p. 45.
- (41) Robert Strausz-Hupé, *The Zone of Indifference* (New York: G. P. Putnam’s Sons, 1952), p. 64.

المؤلف في سطور

روبرت د. كابلان

- ولد في العام 1952 في مدينة نيويورك، وتخرج في العام 1973 من جامعة كونيكتيكت.
- سافر ما بين عامي 1973 و 1974 في جميع أنحاء أوروبا والشرق الشيوعي وأجزاء من الشرق الأدنى؛ وفي العام 1975 غادر الولايات المتحدة، حيث عمل مراسلا صحافيا في جميع أنحاء العالم العربي ومنطقة البحر المتوسط، حيث قضى فترة 16 عاما خارج الولايات المتحدة.
- ألف خمسة عشر كتابا من أكثر الكتب مبيعا حول الشؤون الدولية والسفر، وتُرجمت إلى العديد من اللغات.
- نُشرت له مقالات في عديد من الصحف الأميركية المرموقة، وكذلك في جميع المجلات الرئيسية حول الشؤون الخارجية.
- عمل مستشارا لفوج القوات الخاصة في الجيش الأمريكي، وسلاح الجو الأمريكي، ومشاة البحرية الأمريكية.
- حاضر في كليات الحرب العسكرية، ومكتب التحقيقات الفدرالي، ووكالة الأمن القومي، وقيادة الأركان المشتركة في البنتاغون، ووكالة الاستخبارات الدفاعية، ووكالة المخابرات المركزية، وفي العديد من الجامعات الكبرى، والمنتديات التجارية العالمية.
- في العام 2009، عينه وزير الدفاع روبرت غيتس عضوا في مجلس السياسات الدفاعية في البنتاغون، والذي يقدم المشورة إلى الوزير بشأن القضايا الرئيسية، واستمرت عضويته في المجلس حتى العام 2011.
- اختارته مجلة السياسة الخارجية في عامي 2011 و 2012 واحدا من بين «أفضل مائة مفكر عالمي».

المترجم في سطور

د. إيهاب عبدالرحيم علي

- وُلد في مصر عام 1965، ويحمل الجنسيتين المصرية والكندية.
- تخرج في كلية الطب، جامعة أسيوط (مصر)، بمرتبة الشرف عام 1988.

■ حاصل على العديد من شهادات الدبلوم والماجستير في الطب والإعلام الصحي والترجمة من جامعات مختلفة.

■ مترجم معتمد وعضو لجنة اللغات الأجنبية بالجمعية الكندية للمترجمين بمقاطعة أونتاريو، بالإضافة إلى اضطراره بتقييم مستوى المترجمين المتقدمين لاختبارات «المترجم المعتمد إلى اللغة العربية» بكل المقاطعات الكندية.

■ أشرف على ترجمة وتحرير عدد كبير من الكتب، والمعاجم، والمقالات الطبية والعلمية والاقتصادية.

■ شارك في تأليف ثلاثة كتب هي : ثورات في الطب والعلوم (كتاب العربي رقم 36 - 1999)؛ والثقافة العلمية واستشراف المستقبل العربي (كتاب العربي رقم 67 - 2007)؛ ودليل الإعلامي العلمي العربي (الرابطة العربية للإعلاميين العلميين، مصر، 2008).

■ ترجم لسلسلة «عالم المعرفة» مجموعة من الكتب منها: «البحث عن حياة على المريخ» (العدد 288)، «الطاقة للجميع» (العدد 321)، «نحو شركات خضراء» (العدد 329)، «العولمة والثقافة» (العدد 354)، «يقظة الذات» (العدد 375)، «لماذا تتحارب الأمم» (العدد 403)، إلى جانب العديد من الكتب المهمة التي صدرت عن مؤسسات ثقافية عربية أخرى.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978 .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار .

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبلات .

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الأدب العالمية - علم اللغة .

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) - الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية .

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحصر سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر .

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط ، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته . وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة

من الكتاب بلغته الأصلية ، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب ، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة ، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط . والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها . وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق .

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع - المؤلف أو المترجم - تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي ، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلساً عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي ، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (ويحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي) ، بالإضافة إلى مائة وخمسين ديناراً كويتياً مقابل تقديم المخطوطة - المؤلف والمترجمة - من نسختين مطبوعتين .

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	المنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية للتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرانكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص ب 372	+202 25782700- 25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة المغربية الأفرقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص ب 13683 - زنقة سجلماسه - بلفدير - ص ب 13008	+212 522249200	+212 522249214
تونس	الشركة التونسية للمصحافة	تونس - ص ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نمنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سمعد - بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	+967 2/3201901	+967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال الملي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+962 65337733
البحرين	مؤسسة الأهم للنشر	—	+973 17 617733	—
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العنينة - سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص ب 3488	+974 4557809/10/11	+974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص ب 1314	+970 22980800	+970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	+2491 83242702	+2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	—	+964 700776512 +964 780662019	—
نيويورك	Media Marketing	Long Island City, NY 11101 - 3258	+1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+44 2087499828 +44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	—	+218 217297779	—

تنويه

للاطلاع على قائمة كتب السلسلة انظر عدد
ديسمبر (كانون الأول) من كل سنة ، حيث توجد
قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة
في السلسلة منذ يناير 1978.

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية
الاشتراكات	

دولة الكويت

للأفراد	15 د . ك
للمؤسسات	25 د . ك

دول الخليج

للأفراد	17 د . ك
للمؤسسات	30 د . ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقداً أو بشيك باسم المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ
في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 152 / 153 / 193 / 194 / 195 / 196

**قسمة اشتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب**

سلسلة عالم المعرفة	الثقافة العالمية	عالم الفكر	إبداعات عالمية	جريدة الفنون
دك	دك	دك	دك	دك
25	12	12	20	12
15	6	6	10	8
30	16	16	24	36
17	8	8	12	24
100	50	40	100	48
50	25	20	50	36
50	30	20	50	36
25	15	10	25	24

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:
العنوان:
اسم المطبوعة:
مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:
نقدا / شيك رقم:
التوقيع:
التاريخ: 20 / / م

هذا الكتاب...

في هذا الكتاب المثير، يطرح المؤلف منظوراً جديداً لعرض الاضطرابات العالمية، وفهم ما ينتظر القارات والبلدان في جميع أنحاء العالم في المستقبل. وفي هذا الكتاب يبني المؤلف على أفكار، واكتشافات، ونظريات كبار الجغرافيين والمفكرين الجيوسياسيين في الماضي القريب والبعيد، وذلك للنظر إلى الوراء حيث المحاور الحاسمة للتاريخ، ومن ثم يستشرف مستقبل الساحة العالمية المتطورة دوماً.

يتتبع الكتاب تاريخ النقاط الساخنة في العالم من خلال دراسة مناخها، وطبوغرافيتها، ومدى تقاربها من الأراضي المحاصرة الأخرى؛ فعلى سبيل المثال، أدى المناخ الذي لا يرحم للسهوب الروسية والغطاء النباتي المحدود إلى صنع رجال يتميزون بالصلابة والقسوة، ومصممين على إحداث الدمار، في حين قام خبراء الجغرافيا السياسية النازيون بتشويه الجغرافيا السياسية تماماً، من خلال الظن بأن ثمة وطناً ألمانياً أكبر يمكنه ابتلاع تلك المساحة من الكرة الأرضية التي تحتلها الإمبراطورية البريطانية والاتحاد السوفييتي معاً.

وبعد ذلك، يطبق المؤلف الدروس المستفادة على الأزمات الحالية في كل من أوروبا، وروسيا، والصين، وشبه القارة الهندية، وتركيا، وإيران، والشرق الأوسط العربي. وتمثلت نتيجة ذلك في الوصول إلى تفسير شمولي للدورة المقبلة من الصراع في جميع أنحاء أوراسيا. يشرح الكتاب كيف يمكننا أن نفهم المستقبل في سياق درجة الحرارة، وتخصيص الأراضي، والثوابت المادية الأخرى. وعلى سبيل المثال، نجد أن الصين، التي لا يمكنها إطعام سوى 23 في المائة فقط من شعبها من الأرض التي لا تزيد نسبة الأراضي الصالحة للزراعة فيها على 7 في المائة قد سعت إلى الحصول على الطاقة والفلزات والمعادن من الأنظمة الشديدة مثل بورما، وإيران، وزيمبابوي، مما وضعها في صراع أخلاقي مع الولايات المتحدة. ومن ناحية أخرى، فإن حدود أفغانستان التي يسهل اختراقها تجعل منها الطريق الرئيسي لغزو الهند، وقاعدة خلفية حيوية لباكستان، وهي العدو الرئيسي للهند. أما إيران، فستستغل ميزة كونها الدولة الوحيدة التي تمتد عبر كل المناطق المنتجة للطاقة في الخليج العربي وبحر قزوين. وأخيراً، يفترض المؤلف أن الولايات المتحدة قد تندم على التورط في الصراعات البعيدة مع العراق وأفغانستان، بدلا من أن تهتم بجارتها المباشرة، المكسيك، التي توشك على التحول إلى دولة شبه فاشلة، بسبب المذابح التي تقوم بها عصابات المخدرات.

يقدم الكتاب رداً متبصراً على المفكرين الذين يشيرون إلى أن العولمة ستنتصر جغرافياً، ومن ثم يُظهر كيف يمكن للوقائع الخالدة والحقائق الطبيعية أن تساعد في منع وقوع الكوارث التي تلوح في أفق القرن الحالي.

نم احاطه الشرف بواحدة

مكتبة عمك

ask2pdf.blogspot.com